المركز القومى للترجمة



ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

الجزء الأول - المجلد الثانى

الطبعة الثانية

تأليف: تشارلز م. دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم

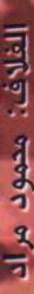
2/ 879





مع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه " تشارلز دوتى " الذى اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم، حيث عاش فى صحرائها قرابة عامين بين 1876 و 1878 متنقلاً بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم، ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى صحراء الجزيرة العربية أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة فى محتواها شملت آثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها. وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ رحلاته بصبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أنه يخوض فى تفاصيل دقيقة ، بل كثيراً ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية المهمة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكى يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسى.

ومع أن رحلة " دوتى " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية فإنها تميزت ، بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد تكون حقيقة أن كثيراً من الرحالة الأوربيين الذين سبقوا " تشارلز دوتى " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، لكنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفصيلات حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع معايشته لهم خلال رحلته.



ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الأول - المجلد الثانى)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٧٩ / ٢
- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج١، مج٢)
- تشارلز م. دوتى
- صبرى محمد حسن
- جمال زكريا قاسم
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Travels in Arabia Deserta

By: Charles Doughty

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ ـ ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الأول – المجلد الثانى)

تأليف: تشارلز م. دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

م. دوتى، تشارلز
ترحال فى صحراء الجزيرة العربية(ج١_مج٢)، تأليف: تشارلز م. دوتى؛ ترجمة: صبرى محمد حسن؛ مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم. ط٢ – القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٤٨١ ص؛ ٢٤ سم
١- شبه الجزيرة العربية – وصف ورحلات
٢- الرحلات العلمية
٣- الصحراء الغربية وصف ورحلات
أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)
ب- قاسم، جمال زكريا (مراجع ومقدم)
ج- العنوان ٩١٥,٣٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٤
الترقيم الدولى: 2 - 189 - 479 - 977 -978
طبع بمطابع صحوة

المحتـــويات

الجزء الأول (المجلد الثانى)

الفصل الحادى عشر

الفكارة يتجولون هاربين فى أديرة أخرى

البدو يخيمون فى الليل بلا خيام . أطفال عـراة فى البرد . مسيرة إجبارية . لا يسأمون ركوب الجمال . جبل بيرد . عظمة غروب الشمس وجلاله فى الصحراء . جفاف ضروع ماشية الألبان بعد الرحلات الطويلة . التخييم داخل حدود البشر . ضياع صبى من الرعاة . نبات كف مرحاب . التنقل والتخييم . بعض بقايا الاحتلال القديم . الركائز الحجرية فى الصحراء الخالية . دروب الماشية العامة . زياره تمثال أبى زيد . مخلوقات الصحراء . البومة كانت زوجة بدوية مترحلة تبحث عن طفلها الضائع . فطور من الطُرخشقُون . رعاة كرماء . أبو زيد وزوجته عَليَّة . اكتشاف "ماء الصخرة" . نبات الثئان أو عنب الثعلب . صبيان الرعى . أقراس الشيوخ . قُبَيْل المطر . خيم البدو فى النفود . رمال سبر الفور . "قهوة النصارى" . لو يصبح الشاى نبيذًا . دعوه حرفة لشرب الشاى . الفرس التى تُرضع غير مُهْرها . الخيول العربيه لطيفة مثل العائلة البدوية المترحلة . حدوات الخيول . قتل الفرس رميا بالرصاص . زيد يقوم بدور الصلوبى . ينظرون إلى الكتابة بإعجاب فريد . التجار البدو يأتون من الجوف . البدو يسأمون حياة الحاجة والعوز فى الصحراء . حزن البدو وغمهم . الرجال والنساء مغرمون بالتبغ . بائع دُخَّان (تبغ) . ابتزازه الدفين يثير غضب زيد . "الرجل يجب ألا يدخن التبغ لثلاثه أشياء (كلمات أحد البدو الذى يؤدى خدمات عامة) . القبيله مقسمة إلى معسكرين . نبات السمح . الخبز البّرى فى البرية . النصرانى يتعرض لخطر حيَّة . "قرَّاء" العزائم (السحرية) . رباط الأوعية الدموية غير معروف . يبحث عن الطب ذلك الذى يشفط الجرح السام الناتج عن عض الحية . أحجار الدم ، أحجار الثعابين ،

الأحجار الكريمة . عيال عم . "أنا الرب ربك" . النزاعات فيما بينهم . حكومة شيوخ البدو الرحل الحكيمة (الرشيدة) . إصابة قبلي بجرح في نزاع . هل الفهجات هم يهود خيبر ؟ تمرأة شقراء . منفيو شيوخ العلايدة . قلقبليون غير الأشقاء أو المولدين . مرح المساء حول نار الخيمة . البعض يتعلمون كلمات انجليزيه . زيد على استعداد أن يعطى واحدة من زوجاته لأخيه النصراني عن طريق الزواج . الزواج في الصحراء . البنات الراعيات في الصحراء . يوم الصحراء حتى المساء . أرض الصحراء ذات السهول العالية والممرات الجبلية . متعة الربيع القصيرة في العام الصحراوى . موسم الحِمْلان . ولادة الإبل . نياق الحليب . حمية الحليب . أنواع الحليب . حامد شيخ الوحوش البرية والسحالي . الجربوع . الوبَّار . الذئب الذى أكله الأعراب ، والضبع . الماعز البرية . الغزال . الوعْل . هل الوضيحي هو وحيد القرن ؟ العقارب . الفهد . القط البرى . الصقور الحوَّامة ، وصقور الشَّاهين ، والنسور .

* * *

قام الناس هنا بتقويض خيامهم وحزم أمتعتهم قبل أن يناموا نظراً لأنهم في هذا المَنْزل يتحتم عليهم أن يبدءوا مسيرتهم قبل طلوع فجر الغد . هذه هي الأسر البدوية تفترش الأرض العراء تحت السماء والنجوم . نائمين إلى جوار أشيائهم المنزلية هي وقراب الماء الملينة التي تُصْنَعُ من جلود الماعز . كان الليل بارداً عند هذا الارتفاع الذى يصل إلى ما يقرب من ٣٦٠٠ قدم . شاهدت البدو الرُّحَّل وهم متمددين على الرمل ، ملفوفين على عباءاتهم (بشوتهم) : وقلة قليلة منهم هي التي لديها سجاد ينامون عليه : هذا السجاد يطلقون عليه اسم إكيم(*) Ekim ، وهم يصنعونه من قماش صوفي خشن أسود اللون يشبه القماش الذى تصنع منه خيامهم ، وله إطار مرسوم عليه مربعات من الصوف الأبيض الملون ؛ والإكيم Ekim له شراريب وحواف مصبوغة بألوان بهيجة .

في ذلك الموسم كان الطقس شديد البرودة ، وبخاصة عندما يبدأ الترحال ، أو إن شئت فقل : المسير قبل طلوع الشمس في الصحراء . أبناء الفقراء ، ليس لديهم عباءات

(*) إكيم Ekim : من المرجح أن يكون المقصود به ما يعرف عادة باسم الكليم . (المراجع)

يرتدونها ، وهم يسترون أجسامهم الضعيفة النحيلة بمعطف مصنوع من قماش القطن ؛ بل إن هناك بعض الأطفال شبه عارين تماما . كانت درجة الحرارة عند ذلك الوقت حوالى ٤٨ْ فهرنهيتية . ثم أصبحت ٨٦ْ فهرنهيتية عندما طلعت الشمس . كان ترحال البدو أمرًا حتميًا ؛ هذه هي قطعان الماشية ، وقطعان الأغنام ، التى يطلقون عليها اسم الطورش et- Tursh تسير على جنب إلى جوارنا من الأمام . وفى وقت الحاجة ، يضحى البدو بالماشية التي تمثل كل ما لديهم من ثروة ، ولكنهم يعتقدون عندما يفعلون ذلك ، أنهم ينقذون أنفسهم وثرواتهم ، حتى وإن اضطروا إلى الإضرار بتلك القطعان ، هذه هى أبقارهم الضخمة التى تشبه الجمال تلد عجولاً كل يوم ومعها صغارها . وتلك هى الطليان (الخراف) الصغيرة وكذلك صغار الحيوانات الأخرى التي جرى فطامها مؤخرا ، وتلك هى الجمال الصغيرة التي لم يمض على ولادتها خمسة أيام ، وتلك أيضا هى صغار الحيوانات من كلاب الصيد في المخيم التى سيربونها ، والتى قامت ربات البيوت بوضعها مع أطفالهن فوق إبل الحمل . ونحن نرى كل أم من الأمهات راكبة فوق جمل من الجمال وسط لفافة من قماش الخيام أو السجاد ، ومن حولها أيضا صغار الحيوانات ؛ هاهى الأمهات تمسك كل واحدة منهن بأطفالها الصغار الجالسين أمامها . والأطفال الصغار ، هم وكبار السن وكذلك المرضى هم ومن يتعين عليهم ملازمة الفراش ، لا تبدو عليهم علامات التعب والإرهاق بالرغم من ركوبهم الإبل ساعات طوال . وأصحاب الأمراض الشديدة بين البدو يركبون الإبل وهم جلوس في هودج يصنعه البدو من قماش الخيام ؛ أما الآخرون ، من أمثال الرعاة ، فهم يركعون أو يركبون مرتاحين على ظهر الجمل العارى دون أن يخشوا السقوط أو الوقوع على الأرض . ومن أعراف الصحراء أن يترحل البدو وهم صائمون : وأيا كان طول الرِّحلة ، أو إن شئت فقل ، المسيرة ، فإن العرب لا يأكلون إلا عندما ينزلون من فوق دوابهم فى المَنْزل المحدد لهم ؛ ومع ذلك فإن الأمهات يسقين أطفالهن ، أو قد يضعن فى أفواههن كسرة من الطعام ، أثناء سيرهن على الطريق الطويل .

وبينما كنا نسير في تلك الحرارة الخانقة ، شاهدنا أول ما شاهدنا ، فى أفق ما بعد الظهيرة ، أو إن شئت فقل : العصر، جبل بيرد Birrd العالى الوحيد ، المكون من

الحجر الرملي . وهنا صاح المجاورون لي بلغة تفاهمهم وهم يضحكون قائلين : "شيخ ديرتنا هناك خلف هذه الثُّلة ". Thullaجبل بيرد هذا يصل ارتفاعه إلى حوالى ٥٠٠٠ قدم . وعن يميننا نرى هنا صفاً من أشجار السنط في السهل الصحراوى ، الذى يعد علامة من علامات مجرى جاف من مجارى السيول ، هذا المجرى يسمونه جو Go، وهم يقولون : إنه ينحدر مسافة مسير يوم واحد فى اتجاه غربى خيبر Kheybar، وينتهى هنا فى هذه المنطقة من الصحراء . فى هذا الجزء المرتفع من البلاد ، فيما بين بلدة تيماء وتبوك ومدائن صالح لا يوجد أى وادٍ من الوديان . وهذه هى آثار ذلك المطر القليل الذى قد يسقط خلال العام ، تظهر على شكل رذاذ جرى رشه فوق سطح الرمل ، ويستمر مسيرنا ، خلال شمس شهر مارس التى طلعت على رحلتنا وسطعت فوقنا ، إلى أن غربت خلفنا فى غرفة هائله من المباهج الشرقية الجميلة ، التى لا تعد أمرا فريدا فى المسيرات القاحلة عبر الجزيرة العربية التى لا تسترها السحب مطلقا . شاهدنا أمامنا ، من جديد ، ضوء النجوم البارد ، قبل أن تنزل الأسر المرهقة عن دوابها ، عند سفح جبل بيرد مع انبلاج الصبح ، الذى سيتعين عليهم الرحيل عنده من جديد ؛ أثناء هذه الوقفة نصبت الحريم دروة ، يتقين بها ريح الليل ، من قماش الخيام بأن فردنه على حاملين . كان من العبث محاولة الحصول على حليب من ضروع الحيوانات المرهقة بسبب السير الطويل . فى ذلك اليوم انتقلت القرية البدوية المترحلة مسافه تزيد على أربعين ميلا ، هؤلاء الرعاة الجائلون ، يلزمون منازلهم ، فى أغلب الأحيان ، ثم يتركون ماشيتهم ترعى ، قبل دخول وقت الظهيرة . – وعلى وجه السرعة ، ومع طلوع نهار اليوم الجديد ، نزلنا من فوق دوابنا ، ونصبنا خيامنا على بعد أميال قليله خلف ديرة قبيلة بشر Bishr؛ وهذه المنطقة تبعد مسير ثلاث رحلات عن بلدة حائل(*) ، وتبعد مسير ثلاثه أيام أيضا عن الدار الحمراء ، ومسير يوم ونصف اليوم عن بلدة تيماء .

(*) بلدة حائل : إحدى المدن المهمة فى جبل شمر وقد أتخذها آل الرشيد عاصمة لإمارتهم . (المراجع)

جاءتني ، في خيمتي امرأة مسكينة تبكي ، وتتوسل إليَّ أن أبحث لها في كتبي وأتنبأ لها بما حدث لطفلها ؛ كان ذلك الطفل حافي القدمين بصحبة الأغنام ، وضاع من أمه بعد مسيرة الأمس الطويلة . وكان من الصعوبة بمكان إقناع هذه الأم ، وهي في نوبة الحزن والغضب هذه ، بأن الكتب التي معي ليست من كتب القبالة (*) ، التي يشيع استعمالها عند اليهود . ولم أستطع إقناع هؤلاء العرب غير المبالين ، الذين يقيمون في المَنْزل ، التي تقيم فيه هذه المرأة ، بإرسال البعض منهم ، ومعهم والد الطفل للبحث عن ذلك الطفل الضائع ؛ ومن تحركات هؤلاء الناس ، يبدو أنهم لا يعرفون شيئًا عن الإحسان ، وإذا ما ضل جمل من أرملة مسكينه لا تجد أحداً لديه أية ذرة من الحنان الإنساني ، اللهم إلا بعد أن تدفع له مثل هذه الأرملة ريالا . وأخيرا عثروا على ذلك الصبي الراعي الصغير عند نهاية المخيم ، في المنطقة الذي نزل فيها أول مرة عند خيمة واحد من أفراد القبيلة .

انتقلنا من تلك المنطقة مسافة صغيرة داخل حدود النفود البيضاء ، وسرنا خلال ذلك الانتقال عبر منطقة رملية وجدناها عامرة بنباتات العام الماضي التي من قبيل "ورد أريحا ". Jericho والبدو يطلقون على هذا النوع من الورد اسم "كف ch (k) ef مرحاب 'Marhab . ومعروف أن كلمة "كف" Kef عند البدو تعني "راحة اليد بعد إغلاق الأصابع فوقها " ومعروف أن كلمه "مرحاب" Marhab تعني عند البدو "شيخ من شيوخ خيبر اليهود القدامي(*) . كما عثرنا أيضا على العشب الصغير ، ذي الورقتين الخضراوين اللتين تشبهان القطيفة ، وله مذاق صحي مثل طعم الجرجير ، ويصلح غذاء لماشية البدو . نزل الأعراب بعد ذلك في أرض غررمل Ghrormül المُسَبَّة el-Mosubba التي ينصبون فيها خيامهم ؛ هذه الأرض تعرف من مسافة بعيدة ، بواسطة علامة أرضية على شكل مسلة فريدة من الحجر الرملي تشبه برج المراقبة ، يصل ارتفاعها إلى ستين قدما ، ويطلقون عليها اسم "الطويلان" Towilan . وفي اليوم الثالث

(*) كتب القبالة : وهي الكتب الخاصة بالتصوف عند اليهود وتشتمل على علوم الفلك والتنجيم والأمور الغيبية إلى جانب الشعوذة وغيرها . (المراجع)

غادرنا غررمل Ghrormûl المُسَبَّة el- Mosubba، أثناء هبوب ريح باردة عاصفة لنصل بعد ذلك الى جبل شيباد : Chebad ومن جبل شيباد انتقلنا إلى تلك المنطقة الوعرة التي يسمونها الجبال . el-Jebal وبعد رحْلة أخرى ، نصبنا خيامنا أمام الجزء الرئيسي من جبل إرنان Irnan، في نجد ، ذلك الجبل الضخم الذي يتكون من الحجر الرملي . ومن خلف هذا الجبل ، تحركنا في اتجاه الجنوب الشرقي إلى أن وصلنا إلى ساحل يوبا Ybbaمغرير Moghrair؛ واستمر البدو في التنقل كل يومين أو ثلاثه ، إلى أن قطعوا مسافة سبعة أو ثمانية أميال نزلوا بعدها عن ماشيتهم ونصبوا خيامهم . شاهدت في أنحاء منطقة الجبال el-Jebal دوائر أخرى من ساريات الأعلام موضوعة عند الحافة كما هو الحال في ساريات الأعلام التى سبق أن رأيتها في الجريدة . Jerèyda كما شاهدت أيضا مسوَّرتين ركنيتين ، مداميكهما سائبة ؛ كانت هاتان المسورتان مقامتان فوق أرض قليلة الارتفاع ، وخطر ببالي أنهما ربما كانتا نوعا من أنواع المتاريس ؛ لم يستطع البدو أن يقولوا لي أي شيء عن هاتين المسورتين ، غير أنهما شيئين من زمن غير زمانهم وتراث غير تراثهم . وفي شرقي يوبا Ybbaمغرير Moghrair، مررنا بسفح برج بدائي قديم في أرض الصحراء . أطلعت بعض من كانوا يركبون دوابهم بجواري على هاتين المسورتين . "(ردوا عليّ قائلين) : تلك أعمال متخلفة عن خَلْق العالم ؛ ما جدوى سؤالك عنهما ؟" "(قال زيد) : ولكن كل ذلك يعد لا شيء إذا ما قورن بذلك الذى سيريني إياه في الغد ، وَالذى كان معجزة : تمثال أبي Abu زيد Zeyd، تلك الشخصية الخرافية الأسطورية البطلة ، والسيدة عَلِيَّة Alia زوجته ، مرسومين على صخرة موجودة في الجزء الخلفي من جبل يوبا Ybbaمغرير Moghrair ."

الجائل فى كل أنحاء الجزيرة العربية القاحلة . يرى فى معظم الأحيان أحجارًا لكل منها ثلاثة قوائم موضوعة على شكل مجموعات ثلاثية : هذه الأحجار ثلاثية القوائم

(*) مرحاب : آخر شيخ من يهود خيبر قتله علي بن أبي طالب (ر) يوم فتح خيبر . (المراجع)

هى من قبيل أوعية النيران التي كانت تستخدم في الزمن القديم ؛ يضاف إلى ذلك أن تلك الأوعية تعد إشارة ، أو علامة إنسانية مريحة ، إلى أن بعض الناس تعلموا كيف يمتعون أنفسهم ، فى أزمان قبلنا ، فى أرض تبدو حياة الإنسان فيها مهددة ، ولكن أحداً لا يعرف لذلك تاريخا محدداً ؛ والسبب فى ذلك ، أن الأحجار عندما تبنى فى ذلك الجفاف الشديد ، قد تستمر عصورا طويلة . يضاف إلى ذلك أن الصحراء صلبة التربة وكذلك الصحراء التى تتكون من الزلط ، يرى الناظر إليها آثار الطرق والمسارات التى كانت الإبل تسلكها في قديم الزمن ؛ هذه المسارات ، هى أيضا من عمل أجيال قديمة ، يُزاد على ذلك أن تلك الصحراء الشاسعة ليس فيها مكان واحد لم يذهب إليه أو يتجول فيه الأعراب ، وطوال تجوالنا ، لا يوجد من حولنا أى نوع من الحياة فى دائرة محيطها حوالى مائة ميل . كما يتوفر حطب الوقود فى كل جزء من أجزاء هذه التربة ، والذى يتمثل فى روث الإبل القديم ، الذى يقولون له "جِلَّة" jella؛ هذه الجلَّة التى جفت بفعل حرارة الشمس يمكن أن تعيش طوال ثلاث سنوات . وإذا ما غطتها قشرة من الرمال المتطايرة فقد تعيش مدة أطول من ذلك . هناك أيضا علامة أخرى من علامات وجود الإنسان فى تلك الصحراء الجرداء ، وهذه العلامة هى التى تتطلع إليها الأمهات ؛ فنحن نرى هنا فى كل رَحْلة من الرَّحْلات الجديدة ، أحجاراً صغيرة بيضاوية الشكل ، هى إشارة إلى لحود الأطفال الذين يموتون موتا مفاجئا من بين البدو الرُّحَّل : ولكن الكبار الذين يموتون فى ديارهم ، يحملون (إذا لم يكن ذلك أمر صعبا) إلى أقرب المدافن المخصصة لذلك .

وفى ساعة مبكرة من الصباح ، أخذ زيد فرسه وحربته ، وسرنا فى الطريق إلى حيث توجد صورة أبى زيد ، الذى يعد عجيبة من عجائب الصحراء ، عبرنا السهل الرملى ، إلى أن حل علينا وقت الظهر ؛ وعندما وصلنا إلى الجبل ، درنا حوله فترة من الوقت ولكن دون جدوى : إذ لم يستطع زيد العثور على المكان . شاهدت بقعا بيضاء ، تشبه العلامات البحرية ، على بعض من تلك الصخور المهجورة الجرداء ، إنها مواقع تكاثر الطيور الجارحة التى من قبيل الصقور ، والصقور الحوَّامة ، وكذلك البوم : أعشاش هذه الطيور الجارحة يمكن مشاهدتها فى أحيان كثيرة فى الصخور الشامخة

الوعرة التي توجد في هذه الأماكن المكونة من الحجر الرملي . في هذه التربة الخالية من الماء تعيش كثير من الحيوانات الصغيرة التي لا تشرب الماء ، مثل الفئران ، والسحالي والأرانب البرية . كنا نسمع أيضا أصوات البوم أحيانا في جوف الليل ؛ وهنا كانت الزوجات البدويات هن وأطفالهن يردون على صوت البوم قائلين وهم يسخرون : 'يمجباس ! Ymgebas يمجباس ! . 'Ymgebas هذه الكلمه التي ترددها الزوجات والأطفال معناها : "أن هذا صوت امرأة تولول وتنتحب ، تبحث عن طفلها الضائع في الصحراء ، وأن هذه المرأة مسخت وتحولت إلى ذلك الطائر البائس المهجور ." وبدو الفهجي Fehjies يأكلون لحم البوم ؛ وهو الأمر الذي يجعل البدو يسخرون منهم ، علما بأن هؤلاء البدو أنفسهم يأكلون نوعاً من الهوام ، أو إن شئت فقل : الحيوانات الطفيلية .

درنا حول أجناب ذلك الجبل إلى أن بدأنا نحس بالتعب والإرهاق . ولما كان زيد ولد واحد من الشيوخ ، ولما كان أيضا رفيقًا من رفقاء شرب القهوة منذ صباه ، ونظرا أيضا لوجوده هنا في ديرة جديدة غير ديرته ، لم يستطع تذكر العلامات الأرضية . كان الوقت في عز الظُّهر ؛ ورحنا نتجول بشكل عشوائي ، وبسبب الجوع والعطش . رحنا نقطف نبات الهندباء البري ، الذي يقولون له هنا : سن الأسد ، والذي تبت في تلك الصخور على أثر زخات المطر الذي سقط على هذه الصخور ، حتى نجرح به صيامنا . أخيرا ، وعندما كنا ننظر إلى الأسفل في مكان عميق ، شاهدنا إبلا كانت ترعى عند سفح الجبل : ومع تلك الإبل شاهدنا بعض رعاة الفهجات . قال لنا هؤلاء الرعاة ، إن الصور لا تبعد عنا كثيرا ، وأنهم سوف يدلونا على الطريق المؤدي إليها ، ولكنهم طلبوا منا قبل كل شيء ، الجلوس لاستعادة نشاطنا . وهنا جرى هؤلاء الرعاة المساكين تحت ضروع نياقهم وعادوا إلينا بقربة الحليب وقد امتلأت بذلك الطعام الدافئ – السماء تذكر بالخير هؤلاء البدو المترحلين المحسنين ! وبعد أن انتهينا من شرب الحليب ، رافقونا وهم يقودون ماشيتهم : دخلنا مضيقا صغيرا ومشينا فيه ، كان ذلك المضيق عبارة عن مدخل صغير في صدر الجبل ، يعج بالخضرة التي ليس لها مثيل من نوعها ، من وجهة نظرنا . وعند مقدمة هذه الحديقة العشبية توجد بركة مياه ؛ ومن فوق هذه

البركة شاهدت الصخور وقد امتلأت بالنقوش المحفورة ، كما شاهدت أيضا صورة أبي زيد التي يصل ارتفاعها حوالي ياردة واحدة ، وهو يمسك في يده المشعاب المعقوف ، الذي يطلقون عليه اسم الباخورة ، أو على حد قول الأعراب ، من لا يستطيع أن يجعل من رسم الصورة سيفا : وإلى جوار صورة أبي زيد كانت هناك صورة أخرى ، ربما كانت صورة امرأة ، أقصر قليلاً من أبي زيد ، ويطلقون عليها اسم "عليَّة Alia زوجته". ومن المحتمل أن يكون هذين الشكلين ؛ قد نحتا باستعمال الحجر ، على الحجر الرملي نفسه ؛ هاتان الصورتان ليستا مثل صور البدو القذرة أو الحقيرة ، ولكنهما كانتا ملونتين في المنطقة المحيطة بهما بألوان طبيعية قديمة وبمهارة فائقة . النقوش التي هنا ، هي في معظمها نقوش أساطير حميرية مدونة (مثلما هو شائع في هذه الصحراء) من الأعلى إلى الأسفل ؛ الأسماء ، الأقوال المأثوره ، التحيات والسلامات ، لكثير من المسافرين والجمَّالة من العصور القديمه . كلمة " يابا" Ybba تقال للتعبير عن "الأب" Aby في هذا الجزء من الجزيرة العربية وفي المدينة (المنورة) أيضا ؛ وكلمة "مغرير" Moghrair ربما تعني كلمه "كهف" أو "مغارة" . رجوت زيداً أن يسمح لي بناقة تحلب ثم يتركني هنا مع أبي زيد . وهنا رد على زيد (بخرافة) ، مفادها أنه دفع بالفعل لبدو البشر Bishr جملا ، نظير تصريحهم لنا بمشاهدة أبي زيد . ورد على ذلك الرجل الفهجي قائلا : "أي رجل لا يستطيع البقاء هنا وحده ، وبخاصة أثناء الليل ، لأن الشياطين سوف تتشاجر معه ."

أثناء عودتنا ، نزل زيد فوق حوض رملي طبيعي بين الصخور ، أسفل الجبل ، ثم مد بعد ذلك يديه إلى الكوع ، لتصلا إلى رطوبة لها رائحة نفاذه بعض الشيء ، وهنا ابتسم زيد بصلف وزهو وهو يقول : "ها ! لقد اكتشفنا ماء جديدا . أقسم بالله ، أن في هذا المكان ماء على عمق قليل أسفل هذا الوحل ، ستأتي المؤخرة إلى هنا غدا لتملأ قراب الماء من هنا ." وبالقرب من ذلك المكان ، كان ينمو عشب يعرف باسم نبات الثلثان ، أو إن شئت فقل : عنب الثعلب ، الذي كان محملا بالثمر ؛ لم يكن زيد قد رأى ذلك النبات من قبل ، وطلب مني أن أخذ ذلك معنا إلى المنْزل ، حتى تتعرف عليه الحريم : — اللاتي لم تعرف أية واحدة منهن ذلك العشب بالرغم من حكمتهن المزعومة . "(قلن) :

نبات غريب في هذه الديرة ." والمكر فيما يتعلق بالعقاقير والأشياء البسيطة المتعلقة بالطبابة سمة من سمات ربات البيوت هنا . وعلى مستوى أكثر انخفاضا وصلنا إلى بركة ماء صغيرة وسط الصخر ؛ تبدى الماء لنا بني اللون ومشوبا بالحمرة وتفوح منه رائحة النشادر ، وكان المَنْزل المؤدى إلى تلك البركة ملطخًا بروث إبل قديم . "(قال :) سنأخذ من هذا الماء شيئا لتصليح القهوة ، إذا لم يتوفر لنا ماءًا آخراً غيره ." شاهدت على الحجر أساطير حميرية أخرى . كانت تجلس في تلك المنطقة صبيتان من الصبايا الرعاة ، وعندما ، شاهدانى أقترب منهما ، ابتعدتا عنا مقتربتين من قطيعيهما الصغير اللذان كانا يتجولان بالقرب منهما . وهنا ، قام زيد ، باعتباره شيخا كبيرا ، بتحية هاتين الصبيتين بتحية الصحراء المعهودة ، وردت عليه الصبيتان التحية بمرح وسرور : هذه الصبايا لا يخشين أحدا من أفراد قبيلتهما ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الصبايا الرعاة يمكن أن يذهبن بقطعانهن إلى مسافة بعيدة جدا عن أعين المَنْزل الذى فيه الأسرة نظرنا هنا وهناك ولكننا لم نعثر على فرس زيد ، التى كان زيد قد نزل عنها ، عندما دخل الجبل ، وتركها وراءه مقيدة ، بأن ربط لجامها برجل من رجليها الخلفيتين على طريقه البدو ، وبهذه الطريقة تستطيع تلك المهرة (الفرس) البدوية أن ترعى على راحتها ؛ ولكنها لا تبتعد كثيرا عن المكان الذى يتركها فيه صاحبها . أخيرا ، استطعنا رؤية تلك الفرس من مكان عالٍ ، وهى تعود إلى المخيم البعيد . "(قال زيد :) إنها عطشانة ، إتركها وشأنها وسوف تصل إلى المَنْزل وحدها :" - وبالرغم من أن الخيام السوداء كانت خلف الأفق . وهكذا تستطيع الخيول البدوية العودة وحدها ، وتهتدى إلى الأسر إلى تتبعها ، عندما تشعر تلك الخيول بالعطش ، ويجرى يوميا ، بعد طلوع الشمس ربط الفرس البدوية بقيد من الحديد ، لايفتح إلا باستعمال مفتاح خاص ، على أن تترك الفرس بعد ذلك لتتغذى من خيمة صاحبها . والخيول من طبيعتها أن تسعى باحثة عن بعضها البعض ، هذا إذا لم تكن المنازل متباعدة عن بعضها ومبعثرة على نطاق واسع ، لتقوم بعد ذلك بالرعي والعبث سويا ، والشيوخ أصحاب تلك الأفراس لا يلقون لها بالا كثيرا شأنها شأن كلاب الصيد في المخيم ، إلى أن يحين وقت الظهر ، وهنا تبدأ تلك الأفراس في العودة وحدها إلى المَنْزل ، وعندها يجرى اقتيادها إلى الماء

. وبعد أن تشرب الأفراس تعود ثانيه إلى المرعى ، أو قد تقف لتستظل بخيمه صاحبها في ذلك الوقت من أوقات الظهيره (هذا إن كانت خيمه صاحب الفرس تسمح بذلك) . وتستمر تلك الأفراس في الرعي على مسافة ليست بالبعيدة تماما ، إلى أن يحين غروب الشمس ، وعندها تعود تلك الأفراس وحدها ثانيه إلى منازلها أو قد يقوم أحد بإحضارها وربطها طوال الليل .

كان يقفز أمامنا ، وتحت أقدامنا ، سلالة صغيرة من الجراد ، الذى يشبه لونه لون الرصاص ، وله أجنحة تشبه أوراق الربيع ؛ هذا الجراد نتج عن تكاثر أسراب الجراد التى سبق أن اجتاحت الصحراء ، قبل ذلك بعدة أسابيع . هذا الجراد الصغير سوف يطير بعد أربعين يوما على شكل جحفل ، أكثر جوعا من الجحفل السابق ، وسيمتلئ به الجو . شاهدنا أيضا سماءً سوداء فوق خيام البدو الرحل ، وأوضحت لزيد أن زخة من زخات المطر كانت تتساقط أثناء غروب الشمس .– "رد عليّ ، لعل الله يجعلها تصلنا !" حياة مواشي هؤلاء البدو في تلك التربة الجدباء التى تعاني من قلة الماء ، تعد حياة جد صعبة . وسماء الجزيرة العربية ، التي يندر أن تصفو ، تبكي بكاء المنافقين .

انتقلنا من ذلك المكان ، ونصبنا الخيام السوداء على ذلك الرمل الأبيض ، الذى يشكل النفود Nefûd، في هذه المنطقة ، النفود التي تمتد حوافها بطول ، أو على امتداد الصحراء المكونة من الحجر الرملي بني اللون : يفصل النفود عن تلك الصحراء مجرى من مجارى السيول . سوف ينتقل الأعراب في المرة القادمة إلى واحد من الآبار الجيدة ، يطلقون عليه اسم "الحيزة" el-H?za، وهو في أرض النفود ، والأعراب يعثرون ، في سنوات الوفرة ، على مرعى جيد ، في فصل الربيع في ذلك المكان : ونظرا لعدم وجود أشياء كثيرة في ذلك الاتجاه ، فقد اتجهنا في يوم آخر صوب جبل حلوان Helwàn؛ وفي تلك المسيرة (الرُّحلة) شاهدت (حوالي ثماني أو تسع) دوائر من دوائر ساريات الأعلام المصنوعة من الحجر الرملي . كانت تلك الرُّحلة من رحلات الجزيرة العربية جرداء وموحشة وقاحلة أيضا ؛ فقد تساقطت من سماء شهر مارس

عاصفة من المطر البارد ، وبعد أن نزلت النساء عن ماشيتهن على وجه السرعة ، عجزن عن نصب الخيام أثناء سقوط الوابل :– هذا يعنى إقامة هجرة صغيرة خلال ثلاث دقائق . جلسنا داخل الخيام ، طوال العاصفة التي استمرت ساعات عدة ؛ جلسنا فوق الرمل المبتل ونحن ملفوفين في عباءاتنا المبتلة ؛ وكانت قطرات مياه العاصفه تتساقط علينا من خلال النسيج الغليظ المهترئ من فوقنا . توجد في النفود ، في اتجاه الحيزه El-Hyza بعض التلال الرملية مثل : الروسة Rowsa، والضُّفافيات Deffafiat، والسُّبيع Subbîa و– إرزوم Irzum، وهذه التلال الرملية المنجرفة شبيهة بتلال جبل ناقوس Nagûs القريب من قرية طور Torالبحرية في شبه جزيرة سيناء : والطبقة العليا من الرمل تسقط تحت أقدام المترحل ، وينطلق بعد ذلك من ذرات الرمل صوت متعالى بسبب الدُّوار ، وهذا الصوت يشبه ذلك الصوت الذى ينتج عن إدارة إصبع مبتل حول فوهة كأس من الماء ، كما يشبه أيضا الطنين الذى يتخلف عن قرع جرس كبير ، أو كأس من المعدن .– وكلمة "ناقوس" Nagus هى الاسم الذى يطلق على اللوح المدوى فى برج ناقوس الدير اليونانى ، ويترتب على ذلك أن تصدر عن الخشب نغمة موسيقية تسر الخاطر ، تدعو رجال الدين الرسميين Colleros إلى أداء الصلاه : وهناك رمل مغنٍّ آخر ، يطلقون عليه اسم رمل الحويرية el-Howayria، وهو موجود فى الصخور (الواقعة شرقى مزحام Mezham،) فى منطقة مدائن صالح .

كانت السماء صافية عصر ذلك اليوم : إذ جففت الشمس ملابسنا المبتلة ، كما اجتمعت صحبة كبيرة لشرب القهوة فى خيمة زيد . كان زيد قد وعد خليل بأنه سوف يُصلِّح له شاياً ، "الذى هو قهوة النصارى ، حسبما قال لهم . – وأنت ، يا خليل يا طيب ، طالما أن الشيوخ سوف يتذوقون الشاى معك ، فانتبه وأحرص على وضع مقدار كبير من السكر ." فى ذلك اليوم ، كان لدى ماء نقيا حصلنا عليه من ماء المطر الذى سقط على الصحراء ، فضلا عن أن الشاى كان من نوع ممتاز . هنا صاح زيد مناديا : "هل أعجبكم مذاق قهوة النصارى ؟" أجابوه قائلين : "السكر جيد ، أما فيما يتعلق بذلك الذى يسميه خليل شايا ، فطعمه أفضل قليلا من الماء الحار ." واستطردوا قائلين : "إنه مشروب خفيف وليس طعمه كما يرام" مثل طعم الماء المتخلف عن القهوة المُصلَّحَة

من ماء غير نقى . شرب رحيل ١٨Rah el كأسه الأولى من الشاى ، وأعادها إلىّ مقلوبه الفم نحو الأسفل (إشارة عندهم إلى أنه لا يود المزيد) قائلا : "يا خليل ، أليس هذا هو الخمر ؟ بمعنى المتخمر أو نبيذ النصارى ." ولولا الضمير لما شرب منه ؛ ولكن بقية الجماعة شربت ذلك المشروب السكرى إلى أن وصلت للحثالة ، وطلبوا من الغريب أن يصب لهم المزيد . وأعدت على مسامع رحيل Rahyel أن الفرس يشربون الشاى فى قافلة الحج . هؤلاء البدو الذين استطعموا مذاق الشاى للمرة الثانيه ، والذين أدركوا وفهموا مدى إعزازى وتقديرى لذلك المشروب ، وبعد أن أحسوا بالانتعاش بعد أن شربوه ، بدوا يحبونه حبا جما ويتخيلون أن ذلك المشروب الذى يضاف إليه السكر يمكن أن يزيل المتاعب الإنسانيه كلها . ولكن لم أستطع مطلقا ، بناء على طلبى ، الحصول على كأس من الحليب الطازج ؛ وهم لا يضعون أى شىء من الحليب على القهوة ، كما أن مسألة وضع مقدار كبير من الحليب ، على قهوة النصارى ، بدا لهم أمراً غريبا تماما وفيه تبذير لنعمة الله . عندما كنت أصلّح الشاى ، فى المنزل كنت أدعو حرفة لتناول الكأس الأولى ، قائلا للبدو : إن ذلك هو تقليد فى بلادنا ، التى تنظر إلى الجنس الضعيف نظرة احترام وتقدير . ردت على حرفة قائله : "آه ، ليتنا هناك بينكم ! يا خليل ، هؤلاء البدو الموجودين هنا ليس فيهم أى نفع ، وأنا أقسم بالله على ذلك ، إنهم مثل الحيوانات البرية ؛ فهم اليوم يضربون الحريم ، وغداً يهجرونهن ويتخلون عنهن : المرأة مولودة هنا للعمل والمعاناة ، ومما يحزن قلبها ، أنها عندما تتكلم فإن كلامها لا قيمة له أو وزن ." ضحك الجالسون حول الوجار عندما انطلقت حرفة فى الحديث . ولكنها صاحت غاضبة من جديد : "نعم ، اضحكوا ملئ أشداقكم أيتها الحيوانات البرية !- يا خليل ، البدو كفار !" ثم ابتسمت تلك الزوجة الغاضبة للحاضرين ، وعادت إلى أحزانها الداخلية من جديد .

تراكمت سحب المساء ؛ كما كانت عباءات الشيوخ مبتلة أثناء عودتهم إلى منازلهم . كانت الفرس قد عادت لوحدها فى ذلك الطقس السيئ ، واتخذت لنفسها موقفا إلى جوار وجار القهوة ؛ ومثلما يفعل البشر ، وقفت الفرس تجفف جسدها المبتل بالماء وتدفئ نفسها ، مثل واحد من الجالسين تماما . قد يُقال عن خيول البدو الرُّحل

الضعيفة إنها لا تعرف الحقد أو الغل . وقد لاحظت بنفسي فرسا ، وقد وقفت من تلقاء نفسها عند الظهر موقفا في ظل خيمة صاحبها ، إلى حد كانت تقترب معه تماما من الجالسين حول وجار القهوة ، وراحت تقرب أنفها الناعم من الشخص القريب منها ، وهنا أدار القريبون من الفرس رءوسهم استعداداً لتقبيلها ، إلى أن نهض الشيخ من مكانه لينهر الفرس ويبعدها عن الحاضرين . هذه الخيول ، يعتريها الضعف ، نتيجة ضعف علف الصحراء وخشونته ، كما تعبر تلك الخيول عن امتنانها لتلك اليد الإنسانية ، التي تمتد إليها في تلك الصحراء ، مثلما تمتد يد الأم إلى ولدها . الناس هنا تشاهد الإبل البرية الشقية كل يوم ، ولكنهم يندر أن يشاهدوا الخيول المتهورة ، ويستحيل أن يشاهدوا الخيل الحرون : واللون الغالب على الخيول هنا هو لون الكُميْت . وأمل الشيخ الذي يعلقه على فرسه يتمثل في تمكنه من الانتصار على خصمه أو عدوه من ناحية . وانقاذه على وجه السرعة في الميدان ، من الناحية الأخرى ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الشيخ قد يحمل الغنيمة على ظهر فرسه ، ويعدو بها في مقدمة أولئك الذين يركبون الإبل . الفرس (شأنها شأن أي إنسان أو حيوان ، بما في ذلك كلاب الصيد) شيء لا يمكن أن يسيئ البدو استعماله . صحيح أن الفرس لا تحظى بتقدير أسرة صاحبها ، إلا أن المسكن الطبيعي لتلك الفرس يكون في الخيمة البدوية . هذا يعني أن تلك الفرس مرتبطة برفقة الإنسان الخيرة ؛ يضاف إلى ذلك أن شكل الإنسان يسر خاطر الفرس في تلك الصحراء القاحلة والبخيلة .. اعتدال البيت العربي يتمثل فيما نشره نبيهم عن الأسرة المقدسه ؛ الله Ullah القرآن ، رب أسرة سامي Semitic طيب القلب ذو سيادة ، بالغفرانه مع شعبه (خلقه) ! هذا الإله نفسه ، على النقيض قاسي وصعب على الشعب الغريب .

الحصان البدوي مُشقَّفٌ هنا ، كما هو الحال في الحصان السوري بشقفة مفتوحة من منتصفها ، وهذه في الأصل هي طريقة تشقيف الخيول في تركيا ؛ وشيوخ البدو هنا ، يشترون احتياجاتهم السنوية من تلك الشقف من سوق الحج . ولقد رأيت الناس وهم يشقفون الخيول حتى في الأجزاء الرملية من الجزيرة العربية : ومع ذلك ، هناك بعض الخيول التي يتركها أصحابها بلا تشقيف على بعض أجزاء الحدود السورية ،

كما أن هناك بعض الخيول التي يجرى تشقيفها فقط في القدمين الخلفيين . كان البيطار الذى يتابع قبيلتنا - الذى ذاع صيته بأنه أفضل الحدادين ، فيما يتعلق بكل أعمال الحدادة ، في هذا الجزء من البلاد ولم يكن له مثيل حتى في بلدة تيماء - هو الرجل المسئول عن كل ما يتعلق بأعمال البيطرة بين هؤلاء البدو . وفى أحد الأيام صحبت زيدا كي أرى ما يفعله ذلك البيطار . وجدنا ذلك الحداد يكوى مهرة رُحيَل Rahyel التي كانت واحدة من قدميها الخلفيتين مصابة ، ونظرا لقلة العدة المتيسرة لذلك البيطار فقد كان يقوم بعملية الكي هذه باستعمال ساق من سيقان شحن المدافع ، مصنوعة من الحديد ؛ كان ذلك البيطار قد سخن طرف تلك الساق ، في النار ، إلى درجة الاحمرار ، وراح يكوى ويوسم بها عضلات رجل الحصان الضعيفة . وجدت الحصان المسكين ، وهو يعانى تلك الآلام ، واقفا على ثلاث أرجل ، دون أن يحدث أى صوت ، في حين كانت القدم الرابعة مقيدة بحبل تمسك به أيادى غليظة . والبدو الذين تعودوا على كي الإبل بالنار من الأعلى ومن الأسفل ، لا يعولون كثيرا على مسألة سلامة أو صحة جلد الحصان ، وكل ما يهم هؤلاء البدو هو أن تكون الفرس من أصل جيد ، ومن سلالة جيدة أيضا ، وقادرة على خدمة صاحبها في المعارك الحربية . غادر رَحيِّل محل البيطار ؛ كان زيد الذى حضر لأمر يتعلق بالبيطرة ، قد جاء ويداه مملوءتان بشقف الخيول ، أو إن شئت فقل : حدوات الخيول ، وطلب من البيطار تحويل تلك الشقف إلى مسامير ، مقابل أن يقوم البيطار بتشقيف فرسه . ذهب زيد لاقتلاع بعض عيدان الحطب ، التى أشعل منها نارا ، وبعد أن اشتعلت تلك النار برهة من الوقت ، أخمدها بإلقاء شيء من الرمل عليها ؛ ثم حمل زيد ذلك الفحم النباتي الضعيف في عباءته ليلقيه على نار الحداد (التي هي عبارة عن حفرة في الرمل) . ثم جلس ذلك الشيخ الكبير إلى منفاخ مصنوع من جلد الماعز ، وراح ينفخ هواءً على النار ليزيدها استعارا . كان الموقف يدعو إلى الضحك ، ونحن نتأمل حرص زيد على توفير مليماته عن طريق القيام بدور الصُّلُوبى(*) ، وهكذا راح زيد يتصبب عرقا بين نارين : نار

(*) هناك في الجزيرة العربية قبيلة تحمل هذا اللقب ، وما زالت آثار هذا اللقب في بعض الأسماء التى يحملها الأفراد ، إذ يقال على سبيل المثال " فلان الصليبى " (المترجم)

الفحم النباتي المشتعل ، من ناحية وحرارة الشمس الحارقة من الناحية الأخرى في عز الظهر ، إلى أن تلوث الرجلان اللذان عضهما الجوع بسناج الحدّاد ، وبدا الإرهاق على وجهيهما . أخيرا ، نهض زيد وهو يتنهد قائلا : "يا خليل ، ألم تتعب بعد من الجلوس في العراء في حرارة الشمس ؟ هاهي خيمة رحيل بالقرب منا ، هيا نحتمي بها من حرارة الشمس ؛ ورحيل رجل طيب وسوف يصلح لنا شيئا من القهوة ." وهاهم البدو أيضا لا يصبرون على حرارة الشمس التي تلسع أعالي رءوسهم ، اللهم إلا عندما يكونون قائمين بالترحال ، في فترة من الفترات التي تتحرك الريح خلالها .– "السلام عليك يا رحيل ، هذا هو خليل أحضرته معي ، هيا اجلس إلى جواري يا خليل ، ودعنا نشاهدك وأنت تكتب اسم رُحيِّل ؛ اكتب 'رُحيِّل القجيري ، الشيخ ، الذي تزوج من بنت في تيماء' :" ركع الرجلان من حولي وهما يتيهان عجبا بأميتهما ، عندما يريان كلامهما قد تحول إلى كتابة .

وصل بعض التجار البدو بعد ذلك ، إلى مخيمنا ، قادمين من الجوف عبر صحراء النفود : كان أولئك التجار من قبيلة بشر . ومن بين هذه القبائل ، هناك بعض الأشخاص الحصيفين المتدبرين ، الذين يستطيعون تحسين معاشهم عن طريق المكاسب الشرعية السلمية الناتجة عن البيع والشراء ، وذلك بدلا من المشاركه في عمليات الغزو غير الشرعة وغير المؤكدة أيضا . أحضر أولئك التجار معهم سمنا وتبغا ، وعرضاهما للبيع بثلثي الثمن المحدد لبيعهما في هذه المناطق القاحلة الجدباء ، ومع ذلك ، فإن الأعراب ، غير العادلين فيما يتعلق بصفقات البيع والشراء ، لا يشترون من هؤلاء التجار بذلك السعر الصادق والمقبول ؛ ويروحون يكاسرون بغيه تخفيض السعر ، وفي النهاية لا يشترون شيئا على الإطلاق ؛– وما أن يكسب أولئك الغرباء شيئا ، فإنهم يتعين عليهم دفع ضعف هذا المبلغ بعد ذلك في قرية العلا ! ويمكن أن يبقوا ، مثل الموتى ، على ذلك الوضع ، والوقت يمر عليهم . المزيد من تلك الهيئة الحاكمة ، والرجال الذين من قبيل هؤلاء التجار ، قد يتخلون عن حياة التجوال غير الآمنة (التي يكن الأعراب لها البغض والكراهية بسبب إرهاقهم المستمر من ناحية وخواء قلوبهم من

الناحية الأخرى ،) ويتحولون إلى بدو مستقرين . والبدو يشتكون على امتداد ساعات طويلة من بؤسهم وشقاء حياواتهم ؛ وهنا يبدو عليهم التأمل بشكل غريب ، باعتبارهم أناسا مطرودين من هذه الدنيا . الحقد البشرى الناتج عن الفاقة والعوز هو الذى يضيف كل ذلك إلى متاعب الطبيعة وآلامها التى تصيب هؤلاء البدو ، الأمر الذى يجعل المرور أو التجوال فى الجزيرة العربية أمرا صعبا وغير مضمون العواقب : وعندما يحدث قحط فى أية ديرة من الديار ، نظرا لعدم سقوط أمطار الخريف عليها ، أو نظرا لهجوم أسراب الجراد ، فإن التجارة البرية ، قد لا تصل إلى مثل هذه الديار .

هؤلاء البدو الذين يعتصرهم الفقر والعوز ، تراهم داخل خيامهم وهم غارقين فى أحزانهم ؛ وإذا ما لامهم إنسان ردوا عليه قائلين : "آها ! صحيح أن الأعراب بهائم ba-haim؛ صحيح أيضا أن الأعراب مساكين ، وصحيح أيضا أنهم 'قطاط' Kutaat ' غرانُم' ghranem بمعنى 'رعاة غنم' وصحيح أيضا أن البدو 'دبوش' dubbush بمعنى 'قطيع مختلط من الماشية الصغيرة' ؛ وصحيح أيضًا أن البدو 'جهَّال' juhal؛ وهم أيضا مجانين mejanin وهم أيضا عفنين affinin؛ وهم أيضا حرامية haramiyeh؛ وهم أيضا كفَّار kuffar؛ والأعراب أيضا 'مثل mithil السِّيد 'es-seyd بمعنى إنهم 'مثل الحيوانات الغشيمة ، الهائمة فى الصحراء ، وليس لديهم أى نوع من الفهم البشرى ." وبعد أن ينتهى الأعراب من ذكر كل ذلك ، يزيدون عليه من باب المزيد من الاحتقار لأنفسهم قائلين : "والله ، الأعراب كلاب ." ولكن البعض من هؤلاء الأعراب يحاولون التفاخر بأنفسهم عندما يقولون : "الأعراب جنيون jinnies وشيطانيون "sheyatin والبدو عندما يقولون 'الأعراب جنيون' يعنون بذلك أنهم أذكياء يقومون بعمل الأشياء وتحمل الصعاب وأسوأ العواقب ، دون أن يخافوا الله . والبدو فيما بين ذلك الفراغ الذى يعيشونه فى منازلهم والتعب الذى يصيبهم نتيجة تجوالهم ، يركزون سواء أكانوا رجالا أم نساء على شرب الدخان الذى يطلقون عليه اسم التتون . tittun (*) تلك الورقة

(*) التتون : كلمة تركية ومعناها الدخان ، وتطلق على ورق التبغ وينطقها العرب بـ التتن وتعاطى التبغ من الأمور التى تحرمها تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب . (المراجع)

الجافة (التى يجلبونها من قرية العلا ومن تيماء) تكون خضراء ، سواء أكان ، ذلك مثلما يقولون ، بسبب عدم تكون الندى فى هذه البلاد ، أم لأن قرى الجزيرة العربيهة لم تتعلم طريقة تجهيز ذلك التتون ، أو إن شئت فقل : التبغ أو الدخان . وهم يدخنون الورقة الخضراء الجافة ، بعد أن يفركونها فى راحة يدهم من سيقانها الجافة ، ويضعون فوقها قطعة من الفحم النباتى المشتعل . شاهدت ذلك النوع من التدخين على امتداد جزء كبير من الحدود السورية ، حيث يمكن الحصول على أفضل أنواع التبغ من كل من الشويك Shobek وجبل كيراك Kerak؛ وتبغ هذين المكانين من النوع الذى له مذاق لاذع ؛ وأحلى أنواع التبغ الذى يزرع فى هذه المنطقة ، هو ذلك النوع الذى يزرعه بدو المواهيب في وادى Wadyعُروش Aurush على ساحل البحر فى عويرض Aueyrid الحرّة Harra فى المنطقة العالية المواجهة للحجر .

كانت قريتنا الجائلة تضم بين أهلها واحداً من أولئك الذين يبيعون التبغ ، أحد القرويين من قرية العلا ، الذى كان يعيش عيش البدو فى تلك الصحراء ، كما كان متزوجا أيضا من امرأة قبلية من بينهم . استطاع ذلك البائع أن يجمع لنفسه مجموعة صغيرة من الحيوانات ، وكان حاله ينتعش ويزدهر بهذه الصفة من ناحيه وبصفته مبتزا من الناحية الأخرى . حَرَّضَتْ تلك الأرواح البدوية الضعيفة على التمعن فى ذلك الطفيلى الذى ينمو على الشحم الذى كان يلحسه بشراهة من أذقانهم ولحاهم . كان البدو يحسون بالحزن كلما رأوا ذلك المبتز مرحا وفرحا ومنشرح الصدر ؛ كان ذلك الرجل يمرح ويفرح لذلك الشيء الذى كان ثقيلا على ضمائر أولئك البدو . خلب ذلك الخطأ لب هؤلاء البدو ؛ يضاف إلى ذلك أنهم ليس من حقهم أن يمنعوا أحد جيرانهم من حرية التجوال فى الصحراء . وبذلك يكون خبز الفقراء ، الذين لم يكن لديهم ما يكفيهم من قبل قد تحول إلى رماد . هذا البائع يبيع لهؤلاء البدو هنا ذلك الذى يساوى بنسين فقط فى قرية العلا ، باثنى عشر بنسا ؛ هذا هو ذلك البدوى المسكين الذى أحضر تيسا اليوم ليدفع ثمن التبغ ؛ هذا التيس الذى له قيمته بيع اليوم بما قيمته عشرة شلنات من التبغ ؛ هذا البدوى سرّى عن نفسه باستعمال الغليون مدة سبعة أيام فقط نظير ضياع ذلك التيس ؛ هذا البدوى حصل على مقدار صغير "يشربه" drink من

تبغ ذلك البائع ، أو بالأحرى حصل على ما قيمته نصف الكمية المستحقة ، نظرا لأن ذلك العلاوى(*) Alowwy الجشع كان يبلل أوراق التبغ ، الأمر الذى كان يزيد من حجمها ووزنها أيضا . بعد الرجال الذين كانوا يترددون على خيمة ذلك الرجل ، شاهدت أيضا الحريم مدمنات التبغ ، وهن يأتين بضجيجهن إلى خيمة ذلك الرجل ، ويمسكن فى أيديهن الضعيفة قطعا من الصوف المنسوج محليا ، أو أوانى السمن الذى ربما كن قد ادخرنه لشراء قطعة بسيطة من الملبوسات ، ولكنهن فى الوقت الراهن لا يطقن الصبر على عدم "شرب" الدخان : وإذا لم يكن لديهن ما يشترين به فإنهن كن يقترضن من ذلك البائع بفائدة ربوية كبيرة . وإذا لم يكن ذلك المبتز لا يثق بواحدة منهن ، فقد كانت ترجوه وتتوسل إليه ، بأن يملأ لها غليونها البارد ، هذه المرة فقط ، وألا يرفض طلبها وفاء للحنان والعطف القديم . زيد هذا ، بالرغم من كونه واحداً من الشيوخ الكبار ، إلا أنه لا يشترى التبغ لنفسه وإنما يشحذه ويستجديه من الناس طول اليوم ، حتى وإن وصل الأمر إلى أفقر الناس من بين من يجيئون لشرب القهوة : وهنا كان زيد ينظر حوله مبتهجا وهو يقول : "مين min يُعَمِّر لى y'àmir-ly؟" بمعنى "من هو ذلك الصديق الذى سوف يملأ لى هذا الغليون بالتبغ ؟" وبحكم ضعف الفكر والذهن فى هذه التربة المميته ، فالناس هنا كلهم متطفلين ويعيش الواحد منهم على حساب الآخر : زد على ذلك أن البدو لا يجدون غضاضة فى استجداء التبغ من البدويات المسكينات . دخل زيد ، ذات يوم إلى المجلس وهو يشتكى من سعر التتون ، أو إن شئت فقل : التبغ أو الدخان ، هذا بالرغم من أن ذلك التبغ لم يكن يكلفه سوى القليل جداً ، أو لا شيء على الإطلاق ؛ وبعد أن جلس راح يلعن ويسب ، بصوته الأجش العالى ، كل من هم من سلالة العلاونة " . Alowna (**) لعن الله ! سليمان بائع الدخان ! أعتقد أنه من الصواب أن يرحل ذلك الرجل عن أهل هذا المكان خلال فترة وجيزة ، ولا يسمح له حتى بالبقاء مع الإبل !" الدخان هو مصدر سعادة الكثيرين فى هذه الصحراء الواسعة ، كما أن

(*) العلاوى : من قرية العلا . (المراجع)
(**) العلاونة : أهالى قرية العلا . (المراجع)

الدخان هو المادة التي ينظم الشعراء أشعارهم ضدها في القبائل على اختلاف أنسابها : "هناك ثلاثه أسباب تمنع الإنسان من شرب الدخان : أليس الإنسان سكيرا وبالتالى يحرق أصابعه (عندما يتناول قطعة من الفحم النباتي المشتعل ليضعها على رأس الغليون) ؛ السبب الثاني : أن الإنسان ينبغي أن ، لا ينفق ثمن الخبز على أشياء غير الخبز ؛ السبب الثالث : أن التدخين أمر غير شرعي ."

تجول بدو الفجير خلال ديار بشز القريبة عليهم وهم تراودهم بعض المخاوف والمخاطر ، - وراح الشيوخ بعد ذلك يستحثون الماشية وهم ركوب على أفراسهم ، وفي معظم الأيام كان الشيوخ يقطعون حوالى ساعتين من الزمن كل صباح فى تجميع الماشية التي ترعى ، أو إن شئت فقل : الإبل . el-'bil كانت موجة الجراد الأولى قد أتت قبلنا ؛ ترتب على ذلك حدوث شيء من القحط حتم على البدو أن يقسموا أنفسهم إلى مخيمين . انتقل الشيخ مطلق بعد ذلك بالمخيم الأول ، الذى كان يضم القسم الأكبر من الشيوخ ، وابتعد عنا مسافة نصف رَحْلة فى اتجاه الغرب . وبقى الشيخ زيد ، مع رفيقه رحيل Rahyel الذى كان يتولى منصب الشيخ الكبير فى المخيم الثانى . واصلنا السير بعد ذلك ، وكنا نخيم منفصلين ؛ واستمر ذلك أياما عدة ، بطريقة غير محددة وغير متساوية أيضا .

كنت أرى نبات السمح Samhh في كثير من الأحيان ، ولكنه لم يكن وفيرا ؛ هذا النبات هو فى الوقت الراهن عبارة عن بادرة خضراء بلا أوراق ، يصل ارتفاعها إلى قبضة يد ، وتحمل سيقانا سميكة وافرعا مليئه بالماء المالح . وفى نهاية كل غصن من أغصان نبات السمح توجد عين تنضج فيها حبة واحدة عندما يبدأ النبات في الجفاف في مطلع فصل الصيف . وفى بلاد بنو الشرارات ، التي ينمو نبات السمح فيها بكثرة ، تقوم ربات البيوت هن والأطفال بجمع ذلك المحصول البرى . وتقوم ربات البيوت بغمس سيقان السمح فى الماء ويرحن يضربن تلك السيقان بالعصي ليفصلن الحب عن القش ؛ ومن تلك الحبوب الصغيرة ، تقوم ربات البيوت ، بعد طحن هذه الحبوب ، باستعمال الدقيق الناتج عن ذلك فى صناعة نوع معين من الخبز . لقد تذوقت طعم ذلك

الخبز البرى فى قرية معان ؛ كان ذلك الخبز أسودًا ومُرَّ الطعم ، ولكني بعد ذلك كنت أحسبه قطعة من المُسَكِّرات في المناطق البعيدة من الجزيرة العربية الصحراوية . ثريد السمح لذيذ الطعم وطيب أيضاً ، ومذاقه يشبه مذاق "حليب الإبل" : ولكن أشهى أكلات ذلك السمح هى التى تصنع بعد عجن السمح مع قليل من التمر وشيء من السمن لكى يؤكل نيئًا : - مكونا بذلك واحدًا من الأطعمة الطيبة والصحية للمترحلين ، الذين لا يجرؤن على شب النار فى كثير من الممرات المفتوحة غير المستورة .

فى هذه المرحلة بدأت أتحرر من مخيم البدو ، وكان الجميع يرحبون بى حول وجارات القهوة ؛ لم يكن يعادينى ، عند هذه المرحلة ، سوى قلة قليلة من البدو ، الذين هم من بين الرجال الأكثر تشدداً . وفى معظم الأحيان ، كان أرباب الأسر ، ينادوننى من خيامهم ، أثناء مرورى ، ليستقبلونى بعد أن أدخل خيامهم بابتسامات تنم عن كياسة المُضيف ، وكانوا يحضرون لى التمر والحليب : وهذا هو "العيش والملح" ، الذى يمكن أن يقدمه الرجل الطيب مرة واحدة ، ليدلل به على صداقته ورفقته لذلك الغريب . هؤلاء الأعراب ، بالرغم من أنهم كانوا متسامحين معى لشخصى ، إلا أنهم كانوا يلوموننى على دينى . حدث فى يوم آخر ، شيء بدا لهم ، بحكم أنهم يربطون كل شيء بيد الله وإرادته ، على أنه إشارة من قبل العناية الإلهية ، برعايتها لى ومحافظتها علىَّ . حدث أن نزلت عن راحلتى متعبا بعد أن توقفنا عن السير ، خلال جو صاخب ، وقمت بطرح عباءتى على دغلة قريبة ، ثم جلست فوقها . ثم نصبت خيمتى فى المكان نفسه وبقيت فيه إلى حلول المساء ، وعندها جاءنى طفل معوق من أطفال منْزِلنا ، وهو يسير على أربع ، لكى يحصل على صدقه تافهة ، فى شكل حفنة من التمر ، ولكن ذلك الطفل صرخ عندما وصل إلى باب خيمتى ، وتراجع على وجه السرعة . فقد شاهد حية سامة ملفوفة تحت الدغله التى فردت عليها عباءتى ، - وهذه هى الطريقة التى تحمى الحيات بها أنفسها أثناء العواصف . وعقب صرخة ذلك الطفل ، حمل راعى زيد عصا من أقرب بيت إليه ، وجرى مسرعا إلى الطفل ، وبضربه قوية قطع تلك الحية السامة إربا إربا . كانت تلك الحية من النوع المقَرن ، ويصل طولها إلى أكثر من قدمين ، كما كان

جسمها منتفخا عند المقدمة ، وعليها قشور تشبه النحاس الأصفر ، أما بطنها فكان عريضا وأبيض اللون ، وينتهي بذيل يشبه السوط أو الكرباج . سبق في العام الماضي أن عضت حية من هذا النوع ، رجلا أثناء الرِّحلة ؛ وأركبوه جملا ولكنه توفي ، بفعل التورم ، قبل أن يصل به الرجال إلى المنْزل . والجمل إذا ما عضته حية من هذا القبيل "يموت خلال ساعة واحدة " ، ومع مثل هذا الحادث قد يتعكر المزاج تماما في أرض من هذا القبيل ، إلا أن هذه الحوادث تعد أمرا نادرا في الحياة البدوية . سبق أن دست مرات كثيرة على ثعبان ، كان البدوي يحمله بعد ذلك على عصا ليصنع منه "دهانا مفيدا جداً للإبل " . وقد سبق لنا قتل ثعبان من هذا القبيل في مدائن صالح . كان الحاج نجم بصحبتنا في تلك المرة ؛ والناس هنا يطلقون على تلك الحية اسم أم Umm جنيب jeneyb، بمعنى "التي تتحرك على جانبها" . قام الصبي محمد بفصل الرأس عن الجسم بضربة واحدة من سيفه القصير ، عندما كانت تلك الحية نائمة في الرمل لتحمي نفسها من الشمس ، على شكل لفات تشبه حرف الـ S الإنجليزي : كان المغربي العجوز يود الحصول على قرني تلك الحية . "انتبه يا أنت ، القرن الأيسر هو الذي يحتوي على السم ، أما الترياق فهو موجود في القرن الأيمن ، إذا ما جرى شربه مع الحليب :- وقلت أنا كلاما في غير موضعه ، دعني أكتشف ذلك بنفسي - : أيها الصبية دعوها وشأنها فأنا لست على يقين مما قلت ." هناك حيات مقرنات في صحراء بارباري (*) Barbary . وعلى الفور رويت تلك الحكاية في مخيم البدو : "النصراني هرب من ثعبان سام" ، وسألني البعض ونحن في المجلس عن "رؤيتي" لتلك المغامرة ؟ ورد عليهم زيد قائلا : "لقد كانت تلك رحمة من الله فعلا ." كان يجلس بالقرب من وجار قهوتنا راع وقح ، غريب من بدو الرولة Ruwàlla، صبي من صبية القبائل صغار السن ، كان يبحث عن عمل خارج قبيلته ، أي مع بدو آخرين غير بدو قبيلته : والسبب في ذلك أن أمثال هذا الصبي ، يظنون أن الحياة قد تكون أفضل في كل ديرة من الديار الأخرى ، وبالتالي يتمكنون من مشاهدة الدنيا ، وأحوالها . "أوه ! قال الصبي متعجبا ، لو كانت

(*) صحراء بارباري : المقصود بها صحراء البربر في شمال إفريقيا . (المراجع)

تلك الحيه المقرنة قد لدغتك يا خليل ، لما رأيت أمك مرة ثانية ." "المذنب تأخذه السماء في يوم من الأيام ." هذه هي الخرافة التي تسيطر على الذهن البشرى وتستحوذ عليه ؛ وبالتالي يمكن للبدو أن يقولوا في مثل هذا الحال : "الحقيقة أنه عدو الله ، وقد أثبتت الأحداث ذلك ."

المؤكد أن هؤلاء الناس الرعاة هم أقل أفراد الجنس البشرى عبقرية وفهما ؛ هؤلاء الناس ، إذا ما لُدغ إنسان أو حيوان ، فهم لا يعرفون أي شيء أفضل من "قراءة" (ما يسمونه القريئة El-kirreya) عليه . والقريئة هذه عبارة عن مجموعة من العزائم والرقى تعلموا استظهارها وحفظها عن ظهر قلب ، وتتمثل في بعض الكلمات المنتقاة من القرآن (الكريم) ، قوة "كلام الله" ، في ظنهم هي التي يجب أن تتغلب على قوة السُّم . وفي كل قرية من تلك القرى الجائلة يوجد شخص أو إن شئت فقل : "قارئ" يُضْجِرُ السامعين بقشور علمه ؛ أمثال هذا الرجل يكونون ضعيفي الفهم ، وليس فيهم أي شرط من الشروط الحسنى ، وهم يخدعون أنفسهم بالخرافات وبالتالي فهم مستعدين لخداع الآخرين . يقوم أصدقاء الملدوغ بإحضار ذلك الشخص ، وهم يبكون طالبين منه مساعدتهم ؛ وفيما بين التقاط أنفاسه يقوم ذلك "القارئ" بالتفل على الجرح ، ويرش عليه قليلاً من الملح . والبدو أناس طيبون في حق بعضهم البعض ، بل هناك من بينهم ، في بعض الأحيان ، من يكون على استعداد لمص جرح صديقه أو قريبه . ولكنهم يعتقدون أن كل ذلك لا طائل من ورائه إلى جانب "كلام الله" ، إذا ما أحسنت "قراءته" ؛ قرَّاء الصحراء هؤلاء - من جانبهم - وهم من الأميين ، يقرون بأنهم غير متعلمين . هناك أيضا كثير من الأفراد الجريئين بين الأعراب ، وهم من الرجال والنساء ، وهم على استعداد إذا ما لحق بهم أذى من هذا القبيل ، أن يتناول الواحد منهم أو منهن ، جمرة من الوجار ، ويروح يحرق بها لحمه المجروح ، إلى أن تنطفئ الجمرة في العضو المجروح : وهذا النوع من الرجال والنساء على استعداد لتحمل الألم بجلد بالغ (بحكم أن ذلك من الضرورة ، وأن حياتهم ستصبح عذابا دائما) .

هؤلاء البدو لا يعرفون شيئا عن أربطة الأوردة الدموية ، ولكني شاهدت صلَوبي يستعمل ذلك النوع من الأربطة في يوم من الأيام : عندما لدغت حية زوجته في ساق

أحد رجليها ، سارع الصلوبي إلى ربط الساق من فوق الركبة ربطا محكما ، وراح يمص السم . وبقيت زوجته طوال ليلة ويوم وهي شبه ميتة – كما اسودت بشرتها أيضا ، وبعد ذلك بدأت تتحسن شيئا فشيئا ، إلى أن عادت إليها صحتها وعافيتها مرة أخرى : شفيت تلك المرأة ولكن بشرتها بقيت على لونها المتغير فترة طويلة .. ومن باب البر والخير ، أن يعرف من يقدم على مص لدغة الحية أنه لن يصيبه أذى فى شفتيه أو فمه ، لأن الأمر لو كان غير ذلك ، فإنه سيؤدى إلى إصابة نفسه بالسم . حدث أن جاءني رجل يطلب دواء ، وكانت شفته السفلى حتى ذقنه عبارة عن قرحة مفتوحة : وقال بصعوبة بالغة (نظرا لأن الفيروس المريع كان قد أفسد صوته ،) إن هذا المرض الذى أصابه إنما كان من جراء مص لدغة حية من الحيَّات ، منذ عام مضى . أخبرته أننى آمل أن أتمكن من مساعدته فى الدواء ، وبالمجان ، جزاء له على شجاعته . ولكن ذلك البائس الملول احتقر ذلك الحكيم الذى لم يستطع شفاءه على وجه السرعة . قابلت ذلك البائس بعد ستة أشهر فى قرية تيماء ، حيث قال لى : "انتبه يا أنت ! لقد شفيت مما كنت فيه !" وكان اللحم قد كسى منطقة الجرح من جديد ، وأصبح شكله الخارجى يوحى بالشفاء .

والبدو ، مثلنا ، أو بالأحرى مثل ممرضاتنا عندهم ما يسمى أحجار الدماء التى تجعل الجرح يواصل النزف . وهناك خرافة أخرى بين هؤلاء البدو يعرفونها باسم أحجار الثعابين ، التى يعتقدون فيها اعتقاداً شديدا (والسبب فى ذلك أن هذه الأحجار نادرة جداً فى العالم وثمينة جداً أيضا ،) بأنها لابد أن يكون لها فضيلة خاصة فى مقاومة السموم . والفكرة الشرقية وراء عملية الأحجار الثمينة هذه ، تتمركز حول أن هذه الأحجار تحرك الذهن والعقل فى اتجاه العجائب الغريبة المدهشة ، وهذا المفهوم ما يزال إلى يومنا هذا يشكل قسما من التقييم العجيب للمجوهرات الخاملة فيما بيننا . هذه الأجسام المنتقاة التى تستعصى على الكسر والتحطيم ، شأنها شأن النجوم التى تسطع علينا من بين كتلة معتمة من المادة ، تبعث الراحة فى نفوسنا وأجسادنا المتقلبة : من هذا المنطلق تصبح كل المجوهرات قريبة من القلوب مما يجعل له تأثيرا دينيا .

يزاد على ذلك أن الأحجار القديمة ، التى خصصت بواقع حجر واحد لكل قبيل ، أيام كهنوت القس الأكبر لبنى إسرائيل Israel، يمكن القول من باب الافتراض أنها كان لها المغزى نفسه إلى حد ما . بعض أحجار الثعابين التى شاهدتها كانت ذات لون أحمر مشوب بالبياض ، أو من العقيق اليمانى ؛ كانت الفقاقيع الموجوده فى تلك الأحجار قد جرى حكها إلى أن أصبح السطح ناعما . ونظرا لأن كل هذه الأحجار لم تكن من نوع واحد ، فقد كان تقييمها يختلف من حجر إلى أخر ، ولكن ذلك التقييم كان يعتمد على فضيلة الشفاء التى يعزوها هؤلاء البدو لمثل هذه الأحجار ؛ وبناء عليه ، ذاع فى تلك البلاد صيت أحجار بعينها من أحجار الثعابين وبخاصة تلك الأحجار "التى أحدثت الكثير من حالات الشفاء ." فى تلك البلاد ، حضر إلى النصرانى بعض هؤلاء الرجال الذين لديهم ذلك الذى يطلقون عليه أحجار الثعابين ، وأرونى تلك التذكارات بعيدا عن أعين العامة . كانوا يلفون تلك الأحجار لفا عجيبا فى خرقة من خرق مسح المواعين ، كانوا يخرجونها من كيس يعلقونه على صدورهم . ووجهت تلك الأحجار ، وأنا أمسك بها فى يدى ، ناحية الضوء وسألتهم : "ما الذى فى هذه الأحجار أزيد مما فى الأحجار الصحراوية الأخرى ؟ وأنتم إذا كان ذكاؤكم أكبر من ذكاء الأطفال الصغار ، فيجب عليكم التخلص عن مثل هذه اللعب ، واللجوء إلى أربطة الأوعية الدموية التى تستخدم عند إجراء العمليات الجراحيه" . ولكن أصحاب هذه الأحجار ، سرعان ما أخفوا أشياءهم على وجه السرعة ، نادمين لأنهم كشفوا عن روائع تلك الأحجار أمام دنيوى غير حاذق . البدو بينهم أيضا الكثيرين من أصحاب العقول المتفتحة ، الذين لا يؤمنون بأى شىء ، غير الظرف المتصل بدينهم ، ولذلك جاء ردهم علىّ على النحو التالى : "إذا كان الكثيرون قد عالجوا الكثيرين باستعمال هذه الأحجار ، فنحن أنفسنا لم نراهم يفعلون شيئا من هذا القبيل ! " ولكنى عندما سألت أصحاب هذه الأحجار : "هل أنتم إذن أدعياء أو دجالين ؟" أجابونى قائلين : "أبدًا ، وبصدق ؛ بوسعنا تقديم كثير من الشهود أن الأشخاص الذين لدغتهم الحيّات جرى انقاذهم باستعمال هذه الأحجار ، التى تعترض عليها أنت ؛ ولكنك لم تولد فى هذا البلد ، وبالتالى فأنت تكون مخطئا

فى الأمور التى من هذا القبيل ." قالوا لى أيضا ، إن بعضًا من ملاك هذه الأحجار لديهم أحجارا استطاعوا بها "مرارًا شفاء لدغات الثعابين من "الديدان" الخطيرة ؛ كما أخبرونى أيضا أنهم حصلوا على جمل على سبيل الأتعاب نظير شفائه من لدغه الثعبان ."

معروف أن كل أبناء القبيلة هنا يُدْعَون "عيال" ' eyyal عم" amm بمعنى "أبناء عمومة" ، ويشيع عنهم أنهم أبناء لسلف أو إن شئت فقل : جد واحد . كما تجمع بينهم القرابة أيضا عن طريق سلالة نسبية أخرى ، سمح لأفرادها بالانضمام إلى القبيلة ليصبحوا "عيال" "عم" أيضا مع بقية أفراد القبيلة ؛ وأقرب مثال على ذلك هم المواهيب ، الذين هم من سلالة العنوز(*) Annezy، وجرى تطعيم قبيلة البلّى بهم ، وأصبحوا يحملون نسب البلّى ، وبذلك يكونون قد أصبحوا "أبناء عمومة " من الجانبين . وإنه لمن باب التملق والمداهنة فى القبائل ، أن ينادى النظراء فى السنّ الواحدة بعضهم البعض باسم "ولد" ' weled عمّيّ" ammy . والعم عند البدو هو شقيق الأب ؛ يضاف إلى ذلك أن كلمة "عم" تطلق أيضا على رب الأسرة مثل الرجل الذى أحل عليه أنا ضيفا الآن ؛ وكلمه "عم" تطلق هنا أيضا على "زوج الأم" عندما يناديه طفلها من زوجها السابق . يضاف إلى ذلك ، إن كلمة "عم" على لسان الخدم أو العبيد ، تدل على رب نعمة ذلك الخادم أو العبد ، (من هنا فإن الإسبان يستعملون كلمة "عمّو" Ammo، من بعد وجود المغاربة فى أوروبا) . والشخص الذى يكون أكبر من شخص آخر ، ويحل ضيفا على قبيلته ، يقول عن المضيف "ابن" ' ibn أخى" . akhy وكلمه "أبوى" abûy (بمعنى والدى) هى لقب يدل على الوفاء والاحترام من شخص أقل فى المرتبة إلى آخر أعلى منه مرتبة وتقديرا واحتراما ، كما هو الحال فى رب الأسرة ، (وعليه كان داود David، عندئذ رئيسا للمطاريد. والرئيس الشرعى لشعبه ، الملك شاؤل Saul) تعبيرات وعبارات الإقناع الهّين اللين ، التى تجرى على ألسنة هؤلاء البدو تفيض إنسانية وهى تصدر من قلوبهم عندما يقولون : لصالحك ، "أنا" ' ana أبوك" abûk بمعنى "كلامى صادق ، وأنا

(*) العنوز : من قبيلة عنزة . (المراجع)

والدك" ، أو "أنا " ana أخوك akhūk بمعنى "أنا شقيقك " أو عندما يقولون : "أنا" ana "أختك" akhtak، أو أنا " ana أمك" . ummak وهناك تعبير شبيه بهذه التعبيرات الهينة اللينة يتمثل في فيما ورد عند (سيدنا) موسى ﷺ . والذى يجىء وفقا للوصايا السماوية ويقول : "أنا خليفة Lord ربك . "thy God

بالرغم من أن البدو يعيشون في وئام وانسجام مع بعضهم البعض ، إلا انهم فئويون أو إن شئت فقل : طائفيين ؛ وأصحاب العقول غير الحصيفة من بين هذا النوع السائد من البدو سريعى الاستثاره والدخول في الصراعات ، إضافة إلى أنهم يشيع عنهم أيضا سلاطة ألسنة نسائهم . هذه القرية الجائلة تنشب فيها يوميا بعض الخلافات ، وعندما يجىء الصباح تحال هذه الخلافات كلها إلى المجلس . سكان الواحات ، الذين يشبهون الطيور المحبوسة داخل أقفاصها ، أكثر فهما وأكثر تفهما أيضا . وفي أحيان كثيرة تنشب نزاعات مزعجة ، حول تأكيد ملكيه شىء من الأشياء التافهة : ففى الصراعات أو النزاعات التى تكون من هذا القبيل يظن كل طرف فيها أنه هو الوحيد الذى في كفة الميزان ؛ والبدو عندما يتنازعون على سبيل المثال حول شىء من قبيل : "تيس من هذا ؟ (وقيمته لا تساوى أكثر من اثنى عشر بنسا) – "أقسم بالله ، إنه تيسى أنا ." – "مستحيل ، انظروا ، يا كل الواقفين ، واشهدوا ؛ بالله عليكم ، أليست هذه هى العلامة التى أحدثتها أنا فى أذن هذا التيس ؟" الغضب مسألة سريعة ، بين هذه القلوب التى تحيا حياة جوع وخوف ، وتسهل استثارتها : صدور هؤلاء البدو الضيقة تنطوى على قدر كبير من الشهامة ، هذا يعنى أن الضعيف ، وصاحب الحظ غير الوفير بين هؤلاء البدو ، قد يثور ويفور ويشتط غضبا إذا ما أساء إليه أحد من الناس . يضاف إلى ذلك ، أن فى داخل هؤلاء البدو ، منذ الطفولة ، نوع من الخلاف القديم الذى يتعين تفريغه والخلاص منه .– هذه التركيبه النفسيه تتجلى بصورة أوضح فى الرعاه وأمثالهم عنها بين سلالة الشيوخ ومن فى حكمهم ؛ والسبب فى ذلك أن هؤلاء الشيوخ هم ومن فى حكمهم تزول خلافاتهم فى المجلس الذى ينعقد يوميا وفى صحبة القهوة التى تتسم بالألفة والمودة . وإذا ما أفلتت كلمة حارقة من بين شفاه سائبة لرجل مشاكس نكد ، يمكن أن تشعل نارًا حامية فى قلوب هؤلاء البدو ، وقد

يصل الأمر إلى حد أن يسحب البعض منهم السلاح على البعض الآخر في ميدان القتال . وهنا يندفع كل الحاضرين بمحض إرادتهم لفض ذلك النزاع : "(يصيح أولئك المحجِّزون) بالله عليكم ! لا داعي لكل هذا ؛ واطرحوا الأمر أمام الشيوخ ليبتوا فيه ؛ والمطلوب منكما الآن أن يذهب كل واحد منكما إلى بيته ، وسوف نصحبكما إلى بيتيكما ؛ ولذلك يمكن تأجيل نزاع من هذا القبيل إلى طلوع النهار ، حيث سيجرى الفصل بالعدل بينكما ." وشيوخ البدو يحكمون في هذه الأمور حكما عادلا ومنصفا ومستمدا من الشرع ؛ والشيوخ هم صنّاع السلام في المْنزَل ، وهم أيضا المحكِّمون بين رجال القبائل .

ذات مساء ، أحضروا لي رجلا ينزف من ذراعه ، وكان الرجل قد أصيب منذ فترة وجيزة بضربة سيف من واحد من بدو الفهجي ، وأحدثت تلك الضربة قطعا في ذراعه : كان ذلك الرجل قد تنازع مع الفهجي في ملكية عنزة صغيرة . وعندما ظن ذلك الفهجي المسكين ، إنه غلب علىَ أمره دون وجه حق ، بادر إلى نزع سيفه القصير من غمده ، وضرب به ذلك المعتدى ، – وسارع الجيران إلى مكان النزاع وأمسكوا بالاثنين . غمغم زيد ونحن جلوس حول وجار القهوه قائلا ، "– عجيب أن يكون فهجي هو المعتدى ! (والسبب في ذلك أن بدو الفهجات من نجم وضيع ، وبالتالى فهم يشكلون سبيكة من نوع خسيس ، وبالتالى فهم سلالة وضيعة ومحتقرة بين الأعراب .) ولم يحدث مطلقا من قبل أن رفع بدوى من بدو الفهجات سلاحه على واحد من بدو الفجيرى ." هذه السلالة الصغيرة من بدو الحطيم هم بمثابة الزبائن التقليديين ، أو إن شئت فقل : (العملاء التقليديين الذين يسكنون ديار الفجيرى . من هنا فإن شيوخ الفكارة ، وزيد واحد من كبارهم ، يتعين عليهم أن يحكموا في الصباح بين هذين الرجلين بلا تمييز أو محاباة : وقد بلغنى أن الشيوخ أدانوا الفجيرى ، وحكموا عليه بأن يدفع عددا صغيرا من رءوس الماشية ؛ ولهذا السبب ، وجدت ذلك الفجيرى ، في فترة لاحقة ومعه أقرب أقاربه يعيشون عيش المنفيين ضمن قبيلة أخرى . دفع هذه الغرامة يمكن الوفاء به (وقبول نفس العدد المحكوم به من الماشية) في أى عام من الأعوام المقبلة ، ومن خلال الزيادة الطبيعةه التى تطرأ على مواشيهم ، وبذلك يستطيع أولئك المنفيون رد اعتبارهم :

والسبب في ذلك أن مسألة الربا ممقوتة وغريبة على التعامل الأخوى الذى يحكم العلاقات بين القبليين الرُّحَّل .

يقول الرحالة الذين وصلوا إلى هذه البلاد عن بدو الفهجات ، وذلك من قبيل ضرب الأمثال : "الفهجات مرحون دوما ." وما هى الهموم التى يمكن أن تشغل بال أولئك الذين يحيون حياة ملوثات الهواء ، الذين لا يتطلعون إلى الحصول على أى شيء أو خسارة أى شيء فى هذه الدنيا : والفهجات بشكل عام يحضرهم دوما المرح الخفيف الطريف ، ولديهم شيء من اللطافة التى يتحلى بها الشحاذون . وهم يقولون إن والدهم هو مرحاب Marhab، ذلك الشيخ الذى تولى أمرهم بعد أن فتح المسلمون خيبر القديمه .- ترى ، هل هؤلاء الفهجات هم يهود خيبر ؟ لقد رأيت دولان Doolan، أشجع وأفقر هؤلاء العناترة (جمع عنتر) ، وقد طرح أرضا طيلة ليلة ويوم بعد أن تيبست شفتاه لنا بذلك الاعتراف الشهم ؛ وهو فى ذلك يشبه سيده الأكبر عنترة ، الذى اعترف متفاخرا بسلالته غير الحرهةمن ناحية أمه ، الأمر الذى أحزنه بعد ذلك . اعتقاد الفهجات فى ذلك ، أو تصديقهم لذلك ، هو الذى كان يجعلهم ينظرون إلى النصرانى (دوتى) باعتباره واحداً من أقربائهم القدامى ؛ ونظرا لأنى كانت توجه إلىَّ الاتهامات بسبب دينى ، فقد كان ذلك يكسبنى حسن ظن هؤلاء الفهجات ، الذين كانوا هم أنفسهم عبيدا لحظ عاثر عنيد . فى بعض الأحيان ، كان هؤلاء الفهجات يقترحون علىَّ أن أتخذ لنفسى زوجة من أجمل بناتهم ؛ ومبلغ علمى أن نساء الفهجات (الحطيم) هما الشكلين المفضلين من أشكال النساء فى هذا المخيم الكبير . وبينما كنت راكبا دابتى أثناء واحدة من الرِّحْلات ، رحب بى زوج إحداهن ترحيبا شديدا - أنا لم أر هؤلاء الناس من قبل - "أنت ، يا من تسير هناك ، خليل !" - "ويش weysh ودُّك widdak يازلامى Yazillamy؟" بمعنى "أيها الرجل ، ماذا انتويت ؟" - "أقول ، ألا تود الزواج ؟ أليست هذه (زوجته) امرأه جميلة ؟" وفيما بين مرحهما الاستجدائى ، والتطلع إلى تحقيق الفائدة ، يصيح ذلك الفهجى مبتهجا قائلا : "والله ، لو أحبتك هذه المرأة ، فسوف أسرحها (ناطقا بكلمة الطلاق) ؛ كل مافى الأمر يا خليل ، هو أنك سوف تسوق إلى (بمعنى تدفع لى) خمسة من الإبل ." - التى أقسم أنه دفعها مهراً لها .

كانت تلك المرأة فارعة الطول وترتدى ملابس جميلة كما لو كانت عشيقة أو محبوبة ؛ وكانت تلف حول خصرها النحيل حزام صغير مزين بالدانتيلا جميلة الألوان : كانت تمشى حافية فوق الرمال الجرداء ، وهى واثقة تماما من تمرد عجيزتها ، فى تلك الصحراء التى يعيشون فيها . "(تساءلت) وما رأيك أنت ، يا أختاه ؟" ردت على قائلة : "إذا كنت ستقبلنى ، على هذا الوضع ، يا خليل ، فأنا مستعدة لذلك ." - هكذا نرى أن الزواج عندهم خفيف وسهل على هذا النحو ، وكلهم تقريبا تعساء ولا يستشعرون السعادة ! وتجاوزتهما فى صمت بحكم سرعة خطوات الناقة التى كنت أركبها . وفى يوم آخر ، شاهدت تلك المرأة وقد جاءت لحضور احتفال ختان ، وحييتها مناديا باسمها ، ولكن بسبب كلمه ساخرة خرجت منى ، أفهمتنى بنظرة جريحة ، أنى أصبحت محطا لاستيائها وعدم رضاها .

أثناء تجوالى مع الفجير رأينا شيخا ساخطا ومتذمرا من العلايدة Allayda شيوخ ولاد على . كانت هناك بعض أسر من الفقاره يعيشون منفيين مع ولاد على . نزاع هذا الفرع من العلايدة كان مع فرع آخر منهم يتزعمه الشيخ مطلق العلايدة ، وكان ذلك النزاع يتعلق بمسألة توزيع صرة الحج . كان مطلق يرى أن نصيبه أقل من المطلوب ، وأن الطرف الآخر من النزاع حصل على مبلغ أكثر مما يستحق . وبناء على ذلك ، وبحكم سلطته التى يستمدها من الرأى العام ، قرر الاستيلاء على إبل الطرف الآخر . علايدة الشيخ مطلق لم يكونوا رجالا طيبين وذلك من منطلق الرأى العام فيهم : فقد حدث أن قلت ذات مرة ، وأنا فى خيام أولئك الشيوخ بمناسبة الكارثة التى حلت بهم (ولاد على) نتيجة الغزو الذى قام به أعداؤهم ، أننى أشعر بالأسف لما سمعته عن الكارثة التى حلت بهم ؛ رد على أولئك الشيوخ رداً يتسم بالبرود "لم نكن المتسببين فى تلك الكارثة ، وإنما إله البشر Bishr هو الذى أنزل بهم ذلك المكروه الكبير ." كان منزل الفكارة يحتوى أيضا على أسرتين أو ثلاث أسر من الأسر التى ليست قبلية تماما ، كانت هاتان الأسرتان أو الثلاث تتمثل فى أبناء بعض رعاة القلعة من الدمشقيين السابقين ؛ وبعد أفول نجم آبائهم تحولوا إلى بدو تجار بسطاء مع أقارب أمهاتهم . وبعض آخر من أشقاء أرباب هذه الأسر تحولوا إلى الحياة المدنية (الحضر) وعاشوا

حياتهم في المدينة الأم ؛ وقد سبق لنا أن قلنا إن هؤلاء الأشقاء كانوا يحضرون كل عام من سوريا للإتجار مع هذه المنطقة في موسم الحج . أما ذلك القسم الذي بقي منهم في الصحراء فقد تحولوا إلى بدو رُحَّل ؛ ولكنهم كانوا أصحاب بشرة بيضاء وملامح أجنبيه غير ملامح البدو ، ولم يكن لهم تأثير مثل تأثير البدو . أشباه البدو هؤلاء كانوا يعودون كل عام ، في شهور الصيف ، (بعد أن يدب الملل في نفوسهم من كثرة ترحالهم ،) لينصبوا خيامهم أمام القلعة القديمة (التي سبق أن ولدوا فيها) في قرية الحجر . ومع ذلك كان من بين هؤلاء البدو شخص واحد ، هو أجرأ نخَّاس في القبيلة كلها . كان ذلك الرجل يداوم على الإغارة والغزو بصورة مستمرة طالما وجد لنفسه مثيلا يشاركه العمل نفسه ، ولما كان هو شيخ المنصر ، فلابد أن يأخذ نصيب الزعيم من كل غنيمة من الغنائم . ثم يقوم بعد ذلك بالتجوال في الصحراء الجرداء الجافه التي تحرقها أشعة الشمس . هؤلاء البؤساء الذين كانوا يقومون بعمليات الغزو تلك ، كانوا يسطون على بيوت الأعراب المعادين لهم ، ويواصلون الركوب والنزول لحين حلول الليل ، ثم يتسللون بعد ذلك إلى البيوت التي ينوون السطو عليها - بعد أن يقيدوا إبلهم ويتركونها في منطقة آمنة بعيدا عن تلك البيوت - أملا في سرقة بعض الإبل ؛ ولكن هؤلاء الغزاة (اللصوص) كانوا يعودون إلى ديارهم من تلك الأعمال الخطيرة ، وهم يلهثون من شدة التعب ، ودون أن يجنوا أو يحصلوا على أي شيء من الغنائم . كان شيخ المنصر هذا شجيع شجاعة الفرس الكديش الهزيل الضعيف . ففي كل تجوالهم وجوثهم في الصحراء ، كان يتحتم عليه أن يجعل من رفيقه عينين له ؛ فقد اكتشفت أن عينيه كانتا شبه مغلقتين بفعل رمد قديم .

بعد انقسام القبيلة طالت أيامنا الخانقة الخالية من الريح من ناحية ومن المجلس من الناحية الأخرى ؛ ومع ذلك ازدادت روابط الصداقة بين هؤلاء الجيران القلائل . كان زيد في بيته بصورة مستمرة ؛ كما كان رفاقه الشيوخ يفدون إلى ذلك البيت ، وكان هو بدوره يصلِّح لهم القهوة ويقدمها لهم . كانوا كلهم أبناء عمومة ، ولم يكن في قلب المضيف غلا أو حسدا لأحد منهم ، إضافة إلى أن البدو يميلون إلى المرح ؛ كان ذلك المرح ينصب على آخر ما وقع بين حرفة وزيد ؛ كانوا يسخرون دوما من سلوك تلك

الزوجة الشابة الشاذ غير المقبول . "يا حرفة ! يا حرفة ، أجلسي صامتة خلف الستار ، وحاولي أن لا يكون لك لسانا حريميا ؟ قفي في مكانك ، واسمحي لوجهك الصغير أن يُرَى من فوق القماش ، ويرني نفسك أمام جميع الحاضرين . يا حرفة ! ما هذا الذى نسمعه منك ، أمازلت تعاندين زيداً ؟ ألم تنس زيدا بعد ؟ أمازلت تتركين زيداً بلا عائله (ربة بيت) ؟ وهل يتعين أن يقوم خليل بإحضارك إلى البيت مرة أخرى ؟ ماذا عندك لتقولينه دفاعا عن نفسك ؟" وهنا يتكلم الشيخ خلف علايدة فيقول : "قل لى رأيك يا خليل فى فرسي . إنها تساوى خمسة وثلاثين جملا ، كما أن أمها تساوى خمسة وعشرين جملا ؛ ولكن فرس زيد لا تساوى خمسة جمال : – ثم ، ألم تر جارا (jara ربه بيتى) ؟ قل لنا يا خليل من منهما صاحبة الوجه الأجمل أهى حرفة أم جارا ." وهنا ظهر وجه حرفة وعليه مسحة من الغضب ، وقالت إنها لا تطيق ولا تقبل هذه المقارنة : "يا خليل ! لا ترد على ذلك ." كان ذلك هو لهو الأعراب فى حياتهم داخل الخيام ، كانت أفواههم تطفح بالسخرية والاستهزاء ، ويطلبون من الغريب ، أن يلعب دور القاضى فى تلك السخرية وهذا الاستهزاء . كانوا يسألون الغريب : "أليس هذا جومانى (عدو) ؟ يا خليل ، إنه حبلوص (لص) : ما الذى ينبغى أن نفعله فيه ؟ هل أقطع رأسه ؟ – ويقولون ، هذا الرفيق العجوز ، لا يفعل شيئا مع زوجته ؛ من باب الشفقة ، ألا يمكن لك أن تساعده ؟ أليس له من دواء ؟" – ويقول الرجل العجوز ، : "لا تستمع إلى كلام هؤلاء المخبولين ." وهنا كانوا يقولون : "هذا الزيد لا طائل منه ، فلماذا تعيشين معه ؟ وهل حرفة طيبة معك ؟ إنها تصب لك اللبن ؛ وهى جميلة ، إنها مزعونة mez'ûna لولم يكن هنا غرباء ، لدخلت علينا حرفة فى مثل هذه الأوقات ، وجلست معنا لتمرح هى الأخرى معنا : لقد كانت حرفة شيخة ، وكان زيد رجلا كديشا ، وكان يرى بين البدو فى معظم الأحيان . وفى بعض الأحيان ، ومن باب تزجية الوقت ، كانوا يسألون عن بعض كلمات من لغة النصرانى ، وبعد أن كانوا يحفظونها عن ظهر قلب كانوا ينادون حرفة بصوت عالٍ ، وبلغة إنجليزية واضحة قائلين ومنادين عليها : Girl, bring milk ! بمعنى "أحضرى الحليب ، يا امرأة" – وحياتك يا حرفة ، لقد تعلمنا إنغريز Enghreys هذا المساء ." وتتكلم حرفة فتقول : "وكلمة 'دخان' ما معناها فى لغه خليل ؟" – إنها

Tobacco بمعنى "التبغ" . – "إذن ، أعطينى شيئا من هذه الكلمة الطيبة فى غليونى ، إملأ لى رأس غليونى ، يا خليل !" – في يوم آخر ، وصل رجل قبلى وجلس بالقرب من حرفة في القسم الخاص بها من البيت ؛ وعندما رأى الغريب سألنى : "خبرنى ، أليست حرفة مزعونة (جميلة) ؟ آه ، ليتها كانت زوجتى !" وراح هذا الوغد يكشف عما يدور فى ذهنه بإشارات فيها كثير من الخسة . وعندما وجدت حرفة نفسها فى موقع الغزل والتودد ، بالرغم من أن ذلك الرجل لم يكن من الشيوخ) جلست بلا حراك وابتسمت ؛ بينما راح زيد ، الذى يستطيع أن يلعب دور الإنسان الوقح سليط اللسان فى زواج الآخرين ، يتمالك نفسه ويبتسم ابتسامة الرجال .

ربما يكون زيد قد أخذ بعين اعتباره مسألة تخلصه من حرفة في يوم من الأيام ، نظرا لأن ما يزعج قلب الرجل هو المرأة المزعجة التى تثير القلق !– بينما كنا نجلس ذات مساء ، على شكل صحبة قليلة العدد ، حول وجار قهوة زيد قال الرجل : "والله ، يا خليل ، أنا وأنت أخوان . وكدليل على ما أقول ، فأنا أسألك ، ألا تفكر فى الزواج وأنت بيننا ؟ انتبه ، أنا لدى زوجتان ، وأنا أقسم بالله ، أنى أعطيك الحرية فى أن تختار واحدة منهما ؛ خبرنى من منهما تريد ، وسوف أتركها لك وتصبح زوجة لك . ها هى مضيفتك حرفة ؛ والأخرى اسمها بشْرية Bishria، وأنا أعتقد أنك رأيتها هناك ." – ربما كان يفكر فى إعطائى حَرفة ، على أن يستعيدها مرة ثانية (معدَّلة) بعد رحيلى وبالتالى لا تضيع منه إبلها ؛ إذ يبدو لى أنه تزوج من إبل تلك اليتيمة . ورددت على ذلك العرض اللطيف قائلا : "إذا كانوا يودون زواجى ، فينبغى ألا يكون ذلك من زوجة من زوجات الرجال الآخرين ، لأن ذلك يتعارض مع عقيدتنا ، ويجب أن يعطونى رَخيَّه Rakh?eh :" رخية، تلك كانت طفله من أطفال أخت زيد ، كانت قد تعودت المجيء يوميا إلى خيمتنا كى تلعب مع أخوانها من الأطفال . "رد زيد قائلا : أتسمعين ما يقول يا حرفة ؟ سوف أعطيك حالا إلى خليل ، ولكنه فضل عليك طفلة ." قالت حرفة وهى مستاءة إلى حد ما : "حسن ، نفذ ما يقول ، وأنا لا تهمنى آراء خليل ." – حدث أن التقتنى زوجة زيد البشرية وسيعة العينين ، بعد ذلك ، فى يوم من الأيام ، فى المخيم ، وعرضت على ، فيما بين الجد والهزل ، ودون أن أطلب منها ذلك ، أن تأخذنى إلى

زوجها ، وعلى أن يقوم زوجها بتطليقها : ولكني يتعين على شراء بعض من الماشية الصغيرة ، وبيت من بيوت الشعر ، وبعض من الإبل ؛ وعندها (في ظنها هي) يمكن أن نحيا صحبة سعيدة ، نظرا لأن النصارى لا يتخلون عن زوجاتهم . في بعض الأحيان كان بعض الآباء يعرضون بناتهن الأطفال ، ويثنون على جمالهن ، ويشهدون كل الحاضرين على ذلك ؛ كان الشباب يعرضون على شقيقاتهم : وكان سبب ذلك أن زيداً أشاع أن خليلا ، الذي جاء للعيش معه ، سوف يشارك في عمليات الغزو ويصبح واحداً من المتأهلين - وبالرغم من الحسد والغيرة اللذان يدوران فيما بينهم ، لم يكن من بينهم أي أحد غير راض عن أبوة النصراني ، نظرا لأن سلالة النصارى مفضلة في عقيدتهم ؛ كما أن البشرة البيضاء ، هي من وجهة نظرهم ، إشارة إلى سلالة نسبية متجانسة ، أكثر من سلالتهم . ولما كان هؤلاء البدو عبارة عن بشر على قدر عال من الخيال الجامح ، فهم يتصورون أنفسهم ملونين ومليئين بالعيوب والأوجاع ؛ وهذا هو سر حزنهم . عرفت بعض البدويات اللاتي كن يحتقرن الزواج من بدوي ؛ كما عرفت أيضا نساء من الواحات كن يحتقرن الزواج من بين القرويين في القرية نفسها . وكانت تلك البدويات يعتبرن مسألة زواجهن مصادفة من واحد من سكان المضارب المستقرة ، نوعا من التقدم والرقي . يضاف إلى ذلك ، أن بنات البدو يسهل تزويجهن من رعاة القلاع والعاملين فيها .

لا يبقى في خيمة رب الأسرة سوى الأيلات الصغيرة ، هي والصبية الصغار الذين يكونون دون الحلم ، وهم أيضا الذين يسمح ببقائهم بغير زواج . والرجل الأعزب ، بين قبائل الصحراء يعد بائسا في واقع الأمر ، وبلا خيمة ، نظرا لأن الخدمات المنزلية كلها من اختصاص الحريم : وفي وجود عدد كبير من النساء المهجورات ، والأرامل ، لا يعجز أي رجل من الرجال البائسين عن إيجاد صنيعة make تشاركه "البناء" ، والتحميل ، والطحن ، وجلب الماء والحطب : ومثل هذا الرجل لا يكلفه الأمر شيئا سوى ذبح شاه (أو عنزة إن كانت موارده محدودة لوليمة العشاء . والحريم لا يصدقن ، أن رجلا يمكن أن يسكن وحده ، في ضوء مزايا الزواج التي تُرجِّح صفَّه أو تقف إلى جانبه . والبدويات اللطيفات يسألن الغريب ، على استحياء ، عن الزوجية : "أليس لديكم حريم

يكين عليكم فى بلادكم ؟" - والحريم عندما تغيب عنهن مساعدة الرجل وعونه فى بيت الزوجية ، يصبحن أرامل فى واقع الأمر . ومن باب كلام المداعبة مع الضيوف المترحلين ، وكذلك الغرباء الذين يحلون على خيامهم ، "تجوزك nejowwozek بنت " bint، بمعنى "سنعطيك فتاة عذراء لتكون لك زوجة ." كنت أرد على ذلك قائلا : "ما الذى يتعين عليها فعله فى بلادى ؟ هل يمكن لها أن تنسى لغتها وأهلها وشعبها الذى يعيش هذا النوع من الحياة فى الصحراء القاحلة ؟" وكانوا يردون على : "ليس هنا سوى الجوع والعطش والعرى ، وبلادكم بلاد طيبة ؛ وهذا يعنى أن الزوجة سوف تطيعك وتخدمك ، وهذا أفضل لك : والرجل الأعزب يحس كثيرا من الأسف ، كما أنها سوف تتعلم لغتك ، كما تعلمت أيضا اللغة العربية ." ولكن البعض منهم كانوا يغمغمون بكلام غير مفهوم : هذا من قبيل الحقد من النصارى ، ولن يتزوج خليل ، مخافة أن ينمو الدين الإسلامى وينتشر فى بلادهم ." بعض ثالث كان يقول : "من العدل اعطائى زوجة ، لتحقيق ذلك الهدف ، أى على أمل قيام العابدين المخلصين بين النصارى ، أو بالأحرى بين أولئك الذين لا يعرفون الله ." وسمعت أيضا يتردد بين هؤلاء البدو : "تزوج يا رجل ، وخلف لنا بنتا بيضاء ، التى يمكن أن تكون فى يوم من الأيام زوجة لواحد من كبار الشيوخ ." ربات البيوت البدويات يتمتعن بحرية كبيرة . القلة القليلة من النساء الجيدات ، المتزوجات من رجال لهم وزنهم ، والذين أنجبن منهم أطفالا يندر وجودهن ويتندر الناس بجمالهن وحسنهن . والحريم ذوات القيمة الأصغر ، اللاتى يتنقلن من زيجه إلى أخرى ، ومن سُرِّيةٍ إلى أخرى ، واللاتى يشعرن دوما بالتدنى ، يكن دوما محطا لكلام البدو ، الذى يكون مصحوبا بالكلمات المخزية الخالية من الحياء والتلميحات والإشارات إلى النساء المهجورات . والضال من الجنسين يطلق البدو عليه اسم "عفون" بمعنى "الشخص المتعفن" . و "الخدارى" فى خيام البدو هن العذراوات ، اللاتى هن تحت وصاية آبائهن واخوانهن ، ويحظين بتقدير كبير من الرأى العام . وعندما تقوم بنات من بعض الخيام المنعزلة ، برعى الماشية ، شأنهن شأن بنات يثرو Jethro المدينيات(*) Miadianite،

(*) بنات يثرو المدينيات : بنات شعيب (عليه السلام) من أهالى مدين اللاتى تزوج سيدنا موسى عليه السلام واحدة منهن . (المراجع)

نراهن ترعين قطعانهن فى الصحراء ولا تخفن من أى شر أو مكروه ؛ إذ ليس هناك شاب من شباب القبائل على استعداد لممارسة أى ضغط أو قمع على مثيل هؤلاء العذراوات (بالرغم من خِسة الكثيرين من هؤلاء الشباب) من منطلق إنهم شباب متدين . والجميع هنا ينظرون إلى خرق عقيدة الصحراء والخروج عليها ، وكذلك على تعاليم الدين الإسلامى ، على أن كل ذلك حرام فى حرام ؛ من هنا يصبح من يذنب غير جدير بالعيش بين هؤلاء البدو ، أو إن شئت فقل : فى خيام الأعراب .

مضت إلى الآن ، فترة طويلة على خيامنا السوداء التى نصبوها فوق تلك الأرض الرمليه ، الواقعة أمام ذلك البروز الأبيض من صحراء النفود : أو إن شئت فقل : ساحل إرنان Irnan الموجود أمامنا ، الذى تعد تشققاته الوعرة ، التى ينمو فى كل شق منها نوع من الأعشاب الصغيرة التى تتغذى من ذلك الجو القاحل ، وتعد مأوى للماعز البرية التى لا تشرب الماء مطلقا . هاهى ليلة الصيف قد أوشكت على الانتهاء ، وهاهى الشمس تشرق مثل تاج من اللهب المعادى منبعث من قمم جبال الحجر الرملى الطاردة ؛ ونهار الصحراء لا يجيء متدرجا ، ولكن النهار يتحول إلى ظهيرة خلال ساعة واحدة . وهنا تدخل الشمس مثل طاغية على سطح الأرض الجرداء ، وتندفع نحونا مثل لهيب من الأشعة النيرانية ، لا يمكن أن تتبدل إلا بعد فترة طويلة من حلول المساء – الطيور هنا لا تعرف الصياح ، حبارى الصقور هنا ، التى لها أصوات مفعمة بالسعادة عندما تكون فى تلك الأرض الشاسعة والقاحلة ، لا وجود لها هنا فى هذا المكان ؛ هذه الحرارة الشديدة لها خطورتها على الرأس ؛ الأذان هنا تطن بفعل نبذبات ذلك الصوت الحاد ، وهذا الطنين يبدو كما لو كان نوعا من الزحف أو التسلل الغامض ، فى إطار هذه الطبيعة التى تضربها الشمس : لمعان الرمل الساخن يرتد إلى العينين ، والمرطبات جد قليلة فى خيمة المأوى ؛ هذه الخيام الصوفية يتسرب من خلالها المطر النارى الناتج عن ضوء الشمس ، وهذه هى الجبال ، تبدو كما لو كانت عظاما جافة من خلال الهواء الراكد ، ونراها على بعد من حولنا : هذا هو الجنب المتوحش من مغارة Moghrair الأب ybba، وهذا هو الطرف العلوى المدبب ومصاطب الجبال el-Jebal المدمرة ، التى يطلقون عليها اسم شيباد Chebàd، أو إن شئت فقل : ساحل حلوان ! Helwàn

قطعان الإبل البدوية الضعيفة تتلوى منتشرة هنا ، بحثا عن المرعى وسط هذا البلد الخانق ، الذى أتت فيه أسراب الجراد مؤخرا على الأخضر واليابس . هذا الهواء الساكن الحارق من حولنا ، يتعين علينا تحمله ونحن نكاد نختنق إلى فترة العصر : عندما يفيق الأعراب الغافون بعد ساعات الكسل والوخم . هاهو النهار الطويل ينسحب فى اتجاه غروب الشمس ؛ وها هم الرعاة ، بعد أن أعيتهم الشمس ، يعودون الآن ومعهم ماشيتهم ، ليتذوقوا فى منازلهم بشائر حلاوة المرح والراحه .– يأفل النهار ، وهنا يبرز انتعاش الليل من بين ثنايا هذا الهواء الصحراوى النقى : وهنا ينصرف الجميع إلى الأغنية الجميلة المبهجة وفنجال القهوة من حول ذلك الوجار العام . ويطلع القمر مشوبا بالاحمرار من خلف الجبل كما لو كان مصباحا قويا من مصابيح الإشارة :– ويوم باكر سيكون مثل يوم الأمس ، كلها أيام غارقة في شمس صيف هذه الأرض القاحلة الجرداء .

كان ذلك الجزء الشرقي الوعر من البلاد ، الذى وصلنا إليه فى رَحْلة من الرَّحْلات ، غير معروف للبدو الذين كنت أرافقهم ؛ لابد أن جيلا أكبر من الجيل الحالى هو الذى وصل فى تجواله إلى ذلك المكان : ومع ذلك ربما لم يعثر ذلك الجيل على الماء المطلوب . تجولنا خلال هذا الجزء الشرقى فى السهول المرتفعة ، (كان الارتفاع فى هذه المنطقة يصل إلى ما يقرب من ٤٠٠٠ قدم ،) وفى الممرات الممتدة بين قمم صخور الحجر الرملي ، المزدحمة بعدد لا يحصى من الصخور المتساقطة ، التى نصبنا فيها خيامنا أثناء النهار كى نستفيد بالظلال الناتجة عنها . ومن بين هذه المناطق الصخرية ، كانت هناك منطقة ، ربما لم تتساقط صخورها خلال جيل واحد ؛ ولكن هذه الصخور تشير إلى سنوات طويلة من الشمس شأنها فى ذلك شأن الرمل ، الذى يشكل جانبا صغيرا فى أى كوكب من الكواكب .

فصل الربيع القصير هو المتنفس الوحيد فى العام الصحراوى . فالحيوانات والبشر يسبحون خلال ذلك المد الزاهر ؛ كما تحصل الماشية على ما يشبعها من المرعى الحلو ، كما يتوافر لبن الخَض butter-milk فى بيوت الأعراب المصنوعة من الشعر ؛

ولكن خيمة زيد كانت خلوا من ذلك النوع من اللبن . هذه هى التيوس والحملان تقف كلها مربوطة أو إن شئت فقل : مقيدة ، كل رأس صغير مربوط إلى عقدة فى حبل أرضى مفرود على أرض الخيمة البدوية . وعند طلوع النهار يجرى إطلاق هؤلاء الصغار تحت النعاج ، لتستقبل كل ذات حَمَل حَمَلَها (وهى تميز ولدها عن طريق الرائحة) – وهى ترفض أى حَملٍ غير ولدها . وعندما يطلق القطيع إلى المرعى تبقى تلك الحملان هى والتيوس الصغيرة فى البيت ؛ والسبب فى ذلك أن ترك الحملان والتيوس تتبع الأمهات يجعل هذه الحملان والتيوس تأتى على كل الحليب الذى فى ضروع الأمهات الأمر الذى يترتب عليه جفاف تلك الضروع وحرمان العرب من غذائهم . بيت الشَّعر يظل طول النهار مليئا بتلك الصغار التى تثغو بسبب الجوع ، إلى أن تعود الغنم إلى المنزل فى المساء ، حيث يجرى إطلاق الصغار على الأمهات من جديد ، ليشربوا اللبن من الأمهات ، حيث يتدافعون تحت ضروع الأمهات ، وهم يهزون أذيالهم ؛ وطوال فصل الربيع الذى لا يستمر إلا بضعة أسابيع فقط ، نجد أن تلك الصغار لا ينقطع لها ثغاء أو صياحاً ، ويكون ذلك طوال الليل داخل بيوت الشعر البدوية : وهنا يقمن ربات البيوت بأخذ ما يتبقى من الحليب الحلو هذا ، فى ضروع الأمهات ، بعد أن ينتهى الصغار من الشرب . وقبائل بنى Beni وَهَاب Wahab التى تسكن هذه الأراضى المرتفعة الواسعة هم أصلا من بدو الإبل ؛ ولذلك يندر وجود الحيوانات أو الماشية الصغيرة بين هؤلاء القوم : وهم يحصلون على نوع جديد من الحليب فى فصل الربيع بعد أن تلد النياق . والناقة التى يجيئها المخاض ، ترقد على جانبها ويجرى توليدها دون أن تحدث صوتا ، والوليد الصغير يكون فى حجم الرجل الكبير : ويقوم الراعى بتمديد أرجل ذلك الوليد ، مستخدما فى ذلك كل قوته ؛ ثم يسحب الوليد بعد ذلك كما لو كان ميتا ، أمام الناقة الأم ، التى تتشمم وليدها وتنهض ثم تهب واقفة على قدميها كى تبدأ فى لحس ذلك الوليد . وهنا يقوم البدوى المولِّد بالربت براحة يده ربتة قوية على ما يسميه البدو الزُّورة Zora، (التى تشبه العمود ، والتى خلقها الله أسفل صدر الجمل ، كى تحمل ذلك العنق الضخم ،) ليفيق بعدها الوليد الصغير : وبعد مرور ثلاث ساعات ، وبالرغم من ضعف ذلك الوليد وترنحه ، وبعد أن يسقط عدة مرات على

الأرض ، يتمكن في النهاية من الوقوف رافعا عنقه الطويل إلى أعلى ويروح يبحث عن ضرع الأم . وفي صباح اليوم التالي يرافق ذلك الوليد الصغير أمه الناقة إلى المرعى . وهنا يمكن حلب الناقة على الفور ، ولكن ذلك الحليب الذي يجرى الحصول عليه منها في اليومين الأولين ، يطلق عليه البدو اسم حليب المسمار ، أي الحليب المعقم والمُطَهِّر ويسبب الإسهال لمن يشربه . وأول صوت يصدره البعير الصغير يشبه ثغاء الغنم ، وهو عبارة عن شكوى بصوت عال لها نغمة طيبة يقول فيها : باه Bâh باه Bâh . وفروة البعير الصغير تكون ناعمة مثل الحرير ، ورأسه يكون مستديرا أو عاليًا ؛ وجسمه قصير ، إذ يولد على شكل قوس ، كما أن خطاه طويلة بحكم أرجله الطويله ، كل ذلك يجعل ذلك البعير الصغير ، عندما يغلق عينيه بعض الشيء ، يبدو للرائي كما لو كانت هاتان العينان هما عينا طائر من الطيور كبيرة الحجم . والأباعر الصغيرة تعيش على لبن الناقهة الأم طوال اثنى عشر شهرا ؛ ومع ذلك ، فإن تلك الأباعر عندما يصبح عمر الواحد منها بضعة أسابيع ، يصبح قادرا على أن يلتقط هو بنفسه أعراف الأدغال الصحراوية : ونظرا لقصر أعناق الأباعر خلال تلك الفترة ، فهي تضع أعناقها بين أقدامها الأمامية حتى تتمكن من التقاط غذائها من الأرض . وذات مساء ، عندما تحسست شعر الأباعر الوليدة الناعم سمعت صوتا ينادى : "يا خليل ! (وجاءني المنادى وعلى وجهه مسحة من الغضب) ، إياك وأن تفعل ذلك مرة ثانية ، – لأن ذلك سوف يحد من جلودها ويجعلها تتوقف عن النمو ؛ ألا تعرف ذلك !" ظن المنادى أن الغريب حقود أو سيئ القصد ؛ ولكن زيدا الذى كان بعيدا كل البعد عن الخرافات لاطفني بابتسامة حلوة ، كما أن تلك الأباعر كانت ملكا له .

البعير الصغير يساوى عند مولده ريالا واحداً ، وكل شهر يمر عليه يزيد من ثمنه وقيمته . في بعض الأسر "الضعيفة" يجرى ذبح ذلك البعير الوليد ، حيث يتحتم عليهم هم أنفسهم شرب حليب نياقهم . والناقة التي تثكل ولدها بهذه الطريقه ، تروح تتجول ، وتجأر جأرا لطيفا ، وهي تتشمم بحثا عن وليدها ؛ وطوال حزن هذه الناقة ، وكما يقول العرب ، تكون عينا تلك الأم الثكلى "مليئتان بالدموع" . وبعد مرور عشرة أيام ، ينقضي حزن تلك الناقة ويذهب إلى عالم النسيان ؛ وتبدأ الناقة من جديد تتغذى من

المرعى ، وتعطى حليبها للأعراب . يستطيع البدو فى تلك الفترة الحصول على ما مقداره حوالى ثلاث بنتات (*) فى الصباح وأكثر من ذلك فى المساء حيث يستعملونه فى العشاء . وضروع هذه الحيوانات الضخمة ليست أكبر من ضروع الماعز التى شاهدتها فى مالطة . ولكن الناقة التى يتركون لها وليدها (بعيرها) لا يحلبونها إلا فى المساء فقط . وضرع الناقة به أربع حلمات ، يقسمها بدو الجنوب الرحل على النحو التالى : حلمتين يربطانهما برباط من القماش الصوفى وقطعة من الخشب ، ويحجزانها لإستعمالهم الشخصى ، ويتركون الحلمتين الأخريين لرضاعة الصغير ، أما أعراب الشمال ، فهم يؤمنون ضروع النياق باستعمال كيس من الصوف . وأثناء الرُّحْلات ، أو عندما تحس الناقه بالعطش ، يقل مقدار حليبها إلى النصف . ولبن النياق ليس واحداً . وعندما يجىء موعد حليب الربيع ، فإن البدو الرحل لا يتغنون على أى شىء سواه . والبدو لا يشربون حليبا كامل الدسم غير حليب نياقهم ؛ ومن ألبان حيوانات البدو الصغيرة لا يشربون سوى لبن الخض فقط ، أو إن شئت فقل : اللبن الحامض . والحريم يصنعن الزبد من اللبن عن طريق وضعه فى قربة الخض التى تهدهدها البدوية على ركبتيها . وفى صحراء الشمال التى تنعم بالوفرة والرخاء يستعمل البدو قربة خض (التى يقولون لها السميلى Smiley) أكبر من تلك التى يستعملها بدو الجنوب ؛ والبدو فى الشمال يعلقون خضاضة اللبن على حامل ثلاثى الأرجل داخل الخيمة . أما فيما يتعلق باستعمال الحليب غذاء ، فقد اكتشفت من واقع الدليل المتمثل فى حياة البدو ، أنه هو الأفضل من بين الأغذية التى يتناولها الإنسان . ولكن فى كل منزل من منازل البدو ، هناك بعض المعد التى لا تتحمل ذلك الحليب ؛ والرجال الأقوياء الذين يستعملون ذلك الحليب يحسون دائما بمرض الجوع فى أجسامهم ؛ بالرغم من أنهم لا يحسون مطلقا بأى نوع من الضرر أو المتاعب . والبدو يتكلمون عن أنواع الحليب المختلفة فيقولون : "لبن الماعز حلو المذاق ، وهو يؤدى إلى السمنة أكثر من تقوية الجسم ؛ ولبن النعاج شديد بكامل دسمه :" وعلى حد قولهم : "حليب النعاج يقتل البشر ،" بمعنى أنه

(*) البنت Pint : مكيال للسوائل يعادل حوالى ٥٦٨ ,. من التر (المترجم)

يسبب لهم مغصا شديدا . وبالرغم من أقوال البدو المأثورة تلك ، فقد شربت حليب النعاج مرارا وهو دافئ ، وكنت أشعر بارتياح شديد كما كان يخلصني من الإرهاق . وحليب النعاج غني بأفضل أنواع السمن : ولبن الخض الجديد "يجب تركه كي يحمض في السميلي أو إن شئت فقل : خضاضة اللبن ، بعد إضافته إلى الألبان الأخرى ، حتى تتمازج مع بعضها ، وبعدها يصبح صالحا للشرب ." وفى رأى البدو أن لبن النياق هو أفضل الألبان ، وأن أفضل الألبان هو لبن الناقة البُخْرة bukhra، أى الناقة صغيرة السن التي لم تلد سوى مرة واحدة ، ويضيف البعض من البدو على ذلك قائلين في سذاجة بدوية تامة "من يشرب وعنده جارا لن يمكث ولو ساعة واحدة ." معنى ذلك أن لبن الماعز ولبن النياق هو خلاصة النباتات التى ترعاها الماشية ؛ وفي بعض المناطق وجدت أن لذلك الحليب طعم بعض الأعشاب . ناداني شيخ من شيوخ العلايدة أثناء الرِّحلة وسألنى : "أليس لديك شيئا من الكعك الدمشقى (البسكويت) كى تعطينى إياه لآكله ؟ والله ، لقد مضى على ستة أسابيع الآن على آخر شيء مضغته بأسناني ؛ فكل طعامنا هنا عبارة عن ذلك الفيضان من الحليب . أظنك وقفت الآن على الحياة التى يحياها البدو ؛ إنهم يشبهون طرائد الصيد مبعثرين فى كل أنحاء هذه الصحراء القاحلة الجرداء ." شيخ آخر طلب منى إعطاءه حفنة من التمر ؛ "لأن هذا الحليب وحده يجعله يحس بالجوع في داخله ." والبدو يحتفظون بذكرى طيبة لكل من يتقاسم معهم الطعام ، أو إن شئت فقل : يشاركهم الطعام ؛ وإذا ما توفر الطعام لديهم تراهم يدعونك إليه عن طيب خاطر .

هؤلاء الأعراب الذين يقتاتون بحمية من الحليب يسعدون عندما ينالوا أية قضمة من لحم طريدة صغيرة . هذا بالإضافة إلى لحوم الأرانب البرية الصحراوية ، التى تصاب ، فى أغلب الأحيان ، بالذعر أثناء الرحلات التي يقوم بها البدو ، ومع ذلك يجيء الضَّبُّ قبل الأرنب البرى الصحراوى ؛ والناس هنا يطلقون على الضب اسما لطيفًا هو ، "السيد حامد أو إن شئت فقل : شيخ الحيوانات البرية" ، ويقولون أيضًا أن ذلك الضب آدمي أو زلّامي Zillamy (*) على حد تعبيرهم ،– هذا الضب هو عند البدو بمثابة الجنى

(*) زلامي : نسبة إلى زلة التى معناها رجل عند بدو الشمال (المترجم)

أو الشيطان الصغير الذى يبتسم ويلعب – وكدليل على آدمية هذا الضب ، فهم يمسكون يديه الصغيرة التى يوجد فى كل واحدة منها خمسه أصابع . والبدو لا يأكلون راحات أيدى الضب ، كما لا يأكلون أيضا الفقرات السبع الشوكية الأخيرة من ذيل الشيخ حامد الطويل ، والتى يقولون عنها إنها "من لحم البشر" . والمرعى المفضل عند الضب هو شجيرة العرفج التى تفوح منها رائحة طيبة . وجسم الضب عريض ومبطط ، ينتهى بذيل طويل مكون من ثلاث وعشرين حلقة . ولون الضب يميل إلى الاسوداد ، والبطن الشاحب كئيب ويميل لونه إلى الإصفرار وتتخلله بقع خضراء : والبدو يصنعون من جلد الضب قوارير صغيرة للحليب يستعملها الرعاة . هذا الحيوان الشبيه بالآدميين ، على حد تعبير البدو ، يستعمل يديه القوية فى حفر جحر له فى التربة الزلطية الصلبة ، يقضى فيه فصل الشتاء بكامله وهو غارق فى الأحلام . وصائد الضب ، عندما يعثر على جحره ، وبعد أن يدخل فيه بوصته الطويلة التى تنتهى بخطاف معدنى ، يسحب به الشيخ حامد إلى خارج الجحر . ويقوم بذبحه ، ويلقون بجسمه كله على النار ؛ وبعد أن يشووه بهذه الطريقة يعتبرونه من المحمرات الشهية . والعدو الرئيسى للضب من بين الحيوانات كلها – على حد قول البدو ، "والذى يذل ذلك الضب ويلتهمه ، وهو الظُّربان "thurbân"، وأنا لا أعرف إن كان ذلك الظربان حيوانا حيا أم حيوانا خرافيا . والجربوع ، أو إن شئت فقل : فأر الربيع ، عبارة عن مخلوق صغير أبيض اللون فى تلك الصحراء الواسعة الجرداء الخالية من الماء ؛ وهذا المخلوق يستثير الشفقة والعطف بجماله . هذه المخلوقات الصحراوية الصغيرة تختفى تحت الأرض أثناء النهار ، وهى لا تشرب الماء مطلقا . والقنفذ ، أو أبو abu شوك Shauk، كما يسميه البدو ، يأكل لحمه أفراد قبيلة الفجير ، أما جيران الفجير فلا يأكلون لحم القنفذ ويحتقرون من يقبل على أكله ، بالرغم من أن هؤلاء الجيران يدخلون مع الفجيرى فى سلالة واحدة ، عن طريق العنوز . أحضر سليم معه قنفذا كان قد ضربه على رأسه ، وشوى شوكه فى النار ثم قطعه إلى قطع أعطى كل واحد منها قطعة . وقد أخذت نصيبى ورحت أخفيه تدريجيا بإعطائه لكلاب الصيد الجوعانه ؛ ولكن الكلب عندما شم رائحة اللحم عافته نفسه ورفض أن يأكله . وعندما رويت هذه الحكاية فى يوم من الأيام للقبائل المجاورة ، ضحكوا غيظا ، لأن الفكارة يأكلون ذلك الذى ترفض الكلاب أكله . والبدو الرحل كلهم

يأكلون لحم الدُّلدل Porcupine، كما يأكلون أيضا لحم حيوان يطلقون عليه اسم "الوبّار" . Wabbar ولقد شاهدت ذلك الحيوان سميك الجسم ، وهو يشبه أرنبا بريا ثقيلا ، كما أنه شبيه أيضا بفأر جبال الألب الكبير ؛ وهذا الحيوان ينتقل أزواجا ، أو رباعا ، أو سداسا ، أو على شكل ثمانية أفراد ، أو عشرة أفراد . والوبّار يمكن العثور عليه تحت حواف الجبال المكونة من الحجر الرملي ، حيث توجد الأعشاب الطرية التي يتغذى عليها ، كما يتغذى أيضا على أوراق أشجار السنط ، وهو يتسلق هذا النوع من الأشجار بخفة ومهارة ، وهو يستخدم قدميه في تسلق تلك الأشجار ولا يستخدم مخلبيه ؛ وأطراف هذا الحيوان الأربعة في كل منها أربعة أصابع ، وفي القدمين الخلفيتين ثلاثة أصابع في كل قدم منهما : ولحم هذا الحيوان سمين وحلو المذاق : ولم أر تلك الحيوانات وهي جالسة على أقدامها الخلفية ؛ وجلد هذا الحيوان لونه رمادي ، ويشبه جلد الدب .

يندر أن يقتل حملة البنادق من البدو الرُّحل ذئبا ، ولكن إذا ما جاء الذئب من نصيبهم بأي شكل من الأشكال فإنهم يأكلونه ، (كان الناس في أوروبا يأكلون لحم الذئب في العصور الوسيطة) . والأعراب يعتقدون أن لحم الذئب فيه فائدة طيبة أو دوائية ، فهم يقولون إن : "لحم الذئب مفيد جداً في آلام الساقين" ، التي تشيع بين أولئك الذين يعرون أرجلهم ويمشون حفاة في كل فصول السنه . وقد أكل زيد لحم الذئب ، ولكنه يعترف بأنه من فصيلة الكلاب ، "نعم ، بالله (أجابني زيد) ، إن أم الذئب ، هي عمة كلبة الصيد ." والثعلب ، الذي يطلقون عليه اسم الحصيني hosseny، يلقون لحمه لكلاب الصيد في أغلب الأحيان ، ولكن بدو الفجيري يأكلون لحم الثعالب ؛ ولحم الثعلب "حلو ، ويجيء بعد لحم الأرنب البري من حيث الترتيب ." والبدو يأكلون أيضا لحم الضبع ، إذا ما أمسكوا به ويقولون : "إن لحم الضبع لحم طيب ." والبدنة من بين حيوانات الصيد في الصحراء ، ولكن يندر أن يصطادها أولئك الرعاة ، هم وسكان الخيام ، باستعمال طلقات بنادقهم . وهذه البدنة bedan الجبلية هي (الماعز البرية[*] كما ورد في الكتاب المقدس (الإنجيل) ، وجمع "بدنة" هو "بدون" bedûn؛

(*) البدنة : تطلق عادة على الناقة أو البقرة وسميت بذلك الاسم لأن أصحابها كانوا يسمنونها قبل ذبحها . (المراجع)

والقحطان يطلقون عليها اسم "وعول" waul، كما هو الحال في سوريا) . وقرون البدون الضخمة تنمو ويصل سمكها إلى سمك ساق النخلة ، وقد رأيت تلك القرون التي يصل طول الواحد منها إلى قدمين ونصف القدم ؛ وهذه القرون تنمو متجهه نحو الخلف في اتجاه الكفل . هذا الحيوان ، كما يروى عنه كل الصيادين ، يطرح نفسه ، إذا ما اضطر إلى ذلك ، فوق هذين القرنين ، مغيِّرًا اتجاهه نحو الخلف : وهو في هذا الصدد يكون قريب الشبه بالظبي الحجري الذي يعيش في جبال الألب الأوربية .

الغزال ، الذي يقول له البدو "غرازل" ghrazel للمفرد و "غرازلان" ghrazlân للجمع ، يعيش في السهول ؛ وأهل الجزيرة العربية يسمونه في معظم الأحيان باسم "الظبي" thobby (واسمه العلمي N.T.Tabitha) . والغزال هنا لونه أبيض في السهول الرملية الكبيرة ، في حين يميل لونه إلى اللون الرمادي الفاتح قليلا في أراضي الحرَّة السوداء ؛ وهذا الغزال الموجود في الحرة هو اليحمور(*) الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس . هناك أيضا حيوان نبيل آخر من حيوانات صحراء الجزيرة العربيه ، الذي لم يكن معروفا أنئذ بيننا ، هو الوضيحي Wothyhi، أو إن شئت فقل : "البقرة البرية" التي سبقت الإشارة إليه . وقد رأيت في فترة لاحقة ذكرا وأنثى من إناث الوضيحي يعيشان في بلدة حائل : والوضيحي نوع من أنواع الوعول ، واسمه العلمي Beatrix، وهو شبيه بالحيوانات الإفريقية الجميلة المثيلة . ويبدو أن الوضيحي ليس هو "الثور البري" الذي ورد ذكره على لسان (سيدنا) موسى : ولكن أليس ذلك الوضيحي هو الذي يطلق عليه (باللغه العبرية) اسم "الريم" reem، أو "وحيد القرن" unicorn الذي ورد ذكره عند مترجمي النص الإغريقي(**) من العهد القديم ؟ - وقرون "الوضيحي" ، أو إن شئت فقل : "الريم" أو "وحيد القرن" تشبه العصي مستدقة الأطراف ، مثل ذلك الذي شاهدناه في الصور عندما كنا أطفالا متمثلا فيما يسمى "قرون وحداء القرن ."

(*) اليحمور : حيوان لبون من فصيلة الأيليات ، وقد يقال له أيضا : أنثى الظبي الأحمر . (المترجم)
(**) النص الإغريقي من العهد القديم بما في ذلك كتب العهد القديم التي لم تكتب أصلاً باللغة العبرية والتي لا يعول عليها اليهود . (المترجم)

ونحن نقرأ في أمثال ، أو أقوال بلعام(*) Balaam إن "إل El أحضرهما من مصر ؛ وله قوة كما لو كان ريما ": reem وعندما بارك (سيدنا) موسى القبائل ، قال "قرون يوسف هما اثنان من قرون الريم" . وعند أيوب بصفة خاصة ، نرى الظروف القاسية لحيوان الفيلوكس Velox البرى . "هل سترغب الريم في خدمتك – ألا تستطيع ربط أو تعليق الريم في محراثك ؟" الوضيحي الجريح خطر عليك إذا ما اقتربت منه ؛ هذه الوعله ، تستطيع بمجرد انحراف بسيط لقرونها الحادة ، أن تخترق جسم الإنسان ؛ من هنا فإن الصيادين ينتظرون حتى اللحظة الأخيرة ثم يسارعون إلي الدخول لذبح الطريدة . كان الظلام الدامس قد خيم على المعرفة الطبيعية عندما عزا الناس قرنا واحداً لجبهه مزدوجه ! – ونحن نخطئ أكثر ، عندما نتزيد ، ونضع أجنحة للصور الوثنية للأرباب والملائكه ؛ وبذلك يتعين أن يكون لهم زوجين من الأطراف الأماميه ! والوضيحي لا يقع إلا في أيدى الصيادين المهرة : وحيوانات الوضيحي تسير في الصحراء القاحلة الخالية من الماء على شكل قطعان مكونة من ثلاثة أفراد أو خمسة أفراد .

فيما يتعلق بالهوام ، توجد أنواع كثيرة من الثعابين والحيّات ؛ وهذه القبائل لا تأكل أي من هذه الهوام . والبدو عندهم ما يسمونه الجلامى Jelamy وهو عبارة عن سحلية صغيرة بنية اللون ، وهى من السحالي الصحراوية ، وهى تجفل من كل شيء . والعقارب تكمن تحت الأحجار والصخور البارده ؛ وقد عثرت على تلك العقارب في خيمتي فوق ملابسي ، ولكن لم يصبني أي أذى منها . ولقد شاهدت كثيرا من الكبار والصغار الذين لدغتهم العقارب ، ولكن لدغة العقرب ليست خطيرة ؛ وهم يستدعون في مثل هذه الحال ، واحدا من الحكماء "ليقرأ" على لدغة العقرب . والعضو المصاب يسرى فيه الخدر ويستمر يؤلم صاحبه إلى اليوم الثالث ، حيث يبدأ الورم في الانحسار . كثيرة هي تلك المدن المدفونة تحت هذه الرمال الصحراوية ؛ هذه المدن خاصة بالنمل

(*) بلعام : واحد من حكماء اليهود الذين اشتهروا بالحكمة والأمثال في القرن العاشر قبل الميلاد . (المراجع)

الذى يقوم بجمع الحبوب ؛ ولقد قمت بقياس شارع واحد من شوارع تلك المدن ، ووصل طوله إلى حوالى خمس وثمانين خطوة : ورحلة الصيف لهذه الأجسام الصغيرة الفارقه فى العمل تتمثل فى قطع هذه المسافة مره واحدة ، ثم العودة إلى المدينة مرة أخرى وهى مُحَمَّلة مثل الإبل .

وإلى جانب الحيوانات البرية ، توجد الضباع ، التى يطلق البدو الرُحَّل عليها اسم الذُّبه thubba، بأعداد كبيرة ؛ ومن بعد الضباع يجىء النمر nimmr، وهو ما نسميه نحن الفهد leopard، وجسمه مرقط ببقع سوداء وبقع بنية اللون : والفهد ليس شائعا فى هذه البلاد ، وهو عبارة عن قط برى لا يزيد حجمه عن حجم الثعلب ؛ والفهد يجمع بين اللونين الأحمر والبنى ، وجلده مرقش . وذاكرة هؤلاء البدو تقول إن فهدا صغيرا أمكن تربيته بين البشر Bishr (أى أهل قبيلة بشر) (من منطلق أن أفراد قبيلة بشر مشهورين بسرعة المشى) وأن صاحب ذلك الفهد كان يستعمله فى صيد الغزلان . والبلاد العربية كلها ، فى كل واحدة منها خرافة من نوع معين عن الآباء ، (وهذا أمر شائع أيضا وتماما بين النحل المسيحية الموجودة فى سوريا ،) ومفاد هذه الشائعة هو أنه عندما يمرض أحد الأطفال ، ببلادة الذهن ، أو عندما يكون اخوانه قد ماتوا قبله ، فإن أهل مثل هذا الطفل يطلقون عليه اسم حيوان برى متوحش (وبخاصة الذئب ، والفهد ، . الخ) -- ظنا منهم أن هشاشتهم البشريه يمكن أن تكتسب طابع تلك الحيوانات . الصقور على اختلاف أنواعها يمكن رؤيتها فى كثير من الأحيان وهى تحوم فى سماء الصحراء ، وكذلك العقاب ، الذى هو عبارة عن نسر أسود صغير ، وكذلك الرُّخام er-rakham وهو نسر أبيض صغير ، يأكل الجيف ، من يرى هذين النوعين من النسور وهما يطيران فى الهواء يحسبهما نوعين من أنواع طائر النورس البحرى : لم أر النسور الكاسرة فى الجزيرة العربية ، ولم أر أيضا أى نوع آخر من النسور الكبيرة فى صحراء هذه البلاد (فيما عدا شبه جزيرة سيناء) . كانت تلك هى معظم الكائنات الحية ، وهناك أيضا قلة قليلة أخرى من هذه الحيوانات فى صحراء الجزيرة العربيةس الجرداء القاحلة .

الفصل الثانى عشر

السلام فى الصحراء

وصول مطلق – بشر العنزهى – الرواة والجلاّس . شيخ تيماء . سقوط الحدّاج . الغزو إلى "العين" . أعظم غزّازى البِشْر. الهجوم المضاد العظيم الذى قام به أولاد على. اجتماعهم فى الخلا . القادة الشباب يميلون إلى بعضهم البعض . انكسار ولاد على المؤلم . ورع الصحراء الذهبى . النفس بالنفس . ركائز "الجراد" . أكل الجراد . قد يرون جميعا كتاب الصور . كلاب البدو الرّحل . الكلب السّلوقى . إطلاق اسم "الكلاب" على اللصوص من البشر . صخب الأطفال المسائى . البدو العرب الرّحل لا يستعملون الألعاب الرجالية . مناسبة الختان . الإغماء فى برية قفر جافة تتسلط عليها أشعة الشمس . قطّاع الطريق . سرقوا جمالنا . كيف يمكن تعَرُّف قطاع الطرق ؟ مصير إحدى القبائل البدوية . المطاردة . التعويض عن الماشية المسروقة من المساهمات والمشاركات العامة . قانون الصحراء ، فيما يتعلق بالماشية التى يغتصبها عدو . الغزو هو دمار الأعراب . الموتان (وباء المواشى) . مصير زيد . عودة الملاحقة . افتقار القبليين إلى الروح العامة . عودة مطلق من حائل . عطايا بن الرشيد . ضرائبه (زكاواته) . عودة الفُكَارة مرة ثانية إلى ديرتهم . الإردّة . الإبل الهاربة تعود من مسافة ٣٥٠ ميل إلى وطنها مرة ثانية . غارة من الموهاهيب تشتت بعض إبلنا وتنقذها من اللصوص (الذين كانوا من بنى بشر) . رد بنى صخر . النزاع مع زيد . أم بدوية . مصالحة زيد . طريقة مهاجمة البدو للحج . "ساعة" البدو . زيد لا يوافق على تعلم ولده أحرف الغرباء . كثير من أسماء الكتب العربية والكلمات الدالة على البلاد والمدن غير معروفة للبدو الُرحّل . شراء جمل آخر . عمر الجمل .

ذات صباح ، عندما كان هناك جمع كبير يشرب القهوة فى خيمة زيد ، صاح أحد الحاضرين وهو يرفع فنجاله قائلا : "باهير ، !" بمعنى "انظروا هناك – من هو ذلك القادم علينا راكبا ؟" وهنا راح الجميع يشيرون بأيديهم ، ويركزون أنظارهم وعيونهم على ذلك القادم ، وسرعان ما جاء الرد : "أليسوا تجارا من تيماء ، أولئك الذين يجيئون إلى هنا لبيع القماش ؛ أم إنهم بعض من أولئك الذين يأتون إلى هنا لشراء الإبل ، أم إنه الشيخ الذى يركب دابته قاصدا حائل ؟" لم يكن لدى هؤلاء البدو دليل يؤكد لهم أننى أستطيع تمييز الأشياء عن بعد . صحيح أن العرب ، عندما يجلسون اليوم بطوله هى تلك الخيام المفتوحة إنما يسترعى انتباههم المشتت تحريك أى شىء فى سطح الصحراء المعروف لهم والمألوف لديهم أو حدوث أى أمر يكون غريبا عليهم . ولكن المعروف أن العرب "يعانون من أمراض العيون أكثر من أى شعب أو أمة أخرى . وإن هى إلا لحظات ، حتى تمكنت عيون الأعراب بعدها من اكتشاف أن القادمين كانوا بدواً ، وذلك من واقع طريقتهم فى ركوب الدواب ؛ ولكن قبل أن يشرف القادمون على النزول من فوق دوابهم ، تعرف الحاضرون عليهم ، وأنهم كانوا عبارة عن فردين اثنين هما : الشيخ مطلق ، شيخهم ومعه ولده ، وكان معهما قبلى واحدا آخر . من الواضح أن الشيخ مطلق كان قد بدأ تحركه من المخيم الآخر فى ساعة مبكرة من الصباح ؛ وكانت صحبتنا المكونة مما يقرب من خمسين شخصا قد هبت واقفة للترحيب بشيخ الشيوخ ؛ وبعدها انضم إلينا الشيخ مطلق بكل ود وترحاب وتواضع جم ؛ وتقدم كل واحد من الحاضرين إلى المكان الذى جلس فيه شيخ الشيوخ ليحييه تحية القريب لقريبه القادم بعد غياب طويل قائلا : "جوّاك gowwak يا Ya مطلق Motlog ." بمعنى "قوّاك الله يا مطلق ".وهنا جاء الرد : "الله Ullah جويك gowwik" "بمعنى الله يقويك أنت أيضا :" وبعد أن يصل كل منهما إلى عنق الآخر ، يتباوسان من هذا الخد ومن ذاك . ويجرى بعد ذلك إفساح مكان لهما فى أعلى مواضع المجلس ، ليجلسا وهما يبتسمان ابتسامة سهلة ويسيرة ؛ وهنا يتضح أن شيخ الفكارة ، نبيل الأصل والمولد ، الذى تظهر على محياه بعض السمات الأنثوية يتفوق ، على حد تعبيرهم ، من حيث سلوكيات المجلس المقنعة ظاهريا وتدخل إلى قلوب الناس : ومع ذلك فإن قلوب هؤلاء الناس الآسيويين هى فى داخلها مليئة بالفساد ، والظلم . وهنا يبدأ تحميص البن من

جديد ، ويطحنه وغليه لتصليح القهوة من جديد للحاضرين ، وهنا يقوم زيد ، بصفته المضيف ، بإحضار سلطانية مليئة بالتمر كى يتناولوا الفطور (الإفطار) ، (وهو هنا يقدم أفضل تمور تيماء ،) ، كما يحضر سلطانية أخرى فيها لبن خض (حامض) ، ولكن على شكل مقدار صغير !- ولعل سوء كرم حرفة هى وزيد ، كان هو السبب الرئيسى وراء عدم نزول أى أحد ضيفا على بيت زيد على مدار العام . ومن بين العادات الطيبة فى تلك الصحراء الجرداء ، تقديم شيء على وجه السرعة ، (مهما كان الوقت مبكرا أو متأخرا) للضيف الذى يصل إلى نهاية رحلته ، وينزل من فوق دابته . وافق الشيوخ على الانضمام إلى مخيماتنا إعتبارا من الرِّحلة التالية ، كما وافقوا أيضا على أننا يتعين علينا الدخول إلى مسافة أبعد فى أراضى قبيلة بشر Bishr .

معروف أن البشر يكونون قسما رئيسا من الأمة العنزية ، إضافة إلى أن بعض أفرعهم الكبيرة ، مثل ولاد Welad سليمان Sleyman فى نجد ، يمكن أن تطاول القبائل الكبيرة . وشيخ شيوخ البشر فى نجد ، هو ذلك الرجل المولع بالقتال الذى تعرفت عليه مؤخرا ، واسمه مسهل Misshel (تيمُّنا بحمايته لنفسه) العواجى el- Auájy ؛ وهو يحمل أيضا لقب شيخ القبائل السبع . وقد أوضح زيد لى نسب تلك القبائل على النحو التالى :

ولاد سليمان	W-Slaymán	الخُمشة	Khumsha
السويلمات	Sweylmat	السِّليمات	Sillimat
الجيافرة	Jiáfera	الحصينى	Hósenny
آل على	el-Aly	السباع	Sbá
الجضورة	Gathowra	الفدَّان	Feddán
لصقور	S'goor	العمَّارات	Ammarát
الشملان	Shemlan		

ظهر أن زيدا كان يربط رولة العنوز بالبشر Bishr . والرولة يسكنون بالقرب من النفود، أسفل الجوف ، وفي اتجاه الغرب ناحية سوريا ، وهم من البدو الخلص وسلوكياتهم غاية في البساطة . ونسبهم يمتد إلى أعراب ابن مزيد Muzzeyed وأعراب الحصيني el-Hosenny ، وأعراب المُسَلِّخ el- Musellikh . وأعراب العنوز القدامى الذين يعرفون باسم الجلاّس el-Jellas مندمجون منذ القدم مع الرولة ، وهناك واد من وديان خيبر يحمل اسم الجلاس ، من منطلق أن خيبر كانت من قبل ملكا لأعراب الجلاس ، ولكنهم هجروها وتخلوا عنها منذ زمن بعيد . وسلالة الجلاّس النسبية هي على النحو التالي :

النُّصير ؛ النواصره	el-Nussîr;Noásera	درعان	Daraan		
شملان.	Shalân	أُنصير	Unseir		
ربشان	Ribshan	البليس	Belais		
السوّالمة	Sualma	بعذوّر	B'dûr		
الفروجّة	Ferrujja	أعراب بن محجل ، شيخ الشاجير(*)			
القواتشيبة	Koatcheba	أعراب بن جندال ، شيخ السوّالمة(**)			
جعجع	Gaaja	أعراب بن أمجيد ، شيخ عبد الله Abdillah(***)			
الدغمان	Dogmàn	الكليفات	Kleyfàt		

عندما توحد القسمان من جديد ونصبا خيامهما في مكان واحد ، وصل إلى ذلك المكان شيخ من كبار شيوخ قرية تيماء هو عبد العزيز الرومان er-Romàn ، الذي كان يتجول راكبا دابته للبحث عند الأعراب عن إبل لاستعمالها في آبار الماء . وكان الثمن

(*) Aarab Ibn Mahjil Sheykh el-Esshàjir
(**) Aarab Ibn Jindal Sheykh es- Suálma
(***) Aarab Ibn Umjeyd Sheykh Abdillah

المحدد لذلك هو ثلاثة أحمال إبلية من التمر أو حمل واحد من القمح ، أو إن شئت فقل: العيش Aysh ، للناقة الجيدة. ونزل الشيخ عبد العزيز الرومان عند خيمة الشيخ مطلق، وذهبت لحضور اجتماع القهوة ، كي أستمع إلى أخبار البلاد . رحب بي الشيخ مطلق ترحيبا طيبا ، ونادى الرجل : "أحضروا شِداد لخليل ." كان شيخ تيماء رجلا مهندما ، حلو المعشر ، ومقداما ، وكان من أنصار ابن الرشيد ، كما كان يقوم بجباية متحصلات الأمير من واحته ؛ وكان ذلك الشيخ أيضا قليل الحياء ، وحاقدا إلى أبعد الحدود ، فضلا عن كونه أيضا ، "مثل سائر التيامنة" ، وذلك من منظور البدو الرُحل ، جاهلا ، ويتمتع بنوع من الغباوة الشديدة والسذاجة الفطرية . في تلك القرية التي تشبه القرية البدوية المترحلة لم يتعلم الشيخ عبد العزيز الرومان القراءة والكتابة : كان الشيخ مطلق ، من بين كل البدو ، صديقا للشيخ عبد العزيز منذ أيام الصبا . وأثناء جلوسنا تحول الشيخ عبد العزيز ناحيتي فجأة وطلب مني أن أخبره "عما أفعله في هذه الصحراء القاحلة ، ولماذا نفيت نفسي من كل مباهج الدنيا" ، (أو بالأحرى من الظل في النهار ، ومن الخبز والتمر المضمونين ، ومن الماء الكافي ، ومن المسكن المستقر) . أجبته : "أنا أتمتع بالهواء ." – "إذ كان ذلك هو كل ما في الأمر، فبوسعك أيضا شم ذلك الهواء أيضا فوق قمة جبل إرنان الموجود في الخلف ." وهنا همس أحد رفاق الشيخ عبد العزيز الرومان في أذنه ، على نحو سمعت معه ذلك الذي كان يقوله : "أليس هذا الرجل يهوديا ؟" – "يهودي ، هذا لاشك فيه (أجابه عبد العزيز) ، أو قد يكون ذلك النصراني الذي حدثوني عنه ، والفارق بين الاثنين يتمثل في الاسم فقط ." وهنا بدا على ذلك الرفيق كما لو كان قد شاهد أو رأى شيطانا ، وبدت على وجهه الدهشة وهو يقول :"رُحماك يا الله ! وهذا – إخس ! (بمعنى "قبَّحه الله") – يهودي ؟ الله يلعن الكفار كلهم ." كان عبد العزيز عندما عدت إلى تيماء مرة ثانية ، قد اكتسى تأدبا جديدا ، لإنه كان قد بلغه أن ذلك الغريب قال عنه ، على الملأ ، إنه "حمار جاهل ، وأنه شيخ لكل يهود تيماء :" والسبب في ذلك هو أن العرب الذين يطمعون في المديح والثناء ، يكونون رقيقين رقة النساء المغرورات بآراء الرجال . جاءوا إلينا بأخبار كارثة حدثت لهم في تيماء ، مفادها هو انهيار الحدَّاج (بئر الماء) ! إلا أن عبد العزيز

الرومان كان فرحا بما حدث نظرا لأن سوانيه[*] الاثنان أو الثلاثة ، وكذلك الجانب المخصص للسوق Sûk الخاص به لم ينهار ، بل ظل على ما كان عليه ؛ هذا يعنى أن الخسارة لم تكن من نصيب حزبه .

استمع البدو الأوغاد إلى ذلك الحادث الذى وقع للتيامنة ولم يتحرك فيهم ساكن ، هؤلاء التجار الذين يتجرون فى التمور والقمح، والذين يخادعون ويضللون ، ينظر أولئك البدو إليهم ، على إنهم أصحاب مكر ودهاء. فقد علمنا ، من بعض الناس الذين وصلوا مؤخرا قادمين من تيماء ، أن أهل هذه القرية ومتشدديها وضعوا مسئولية كل ذلك الذى حدث ، على النصرانى . وذلك أن "الحداج (بئر الماء) لم ينهار بعد أيام قلائل فقط من وجودى فى تيماء ، وبالتالى أكون أنا الذى أطحت بذلك البئر بفعل عينى الحاسدة؛" ولكن المغالين فى تشددهم من بين أهل القرية قالوا : "إن البئر لم ينهار إلا بإذن الله (سبحانه وتعالى)" وهنا طرحت السؤال التالى على واحد من أهل هذا البلد الطيبين : "كيف لى أن أطيح ببئركم ؟" ورد على الرجل : "يا خليل ، انا أظن أن هذا ليس من صنعك ؛ (ثم أردف قائلا ،) أظن أن الذى فعل ذلك هو ابن الرشيد !" كان الأمير ، هو وأتباعه (الذين يقدرون بحوالى ثلاثمائة رجل تقريبا) ، عند عودتهم من الغزو الذى قاموا به على ولاد على ، قد نصبوا خيامهم خارج أسوار تيماء ، مدة يوم أو يومين ، ثم أردف الرجل قائلا: "كان جميع هؤلاء الأتباع مثل الرمل ، أفٍّ !" - "ترى ، هل كانت تحركات السقائين حول البئر هى التى أدت إلى انهياره ؟" - "ليس ذلك ، وإنما هى العين !" ومعروف أن عين الحسود إنما هى تشكل قسما من الخرافات عند الساميين . معروف أن العين هى حبيبة الجسم وعزيزته ، والعين هى نافذة الروح ، والساميون يتخيلون أن تأثيرها السيئ ينبعث بناء على ذلك . واعتبارا من ذلك اليوم ، راح البدو المتشددون ينظرون إلىَّ باعتبارى مصدراً للخطر ، أو إن شئت فقل : "عدو الله" .

فى إحدى الأمسيات ، دخل إلى مخيمنا غزو رئيسى قوامه ثمانين رجلا من قبيلة البشر ، كانوا قد ركبوا إبلهم وجاءوا ليشنوا ، أو يطبقوا على ولاد على أعدائهم ؛ أمضت قوة ذلك الغزو الليل ضيوفا على الفكارة داخل ديرتهم . رحب الفكارة بالغزاة

(*) السوانى : آلات سحب المياه من البئر . (المراجع)

ترحيبا حارا ، واستمعوا من الفكارة ، بعد تناول العشاء ، أخر النصائح المتعلقة بولاد على الذين كانوا يخيمون حول آبار المجيرة Mogeyra، أى على بعد حوالى ثمانين ميلا من المخيم الذى نحن فيه ، وعلى طريق الحج ، وعلى بعد مسافة رحلة واحدة أسفل قرية الحجر ، سألت زيداً : "ألن يرسلوا فى تلك الليلة إنذارا إلى أبناء عمومتهم فى القبيلة الشقيقة ؟ أجابنى : "ها ، لا بالطبع ! ولكن لعلهم كلهم يموتون ، فهذا سيكون لصالحنا ." وبعد ذلك ببضعة أشهر ، وعندما كنت مع بعض الرجال من ولاد على ، سمعتهم وهم ينتقدون ذلك الحقد الشديد من جانب الفكارة ، ومع ذلك كانوا هم أنفسهم مليئين بذلك الحقد أيضا ، هذا الحقد الخائن هو فى حقيقة الأمر ، شىء طبيعى بين البدو ، هذه الأمة العنزية ، التى تنتمى إليها كل هذه القبائل ، والتى تعد أهم عشيرة بين عشائر شبه الجزيرة العربية ، تتحدث عنها الأمثال : "زاد الله أعداد العنوز ، ولكنه كتب عليهم الانقسام والتفكك فيما بينهم !" ولم يحدث فى أى وقت من الأوقات أن بعض العنوز لم يتحولوا إلى "جوم" Göm(*) ، أو إن شئت فقل "لصوص أعداء" ، أو أى شكل آخر من أشكال الانقسام والتفتت . والعنوز يقارنهم بعض الناس ببنى إسرائيل ، وهم فى ذلك بينهم وبين بنى إسرائيل شبه كبير . كان المقر الرئيسى لهذه الأمة ، أو إن شئت فقل : الشعب (العنوز) ، خلال العصور الإسلامية الأولى ، وهذا نقلا عن موروثهم ، فى الديرة التى تقع فى نطاق شمالى المدينة (المنورة) ، التى هى حاليا ديرة ولاد على . ثم قام العنوز بعد ذلك بغزو خيبر وهزيمتها ، وبذلك أصبحت وديان النخيل اليافع ، فى ذلك المكان ، ملكا لهم منذ ذلك التاريخ .

ومن باب المصادفة الغريبة أن البشر Bishr عندما جهزوا للقيام بغزو رئيسى على ولاد على ، كان ولاد على أنفسهم قد أرسلوا بالفعل غزوا رئيسيا ليطبق على البشر Bishr . هاتان القوتان العدوتان تقابلتا ، فى مغامرة جديدة ، فى تلك الصحراء القاحلة، وهنا أصبح على أرض المعركة حوالى مائة جمّال . كان منظرا مشهوداً ، وهم يرددون أغنية ، وهم ينحنون فوق (سروج) إبلهم فى اتجاه أعناق دوابهم التى كانت تسرع الخطى ، ويحملون معهم أسلحة لامعة . وعندما تبدى لهم العدو وأصبح فى مرمى

(*) "جوم" بمعنى "قوم" أى "أعداء" (المترجم)

البصر ، ينزل الشيوخ ومعهم الحراب الطويلة ليركبوا خيولهم ؛ وهنا يقوم الرديف (*) بركوب الجمل بدلا من الشيخ ؛ ومعروف أن هذا الرديف هو حامل بندقية الشيخ . هؤلاء الجمّالة ، وهم ركوب على تلك الإبل التي تماثل الأغنام في بطئها ، إذا ما قارناهم بالعدد القليل من الخيالة ، يمكن تشبيههم بجماعة ثقيلة من المشاة الذين يتسلحون بالبنادق الفتيلية . الخيال البدوى الذى يركب حصانه فوق عرَّاقة وبلا ركاب ، لا يستطيع حمل أسلحة نارية ثقيلة وطويلة في ذات الوقت ، نظرا لأنه سيعجز عن إعادة تعمير (ملئ) مثل هذا السلاح . وقلة قليلة من بين هؤلاء الشيوخ الجنوبيين هم الذين لديهم مسدسات خيالّة ، التي تخلى الناس عنها منذ زمن بعيد ، وتمكنوا من شرائها من أوروبا . وكل آمال هؤلاء تتعلق بالرمح الذى يطلقونه عليه اسم "الشلْفة" Shelfa ، التي تعني "حربة البدوي" : وتصل الرمح يصنعه هؤلاء البدو من البوص الذى يجلبونه من أنهار بلاد الرافدين ، ويصل طول ساق أو نصل ذلك الرمح إلى ضعف طول الحصان الذى يركبه الخيال البدوى ؛ وهم يطعنون بتلك الحراب وهم يضعونها فوق رءوسهم . والعقيد Agid أو إن شئت فقل : شيخ منصسر أو قائد ولاد على ، كان بلا لحية ، وشابا غراً صغيرا اسمه فهد ، وهو ولد شيخهم الكبير ، وكان عسكر قائداً للقسم الآخر ، وهو ولد مشهل Misshel ، ذلك الشيخ الكبير سالف الذكر : هذان القائدان العنزيان المتخاصمان ، كانا ابنين لأختين . هجم فهد هجوما سافرا على ولد خالته عسكر وأصابه بحربته، ولكن عندما حملة رجاله فوق أيديهم القوية ، كان ما يزال حيا . وعلى أثر ذلك، أصيب ولاد على الظافرين الواثقين داخل خيامهم، برعب شديد في ميدان القتال، وذلك في وجود العواجي ، المحب للحروب والقتال ، ومعروف أن العواجي هو أكبر عظمة وأشد الناس عناداً بين بدو هذه البلاد ؛ من هنا كان ولاد على يتطلعون إلى أن يكون كل من هذين الرجلين منتقما لذلك الدم الذى أهدر أو إن شئت فقل: أريق أمام خيبر. صاح الجميع بعد ذلك أنهم إخوان! وعلى ذلك فإن ولاد على الذين بلغ عددهم مائة وعشرين مقاتلا راكبا يحملون أسلحة في أيديهم استسلموا لثمانين مقاتل من أسود قبيلة بشر ؛ وراح كل واحد من المهزومين ينادى غازيه متوسلا له وهو يقول :

(*) الرديف : من يركب خلف الراكب الأساسي للدابة (المترجم)

"أخي ، يا أخي" ، خـذ جملي ، وهذا هو سلاحي أيضا ، بل وهذه عباءتي (بشتي) ؛ خذ كل شيء وأحفظ عليّ حياتي." ولم يهرب من ولاد علي في ذلك اليوم سوى قلة قليلة من شيوخهم ، الذين كانوا من بين الخيالة واستطاعوا الهرب على ظهور أفراسهم . ولم يهرب من الجمّالة سوى ثلاثة رجال أشداء ، وهم من متسلقي الجبال أيضا ؛ هؤلاء الثلاثة كانوا : من المواهيب Moahib ، الذين انضموا إليهم على أمل إقتسام الغنائم معهم . – وقبل انتهاء العام ، جرى على أيدي هؤلاء البشر أنفسهم ، تجريد المواهيب تماما ، وخلال يوم واحد ، من كل ماشيتهم . كان كل الشيوخ الذين كانوا أطرافا في هذه المعركة من بين معارفي في يوم من الأيام ؛ وبالتالي تيسر الوقوف على هذه الحكاية وأنا بينهم .

آوى البشْرُ دخلاءهم Dakhils في ديارهم ، ومع ذلك ، فإن تذكر البشر للثأر والانتقام ، لم يدفعهم إلى نصب مجزرة لأهلهم وأقاربهم ؛ إضافة إلى أن أعراب الجنوب لم يكن من عادتهم أخذ حياوات البشر على سبيل الفدية ، ولهذا تركوا أعداءهم يعودون إلى ديارهم وزوجاتهم عراة ، سائرين على أقدامهم . يضاف إلى ذلك ، أن الضمير العربي لا يسمح أو يرضى بمحو قبيلة من القبائل . بعض القبائل المجاورة ، مثل الفجير وبني عطية هم من قديم الأزل ، غلاظ قساة ، ولم يحدث مطلقا في يوم من الأيام أن نشبت أية معركة عامة بين هذه القبائل ، وراحوا يفرغون فيها تلك العداوات القديمة بأن قامت بتدمير واحدة من تلك القبائل أو القضاء عليها . زد على ذلك أن ضغائن البدو وأحقادهم القديمة ، تكون أقل ، في الأغلب الأعم ، من ذلك التدين الذهبي الذي تتميز به هذه الصحراء الجرداء . والخطر عندما يزول ، يجعل هؤلاء البدو يشفقون على أعدائهم المهزومين ؛ وتعتمل في داخلهم في مثل هذه الظروف شفقة السلالة النسبية العامة التي تجمع بينهم . والرجال عندما يسقطون جرحى في معركة من المعارك ، فإن الأعداء الذين تكون لهم اليد العليا في معظم الأحيان ، ينقلون أولئك الجرحى إلى منطقة المؤخرة ، ويحملونهم إلى منْزلهم : بل إنهم يتولون تغذية هؤلاء الجرحى إلى أن يتعافوا من جديد؛ وعندها يعطون ذلك الجريح الذي تعافى ، قربة ماء ، ويقولون له "روح" بمعنى "إذهب لحال سبيلك" ، دون أن يطلبوا منه أن يقطع على نفسه وعداً من الوعود ، واثقين أن الله سيهيئ لهم المعاملة نفسها إذا ما ألمت بهم شدةٌ

أو ملمة . ولكن البشر اقتادوا فهداً Fahd معهم ، نظرا لأنهم لابد أن يحققوا معه في وفاة عسكر Askar : وإذا ما ثبت أنه مات بفعل يدى فهد ، فسوف يموت فهد مقابل ذلك ، اللهم إلا إذا أعرب أقرب أقارب عسكر عن رغبته في قبول الدِّيَّة ! ومع ذلك سوف يجرى الترحيب به والتسرية عنه في خيام أعدائه . ويبدأ عسكر في التعافي ببطئ ، خلال الشهور التي تلت ذلك . تساءلت متعجبا : "يا لهؤلاء الجزَّارين من ولاد على ، عندما عادوا إلى ديارهم ، وقد نزع عنهم صوفهم ، مثل الأغنام ! ويا لتلك الرقصات والزغاريد التي استقبلهم بها الحريم !" وردوا علىّ قائلين: "صدقت والله ، لقد استحقوا احتقار النساء !" وتساءلت : "ولكن كيف يستسلم مائة وعشرين رجلا لعدد أقل منهم؟" أجابوني : "أليسوا من ولاد على ؟ وتلك هي طريقتهم ." إنهم ليسوا محاربين بمعنى الكلمة ، ولكن الفجير، القبيلة الشقيقة ، لم يحدث قط أن ازدراهم أو احتقرهم أعداءهم، الذين يتمثلون في تلك القبائل القوية التي تعيش في المنطقة الواقعة خلفهم ، أو إن شئت فقل : بنى عطية ، والحويطات ، والبلِّى (البلوى) والجهاينة .

هبت علينا سحب الجيل الثاني من جحافل الجراد التي يطلق الأعراب عليها اسم "عمدان" Am'dàn بمعنى "عُمُدُ" Pillars [وتلك هي الكلمة التي نقرأها في سفر الخروج – "عمود" Ammud من السحاب والنار] وهي تطن وتهفهف في أشعة الشمس ، طوال أيام عدة ؛ وكانت تلك الجحافل كثيفة مثل المطر ، ويطير البعض منها بالقرب من الأرض أو على ارتفاعات كبيرة في الجو . والجراد يهبط على الأرض مثل الطيور ، بأن يجعل سيقانه الطويلة تلامس الأرض ، غزت أسراب الجراد الخيام ، وبسبب جوعها الشديد كانت تعض أذقاننا ونحن نشرب القهوة ، هذا الجراد يولد وهو قادر على الحركة البطيئة مثلما ورد في المزامير : "أنا أترنح نحو الأعلى ونحو الأسفل مثل الجرادة ." كان البعض من ذلك الجراد يتساقط ، في كل لحظة ، فوق الأرض ، ويصطدم بالأحجار . وبعد ذلك شاهدنا تلك الجحافل وهي تتجة صوب الجنوب : ونظرا لأن الأعراب كانوا يعرفون أن تلك الجحافل لابد أن تلتهم خيبر ، الأمر الذى سيؤدى إلى ضياع محصول التمر ، فقد تقدموا وراحوا يلاحقون أسراب الجراد غير مبالين بها ؛ وجلسوا وهم يتأوهون ! تاركين أمرهم لله (سبحانه وتعالى) ، الذى يقولون عنه إنه "مُنْعم" . والأعراب في معظم الأحيان ، يضحكون من الأحداث التي كون من هذا

القبيل ، وهم هنا يضحكون من آمالهم التى حطمت ، ولكن نوعا من الحزن الربانى يسيطر على قلوبهم في مثل هذه الظروف . والأطفال يقومون بإحضار الجراد الذى يجمعونه معلق على غصن من الأغصان ، ويشويه البدو على نار الفحم ؛ ثم يفصلون عن الجراد أطرافه بعد الشوى ، ثم يقطفون الرأس ، وتصبح الحشرة بعد ذلك طعاما جيداً لهم ؛ ولكن أكل الجراد لا يكون من بين أسراب الجراد التى تولد فى ظل أو فى زمن جفاف العشب . قام شاب من الحاضرين حول النار ، بفتح بطن أول جرادة مشوية لتسقط منها دودة ، قذفها بعيدا عنه ونفسه تعافها ؛ وصاح الشاب قائلا : "إخص ! Akhs . وأنا أقسم ، أن تلك الدودة حرمت عليه أكل الجراد بعد ذلك ." ومع ذلك خرجت النساء لجمع الجراد ، تلك النسوة كن من أسر فقيرة . وهنا طلب منى المشاركون فى شرب القهوة :"تأكلون الجراد فى بلادكم ، يا خليل ، خبرنا ، هل الجراد سليم صحيا ؟" (نحن نقرأ عن لفيتوكس Leviticus (*) إن أطفال يعقوب قد يأكلون أنواع الجراد .) وسكان الجزيرة العربية ، يرون أن جحافل الجراد تهب عليهم مرة كل سبع سنوات .- وقد راح الأعراب يذكرون ذلك العام بأسراب الجراد وحرارة الصيف الشديدة . هذه الحشرة الذكر صفراء اللون ، فيها بقع بنية اللون أيضا ، وأنثى الجراد تكون أكبر من الذكر ويميل لونها إلى اللون الرصاصى . وأجنحة الجراد منقطة ، أو إن شئت فقل : مُرَقَّشة ، وزوج الأجنحة الداخلى عريض ومطوى إلى الأسفل ، ويصل طول الجرادة إلى نهاية الجناح المغلق إلى ما يقرب من ثلاث بوصات . والبدو يقولون : "إن العين ليست هى التى تظهر فى الرأس ، ولكن العين هى تلك البقعة الصافية الموجودة تحت الرجلين القصيرتين الأوليين ." تناولت القلم ورسمت كروكيا للجرادة ، ثم رسمت على الصفحة التالية صورة تخطيطية لأبى زيد : وجاء العرب كلهم ليروا هاتين الصورتين . قال البسطاء الذين كانوا يحملقون فى الصورتين : "هذا حسن جداً ، يا خليل . انظروا ، عجبا ! هذه صورته بالضبط ، لا فرق بين الأصل والصورة !" بل وراح واحد منهم يتحسس بأصبعه خطوط الجرادة ، ليرى إن كانت تقف بالفعل على تلك الورقة الناعمة ، وأردف الرجل قائلا : "ويطير أيضا" بمعنى "أن هذه الجرادة

(*) لفيتوكس : هو المعروف فى العهد القديم بسفر اللاويين . (المراجع)

سوف تنط وتطير !" وابتداء من تلك اللحظة كان شاربو القهوة يأتون إلى منزل زيد ، ويسألون عن خليل . "ويجعلونه يطلعهم على صورة أبي زيد وعلى كراسة صوره !" كانت تلك مجرد إشارات قليلة في كتابي الطبي . كما تعجبوا أيضا عندما نظروا من خلال : تلسكوبي ، الذي رأوا من خلاله الجمل الذي يرعى على بعد مسافة ميل ، وكأنه أمام أعينهم . وبالرغم من ذلك ، ونظرا لأن ذلك التلسكوب كان فوق مستوى عقولهم ، فلم يثر لديهم شيئا من الفضول ، يضاف إلى ذلك أن أقوياء البصر بين هؤلاء الأعراب" الذين كانت حدة بصرهم تصل إلى حدة بصر الصقور ، لم يعيروا كل صنوف غسول الوجه أي شيء من اهتمامهم ؛ والسبب في ذلك أن هذه الصحراء الواسعة الشاسعة هي التي تفيدهم في زيادة حدة بصرهم .

في تلك الأيام ، كانت كلاب الصيد المهزولة وحدها هي التي تلتهم الجراد في سائر أرجاء المنازل المختلفة ، هذه الكلاب كانت مفعمة بالسعادة والمرح ، وراحت تتجول في سائر أنحاء المخيم ، ولم تعد تلق بالا للأعراب ، إذ راحت في نوم عميق بعد أن امتلأت بطونها . والبدو الرحل يقولون : إن كلابهم "تعض الذئاب :" وأن هذه الكلاب تظل صاحية طول الليل بينما يكون البدو نائمين . والكلاب "آكلة لحوم الذئاب" بين بدو الفجير ليست بالكثيرة ، وهؤلاء الفجير أهل "ديرة تربي الإبل" ؛ وهذه الكلاب التي تأكل الذئاب ، تشبه إلى حد كبير ، الكلاب الضالة في سوريا . وأفضل الكلاب التي شاهدتها ، كانت تلك الكلاب الضخمة التي شاهدتها مع بدو البلّي ، في منطقة تهامة . والكلاب الشائعة بين البدو، يميل لونها إلى الاصفرار، وتشبه الثعلب من حيث الشكل ؛ وهذه الكلاب شبيهة بالغالبية العظمى من نوعية الكلاب الموجودة في معظم مناطق البراري الموجودة في كل أنحاء العالم . بعض البدو ، وهم قلة قليلة ، هم الذين لديهم كلاب سلوقية(*) ، تستعر جوعا ، وشديدة السرعة أثناء مطاردتها للأرانب البرية ؛ بل إنهم يطاردون حيوان الغزال باستعمال هذه الكلاب . والكلاب العادية ، التي في كل

(*) الكلاب السلوقية : تنسب هذه الكلاب إلى قرية سلوق في اليمن ، وهي من سلالة أصيلة وتتميز بسرعة المطاردة ، ولا يجد البدو غضاضة في الاحتفاظ بها في خيامهم وذلك على عكس الكلاب العادية التي يعاملونها معاملة سيئة . (المراجع)

قرية من قرى البدو (إذ إن هذه الكلاب لا تصاحب قطعان الماشية أثناء الرعى) ، تميل إلى أكل الجيف والرمم ، فى القبائل التى لا يكون لدى ربات البيوت ما يقدمنه لتلك الكلاب ، التى لا تحصل فى أوقات الجوع الشديد سوى على شىء قليل من الماء : وبذلك يصعب القول أو الحديث من مدى القذارة التى تعيش فيها تلك الكلاب ، هذه الكلاب لا تستحم سوى مرة واحدة على امتداد العام بكامله : وأيام استحمام تلك الكلاب تكون أثناء موسم حصاد محصول التمر فى بلدة خيبر ، حيث تزيد كميات التمر عن احتياجات هؤلاء البدو ، وبالتالى فهم يقدمون تلك الزيادة للإبل وللحمير ، كما يلقون كمية كبيرة من التمر أيضا للكلاب .

هذه الكلاب لا تلقى مطلقا من الأعراب كلمة طيبة أو معاملة طيبة . بل إن حياة هذه الكلاب هى الحياة الوحيدة التعيسة فى ديار الأعراب ، الذين يركلون تلك الكلاب ويضربونها ليطردونها من بيوتهم باعتبارها حيوانات أو مخلوقات نجسة ، والأعراب لا يلمسون تلك الكلاب بأيديهم (فيما عدا الجروان (صغار الكلاب) الصغيرة التى لم يجرى فطامها بعد) . ولو قدر لكلب من تلك الكلاب أن يكون لصا منزليا ، بمعنى أنه يسطو على طعام البشر ، فإن البدو يطاردونه بالعصى والصياح ، ويضربونه ضربا مبرحًا ؛ والرجال فى مثل هذه الظروف يقسمون قسما مغلظا بأنهم سوف "يقتلون ذلك الحيوان ، لأنه يستحق القتل" . هذا التصرف يجعل ذلك المخلوق المتطفل غير واثق بنفسه فى تلك الديار ، كما لا يثق كثيرا بسادته : والبدو لا يسمحون إلا للكلب السلوقى فقط بالبقاء داخل الخيمة ، باعتبار أنه من سلالة أصيلة . والكلاب عند البدو تحرس اليوم بطوله كل أفراد المنازل التى تعيش فيها تلك الكلاب ، هذا يعنى أن تلك الكلاب إنما تحرس أهلها Ahlahu على حد تعبير البدو أنفسهم . والكلاب تسير فى ركاب الرُحلة ، وتكون بصحبة الماشية التى تحمل المتاع ومن فوقها السيدّات ؛ هذه الكلاب تسير بخطوات شبه معقولة فى الظل الناتج عن الجمال المتحركة : وهى تسير وهى تتألم من الحرارة ومن الرمل شديد الحرارة من تحت مخالبها ، وهى تحاول العثور على ملجأ لها تحت دغل من الأدغال أو صخرة من الصخور ، كى تلجأ إليها تلك الكلاب حيث تلهث فى ظلها فترة قصيرة ، ثم تستأنف مسيرها . وعندما ينزل البدو عن مواشيهم فى المكان المخصص لذلك ، ترى تلك الكلاب (عندما يصيبها

النصب في القبائل التي تربى الأغنام) تبادر عقب رفع قماش الخيام إلى الدلوف إلى الظل ، وتروح تكسح الرمل الحار ، وتحفر بعد ذلك بمخالبها أسفل الرمل الساخن بغية الوصول إلى التربة الباردة الموجودة أسفل ذلك الرمل الساخن . والبدو ينادون على الكلب الذي يتوه أو يضل طريقه داخل المنزل ، ويروح يجرى وسط الخيام القريبة ، بنادية أصحابه بقولهم "أهلك Ahl-lak، أهلك ! Aha-lak" بمعنى "سر" ، إلى المكان الذي يوجد فيه أصحابك !" يضاف إلى ذلك ، أن كلاب البدو عالية النباح ، التي تتعقب القادمين الجدد (الغرباء) هي بمثابة الشرطة داخل مخيم البدو الرحل . وقلة قليلة من هذه الكلاب هي التي تخاطر باختطاف الأشياء مستعملة في ذلك أسنانها ، والرجل من البدو ، قد يأتي وهو يحمل مشعابه خلف ظهره ، ويقوم أهل الدار بإبعاد الكلاب عنه . أما إذا كان الحريم هن وحدهن في البيت ، وبخاصة عند الزيارة بدون موعد سابق ، فإن الغريب يتعين عليه إبعاد تلك الكلاب باستعمال الأحجار التي يلقيها عليها . وهنا قد تصيح واحدة من الحريم قائلة : "أوه ! أوه ! لماذا ترمي كلبنا بالحجارة ؟" ويرد عليها القادم الغريب قائلا : "لولا ذلك ، لأكلني ذلك اللعين ." – "ولكن ، يا أنت ، لا ترمه بالحجارة مرة ثانية ." – "إذن إستدعى الكلب إلى داخل الخيمة أيتها المرأة الحمقاء ، وأفعلي ذلك بسرعة ، وإلا سوف أقتله بهذه الكتلة من الحجر ." – "آخ منى ! لا تفعل ذلك ، هذا الكلب يأكل الذئب ، إنه يراقب الأعداء ، وهو حامي بيتنا وحامي غنمنا ؛ أرجوك لا تلقي عليه أو ترميه بحجر ثان ." – "أيتها المرأة المجنونة ، قبل أن يعضني ، سوف أكسر كل عظامه داخل لحمه ، ولعن الله لسانك ! فأنت بوسعك أن تبعديه عني !" في مثل هذا الحال كنت أوفر الحجارة ولا أحتاج إليها ، ولكن الزوجة السخيفة كانت تحس أنها أصابها شيء من الأذى ، ولكن الرجال كانوا يردون على ذلك الغريب قائلين : "هذا طيب تماما ." والحريم ، اللاتي لا يعول عليهن كثيرا ، تكون أسبابهن واهية ، كما إنهن يشبهن الأطفال في إحساسهن بالشرف ؛ لذا هناك بعض الخيام ، التي يتعين على الضيف الذي يمر عليها أن لا يثق كثيرا بالنساء الموجودات في تلك الخيام ، أو حتى أطفال هذه الخيام .

كلاب البدو الشرسة تسطو على كل ما يمكن أن تعثر عليه خارج الخيمة ، حتى وإن كان ذلك من قبيل الأمتعة (وبخاصة عندما تترك هذه الأشياء خارج الخيمة)

الخاصة بالضيوف الغرباء : إذ تقوم تلك الكلاب بتقطيع كل شيء مستخدمة فى ذلك أسنانها وأنيابها الحادة وكذلك مخالبها الحادة أيضا ؛ من هنا تصبح مسألة جمل متاع الضيوف إلى داخل الخيمة عملا محموداً من أعمال الخير . والرجال الذين يسرقون مؤن الآخرين وطعامهم ، ينعتهم البدو بأنهم "كلاب" . نادتنى حرفة فى صباح يوم من الأيام ، وهى تقف أمام خيمتى قائلة : "أين أنت ، يا خليل ؟ أنا سوف أغادر منزلى ، فهل لك أن تحرسه لحين عودتى ؟" – "إلى أين ستذهب مضيفتى اليوم ؟" – "أنا ذاهبة لشراء بعض الخيوط : يا خليل ، افتح عينيك وكن يقظا ، وأحرص على أن لا يدخل كلب بيتى ." وعندما عادت حرفة بعد ذلك بساعات عدة ، حضرت إلىّ لتعنفنى وتؤنبنى ، قائلة : "ها ! يا خليل يا مهمل ، لقد دخلت الكلاب بيتى ! فلماذا لم تحافظ على البيت ؟ ألم أطلب منك ذلك ؟" – "لقد حرست البيت من أجل عيونك ، يا حرفة ، طوال الوقت ، وأنا أحلف بحياتك على ذلك ! لقد كنت أجلس أمام الخيمة فى الشمس ، ولم تدخل حتى ولو شعرة من شعر الكلب إلى داخل الخيمة ." – "وا ، أسفاه ! خليل لا يفهم أن "الكلاب" رجال ؛ خبرنى يا خليل ، من الذى جاء إلى هنا أثناء غيابى ؟" – "جاء إلى هنا رجلان ، وعندما رأيتهما يأويان إلى خيمتك ، ظننت أنهما من أقاربك أو من معارفك ؛ هل يعقل أن يقوم قبلى بسرقة بيت قبلى آخر ؟" – "ولكن هذان الرجلان ، سرقا زمبيلا من التمر ، وهذا هو خطؤك أنت ." بعض العامة من البدو ينعدم ضميرهم ويسرقون الطعام (فقط) ؛ من منظور أن الطعام مشاع للجميع ، أو هو من خير الله .

ليالى الصيف البهيجة تبدأ اعتبارا من غروب الشمس وتمتاز بأنها تكون براداً فى تلك الأراضى الجافة المرتفعة . والرجال بعد تناول العشاء ، يتجولون طلباً للحديث مع جيرانهم ، إذ يبحث شاربو القهوة عن فنجان المساء : وتستمر دردشة الأعراب ، فى مجلس تناول القهوة ، إلى منتصف الليل . وفى أغلب الأحيان ، يكون الراعى هو الشخص الوحيد الذى يبقى فى منزلنا ، الذى يظل مستيقظا مع أغنيته الجافة التى يغنيها على وتر الرباب النشاز .

فى بعض الليالى المقمرة كان الأطفال يسارعون إلينا : إذ يتجمع البنون والبنات قادمين من بيوت الأمهات ، ويروحون يقفزون فوق الرمل ليمارسوا ألعابهم بالقرب من

الخيول، إلى ان يهتدوا إلى الطريق الذى يمكنهم من تسلق تلة من التلال أو صخرة من الصخور . وهذه جوقة من البنات الكبيرات يتجمعن هنا ، ويرحن يغنين وهن يصفقن بأيديهن مرددات القرار نفسه الذى يرددنه دوما فى كل وقت وحين ، والذى يتمثل فى مقطوعة شعرية واحدة . والصبية الصغار يتجردون من ملابسهم ، ويلقون غترهم (أغطية الرأس) أرضا ، أو ربما يكونون قد تركوها فى منازل أمهاتهم ، ويروحون يجرون وهم عراة فى الخلاء ، ولا يتبقى على هؤلاء الصبية من الملابس سوى "الهجو" Haggu (السروال) الذى يلفة كل واحد منهم حول خصره النحيل . وهذا الهجو عبارة عن شريط مُضَفَّر من الجلد ، الذى يرتدية ، ولا يتركه مطلقا أهل الجزيرة العربية الحقيقيين سواء أكانوا رجالا أو نساء . كل ولد حصان يختار لنفسة فرسًا Faras ، أو إن شئت فقل : مُهْرةً ؛ ثم يروحون يتجولون وهم متشابكى الأيدى ، ويصلون إلى مسافات بعيدة وهم يقفزون زوجا بعد الآخر ، كما لو كانوا يلاحقون بعضهم بعضا فى الخلاء فى ضوء القمر ، هذا الصبى الحصان يرفس تلك الخيول ، التى تلاحقة بسرعة ، ويهرب منها وهو يصهل . هذه اللعبة التى يزجى بها أبناء الأعراب وقت فراغهم ، التى تخضهم هم أنفسهم دون غيرهم ، لا يتولد عنها أى شكل من أشكال الصراع ، كما أنها لا تنطوى على أى شىء من الحقد أو الغل ، ولا يسمع أحد فيها أصوات التذمر أو الغضب ، كما أنها لا تسمح بأى شكل من أشكال الضرب أو اللكم . والبدو الرحل ليست الوحشية من طباعهم . زد على ذلك أن تلك اللعبة يمكن أن تستمر ساعة أو ساعتين : هذا يعنى أيضا أن الصبية الصغار – قد يقتربون من اللعبة التى تمارسها البنات الصغيرات : إذ يرحن يلهين مثل الإبل الكبيرة بين الأغنام الصغيرة ؛ ولكنهن لا يكن عاريات ؛ وإذا ما بدر من أى صبى من الصبيان الصغار أيه بادرة من بوادر إساءة الأدب، فإنه لا يحظى بتقدير أو احترام هؤلاء البنات الصغيرات. وبعد انقضاء مرحلة الطفولة، لايكون لدى هؤلاء الأعراب أية لعبة من لُعَب تزجية الوقت. وأهل قِبْلى Gibly ، أو إن شئت فقل : بدو الجنوب الرُّحل ، لم أرى منهم خيَّالة يقومون بتدريب أنفسهم على أفراسهم بصورة مستمرة . والأطفال يمارسون هذه اللعبة لإرهاق أنفسهم وليس طلبا للمزيد من الإتقان والإجادة . وليس لدى الشباب أية رياضة أخرى غير إطلاق نيران بنادقهم الفتيلية فى المناسبات الأسرية . والرعاة ، يحيون حياة تأمل

بصورة مستمرة ، كما أنهم لا يتغذون كما يرام ؛ كما أنهم لا تجرى فى عروقهم روح التفاؤل ، التى يمكن أن تدفعهم إلى ممارسة ألعاب الرجولة ؛ ويندر أن تجد بدويا مفتول العضلات . وفى المنطقة الواقعة جنوبى حائل ، لم أر شابة متوردة الخدين ، بل إنهن يبدين كما لو كن من مخلفات جفاف الصيف ، وذابلات وهن فى ريعان شبابهن.

فصل الصيف المعتدل هو موسم المزينين Muzaynins، أو إن شئت فقل : موسم احتفالات ختان أطفال البدو ، ففى تلك المناسبة يجرى تجهيز خيمة الأم وتزيينها بشراريب من الخيط الأحمر القانى ، وبعض خصل يجرى صنعها من ريش النعام ، كما يجرى تزيين الخيمة ببعض الأشياء الملونة ، أو أية أشياء أخرى يمكنهم العثور عليها . فى تلك الخيمة تجتمع جوقة (مجموعة) من بنات الجيران النحيفات ، ويرحن يغنين فى تلك المناسبة وهن يرتدين أبهى ثيابهن . وتضع كل واحدة من البنات ، على جبهتها منديلا جديدا مثبت به ريشة من ريش النعام ؛ كما تلبس كل واحدة منهن حلقا كبيرا فى أذنها ؛ ويصل حجم ذلك الحلق إلى حجم السوار ، كما تلبس الفتاة فى ذلك اليوم حلقة أنفها التى يطلقون عليها اسم "الزميم" Zmèyem : والحلق ، هو و "الزميم" أو إن شئت فقل : "حلقة الأنف" عبارة عن مجوهرات مصنوعة من الفضة ، وقلة قليلة من تلك المجوهرات ، على حد قولهم ، هى التى تصنع من الذهب الخالص ، منذ زمن بعيد . والأقراط ، وحلقات الأنف هى من أشياء الزينة عند النساء البدويات ، ومن الصعب أن نجدها فى أزمان أخرى (والبدوية تضع كل يوم فى الثقب الذى يحدثونه لها فى أنفها فصًا من القرنفل) ، كما تلبس البدوية فى يديها أساور من الخرز ، كما تلبس فى أصابعها أيضا خواتم مصنوعة من المعدن ، فى ذلك اليوم تفك البنات جدائل شعرهن الأسود غير الطويل ، ويتركنه ينسدل على اكتافهن ، ويتلالأ فى ضوء الشمس ، بعد أن يكن قد غسلنه ببول الإبل ومشطنه تمشيطا جيداً . والصبايا يقترضن عباءات جديدة فى ذلك اليوم ، ولا فرق بين عباءات الرجال والنساء . وتجلس الصبايا على شكل حلقة ويبدأن فى التصفيق بأيديهن الصغيرة ، وهن يتغنين ويرددن قراراً غنائيا لا يعدو أن يكون بضع كلمات قليلة ، على شكل مقطوعة شعرية واحدة فقط . هذه الوجوه الصغيرة التى يرتسم عليها الجوع ، يحسبها الناظر إليها ، وجوه بنات الفجر ؛ هؤلاء البنات الأطفال اللاتى يضعن فى كثير من الأحيان بين أمتعة أمهاتهن ، هن

اليوم يلعبن أمام أعين الرجال ، بملامحهن التي تدل على انكسار الخاطر ، وأدب العذرية التي يبدو عليهن . ولكن هزار الأعراب واستهزائهم لا يمكن أن ينقطع ويتحول إلى صمت طويل ، نظرا لأن الشبان الصغار ، يتجمعون ، من حول البنات ، في ضوء النهار ، ويروحون ينكتون ويهزرون ، بل ويصل الأمر إلى حد أن البعض منهم يروحون يشدون الريش الذي تعلقه الصبايا على جباههن ، وهن أبناء عمومتهن الأقربين ، ولا تجرؤ واحدة من الصبايا على الاعتراض على ما يفعله الشبان ، ولكنهن يكتفين بتوجيه نظرات اللوم والتأنيب إلى هؤلاء الشباب : أو قد يضحك الصبيان بصوت عالٍ بعد أن يكونوا قد قسموا هؤلاء الصبايا فيما بينهم لتكن زوجات لهم ؛ وإذا ما وجد غريب بينهم ، فهم يطلبون منه أن يختار لنفسه واحدة من بين هؤلاء البنات . "يا أنت ، ما رأيك في بناتنا ، وفي هذه البنت ، وفي تلك ، أليست وجوههن جميلة ؟" "ولكن العذراوات لا تبتسمن ، وإذا ما نظرت إحداهن إلى الأعلى ، فإن أعينهن الجريئة يبدو فيها النفور والشجن والحزن . البنات في هذا الموقف يشبهن الأطفال الذين يجرى تخويفهم بالعصا ، هذا يعني أن هؤلاء البنات يتعين عليهن الحفاظ على شكل معين من السلوك والتصرفات؛ وبالرغم من كل ذلك ، فهن لسن فتيات جميلات. استبداد الذكور ، في الدين الإسلامي فيما يتعلق بهذا الموضوع ، يمكن رده إلى سلوك معين للبنات تلتزمنه منذ زمن بعيد ، وهنا ترقص الصبايا الصغيرات كما لو كن مرشحات لزواج سعيد ، الأمر الذي يدخل السرور على قلوب الأمهات فرحا ببناتهن . ليتهن يأتيهن الغد الذي يتمنينه ! الغد الذي يمكن أن يكون مثل هذا اليوم الذي هن فيه حاليا ، والذي يتغنين بسعادته وسروره ، ذلك اليوم الذي ينضم فيه الطفل الذكر إلى دين الإسلام ، هذا اليوم أفضل من يوم مولده . والطفل عندما يختن فذلك يعني إنه قد أصبح عمره ثلاث سنوات بالتمام والكمال ؛ وهذا يعتمد أيضا على الموسم من ناحية ، وعلى مدى قدرة الأم على توفير القمح أو الأرز الذي يكفي وجبة العشاء التي ستقدم للضيوف ، وفي بعض الأحيان قد تؤجل عملية الختان إلى الغد ، إذا ما تبدل حال الطقس ؛ أو إذا ما تعين على الأسرة الانتقال من مكان إلى آخر ضمن رحلة القبيلة .

يصل أصدقاء الوالد ليحلوا ضيوفا عليه : البعض من هؤلاء الأصدقاء يتزينون بحزام الطلقات وحزام السيف أيضا الذي يسمع له حفيف ينبعث من السلاسل المعدنية

الكثيرة ومن عبوات البارود المصنوعة من النحاس الأصفر ؛ كما يحمل كل واحد منهم على كتفه بندقيته الفتيلية الطويلة . هؤلاء الضيوف يثبتون قدرتهم على الرماية باستعمال تلك البنادق التي يصوبون طلقاتها إلى رأس الذبيحة التي ذبحها والد الطفل ، الذي يقولون له "بابو" Babbu ، إكراما وتكريما لضيوفه . وكل واحد هنا ينحر ذبيحته بنفسه ، مثلما كان الحال في العالم القديم ، كما يقوم بسلخها وتقطيع اللحم بسرعة العرب المعهودة . والبدو الرحل كلهم وبلا استثناء خبراء في الذبح والسلخ وتقطيع اللحم ؛ وهاهي أرباع الذبيحة معلقة على دغل من الأدغال أو في غصن من الأغصان ، التي ربما يعثرون عليها أثناء تجوالهم في الصحراء ، عند أطراف الجبال أو حوافها . وعندما تميل الشمس إلى الغروب يجري وضع اللحم في قدر كبير ، يقولون له "الجدّة" Jidda . ويترك البدو كرش الذبيحة وأمعاءها معلقة على الغصن أو الدغل . وبعد ذلك يجري طبخ اللحم مع الثريد المتوافر لديهم ، وبعد أن يكتمل غروب الشمس ، يرحن الصبايا يرقصن منفردات على شكل حلقة أو دائرة : وهنا يتفرق الرجال وينتشرون لأداء الصلاة ، وخلال تلك الفترة يجري إدخال ماشية كل أسرة من الأسر إلى المراح المخصص لها ، وبعد أن ينتهي الرجال من أداء الصلاة ، يقدم العشاء في الخيمة : والطبق الخشبي الذي يوضع أمام الرجال يكون فيه من اللحم مقدار يكفي لعشاء ثلاثين رجلا . وبعد ذلك بفترة وجيزة يحضر بعض الرعاة محدثين شيئا من الجلبة وهم عائدين من الحقل ؛ ويقترب أولئك الرعاة من تلك الضوضاء المرحة التي تصدر عن احتفال المُزَيِّن ، وهنا يستشعر أولئك الرعاة رغبة الرقص في داخلهم . ويكون هؤلاء الأولاد صفا ، بأن يضع الواحد منهم ذراعه على كتف من يقف إلى جواره ، ويروحون يضحكون ويسمرون ؛ ويروحون يصيحون وهم يتقدمون إلى الأمام ، ثم يرجعون إلى الخلف ، ويتمايلون ويتقدمون ، ويتلوون ، كل ذلك وهم ممسكين ببعضهم البعض ؛ ويتغنون كلهم بأغنية هي عبارة عن مقطع واحد فقط من الشعر . أثناء ذلك ، تصفق ربات البيوت داخل الخيام ، ثم تنهض واحدة منهن تحمل في يدها عصا ، وعندما يقبل عليها الرجال الذين يرقصون تقوم بالرقص استقبالا لهم ؛ هذا في الوقت الذي يواصل الرجال فيه رقصهم على شكل صف واحد ، وهم يرددون المقطع الشعري نفسه ، وعندما يتقدم الرجال نحو هذه المرأة تبدأ هي في الرقص في اتجاه داخل الخيمة ،

وتتظاهر بالدفاع عن نفسها باستعمال العصا ؛ وتوجه المرأة وجهها نحو الرجال ، الذين يواصلون أغنيتهم بصوت الرجال الجهورى ، كما لو كانوا يلاحقون تلك المرأة .- والبدو الرحل يتخيلون ضرورة الختان : ولما كان البدو رعاة فهم يزعمون أن ذلك يحدث فى كل أنواع الماشية ، وأن ولد آدم هو الوحيد الذى يحدث مثل هذا الشكل من أشكال الإعاقة . وعندما سألونى فى هذا الأمر قلت لهم : "بوسعكم تعديل عمل الله (سبحانه وتعالى) هذا ! " - "وردوا على قائلين : نحن لا نتكلم عن ذلك ، وإنما نتحدث عن السرعة فقط ." سألتهم : وما هى واجبات المسلم ؟ وأجابونى : "أن يصوم الرجل الشهر ، وأن يؤدى الصلاة ؛" - ولم يتطرقوا إلى ذكر الختان ، الذى يسمونه "تطهراً" .

فى اليوم الخامس عشر من شهر أبريل ، بعد ريح هبت علينا فى الصباح ، وموجة من البرد جاءتنا من اتجاه الشمال الشرقى ، اكتشفت فى فترة مبكرة من مساء ذلك اليوم أننا كنا على ارتفاع حوالى ٤٠٠٠ قدم ، كما وجدت أيضا أن درجة الحرارة كانت ٩٥° فهرنهيتية داخل الخيمة ، وأن الهواء كان ما يزال ساكنا والشمس ساطعة . هاهى الأعشاب الخضراء قد ذوت ، وبدأ جفاف الصيف يطالعنا ، كما بدأت الصحراء تغير لونها ؛ هذا يعنى انتهاء فصل الربيع . تحرك البدو ليقيموا فى مخيماتهم المنعزلة الجرداء : وذات صباح ، وبعد أن سيقت الإبل إلى المرعى بحوالى ساعة من الزمن ، جاءنا إنذار من المقدمة يقول بوجود ، جوم Gom (غزو) . كان أحد الرعاة قد أفلح وعاد إلينا هاربا ، راكبا ذلوله (ناقته) ليبلغ المجلس أن ""الإبل" êl-'bil ، أى "قطعان الجمال" قد جرى الاستيلاء عليها ." وهنا وقف الشيوخ من حول وجار القهوة وتركوا فناجيلهم وبدت على وجوههم نظرات الدهشة والعجب : وانصرفوا جميعا كل يبحث عن فرسه ، على وجه السرعة . لقد سبق لهؤلاء الشيوخ أن شاهدوا بالأمس بعضا من الحرامية Haramiyeh ، يحومون حول المكان ، وبالتالى سارع كل واحد من هؤلاء الشيوخ إلى إحضار سلاحه . كان الناس يجرون من الخيام كما لو كانوا زنابير هائجة : بعض هؤلاء الرجال كانوا من حملة البنادق الفتيلية ، وبعض آخر كان مسلحا بالرماح ، وكان الجميع مشاة ، اللهم باستثناء الشيوخ الذين كانوا يركبون الخيول ، وسارع الجميع قدما بحثا عن أعدائهم ، الذين لم يتمكنوا من رؤيتهم عند ذلك الأفق الصحراوى القصير : ولم يبق فى المخيم سوى ربات البيوت ، والأطفال وقليل من

المرضى وكبار السن . وطلب البعض منى أن أركب وأذهب لمهاجمة الأعداء اللصوص : كان زيد قد سبق له القول : إن خليلا سوف يقاتل معهم . "(صاحت ربات البيوت قائلة) يا خليل ، قل لنا طالعنا في كتبك الحكيمة : ألا تستطيع التنبؤ بإستعمال هذه الكتب (شوف Shûf فى الغُرِيْب(*) F'il ghraib) إقرأ فى تلك الكتب وخبرنا عما تراه فيها عن هؤلاء الجومانيين (اللصوص) .- لقد حق عليهم العقاب ! والمؤكد هو أن هؤلاء اللصوص شاهدوا نيران الحراسة فى الليلة الماضية ، وبالتالى استتروا وتواروا خلف الجبل إلى أن يحين موعد إطلاق الإبل إلى المرعى ." – مضى علينا صباح طويل ، ونحن غير واثقين مما يمكن أن يسفر عنه ذلك الحادث السيئ .

كان مطلق قد ركب دابته قبل أيام عدة ، قاصدا مدينة حائل للقاء الأمير ، وخلَّف وراءه رحيل Rahŷel فى حكم القبيلة ؛ ورحيل هذا رجل مضطرب الذهن ، إذا ما تأزمت الأمور ووصلت إلى مثلما هى عليه الآن . بعد أن عاد أفراد القبيلة المسلحين بعد الظهر ، ذهب الجميع إلى الجلوس داخل المجلس ومناقشة الحادث المفزع ، ولم أسمع من واحد من الحاضرين أية كلمة عن مطاردة اللصوص أو تعقبهم ؛ وعندما سألت الجالس إلى جوارى : "قال ، سوف يركبون إبلهم ، على الفور ، لأن الإبل المسروقة لابد أن تعود إلى ديارنا فى المساء !" والسبب فى أن القسم الأكبر من الماشية جرى الاستيلاء عليه ، فيما عدا ذلك القسم من الماشية الذى كان يرعى فى الجانب الشمالى من المْنَزل . معروف أن السرعة والتعجيل فى العمليات الحربية أمر جد مهم ، ولكن هؤلاء البدو ظلوا بلا حراك طوال اليوم وتركوا اللصوص يفلتون ، وهم يتعجبون من أمر هؤلاء اللصوص ومن يكونون ؛ قال جميع الحاضرين : "هم بعض أعراب الشمال ." نظرا لأنهم كانوا مسلحين بمسدسات . وراح الحاضرون يقلبون الأمر ويعملون عقولهم كي يحددوا إن كان هؤلاء اللصوص من بدو الشرارات أو من حويطات بن حاسى (أى بدو من المنطقة المحيطة بقرية معان) ؛ أو أنهم من بدو الرولة . "قال زيد : اسمعونى وسوف أوضح لكم الأمر ، وأحدد لكم من هم هؤلاء اللصوص

(*) المقصود "بالغُرِيْب" بضم الغين وتسكين الباء ، هو "الغيب" وهذا أمر مألوف عند البدو فهم عندما يقولون : "الغرنْم" بفتح الغين وتشديد النون وفتحها يعنون (الغنم) (المترجم)

(كان زيد هو الذى يتمتع بذلك الغرور والخيلاء بينهم) . أقول لكم إن هؤلاء اللصوص من الصخور es-Sokhûr ، وسوف تتأكدون من صدق كلامي " . وجرى بعد ذلك تدبر تلك الكلمات القليلة التى خرجت من شفاة العدو . لقد تحدى اللصوص رعاة الإبل متسائلين : "من أى أعراب يا أنت ! هل أنت من الفجير ؟" ولكن ذلك لا يعد كافيا فى مسألة تحديد لغة Loghrat قبيلة من القبائل . كان الجوم (اللصوص) أو إن شئت فقل : الغزاة ، ثلاثة عشر خيالاً ، كما كان معهم أيضا عشرين لصا آخرين يركبون جمالا . وأثناء اقتياد اللصوص للغنيمة ، شردت منهم فرس من الأفراس ، جرى اقتيادها إلى المخيم ، ولكن أحداً لا يعرف شيئا عن تلك الفرس ، والسبب فى ذلك أن الشيوخ البدو ليس من عادتهم وشم خيولهم بالعلامات التي يميزون بها ماشية القبيلة . وقد نفقت تلك الفرس في اليوم الثالث، بسبب الظمأ الشديد ! وكان السبب فى ذلك، أن أحداً لم يجرؤ على سقي تلك الفرس من الماء القليل جداً الذى فى حوزته . ومعروف إنه إذا ما ضلت عنزة من الماعز وراحت تتجول بين البدو ، ولم يتمكنوا من معرفة صاحبها ، فإن أحداً لا يقدم الماء مطلقا لمثل هذه العنزة . ويوم أن كنت مع هؤلاء البدو ، أنقذت حياة حيوان أو اثنين من الحيوانات الضالة ، بأن أقنعت بعض المرضى الذين كانوا يترددون علىّ ، تقديم الماء لهذين الحيوانين الضالين .

حصر الجالسون فى المجلس عدد الإبل التى استولى اللصوص عليها ، بأن راحوا ينادون على أسماء أولئك الذين سرقت ماشيتهم : كان زيد هو الذى يقوم على أمر ذلك الحصر ، إذ كان يرسم خطا على الرمل يشير به إلى كل عشرة من الجمال ؛ وعليه أبلغ زيد الحاضرين أن عدد الماشية الصغيرة المسروقة بلغ مائة وعشرين رأسا ، إضافة إلى سبعة من الإبل – وقدر قيمة ذلك بحوالى ٦٠٠ جنيه إنجليزى أو ما يزيد على ذلك . يضاف إلى ذلك أن إجمالى عدد إبل القبيلة لم يكن يصل إلى ٢٠٠٠ رأس ، ولا أعتقد أيضا إنه كان يمكن أن يكمل ١٥٠٠ رأس ؛ زد على ذلك ، أن كل ثروة الفكارة ، التى هى عبارة عن مقتنيات حوالي عشرين أسرة ، هي وماشيتهم الكبيرة والصغيرة ، إضافة إلى خيامهم وأوانيهم ، كل ذلك لا يزيد ثمنه ، من وجهة نظرى ، على ١٧٠٠٠ جنيه إسترلينى . يضاف إلى هذا المبلغ حوالى ٧٠٠٠ جنيه إسترلينى أخرى ، هى قيمة الميراث الذى خلّفه لهم آباؤهم فى خيبر . وأنا أرى أن متاع أو مقتنيات أية أسرة من

أسر هؤلاء البدو الجنوبيين لا تزيد قيمته بأى حال من الأحوال على ما قيمته ١٢٠ جنيه إسترليني ؛ وهذا ينطبق أيضا ، وبدرجة كبيرة ، على البدو الذين يحيطون بالفكارة ويجاورونهم . هذه القبيلة الصغيرة ، فيها النبلاء ، وفيها من هم أيضا من عامة الناس ، وفيها أيضا وفرة العيش ، وفيها أيضا الفقر والعوز ، والبؤس . هذا الشيخ مطلق الكبير ، الذى تفوق ملكيته ملكية الآخرين فى قبيلته ، لا يزيد ما يملكه من الإبل على خمسة وعشرين جملا . هناك أيضا فارق بين قبيلة وأخرى : هذا يعنى أن قبائل الشمال الكبيرة ، كما هو الحال فى قبيلة العنزى السورية ، وقبيلة الشمر الشمالية التى تعيش فى أراضى بلاد الرافدين ؛ هاتان القبيلتان تتجولان فى بلاد غنية وثرية ، ومن هنا فهما غنيتان أيضا بالماشية والخيول : وهذا الكلام ينسحب أيضا على قبيلتى قحطان والعتيبى وهما من قبائل الجنوب ، (سوف نرى أن ديار هاتين القبيلتين إنما تروى كل عام بفعل الرياح الموسمية ؛) ولكن قبائل الوسط البدوية ، التى تعيش فى أراضى لا تسقط عليها الأمطار، "أضعف" من قبائل الشمال والجنوب. أما القبائل التى توجد على طول طريق الحج ، والتى تحصل على صرة Surra (إعانة) كل عام ، فهى أكثر القبائل استرخاء وشربا للقهوة، كما أنها كثيرة الكلام دونا عن سائر بقية القبائل. وشيوخ الفجير يتقاسمون فيما بينهم كل عام ما يقرب من حوالى ٦٠٠ جنيه إنجليزى من تلك المدفوعات! . وهذا المبلغ يذهب منه حوالى ١٠٠ جنيه إنجليزى إلى الشيخ زيد ، الذى يتسلمها باعتبارها إرثا آل إليه من والده ، فى حين يحصل الشيخ مطلق على مبلغ ١٦٠جنيه إنجليزى ؛ كما يحصل مطلق أيضا على بعض الملابس والحبوب ، علاوة على بعض المخصصات التى يحصل عليها أيضا لخيامه ولشراء الأوانى ؛ وبالرغم من ذلك فهم جميعا من الفقراء ، ولن ينصلح حالهم أكثر ذلك . وحلال مطلق ، أو إن شئت فقل : "ثروته من الماشيه" ، هى وفرسه وكذلك خيمته ومعها كل مقتنيات بيته ، كل ذلك لا يساوى ، من وجهة نظرى ، ما يزيد على مبلغ ٣٠٠ جنيه إنجليزى : وإذا ما أضفنا إلى هذا المبلغ ميراثه فى قرية خيبر ، نجد أنفسنا أمام حقيقة مفادها أن كل ما لدى زيد لا تزيد قيمته بحال من الأحوال على ٥٠٠ جنيه إنجليزى .

أضاع الأعراب من الوقت الكثير جداً الذى لا يمكن استرجاعه بأى حال من الأحوال ؛ فى حين قامت ربات البيوت بتجهيز بعض المؤن السريعة لأولئك الذين

سيركبون إبلهم هذا المساء ويذهبون لاسترداد الماشية المسروقة . مسألة الركوب هذه ، تترك لاختيار البدوى نفسه ، بمعنى أنها ليس فيها أى شيء من الإجبار ، ومع ذلك فإن كل من يكون لديه جمل يركبه ، لايمكن أن يتحاشى القيام بعمل فيه خدمة للجماعة كلها من ناحية ، والمحافظة على اسمه وسمعته بين أهله وعشيرته من الناحية الأخرى . تولى رحيل Rahyèl قيادة تلك المطاردة . كان البعض من هؤلاء البدو يتفاخرون وهم جلوس ويقولون : "هذه الليلة ، أو مع طلوع الصبح ، وعندما يظن الحرامية أنهم وصلوا إلى ديرتهم في سلام ، ومع نيلهم أول قسط من الراحة ، سنهجم عليهم فجأة ، ونسترد ماشيتنا ، بمشيئة الله ، كما سنأخذ ماشيتهم من بين أيديهم ." والإبل عندما يقتادها الغزاة اللصوص ، يطاردونها طوال ذلك اليوم ويجعلونها تجرى أمامهم طول الوقت ، أملا فى الإفلات من المطاردة والملاحقة ؛ وبذلك يكون هؤلاء اللصوص قد قطعوا بتلك الماشية حوالى ٥٠ ميلا عندما تبدأ الشمس فى الغروب . كانت أخر الكلمات التي سمعتها قبل أن ينهض البدو واقفين للقيام بتلك المطاردة : "إن شاء الله ، سوف يعود كل جمل جرى خطفه بواسطة هؤلاء اللصوص ، ستعود كل هذه الماشية غداً إلى هذا المكان ، في مثل هذا الوقت ، وستقف كل دابة أمام خيمة صاحبها :" وتفرق البدو على إثر ذلك الفأل الحسن ، وذهب كل واحد منهم لتناول العشاء ، على أمل أن يستقل الركّاب إبلهم بعد ذلك ، والمعروف أن الشيوخ (فى المطاردات الطويلة) لا يصحبون معهم أفراسهم . أما زيد فقد جلس ساكنا بلا حراك في منزله ؛ قال : إنه لدية جملان "ولكنهما مريضان" . وهذا هو خلف Khalaf يجلس هو الآخر في خيمته ؛ وخلف هذا ، رجل يتباهى بأن ثمن فرسه يساوى عددا كبيرا من الجمال ، وبإنه واحد من أكابر شيوخ ولاد على ، ومع ذلك ليس لديه ما يركبه . وهذا سبب واهٍ من منظور ميزان الرأى العام ؛ وبقى زيد جالسا طوال نهار اليوم التالى ، حزينا يحتسى الكثير من القهوة ، ويحتج بشدة معربًا عن أسفه ، ويقسم بالله ، إنه جد آسف لإنه لم يذهب مع الرجال .

كانت إبل زيد قد أنقذت ونجت من السرقة فى تلك المرة نظرا لأنها كانت ترعى فى الجانب الآخر من الصحراء ؛ ومع ذلك فإن المصيبة التى تكون من هذا القبيل تعم الجميع ، ويتعين على القبيلة كلها تحملها . هذا يعنى أن أحداً ممن سرقت ماشيتهم

سوف يترك معوزا أو محتاجا ؛ ولكن الشيخ الذى يحكم القبيلة سوف يفرض ضريبة على كل أفراد القبيلة ، على أن يجرى تسليم قيمة تلك الغرامة ، من باب المساهمة العامة ، لهؤلاء الناس ، خلال يوم أو يومين . وفى مثل هذه الظروف يوفد شيخ القبيلة الحاكم بعض الأفراد كمُقَيِّمين إلى منازل المنكوبين ، لإحصاء الماشية المفقودة من كل أسرة من الأسر . وجرى فى اليوم التالى تحصيل ضريبة من زيد ، على عدد من الماشية أقل من العشرين رأسا التى يملكها ، وعلى جمل وعدد صغير من الماشية الصغيرة . والبدو الرحل الذين شاهدناهم ، هم من النوع الذى يتشارك أفراده فى الثروة العامة ، ويحكمهم شيوخهم حكما عادلا ومنصفا . هذا يعنى أن هؤلاء البدو يتقاسمون خسائرهم ، وقد يمتد ذلك الأمر إلى القبائل الكبيرة . معنى ذلك أن المصائب قد تحل بتلك القبائل ، إذ قد تصادف قبيلة من تلك القبائل يوما أغبرا ، لم يسبق لها أن صادفتة على امتداد سنوات طويلة ، ويجرى فى ذلك اليوم ، بضربة واحدة ، تجريد قبيلة من كل ماشيتها ، مثلما حدث بعد ذلك ، على حد علمى ، للموءاهيب .- ولكن ماذا يحدث بعد ذلك ؟ قام أفراد قبيلة البلِّى المجاورين لهم بإعطائهم الكثير من ماشيتهم .

وإذا ما سرقت ماشية غريب من الذين يسكنون مع قبيلة من القبائل ، فذلك لا يرتب أى التزام على أفراد القبيلة ، نظرا لأن هؤلاء الغرباء لا يتقاسمون الخسائر مع أفراد القبيلة الذين يستضيفونهم : ومع ذلك هناك بعض القبائل الضخمة ، (وقد سمعت ذلك ما يقال عن قبيلة الشمر) التى قد تقدم ، من باب التطوع ، لهؤلاء الغرباء ، شيئا من المعونة ، طالما أنهم كانوا يعيشون بينهم منذ فترة طويلة ، وذلك من باب مشاطرة أولئك الغرباء أحزانهم ومصائبهم . والقروى عندما يعهد بماشيته إلى واحد من البدو ، كى ترعى مع ماشيته ، ويحدث أن تسرق تلك الماشية مع ماشية القبيلة ، يطالب البدوى برد ماشيتة إليه ، ويتصرف معه تصرفات دنيئة، من منطلق إنه دائن له، كلما التقاه فى قريتة : ولكن البدوى الذى لا تقيده قوانينه وأعرافه بالتعويضات التى من هذا القبيل يأخذ حذره ولا يخاطر بالاقتراب من تلك القرية . هذه المشاحنات موجودة منذ زمن بعيد ، بل إن البدو يتوارثون الأحقاد القديمة إلى الجيل الثالث .- وقانون إسرائيل يساند القروى فى مثل هذا الحال ، ويلزم الراعى (البدوى) بتعويض أو إعادة الماشية إلى صاحبها . توجد بين البدو أيضا خسارة أخرى لا يجرى

التعويض عنها ، وذلك عندما تسرق ماشية واحد من البدو ، ويكتشف شيوخ المجلس ، أن تلك الخسارة كانت بسبب البدوى نفسه ، وأن تلك الخسارة لم تكن من أجل صالح القبيلة بشكل عام . وهنا يقوم ذلك القبلى المنكوب بوصف الشيوخ بأنهم ليسوا عادلين أو منصفين ، وبالتالى يظل مثل هذا البدوى عاريا ولا يعوضونه عن خسائره من مواشى القبيلة : ولقد صادفت الكثيرين من أمثال هؤلاء البشر . كما شاهدت أيضا بعض البدو الأثرياء الذين حل عليهم الفقر فجأة ، عندما نفقت إبلهم كلها دفعة واحدة بفعل مرض أو وباء من الأوبئة . أمثال هؤلاء الناس يتصادقون فى أيام النكبة ، شأنهم شأن أمثالهم فى بقية أنحاء الدنيا كلها . وفى مثل هذه الظروف ، وحسب احتياجات ذلك المنكوب ، يقوم كل واحد من أفراد القبيلة باقتياد رأس من الماشية وتسليمها لذلك المنكوب ؛ وبذلك يتمكن مثل هذا الشخص من استعادة شىء من قوتة السابقة .

مقابلة الغزو بالغزو فيه دمار للأعراب . فالسطو والسطو المضاد لا يؤديا مطلقا إلى الرواج ؛ والأمر لا يعدو أن يكون فى نهاية المطاف مجرد تبادل للماشية على نحو سيئ للغاية . من هنا ومن منظور البدو ، فإن قوات إبل الفكارة عبارة عن "خليط" ، بمعنى أنها ليست كلها من نوع واحد ، مما يدل على إنهم سرقوها من ديار عدة . أبلغنى ولد مطلق ، أنه سوف يتولى المشيخة بعد والده ، "نعم ، والله ، كل إبلنا حرام (بمعنى أنها جرى الحصول عليها عن طريق الغزو ،) . وليست ملكا شرعيا لنا ." يضاف إلى ذلك ، أن بدو الفجير ، أصابهم الفقر فى السنوات الأخيرة ، جراء غزو جيرانهم لهم : فقد غزتهم قبيلة بشر ، ومن بعدها ولاد على ؛ وأخذوا منهم قطعان الماشية ؛ ولكنهم فقدوا القسم الأكبر من تلك القطعان بسبب وباء من أوبئة الماشية ، التى تصيب القطعان فى تلك المضارب الرملية ؛ وهذا الوباء يجىء للحيوان على شكل مغص ، أدى إلى نفوق البقية الباقية من حيوانات الفجير الصغيرة . وقبل ذلك بعام واحد ، كان لدى زيد قطيع مشترك ، أو إن شئت فقل : مختلط ، من الماعز والغنم ، الأمر الذى مكن حرفة ، زوجة زيد ، فى فصل الربيع المنصرم ، من صناعة حمولة جمل ونصف جمل من السمن (أى ما قيمته حوالى ١٨ جنيه إنجليزى). وها أنا اليوم لا أرى أمامى سوى نعجة واحدة وعنزتين من ماعز اللبن ، هى كل ما تبقى لهما من الماشية الصغيرة ، وهاتان العنزتان لا تعطيان من الحليب سوى سلطانية صغيرة كل يوم ،

وبالتالي فإن زيد لا يود شراء المزيد من الحيوانات الصغيرة نظرا لخيبة الأمل الذي مني بها . كان زيد قد ورث عن والده الذي كان شقيقا لشيخ القبيلة الكبير السابق ، عددا كبيرا من أشجار النخيل في قرية خيبر : ونظرا لأن نصف الثمار يأخذها المزارعون الزنوج ، فإن ما يحصل عليه على شكل إيجار يصل إلى حوالي ٢٠٠ ريال . من هنا يتضح أن زيدا بُحكم حصوله على صرة كل عام ، يكون لديه نقوداً يصرف منها كل يوم ، طوال سنوات الرواج ، أي بواقع ريالين في اليوم الواحد ، وهذان الريالان هما ثمن الماعز واحدة ، وهذا يعد مبلغا كبيرا في تلك الصحراء الجرداء : ومع كل ذلك كان الرجل بائسا ، ويتفنن في تأخير سداد المستحقات إضافة إلى إنه كان وراء عملية الربا . كان شيوخ بني وهاب يدخرون "نقودهم" thàhab، (من الصرة التي كانوا يحصلون عليها من الدولة كل عام ،) في قرية العلا ؛ ومن هذه النقود يستطيع الشخص الوضيع أن يزيد "حلاله" (ماله) في صمت ، وقد يتجرأ ويشتري لنفسه فرسا جديدة .

تغيبت جماعة الملاحقة والمطاردة التي كان رحيل يتزعمها ثلاث ليال عن المخيم . هذا يعني أن ما تبقى من الرجال في المخيم كان عدداً قليلا جداً ، وكان ذلك العدد القليل من الرجال يتجمعون سويا لشرب القهوة . أما ربات البيوت المحبات فكن يجلسن خارج الخيام طوال اليوم ينتظرن عودة الرجال : وقبيل ظهيرة اليوم الرابع ، سمعنا صوت زغاريد النساء !- ولكن نغمة الفرح هذه لم تدم طويلا ، بل وماتت في حلوقهن ، عندما أطلن النظر ، ورأين أن القادمين عليهن عند الأفق لم يكونوا يقودون معهم أي شيء وهم عائدون إلى مخيمهم . ونهض الرجال بدورهم وراحوا يطيلون النظر في الاتجاه نفسه . "قال الرجال : ما معنى صياح الحريم إذن ؟ انظروا ، هاهم الرجال يعودون خاوين الوفاض ، كما أن كل واحد منهم يركب منفرداً عن بقية الجماعة حتى ينزل من فوق راحلته أمام خيمته !" وبناء على ذلك ، عاد أولئك الرجال إلى كسلهم المميت ، ودخلوا الخيمة من جديد دخول الخاسرين ، ليستأنفوا جلوسهم من جديد . "قال الرجال : البعض منهم سوف يأتوننا بالأخبار" . نزل رحيل ، بعد ذلك بفترة قصيرة ، من على جمله أمام خيمته ، التي تقع خلف خيمتنا وعلى مسافة قريبة .- وهنا تخرج ربة البيت في اتجاه زوجها وهو يقوم بتبريك جمله ؛ وتستقبله في صمت ،

وتنزل سرج (عدة) الجمل من فوق ظهره ، وتنقل مهمات ومعدات زوجها إلى داخل الخيمة . ليس من عادة الرجل (رحيل) أن يحيي زوجته بصورة علنية ، كما إنه ليس من عادته أيضا تحية المجلس بشكل علني أو صريح أيضا ، كما إنه لن يتحدث إلى زوجته أيضا؛ وبناء على كل ذلك ، تقدم رحيل نحونا على الفور، قبل أن يدخل خيمته .– "السلام عليكم !" قالها رحيل من حلق جاف ، وجلس وهو يتنهد تنهيدة رجل متعب مكلوم ، يغلب عليه الحزن ، وأردف قائلا لنا : "في اليوم الثاني ، وهم يتتبعون العدو عبر النفود" وصلوا إلى منطقة هبت عليهم فيها ريح طمست آثار أقدام اللصوص ،" ثم أضاف يقول : "هذه هي إرادة الله !" وعند هذا الحد أداروا رءوس دوابهم عائدين إلى المخيم ،– لم يكن لديهم ما يهتدون به في أنحاء الأرض المحيطة بهم ، حتى يتمكنوا من اقتفاء أثر اللصوص من جديد . قال الأعراب الكسالى . "حسن ، هذا هو ما قدره الله لنا !" شاءت لهم الأقدار أن يتركوا عدوا ضعيفا يفلت من بين أصابعهم ، بسبب ريح بسيطة ، بالرغم من أن أولئك اللصوص كانوا يقتادون معهم معشار ما معهم من إبل . ولكن رحيل ، من باب إعطاء حكايته نهاية طيبة تعجب قائلا : "والله ، لقد عثروا على ماء في آبار الحيزة في النفود ؛ وأنهم عندما مروا بتيماء مرة ثانية ، سمع رحيل الناس يقولون إن بعض اللصوص عرجوا على ذلك المكان ، وأن هؤلاء اللصوص كانوا من الشرارات ." – كان رحيل هو وجماعته قد قطعوا حوالي مائتي ميل . "(قال البدو) سوف نعرف بالتدريج من هم أولئك القبليين الذين سرقوا إبلنا ؛ وبعدها سوف نغزوهم نحن بدورنا ، وسوف نأخذ منهم بمشيئة الله ، عددا مساويا لعدد تلك الإبل التي سرقوها منا ." ولكن المعروف أن الغزو يعود صفر اليدين في معظم الأحيان : وهذه على سبيل المثال جماعة من جماعات غزو الفقارة قوامها "عشرون رجلا راكبين" أو إن شئت فقل : عشرون رجلا يركب كل واحد منهم جملا ، أغاروا مؤخرا على بني عطية ، ولكنهم عادوا من تلك الغارة بخفي حنين .

كل إمرئ يعتمد على نفسه في تلك الصحراء الواسعة ، وليس هناك من هو على استعداد لتحمل الخدمة العامة بلا مقابل . وشيخ القبيلة ، أو أي شيخ من شيوخها ، قد يستطيع إقناع ، ولا أقول إرغام ، أي فرد من أفرادها على القيام بذلك ؛ يضاف إلى ذلك ، أن المُضَّار إذا ما ذهب بمفرده ، فلن يستطيع الشيخ منعه من ذلك .

والمعروف أن الهيئة العامة ضعيفة ، ومكونة من أعضاء لا تربط بينهم رابطة قوية ، من هنا فإنهم تحدث لهم كثير من الأحداث السيئة ، التى يمكن تجنب وقوعها إذا ما كانت هناك سياسة عامة يلتزم بها الجميع .- "(قلت موجها كلامى لزيد) لماذا لا ترسلون رجالا يستطلعون، ومن ثم يستكشفون الصحراء أمام مواشى الرعى؟ أو ألا تستطيعون إرسال البعض منكم للقيام بعملية المراقبة من فوق قمم الصخور ، وبذلك تستطيعون مراقبة ظهور العدو ! ولماذا ، يا من تعيشون وسط الصحراء الواسعة ووسط الخطر ، تلزمون أنفسكم بمخاطر غير محسوبة ؟" وعندما كرر زيد كلامى على مسامع أفراد المجلس ، رد ولد الشيخ على الفور قائلا: "نعم ، وهذا شيء طيب فعلا ، إذا ما وضعناه موضع التنفيذ ؛ ولكن ، لعلمك يا خليل ، ليس هناك من بين البدو من هم على استعداد للمغامرة على شكل أزواج ، أو ثلاثيات ، وذلك تخوفا من الحباليص (اللصوص) ؛ إذ إننا ليس فى وسعنا معرفة المكان الذى يكمنون أو يختبئون فيه ، إلى أن تفاجأ بمن يأتينا من خلف صخرة أو من خلف دغل من الأدغال وهو يفاجئنا قائلا : "ده ، deh ! وبعدها تضييك طلقة بندقيته" .

عاد مطلق فى أواخر الأسبوع قادما من بلدة حائل : لم يسبق لمطلق أو لأحد من رفاقه السفر إلى حائل قبل هذه المرة ؛ ولكنهم قطعوا مسافة مائة ميل عبر الصحراء الجرداء ، وكان مرشدهم الوحيد فى كل هذه الرحلة ، هى العلامات الجبلية ، التى تعرفوها وتساءلوا عنها قبل بداية الرحلة . كنا قد غيرنا مكاننا عدة مرات أثناء تغيب الشيخ مطلق؛ وكنت استغرب بحق كيف استطاعوا الوصول إلى المنْزَل الذى نحن فيه ، دون أدنى خطأ. ونظرا لأن أفراد القبائل يحددون رحلاتهم قبل بدايتها ، فذلك يمكنهم ، فى غضون مسير يوم واحد ، من تعرُّف آثار أقدامنا ، وهم ركوب على دوابهم ، وبذلك يتمكنون من اقتفاء أثرنا فى الرحلة الجديدة ؛ يضاف إلى ذلك ، أنهم عندما يتسلقون القمم أثناء عودتهم ، فإنهم يبحثون عن الخيام السوداء التى يسكنها الأعراب من أهليهم . وبذلك يستطيع أولئك الملاحون البريون الوصول ، بصورة متدرجة ، إلى الميناء القروى المضطرب الذى يقع عند نهاية رحلتهم . جاء أفراد القبيلة ، الذين لم يكونوا مصاحبين لرعى الماشية ، لحضور البرلمان ، أو إن شئت فقل : المجلس ، الذى أبلغهم بعودة الشيخ مطلق ، ووجوده فى خيمة شقيقه رحيل ، ليستمعوا إلى الشيخ وهو يروى

لهم عن مهمته التى قام بها إلى الأمير ، تلك الرحلة ، أو المهمة ، التى عادت بالكثير على السياسة التى تنتهجها هذه الأمة الصحراوية الصغيرة .- كان كل واحد من الحاضرين قد سلّح يده بغليون التبغ ، وراح كل من يحضر يقول : "قوّاك ، يا مطلق !" وكان يسلم غليونه بعد ذلك للشيخ الكبير . جلس مطلق أمامهم مشرئب الرأس ، مرتديا ملابسه الجديدة ، وهى الهدية المعتادة التى يقدمها الأمير لزائريه ، وراح يملأ رءوس الغلايين لكل الحاضرين ، من التبغ طيب الرائحة الذى يطلقون عليه اسم "الحميدى" ويزرع فى بلاد الرافدين ؛ والذى جلب منه استهلاك أسبوع كامل ، اشتراه من عاصمة القرية . قدمت القهوة ببطئ إلى جميع الحاضرين ، الذين كانوا يشكلون جمعا كبيرا من الناس . كان ذلك اليوم شديد الحرارة ، وهاهى شمس الظهيرة فى سمت السماء ، ومع ذلك لم يكن من بين الحاضرين من تراودة نفسه عن الذهاب لنيل قسط من النوم ، أو حتى لتناول طعام الغداء ؛ هكذا كان الناس يتشوّقون لسماع ذلك الذى يدور فى عقل ذلك الأمير المرعب. جلسوا جميعا فى ذلك اليوم بلا حراك ، ولم يتزحزح أحد منهم من مكانه ، بل إنهم كانوا صائمين عن كل أنواع الزاد فيما عدا القهوة والدخان ، واستمر ذلك الحال إلى حلول المساء .- وقد صرح الأمير لهم بالعودة دون خوف ، إلى ديرتهم.

يحصل زوار بن الرشيد ، بعد الاجتماع ، على غيار من الملابس ؛ إضافه ، إلى هبة مقدارها ستين ريالا فضيا أعطاها الأمير للشيخ مطلق ، كما أعطى كل واحد من مصاحبيه ورفاقة عشرة ريالات فضية أيضا . تلك هى فنون حكام الجزيرة العربية ، التى تقوم على احتواء إرادات البدو الأجلاف المتذبذبة ، عن طريق التظاهر بالكرم والسخاء ؛ هذا يعنى أن الأمير يحسن بذر بنساته أملا فى أن يحصد عشرة أمثال ما بذره فى العام التالى . كان مطلق شيخا من شيوخ قبيلة من القبائل الفرعية غير الرئيسة ، وبعيدة عن متناول وصول يد بن الرشيد إليها . ومعروف أن الضريبة التى تفرض على البدو تكون خفيفة، وإلا عجز الزبانية عن تحصيلها؛ ومعروف أن الكراون(*) الواحد يدفع عن خمسة من الإبل ، أى بواقع شلن واحد عن كل جمل ؛ أو كراون واحد

(*) قطعة نقدية تساوى خمس شلنات . (المترجم)

عن كل ثلاثين رأس من الحيوانات الصغيرة . وإجمالي ما تم تحصيله من الفكارة من هذه الضريبة لم يتجاوز أربعمائة ريال ، وهو ما يعادل حوالي ثمانية أو تسع شلنات ، جرى تحصيلها من كل أسرة من الأسر : ومع ذلك فإن هؤلاء البدو الطلقاء ، المنسيون تنوء كواهلهم ويغضبون من تلك الأحمال الصغيرة ؛ وحال الأمير غير ثابت ، والبدو يعتقدون ، أن الأمير صورة طبق الأصل من الشخص القوى المتجبر : ولكنهم عندما يدفعون تلك الضريبة ، يصبحون من ضمن فيدرالية الأمير(*) ، كما أنه عندئذ هو الذى يحميهم من عداء الأعراب المجاورين لهم . كان الشيخ مطلق رجلا حصيفا وودوداً وذا بصيرة ؛ ولكن الريالات الستين كانت تحجب بصره وبصيرته. كانت تلك سياسة سلسة من الأمير ، استطاع أن يمس بها أوتار قلوب الحكماء ؛ يضاف إلى ذلك أن الشيخ البدوى ، عاد وهو يحمل ضمن طيب ملابسه الجديدة ، رأيا محموداً ولو لفترة قصيرة ، عن كل من الأمير المتملق وحكومة حائل ؛ يضاف إلى ذلك أن مطلق كان يظن نفسه مولى من موالي الأمير ، في الوقت الراهن ، وإنه لقي من الأمير ترحابا عظيما . ولكن محمد بن الرشيد المتعالى المتعجرف ، الذى دفع المعونة ، كان له رأى آخر فى مطلق ؛ وقد أبلغنى الأمير فيما بعد ، وبلسانه هو شخصيا ، إنه كان يكره الشيخ مطلق.

كان الفكارة سعداء بعودتهم إلى ديارهم ، التى كانت عندهم أفضل بكثير من هذه البلاد الجرداء العالية السطح ، التى هى (فى رأيهم) "غور" ghror ، بمعنى أنها "أرض لا خير فيها للإنسان أو الحيوان" . وهم يعتقدون أيضا أن ديرتهم أفضل لأن درب الحج يمر بها ؛ والبدو يقولون : "لدينا قلعة "kella، بمعنى المكان الذى يتردد عليه الناس ، وبه غرف تستعمل مخازنا ، كما يعقد فيها سوق القافلة ، فضلا عن أن شيوخ البدو يتسلمون صرة كل عام . رحنا مع طلوع الصبح ؛ واعتبارا من ذلك اليوم واصل البدو رحيلهم اليومى على شكل رحلات قصيرة ؛ كان البدو فى تلك الرحلات يوجهون وجوههم شطر وطنهم . وخلفنا وراءنا جبل مسمة Misma ، ومن بعده بعض الجبال

(*) فيدرالية الأمير : المقصود بفيدرالية الأمير ابن الرشيد هى تلك المقاطعات التى استولى عليها وأصبحت تابعة له مع تمتعها فى الوقت نفسه بالحكم الذاتى بشرط اعترافها بآل الرشيد ودفع الضرائب لهم . (المراجع)

الأخرى التي سمعتهم يقولون لها "الروف" Roaf : وفي اليوم الثالث وصلنا إلى مياه الشرب في الأرض المرتفعة ، كان ذلك الماء راكدا ، داخل حوض من الزلط والحصى ، يتحول فى فصل الشتاء إلى بحيرة يسمع القريب منها صوت مياه الأمطار وهى تتساقط عليها ، قادمة إليها من "الذرّاى" therrai التي معناها "مياه المطر المحبوسة على شكل بحيرات" .

واصلنا مسيرنا فى بلاد أرضها من الحجر الرملى ، حيث الصخور السميكة ، التى تشبه أرغفة الخبز فى فرن الفرّان ، الأمر الذى لم نتمكن معه من أولئك الذين كانوا يركبون دوابهم من حولنا . وبعد الرِّحلة الخامسة ، نزلنا مرة ثانية تحت جبل برِّد Birrd ، كي نشرب ونسقي دوابنا من منخفضات جبل الحجر الرملى المنحدر العميقة : وهنا راح الرعاة يحفرون حفرا ضحلة مستخدمين أيديهم في ذلك ، حيث كانوا يرفعون الرمل المبلل والمشبع بالماء فى دلاء ، بينما كانوا يتغنون بالأغنية التى يتغنون بها فى مثل هذه المناسبة؛ وجاء الماء مشبعا بالرمل وغير جيد . واصلنا المسير بعد ذلك يوميا ، وكنا نحمل أمتعتنا قبل الفجر ، وننزل عن ماشيتنا عند الظهر . وبعد مسيرة أخرى ، وصلنا أثناء حرارة الشمس الحارقة ، وبعد السير عبر السهل الواسع المرتفع ، إلى أرض جرداء من الزلط ، حيث يوجد مسقى كبير ومنتجعا صيفيا للقبيلة يطلقون عليه اسم "الأردّة" (*) el-Erudda . هذه هى الأراضى المرتفعة ، هى فى معظمها خالية من أشجار السنط الصحراوية : والويل عندئذ لربة البيت ، التى يضيع منها وتد من أوتاد الخيمة أثناء الترحال . ومع ذلك ، طالعنا فجأة صف طويل من أشجار السنط ، كما تبدت لنا أيضا ديرة بيضاء منتفخة ، وهذه هى العلامات الأرضية التى تميز الأردّة el-Erudda . هنا فى هذه المنطقة ، وفى منتصف ديرة هؤلاء البدو ، توجد مقبرة mákbara القبيلة ، وبها بعض النباتات الجرداء ، التى من قبيل النخيل البرى . والمسافة من هنا إلى قرية الحجر تقل عن المسافة التى تقطعها القبيلة فى الرُّحْلة الواحدة : سيكون البدو مقيمين هنا أياماً عدة .

(*) المرجح هنا أن دوتي يقصد : "الروضة" ، والروضة عند البدو هى "الأرض التي يوجد بها بعض أشجار السنط ومصدر من مصادر المياه" (المترجم)

ضلت الإبل طريقها ، في الليلة التالية ، إلي مَنْزِلَ زيد ؛ وراح أصحاب الإبل يستطلعون كل الأنحاء، على أمل أن يكون الناس قد شاهدوا تلك الإبل في تلك الأنحاء، ونظرا لأن التربة كانت تحمل آثار أقدام لا تحصى ولا تعد ، ناتجة عن أقدام ماشية القبيلة ، فقد أدى ذلك إلى انعدام قدرة الباحثين والمستطلعين على قص آثار الإبل التي ضلت طريقها . لم يخش أولئك البدو ، على حيواناتهم التي ضلت طريقها ، أن تموت خلال أيام قلائل من شدة العطش : إذ من المعروف أن الحيوانات الضخمة الشبيهة بالأغنام لديها معرفة تامة بكل أماكن السقيا داخل الديرة التي تعيش فيها ؛ ومع ذلك ، وبالرغم من طول أعناق هذه الحيوانات ، إلا أن قلة قليلة منها هي التي يمكنها الوصول إلى مياه الشرب . وقبل ذلك بثلاثة أعوام وعندما كان الفكارة في سوريا ، ضلت منهم بعض الإبل ، وضاعت منهم بالقرب من الحوران ، ولكن أفراد القبيلة استطاعوا استعادة تلك الإبل ، أثناء عودتهم في أواخر العام قادمين من المدينة (المنورة) ، عندما شاهدوا ، وهم يعبرون ديرتهم ، تلك الحيوانات وهي ترعى حول مسقى من المساقي ، داخل حدود الحجاز . تعرف الرجال على تلك الحيوانات ، عن طريق الوسم الموجود عليها وتأكدوا أنها من ماشية القبيلة ، وبذلك استطاعوا إحضار تلك الإبل الهاربة مرة ثانية ، بعد أن هربت إلى مواطن ولادتها ، عبر سبع درجات جغرافية .

صرفنا انتباهنا عن الحرامية haramîyeh . - ثم وصلتنا عن طريق أسرة صلوبية جاءت من الحرّة harra أخبارا غير مؤكدة مفادها أن ماشيتهم قد أخذها المواهيب مرة ثانية : هذا يعني أن غزوة مواهيبية صغيرة ، جاءت راكبة من ناحية الشمال ، قد عبرت أرض اللصوص ؛ (من عادة الغزاة الأعداء ، عندما يلتقون بعضهم البعض في الصحراء القاحلة أن يحيي بعضهم بعضا قائلين : "يا قوم !" بمعني "هيه ! أيها الأعداء .") ولكنها لم تستطع أخذ الجزء الرئيسي من الماشية ، أي إنهم لم يستطيعوا سوى عزل خمسة عشر جملا فقط . وهناك تقليد فيما بين القبائل الصديقة مفاده أن يدفع صاحب الماشية المسروقة ريالا واحدا عن كل رأس حتى تعاد إلية المسروقات .

عرفنا في النهاية أن اللصوص كانوا طائفة من بني صخر مثلما سبق أن أخبرنا زيد بذلك ؛ وقد قطعت هذه الطائفة ما لا يقل عن أربعمائة ميل اعتبارا من المكان الذي تقيم فيه خيامها في سوريا إلى المكان الذي التقيناهم فيه ؛ وكانت بصحبة تلك الطائفة

أيضـا قلة قليلة من بدو الشرارات ، الذين تربطهم بالفجير صداقة شكلية فقط . أما فيما يتعلق بالصخور Sokhur ، فهم عند بدونا لا بالأصدقاء أو الأعداء ؛ بل إن بعض أسر قبيلة الفكارة ، وبخاصة أولئك الذين جاءوا من الشمال ، كانت تتجول مع قبيلة الصخور إلى يومنا هذا . وهناك أيضا جماعة من بني صخر ، يعملون حمّالين فى موسم الحج ، يتحتم عليهم المرور بصحبة قافلة الحج كل عام ، عبر ديرة الفكارة .– وعقب ذلك مباشرة ، جرى إرسال شيخ شاب ، هو الشيخ مجول Mijwel ، نيابة عن الفجير ، إلى الشمال ، سعيا إلى استعادة إبل القبيلة . وجاء رد بني صخر أثناء انعقاد المجلس على النحو التالي : "إن أولئك الذين سرقوا ماشية الفكارة كانوا جماعة من الشباب الجهّال ؛ ولكنهم لا يلامون على جهلهم هذا نظرا لأنهم وجدوا الفجير يتجولون خارج نطاق ديرتهم ." ووعد الشيوخ بعودة القسم الأكبر من تلك المواشى مرة ثانية مع قافلة الحج ؛ أما البقية فمفروض أن يعطونها لأولئك الجهّال ، "الذين ينبغى مهادنتهم ، بإعطائهم شيئا نظير متاعبهم ، على أن يكون ذلك نهاية لذلك الصراع أو الخلاف ." ولم يحصل مجول Mijwel على أكثر من ذلك : وهذا نوع من العدل الذى قد يشيع فى سائر أنحاء الدنيا .

بعد أن وصلت إلى الأردّة el-Erudda ، خطر ببالي التخلى عن حياة البدو ، وأن أمر من خلال قرية العلا ، قاصداً ساحل البحر عند مدينة أو بلدة الوجه el-Wejh . وطلب منى أصدقائى أن أفاتح الشيخ مطلق فى موضوع جملى . ترى ، لماذا لم يطع زيد الأمر الذى أصدره الباشا ؟ – وبالتالى كان يمكن تحاشى حدوث مثل هذا الحادث . ولم يكن معى نقوداً تمكننى من شراء جمل آخر ،– سوف يصبح تجوالى فى أرض الجزيرة العربية أمرا صعبا من الآن فصاعداً . والعادة أو العرف السائد فى الصحراء هو عرف (سيدنا) موسى : "إذا ما آذى حيوان شخص حيوان شخص آخر ، فإن الخسارة الناتجة عن ذلك يتقاسمها الاثنان ." هذه الحيوانات ، التى تفرح بخضرة الربيع وأعشابه ، تنهض واقفة فى جوف الليل وهى تجتر طعامها ، لتلعب مع بعضها البعض لعبة الحيتان ؛ زعم البدو ، أن جملا من الجمال سقط على عنق جملى الصغير: وسواء حدث ذلك أثناء الليل ، أو أثناء اقتياد الإبل إلى المرعى فى الصباح ، فإن جملى كان بصحبة قطيع إبل زيد . تحتم علىّ هنا ، إحضار بعض الشهود : ولكن من ذا

الذى يمكن أن يشـهد على شيخ قبيلته ، لصالح نصرانى ؟ عند المسلمين ، وبالرغم من أنهم يكونون من بدو الصـحراء ، فـإن المساواة تكون فـيمـا بينهم هم أنفسـهم فـقط . ذهبت إلى مطلق فى خيمته ، ووجدته يستعمل خيطا من الصوف ، كان يخيط به سرج فرسه . "يا للأسف ، قال الشيخ ، هناك مشادة بين خليل وزيد ، اللذان كانا أخين ، وكان لابد من إطاعة أمر الباشا ." خابت آمال زيد فىّ فيما يتعلق بأطماعه ؛ لقد سبب الحظ لنا شيئا من القهر عندما تبخر الأمل الذى كنت أعقده على التطعيم ، ولم يتبق لى سـوى "الخُرج" وكانت عـينا زيد تكاد تلتـهم ذلك الخـرج كل يوم . كـان الخـرج كـبيـرا ومنتـفخـا ، وهذا بحـد ذاته ، نوع من الخطأ ، فى أرض يتـعين على الرحـالة التجـوال خلالها بلا أمتعة أو معدات. تأكد زيد من ثقل الخرج، وراح يفتش ذلك الخرج كل يوم ، وهذا أمـر يتـعـارض مع المعـاملة الأمـينة التى يجب أن يتـحلى بهـا المُضـيف ؛ – هذا بالإضافة إلى مـخاوفى من احتمـال أن يسطو زيد على مسـدسى وعلى أدواتى ، التى كنت أخبئها فى قاع الخرج ، داخل منْزلنا .

أدت تلك المنغصات التى لاقيتها فى الرِّحلة الأخيرة، إلى التغافل عن زيد وإهماله ، مما جعلنى أقطع المسافة كلها سيرا على الأقدام عبر الأرض الزلطية الجرداء ، وتحت الشمس الحارقة إلى أن توقفت الأعراب ونصبوا خيامـهم فى النهاية . واستـشعر زيد فى داخله أنه أساء إلىَّ بالفعل ، يضـاف إلى ذلك أنى لم أخدعه أو أغشـه ، فضـلا عن أنه كان يحترم شـخصى تماما : جدير بالذكر أيضا أننى تحـاشيت استثـارة الأعماق المجهولة لاستيائهم الإسلامى . دخلت خيمة الشيخ مطلق ، ووجدت ذلك الشيخ الموقر يلاعب أطفـاله ، فـقد كان أبا حنونا بحق . وسرعان مـا دخل زيد خيمـة الشـيخ مطلق وجلس لشـرب القـهـوة ؛ ثم رفع صـوته الأجش وقـال : "أقـسم بالله ، إذا لم أكن قـد انتويت ابتلاع هذا النصرانى ، لما كنت قد استقبلته ؛ ولما كنت جعلته يعانى من صحبة الأعراب ، ولم يكن ذلك فى رحلةٍ واحدة فقط . لقد أعطى النصرانى ستين ريالا (وهو خرافة) لحـمد على ، وأنا أطلب منه أن يدفع لى مبلغا مماثلا فى هذه السـاعة ." "لا (قالها مطلق من خلف ستارة الحريم، حيث كان وراءها لإحضار غرض من الأغراض،) هذا ليس بيدك ، يا زيد ." وهنا اشتكى زيد من أن وجودى فى منْزله كانت له تكاليفه ، وهنا أثبت أن زيدا كان قد تسلم منى مبلغا من الريالات ، كما أثبت أيضـا أنى لم آخذ

منه أي شيء سوى القليل من الحليب : ولكن مغزى شكوى زيد كان يتمثل في أنى جلبت عليه الكثير من الضيوف الذين جاءوا لشرب القهوة ورؤية الغريب . وقال زيد إنه اشترى من القهوة ما قيمتة ريالين من سوق الحج . "(قلت له) هاهما الريالين ، ولعل ثقة زيد تزداد في صداقتي . إن زيدا يشتكي منى لسبب تافه وبسيط ؛ وأنا إذا ما اشتكيت لابد أن تكون شكواى مبنية وقائمة على المنطق والإقناع ؛ وهل يتعين على المرء ، أن يتعامل مع أمتعة ضيفه كما لو كانت غنيمة حصل عليها ؛ من طريق الغزو ؟ إنه يفتش أيضا كيس نقودي بحثا عن النقود ، كما فتش حزامي أيضا ، كما قلبً خُرجي بحثا عن أشياء بعينها ." – صاح أحد الشيوخ قائلا : "ها ! كيف حدث ذلك يا زيد ؟" وهنا أجبته في عجالة :"لقد فعل ذلك ، مثل حبلوص من الحباليص ." وأقشعر مطلق عندما سمع هذا الكلام ، الذي يبدو أنى لم أحسن قوله ؛ وهنا بدا على البدو وكأنهم لا يستمعون إلى خليل بحق : أبشع ما في هذا الأمر ، أن زيدا على امتداد حياتة كلها ، لم يستمع إلى هذه الكلمة المهينة ، التي قلتها أنا في المجلس ، وأن هذه الكلمة سوف تخلد وتلتصق بذاكرة أعدائه . وبعد أن شرب زيد فنجال القهوة نهض وترك المجلس . وطوال فترة مرح المساء كان الجالسون يردد كل منهم على الآخر كلمة حبلوص ! حبلوص ! وكنت كلما سمعتهم يرددون هذه الكلمة ، أتيقن أكثر وأكثر من أنها كانت في غير محلها : ومع ذلك كان زيد يتفاخر بنفسه بإنه شريف من الأشراف . وبعد أن غادر زيد المكان قال بعض الحاضرين : إذا كان زيد قد فعل هذا وذاك ، فهو رجل سيئ ؛ (ومن السهل جداً أن يلوم البدو بعضهم بعضا) . قال مطلق : "إنني يتعين على إحضار شهود في مسألة الجمل ، ولكنه وعد بالدفاع عني في وجه مطالب زيد غير الصحيحة ."

وبينما كنا جالسين دخل علينا رجل كان غائبا عنا منذ مدة ، وقد جرت العادة أن يقوم ذلك القادم الجديد بإبلاغنا بالأخبار التي لديه ونحن في المجلس ، ثم يعود بعد ذلك إلى أسرته . جلس ذلك القادم على ركبتيه ، ولكنه كان فقير الحال ، إلى حد أن أحداً من صحبة الشيوخ لم يهب واقفا لتقبيله : وبمظهر وقور ، اتكأ ذلك الرجل على مشعابه برهة قصيرة ثم راح يشير بذلك المشعاب لكل واحد من الحاضرين ، الواحد بعد الآخر ، وراح يحيي كل واحد من الحاضرين بصوت رخيم ذاكراً اسمه وهو يقول :

"قوّاك ! الله !" كانت زوجة بدوية مسنّة مسكينة ، قد راحت تلاحق ذلك العائد الجديد ، عندما بلغها أن ولدها قد عاد من جديد ، وبالتالى لاحقته إلى أن دخل الخيمة التى يجلس فيها الشيخ مطلق ؛ وقفت تلك الزوجة البدوية العجوز خارج الخيمة تنتظر ولدها نظرا لأن النساء غير مسموح لهن بدخول المجلس الذى يجلس فيه الرجال . وبعد أن انتهى ذلك الرجل من سرد الأخبار التى لديه ، دلف إلى خارج الخيمة ليحيى والدته ، التى جرت إليه وطوقت عنقه بذراعيها الضعيفين ، وهى ترتعد بحكم شيخوختها وضعفها ، عندما رأت أنه ما زال حيا وبصحة جيدة ؛ وراحت تقبله وهى عاجزة عن الكلام ، ولكنها كانت تنطلق منها صرخات صغيرة . ضحك بعض شاربى القهوة ضحكا فى غير محله ، بل إنهم سخروا منها لضعفها ووهنها ، ولكن الشيخ مطلق قال لهم : "ما الذى يجعلكم تضحكون ؟ أليس هذا هو حب الأم ؟"

وعلى الفور جاءنى سليم Selim بدعوة من والده ؛ "قال مطلق : حسن ، اذهب مع سليم ، وتصالح مع زيد ، وتأكد من أن أيكما لا يريد من الآخر أى شيء كان ." دعانى زيد إلى الشقة الخاصة بزوجته ، حيث جلسنا فيها ، أنا وهو سويا ، وكانت معنا أيضا زوجته حرفة ، لنأكل كلنا مع بعضنا عيشا وملحًا . وسرعان ما تراجع زيد عن تلك المضايقات ، إلى الروح البدوية المرحة ، وذلك عندما لم يجد أن أخيه كان مخطئا ، بل إنه جثى على كوعيه ومدهما ، باعتبار ذلك عهداً على صداقتنا ، وسبيلا إلى السلام ، وأننى يتعين على أن"أشرب" معه الدخان :- وهذا هو حال البدو . لم يتطرق حديثنا إلى المشادة الأخيرة التى دارت بيننا ، ولكن رسخ فى ذهن زيد فيما بعد أن خليلا وسمه بأنه حبلوص (لص) . وفى خريف ذلك العام ، وعندما كان الفكارة يخيمون فى قرية الحجر ، وعندما كنت بصحبتهم من جديد ، وبينما كنت أمر على منْزل زيد ، نادانى من داخل بيته (خيمته) قائلا : "يا خليل تعال Taal " بمعنى "احضر إلى هنا يا خليل !" ذهبت إليه وحييته ، كما حييت زوجته التى كانت تجلس خلف الستار قائلا : "جويك حرفة Hirfa gowwich " بمعنى "قوّاك الله يا حرفة" . - رد زيد قائلا : "هذا صوت خليل ، والكلام كلام بدوِى !" ثم نهض زيد ليحضر لى طبقا من الأرز آكله معه ، وكان الطبق جاهزا بالفعل . بعد أن أكلنا ، "قال : إنه سعيد لرؤيتى مرة ثانية فى بيته ، والبيت كان ما يزال على حاله القديم !" ثم نظر الرجل إلى الأرض بعض الشيء وأردف

قائلا : "ولكني بعد صداقتنا يا خليل ، أصابني جرح ، عندما نعتني حبلوصاً ، وكان ذلك أمام الشيوخ ." - "سبب ذلك أنك هددتني وأغضبتني ، ولكن ، ما عليك من كل هذا يا زيد ." كيف لي بمعرفة كل كلامكم أيها البدو ؟ ألا ترى هذه الخيام الصوفية السوداء ؟ أليست كلها خيام حباليص ؟" مشينا سويا إلى المجلس ، حيث راح زيد يحكي وهو يبتسم أنني كنت أعني بعبارتي "ذلك البدوي" .

عندما تساءلت مع زيد : "لماذا لم تفعل ما أمر به الباشا ؟" صاح زيد قائلا : "من الذي يصدر لي أوامر ! "حِنّا" Hanna بمعنى "نحن هنا" "البدو" : ما هو الباشا ، ومن هي الدولة Dowla (الإمبراطورية العثمانية) رحنا ؟ كل هذا هنا لا شيء اللهم باستثناء أنهم يدفعون لنا صرتنا ، وإلا أخذناها منهم عنوة وبالقوة ." - "وما هي قوتكم ؟ هل تظن أن مائة منكم ، مسلحين بالعصي والعكاكيز، والحراب ، والبنادق الفتيلية العتيقة ، يساوون عشرة أفراد فقط من جنود الحج ؟" - "سوف نفتح النار عليهم في البوغازات boghrazat (الممرات الضيقة بين الجبال .)" - "وما هو المدى الذي يمكن أن تصل إلية طلقات حدائدكم الصدئة؟" وهنا أجابني زيد وهو حائر بين الهزل والجد." أربعة Arbaa ساعات Saa " بمعنى "إلى مسافة أربع ساعات ." معروف أن "الساعات" Saat عند الأعراب تعني "الفترة الزمنية الثانية أو الثالثة فيما بين أوقات الصلاة . كان البدو يسألوني في معظم الأحيان : "كم ساعة في اليوم ؟ ونحن لا نعرف جيدا ما هي الساعة Saa . "والبدو يقسمون النهار على النحو التالي : الفجر ، أي ما قبل طلوع الشمس ؛ ثم القايلة أو إن شئت فقل : القيالة ، وهي فترة سطوع الشمس قبيل الظهيرة ؛ والظهر eth-Thóhr، أي عندما تكون الشمس في سمت السماء عند منتصف النهار ؛ العصر el-Assar ، أي هبوط الشمس إلى ما بعد منتصف النهار ؛ ثم غيبة الشمس Ghraibat Es-Shems ، بمعنى "غروب الشمس"- كلمة "مغرب" Maghrib كلمة حضرية غريبة على آذان البدو .

أصبحت محطة البدو الصيفية في الأردّة(*) el-Erudda قرية منفرة غير مرغوب فيها والسبب في ذلك أن البدو قد أتوا خلال تجوالهم اعتبارا من بداية موسم الحج ،

(*) المرجح هنا هو كلمة "الروضة" بدلا من "الأردّة" والروضة عند البدو هي المكان العامر بالخضرة والمياه . (المترجم)

على ما لديهم من مخزون البن ، و "حيث لا توجد القهوة ، ينعدم المرح والصحبة" ، على حد قول الأعراب . هاهي وجارات قهوة البدو باردة ، وكل واحد منهم جالس مطأطأ الرأس وحزين ، في Fi أهله Ahlahu " بمعنى "بين أفراد أسرته" . قال زيد : "كان ذلك هو حال البدو الرّحل القدامى في أيام ما قبل القهوة ." سوف يرسل الشيوخ على وجه السرعة من يحضر المزيد من البن من مخزونهم الموجود في مدائن صالح Medáin؛ وسوف يتعين على زيد الذهاب إلى مدائن صالح أيضا لإحضار جوال من الأرز ، كان قد سبق له أن وضعه في القلعة على سبيل الأمانة . إذن سوف أرافقه إلى هناك ، على أمل المرور على قرية العلا ، وصولا إلى ساحل البحر الأحمر . هذه هي الصحراء الجرداء القاحلة وقد أصابها الإغماء بسبب الجفاف الناتج عن حرارة الشمس ، انقضى موسم الحصاد ، وكنت أرغب في الرحيل . هاهم الأعراب يرقدون متكاسلين في الخيام ؛ كنا نبدو كما لو كنا نتنفس لهبا . كنت ألهث طوال النهار ، وأكاد أعجز عن الإبقاء على رمق الحياة في داخلي ، نظراً لاضطراد أنفاسي وعدم رغبتي أو قدرتي على تناول الطعام . كانت تراودني في بعض الأحيان ، فكرة استغلال الأيام الطويلة في تعليم سليم Selim القراءة والكتابة : ولكن ولد زيد عندما تعلم الحروف الأبجدية ، أوقفه والده من تعلم المزيد ، مخافة أن يلتقط ذلك الولد مني بعض الألفاظ والتعبيرات الخاطئة ، قال زيد أن لساني لم يكن "طلقا" . وبعد أن أصبح لدى قدرا من المفردات ، كنت أقرأ على الجماعة صفحة أو صفحتين بين الحين والآخر . المؤكد أني لم أخطئ كثيرا ، في نطق الكثير من الكلمات التي سبق لي التعرف عليها تماما ؛ ولكن قدرا كبيرا من تلك المصطلحات الحضرية والكتبية كانت معروفة تماما لكل من كانوا يستمعون إليّ من البدو الرُّحل ! يبدو أن البدو لم يكونوا يعرفون جذور بعض هذه الكلمات ، كما كانوا يستعملون أشكالا ، أو تصريفات أخرى لبعض الكلمات الأخرى . هؤلاء البدو كانوا هم أنفسهم يتعجبون (بالرغم من أن لديهم احساسا كبيرا بلغتهم ولديهم أيضا متسعا من الوقت لاكتساب طلاقة اللسان) وهم يتدبرون معاني الكلمات ، واحدة بعد الأخرى ، باهتمام كبير من هنا فإن أفراد القبائل السذج البسطاء عندما يتعين عليهم في فترة من حياتهم الدخول إلى واحدة من المدائن الحضرية الجيدة عند مناطق الحدود ، يبدو الكلام الحضري غريبا عليهم تماما وعلى أسماعهم ، "إنهم

يتعرفون الأمور بصعوبة ، وهم يشتكون ، مما يعنيه أولئك الحضر بكلامهم ." ومعروف أن الكلام الفصيح مبنى على لغة القرآن القديمة ، التى كانت لغة الأراضى المنخفضة ، ولم تكن فى أى وقت من الأوقات لغة أعراب الأراضى المرتفعة . [وإذا كان هناك شك فى هذه المقولة ، فقد أكدها أولئك المترجمون العليمون الذين ترجموا النقوش الصحراوية القديمة] .

ذبح محسن خروفا فى الليلة السابقة لرحيلنا ، وذلك من باب تمام سنة على وفاة والده ، وأحضر لنا شيئا من ذلك اللحم بعد طهيه ، كان محسن هذا نسيبا لزيد ، وكنا نشكل مع بعضنا مجموعة طيبة . صلَّحت لهم شايا حلوا ؛ وزعت عليهم هدايا من الأشياء التى كانت بحوزتى . وبينما كنا جالسين سألت هذين البدويين عما إذا كان قَعودى (جملى الصغير) قادرا على حملى ، وفمه مكسور مسافة مائة وخمسين ميلا إلى بلدة الوجة el-Wejh؟ وعرض على واحد من الحاضرين ، أن أعطيه عشرة ريالات ، وبالتالى يعطينى ناقته بدلا من جملى الصغير . وعندما وافق زيد ومحسن على ذلك دفعت الريالات العشرة ؛ ولكن معروف أن وساطات العرب تنطوى دائما على الخيانة . يضاف إلى ذلك أن زوجة هذا الرجل المسكين هى وأطفالها لعبوا دور البكائين ، وأعطيتهم علاوة على النقود كل ما استطعت توفيرة من الملابس ، التى هم بحاجة ماسة إليها فى الصحراء ؛ ولكنى بعد أيام قلائل ، وجدت أشيائى هذه معروضة للبيع فى تيماء . وبناء على ثقتى بهذين البدويين ، اشتريت جملا عجوزا ، لا يقوى على العمل ، بل وفقد أسنانه الأمامية، ولم تكن له قيمه تذكر، عند البدو، قياسا على جملى المصاب . كنت جديدا على خبراتهم فى ذلك المجال . والسبب فى ذلك أن الإبل تُقوَّمُ على أساس أسنانها، وأسنامها أيضاً. والإبل تسمى حسب أسنانها، إلى أن تظهر أنيابها: والجمل الذى عمره عاما يقولون له: حوَّار Howwar؛ والجمل الذى عمره عامين يقولون له "لبنى" Libny، أما الجمل الذى عمره ثلاث سنوات فيقولون له "حج" Hej؛ والجمل الذى عمره خمس سنوات يطلقون عليه اسم "جيزة" Jitha، والجمل ذى السنوات الخمس يقولون له: "ذنِّى" Thénny؛ والجمل الذى عمره ست سنوات يطلقون عليه اسم "روبِّة" Rōbba ، والجمل الذى عمره سبع سنوات يسمونة "سيدِّس" Siddes، وذى السنوات الثمانى يطلقون عليه اسم "شاج" Shágg النَّابَة en-naba، أو وفيات Wafiat، أو "مفطر" Mûfter.

الفصل الثالث عشر

زيارة المدائن مرة ثانية

ممر الحرة منظر الحُرة . فطر الصُّبغ . رياح السموم . الوصول بصحبة زيد إلى القلعة . مدائن صالح . شكوى زيد . رحيل زيد هو والبدو . الحرارة الخانقة . محمد الدُّبيس . الأخ . نقوش مزهام . الصقور . نزاع البدو الرحل فى القلعة . "ملح البنادق" Gunsalt. زيارة موقع الهجرة مرة ثانية . الشجرة المملوكة . دولان بوصفه عنترًا . القمر الجديد . نجم هاوٍ . غزو الجراد . صحبة قهوة شيوخ ولاد على فى القلعة . مطلق العلايدى . وإده فهد . إنذار الليل فى القلعة ؛ نجم يهدد بقتل الصبى محمد . إنذار جديد . زواج الصبى محمد . الرحيل عن القلعة . تعال ثانية إلى البدو فى الإردة . الحُموُ . أخيرًا تغرب الشمس . ممر الحَرْة . أشجار سنط الصمغ العربى . خشب دباغة الجلود . ارتفاع الحُرة البركانية . المواهيب . عربات اليد . صبر جمال الحَمْل . ديار البدو الرُّحَّل . لقاء مع الأعراب . تعال إلى السُّهامة المخيمين فى تهامة . الشيخ مهنا . هواء السُّموم فى تهامه .

رحلنا عند طلوع الفجر : وسرعان ما تبدّت أمامنا ومن تحت أقدامنا تلك الحلبة الضخمة التى يطلقون عليها اسم الحرَّة ؛ بدت لنا وكأنها تجويف كبير من تحت أقدامنا ؛ ويخترق طريق الحج ذلك التجويف الكبير . وبعد أنْ قطعنا بضعة أميال شاهدنا رجلين أو ثلاثة رجال كانوا يجوثون بين الصخور البعيدة ، التى وجدناها ، عندما وصلناها ، تشكل جزءً وعراً من هذه البلاد ؛ قالت جماعتنا المكونة من خمسة أو ستة أعضاء إن هؤلاء الذين شاهدناهم كانوا من الحباليص (اللصوص) . وشاهدنا من أمامنا أيضا عشبا جديداً ، ومرعى أفضل بكثير من المراعى التى

شاهدناها مؤخرا ، ولكن هذه المنطقة لا يزورها البدو إلا نادراً ، "اللهم ، على حد تعبير زيد ، إلا إذا كنا نتنقل ، في بعض الأحيان ، ونخيم سويا مع أولاد علي" . هنا ، وبالقرب من ممر رئيسي من الممرات القريبة من الشمال ، كان ولاد علي ، رغم وجودهم في ديرتهم ، يعانون الكثير من مخاطر اللصوص . في تجويف تلك الأرض المرتفعة ، كانت تنمو بعض النباتات السامة الطويلة بيضاء اللون ؛ قام بعض رفاقنا بجمع هذه النباتات ؛ وهذه النباتات بعد غليها مع الشُّبُّة في بول الجمال التي تتغذى على أدغال نبات الحمض ، تعطي ، على حد قول البدو ، ذلك الصبغ الأحمر القاني المرح الذي تستعمله البدويات في صبغ الخيوط الصوفية التي يغزلنها .

وفي مستهل فترة العصر مررنا من أمام حائط صخري ، لاحظت فيه نقشا قديما واضح المعالم ، ويكاد يكون شبيها بالنقوش النبطية التي شاهدتها في مدائن صالح في المرة الأولى ؛ هذا النقش ، دونا عن سائر الشروخ الصحراوية كلها ، موضوع داخل إطار . (الصورة رقم ٥٠) وعندما قفزت فجأة نازلا عن الجمل ، هرب الجمل مني ، ولكنه سرعان ما سبقه زيد وعاد به إليَّ وهو راكب فوق ناقته ، ويسحبه خلفه . ومن باب التحذير كنت أرى أن ذلك النقش إنما هو واحد من نقوش الطريق . وبعد مسافة قصيرة ، دخلنا إلى طريق قديم ؛ كان ذلك الطريق مُعَلَّمًا خلال هذه المنطقة الجبلية بأكوام من الحجارة ، إلى أن يصل إلى سهل قرية الحجر . وقد أبلغني رفاقي أن الهدف من تلك الأكوام هو تحديد اتجاه الطريق . هذا يعني أن ذلك كان هو الطريق القديم بين الحجر وقرية تيماء . وعلى حد قول البدو ، فإن طريق الحج القديم كان يمر بقرية تيماء ، ونحن بدورنا نعرف أن فرعا من طريق التجارة القديم كان ينزل من ذلك الطريق متجها إلى سوريا . [راجع كتاب سبرنجر Sprenger المعنون : "جغرافية الجزيرة العربية"] . هبت علينا طوال نهار ذلك اليوم ريح جنوبية جافة ، تسبب جفاف الحلق ، إذا لم يشرب الإنسان شيئا من السوائل ، وراح الأعراب أثناء مسيرهم يستخدمون أطراف غتر رءوسهم في تغطية وجوهم فيما عدا عيونهم . هذه الريح عبارة عن لفحة حارة من الهواء قليل الكثافة ، يسمونه "الطاعون أو الوباء" أو إن شئت فقل : "السموم" Simum حسبما يقول البدو . كانت الشمس قد غربت عندما بدأنا ننزل منحدرا رمليا ، بالقرب من تلك العلامة الأرضية الغريبة (انظر الشكل المبين على

صفحة ٢٨٥ من النص الإنجليزى) التى هى عبارة عن صخرة من الحجر الرملى تشبه العسكرى فى لعبة الشطرنج، إلى أن وصلنا إلى قاع سهل مدائن صالح؛ هذا السهل ، في هذه المنطقة ، محاط بأدغال صحراوية وافرة النمو . بين هذه التلال الرملية ، وبين هذه الأعشاب ، التقينا ، أثناء الظلام ، جماعة أخرى من البدو ، واعترضناهم ؛ وعندما تعرفوا أصواتنا ، رحبوا بنا مرة ثانية ، واتضح أنهم من المتسوقين فى قبيلتنا ، وكانوا عائدين من قرية العلى el-Ally .

كانت الساعة الثالثة صباحا عندما بدأنا طرق باب القلعة الذى كان عبارة عن لوح من الحديد . وعقب سماع طرق الباب ، جرى الحاج حسن ، عقب سماع الضوضاء ، وبصحبته الصبى محمد ، جريا إلى أعلى البرج ، ونظرا من خلال المزاغل ، وراحا يناديان بصوت غليظ ليعرفا من نكون نحن ، الذين كنا أمام الباب ، والذين أقلقنا راحتهم فى تلك الساعة المتأخرة من الليل . وبعد أن سمعا أصواتنا ، نزلا يجريان على سلم القلعة وهما يضحكان بصورة غير معتادة ، ثم وصلا ليفتحا مزلاج الباب ، كيما ينفتح على مصراعيه ؛ دخلنا القلعة ، ورحبوا بنا بحكم أننا كنا أصدقاء قدامى ، ثم صعدنا بعد ذلك إلى غرفة القهوة . وجاء الحاج نجم وهو يطرقع بحذائه ، وتعلو وجهه ابتسامة المضيف . وشبوا النار من جديد فى الوجار ، وجلس الحاج نجم ليصلّح القهوة لضيوفه ؛ وبينما كنا نشرب القهوة ، وطوال الحديث الطويل الذى دار بيننا ، أحضر لنا الحاج نجم طبقا كبيرا من الخبز غير المخمور ، الذى قامت زوجته بإعداده فى هذه اللحظة ، وخبزته ودهنته بشىء من الزبد ليكون عشاءً للضيوف . "(قال العجوز المُضيف) هذا طعام على قدر الحال نضعه أمامكم ، ولكنكم وصلتم متأخرين ، وليس هناك غير ذلك فى القلعة !" - "(قال زيد) وهل تود معاملتنا معاملة الغرباء ؟ ألسنا هنا فى القلعة ، يا حاج نجم ، نشعر وكأننا فى بيوتنا ؟" رد الحاج نجم على ذلك السؤال ردًا وديا ، بالرغم من همز ولمز راعى هذه القلعة العجوز ، فى أعقاب ذلك ، بما يفيد أو يعيد إلى ذاكرته تلك الفترة التى استولى خلالها شيوخ الفجير Fejir على القلعة . - "وأنت يا خليل ، ها أنت تعود إلينا مرة ثانية ، مرحبا بك ، لقد سمنت على مراعى الربيع ؟ (صاح الصبى محمد الشبيه بالبدو) . آها ، تقول الربيع ! الربيع الجميل ! إنه موسم الحليب فى الصحراء الجرداء ، وصحبة الأعراب تكون جميلة فى

ذلك الموسم ." وهنا قام زيد ، بعد تقديم كلماته المفعمة بالمديح والثناء والدعابة ، وذلك من باب الاستعداد للطعن ، كما هو حال الأعراب في مثل هذه الظروف ؛ قام زيد بتقديم شكوى مطولة عن الفائدة البسيطة التي حصل عليها من خليل ، الذي جازى زيداً عن حنانه وشفقته ، بأن نعته بأنه حبلوص (لص) ! انفجر المغاربة في الضحك بصوت عالٍ ؛ ولم يستطع زيد البدوي ، وسليط اللسان أن يحظى بشيء من الحظوة أو المحاباة ، فقد كان يتحدث إلى آذان أصابها الصمم فيما يتعلق به هو شخصيا منذ زمن بعيد . يضاف إلى ذلك أن الصبي محمد ، عندما خرج من باب القلعة ، شاهد أيضا ناقتي الطرماء التي فقدت أسنانها ؛ وبهذا المرح الجديد ، الذي قطع على زيد حديثه الممل ، انصرف كل من الحاج حسن والصبي محمد وهما يضحكان ، ليذهب كل منهما إلى غرفته لنيل قسط من الراحة . بعد ذلك ، تحول زيد إلى الحاج نجم ، وكشف له بوقاحة المتاهة السوداء التي تدور في ذهن هذا الزيد ، وهنا قال المغربي الأمين ما يلي : "يا خليل ، البدو كلهم شياطين !" ؛ ثم توقف الحاج نجم عن مواصلة الجلسة مع زيد ! وعقب ذلك فرد الحاج نجم عباءته أمامه ، ثم جلس على ركبتيه ، ودخل في صلاة العشاء حسب الدين الإسلامي : – وراح زيد ، يتكلم دون أن ينصت إليه أحد . ثم وقف الحاج نجم من صلاته ، وأحضر قطعة من قماش الخيام ، كي أفرشها على الحجر الصلد من تحتي ، وتركني وتمنى لي راحة طيبة .

في ساعة مبكرة من طلوع النهار ، كانت أيلة زيد قد حملت بضاعته من المخزن الموجود في القلعة ، كما كان البدو الواقفون إلى جوار ماشيتهم خارج القلعة على استعداد للرحيل ؛ وعليه عزم عليهم الحاج نجم ورجاهم الدخول إلى القلعة لتناول طعام الإفطار ، وتركوني وحدي : في حين بقي زيد صامتا وسط اندهاشه ، هذا يعني أنه لن يغفر لي ما حدث ، – لا ، لو كان المغاربة قد كشفوا لي أو عبروا لي عن غضبهم ، لكان زيد ، وبلا أدنى شك ، قد أعادني مرة ثانية إلى الحرية الودية في خيمته البدوية في الصحراء. ولكن عقل وذهن ذلك الجار الطيب القديم كان يختلف اختلافا كبيرا عن ذلك؛ وبعد ذلك بلحظة ، عاد إلى الحاج نجم ليدعوني لتناول طعام الإفطار على انفراد في المكان الذي اختاره هو لذلك ، وتلك إشارة أخرى إلى نواياه الطيبة تجاهي ، وكان الإفطار ، مزوّداً بمقدار كبير من السمن . وبعد ذلك ببرهة قصيرة نهض البدو واقفين

لكي يرحلوا إلى ديارهم ، وهم يقولون لمضيفهم : "السلام عليكم ." ثم ركبوا دوابهم عائدين إلى الأرُدَّة (الروضة) el-Erudda . استقبلني الحاج نجم استقبالا طيبا ، فهو رجل غربي ؛ ولكن مسألة الانقلاب على أى واحد من المسلمين كانت في أغلب الأحيان ، تحول تسامحهم إلى برهان ودليل خطير : هذا يعني أن الشخص الذى ينتمي إلى دين غير دينهم ، قد يكتشف في شيء من الحيرة والارتباك ، أن أولئك الذين كانوا أصدقاء له في وقت من الأوقات ، أصبحوا لا يربطهم به أى شكل من أشكال الإحسان ، بسبب انعدام الإنسانية المجنون الذى يتولد عن التشدد والتعصب الديني ؛ سوف أذهب مباشرة إلى قرية العلا ؛ ولكن الحاج نجم أقنعني بالبقاء فترة قصيرة في القلعة ، على أن يقوم هو خلال هذه الفترة بتحرى وترتيب مسألة سفرى مع القافلة المتجهة إلى بلدة الوجه ، أو إلى أن يوفر هو لي رفيقا أمينا في هذه الرحلة عبر الحرَّة إلى ديار المواهيب ، التي سنوف ألتقي فيها أبا سنون ، الذى من عادته السفر بين الحين والآخر إلى بلد الوجه .

كان الوقت يصادف الأسبوع الأول من شهر مايو ، وكانت حمى الواحة قد بدأت فعلا في قرية العلا ، وفيما يتعلق بالذباب ، لم يكن بوسع أو باستطاعة أى جمل من الجمال البقاء في تلك القرية أكثر من يومين فقط ؛ يضاف إلى ذلك أن سهل الحجر لم يكن فيه سوى نبات الرمض سيئ الطعم فضلا عن خلُوه أيضا من الفوائد الصحية أيضا ، وهنا أرسلت ناقتي ترعى مرة ثانية مع نياق البدو . ويبدو أن درجة الحرارة الخانقة التي خبرناها في الأرض العالية ، في خيام البدو الرحل ، قد أخذت في الانخفاض إلى حد ما ، فيما بين الجدران المبنية من الحجر ، وقد سجلت درجة الحرارة ٨٨ْ فهرنهيتية في فترة العصر . وبانتهاء النهار في الجزيرة العربية ، دخل المساء ومعه الحيوية والنشاط وأخذ جهاز قياس درجة الحرارة (الترمومتر) يسجل درجات أقل إلى ما قبل طلوع النهار بوقت قصير جداً ؛ وقد سجل الترمومتر ٦٨ْ فهرنهيتية . وبدأت تهب علينا من ناحية الجنوب طلائع الريح الساخنة ، مع انخفاض درجات الحرارة في فترات العصر الخانقة، وكانت طلائع تلك الريح تحمل سحب الغبار إلى القلعة . هذه الريح عبارة عن لفحات تأتي من الوديان ، خلال موسم ، لا تسود فيه صحراء الجزيرة العربية المرتفعة سوى حبَّات الهواء الطافي الخفيف قليل الكثافة .

كانت شمس حرارة الظهيرة شبه عمودية ، إلى حد أنها لم تكن تشرق على مدخل خيمتي الذي كان متجها صوب الجنوب . وجدت بركة المياه جافة ، كما وجدت أيضا أن الأرض الرملية تحولت إلى بستان ، أو إن شئت فقل : حديقة ، مقسمة إلى أحواض للري ، ومزروع فيها تشكيلة كبيرة من نبات البطيخ ، الذي قام الحاج نجم بزراعته عقب انتهاء موسم الحج . كما وجدت أيضا أن غتر روس من كانوا في القلعة قد رفعت إلى الأعلى وتحولت إلى عمائم ، كما كانوا ، أو بدءوا يشبون نار القهوة في الظل خارج جدران القلعة : – كان ذلك هو عالم الصيف الجديد عند هؤلاء البشر .

سوف أقوم في الوقت الراهن بزيارة مبرك الناقة ، الذي عثرت فيه على كثير من النقوش القديمة . كان الحاج نجم يخاف عليَّ ، أما حسن فقد كان يلومني بمعارضته المعهودة قائلا : "إنها لحماقة تامة وغباء تام من خليل أن يسلم أمره لبدوي !" وهنا ذكَّرت حسنًا ، أن محمد الدبيس Ed-Deybis الذي كان على استعداد لمرافقتي هو حماه (والد زوجته) . "نعم ، يا خليل ، وهو بدوي أيضا ! – ولو لم ينوِ شرا ، فهل كنت تظن أنه سوف يتركك أو يتخلى عنك ؟" وأخيرا قال الحاج نجم : "يجب أن لا يموت خليل في القلعة ، واشكر ربك على أنه لم يصبك مكروه ." وعندما شرعنا في القيام بزيارة مبرك الناقة في فترة العصر ، أوصاني الحاج نجم بتمضية تلك الليلة في مكان بعيد عن الطريق ، على أن أذهب إلى المكان المقصود مع بدء نهار الغد ، وأن لا أبقى هناك ساعة من الزمن ، وأعجل بالرحيل عن المكان قدر المستطاع . ومعروف أن عرب الديار المستقرة لهم رأي غير صحيح دوما في عقيدة البدو الرُّحَّل . وقد أصيب رفيقي بالدهشة عندما أبلغوه أنهم سوف يحتفظون بولده في القلعة إلى حين عودتنا من الزيارة سالمين . وتحول هذا الرفيق إلى أخٍ Akhu لي ، أو إن شئت فقل : أخٍ لي عن طريق الأجر ، عن طريق عَطية مقدارها كراون واحد ، لشراء قماش قميص جديد ، الأمر الذي جعل منه بدويا رزينا يمتاز بالرجولة ؛ وهذا هو ما بدا على ذلك الرجل أكثر مما كان عليه في حقيقة الأمر . ولقد سبق لي مئات المرات ، أن عهدت بحياتي ، في الأوقات التي لم أستطع خلالها المضي قدما ، إلى رفيقي البدوي ، الذي لا أعرفه ، وعلى امتداد مسافات طويلة . ألم يكن بوسع سيف ذلك الرجل الخائن ، أن يضع حدًا لأيامي في هذه الدنيا ، أثناء نومي ؟ ولكن ذلك كان يعد قتلا للأخ حسب قانون

الصحراء العربية : هذا يعني أن أحداً من هؤلاء الناس لم يمارس ضدى أي شكل من أشكال العنف ، ولكنهم عندما كان يشق الطريق عليهم كانوا يتخلون عني . هذا يعني أيضا أن من يقتل أخيه الإنسان سيعيش ذليلا ومطمورا طوال حياته ، هذا يعني أيضا أن أحداً من البدو لن يطيق بقاء رجل من هذا القبيل في أي بيت من بيوت منازل البدو. ومع ذلك ، هناك بعض الناس المتغطرسين ، في كل شعوب الدنيا ، الذين لا يراعون الأعراف أو التقاليد : هـذا يعني أيضا أن معظم المسلمين ، عندما يفشلون في إيجاد أو التماس الأعذار لأنفسهم ، يؤكدون بطريقة دينية إن "شريعتهم ليست ملزمة ، إلا في حدود الدين الإسلامي ."

كان القسم الأكبر من معيشة محمد يجيء من أخوته : فقد كان الصبي محمد يرتبط بعلاقة الأخوة مع قبلي آخر من قرية تيماء ؛ هذا يعني أن محمداً هو وأخيه التيماني ، كان يقومان بالدفاع عن أي تيماني يصيبه أي مكروه من بدو الفجير ، كما كانا يدافعان عنه أيضا بالكلام ، ويعملان على أخذ حقه وتغطيته أثناء انعقاد المجلس . كان الصبي محمد يحصل من التيامنة على ست صاعات من التمر عن كل خير يتسبب هو لهم فيه طوال العام ؛ وهذه الصاعات الست كانت تساوي أربعة عشر بنسا . ولما كان هؤلاء الشمر القرويون ، ليسوا على مقربة من التيامنة مثل العلاونة Alwona ، فقد كان ذلك يحتم عليهم أن يكون لهم تحالف من هذا القبيل مع كل القبائل البدوية المحيطة بهم . يضاف إلى ذلك ، أن الصبي محمد كان أخا لبدو الفجهات المساكين : معنى ذلك ، أن الفهجي الذي يصيبه أذى ، يقوم محمد بالدفاع عنه في المجلس . استغرق الطريق مسير ثلاث ساعات ، وصلنا بعدها إلى منطقة قريبة من الممر مع حلول المساء ، وهناك انتحينا جانبا واتخذنا لأنفسنا ملجأ في فلق عميق ملتوٍ من فلوق جبال الحجر . هذا يعني أن بوسعنا شب النار لتجهيز العشاء دون أن يرانا أحد ، وهنا أيضا قام محمد بتقييد رجلي الناقة الأماميتين ، وتركها ترعى في المرعى . ثم تسلق محمد الجبل قبل غروب الشمس ، بحثا عن قطيع من الماعز البري ، الذي شاهدنا آثار أقدامها عند سفح الجبل ؛ ولكن البدون (البقر البري) ، التي عثر عليها محمد نائمة على بعد مسافة قصيرة في الأعلى ، كانت أسرع من ذلك الصياد الذي لم يكن مستعداً لها . ومع طلوع النهار ، راح محمد يتعقب الطرائد من جديد ،

ولكنه عاد بخفى حنين . دهاء ومثابرة هؤلاء الرعاة الذين يحملون البنادق الفتيلية ، قليل وضئيل الغاية: فهم عندما يرون رأس الطريدة، تراهم يبادرون إلى إشعال الفتيل ، ثم تنطلق البندقيـة ، وهنا تختفى الأيلة عن أعين الصياد : ومع ذلك فإن الصلوبة ، باستعمال هذه الأدوات نفسها ، يصطادون الكثير من طرائد الصحراء .

ركبت ناقتي ، ووصلت بعد فترة قصيرة إلى المزحام (مبرك الناقه) . مبرك الناقة هذا ، هو بالتأكيد ، ممر من ممرات طريق الذهب والبخور القديم الممتد من بلاد العرب السعيدة (اليمن حاليا) : وليس هناك أى طريق آخر غير ذلك يمتد من سهل الحجر ، إلى الأراضي المرتفعة ، يمكن أن تسير فيه الإبل المحمّلة . يقع الطريق العام أسفل الجزء الشرقي من الصخور ، التى وجدت أنها مليئة بالنقوش القديمة . كان كل شرح من تلك الشروح الموجودة أسفل هذه النقوش الموجودة على الصخر الرملى الناعم مضعضع أو إن شئت فقل : مدقوق؛ ومن المحتمل جداً أن تكون تلك الضعضعة أو التهدم ناتج عن استعمال حجر سائب آخر : هذا يعني أن بعض هذه المدونات كانت ما تزال بيضاء اللون وواضحة ، مثل أية مدونات أخرى جرى إحداثها فى السنوات الأخيرة ، بعض آخر من تلك المدونات ربما يكون قد بلى وتهدم مع الحجر نفسه [انظر وثيقة النقش الموجود على اللوحتين أرقام ١٨ و ١٩] . القسم الأكبر من هذين النقشين عبارة عن صفوف منفردة من الحروف الحميرية ؛ وقلة قليلة من هذه النقوش هى عبارة عن نقوش نبطية : ومن بين بقية النقوش كان هناك سطران أو ثلاثة سطور ركزت ذهنى عليها وأصابنى شيء من الارتباك فيما يتعلق بتلك السطور، - مبعث هذا الارتباك يرجع إلى أنى استطعت قراءة هذه الأسطر (على أنها من اللغة العبرية ! أم أنها كانت مجرد أسماء مسيحية ؟) على أنها من اللغة الإغريقية القديمة ! وبكل تعب ومشقة استطعت تدوين قسم كبير من هذه الأسطر الثلاثة ، تدوينا أمينا ، نظرا لوضوح حروفها دونا عن سائر تلك المجموعة الكبيرة من النقوش . فى هذه المنطقة ربما ينظر الرحالة ، الذين يصعدون إلى هذا المكان ، نظرة أخيرة إلى هذا السهل النبطى Naba-tean ؛ كما أن الرحّالة الذين يصلون إلى هذا المكان قادمين من الشمال يلقون ، من هذا المكان، النظرة الأولى على مدينة الحجرة Hejra : ومن المحتمل أن يكون الصاعدين والهابطين ، قد نزلوا فى هذا المكان ، ولربما أيضا قام شخص أو آخر

بتناول أو أخذ حجر من هذه الأحجار (حيث وجد أن الكثيرين من قبله ربما يكونوا قد دونوا شروحهم) ، ليطرق به على الحجر ذكراه الخاصة به .- في تلك الأيام، كان النظر إلى مدينة الحجر ، على طول ذلك الخط الأخضر من أشجار السنط الجميلة، التي نمت على شكل غابة بالقرب من مجرى السيل ، يجعل العينين تتركزان ، عجبا ، على هذه المستوطنة التجارية العتيقة !- وأثناء عودتنا ، وعندما كنت أتحدث عن صُرَّة الحج ، رد على الصبي محمد رداً قاطعا وهو يقول : "بالرغم من أن عسكرهم هم الأفضل تسليحاً ، إلا أن البدو هم الأكثر شجاعة :" ومع ذلك اعترف محمد أن البدو المساكين عجزوا عن التصدي لأولئك العسكر أو الوقوف أمامهم في ميدان القتال . وعندما اقتربنا من القلعة ، جرى أولاده نحوه قادمين من خيمته ، كي يتلقونه ؛ وبحب البدو ، رفع ولده الصغير ووضعه أمامه على السرج ، كي يركب معنا إلى الخيمة أو إن شئت فقل : بيت الشَّعْر .

كان عرب البوابة قد سرقوا ، في الفترة الأخيرة ، أكثر من عشرة من الصقور الصغيرة من أعشاش الطيور الكاسرة في منطقة صخور إثلب Ethlib . شاهدت ، في ذلك الوقت ، اثنين أو ثلاثة من هذه الصقور في كل خيمة من الخيام ، شاهدتها وكل واحد منها مربوط من قدم واحدة إلى مجثمه ، الذي أقامه الأعراب له في مكان رملي مرتفع ، وسمعت تلك الصقور وهي تئن وتشتكي طوال النهار . كان طعام تلك الصقور عبارة عن حيوانات طفيلية ، وسحالي ، وفئران وحشرات ، حسبما يتيسر لها العثور عليه ؛ وإذا لم يجد الأعراب ما يطعمونه لتلك الصقور ، فقد كانوا يكتفون بإعطائها قليلا من العجين : وفي الحياة البدوية يقوم البدو بنزع حشرة القراد كبيرة الحجم التي تتعلق بصدور الإبل ، ثم يقدمون تلك الحشرة طعاما لتلك الصقور . هذه الصقور تحظى بتقدير كبير من البدو في اصطيادها للأرانب البرية ؛ وصيد الأرانب البرية ، نوع من تزجية الوقت ، عند أولئك العاطلين الذين ليس لديهم ما يفعلونه ؛ والصقَّار الجيد يستطيع ، كل يوم تقريبا ، تعديل أو تحسين ذلك الطعام البدوي الذي تتناوله أسرته . وأقل هذه الصقور يصل ثمنه إلى ريال واحد، ويندر أن يبيع الأعراب النوع الممتاز من الصقور نظير ثمن ناقة من النياق. كل هذه الصقور كانت من النوع اللطيف ؛ في نفس هذه القمم الصخرية كانت هناك أنواع أخرى من الصقور مثل الصقر

الجرّاح أو إن شئت فقل: الصقر الحوّام Buzzard، وكذلك نوع آخر من الصقور اسمه السّماوة gledes ، إضافة إلى أنواع أخرى من الصقور المهجّنة ، أي غير الأصيلة . والعرب ، مثلما رأيتهم في كل مكان ، لديهم القدرة على المخاطرة بالوصول إلى ارتفاعات كبيرة : من ذلك مثلا أن المتسلقين الحفاة الذين كانوا يرافقونا، استطاعوا تسلق بعض الجروف الهاوية ، التي كنت أشعر بالدوار عندما انظر إليها . ولكني بعد أن عدت إليهم اقترضوا مني حبلا ، استعملوه في تقليل تعرضهم للخطر . وكل واحد من هؤلاء الصقارين كان يغار على طيوره ويتحمس لها ، نظرا لأنه خاطر بحياته من أجل الحصول عليها ؛ يضاف إلى ذلك أن الضجيج الذي كان يحدثه أولئك الصقارة ، خوفا على طيورهم ، كان يتسبب في كثير من المتاعب والاضطراب داخل القلعة . وفي أحد الأيام ، رفع وادي Wady صوته ، أثناء جلوسنا حول وجار القهوة ، وراح يوبخ دولان Doolan ويؤنبه ، راح الاثنان يتصايحان حول رأس أرنب من الأرانب البرية ، إذ راح كل منهما يؤكد أن تلك الرأس إنما هي غذاء أو طعام لصقره هو . والعرب في أحزانهم ، يتصايحون مثل الأجسام المحمومة ، كما لو كان الإقناع يتمثل في كثرة صياحهم وبصوت مرتفع . أدى صياح البدو وضجيجهم داخل جدران برج القلعة إلى أن يسترق المغاربة السمع على ما يدور بين هؤلاء البدو . وهنا سحب الحاج نجم مقعده إلى الداخل ؛ وبعد ذلك وقف الرجل على قدميه المرتعشتين ؛ ثم رفع الرجل يديه الهزيلتين إلى السماء ، وأقسم ذلك العجوز على أن لا يدخل الأعراب القلعة مطلقا بعد ذلك . وهنا صاح وادي على وجه السرعة ، وراح دولان يترجى ويتوسل ، وكان كل منهما يلتمس لنفسه أعذارا ، وهنا ازداد الصراع حدة؛ إلى أن صاح حسن بصوته الجهوري قائلا: "عجبا ، أوصل الأمر إلى هذا الحد ، وأخللتما بهدوء المكان وأمنه على هذا النحو ! وخرجتما عن شعوريكما !" وهنا لملمْ البدويان وهما يشعران بالعار والخزي ، عباءتيهما المهلهلتين حول جسديهما ، ونزلا في صمت ، من الدرج ، ومن بعده إلى خارج أبواب القلعة ، وهما يشعران بالسعادة نظرا لنجاتهما دون أن يسيل أحد دماءهما ؛ ولم يعودا إلى القلعة ، إلا بعد أن تصالحا مع الحاج نجم ، الذي لم تدم خصومته معهما سوى بضع ساعات . وكان حسن بعد أن اقتادهما وطردهما وأغلق الباب الحديد دونهما، عاد لتناول القهوة بضحكه الذي يصدر من بطنه ، ومعه غليونه

الكبير ، ثم قال : "هيه - هيه - هيه ! أحسنت ، يا حاج نجم ، خبرني ، يا عمى ، ألا تشعر بشيء من الغضب الآن ؟" تساءل الحاج نجم : "هل من الواجب عند هذين الرجلين أن يجلبا شجارهما ، يا حسن ، إلى وجار قهوتنا ؟" كان الغضب الشديد يملأ صدر الحاج نجم ؛ وفي إحدى المرات ، وأثناء نوبة غضب من هذا القبيل ، سحب الحاج نجم مسدسه ، وقتل به اثنين من شيوخ ولاد علي ، في المكان الذى كانا يقفان فيه ، لأنه عندما صاح قائلا : "من هناك ! تجرأ الاثنان ومدا أيديهما ليأخذا قليلا من القمح من الجوالات الحكومية التي كانت موضوعة في الفناء السفلي . قام حسن في ذلك الاغتيال المتطرف ، ومن باب إنقاذ القلعة ، باستعمال سكينة في طعن شخص آخر بين ضلوعه ، فأرداه قتيلا ورماه أمام الباب وأوصده دونه .

من بين مهام أعراب البوابة الذهاب إلى الصحراء بحثا عن ملح البارود Gunsalt. وهم عندما يتصدون لمثل هذا العمل يقومون بجمع التربة الرطبة ، بعد أن يتذوقوا طعمها بألسنتهم ، وهذا النوع من التربة يكون في الظل الناتج عن بعض الصخور ، التي كانت منذ أزل بعيد أماكن يأوى الناس إليها عند الظهيرة ، هم وقطعانهم البدوية . والبدو يقومون بغلى ذلك الملح في غلايات في منازلهم ، ثم يتركون ذلك المحلول يبرد طوال الليل وهو ساكن بلا أى تحريك ، بعد أن يضعوا فيه قليلا من القش أو التبن :- وفي الصباح يجد البدو فوق سطح هذا المحلول قشرة من النترات صفراء اللون ، يقومون بخلطها مع نسبة من الكبريت ، الذى يشترونه من سوق الحج ، أو من المدينة (المنورة) . والبدو ، يجهزون ، هم بأنفسهم ، الفحم النباتى من نوع من الأخشاب الخفيفة ، ثم يعجنون الفحم النباتي مع مخلوط النترات والكبريت مع إضافة شيء من الماء ، ليصنعوا من ذلك قرصا من البارود ، وعندما يجف ذلك القرص ، يقوم البدو بتقطيعه إلى حبيبات بواسطة سكين ؛ والبارود الذى يصنع بهذه الطريقة يكون سيئا وضعيفا ، وبالتالى فهم يستخدمون منه شحنات كبيرة عند الاستعمال . ومعروف أن العرب لا يشترون شيئا طالما هم قادرين على صنعه بأنفسهم ، ومن هذا المنطلق يعد البدو جميعهم ممن يصنعون ذلك النوع من البارود .

زرت آثار الحجر كلها مرة ثانية، وتأكدت من أنى لم أترك شيئا دون التعرف عليه؛ ولكنى عندما كنت أفتش في الفلوق ، أو إن شئت فقل : الشقوق التي في صخور إثلب

، عثرت على مجموعة أخرى من النقوش : كانت كل تلك النقوش على جانب من جوانب البلدة العتيقة ؛ ولم أعثر على أحد فى الجزء الخلفى من الجبل : كان دولان رفيقا لى فى تلك الجولة . واستطعنا أن نجمع ، من بعض المواقع التى فيها كثير من الخزف المكسّر ، العديد من قطع العملة الممسوحة ، والمصنوعة من النحاس الأحمر : وراح دولان يحفر بيديه فى كومة من اللِّهم (الغرين) ، التى ربما تخلفت عن انهيار منزل من المنازل الطينية ؛ كانت تلك الكومة بجوار صخرة يطلقون عليها اسم مربوط Marbût الحصان el- Hosân، كما أرانى دولان أيضا فحما نباتيا متخلفا عن نيران قديمة ، والذى عرفت من الرماد المتخلف عنه ، إنه من خشب النخيل المحروق .

ذهبت أثناء عودتى ، فى يوم من الأيام ، لقطع بعض أوتاد لخيمتى من شجرة السنط الوحيدة الضخمة التى تقع بالقرب من القلعة : تحت هذه الشجرة كانت ماعز وأغنام حامية القلعة ترقد فى الظهيرة بعد أن تشرب شيئا من الماء . كانت تسيل فوق أغصان تلك الشجرة قطرات من الصمغ العربى الصافى ؛ ولكن الصمغ الذى يسيل من الأفرع القديمة كان أسود اللون مثل الزفت ، وكان مذاقه مرًا ، والبدو يقولون إن لهذا الصمغ أثر طبى ويستعملونه دواء : والعرب يستعملون ذلك الصمغ فى حشو ما بين ألواح القوارب التى يصنعونها فى بلدة الوجه . عند هذه الشجرة وجدت دولان حيث كان يقود قطيعه إلى ذلك المكان ، وانتظرت حتى أسأله عن فاتورة أتعابه ، أم أنه سيقوم بقطع الأوتاد المطلوبة بلا مقابل . رد على دولان قائلا : "والله ، يا ولد عمى ، أطلب منى أى شيء آخر ، لأن فى قطع هذه الأوتاد ضرر لى ولك أيضا . لا ! أرجوك يا خليل ، لا تقطع أو تكسر سوى غصن واحد من بين كل هذه الأغصان ، لأنك لست من أهل هذه الديرة ، أنت لا تعرف معنى ذلك : انظر إلى الأعلى ! ألا ترى الملابس القطنية ، وقرون الماعز المعلقة فى هذه الأغصان ، إنها خاصة بالبدو ، ولكن الكثير منها سقط بفعل الريح التى هبت على هذه المنطقة مؤخرا . وألا ترى هذه المسامير ! بعض الحجاج يدقون هذه المسامير فى ساق الشجرة أثناء أداء الصلاة !" وعندما أمسكت بواحد من الأغصان الجيدة وتناولت سكينى كى أقطعه ، أحتضننى وهو يقول : "لا ! يا خليل ، إن من يقطع هذه الشجرة لابد أن يموت." – "ما هذا الغباء ! هل تخاف من الأشجار ؟" – "آه لى ، هذه الشجرة يسكنها جن ، فلا تكن غبيا إلى هذا الحد .

أقسم بالله ، أنى أقول الحق ، فقد قام بدوى بقطع غصن من أغصان هذه الشجرة ومات بعد ذلك بفترة وجيزة ، كما ماتت أيضا مواشيه كلها . يا خليل ، فى الليلة الماضية ، جاءت فتاة صغيرة من خيمة نصبها أصحابها حديثا فى هذه المنطقة ، وقامت بجمع بعض من هذه العصى المتساقطة من الشجرة ، لكى تشب بها أمها نارا ، وبينما كانت الأم تشب النار ، تصلب ذراع الفتاة وعجز عن الحركة : وعلى الفور حملها أهلها إلى داخل القلعة ، حيث قام الحاج نجم بوضع بعض الرقى والتعاويذ حولها ، وبرحمة من الله عادت الحركة إلى ذراع تلك الفتاة" .

خسر دولان حظوته في القلعة ، وذلك اعتباراً من اليوم الذى سرقت فيه الماعز والأغنام من بين يديه ، وبذلك هيئ له أن الدنيا كلها أصبحت ضده ، وذات يوم وهو يعتصره ذلك الحزن ، نظرا لإدراكه أن الكثير من الأخطاء البشرية لا يمكن علاجها أو إصلاحها ، وبينما كان يجلس مكلوم القلب على أعتاب خيمتى ، قلت له : "يا دولان ، لا تبكى ، فأنت عنترى !(*)" وعندما سمع ذلك الرجل ، أو إن شئت فقل : ذلك الفهجى المحتقر ، كنيته بأنه ولد من أولاد عنترة ، امتلأ قلبه بطولة وحماسة : وأفلح فى ستر دمعة كبيرة كانت على وشك السقوط من عينيه ، ولكنها سقطت فى النهاية على صدره ، وهنا لم يتمالك نفسه من الضحك ، وابتعد عنى حتى لا أراه وهو يبكى . ولن يدخل بعد اليوم لشرب قهوة المغربى ، ولكن بحلول المساء كان دولان قد تغلب على حزنه داخل خيمته ، عن طريق أغنية قوية كان ينشدها ويتغنى بها على طنين وتر ربابته : وبذلك استطاع أن ينسى كل الهموم وكل الجوع ، – والمؤكد أن هذا الراعى الفهجى المسكين مازال يعيش وفى داخله نفس قوى من النخوة والشهامة القديمة التى كانت سمة مميزه لأهل الجزيرة العربية . كان دولان جوعانا طوال أيام حياته ؛ ومن الصعوبة بمكان على أى إنسان فهم الطريقة التى يمكن الحفاظ بها على هذا الطابع ، فى تلك الأجساد البشرية الهزيلة . ومن عادة هذا الدولان أن يوضح فى كثير من الأحيان بأنه ليس لديه ما يأكله أو يقتات به ، مستخدما فى ذلك إشارة البدو ، بأن يعض ظفر إصبعه الإبهام ، بأسنانه العليا الأمامية . وهم يعنون بذلك مع النبى الراعى الذى كان

(*) نسبة إلى عنترة بن شداد العبسى . (المترجم)

يرعى الغنم أن "الله أعطاهم نظافة الأسنان ." وعندما علم دولان أن جنود السلطان كانوا يحصلون على تعيينات يومية ، عبارة عن كمية كافية من الأرز واللحم المسلوق ، ظن أنهم يحيون حياة طيبة في هذا العالم ؛ ثم قال : "أوه ! إنه لعجب عجاب أن يأكل الرجل هنا كل يوم حتى الشبع ، مثل هؤلاء العسكر !" ومن عادة سكان المناطق الحدودية أن يقولوا عن حياة الجوع التي يحياها البدو الرحل : "إن حياتهم تشبه الموت" Mithil el-Mawt .

ذات ليلة ، وعندما كان العرب واقفين ينظرون إلى القمر الجديد ، قبيل غروب الشمس بوقت قصير ، سمعنا صوتا مندفعا عن بعد في السماء . (قال العرب ،) إنه كان نجما ، أو إن شئت فقل : حجرا نجما ، سقط حسب ظنهم على جبال ركب Rikb الحجر el-Héjr . أبلغني هؤلاء العرب أن بعض النجوم هوت ، في زمانهم ، وعلى مرأى منهم ، في ديرتهم ، وقالوا أيضا : إنهم عندما وصلوا إلى ذلك المكان وجدوا الصخور مفتتة ، أما "النجم" Star فلم يتفتت وزعموا أيضا أنه غاص في الأرض إلى مسافة كبيرة . رحب الناس بطلوع القمر الجديد بأدعية دينية ، كما رحبت به البدويات بأغاريد كن ينشدنها في الساعات الأولى من الليل . هذا القمر هو كوكب الطريق عند الجنس السامي العابر للسبيل . والذي لا شك فيه ، إن القمر في الصحراء البدوية هو شكل من أشكال أضواء الحراسة الليلية ؛ والعرب يفرحون بضوء القمر عندما ينساب فوق الأراضي المرتفعة ، لأن ذلك يعني أنهم يمكن أن يناموا ويكونوا في مأمن من أعدائهم . رددت الحريم قافيتهن الوحيدة التي هي عبارة عن مقطوعة واحدة ، ورقصن مدة ساعة أو ساعتين . وقد عين (سيدنا) موسى أحباره "لكي يبوقوا مبشرين الناس بطلوع القمر" :- والبوق الذي يستعمله العرب لهذا الغرض يصنعونه من قرون الأغنام! وقد رأيت بنفسي هذه الأبواق ، التي يستعملها العرب في تلك المناسبات ، وبخاصة في احتفالات اليهود الدينية في سوريا .

لم يكن موسم الجراد قد انتهى بعد ، فقد حدث ذات مرة أن هبط الجراد على هذه المنطقة في إثر ريح مسائية ، سقط الجراد على الأدغال الخضراء كلها وعلى ذلك العدد القليل من النخيل التابع للقلعة . وهنا سارع الحاج نجم مهرولا إلى شرفته ،

وهو يمد ذراعيه الضعيفتين ، وهو يمسك بجريدة من جريد النخل في كل ذراع منهما ، ليبعد الجراد عن نخيله ، وكان الرجل يصيح بصوت عالٍ : "يحرق الله آباءهم !" كما أمر الرجل بعض الفهجيين الذين يعيشون عند بوابة القلعة ، والذين كانوا شركاء معه في تمر النخيل ، أمرهم بتسلق النخيل والوصول إلى قممه : واستمرت تلك المعركة مع الجراد إلى حلول الليل . في الواحات ، حيث لا يوجد من البشر عددا يكفي للدفاع عن النخيل ويتكبد الناس خسائر جسيمة . فقد خسر الناس في تيماء في ذلك العام أكثر من نصف محصول التمر . وقد وصل الأمر إلى حد تدمير كل المزارع الشاسعة في خيبر في صيف ذلك العام ، ولم يكن أمام القرويين في تلك الواحة ، من شيء سوى إشعال النار في الأغصان الخضراء تحت القسم الأكبر من سيقان النخيل .

وفي صباح الغد ركب بعض خيالة البدو خيولهم متجهين نحو البوابة ، لينزلوا عندها عن خيولهم ، ويقيدون أفراسهم ، ويركنون حرابهم على الجدران ، ويروحون يطرقون لوح الباب الحديدي بشدة ، ذلك الباب الذي أوصده أهل القلعة عندما أبصروا هؤلاء الخيالة قادمين . كان هؤلاء الخيالة ، هم شيوخ ولاد علي ، الذين كانوا يسبقون الرُّحْلة على ظهور خيولهم . هؤلاء القبليون قطعوا تجوالهم (خوفا من ابن الرشيد) في الحرُّة مع بدو الموهاهيب ؛ وهم الآن يعجلون ، حرصا منهم على سلامتهم ، بالنزول إلى خيبر قبل شهرين من الموعد المحدد لذلك . كان ركَّاب ولاد علي قد خسروا بالفعل ، في الغزو الذي شنه البشر عليهم ، حوالي ثمانين جملا ، تصل قيمتها إلى حوالي ١٥٠٠ إسترليني ، جرى تسليمها بهدوء هي وأسلحتها ، الأمر الذي أسفر عن بقاء القبيلة بلا دفاع ، وهم سوف يعرجون في الصباح الباكر على قرية العلا ، ليشتروا نقدا أو بالأجل كل البنادق الفتيلية والسيوف التي يمكن أن يعثروا عليها في تلك القرية؛ وقد نصبوا خيامهم ظهر هذا اليوم في منتصف الطريق حول آبار الحجر . ولم يسمح بدخول القلعة ، إلا لجزء يسير من هؤلاء الشيوخ . ولاد علي هؤلاء كانوا منذ سنوات قليلة مجرد جوم Gom (لصوص) ليس إلا . يضاف إلى ذلك أنهم كان بينهم وبين الحاج نجم دم ، أو إن شئت فقل : نوع من الثأر ، الذي لم يغب مطلقا عن ذهن ذلك المضيف العجوز الحريص ، الذي وصل إليهم وهو يرتدي أبهى ملابسه ويبتسم ابتسامة كئيبة أثناء استقباله لهم : وهذا هو جراب المسدسين اللذين استعملهما في قتل البعض

من ولاد على ، معلق على صدره ، وتلك هى غدّارة(*) يعلقها فى ذراعه ، وعلى ذلك ، فإن من يكون فى حوزته ما يمكن أن يفقده أو يخسره ، يتعين عليه الحديث مع اللصوص الذين هم بدو من الديرة نفسها ؛ كما يتعين عليه الحرص أيضا والاحتياط لعقيدة هؤلاء اللصوص المتذبذبة ، مخافة أن ينقلبوا أعداء لك هؤلاء الذين بدوا لك أصدقاءً ومعسولى الكلام فى يوم من الأيام ، وأكلت معهم عيشا وملحا فى يوم من الأيام أيضا ،هؤلاء اللصوص هم أنفسهم يحرصون فى تعاملهم معنا ، كما أنهم يحترمون ذلك الذى يحتاط لغدرهم وخيانتهم . وأعين هؤلاء اللصوص ، تقول الكثير ، عندما يستقبل الواحد منهم رجلا يحل عليه ضيفا ، بالرغم من أن مثل هذا الاستقبال قد يكون فيه شيء من النفاق : كان الحاج نجم يقف ومن خلفه سجادتين تركيتين مطويتين ، وهاتان السجادتان كانتا تعدان أشياء فاخرة فى دنيا هذه الصحراء الجرداء ؛ وقام الحاج نجم بفرش هاتين السجادتين على أرض الممر داخل القلعة .

انضم وادى إلى هذه الطائفة من ولاد على ، وهنا أصبح كل بدو البوابة الرحل فى أبهى عطلة يقضونها فى القلعة وإلى جوراها . وهنا راح وادى يطبع قبلة يهوذا(**) على خدى كل واحد من هؤلاء الشيوخ أقاربه ، وكان وادى أثناء تقبيله لهؤلاء الشيوخ يحنى رأسه إلى الأسفل على أكتاف أولئك الشيوخ المتعفنة . بعض آخر نهض واقفا وقفة الرجولة وهو يحيى شيوخ ولاد على ، الذين كانوا يهبون واقفين لهم من مسافة بعيدة ؛ - كل شيء ليس "على ما يرام تماماً" والسبب فى ذلك هو خيبر من ناحية وابن الرشيد من الناحية الأخرى، وهذا هو ما يعكر الصفو بين هاتين القبيلتين الضعيفتين الخائنتين. وهذا هو أيضا السبب وراء جلوس هؤلاء الناس وهم واجمين، فى انتظار شرب القهوة. كان حسن يقوم بدور مصلّح القهوة بالقرب من الوجار ؛ هذا الحسن كان قد قتل واحداً من هؤلاء، وحمله وألقاه خارج الباب الحديدى مستخدما فى ذلك قوته هو وحده. هذا الحسن هو أيضا متسلح الآن ولكن بطريقة سرّية ؛ وقد أرانى حسن بعد انصراف هؤلاء الشيوخ اللصوص ، وهو يضحك ضحكته المميزة ، أرانى كلا من الشّفرة

(*) الغدّارة : بتشديد الدال وفتحها ، هى البندقية القصيرة القديمة (المترجم)

(**) قبلة يهوذا : تعنى تظاهرًا بالود وإضمارًا للغدر . (المترجم)

والمسدس اللذان كانا يخفيهما في ملابسه الفضفاضة ، تحسبا لإقدام أولئك الشيوخ على مغامرة غير محسوبة ويائسة . وهنا يتعين على هؤلاء أن يأكلوا خبز ذلك الرجل من رجال القلعة وهم خائفين ومضطرين في ديار المسلمين . كان نجم يحس بتأنيب ضميره له على ذلك الدم الذي تسرّع هو في سفكه ، ولذلك كان الحاج نجم يردد دوما العبارة التي تقول : "الدم ثقيل" قاصدا بذلك أن "ذنب وعبء سفك الدم مسألة ثقيلة جداً على النفس" : هذا يعني أنه لو حدث أي شكل من أشكال التمرد الفظ حول وجار القهوة ، فإن الحاج نجم سيكون له بالمرصاد ، ومحبذا اللجوء إلى أساليب أفضل من ذلك ، وهو يقول : "جميل أن يتسامح المرء مع أخطاء الآخرين ويصفح عنهم ، وبذلك ينزع الحقد من قلوبهم ." كنت أسمع الحاج نجم وهو يتمتم مع نفسه وهو يقول : "إنه كان مضيافا وصاحب قلب أبيض ." ويوم أن كان ، ضمن رجال القلعة في قرية سورة Sawra، ديرته وموطنه ، فقد حصّن نفسه، قبل المجيء إلى هنا، بالزواج من ولاد علي ؛ ومع ذلك كانت زوجة الحاج نجم من ناحية والدها ، ترتبط بقرابة ، مع بنات كبار رعاة القلعة . كانت زوجة الحاج نجم أنثى بمعنى الكلمة ، ومضيافة أيضا ، ولكنها في بعض الأحيان كانت تضيق ذرعا بنظام الحاج نجم المدني الصارم ، الذي كان يفرضه على أية جارة من الجارات المخلصات في الصحراء .

كان مطلق العلايدة ، ذلك الشيخ الكبير ، رجلا أشيب الشعر ، استطاع عن طريق سلوكه وتصرفاته التي تمتاز بالود والألفة ، أن يضفي على نفسه شخصية الوالد ؛ وعندما أوشك الشيخ مطلق العلايدة على الرحيل جاءني ، يبحث عني ليسلم إليّ غرفتي . تربية الشيخ مطلق في مجتمع متحضر ، هي على الأرجح التي أكسبته ، دونا عن سائر عاله ، شخصية الرجل الطيب ؛ ومع ذلك فإن مظاهر حياة العوز والفاقه في الصحراء لابد وأن تكون قد أدخلته في كثير من المنغصات ، التي يخرجون أنفسهم منها باللجوء إلى التغيير والتُّحوُّل ، بدلا من الاحتكام إلى القتال في الميدان . بالرغم من أن بعض ذرائعهم الماكرة لا تنطوي إلا على الخيانة الحقيرة . ومع ذلك ، فالصحراء لا تعرف ذلك الذي يتعارف الناس عليه بأنه إهانه عامة ؛ وكل ما يفعل في نطاق الصالح العام لأفراد القبيلة يقره أفرادها على أنه من قبيل السياسة البشرية ، كما يعتبرون ذلك مناقضا ومنافيا للعالم الخارج عن نطاق قبيلتهم . من هنا ،

فإن كل واحد من البدو له وجهان ، وجه الحنان الإنساني اللطيف في منزله ، ووجه البغض الشديد والتكشير عن أسنانه في مواجهة العالم الخارجي ، والبدو يقدرون الأشياء كلها مثل تقديرنا نحن لها ؛ وهم ينظرون إلى أنفسهم ، أثناء تقييمهم لأنفسهم فيما بينهم ، على إنهم يتسمون بالصدق والأمانة ، في حين ننظر نحن إليهم على إنهم أشقياء خطيرين ولصوصا كذابين . هذا وقد انحسرت الخيانات المزدوجة لهذه القبيلة غير المحاربة مرتين ، على امتداد الاثنى عشر شهرا الماضية ، الأمر الذى أدخل الرعب والفزع في قلوبهم الغادرة .

رحل الكبار بصورة متدرجة عائدين إلى منْزلهم ، ولكن الصغار بقوا في القلعة ، وذلك من باب تغيير العطالة التي يعانون منها ؛ بقي هؤلاء الصغار في القلعة ، والنوم يداعب جفونهم في الساعات الوسيطة ، كما لو كانوا مرهقين ومكدودين من خواء عقولهم : وبعد استيقاظهم من نومهم في آخر النهار ، اكتشفوا من الظل ، موعد دخول الصلاة ، فنهضوا لأداء الصلاة : وبعد الصلاة أشعلوا غلايينهم مرة ثانية ، وهنا بدأت دقات يد الهاون أثناء طحن البن ، تبعث الحيوية والنشاط فيهم من جديد . وبقوا على هذا الحال ، الذى لا يمكن أن يطيقه سوى البدو ، صائمين وبلا طعام ، وصابرين في تكاسل على ما هم فيه ، إلى أن حل عليهم المساء . كان ديك هذه الجماعة من الشبان الصغار ، هو فهد ولد شيخ القبيلة ؛ وفهد هذا رجل سليط الرأى ، كان يترأس ذلك الغزو الذى تهور فيه وأصاب خلاله ولد شيخ قبيلة البشر ببعض الجراح . أوفد فهد من جاء يطلب مني الذهاب إليه . ثم أعاد ذلك المرسال إلى مرة ثانية . "(قال المرسال :) انهض ، فقد أوفدني الشيخ إليك كي تذهب إليه وتعرض عليه صورك ." وقلت للمرسال أن يبلغه بأني استسمحه في الحضور إلى غرفتي إذا كان يريد مني شيئا . دخل على فهد متشامخا ، مما جعلني أحتقر هذا التشامخ بعد أن تيقنت منه ، وهو ما جعل فهد يرجوني ويتوسل إليَّ أن أُريه صوري (التي ذاع صيتها في كل أنحاء الديرة) . بعد أن سمع فهد اسم أمتي (شعبي) يتردد على مسامعه ، كان هو الوحيد الذى على استعداد لفهم معنى سوق قريتنا ؛ وهنا قلت له : "أيها الشاب الصغير ، قرانا حوالى ألف قرية ، بل ربما تكون آلاف القرى ؛" كان الحاج نجم ، قد تفاخر قبل ذلك بوقت قصير أمام الجميع ، بأن النصراني لم يقل في حياته سوى الصدق ، وبالتالي لم يكن

هناك مبرر أمام ذلك البليد لتكذيبي بأي شكل من الأشكال . مر المغربي العجوز علينا في الطرقة (الممر) وعند استمع إلى حوارنا : "(قال نجم لهم) إن كل ما يقوله خليل ليس أمراً غريبًا، ففي بلاد المغاربة ، بلدان كبيرة ، وعدد كبير أيضا من القرى الكبيرة، إنه بلد كبير فيه جمع كبير من البشر، وهم لا يسكنون مثلما تفعلون أنتم أيها الأعراب. هم لا يعرفون هذا الجدب الصحراوي ، ولا يعرفون هذه الشمس الحارقة ، ولا هذه الأرض القاحلة ، التي ليس فيها سوى بعض القرى الصغيرة المخلخلة السكان ! – تلك الأرض التي لا يمكن أن يسكنها سوى البدو ، والعفاريت ، أما نحن ، فأهل الغرب : – أليس هذا صحيحا يا حسن ؟ نعم ! لقد شاهدنا الدنيا ." رحل ضيوف القهوة ، بعد غروب الشمس – ملتزمين في ذلك سلوكيات الصحراء – عائدين إلى منازلهم المصنوعة من الشعر لتناول طعام الإفطار .

كان الحاج نجم ، ذلك المغربي العجوز ، قد بدأ يضمر الكثير من البغض والكراهية لذلك الصبي العسكري الذي لم يكن بدويا خالصا ، والذي كان أخا لزوجته ، ولما كان الجميع يخشون التقلب المزاجي المفاجئ لذلك الرجل ، فقد راح الجميع يحيون حياة كلها حرص وانتباه داخل القلعة . وقد تعهد الحاج نجم تربية ذلك الصبي منذ طفولته إلى أن أصبح واحداً من حامية القلعة . وقد سبق لنا استعادة ذلك المعقل عندما استولى الأعداء عليه بطريقة مفاجئة ، أو إن شئت فقل : عندما احتله البدو : ونظرا لقلة العاملين تحت رئاسة الحاج نجم ، فقد تحتم عليه أن يحتاط لكل الأخطار المحدقة به في الصحراء . كان الرجل يحرس البوابة بعناية فائقة ليلاً ونهاراً . كان محمد ، ذلك الصبي الجبان شديد الإهمال ، قد تخفف كثيرا من طلب "عمه" الملح ؛ كان محمد ، بحكم استبداده ووجله ، يرى أن عمله ضائع في مسألة فتح البوابة وغلقها ، كما كان يرى أيضا أن القلعة أوكلت إليه من قبل الإمبراطورية العثمانية ، وأن عنقه ومعاشه كانا معلقين بالقلعة ، كما كان يرى أيضا أن القلعة نفسها تتهددها الأخطار ؛ ويوما بعد يوم كانت كراهيته تزداد لذلك الصبي العجل ، وذات ليلة غادرنا منطقة وجار القهوة وقصد كل واحد منا المكان الذي ينام فيه ، وفجأة تحول الأمن والسكينة إلى قلق واضطراب نتيجة حدوث أمر ما . فقد تسلل ذلك الشاب الصغير الذي يدعى محمداً ، خارجا من القلعة مخلفا وراءه الباب مفتوحا في تلك الساعة من الليل ، وقاصدا خيام

بدو الفهجي ، لا شيء سوى الشجار مع الصبي دولان ؛ إضافة إلى أنه كان يوبخ النساء الفهجيات عن خلاف تافه بينهن حول شيء من حبوب القمح . والمرجح أن وقاحته وبذاءته على هذا النحو يمكن أن تكلفه الكثير جداً - وربما كلفته هذه البذاءة والوقاحة حياته التي لا فائدة منها . والسبب في ذلك أن الحاج نجم عندما سمع هذه الشائعة ، وعندما سمع الجدال الذي كان يدور في الخارج ، هب واقفا على قدميه ، وعندما تيقن تماما من الصوت، تقدم صوب الشرفة وهو غاضب تماما ، وصاح صيحة عالية يطلب فيها قفل الباب ، كما لو كانت القلعة قد جرى الهجوم عليها . دخل الصبي محمد إلى القلعة مرة ثانية ، ثم قفل المزلاج بهدوء ، وراح يتسلل خلسة إلى غرفته صاعدا السلم ، ولكن الرجل العجوز (الحاج نجم) الذي كان يفرد ذراعيه في ضوء القمر ، أقسم بدينه ، كما أقسم بالغرب Ghrarb ، أي بالجزء الغربي من البلاد ، أن ذلك الصبي محمد كان يهوديا (إذ لم تسعفه الذاكرة باسم آخر أبشع من هذا الاسم). عاد الحاج نجم مرة ثانية إلى المكان المخصص له في القلعة ، ثم عاد ثانية وهو يحمل بندقية الفرسان القصيرة التي كانت تتلألأ في ضوء القمر . ثم صاح الحاج نجم قائلا: "اصح ، يا حسن ، أقول لك : اصح يا حسن !" قال الحاج نجم هذه العبارة بصوت شبه مخنوق وخال من المسحة الإنسانية :- استدع حسنا ليكون شاهدا على موت ذلك اليهودي ، أو ربما كان يريد من حسن ، أثناء هذه الموجة من الغضب ، أن يقوم بدور حمامة السلام بينهما ، ويتدخل بينهما ، ويحول بين الحاج نجم وبين الوصول إلى الصبي محمد . سوف يبث الحاج نجم الرعب والخوف مرة أخرى في قلوب الجميع ، بأن يقوم بقتل ذلك الرجل أثناء الليل : ومن الجانب المقابل راح الصبي المسكين يتوسل إلى الحاج نجم وهو يبكي ويقول : "يا عماه !- إنك أنت الذي ربيتني ." ولكن الرجل العجوز كان يرفض ذلك التوسل ، وهو يصيح صياحا مرعبا للمرة الثانية وهو يقول : "أنا لست عمًا من أعمامك ، لابد أن تموت ! يا يهودي ! لابد من الموت !" وبينما كان يصوب الحاج نجم بندقيته إلى الصبي محمد ، جرى الأخير شارداً في ضوء القمر (والعرب لا يفتحون النارعلى شخص يهرب) ، متجها إلى الجانب الآخر من القلعة : وهنا قام نجم العجوز بتعمير غدارته مرة ثانية ، ونزل بسرعة هابطا بصعوبة من درجات السلم ، ومخلفا وراءه سقف الشرفة ، وقاصداً مطاردة ذلك الصبي .

كان الحاج حسن بدوره قد هب واقفا على قدميه عند سماع تلك الضوضاء وبدأ ينظر من غرفته التي تشبه الزنزانة ؛ وبصوت يشبه صوت النفير ، صاح الحاج حسن صياحا فاق صياح الجميع : "بس Bess ، كفى ، يا عمى ، ما هذا ! وما هى كل هذه الجلبة ، وهل ستسفك دما بهذه السرعة ! وأنت يا محمد ، ادخل أيها الولد الغبى إلى غرفتك ، يالك من ولد غبى ! ألم أحذرك مئات المرات ، بصفتى والداً ، وهل أنت دوما السبب وراء الاضطراب والقلق فى القلعة ؟ وأنت يا حاج نجم ادخل غرفتك واستكمل نومك ؛ وغدا سيكون لدينا متسع من الوقت لمناقشة أخطاء هذا الصبى. كفى يا محمد! لا ترد على عمك ، وأحمد ربك على أنك رأيت ما آلت إليه هذه الليلة ، ولم يحدث لك فيها مكروه ." وبذلك أمكن تهدئة غضب ذلك الرجل العجوز ؛ ثم خيم الهدوء من جديد على القلعة كلها ، حيث عاد الجميع إلى الراحة انتظارا لطلوع النهار ، ولم يكن هناك من أحد يتمتم أو يغمغم سوى ذلك الصبى العسكرى ، عندما كان يقترب من "بيته" الخالى من الحركة . "سيقوم بإبلاغ ما حدث للباشا ، وسوف يبلغه أيضا لمحمد على ، عندما يعود الحج فى العام القادم" : هذا يعنى أنه كان من حسن الطالع أن المغربى العجوز الغاضب لم يسمع ذلك الذى قاله محمد .

عند طلوع الشمس ذهبت إلى الوجار لتصليح شىء من الشاى الذى وضعت فيه مقدارا كبيراً من السكر ؛ وذلك سعيا منى إلى إعادة الود والصداقة بينهما : وتأجل الصراع والنزاع إلى وقت الظهيرة . وذلك عندما اقتاد دولان أغنامهما القليلة لتشرب من غدران الماء . ناداه الحاج حسن من علٍ وهو يحذره ؛ – نصف كلمة يمكن أن يكون كافيا عند العقلاء ، ولكن المخبول لا يكفيه عشرون كلمة – وهنا أفلتت من صدر ذلك الفهجى المسكين ، نظرا لعدم قدرته على التحمل ، شكوى مريرة وبصوت عال تشبه صياح الرعاة الوقحين عندما يكونون فى الصحراء . وجاء الصبى محمد الأحمق يجرى على تلك الصيحة ، وصاح هو بدوره رداً على تلك الصيحة : أسفر كل ذلك عن نزول كل من كانوا فى القلعة إلى الدور الأرضى ، هذا يعنى أن كل أفراد القلعة تركوا أماكنهم . وعندما نظرنا نحو الأعلى شاهدنا الحاج نجم وهو يحمل غدّارته ؛ ونزل وهو يصرخ ويقول : "يهودى ! يهودى !" ونزل مهرولا بسرعة من فوق الدَّرج متجها نحو الواقفين فى الممر ، ثم بدأ يخفف من جريه . وراح أعراب البوابة الذين كانوا قد دخلوا القلعة

لشرب القهوة ، راحوا يتبعون الحاج نجم ، وهم لا يعرفون سبب غضب ذلك المغربى ، وراحوا يرجونه ويتوسلون إليه. ثم جاء وادى Wady من الخلف وأمسك بالحاج نجم من وسطه ، واحتجز "عمّنا" ، كما لو كان ساحراً ، ومحاولا الإمساك بذراعيه ومقاوما له ، وهنا راح الحاج نجم يلهث ، واضطردت أنفاسه ، وواصل تهديده لذلك الصبى .- واستطاع تخليص نفسه من الحاضرين وانطلق يجرى مبتعدا عنهم ، وراح يصوب بندقيته من جديد ، ولكنهم استطاعوا الإطباق عليه مرة ثانية ؛ وراح هو يجرهم ، وهم يمسكون بذراعيه ، محاولين إثناءه عن عزمه ؛ وهكذا راح الجميع يطاردون بعضهم بعضا هنا وهناك . وبعد أن خارت قوة نجم كلها ، راح ينظر حوله وهو مضطرد الأنفاس ، وكاد يغمى عليه وهو بين أذرع الحاضرين . كانت زوجة الحاج نجم واقفة فى الأعلى تبكى ، وبالتالى لم يكن بوسعها أن تساهم فيما يجرى ضد أخيها الوقح ، الذى كانت تخاف عليه من القتل ، على يدى زوجها العجوز ، وأمام عينيها فى هذا المكان ، ولكن الحاج حسن عند هذه المرحلة راح يحتج على الحاج نجم قائلا : "بالله عليك ! كفى ما صنعته يا حاج نجم ! يالك من عجوز أحمق ، ألا يشبه ما تفعله ذلك الذى يصدر عن جسم أو شخص محموم بالغضب؟ هو! هو ! عسكرى يقتل عسكرى !" (رجل يعلن الحرب على عائلته) . يضاف إلى ذلك أن البدو الذين كانوا يحّجزونه ويمنعونه مما يود القيام به ، كانوا يتوسلون إليه ويرجونه مستخدمين فى ذلك لطف الصحراء : "ما عليك ، يا حاج نجم ! ما عليك ! خلّى عنك كل هذا ، يا حاج نجم ! لا ، الولد ولدك ؛ لا ! أطال الله عمرك ." – وهنا صاح الحاج حسن قائلا : "ضعوا حداً لكل هذه الجلبة !" وهنا قام الرجال بإجبار "عمنا" على الدخول إلى غرفته .

كان ذهنى مشغولا بالكيفية التى أوقعتنى أسيرا لذلك التعصب والتشدد التركى ؛ وكنت أتطلع رافعا رأسى إلى السماء راجيا ، أن تهيئ لى اليوم الذى أستطيع فيه الخروج من هذا القفص إلى حيث أكون بين الأعراب الأحرار ، كى أباعد بين أذنى وبين هذا الضجيج وذلك الصراخ الذى أسمعه من أولئك المغاربة حادى الطباع : وقد وعدت نفسى ، أننى عندما أطير مبتعداً عن جدران تلك القلعة فلن أعود مطلقا للإقامة فيها مرة أخرى . فى وسط ظلام الخرافات هذا الذى يسيطر على حياواتنا ، أعطانى الله القبول عند من يرانى ، كما جعل الآخرين يأخذونى بعين اعتبارهم . هذا الحاج نجم

نفسه كان مفرطا في اعتداله معي ، ومدبرا لأموري ، وعاملا لصالحي ، كما كان يحذرني عن طريق النصائح المخلصة في الأمور التي كان يرى أني لست حصيفا فيها، والتي تعد من قبيل الأمور النادرة في دينهم ، والتي يمكن أن تثير الغضب: معنى ذلك، أن هذا الرجل كان ينظر إليَّ نظرة حب ودي مثل حب الجار لجاره . ولكن لو حدث في مرة من المرات ، ووقع بيننا ما يعكر الصفو ، ونسي الرجل واجبه تجاه الإمبراطورية العثمانية (الدولة) (وإذا ما تذكر في ذلك اليوم عجزي الديني) ، فذلك سوف يعني ، بكل تأكيد ، عدم بقائي على قيد الحياة .

أساء كل من الخوف والجدل والنزاع البربري في بلد لا يعرف القانون (يتعين على المرء فيه أن يصيح بصوت عال بغية السيادة والتسود ، نظرا لعدم وجود بصيص أمل في تحريك عقول البشر عن طريق المنطق) وكذلك المرض ، أساء كل ذلك إلى طبيعة الحاج نجم الخيرة التي تقوم على الفضيلة : والمؤكد أن هذا الرجل في ظل الظروف العادلة والمنصفة ، وفي ظل النظام الديني السليم ، ربما يكون صاحب فضيله ممتازه ، يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل كان فيه قدر كبير من الاستقامة المشوبة بشيء من البساطة المتواضعة ؛ ونحن إذا كنا نرى في ابتسامة العربي ، التي تمتاز بالحلاوة بشكل عام ، شيئا من المزاج البدائي في روح ذلك العربي ، فإن الحاج نجم يعد قديسا من هذه الناحية أيضا . والمرء عندما يفقد ضيق الصدر الصارخ في هؤلاء المغاربة المغامرين ، فإنهم يردون على ذلك قائلين : "يتعين عليك أن تعرف أننا أناس غربيون ، إننا في الشرق مغاربة ." ومعروف أن دماء رجال الجزيرة العربية قد أصابها الاعتدال وبردت نسبيا في العالم الغربي . وفيما يتعلق بطول القامة ، وحدة الذهن ، ترى أن المغاربة يتفوقون في هذين الأمرين على سكان شبه الجزيرة القديمة ، الذين كانوا قصار القامة . ونحن حتى عندما نقارن هؤلاء المغاربة مع أهل القصيم الذي يتسمون بالجد والمثابرة ، نجد أنهم أفضل ، من منطلق أنهم غربيون ، من سكان الشرق الذين هم أقل جداً ومثابرة . هؤلاء المغاربة أصحاب القرارات المدروسة ، والذين لديهم شيء من العبقرية المدنية ، والاجتهاد الصادق ، والذين يتجمعون مع بعضهم البعض بطريقة متحضرة ، قادرين على تمرير وتحقيق المشروعات الجديدة . ولما كان هؤلاء المغاربة من أهل الغرب فإن لهم عقولاً نافذة ولاذعة في نفس الوقت وعيبهم الوحيد أنهم ليسوا

كرماء . والمغاربة شأنهم شأن العرب جميعهم ، مولودين تحت نجوم جوالة : هذا يعنى أنه هؤلاء المغاربة أوفر جهداً ونشاطا من أهل الجزيرة العربية نفسها . وفلاح الجزيرة العربية ، أقل صبرا على العمل من المغاربة ، كما يسهل إحباطه والتقليل من عزيمته ؛ أما فيما يتعلق بالبدوى خاوى الجسم ، فنفسه قصير جداً ، إضافة إلى أن هذا البدوى يعود إلى حالة من التأمل الذهنى بعد ما يبذل شيئا من الجهد ؛ بل إن مثل هذا الجهد يجعل مثل هذا الرجل يبتعد عن كل هموم الدنيا من حوله . ويبدو أن تغييرا مماثلا ، يحدث فى سلالات خيول الجزيرة العربية ، التى يمكن تربيتها فى الغرب على نحو يجعلها أشجع وأثمن مما هى عليه .

مرت الأيام التى تلت ذلك بأمن وسلام ؛ فقد ذهب محمد إلى أمه البدوية ، لاستنشاق الهواء المنعش مع ولاد على فترة من الوقت . كان محمد ، فى الأيام الأخيرة قد دفع الصداق ، واتخذ فتاة من جهينة زوجة له ، ولكن حتى هذه الزوجة لم تستطع البقاء أو العيش مع عريسها المنحوس ، نظرا لأن ذلك الجبان قام بضربها : كانت تلك الزوجه قد هربت وشردت فى الصحراء ذات صباح وقطعت مسافة عشرة أميال عائدة إلى قرية ولاد على ، أو إن شئت فقل قرية العلا . هذه البنت البدوية ، التى كانت محبوسة داخل القلعة بين الغرباء القساة ، والتى كانت تشعر بالحنين إلى موطنها جاءتنى ذات مرة لتسألنى ببساطة البنات وسذاجتهن ، "ما إذا كنت يمكن أن أتزوجها إذا ما طلقها زوجها وأخلى سبيلها ." كان قد مضى علىَّ فى ذلك الوقت ثلاثة أسابيع كنت أقيم خلالها ، فى هذه المرة الثانية ، فى برج من الأبراج الواقعة على طريق الحج ، ولم يبلغنا أن أحداً من العاملين فى قافلة جلب الأرز قد عاد إلى قرية العلا : كنت فى ذلك الوقت قد عقدت العزم على الصعود إلى بلاد (ديرة) المواهيب ، الذين يعيشون فى قسم مستوٍ يقع على مرمى البصر ، فى جبل الحرَّة Harra ؛ ولكن نظرا لخطورة الدروب الصحراوية كلها على من يسافرون أو ينتقلون فرادى ، فلم أجد أحداً على استعداد لمرافقتى فى تلك السفْرة ، أو إن شئت فقل : إلى ديرة المواهيب . ثم وصلتنا أخبار عن (كُفل)(*) Kûfl أى قافلة محمية من بدو الفجير كانت على وشك الذهاب إلى

(*) كُفل Kûfl : المقصود بها القافلة الصغيرة . (المراجع)

قرية الوجه Wejh لجلب الأرز ، وكان قد تقرر لتلك القافلة الفجيرية أن تبدأ رحلتها من الرَّوضة El-Erudda في صباح اليوم التالى ؛ وكان واحد من أصدقائى قد أرسل إلىَّ ناقتى ، عن طريق بعض القبليين الذين يذهبون إلى قرية العلا للتسوق ، على أمل أن أعود بصحبة أولئك الذين أحضروا لى الناقة . وزعت بعض الهدايا الصغيرة ، وعثرت بين أشيائى على ثوب دمشقى جديد أعطيته للحاج نجم : هذا الرجل العجوز كان قد طلب منى أن أضع على ناقتى تلك الحَكَمَة Headstall هى واللجام المرح ، اللذان تناولتهما يداه من يدى رجل من قبيلة الشُّمَّر ؛ وعندما جاء الرجال فى المساء ، قمت ورحلت معهم .

كانت حرارة الشمس الحارقة قد تغاضت عن الدنيا ، وواصلنا نزولنا خلال ظلال الليل الهادئ ، خلال أطراف الجبال المكونة من الحجر الرملى ، فى المنطقة الواقعة خلف سهل الوادى فى قرية الحجر . وواصلنا مسيرنا على امتداد ساعات الليل الطويلة بينما كان الآخرون نياما فى بيوتهم وخيامهم ؛ كان الهواء أكثر برودة وهو يهب علينا قادما من الأراضى المرتفعة ، كلما توغلنا فى جوف الليل . وعندما بدأ شروق الشمس نزلنا عن دوابنا وشببنا نارا لتدفئة أنفسنا . وبعد مسير ساعتين أخريين ، بدأت تطالعنا بشائر ماشية البدو الرحل التى كانت فى المراعى ؛ هذا هو راع جلف ، يصيح عندما يرانى قائلا : "كيف حالكم الآن ، أيها الرفاق ! ومن أين جئتمّ بهذا الدولانى؟"(*) ردوا على ذلك الراعى قائلين : "إنه منكم ، وهذا هو خليل ." كان بدو الفجير يقيمون حول الرَّوضة El-Erudda . فى تلك الروضة ، حفر الناس كثيرا من حفر الماء ، التى يصل عمق الواحدة منها إلى قامة الرجل ، فى الأرض الرملية ، وقاموا بتبطين تلك الحفر ببعض من الأحجار البرية القديمة . والماء فى تلك الحفر ، الذى يناسب النوق ، لا ينقص مطلقا فى تلك الحفر .

واصلنا مسيرنا إلى مَنزْل زيد ، الذى لم نجد فيه سوى محسن وحده ، الذى جاء ليساعدنى على النزول من فوق ناقتى . تفرق عنى أولئك الذين كانوا يرافقونى فى الطريق ، أما أنا فيتعين علىّ مواصلة المسير إلى خيمة الشيخ مطلق ، التى كانت تبعد

(*) المقصود "بالدولانى" Dowlâny هنا "واحد من أتباع أو رعايا الإمبراطورية العثمانية" (المترجم)

عنى مسير ساعة أخرى . وقد أرشدتنى على الطريق المؤدى إلى خيمة الشيخ مطلق امرأة زنجية محررة ، كانت ترافقنا فى رحلة العودة ، كما كانت أيضا من منزل رحيل Rahÿel؛ هذه المرأة تقدمتنى وهى تسير على الرمل الذى سرعان ما بدأ يسخن ، وكانت تمسك لجام الناقة بيدها ، وهى تعبر عن ضيقها بالتأخير الذى أتسبب لها أنا فيه ، - أنا لا أستطيع القيادة لأنى مرهق - وفى كل خطوة كانت تلك المرأة تجذب حكمة ناقتى مستحثة إياها على إسراع الخطى . بعض العباءات التى تلبسها هؤلاء النساء تكون مفتوحة من الجانبين كما لو كانت قميصا صنع من القماش ، يدخل من يلبسه رأسه فى وسط فتحة موجودة فى المنتصف ؛ هذا الرداء الذى لا يتعلق إلا من عند العنق فقط ، تَلُمُّ البدوية أطرافه تحت ذراعيها ، وبالتالى لا يظهر أى شىء من أجسادهن بالرغم من تحركهن بسرعة . ولكن أثناء ارتباك تلك الزنجية فى حديثها وانشغالها به ، وأثناء أنين الناقة التى كانت تقاوم استحثاث تلك الزنجية لها ، فى غضون ذلك كله ، ضاع تركيزها ، وهبت نسمة ريح شديدة وكشفت ذلك الرداء الصيفى من فوق عنق تلك المرأة الزنجية ؛ هؤلاء النساء الزنجيات لا يضعن أى شىء آخر على أجسادهن غير وشاح يشبه الدانتيل مصنوع من الجلد المضفَّر . هذه الأطراف الزنجية كانت رشيقة ، وتلمع فى ضوء حرارة الشمس ، وبالرغم أيضا من سبيكة دم هذه المرأة الإفريقية ، إلا أنها كانت متناسقة القوام ، الأمر الذى جعلها تبدو كما لو كانت تمثالا من البرونز . وعلى الفور ، أعادت الثوب إلى مكانه فوق جسمها ، واستدارت إلى بنظرات كانت تنم عن فهم ما إذا كنت قد سخرت منها أم لا ؛ ولكنها عندما عرفت وتأكدت أن الكافر لم يبالى أثناء ركوبه على دابته ، بأى أمر من تلك الأمور ، خفت حدة وسلاطة لسانها : بل إنها أصبحت تعول كثيرا على نيتى الحسنة ، إلى حد أن الأمر كان يبعث على المرح والضحك فى خيام الأعراب ؛ واعتبارا من ذلك الوقت كانت تلك الزنجية تتحرك دوما بين أسواق القرى ، الأمر الذى تصادف أن يجمعنا ببعضنا مرات عدة أخرى .

عندما اقتربنا من خيمة الشيخ مطلق ، كانت القافلة كلها قد بدأت تتحرك بالفعل ، تلك القافلة التى سبق أن علمنا أنها سوف تتحرك فى صبيحة الغد : كنت أنا بدورى أتطلع إلى قضاء نهار اليوم كله فى نيل قسط من الراحة فى هذا المكان ، وكنت على

قناعة بأنى كان لا يمكن لى التحرك راكبا ناقتى حتى ولو لساعة واحدة بعد ذلك ،- ومع ذلك كانت رحلتى ما تزال فى بدايتها . وهنا لم أعد أرى من الكفل Kûfl (القافلة) سوى القسم الأخير من دوابها . "قال العرب : عجّل وسرِّع خطواك ، إن كنت تريد اللحاق بهم ." - قال مطلق : "لقد تأخرت ، ولكن يمكن لك أن تلحق بهم ." وهنا خرج الرجال يجرون من الخيام المجاورة ، وهم يمدون أيديهم للقادم الجديد علهم يحصلون منه على شيء من التبغ ؛ ولكن بالرغم من احتياجى الشديد ، لم أتمكن من إقناع أى واحد منهم بإعطائى قليلا من اللبن كى أشربه . والعرب فى مثل هذا الظرف يتسمون بالبخل ، بل إنهم يميلون إلى أن يزيد ذلك عبئا على أعبائك . وهنا وجهت كلامى للشيخ مطلق ، الذى لاحظ معنوياتى المتدنية ، سائلا إياه : "كم من الوقت ستستغرق هذه الرحلة منا اليوم ؟" - "سوف ينزلون عن دوابهم عند الظهيرة ، أو قبيل دخول العصر ؛ هيا ، امض قدما !" - ولكن هذه هى وعود البدو الخادعة التى يحمِّلونها . قفز مطلق فوق ظهر فرسه العارى ، وراح يستحثها وهو يمسك بالحكمة Headstall واللجام ، ولكن الشكيمة غير معروفة فى هذه الصحراء. "(قالت لى الأصوات الصديقة التى كانت تتحلق حولى) انتبه فالشيخ يسير أمامك، استحث ناقتك ، وإلا سوف يخلِّفونك وراءهم ؛ لقد سبقك الشيخ كى يوصيهم بك خيرا ، وسوف يلزم ولد شيخ البلِّى Billy (الذى يتولى قيادة القافلة) بأمنك وسلامتك ." وعندما نهضت ولحقت بالقافلة أعطانى الشيخ مطلق تسليما Teslím ، بمعنى سلَّمَنى على سبيل الأمانة ، لقائد القافلة البلِّى الشاب . عند هذا الحد ،.أصبح يتعين علىَّ قطع مسافة مائة وخمسين ميلا ، بلا توقف لنيل قسط من الراحة ، فى جو حار وخانق ؛ إضافة إلى أن حياتى الضعيفة كانت على شفتى . كنت أحاول ، ، من حين لآخر ، المحافظة على اتزانى فوق السرج : ومن باب العلم بالشيء ، فأنا عندما غادرت مدائن صالح لم يكن معى أى شيء من الماء ، فضلا عن أنى لم يكن معى حتى ولو أوقية واحدة من الطعام . هذا هو يوم خانق الحرارة ساكن الريح يهل علينا من جديد . وبعد مسير ساعتين ، وقفت القافلة عند سقيا هى عبارة عن بعض حفر ضحلة يحصل الناس منها على الماء ، كانت تلك الحفر الضحلة مبطنة بأحجار برية كما هو الحال فى آبار ، أو إن شئت فقل : حفر الروضة El-Erudda . لم أتعرف سوى على وجهين أو ثلاثة وجوه من بين كل هؤلاء الذين كانوا يسافرون مع

تلك القافلة ، وقد وجدت أصحاب هذه الوجوه مصطفين إلى جوار بعضهم البعض : هؤلاء الثلاثة ، هم في الأغلب الأعم من الخمالة Khamâla ، الذين بالرغم من كونهم جماعة مطرودة من بدو الفجير ، يشكلون نوعا وقحا من عامة الناس ، الذين يعيشون منعزلين عن الشيوخ ، ولا يحضرون مجالس الشيوخ في معظم الأحيان .- كم كان هذا الهواء خانقا! وهنا نزلت عن دابتي عندما كانوا مستعدين لاستئناف المسير من جديد ، ورحت أضع رأسي وأغمره بالماء المتبقي في الوعاء الذي تشرب منه الدواب ؛ ولكن السقاء النذل كان يمنعني من ذلك وهو يقول : "لا ! إنه يخاف الله ويخشاه ! " ورفع ذلك النذل الوعاء ، وسكب الماء على الأرض ، وهو يصيح ، وقد ظهرت في عينيه بوادر تعصبه وتشدده ، "أيتعيَّن عليه أن يجلب الماء لنصراني ، واحد من أولئك الذين لعنهم الله ؟ وهل كانت الشمس حارة في ذلك اليوم ، وبالتالي أغُمى عليَّ ؟ إنه يتمنى ويدعو الله أن أموت أيضا ."

كنا قد قطعنا مسافه قصيرة في تلك الأرض الجرداء ، وعلى أثرها سمعنا لسانين شرسين لامرأتين بدويتين شابتين سليطتين كانتا معنا في القافلة ؛ كانت هاتان البدويتان تصرخان فزعا في الرجال وهما تقولان : "أنظروا ، أيها الصبية ، أليس هذا هو الكافر يركب معنا ؟ ألن تقطعوا عنقه أثناء الطريق ؟" وعلى الفور ، لعنتهما لعنة بدوية ، غير أن الأمر لم يكن يستدعي ذلك ؛ وهنا رد على أولئك الذين كانوا يسيرون بجواري قائلين : "إنه ولد أخينا ." والسبب في ذلك أني كنت قد نزلت ضيفا على بعض رجال القبيلة. ثم بدأ يطالعنا مرة أخرى جدار جبلي أسود اللون ليس من صنع البشر، وإنما هو جزء من أرض الحرة، يقف ويتحمل السماء الحارقة منذ أزمان كثيرة قبلنا! - وقررت القافلة (الكُفْل) ألا تتوقف ، إلا بعد الوصول إلى ذلك الجدار ، سواء أكانوا أحياء أم أمواتا . وهنا هبطت القافلة التي كانت تسير في طابور واحد لتعبر السهل الأجوف ، الموجود عند سطح تلك الصخور الحدودية الوعرة ، التي يطلق عليها أفراد القافلة اسم شوك Shuk العجوز el-Ajûz ، في حين يطلق البدو عليها اسم الأجُرَّة el-Agorra . كنا نسير خلال هواء خانق جاف يقولون له "الحمو" el-Hummu، التي هي عاصفة من أشعة الشمس التي تحرق الجلد ، وتجفف مقلة العين ، بفعل الوميض الذي يجيء منعكسا من الرمال . يا لبطئ الشمس الصيفية المستعرة وهي تصنع قوسا

كبيرا عند الغروب ، وعندها تبدأ ظلال صخور الحرة في سترنا من فوق رءوسنا ! بعد أن تقشر جلد رءوسنا ، ورقابنا ، ووجوهنا ، وأنقاننا وأقدامنا ؛ ركبت دابتي وأنا في شبه غيبوبة ، وشبه محروق . كنت في بعض الأحيان أسمع الأصوات الغريبة التي كانت تحدثها القراب التي كانوا يحملون فيها ماءهم ، وطلبت من بعضهم أن يصبوا لي قليلا من الماء ، ولكنهم أنكروا عليّ ذلك ، ولم يعطوني شيئا منه . كان هناك شخص آخر ، سمعني وأنا أطلب الماء ، فرق لحالي وأعطاني الماء وهو كاره ؛ ورفعت كوز الماء الذي أعطاني إياه إلى شفتي ، ولكني لم أستطع أن أبتلع منه ولو جرعة واحدة بفعل جفاف حلقي نتيجه للحرارة الشديدة . وعندما رأى ذلك الشخص أنني رشفت رشفه واحدة ، وهو يتناول مني الكوز ، قام بإلقاء الماء المتبقي على الرمل ، لأنه قال : "من ذا الذي يمكن أن يشرب بعد نصراني!" كانت قراب الماء الكبيرة مملوءة عن آخرها بالماء ، إضافة إلى أنهم سيصلون إلى سقيا جديدة على الطريق ، في مثل هذه الساعة من يوم الغد . صحيح أن كرمهم في بيوتهم يستثير الود ؛ ولكن عندما يكون الإنسان سائرا معهم في طريق واحد ، قد يجدهم يتصرفون تصرف الأعداء : ومع ذلك ، هناك من بينهم بعض الرجال الأشراف الطيبين ، الذين تبدو عليهم طيبتهم في كل وقت وحين ، وتحت مختلف الظروف والأحوال . وصلنا الحرة في ساعة متأخرة : وفي الحرة دخلنا في فلق من الحجر الرملي في الجبل ، هو الذي راح يحمينا من عين الشمس الحارقة . كان قاع ذلك الفلق تتناثر فوقه مجموعات كبيرة من الحجر الخفّاف ، المختلط بأعداد كبيرة من الأحجار البركانية المكسرة ، وبعض الكتل البازلتية . صعدنا بعد ذلك مكانا منحدرا من الانجرافات الرملية ، التي كانت في الصخور التحتية للجبل (المكون دائما من الحجر الرملي) : وهنا نزل البدو عن دوابهم حتى تتمكن من صعود ذلك المنحدر . ونزلت عن ناقتي ، وركبت فوق جمل مستأجر . وهنا طلب إليّ أصحاب الجمل النزول عنه؛ ولكنهم عندما وقفوا على ضعف حالي وعدم قدرتي على الصعود لم يصروا على ذلك ؛ والعرب نراهم لطفاء وإنسانيين ، عندما تستعمل أي شيء من أشيائهم . " (سألت واحداً منهم) لماذا تمشي هكذا أثناء حرارة النهار ولا تفعل الشيء نفسه في ظلال الليل ، موفرا على نفسك قوتك ، من ناحية ، وإبلك من الناحية الأخرى ؟" – "صادق ، صادق ، ولكن ما فعلته كان هو الأفضل ؛ ولكن اسمع يا خليل ، آه ، من

البدو ! إنهم جميعا عفنين (بمعنى فاسدين إلى حد العفن)، وأن كل ما يفعلونه ، لن يكون له أي نفع أو فائدة ."

عندما اتسعت الظلال أفقت قليلا من ذلك الإرهاق الموجع الذى لقيته على الطريق، الذى يمثل موات طويل بلا وفاة ، فقد خرجت لى مصيبة أو بلوى جديدة من شىء صغير . وصلت إلينا ونحن راكبين بنت ، أمها هى التى كنت استأجرت منها جملا ؛ وبالرغم من أن وجه هذه الفتاه كان أجمل الوجوه فى الجماعة التى تنتمى إليها ، لم يكن أى شىء فيها يدل على عذريتها سوى القناع التى كانت ترتديه : هذه البنت الشقية راحت تطاردنى ، طوال الرحلة ، كما لو كانت شخصا من الأشخاص الذين يخالفون إشارات المرور بعبارات من قبيل "هو ! يا كافر ، آها ! يا نصرانى ! هذا رجل يهودى ." كان البدو الذين يسيرون بدوابهم إلى جوارى أكثر حقدا وخبثا ، ولم يتعاطف معى أحد منهم ، بل إن أحداً منهم لم يكلف نفسه زجر تلك البنت أو إيقافها عند حدودها . بدأ ضوء النهار يخبو ، وأخيرا غربت الشمس علينا فى تلك الأرض القاحلة الجرداء . وهنا أوقف العرب دوابهم فى مكان مستور ؛ وهنا بركت الجمال من تحتهم ، بل ونزلنا نحن جميعا من دوابنا لتمضية الليل . كنت قد ركبت ناقتى فى مساء أمس فى هذا الموعد تقريبا ، واستمر ذلك الركوب طوال ليلة من ليالى الصيف ونهار طويل من نهاراته ، ولم يدخل ، خلال هذه الفترة ، طعام فى جوفى ولم أنل أى قسط من الراحة إلى الآن. ومعروف أن الليل هو أحلى الراحات من ضوء الشمس ومن حرارتها: كان هواء الجبل يهب علينا ، ونزلت من فوق ناقتى ، وأنا غير متمالك لنفسى فى واقع الأمر ، ولكنى كنت أبدو كما لو كنت مستيقظا من نوم غير عميق . ومعروف أن ظهر الناقة أو الجمل لا يكون مريحا : ولكن ماذا يفعل الإنسان لنشوز الطبيعة ، وفى حقد البشر ، وعدم عدالة الأديان ، لقد كنت أتمنى ألا تمر بى تلك الأيام مرة أخرى فى أى جزء من أجزاء العالم ، – إذ لوحدث ذلك سيكون معاناة جهنمية .

استدعيت ، فى ضوء النجوم ، تلك البنت الشرسة ، التى كانت قد نزلت عن دابتها هى وأخيها فى مكان قريب من المكان الذى نزلت أنا فيه ، ثم وضعت فى يدها هدية من التُّتُن (الدخان) لتعطيها لأمها (الشلق الشقية) . قلت لهذه البنت : "أنت ذئبة صغيرة وجميلة ؛ ولكن قربى منى يا حبيبتى ، لقد سامحتك فيما قلتيه ؛ ستكونين فى الغد

عروساً لي ؟" - "هذا كلام حسن (قالت هذه الصبية البدوية المسكينة) وكانت مستعدة "لتأخذني" ؛ وهي على استعداد لخدمتي طوال الرحلة ، وتتبعني إلى بلادي البعيدة ، وأن لا تسبب لي أي شيء من الضيق أو القلق بكلامها الموجع ، وكان طلبها الوحيد ، أن أقطع على نفسي وعداً بعدم التخلي عنها ." وعن طريق هذه الطرفة البدوية الخفيفة استطعت تجنيب نفسي لسان هذه الفتاة السليط طوال اليوم التالي . وهنا حل الليل علينا ، وتجمع العرب المسافرون حول نيران الخفارة ، في حين جلست أنا إلى جوار خُرجي كي أنال قسطا من الراحة. مر بنا بعد ذلك، رجلان كانا عائدين إلى مكانيهما ، وسمعتهما جيداً عندما كان أحدهما يقول للآخر : "ها هو الكافر جالس !" وردَّ عليه زميله قائلاً : "انتبه ، إنه لن يحتاج سوى ضربة واحدة بالسيف ، ثم يحصل من يفعل ذلك ، على كل هذا الخير (أمتعتي بطبيعة الحال) ." - تعرفت صوت المتكلم الأخير ؛ إنه ولد شيخ البلِّي المحترم ، الذي كان يصاحبنا في القافلة رفيقا لي ، إلى والده . ومع طلوع نهار اليوم الجديد ، قَيضَّ العرب خيامهمْ على وجه السرعة . وكنت خلال الليل قد اتفقت على إيجار الجمل ؛ ولكن هاهم أصحاب ذلك الجمل ينكرون عليَّ ذلك الإيجار ، متمثلين في ذلك بمثل (ربما كان واحداً من أمثال أهل الجزيرة العربية ، يبيح لهم التماس العذر في مثل هذه المناسبة ، طالما أنهم لا يشربون النبيذ ،) . يقول المثل : "الوعود التي تقطع أثناء الليل ، ليست ملزمة عند طلوع النهار ."(*)

يتعين عليَّ حزم أمتعتي وتحميلها على ناقتي الكديش استعداداً لعبور الحَّرة . ذلك أن القسم الرئيسي من القافلة ، كان قد رحل بالفعل : يضاف إلى ذلك أن تلك البقيه الباقية حوليَ من البشر راحت تهدد بالتخلي عني ؛ ولكن البعض منهم نزلوا من فوق دوابهم لمساعدة الغريب عندما وجدوا أنني لا أستطيع وحدي تحميل أمتعتي كلها . وبعد مسير ساعة تخلوا لي بمحض إرادتهم عن الجمل وأعطوني إياه مرة ثانية ! وهنا بدأنا نسير في ممرات وعرة منحدرة داخل الجبل . : وواصلنا المسير بين الطلوع والنزول كل نصف ساعة إلى أن دخل علينا وقت الظهيرة ، كل ذلك ونحن نسير بين صخور البازلت وثنيات مشققة من جبل الحرَّة ، ومع كل ذلك كنا نواصل الصعود بين

(*) هذا هو المثل العام المصري الذي يقول : "كلام الليل مدهون بزبدة ، يطلع عليه النهار يسيح". (المترجم)

هذه الصخور . كل ما يحيط بنا عبارة عن خلاء (صحراء) لونها يشبه لون الحديد ؛ الأرض هنا تشبه (بلاجا) لامعا من الأحجار البركانية الساخنة. هذه قلة قليلة من سيقان نبات الشيح الرومي خضراء اللون ، يراها الناظر إليها وقد نبتت على الرفوف البركانية الحارة، وتفوح منها رائحه طيبة في ضوء الشمس: هذا الشيح تجمعه الحريم ويجففنه، ليعطي نكهة حريفة ؛ وهم يخلطون قليلا من ذلك الشيح مع اللبن والمريسى . والقيعان البركانية العميقة عامرة بأشجار الطرفاء ، كما شاهدت على جوانب مجرى السيل الحجرية بعض البيارات الخضراء العامرة بأشجار السنط الصحراوية . ومن بين الأشجار الخشبية الأخرى ، هناك قلة قليلة من تلك الأشجار تنمو في هذه الحرّة ؛ وقد شاهدت عكاكيز البدو الذين اقتطعوها من تلك الأشجار . كان البعض من بدو الفهجات الفقراء يفتشون عن أدغال أشواك السنط كلما مررنا بها ، بحثنا عن قطرات الصمغ العربي الصافية ، هي وزهور أشجار الصمغ التي يميل لونها إلى الابيضاض ؛ وهم يقولون ، إن الناس في بلدة الوجه يدفعون ست بنسات عن كل زجاجة من الصمغ .

والجمال طويلة الأعناق ، تلقف ، ونحن فوق ظهورها ، تلك الأغصان الشوكية التي تشبه أوراقها أوراق نبات الست المستحية ، أو إن شئت فقل : ذلك النبات المزهر من فصيلة السنطيات . والعجيب في الأمر أن تلك الأشواك الحادة لا تؤذي ذلك البلعوم الطويل الطري! - هذه الأشواك قادرة على الانغراس فورا في نعالهم الجلدية السميكة، مسببة جرحا قاسيا في أقدام البدو الحافية ؛ ولقد رأيت بعيني بعض البدو الذين لزموا فراش المرض فترة طويلة بفعل أحداث من هذا القبيل . وعندما سألت بعض البدو ، عن هذا الأمر : "أجابوني ، أن الدنيا مليئة بالمعجزات الإلهية ! وأن الله قد يسر المخلوقات كل لما خُلق له . ومع ذلك ، إذا ما فحص إمرؤ أي جمل من الداخل بعد ذبحه ، سيجد مادة جلدية ، لينه ولكنها عميقة بقدر طول إصبع واحد ، علاوة على إنها سميكة على نحو يستحيل معه على أية شوكة أن تخترقها بسهولة ." ورعاة الماعز من البدو يحمل كل واحد منهم منقارا ، يستعمله في الأماكن التي توجد فيها أشجار السنط ، ليسحب الأغصان التحتية ليقربها من القطيع الذي يرعاه ، ولصغار الماعز بصفة خاصة . ومن يسير في الصحراء يشاهد أشجار الطلح ، التي تتدلى مشوهة ؛ يضاف إلى ذلك أن تراب الصحراء يكون مدهوسا حول أدغال شجيرات نبات الست المستحية الشوكي ،

بأقدام الحيوانات البرية الجميلة مثل الغزال . وشجرة نبات الست المستحية، التي يقول البدو عنها ، إنها سريعة النمو ، يندر أن تتحول إلى أخشاب . وعرف شجرة الطلح المنتشر لا يشكل غطاء جيداً أو واقيا ، لأنه عبارة عن شبكة من الأخشاب والأشواك الضعيفة يميل لونها إلى الاخضرار ، كما أن أوراق هذه الشبكة غير كثيفة وصغيرة الحجم؛ هذه الشجرة هي وأشواكها القديمة تلقى شكلا من أشكال العتمة غير الكثيفة ، ليبدو كما لو كان ظلا، على الأرض الجرداء المتوهجة. أشجار السنط في هذه الصحراء تنشر في الهواء رائحة طيبة صحية يحسها الناس بشيء من الصعوبة ؛ وزهور هذه الأشجار التي يميل لونها إلى الاصفرار، يشاهدها الناس في منتصف شهور الصيف، كما يشاهدون أيضا الأغصان المعقوفة قبل حلول فصل الصيف . وفي وادى Wady تربة Thirba اكتشفت أو عثرت على واحدة من هذه الأشجار وقد امتلأت بطنين النحل الصحراوى (الذى يقول له البدو "الذُّبَّة athubba")، كما لو كان ينبغث من الشجرة عطر ضعيف ، مثل ذلك العبق الجميل الذى ينبعث من البساتين المزهرة . مضغ أوراق السنط ، التي لها طعم مستساغ وجيلاتيني إلى حد ما ، ينعش الفم الجاف ؛ والعرب يقولون : إن الصمغ جيد جداً ومرطب إذا ما أكله الإنسان . هؤلاء هم بعض من بدو الفهجات ، الذين كانوا يرافقون الكُفل (القافلة) سوف يبقون في المَنزَل القادم من منازل البلِّى بحثا عن جذور الإرن er'n في جانب الجبل المواجه لتهامة . والإرن er'n الذى هو عبارة عن كعب مفضَّن من كتل الخشب يشبه جذر شجرة الخلبغ . وأنا لم أعثر على هذا النبات ، ولم أرَ أى نوع شبيه به في الجزيرة العربية . وشرائح هذا النبات ينقعها البدو في الماء ليستعملوها في دباغة الجلود ، ولونها يشبه لون شجرة الأرز . والبدو يضعون الجلد الخام في ماء الإرن مدة يومين أو ثلاثة ؛ ومع ذلك لا يدبغ الجلد تماما ، ويترتب على ذلك ، إذا ما استعمل مثل هذا الجلد ليكون قربة من قراب الماء ، أن يتعفن بعد فترة من الوقت ؛ وعند تقطيع مثل هذا الجلد يجب دبغه من جديد : ومعروف أن قراب الماء فاسدة إلى الحد الذى يجعلها تتلف الماء الموجود بداخلها . وكل عقدة من عقد خشب الإرن ، الذى يدخل في مهام كل بدوى وكل ربة بيت بدوية أيضا ، تباع بما قيمته ريال واحد في قرية تيماء .

طوال تجوال ذلك اليوم بطوله خلال الحرّة لم نر ذلك الصخر الرملي أبيضا في أي مكان ، ولكن كان يغطيه وعاء هائل من الصخور البركانية البازلتية . تجاوزنا في البداية وبعد الظهر بقليل تلك المنصة البركانية المرتفعة من الجبل ، بعد أن لاقينا الكثير من المتاعب بسبب سرعة الإبل أثناء عملية التسلق أو الصعود . وهذا هو على مرمى البصر سهل من الزلط البركاني الأسود ، وترتفع خلال ذلك السهل مخروطات فردية سوداء اللون ، لكل واحد منها عرفان على شكل توأم ؛ [هذه الأعراف كانت عبارة عن فوهات براكين ، أو إن شئت فقل : تلالا بركانية ؛ وفي تلك المخروطات تكسرت تلك الفوهات البركانية ونزلت إلى جانب الجبل ، وذلك بفعل الحمم البركانية المتدفقة من ناحية والحرارة الشديدة الناتجة عن الانفجار من الناحية الأخرى] . ومبلغ علمي أنني رأيت في كل ذلك الأشكال القديمة للتلال البركانية . كانت حرارة نهار الصيف معتدلة في سائر أنحاء الحرة على اختلاف ارتفاعاتها ، إذ كان المكان الذي نحن فيه على ارتفاع حوالي ٥٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر : كانت ندرة الهواء ملجأ لنا من حرارة الشمس الشديدة ، التي بدأت تسطع فوق رءوسنا على نحو فيه شيء من الرحمة والود . وبدأنا نستشعر نسمة خفيفة في الأجزاء المرتفعة ؛ وهذا الجزء المرتفع من الجبل يهب عليه تيار فاتر من الهواء . وفي بعض المواضع من التربة البركانية ، نشاهد تربة غرينية يميل لونها إلى الاصفرار ؛ هذه التربة موجودة تحت الأحجار السائبة ، التي ربما كانت أحجارا طباشيرية محروقة ، التي تقع على شكل طبقات أو مستويات قليلة من فوق الحجر الرملي القديم في هذه الحرَّة ؛ وقد اكتشفت أن تلك الطبقات القليلة أو المستويات قد تحولت إلى مُغرة بفعل الحمم البركانية القديمة . الحرَّة التي من هذا القبيل تكون في معظم الأحيان ، عبارة عن حوض وضفاف شاسعة من الكتل البازلتية التي يميل لونها إلى الزرقة ، كما يغلب الصدأ على تلك الكتل أيضا . هذه الكتل المكونة من مادة عنيدة ، مثل الحديد ، تكون مثل المعادن : وهي عندما تتعرض منذ أزل بعيد للرياح الصحراوية المحملة بالرمال ، يراها الناظر إليها مصقولة وتلمع في ضوء الشمس . هذه الحرَّة يصعب اجتيازها من خارج الممرات ، على الإبل التي لا تكون مولودة أو مرباه في مكان غير الحرة ؛ وصعوبة الاجتياز ترجع إلى تلك الأحجار التي تشكل عقبة كبيرة من ناحية ، وإلى الصخور البركانية الحادة من الناحية

الأخرى . هذه الأحجار الثقيلة التى تنزلق وتسقط إلى طريق السير ، تؤدى فى أغلب الأحيان إلى تورم أقدام الرعاة وإصابتها بالجروح والكسور ؛ ونظرا لأن هذه الأحجار تكون مثل الفحم المشتعل أثناء شمس الصيف ، فإن البدو يجلسون طوال النهار على أكفال إبلهم التى ترعى العشب .

هذه القحولة التيتانية ، التى تبدو لأعيننا غير قادرة على تحمل الحياة ، هى أرض وديرة جيدة ، بل إنها تعد تراثا وميراثا لأبى Abu شامة Shamah المواهيبى الجرىء . هذا الهواء المعتدل الموجود فى هذه المنطقة العالية هو هواء صحى ، والمواهيب لديهم ما يكفيهم من الماشية ، يضاف إلى ذلك أن متسلقى الجبال هؤلاء هم بدو نوى أجسام قوية ، كما أن فهمهم وتفهمهم فيه من الوقاحة أكثر مما فى فهم أولئك البدو الذين رأيتهم فى السهول المحيطة بأولئك المواهيب . وماشية هؤلاء المواهيب الصغيرة يندر أن يسرقها أحد من هذه الديرة البركانية الوعرة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن حليب القطعان أندر من الندرة بين هؤلاء القوم ، ومعروف أن الحليب هو بمثابة الصحة والثروة عند البدو الرحل الفقراء . وعندما جاء شيخ المواهيب المتين لزيارة بدو الفجير ، فى أواخر هذا الصيف فى قرية الحجر ، قام زيد ، على إثر الترحيب البدوى المعروف ، بطلب الكلمة من المجلس ووجه حديثه للزائر قائلا : "يا طُلُّق Tollog، أنت رايات الحرّة" بمعنى "مرحبا يا طلُّق ، يا سيد الحرّة !" وفى المكان الذى عثرنا فيه على القطيع أثناء مسيرنا ، توقعنا لقاءنا بعد فترة قصيرة مع أولئك الأعراب الطيبين ، وقضاء الليل معهم فى منْزلهم .

واصلنا مسيرنا راكبين دوابنا فى الطريق الجبلى مارين بأنقاض بعض الجدران المبنية من الصخور ؛ هذه الجدران عبارة عن نباتات بسيطة ، ومسورات صغيرة ، مثل تلك المسورات الصغيرة التى يبنيها الرعاة حاليا ليضعوا فيها حملانهم الصغيرة ، (حماية لهم من ذئاب الليل) فى الجبال السورية : وبجوار هذه المسورات الصغيرة توجد الزنازين الصغيره التى يمكن اعتبارها نوع من القبور التى تنشأ فوق سطح الأرض. هناك أيضا زنازين ضيقة أخرى يجمعها أخدود واحد ولها باب واحد أيضا: - وقد شاهدت بعضا من هذه الزنازين التى أقامها الصيادون فى صحراء سيناء ؛ وقد قالوا لى إن تلك الزنازين ليست سوى فخاخا لاصطياد النمور leopard ،

كما يستخدمونها أيضا في صيد الحيوانات البرية التي من أكلات اللحوم . – هناك نوع آخر من الزنازين الصغيرة ، التي هي عبارة عن أكوام مبنية دائرية الشكل ، وربما كانت جحورا ، على حد قول الناس عن تلك الزنازين : "هذه الزنازين عبارة عن إشارات ، وهي تحدد موقع الينابيع في الأيام الخوالي ، ولكن يبدو أن المعرفة القديمة قد ضاعت ." وأنا عندما أسأل أي واحد من البدو المسافرين عن هذه الأشياء ، يجيبني بكلام مطلق غير مؤكد ، بل إنه يؤثر ألا يفتح فمه ولو بكلمة واحدة ، في ذلك الجو الحار الخانق ، – أجابني البعض قائلين : "هذه أشياء من العالم السابق ، ومن زمن قبل زمن المسلمين . قل لنا أنت يا خليل ! ألم يبن أجدادك الكفار القدامى هذه الأشياء ؟" وقالت أصوات أخرى : "إنها من بقايا الهلالات Helalát (*). "

وعندما عجزنا عن العثور على المواهيب ، بدأنا النزول من فوق الحرّة مستخدمين في ذلك المسالك الجبلية البازلتية ؛ ثم وصلنا إلى بعض حُفَر الماء ، التي نزل الأعراب عن دوابهم عندها من أجل الارتواء والتزود بالماء ومن أجل جمالهم الصائمة أيضا : وبدون ذلك ، فإن تلك الإبل يمكن أن ترعى الكلأ والعشب ، بعد وقفة المساء ، بعد أن يطلق سراحها في المرعى لمدة ساعة ، والمعروف أن إبل الكُفل (القافلة) تصوم طوال الرحلة كلها : ولكن تعرق تلك الإبل هو الذي يمنعها من الشرب . في بعض الأحيان الأخرى نرى هذا الحيوان الضخم ، الذي يبدو وكأنه يحمل حملا آخرا فوق حمله الكبير ، وهو يبكي ويتأوه ، إذا ما وقعت عليه بمحض الصدفة الخالصة نواة من نويات البلح ، على رأسه بطريق الخطأ من يد راكبه ؛ ولكن الجمل عندما يكون مقهورا أو مضطرا إلى تحمل مكروه كبير ، فهو يمشي إلى نهاية الرحلة في جلد شديد . ومعروف أن الأعراب الذين يسافرون ضمن القوافل لا يحملون معهم غدرانًا لسقيا الدواب أو الإبل ، ولذلك فهم يستعملون مشاعيبهم وكذلك أيديهم في إحداث تجاويف في تلك الأرض الساخنة ؛ ويفرشون تلك التجاويف بالجلود ويروحون يصبون الماء فوق هذه الجلود ، للدواب كي تشرب منه ، وهم يجلبون ذلك الماء (الراكد منذ فترة طويلة) باستخدام دلائهم ، من تلك الآبار الراكدة غير المتجددة . وهنا يقوم كل واحد باقتياد

(*) الهلالات : نسبة إلى بني هلال . (المراجع)

دوابه وهو يقول : "ويهو ! ويهو ! ويهو ! تشجيعا لتلك الدواب على الذهاب للشرب من ذلك الماء ؛ وعندما تبدأ الإبل في التدافع بأعناقها الطويلة ، يطلب منها الوقوف قائلا : وه – هو ! Wôh-hol وه – هو ! wôh-hol " .

في بعض الأحيان كنا نمر على مكان يطلقون عليه اسم "دار الأعراب" ، أو إن شئت فقل: منطقة التخييم القديمة: منطقة التخييم هذه عادة ما تكون قاعا من القيعان، ويكون مستورا ومحميا من الطقس وبعيدا عن أعين الأعداء ؛ والبدو الرحل يقيمون في تلك المنطقة مدة يومين أو ثلاثة أيام كل عام ، أو بمعنى أصح في الموسم المحدد لذلك . هذه الديار هي التي يجرى فيها نقل الأحجار البرية إلى الأجناب ، حيث يمكن إفساح مكان يستطيع البدوى أن ينصب فيه خيمته الصوفية ، كما يفسح مكانا آخرا لترقد فيه الماشية : وهذه الأماكن باقية منذ أجيال طويلة مضت . وعندما بدأت الشمس في الاتجاه نحو الغرب ، كنا قد وصلنا إلى جانب الحرة ، حيث توجد بعض خيام البدو الرّحل؛ هؤلاء الأعراب كانوا من الهروف H'roof، الذين هم سلالة من البليٌ. وطلع علينا بعض الرجال عندما كنا نتجاوز هؤلاء الأعراب ، وراحوا ينادوننا بصوت كرم مصطنع وهم يقولون : "أنزلوا يا قوم ! لدينا المريسى في بيوتنا ، ولدينا أيضا اللبن والسمن ." وذهبت مع أحد المعارف إلى خيمة كانت منصوبة على ضفة صخرية عند جانب مجوف من جانبي مجرى السيل ، ونزلت عند أهل هذه الخيمة وقدمت لهم هدية من التتون (الدخان) . عثرت على ربة البيت الطيبة في المنزل ، وكانت خصلة شعرها الأمامي تبدو كما لو كانت قرنا ، رصعته بحبات من الخرز – وهذه الطريقة الزينية مستعملة في بعض مناطق الشمال الغربي . كانت ربة البيت جالسة ، وهي تخضخض القربة المملوءة بالحليب فوق ركبتيها ، وطلبت منى أن أصبر عليها بعض الشيء ، إلى أن تنتهي من تخليص الزبد من اللبن ، وبعدها يمكن أن تصب لي شيئا أشربه من اللبن المتبقي بعد عملية الخض . كان كلبها البلّي الضخم الذي يستعمل لحراسة الأغنام يتبعها دون نباح (ومعروف أن هذه الكلاب تنبح في أغلب الأحيان إذا ما رأت شخصا غريبا) ؛ واقترب الكلب ليجلس بالقرب منا . عرفت بعد ذلك ، أن تلك المرأة الكريمة ، التي كانت أرملة وحيدة، وكان معها ولدها الذي لا يقل عنها أمانة وصدقا؛ هذه المرأة ، هي وولدها جاءا لقضاء الصيف مع أعرابنا ونصبا خيمتهما بيننا في وادى تربة Thirba.

ومن حافة الحرّة ، كنا نشاهد أمامنا حدود تهامة الوعرة بأرضها المنخفضة عن الحرّة تمتد أمامنا . ومع أول نزول لنا ، بدأت الصخور الرملية تطالعنا من جديد ؛ واسترعى انتباهى منطقة كانت تقف فيها وسادة من الصخر البركانى ، كانت تلك الوسادة متصلبة كما لو كانت موجة مجوفة ، فوق جدار الوادى المكون من الحجر الرملى. وعلى القمة الصخرية التالية شاهدت شرحا حميريا منقوشًا بطريقة غير متقنة. ومع حلول الشفق ، وصلنا إلى مخيم من مخيمات البدو الرحل ، فى السهل السفلى ؛ هؤلاء البدو كانوا فرعا من البلّى أو من فرع السُّحامة Sehamma على وجه الدقة ، وشيخا هؤلاء البدو هم الشيخ مهنا Mahanna هو وعمه فضيل Fodil : وكان قد تقرر أن يقوم مهنا فى الغد بتولى قيادة قافلة الفجير إلى قرية الوجه . وتفرق أعرابنا وانتشروا ، بعضهم ينشد الراحة فى بيوت معارفهم ، وبعض آخر ذهب لينام على الرمل ، نظرا لأن هؤلاء الفقراء المساكين كانوا يخجلون من اصطحاب الضيوف معهم إلى بيوتهم . أما أنا فقد نزلت مع شخص آخر فى خيمة مهنا ، واضطجعت هناك وأنا أعانى الكثير . ولما شخصوا معاناتى على إنها نوع من الاضطراب أحضروا إلى شيئا من اللبن كى أشربه ، ونمت بعد ذلك كما لو كنت ميتا . كان الشيخ البلوى قد استدعانى فى بداية الليل ، إلى خيمته لأجلس معه وأتناول الطعام ؛ رأيت جثة عنزة تتصاعد منها روائح الشواء أمامنا ، فى حفرة واسعة ، وهذه إشارة إلى أن مهنا قد ذبح الذبيحة وجهزها إشارة إلى كرمه . وطلب منى فى ود أن أقترب من الطعام "وأمد يدى" وأخذ من اللحم ، وهو يقول "إنه عمل مخلصا بوصية الشيخ مطلق ؛ كان مهنا سعيدا برؤيتى ." كان مهنا رجلا فى منتصف العمر ، يتسم ببساطة تنم عن نبله ؛ والدراسة العالمية المتعجلة وغير الدقيقة قد تفسر هذه البساطة على إنها نوع من أنواع انعدام اللياقة الذهنية : كان مهنا فى منزله يتجلى فى تصرفاته المرح المشوب بالحزن ، ولكنه كان قائدا شرسا فى الميدان . تزايد ودنا وحبنا إلى أن دخلت علينا أشهر الخريف ، وهو الوقت الذى غادرت فيه ديار هؤلاء القوم . والسُّحامة the Sehamma هم جيران حلفاء للمواهيب ؛ وهناك أفرع أخرى من البلّى ، غير الهروف H'roof هى الجوين el-Güeyin والزُّبَالة Zubbala ، العراضات Aradat ، والوبيسة Wábissa ،

والصـرابطة Sarabata ، والجرايا Graya ، والحريرى Hareyry ، والجروطي Grauty ، والسـويملي Sweymly ، والفـويحي Fueyhy ، والجـمدان Jemdân . هؤلاء البـدو يرون حسب علم الأنساب أن البلِّي Billi هو اسم الجد الأكبر للقبيلة ، وأن أولاده من بعده هم مخاليد M'khâlid وخازام Kh'zâm والأرض التى يتجول فيها البلي تمتد من هذه المنطقة إلى البحر ، أى على امتداد مسير أربع رحلات . وفرع السُّحامة عبارة عن أربعين أسرة : وقد أحصيت فى هذه المنطقة عشرين خيمة قاموا بنصبها .

مع طلوع نهار الغد شجعنى مهنا على ركوب الجمل ، نظرا لأن كفلنا كان على وشك التحرك ؛ ولكنى رددت عليه بأنه يتحتم عليه أن يتركنى لحالى فأنا لا أقوى على التحرك أكثر من ذلك . وأنا طوال هذه الأسابيع الأخيرة من الحرارة والجفاف لم أذق شيئا سوى الماء ؛ كانت مسألة تنفسى رياح السموم فى تهامة تشكل لى عبئا ثقيلا : وأنا يتعين على أن أتجاوز ، بشىء من القلق ، البقية الباقية من تلك الديرة ذات الأرض الوعرة المنخفضة ، فى ضوء الشمس الحارق ، فوق ظهور جمل بطىء الخطى ، أكاد أسقط من فوق سرجه ، أو ألفظ نفسى الأخير قبل أن يصل الكُفل إلى نهاية الرحلة ويدخل قرية الوجه. كنت أحسب أنى سوف ألتقى بأبى Abu سنون Sinûn فوق الحرّة ، نظرا لأن مَنْزِل المواهيب لم يكن بعيدا كثيرا عن هذا المكان ؛ ولربما قدر لى أن أتنفس من جديد فوق الجبل ، وأجد عند أبى سنون قليلا من الطيب ، وهنا يمكننى أن أسترد صحتى . "(سألت الرجل الطيب وأنا حائر) كيف ! ينبغى عليه أن يتركنى طوال أيام كثيرة وحدى مع النساء (الحريم) ؟" وهنا رد عنى صوت ودى من أصوات الفجير قائلا : "خليل ، يعرف ، بالله ، كل الأعراف والتقاليد (الدين din) الخاصة بالأعراب ، إنه واحد منا ." وبينما كان مهنا يجلب ذلوله كى يركب وينهض بالكُفل المتحرك ، وضعت فى راحة يده بضعة قروش ، وأنا أقول له إن هذا المبلغ لشراء قليل من التتون (التبغ) ، يتعين عليه أن يحضره إلىّ عند قدومه ، وذلك من باب الخدمة التى يمكن أن يقدمها بدوى لصديقه ، عند عودته من السوق . "(قال الرجل البسيط) ولكن قل لى ما مقدار هذه القطع الفضية ، أم يجب علىّ استدعاء واحد من أولئك الذين يعرفون كيف

يعدون النقود ويحسبونها ؟" البدو لا يعرفون إلا الحساب بالريال ، أما العملات المعدنية الأقل من الريال فهي غير معروفة عندهم أو لهم . يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البدو بعيدون عن الطريق وأيديهم غير ملوثة بصرة الحج. ركب مهنا ذلوله وهو يحمل حربته ، ومضى رجال القافلة من الفكارة قدما غير مسلحين ؛ يضاف إلى ذلك أن المنطقة الواقعة خلف أرض السحامة ، كانت بكل من فيها من البلّي معادية لأولئك العنوز (نسبة إلى قبيلة عنزة) ؛ ولكن الجميع كانوا يثقون بسلوك مهنا . كان مهنا يحصل على أتعاب مقدارها ريال واحد عن كل جمل .

الفصل الرابع عشر

التجوال فوق الحرّة مع المواهيب

منظر البراكين . "بيوت الناصرة" . قدامى تلك البلاد . الحكايا الخرافية . بنى هلال . سيل العرم . جبل الأبطال القدامى . قبورهم . والدة مهنّا . الشيزم . يهود خيبر . عشائر البلّى . الأمراض . المزينون . مجيء كُفْلنا من الوجه مرة ثانية . فرس الشيخ تموت عطشا . خطاب أهل مُنْزل آخر مع النصرانى . زوجة المهنا . البحث عن المواهيب فى الحرّة . البلد البركانى العجيب . القبور الأثرية هناك ليست من قبور البدو الرُّحل المسلمين . تركيب مغامرين بحثا عن الأعراب . مشوات . نزاع على الكرم . المواهيب وقبليو السبّاع من العنزة . تحالفات القبائل . فطور مُضيف بدوى . الشكر بعد الطعام. طلّوج شيخ المواهيب . أسرة أبى سنون المغربى. بنجاحه فى حياة البدو . مخيم المواهيب فى الحّرة . تلال الفوهات البركانية . مجئ شيخ من الحويطات طلبا للديّة . كلامهم إعجابا بالنصارى . تل بركانى . وجه الحّرة ؛ - البرد القارس فى الشتاء . ندرة الماء . أبو سنون يعود ثانية من رحلته ، قادمًا من بلاد الغرب . طلّوج يلتمس إلى النصرانى الرحيل . ربات البيوت تتحدثن مع الغريب . فايز الراعى .

نصب السُّحَامة خيامهم بالقرب من الجزء العلوى من جبل تهامة ؛ هذا الجزء العلوى من جبل تهامة يطلق عليه اسم جبل صليح Sléih ؛ وكانت تلك الخيام بالقرب أيضا من أم شاش Ummshash ، المصدر الرئيسى للماء فى منطقة السُّحامة هذه . - كان المنظر الذى نطل عليه من خيامنا ، يحتوى على ثلاثة جبال فوق الحرّة ، ولكل جبل من هذه الجبال الثلاثة رأسان ؛ وبعد أن (تمعنت فى تلك الجبال تمعنًا تاما من خلال النظّارة ، لم يراودنى أى شك فى أن تلك كانت تلالاً من صخور نارية من صخور

البراكين . أخبرني البدو أن تلك كانت أحجاراً محروقة ورمل أسود . وفي الجزء الرملي من ذلك المنْزل رأيت مسارات أرضية قديمة لها علاقة بالمباني ، كما رأيت أيضا على التربة العالية المجاورة أكواما مبنية من الحجارة وبينها عقود ؛ والبدو يطلقون على هذه الأكوام اسم "رجوم" Rijjum ، ويصل ارتفاع كل واحد من تلك الرجوم إلى ما يتردد بين عشرة واثنى عشر قدما ؛ والغالبية العظمى من تلك الرجوم مكسرة من الداخل ، والناظر إليها يرى في داخلها زنزانة صغيرة ضيقة ؛ وقد شاهدت ، بعد ذلك العديد من هذه الرجوم في العويريض Aueyrid ؛ شاهدت تلك الرجوم فوق كل جزء مرتفع من الأرض . والبدو يقولون عن هذه الرجوم إنها "بيوت النصارى" ، أو الكفار القدامى الذين سكنوا هذه البلاد قبل آبائهم المسلمين . شاهدت أيضا في سيناء رجوما شبيهة بتلك الرجوم أو تختلف عنها اختلافا طفيفا ؛ هذه الرجوم السيناوية يطلق على الرجم الواحد منها اسم "ناموس" Namûs وجمعه "نواميس" Nawamis ، وهو ما يفسره بدو الطور Tówara تفسيرا خرافيا على إنّه "منازل النمل" ، قائلين إنه كانت توجد في هذه المتاهة من الوديان الجافة المهجورة "قنوات جارية نحو الأسفل في غابر الزمان ، كما كان فيها أيضا برك على شكل مستنقعات تحت مستوى سطح البحر ، كان يتوالد فيها البرغش أو إن شئت فقل ، الهاموش إلى حد أن القدماء (الذين يسميهم البدو أيضا النصارى) بنو أيضا تلك الأكواخ الحجرية التي كانوا يأوون إليها بعد حلول الليل ، ويشبون النيران التي كانت رائحتها النتنة تحميهم من الأمراض التي تنتج عن حشرة الهاموش" . الناس في سوريا أيضا يتحدثون عن ذلك "الناموس" Namus ، وكذلك في البلدان العربية بطريقة مفسدة إذ يقولون "ناجوس" Nagûs بدلا من "ناموس" Namûs ، وهم يخصصون كلمة "ناجوس" ويطلقونها على أي مكان من تلك الأماكن الأسرية الخاصة بغير المسلمين ، كما هو الحال بالنسبة للأماكن التي في المدافن والجبانات المسيحية ، وكلمة "ناموس" أو "ناجوس" هذه ربما كانت كلمة إكليريكية تكونت في اللغة الإغريقية Greek القديمة ، – أو إن شئت فقل : إنها كانت لسان حال الدين المسيحي . لقد عثرت على "ناموس" Namûs في سيناء ، وذلك على الطريق القادم من السويس ، وذلك على بعد مسافة حوالي نصف رحْلة من الدير اليوناني ، وقد اعتاد البدو ، وحتى يومنا هذا ، على دفن موتاهم في ذلك الناموس . وأنا عندما وصلت إلى هناك في

العام ١٨٧٤ ، وعندما رأيت مدخلا مقاما من الأحجار وحزم الحطب ، خطر ببالى تحريك بعض العصى لأنظر في الداخل ، ولكن الجمَّال العجوز أشار إليَّ بيده (إذ لم أكن قد تعلمت الكثير من اللغة العربية) بما يفيد أن الرجال يرقدون في الداخل ، مستلقين على ظهورهم ومغمضين عيونهم ، مع الكلمة الأخيرة راح يتشمم الجو من حوله . لقد أحصيت في واحد من وديان سيناء (هو وادى زليلى Zileyly) حوالى ثلاثين ناموسا من النواميس الدائرية والبيضاوية ، وكلها كانت قريبة من بعضها البعض : وغالبية تلك النواميس كانت مدمرة ، وجافة البناء ، مثل مثيلاتها في الجزيرة العربية. ورجوم العويرض Aueyrid بدائية ولكنها مبنية أيضا بواسطة البشر .– ألا تكون هذه الرجوم أكواما من التراب فوق القبور، أو مقابر لشخصيات رئيسية من القرية القديمة، ومن البدو الرحل ؟

البدو هنا يسلمون أن النصارى جميعهم كلهم من سلالة واحدة ، وأنهم استولوا على هذه البلدان الصحراوية ، إلى أن "طردهم منها آباؤهم ." "قالوا ، والله ، ألم تكن هذه هي قراكم المهدّمة ، يا خليل ، التى تراها في أماكن كثيرة ، بل وحتى في هذا الجبل ؟ وأنت ، ألست واحدا مُرسل من قبلهم للتجسس على هذه الأرض ؟ – وهل من المحتمل أن يكون الوثنيون يتطلعون إلى وراثة هذه الأرض ." قال آخرون : "إن بنى هلال هم الذين سيستولون على هذا البلد مرة ثانية !" وأضاف بعض آخر : "لقد وصلنا هذا الخبر فعلا ، ولكن هل تحسب أو تظن أنهم سوف يفاجئوننا بالهجوم علينا ؟ أين تكون الينابيع القديمة ، التى لا نستطيع العثور عليها ؟ أليس بوسعك أن تفتينا في ذلك ، من خلال كتبك ، عن الأماكن التى يمكن أن نعثر فيها على الينابيع والكنوز المخبأة ؟ وحياة ربنا ! سوف نكافؤك إذا ما أريتنا الماء ." – "(قال واحد منهم) انتبه ، سأقول لك شيء ، – أليست هذه الأرض الخربة معروفة لنا جميعا ؟ وأنا أقول : عندما كنت في سوريا ذات مرة، جاءنى نصرانى ، بعد أن فهم أنى من هذا البلد ، – هذا النصرانى ، كان يمسك في يده ، كتابا أيضا !– وقال : "خبرنى أيها البدوى ، ألا يوجد الموقع الفلانى– حدد اسم موقع بعينه !– في ديرتكم ؟" "أجبته ، نعم بالله ! هناك جدران لبعض القرى المدمرة" – "لابد أن يكون هناك كنز كبير في هذه المنطقة؛ حسن أجبنى ، [إنها تركيبة سمعت عنها حكايا مماثلة ،] أعرابكم يشربون في أوانى من

النحاس الأحمر أو من الفضة ؟" - "بالله ، بعض أوانينا مصنوعة من النحاس ، أو في أطباق مزينة بالفضة ولكن القسم الأكبر منها مصنوع من الخشب ." - "إذن فهذا الكنز موجود هناك ، وبناء على ذلك ، قال النصراني ، "هل تستطيع توصيلي إلى هناك ، وإذا ما وجدنا الثروات فسوف نتقاسمها سويا؟ وَعَدْت الرجل بذلك من منظوري الديني، وعندما جاء اليوم الذي ركب رجالنا فيه دوابهم عائدين إلى مَنْزلهم ، ذهبت أنا بنفسي لإحضار النصراني . "قال : سوف أذهب معك ، وبالتالي سوف نغني أنفسنا ، ولكن الخلاء (الصحراء) مخيف ، وكيف لي بالعودة ثانية إلى هنا ، عبر الصحراء الجرداء القاحلة ، حيث يوجد بيتي ؟"" - مثل هذا الكلام كان يتردد على مسامعي في الجزيرة العربية ! ونظرا لبقائي فترة طويلة في قرية الحجر ، فإن الأعراب من حولي كانوا ينظرون إليَّ على أني نصراني ، من أولئك الذين يستطيعون "رؤية الغيب" ، من ناحية ، وباحثا عن الكنوز من الناحية الأخرى .

سألني بعضهم : "هل سبق لك زيارة تونس في رحلاتك ، وهل بني هلال فعلا شعب عظيم في تلك الديار ؟" وبني هلال ، الذين يحكون عنهم ، هم جمع كبير من القبائل النجدية ، تجمع في يوم من الأيام ، عندما عانت الأرض من سبع سنوات من الجفاف . وعندما ماتت مواشيهم ، هجر الأعراب الأماكن كلها وتجمعوا مع بعضهم البعض ، على شكل غفير كبير ، وراحوا يبحثون عن أرض باركها الله بالمطر والربيع . قام هؤلاء الأعراب في البداية بالإتيان على ديار قرية بلقاء Belka : ثم نزلوا بعد ذلك إلى مصر ، حيث استقرت فيها بعض القبائل ، ولكن غالبية تلك القبائل تقدمت صوب الغرب ، ثم استولت على بعض المراعي في بلاد البربر(*) Barbary : ويقول الموروث (التراث) إنهم استقروا بصفة أساسية في مستنقعات تونس . وفي كل قبيلة ، في كل واحة من الواحات التي ذهبت إليها في الجزيرة العربية، كان الناس البسطاء يسألوني، باعتباري عابر سبيل من أقصى الغرب ، "هل التقيت بني هلال ؟" وإذا قلت : "لابد أن يكونوا جيراننا لنا ." فقد كانوا يصدقون ذلك تماماً ؛ ولو كنت قد قلت لهم :"أنا

(*) بلاد البربر : المقصود بها بلدان الشمال الإفريقي وهي في حقيقة الأمر بلدان عربية إذ لا يشكل البربر سوى نسبة قليلة من سكانها . (المراجع)

واحد من بني هلال" ، لنظروا إلى نظرة تقدير وإكبار . بعض المغاربة ، الذين يغامرون بالسفر إلى الجزيرة العربية ، وبخاصة الرجال الطوال منهم ، قد يتباهون بأنفسهم بأنهم "أبناء بني هلال ." وسيرة بني هلال يجرى التغنى بها فى كل كفر من الكفور والخيام المصنوعة من الصوف الأسود ، في تلك الصحراء الواسعة الشاسعة ،- هذه السيرة عبارة عن نص غير مكتوب (يحرك الشباب صغار السن) عن التفاخر بالكرم ، وبالشجاعة في ميدان الوغى ، ولكن هذا النص أعجمي ، لأنه لا يخضع للمقاييس أو المعايير الدقيقة ، إضافة إلي أن هذا النص يخرج عن نطاق القدرة البشرية . هناك عدد كبير من بين كل عشرة من البدو ، لا يستطيعون ترديد هذه السيرة، ولكن من بين كل مائة يندر أن تجد طفلا لا تجرى على لسانه قافية من سيرة بنى هلال .

هذه السيرة التي تسرى مسرى الحياة في كل أرجاء نجد التى فيها القبائل المترحلة ، ربما تكون قد انحدرت عن القبائل منذ زمن بعيد . – ولكن ماذا عن "سيل العرم" ؟ هو تل جبلي سجل من قبل المؤلفين المسلمين الأسطوريين . والبدو ليس لديهم موروث عن "انهيار سد" مارب وعن – حادث صغير من هذا القبيل – ألا وهو الانتشار القديم للقبائل من مكان واحد فى الجزيرة العربية . ونجد من حيث المظهر ، ومن حيث الترجيح أيضا ، كانت أرضا للبدو منذ البداية . هذه كانت قصة غريبة على أذهان وآذان أولئك البدو ، شأنها شأن قصة برج بابل . وأنا عندما كنت في حائل ، جرى جلب حكاية مماثلة من الرياض er-Riáth ؛ وفى إحدى المقاهى الكبيرة ، سمعنا خبرا عن فأر آخر كان قد أكل مؤخرا وفتح الماء على جانب من جانبى وادى حنيفة .

هذا الجيل البطل القديم ذاع صيته على أنه هو صاحب الآبار الصحراوية ، وكذلك الحفر الصحراوية المبطنة بمبانى من الحجر ، كما أن هذا الجيل هو أيضا مبدع الأعمال الكبيرة الأخرى ، وكذلك البنايات الحجرية ، التى يمكن مشاهدتها هنا وهناك فى الديار الجرداء فى الشمال ، ونشاهدها أيضا فى الجنوب فى منطقة تهامة التى تقع بالقرب من مكة . هذه الأعمال كلها ، هى فى نظر الأعراب ، من أعمال العمالقة ، وأن هؤلاء العمالقة هم بنو هلال .

هناك مقابر ، أقيمت فى أماكن كثيرة ، من صحراء الجزيرة العربية الجرداء

القاحلة ، ويصل طول القبر إلى ما يزيد على عشرين قدم ؛ ويقال إن هذه المقابر هي من مقابر بني هلال . وبنفس الحال أو الشاكلة يستطيع الرائي أن يشاهد مقابر بعض الآباء المسيحيين ومقابر بعض أنبياء فلسطين، التي هي الآن في حوزة المسلمين وتحت سيطرتهم ؛ وهذه المقابر أيضا مبنية حسب طول معين ، حسب السن والمكانة ، إذ منها ما يصل طوله إلى ستين قدما ، والبعض الآخر يصل طوله إلى حوالي مائة قدم . وهذا هو قبر حواء (أليست هي التي تسمى بأم البشر ؟) الذي يصل طوله إلى خطوات كثيرة في مدينة جدة ؛ والضريح المبني فوق سرة بطن أم البشر ، يصل ارتفاعه إلى أكثر من ارتفاع شجرة الأرز ؛- هذا يعني أن أطفالها عند المولد ، لابد وأن يكونوا أكبر من الفيلة . إذا كان ذلك هو حال المرأة الأولى ، فكيف كان حال آدم نفسه ؟ والبشر ينبغي أن لا يحملوا أكثر من قامة(*) واحدة من اللحم البشري ، مخافة أن لا يستطيعوا حملها .

رددت على هؤلاء البدو ، "لن يغزوكم النصارى ، فهذه الأرض لم تكن في وقت من الأوقات أرضا من أراضينا : وإلى جانب أراضيهم الخاصة بهم ، فهم لديهم أراضي أكبر فيما وراء البحار ، لم تكتشف بعد ، ومليئة بنعم الله ؛ أراضي فيها الماء ، وخضراء مثل حديقة دمشق . الهواء في تلك الأراضي براد (عليل) ، والحرارة فيها ليست شديدة ، كما أنها ليست باردة أيضا ، وفي تلك الأراضي متسع لكم جميعا يا أصدقائي ، والنصارى سيستقبلوكم ويرحبون بكم في تلك الأراضي . من الذي أرسلني للتجسس على رملكم وأحجاركم ؟ وأنا طبقا لعقيدتي ، لن أوافق على زيارة هذا البلد بناء على طلب من أي إنسان . أنا سوّاح Suwahh ، وأنا بصدق ، لو كنت متعلقا بأمور الدنيا ، لما تخليت عن حياة المدينة إلى حياة الجوع ، ولما جئت إلى حرارة الصحراء ." - "صدق ، الله ! (قالتها والدة مهنا التي كانت واقفة تغزل إلى جوارنا) ، أرضهم أفضل من أرضنا ، وما هو ذلك الذي يبحثون عنه أو ينشدونه هنا حيث - يا إلهي - لا يوجد شيء سوى الظمأ eth- thùmma والجوع Wa-ej-jùa " كانت أم ذلك الشيخ من شيوخ البدو جميلة في سنها وعمرها ، وشعرها الأشيب ، والذي لا شك فيه

(*) القامة : مقياس يعادل ستة أقدام . (المترجم)

أن هذه الأم كانت شديدة الشقرة مثل الكثيرات من نساء البلىّ. هؤلاء النساء كاشفات، مثل جيرانهن العنزيات Annezy : والكثيرات منهن يميل لون شعرهن إلى اللون البنى ؛ (يقال أيضا إن النساء ذوات الشعر البنى ، موجودات أيضا بين بنى عطية) ولكن تحرقهن هنا شمس الجوع والعطش فى هذه البلاد ، هذا يعنى أن تلك النساء هن دوما هزيلات وتعانين من شحوب اللون .

وفى ديرة السُّحامة ، التى فى الجزء الجبلى المرتفع من تهامة ، والذى يقع فى المنطقة المنخفضة المجاورة للعويرض مباشرة ، يوجد الكثير من مواقع الكفور (الهجر) والقرى المهدَّمة . والناس يحكون هنا أيضا عن واحدة من المعجزات الطبيعية ، أو إن شئت فقل : عن كهف أو حمَّام من ماء نهر الظلمات(*) Stygian ، أو إن شئت فقل : حمام Hammam الشزم es-Shizm الموجود عند رأس الجبل ، والذى يذهب إليه البدو الرحل ليغتسلوا فيه هم وإبلهم للفضائل الشفائية التى لماء هذا الحمام ، ولكن البدو الرحل يقولون : إن من يشرب من هذا الماء قد يموت . هذا الماء يميل لونه إلى الاخضرار وهو مر الطعم (وربما كان ذلك ناتج عن صدأ النحاس) ؛ – والناس هنا يقولون من باب الخرافات ، "إن الشزم Shizm لا ينساب فى هذا الماء فى شهر الحج ، إذ يتحول الماء إلى مكة فى تلك الفترة ."

كانت فى ذلك المنْزل من منازل البلِّى Billi أسرتان أو ثلاث من أسر ولاد على ؛ هذه الأسر تخلفت، نظرا لأن قافلة نقل الأرز من بلدة الوجه، كانت تعج بالبشر سليطى الألسنة الذين يسيطر عليهم سوء القصد من ناحية، والمزاج الحاد من الناحية الأخرى، مما جعل البلِّى يتهامسون ، من وراء ظهورهم ، ويقولون عنهم أنهم من يهود Yahûd خيبر Kheybar ! وهم يقولون الشىء نفسه (من باب إساءة القصد بالجيران) عن الفكارة ، باعتبارها من القبائل التى ورثت خيبر اليهودية ؛ معروف أن العنوز Annezy الجنوبيين ،– فيما عدا القحطان – هم أشد العرب البدو إتساما بالطابع اليهودى . كان هناك شاب طيب من العلايدة مع تلك الأسر ، وكان اسمه "ضيف الله" Thaifullah؛

(*) حسبما ورد فى الأساطير . (المترجم)

هذا الشاب راح يسألني ، من منطلق روح العرب غير المتحضرة ، التي تطمع في الامتداح، حتى مع قلة المنفعة ، راح يسألني ببساطه وسذاجة : "كيف رأيت الأعراب ؟" وأجبت على سؤاله مشبِّها الأعراب بالطلح ، تلك الشجرة الجميلة الموجودة في الخلاء (الصحراء) بأغصانها التي تحمل قلة قليلة من الأوراق دائمة الخضرة ، ولها أشواك حادة ولها زهور حلوة في موسم التزهير ، وخشبها يأتي في المرحلة الثانية بعد الأخشاب غير المفيدة . "(صاح الشاب) والله ، يا خليل ، لقد أصبت ." ومعروف أن الكلمات التي من هذا القبيل تمسك عليهم آذانهم العاطلة .

بدو البلِّي هؤلاء ، هم ألطف أنواع البدو في الجزيرة العربية كلها . ونظر لأن هؤلاء البلِّي كانوا أحرارا وأصحاب قلوب مستطيرة ، فإن السواد الأعظم منهم كانوا رجالا لهم كلام واسع الحيلة ، ولكنهم سرعان ما تكون شفقتهم أكثر من كرمهم . كان هؤلاء الناس أيضا يربون إبلهم بأعداد كبيرة ، وقد شاهدت عند غروب الشمس قطيعا صغيرا من تلك الإبل يقف أمام كل خيمة (بيت) من الخيام : وتلك إشارة أو علامة مريحة أو مناسبة من العلامات التي توحي برغد العيش في الصحراء . هؤلاء البدو ، كما قيل مؤخرا ، لا يعتمدون على الصُّرَّة ، التي ليس فيها بركة ، ولكنهم من البدو البواسل ، الذين لا يعلقون آمالهم على أحد سوى أنفسهم . ومع ذلك فإن عشائر البلِّي القريبة من شاطئ البحر تتقاضى رسوما على طريق الحج المصري ؛ إضافة إلى أن شيخ البلِّي الكبير ، حسبما قالوا لي ، له وضعه العام (باعتباره مستفيداً من الحكومة) في القاهرة ، والجهاينة ، جيران البلِّي ، هم مثلهم ، قبليون يتسمون بسلوكيات الشهامة . ومعروف أن جهينة قبيلة كبيرة مشهود لها بالنبل منذ زمن بعيد ، والجهاينة يمتدحهم العربان بأنهم من أصحاب الكرم القديم ، والحويطات موجودون على مضارب البلِّي الشمالية ، – هؤلاء الحويطات هم أعداء ألدَّاء ولصوص ماشية : والبلِّي ، بسبب الخوف من الحويطات ، يعيشون في قلق واضطراب ، إضافة إلى أن الصحراء الشاسعة تصبح في فوضى وارتباك في حالة انعدام أو غياب سيطرة بن الرشيد وهيمنته . ففي كل يوم ، كان ولد مهنا يركب ذلوله (ناقته) ويحمل رمحه في يده ، ويتجه لاستطلاع الأرض أمام الماشية التي تذهب إليها للرعي : وبذلك كان يبقى في ذلك المكان ، للقيام بالمراقبة المتقدمة إلى دخول المساء .– وإذا ما أعطاهم الشيخ

الصغير إشارة ، يقوم الرعاة بتجميع ماشيتهم ، ويقتادونها إلى المنزل وهي تجرى من أمامهم . سألته : "وماذا تفعل إذا ما التقيت لصا من لصوص الماشية ؟" وأجابني بنظرة توحي بالغطرسة والكبرياء : "سوف أخترقه بهذا الرمح ، ها !"

عرفت من خلال ممارستي الطبابة أن بدو تهامة لا يعانون فقط من أنواع كثيرة من رشح الأنف ورشح العين والرمد ولكنهم مصابون أيضا بأمراض أخرى معدية . وقد انتقل المرض إلى دماء هؤلاء البدو من شاطئ البحر في السنوات الأخيرة . وأنا أرجو أن يصدقني القارئ أن قلة قليلة من هؤلاء البدو هم الذين هربوا من الإصابة بتلك الأمراض المعدية morbus gallicus . ولهذا السبب فإن حلفاءهم ، من أعراب الداخل ، يخشون من الزواج من أفراد من قبائل تهامة من منطلق زعمهم أن "لحم بدو تهامة هو لحم غير صحي في واقع الأمر ." أنسباء العرب يقولون الشيء نفسه عن أمراض أخرى . وجهت إلى حدّاد بدوى السؤال التالي : "ألم يتزوج قريب له من صنّاع تيماء ؟" فأجابني : "حسَن ! لقد أخذنا فعلا من بناتهم ، وقد نتزوج منهم مرة ثانية ، ولكننا تحاشينا ذلك الزواج بسبب البرص الذى اكتشف في دمهم ." هذا الوباء الفظيع أصاب المواهيب الذين بدءوا الآن تحاشي الدخول فى علاقات زواجية مع صنّاع تيماء. لم أعرف من بين المواهيب سوى واحد فقط منهم كان مبتليا بذلك المرض ، هذا الشخص كان امرأة عجوز مسكينة كانت مصابة بالسعال ، وكانت تقيم في منزلنا ؛ كانت امرأة محبوسة الصوت ، كريهة الطلعة ، ومع ذلك كانوا يقولون عنها إنها أجمل الحريم قاطبة ! كانت الزوجة السحيمية التى زارت الحكيم سليمة شكلا ، ولكن طفلها الصغير كان يعانى ، أو إن شئت فقل : مصابا بالبرص ، تزوج رجل من العلايدة منذ ست سنوات من امرأة قبلية من تلكم الحسناوات ، ولكن المرض المعدى الكامن في دمها داخل شرايينها ، انتقل إلى كل قواه الحيوية ؛ وقد أرانى ذلك المسكين على يديه قرح مريعة مفتوحة . هؤلاء البدو يطلقون على مرض البرص ، أو إن شئت فقل : الجذام ، اسم "حب hub الفرنجى" er-Fernjy كما يسمونه "البلوش" el- bellush أو "داء الملوك" el-Melûk thá ، أو قد يطلقون عليه من باب التهكم اسم "المبارك" el- Mubârak . كل آمال هؤلاء البدو كانت تتمحور حول استعمال الرصاص الأحمر بشكل أو آخر من الأشكال العنيفة ؛ هذا الرصاص الأحمر كان البدو يجلبونه من الوجه. أعراض البرص

تظهر فى دم أهل الجزيرة العربية الذين لا يأكلون أو يتغذون بطريقة صحيحة . من هنا فإن العرب الذين يوصون بالزواج من عذراوات ، يشفعون كلامهم ، فى معظم الأحوال بالعبارة التالية: "ولحمها Wa - Lahm - ha زين Zain"، بمعنى أن "لحمها جيد وسليم."

رأيت بعينى كثيرا من المزينين فى معسكر السَّحامة ؛ كان ذلك ، فى ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم الذى سيجرى فيه تطهير (طهارة) الأطفال . عندما وصلت الخيمة الأولى كان الطفل قد جرى تحويله منذ لحظة إلى مسلم ؛ ولكن الجراحة كانت بدائية تماما إلى الحد الذى يجعلهم يستدعون هذا الجزار مرة ثانية . كان الطفل يولول حزينا على نفسه . وهو يقول :"ويلى !" Weyley ، بمعنى "الويل لى" . وإلى جوار الطفل كانت ترقد نعجة ، هى ذبيحة الوليمة ، بعد أن ذبحها صاحبها وراح الدم ينساب من حلقها ؛ ويقوم والد الطفل بعد ذلك بفصل رأس تلك النعجة عن جسدها . وصلت إلى خيمة مزيِّن آخر ، فى هذه الخيمة كان الجراح واحداً من الصنَّاع . رأيت ذلك الجراح وهو يسن شفرته ، فى حين كان هناك شخص يمسك بخروف استعدادا لذبحه . كان الأب يشجع ولده الصغير ، وحمله ليطوف به راكبا على ظهر الخروف الأضحية ؛ ثم أعاد الأب الطفل ثانية إلى المكان نفسه ، ثم يستل الوالد بعد ذلك سيفه القصير ، وبضربة خلفية يقطع الخروف ، كما يقوم الأب أيضا بذبح عنزة وتيس . ثم قاموا بعد ذلك ، بوضع الطفل جالسا على صينية معدنية كبيرة مقلوبة ، التى تستخدم فى أوقات أخرى للتعبير عن الكرم البدوى ، "إنها مائدة الرحمن فى الخلاء (الصحراء)" ، ويقوم البدو بفرش بعض من فشل الخيل من تحت تلك الصينية . هذا الحداد وقف بلا حراك وهو يسن موس ثليم ليضع له حداً قاطعا ، مستخدما فى ذلك عضلات ذراعه . ويسحب المزين القُلفَة خلال شقفة مثقوبة من الفخار، ثم يربطها بخيط فى تلك الشقفة . قالت الأم : "انتبه يا أنت ، لا تجور فى عملية القطع ." كانت الأم تمسك طفلها بيد ، وتغمض عينيه باليد الأخرى ، وتشجعه بصوت الأم ووعودها له بالحليب الحلو والأشياء السمينة . وهنا يقوم الصانع بضربة خفيفة ، بقطع الجلد من منطقة العقدة : ثم يقوم بعد ذلك بتعفيرالجرح بشىء من الفحم النباتى ، ثم يناول الطفل الذى لم يشعر بشىء إلى والدته ؛ وتروح الأم تواسى طفلها وهو على صدرها ، وتطلب منه أن يكون سعيدا بذلك لأنه دخل بذلك دين الإسلام . كان يجرى توزيع الأرز المسلوق ولحم الضأن قبل

الظهر ، كما يجرى أيضا نقل جزء من ذلك الطعام إلى سائر أنحاء المخيم ، لتوزيعه على الأصدقاء الذين لم يكونوا حاضرين . شاهدت العذراوات والنساء المتزوجات حديثا ، وهن يغنين طوال الساعات السابقة لوصول المزينين .

فى الصباح مر أبو سنون على خيامنا ، عائدا من قرية الوجه مع الجمال المحملة بالأرز ، اتجه أبو سنون إلى ناسه وأهله فى الحرَّة ؛ ولكنه وعدنى بأنه سوف يعود أو يرسل إلى رسولا خلال ثلاثة أيام . فى اليوم الثامن شاهدنا مهنا ، قادما إلينا على ظهر ناقته ، قبل عودة القُفْل (القافلة) ؛ وأفاد البدو أن الحرارة فى ذلك الوقت ، كانت لا تطاق فى قرية الوجه ، إذ كان الليل خاليا حتى من هواء التنفس ، كما أن أهل القرية لم يتمكنوا من النوم مطلقا . وصلت القافلة فى فترة العصر ، واستطاعوا إنهاء أمورهم كلها فى البلدة قبل دخول الليل ، ثم رحلوا بقلق البدو الرحل المعهود . قام رجال القافلة بإحضار الإبل التى اقتادوها معهم للبيع ، للسماسرة والوسطاء العامين ، الذين راحوا ينادون على تلك الإبل فى كل أنحاء السوق ، مما أسفر عن بيع كل ما كان معهم خلال ساعة واحدة إلى أعلى الأسعار ،- المقدمة من باعة الأرز الهندى ، ومن تجار الجمال الموجودين فى المكان . معروف أن تجار الجملة لا يدفعون الثمن نقدا للبدو ، فيما عدا الكسور المالية الصغيرة . وهم يدفعون الثمن بجوالات من البضاعة التى يتجرون بها : هؤلاء التجار يشحنون الإبل على القوارب hoys العربية إلى مدينة السويس . وعلى سبيل المثال فإن جمل مطلق الممتاز ، لم يعد عليه إلا بما قيمته خمسة عشر ريالا من الأرز ، الذى يكفى احتياجاته طوال فصل الصيف ؛ والمؤكد أن مطلق لو كان فى منزله لما فرط فى ذلك الجمل بخمسة وعشرين ريالا من النقود البيضاء . وهذا جمل آخر من جمال الحمل عند زيد ؛ هذا الجمل تقدم فى العمر بعض الشيء ، ثمَّنُوه فى الصحراء بعشرين ريالاً ، ولكنه هنا لا يقدر بأكثر مما قيمته عشرة ريالات من الأرز ، ويتعين على زيد أن يدفع حوالى النصف، من هذا المبلغ ، نظير عملية النقل. وغضب زيد غضبا شديدا لذلك الذى حدث له ، وأقسم يمينا مغلظا فى المجلس ، "قال ، إنه لن يفعل ذلك مرة أخرى ، إلا إذا كان ذلك نابعا منه هو نفسه !"؛ كما تشاور زيد أيضا مع الشيوخ لكى لا يرسلوا إبلا عن طريق أطراف ثالثة . والسبب فى ذلك ، أن الرجال الذين يعملون فى الكُفْل ، هم قبليون يستأجرهم الناس للعمل فى النقل ،

وغالبا ما يكون ذلك النقل لحساب الشيوخ ولمصلحتهم ؛ ولم يكن هناك شيخ يوافق على مرافقة هؤلاء المستأجرين فى أعمال مضنية من هذا القبيل . هؤلاء الجمالة كانوا يتقاضون ريالا ونصف الريال عن كل جوال يحمله أى جمل من الجمال : والجمل كان يحمل ثلاثة جوالات من الأرز الهندى ؛ أما الإبل العفية القوية فقد كان الواحد منها يحمل أربع جوالات. والرحلة فيما بين الروضة و"البحر المالح"، تقدر بحوالى اثنى عشر رحلة صيفية ، فى الحرارة الخانقة ؛ ونصف هذه الرحلات يكون خلال جبال منحدرة ، أو خلال أرض شديدة الوعورة ؛ والماشية تضطر إلى قطع هذه الرحلات دون أن تذوق طعم الأعشاب . وصاحب الجمل الذى يأتى وحده وليس معه جمله ، لا يحصل على أجر ، هذا فى البلاد العربية ، يضاف إلى ذلك ريال آخر عن السلوك السليم : ومعروف أن الجمل الذى يعود من رحلة من هذا القبيل يفقد سمنة الربيع ، كما ينخفض ثمن بيعه حوالى خمسة ريالات . والرجال يعودون بالجمال شبه محطمة ؛ وإذا ما ناقشت الأمر معهم ، تراهم يقولون أنهم هم الخاسرون ؛ هؤلاء الحمالون المساكين ، يستطيعون الحصول على شىء قليل من النقود بهذه الطريقة ، ودون أن تنقص أعداد قطيعهم .

نفقت فى هذا المنزل فرس مهنا العجوز : كانت تلك الفرس قد ولدت مؤخرا . ومعروف أن الفرس هى أغلى حيوان من بين مواشى الشيخ إلى نفسه. وعندما وُلد مهر من هذا الصندوق العظمى ، ربط الناس ضرع الفرس (مثلما يفعلون مع إبل الحليب) ؛ ثم جرى بعد ذلك تقييد المهر فى خيمة الشيخ ، لكى يربونه على لبن الخض أو إن شئت فقل : اللبن الحامض ، ومعه الماء . وبينما كنت أستلقى مستيقظا ، كنت أرى الفرس وهى تجىء أثناء الليل وتتشمم قراب الماء فى الخيمة ، وكانت تقضم القش من سروج الجمال بسبب جوعها . سألت العرب ، "لماذا لا ينهون آلامها المبرحة التى لا تنتهى بطلقة واحدة من سلاح نارى ؟" كنت أحسبهم قساة ، ولكنهم كانوا يرون القسوة فى كلامى ، كما كانوا يعتبرونه كلاما شاذًا ! – والكلب وحده (هو دونا عن سائر الحيوانات الأخرى ، هو الذى يأكل الخبز الذى يأكله البشر) ليست له أية مواطنة فى الحياة البدوية . والإنسان يكره فى هذا الوحش المتطفل ، الذى له شبه إنسانى ، سخرية طابعه الشرير : والبدوى يصب على هذا المخلوق الذى يقاسمه لقيماته ، كل جام غضبه ، وسوء سلوكه كما لو كان عدوا له ؛ ومع ذلك ، ففى بلدان الحدود ،

نجد المواطنين المتدينين ، يقسمون ، أنهم يلقون فى بعض الأحيان ، كسرا من الخبز لكلاب الجيف فى أسواقهم (حاراتهم وشوارعهم) . – أما الكلاب التى كانت معنا ، فقد كانت تقضى ساعات فى الصحراء ، وهى تنتظر الوقت الذى ترى فيه الفرس ترقد لتفارق الحياة، وعند ظهر اليوم الثالث سقطت الفرس على الأرض ولم تستطع الوقوف. ومع طلوع النهار جاءت النسور والعقاب لتلتهم الجسد المتعفن ؛ هذه الطيور الجارحة تحوم أيضا فوق المنازل البدوية فى الصحراء الواسعة ، التى تقع على بعد مسافات قليله من الداخل : ولكن هذه الطيور الجارحة ترحل عن هذه المنازل قبل دخول فصل الشتاء . وهذه الطيور عندما ترافق الأعراب ، تظل طائرة محومة طول الوقت ، فى النهار ، وعلى ارتفاع منخفض فوق المنزل . والنسر Rakham له ريش خشن صلب ، وأجنحته البيضاء أطرافها سوداء ، ومنقاره يميل لونه إلى الاصفرار : ونظرا لأن هذه الطيور من "ذوات المناقير المعقوفة" ، فإن لحومها محرمة حسب الشريعة الإسلامية ، ومع ذلك فالأعراب يطعمون أطفالهم هذه اللحوم "لطرد الديدان" ، كما يظن البدو أن عظام تلك الطيور المجوفة تجعلهم يصنعون منها أفضل السيقان القصيرة التى تستعمل فى غلايين التدخين . أما الطيور الداجنة القافزة ، بعد أن تنتهى من وليمتها ، كانت تجلس على رفوف الصخور بالقرب من البدو ، دون أن تلقى بالا لأى تهديد صوتى يأتيها من البشر. وإن هى إلا ساعات قلائل ، حتى نشم بأنوفنا رائحة المعركة ، التى حجبها ظلام الليل عنا . معروف أن الروائح غير الطيبة مكروهة جداً من العرب ، وعندما طلع النهار ، تمتم مهنا بعبارات تفيد نفوق الفرس ؛ وطلب مهنا من زوجته فتح الخيمة ، وسارع الناس إلى رفع الفرس النافقة .

تجولنا مسافة ثلاثة فراسخ فى اتجاه الشمال ، ثم نزلنا عن دوابنا ، لنرى عن يميننا ومن فوقنا ، جبل الحرّة الضخم . هذه الصحراء رملية ومليئة بالصخور والجروف العالية المكونة من الحجر الرملى ؛ وفى تلك الصحراء سمعت من جديد الصوت الجميل الذى يصدر عن حبارى الصحراء ، كما رأيت أيضا صغار هذه الحبارى تجرى مرحا أسفل قطع الأحجار . كما شاهدت وأنا راكبا دابتى بعض صخور البازلت ، التى كانت تبرز من العروق النارية فى الأسفل ، والتى انفجرت ، فى الماضى ، خلال هذه الأرضية الهشة المكونة من الحجر الرملى . كما شاهدت فى هذا

المسار نفسه ، وفوق قطعة من الأرض المرتفعة ، التي يقولون لها ذنيبة Zenaiba ، بلغة القوم ، أكواما صغيرة من الحجر ، وبجانبها على الأرض غرفًا للدفن في ذلك السهل .

وفي المساء وصلت جماعة أخرى من بدو البلّى قادمة من مَنْزل آخر ؛ وتعجبوا كثيرا من التقائهم نصرانيا بين خيام أهليهم . وتركزت عليَّ عيونهم بنظراتها المعادية التي تنم عن الحسد والغيرة. وتغنى أحدهم ببعض الأبيات (أو ربما تكون أغنية قديمة)، عن الرّوم Rum (الرومان ، البيزنطيين) أجداد أعدائهم الحدوديين . "هؤلاء الروم أو إن شئت فقل الرومان ، جنس مليءٌ بالسذاجة والعداوات ، ولا يثق به أحد ." هذه الجماعة حسبتني واحداً من تلك الأمة الوثنية التي تضمر العداء للجميع ، والتي تآمرت بصورة مستمرة لهزيمة الإسلام ذلك الدين المنقذ . وبعد العشاء ، وبعد أن تقاسمنا اللحم مع بعضنا البعض ، وبعد أن سمعوا خبرا عني ، أصبحوا لي مستشارين . كان البعض منهم يرغب في أن أدخل في معرفة الله ، إضافة إلى أني عندما أصبح مسلما ، يصبح من المحتمل أن أسكن وأعيش معهم إلى الأبد – "بعد ذلك ، سيقوم كل واحد منهم بإحضار عنزة أو نعجة ، ليجمعوا لي قطيعا صغيرا أستطيع العيش منه، وقالوا أيضا ، إن دخولي في الإسلام يحتم عليهم أن يعطوني جملا على الفور ، كما سيعطوني أيضا عذراء لتكون لي زوجة ." كانوا ينظرون إلى الأمر وكأنه متناقض ، من منطلق وجود رجل منعزل عن الآخرين ، بينهم ، من ناحية ، وجرأتي على اتباع دين غير الدين الذي يتبعونه : وهذا يعني أن أعراب الخلا هؤلاء ، لا يخضعون إلا لإراداتهم الخاصة المتهورة . قالوا أيضا : "ولكن ألم نسمع نحن من أناس آخرين أن النصارى أناس مستقيمين ، وأن وثنيتهم تقوم على عقيدة جيدة ، والمؤسف أن لا يكونوا مستنيرين ؟ كما قالوا أيضا : إن هذا الرجل إذا ما ارتد عن دينه سيكون واحداً من المسلمين الجيدين ؛ يضاف إلى ذلك أن الدم المسيحي أيضا كان أفضل من دمهم ، الأمر الذي سيجعل كل من يدخل منا في الإسلام شريفا من الأشراف ."

كان مهنا رجلا طيبا ، كما أن زوجته التي من سلالة الشيوخ ، كانت امرأة طيبة هي الأخرى ، ولكن لقياهم لم تكن طيبة أو على ما يرام . هذه المرأة بدأ الشك يعصف بعقلها ويضايقها وهي حامل ، على إثر مشادة خفيفة جرت بينهما مؤخرا وتطرق لسان زوجها خلالها إلى النطق بيمين الطلاق ؛ ومع ذلك ، قالت هذه المرأة ، إن ذلك لا يعني

أن تحمل هي على كتفها قربة ماء ، وتسير وحيدة حافية القدمين فوق الرمال الحارة ، قاصدة أهلها ، الذين هم شيوخ فى منزل آخر . كانت تلك المرأة "طيبة مع الضيوف" ؛ كانت تطحن لي حبوبي بكل سرور وعن طيب خاطر ، كما كانت تعطيني شيئًا من اللبن القليل الذى كانت تحصل عليه من جيرانها ؛ نظرا لأن المهر الوليد كان يأتى على كل اللبن الموجود في بيتها . ذات يوم وبعد أن خبزت فطيرة من قمحي على نارها ، تناولت قليلا من اللبن ، وابتسمت ابتسامة ربة بيت تحس بالأسف والندم ، ثم طلبت منى النهوض لتناول الطعام ؛ ثم قالت بعد ذلك ، "اذهب وخذ قسطا من النوم ، وسوف يفيدك النوم كثيرا ، وأرح نفسك حتى لا تموت هنا فى أرض الجوع هذه ." كانت تلك المرأه تعاني من ألم فى أمعائها ، وهذا مرض شائع بين أهل الجزيرة العربية . أعطيتها شيئًا من مسحوق اللودانوم(*) Laudanum، راحت على إثره فى نوم عميق فى فترة الظهيرة ؛ وعندما استيقظت أخبرتنى أنها رأت أحلاما كثيرة ، وأنها أصبحت أحسن حالا عن ذى قبل ، ولكنها لن تستعمله بعد ذلك ، حفاظا على جنينها الذى لم يولد بعد . درست الأمر ، ثم قلت لمهنا ، سوف تلد لك زوجتك خلال أسابيع قليلة ولدًا ليكون سلوى وراحة للأسرة .

انقضت أيام ، ولما لم تصلنى أخبارا عن أبى سنون ، اتفقت مع رجل عجوز كان قد أعطانى تيسا نظير شفاء عينى حفيده ، على أن يقوم بإرشادى فى الحرَّة أثناء محاولتى الوصول إلى المواهيب . صعدنا فى اتجاه الشمال الشرقى فوق سلسلة قديمة من الصخور البركانية ، الشبيهة بالفيضانات البركانية الشاسعة التى سبق أن رأيتها تنبعث من بركان فيزوف قبل سنوات قليلة . أدى الصخر المنصهر إلى طمس ذلك الوادى من وديان الجزيرة العربية المكونة من الصخر الرملى ، ليصل الوادى إلى ما نشاهده اليوم فى العويرض . وعندما أصبحنا فوق منطقة الصخور البركانية الرئيسية التى كانت تعلونا ، بدت لنا كما لو كانت فيلا هائل الحجم : وهنا راحت جماعة من الغزلان المنزعجة تجرى أمامنا ؛ والغزال هنا قوى البنية ، ويشبه لونه لون البازلت ؛- والغزال يكون أبيض اللون فى السهول الرملية . صعدنا بعد طبقات

(*) اللودانوم : مسحوق الأفيون ويستعمل مسكنا للأمراض . (المترجم)

الصخور البركانية ، فوق رمل أسود اللون ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى تل كان فوهة بركان من البراكين ؛ وخلف ذلك التل شاهدت عالما بديعا جديدا من فوهات البراكين القديمة التلال التي يعلوها الصدأ البركاني ، - مسحوق أسود ، شظايا بركانية حادة ، أحجاراً نارية ، كل هذه كانت مكونات التربة التي كانت جمالنا تسير فوقها . كانت المخلفات البركانية تنتشر من حولنا إلى حد أنني أحصيت منها حوالي ثلاثين مخلفا من تلك المخلفات . وبعد ذلك شاهدت مرة أخرى على الأرض البازلتية المسطحة مجموعة من الجحور ، وبالقرب منها شاهدت مجموعة من أعلام المقابر . ثم انتقلنا إلى مكان آخر شاهدنا فيه مقبرة أخرى ، سألني عُبيد الله ، ذلك الرجل العجوز ، ولحيته متجهة صوب المقابر ، "ما هذا الذي رأيته ، وما رأيي فيه ؟"- "هل هذه مقبرة من مقابر أعرابكم ؟" - "لا ، إنها ليست مقابر من مقابر البدو ، التي نراها هنا ومن فوقها أحجار كبيرة . استعمال المقابر بهذا الشكل ليس من زماننا ؛ إنها من العالم السابق ؛ ألا تعرف شيئا عن هذه القبور ! بالله ، يا خليل ! ألا يمكن أن تكون تلك القبور من زمن الناس الوثنيين القدامى ؟" - الطحالب لا تنمو في هذه الأرض التي يصيبها الجفاف بفعل حرارة الشمس ، إضافة إلى أن التربة المحروقة تكون جرداء وبلا غطاء : وبمرور الزمن ، وفي ضوء الملاحظة البشرية ، لا يكون هناك خلاء عنصري معقول ، - قد يصعب من أول وهلة تمييز ذلك ، وبخاصة عندما يكون عمر هذه القبور عشر سنوات أو ألف عام .- "هذه القبور من عالم قبل الوثنيين ؛ أهل تلك الأزمان كانوا كفارا ، واليهود والنصارى كفار ؛ خليل نصراني ؛ ولذلك هؤلاء الذين يرقدون هنا في هذه القبور هم أسلاف خليل الذين ماتوا منذ قديم الأزل ." هذه هي الطريقة التي ينطق البدو بها كلامهم ، وهذه الطريقة تمثل أرضية قوية في دين هؤلاء الناس ، وهم يقيمون تشددهم على هذه الأرضية المنطقية .

في كثير من التجاويف المكسرة الموجودة في الأرض البركانية الجرداء غير المستوية تنمو فيها أشجار قليلة من أشجار السنط وشجيرات نبات الوزّال . هذه التجاويف الغائرة كانت مليئة بالجراد ، الذي شاهدناه متراكما مثل قطرات المطر فوق الأغصان الشوكية كلها ، التي هبت طائرة على شكل جحفل يضرب بأجنحته ، وقد حرك ذلك المنظر قلوب البدو المكلومة . "قال : ها ! أليست عندك ، يا خليل ، تعويذة

لطرد ذلك الجراد ؟ ابحث فى أوراقك أيها الرجل ، لأنى أرى أن الوقت الحالى هو وقت الكتابة ، وليس وقت الأشياء التى تسألنا عنها كل يوم ! أليس بوسعك ، أن تفعل شيئًا لطرد هذا الجراد بعيدا عن ديرتنا ؟" أجبته ، "ولكن ما هو فى رأيك الذى فى كلام الله يمكن أن يبعد الجراد ؟ إن هذا الجراد هو "جيش الله" وأجابنى الرجل بتنهيدة توحى بتدينه ، نظرا لأن كل واحد من البدو يتلقى كل قول باعتباره نوع من الحصن الدينى ، "هيه ! صحيح أن الجراد هو فى واقع الأمر يمكن النظر إليه باعتباره من جيوش الله ." فى أحد الأماكن شاهدت الصخر الرملى وهو يبرز من خلال سطح الحرة المستوى ، على شكل موجة عارمة متسلقة من البازلت الذى يتخذ الشكل العمودى الذى يشبه الدعامات الخشبية الموجودة فى جانب من جانبى السفينة :- هذه الأعمدة البازلتية المبرّدة عند القاعدة ومتحجرة نحو الأعلى ، فى حين كان ارتفاعها نحو الخارج ، وبذلك يصبح ذلك المعدن الكوكبى معلقا مثل لؤلؤ فى عقد من العقود المغربية .

فى ضوء هذا بدأنا نفكر فى الأماكن التى يمكن أن نعثر فيها على المواهيب : قال عُبيد الله : "إذا لم نعثر عليهم خلف هذه الصخور ، فقد لا نراهم طوال النهار هذا اليوم ." وهذا يحتم علينا البحث عنهم فى مكان آخر . وهذا هو كل ما يمكن توقعه أو انتظاره فى مثل هذا الحال ، والسبب فى ذلك أن البدو يتنقلون من يوم إلى يوم ، كما يحلون وينزلون فى منازل جديدة. كان الوقت يصادف قيألة el-l(g)alia ذلك اليوم ؛ والقيألة هى حرارة ما قبل الظهيرة ؛ وكنا لم نأخذ معنا أى شىء من الماء ، كما لم يكن معنا ما يمكن أن نأكله : كان الهواء المشبع بحرارة الشمس ، يهفهف على ذلك الشاطئ المكون من الصخور البركانية . لم يكن نظر عبيد الله على ما يرام ، ولذلك أخبرنى بأنه يعتمد على نظرى أنا ويثق به ؛ وعندما أجبته بأن بصرى لم يكن طويل المدى ، بدت عليه الدهشة بعض الشىء ، إذ إنه لم يكن يتوقع حال من هذا القبيل . "يا خليل ، ها هم لصوص الحويطات ، قادمون علينا راكبين دوابهم ، فماذا يمكن أن يحدث إذا لم نراهم نحن ولم يراهم أصدقاؤنا أيضا ؟ وأسفاه ! لو كنت قلت لى ونحن فى منزل أنك لست بعيد النظر ، لما جئنا إلى هنا . انا أكاد لا أبصر ، ولكن ماذا تفعل الآن ؟" - "لدى هذه النظارة التى ترى إلى مسافة بعيدة ، خبرنى ما هو الجزء الذى يجب أن أوجه إليه نظارتى ، وسوف أحاول إمعان النظر قدر المستطاع ." واصلنا

مسيرنا راكبين ، وقال لي رفيقي : "يا خليل ! إني أرى هناك شيئًا صغيرا أبيضا يتلألأ ، انظر نحو الأمام ." - "حسن ! أني أرى جملا أبيضا يأكل ." - "هؤلاء هم الأعراب ، هيا بنا نتجه ناحيتهم ." وبذلك استطعنا الوصول إلى الرعاة المواهيب ، ومعهم الماشية العظيمة؛ أصعدونا على أرض مرتفعة، استطعنا منها رؤية مَنْزل أهليهم .

جاءنا مـن تل فوهة البركان المجاورة رجل يجري نحونا كما لو كان ماردًا أو عملاقا ؛ كان ذلك الرجل يحمل جانته ganna (أي نبوته البدوي القصير) في يده : صاح ذلك الرجل ، وهو يقترب منا ، وقد أحمر وجهه ، وغلظ صوته ، وكادت أنفاسه تنقطع ، قائلا : "يا عبيد الله !" "لماذا أحضرت لنا هذا الكافر ؟- ها ! السلام عليك ، ومرحبا بك . وبينما كنت أعجب للطريقة التي تعرفني الناس بها في هذه المنطقة ، واصل ذلك الرجل كلامه ، وراح يتصرف تصرفات هوجاء غير مسئولة ، ثم وضع يده على لجام ناقتي ، وهو يهز ذلك العكاز المميت وهو في قبضة يده ، إلى حد أني كنت أحسب أنه سيقوم بين لحظة وأخرى ، بضربي على أم رأسي بذلك النبوت . سألت عبيد الله هامسا ، ما الذي يتعين على عمله في هذا الموقف ؟ وقال لي : "والله ، أنا لا أعرف ماذا تفعل ، يا خليل ." - "أقسم بالله ، أني حسبتكما لصين (يصيح الماهوبي) عندما نظرت نحوكما من التل الخلفي ، وفاجأتكما على غرة ." - "عليكم السلام ! (قال عبيد الله ، وهو يضحك) بالله عليك ، يامشوات Mishwat ، هل حسبتنا حباليص ! أين أعرابك ؟" - لقد رحل الناس اليوم ، هيا ، تعال ، ياعبيد الله ، فمنْزَلنا يقع في القاع ، هناك خلف هذه الأرض المرتفعة ."

راح الرجل يمشي أمامنا ؛ - وبينما كان يمر على بعض الخيام البعيدة ، تقدم رجل إلى الأمام ، وقال شيئًا لعبيد الله ، الذي كان يركب في المقدمة ، ثم أمسك بلجام دابته : وهنا استدار مشوات إلى الخلف ، ووضع يده فوق يد ذلك الرجل ، وسحب عليه سلاحه . وعندما حاولت قراءة نظراتهما العاجلة، ولم أسمع ذلك الذي كانا يعنيانه بتلك النظرات ، خطر ببالي أن واحدًا منهم عارض رفيقي وطالبه بدين قديم ، وأنه سوف يربط ناقته ، التي وجدتها يقتادونها بعيدا ، مع ناقة عبيد الله ؛ وعند جانب الخيمة جذب الناقة وبركها على ركبتيها .- كانت تلك مباراة في كرم البدو الفقراء ! قال مشوات : إنه عثر علينا ، ورافقنا ، ومن ثم فنحن ضيوفه ؛ ولكن الرجل الآخر رد عليه

قائلا : "ينبغى أن لا نتعدى بيته !" قال عبيد الله : "نوخ ، ياخليل ، أى إنزل عن دابتك إذن ! وسوف نتناول الإفطار هنا ." هذا الرجل العجوز اللطيف ، الذى كان واحداً من الجيران كان أيضا صديقا لهذين الرجلين . دخل مشوات معنا أيضا : ومشوات هو ابن عم شيخ المواهيب ، وهو يجيء فى المرتبة الثانية بعد الشيخ فى مجالس القبيلة . كان الحكم معقوداً عليه، باعتباره أكبر أهل البيت سنا ، وذلك أثناء غياب شيخ القبيلة ، وأمام أبناء الشيخ ؛ ومع ذلك ، عندما يموت الشيخ البدوى يخلفه ولده . كان مشوات رجلا صاحب قلب كبير ولكنه كان متشدداً ، ومتشككا ، وسانجا ، ولكن مزاجه كان يشبه مزاج الثيران ؛ كانت قوة مشوات تكمن فى عضلاته العنيدة وصدره العريض ، ولكن قوته العقلية كانت قليلة ، إذ لم تكن قواه العقلية مستقرة تماما . كان مضيفنا الذى مارس علينا هذه القوة اللطيفة ، رجلا فقير الحال ، يتمتع بعقلية كريمة للغاية ؛ وبدو الجبال الذين من هذا النوع فيهم شيء أصيل ، وذلك على حد قول جيرانهم البدو الرحل ، من الكرم القديم . كانت خيام ذلك المضيف عبارة عن ثلاث خيام ، التى نصبها دونا عن سائر خيام المُنزَل منتحيا بها بعض الشيء اتجاه الغرب ، عند نهاية المخيم ، الأمر الذى يحتم على كل من يجيء إلى المخيم ، من ذلك الاتجاه ، المرور على تلك الخيام الثلاث . رحل الرجل عنا بعد ذلك مباشرة ، ومعه مقدار صغير من تمر الحصاد ، فى خيبر ؛ هذا يعنى أنهم سوف يخيمون مع ولاد على ، ويلتقطون الفضلات ويشترون تمرا من تلك الوديان المحمومة . ذهبت معهم زوجة من زوجات شيخ المواهيب . – هذه المجموعة الصغيرة من عنوز Annezy الجنوب ليس لها ميراث فى خيبر . وبينما كنا جالسين دخلت والدته : وتحية النساء قصيرة جداً إذ يقلن : "قوَّاك الله ! سلام ." جاءت ربة البيت المضيافة بقربة اللبن الحامض ، أو إن شئت فقل : لبن الخض ، ورجت تلك القربة وراحت تصب لنا منها لبنا ، إلى أن أتت على كل ما فى تلك القربة من لبن ؛ ثم رفعت بعد ذلك السلطانية المليئة بالمغذيات المنعشة ووضعتها بين أيدينا ، وهى تنطق بالكلمات اللطيفة الحانية قائلة : أشرُب Ishrub وأوريك Waerwik بمعنى "أشرب وأروى ظمأك !" ومرت السلطانية على الحاضرين ، نظرا لأن وجبة الضيف لم تكن قد جهزت بعد .

هذه الجماعة الصغيرة النائية من المواهيب ، والمتبقية على الحدود فيما بين

العنوز Annezy والبلّى ، معروفة من الطرفين ؛ والمواهيب من البلّى من حيث التبنى ، ولكنهم من حيث السلالة النسبية فخذ من أفخاذ تلك القبيلة العنزية الفرعية الموجودة فى الشمال ، والتى يطلق عليها اسم السبّاع es-Sbáa ، أو إن شئت فقل : بدو منطقة الشمبل Shimbel الرحل (وقد سميت بذلك الاسم ، الذى هو معيار أو مقياس من معايير القمح يساوى اثنى عشر مدًّا Midds) ؛ وهذه القبيلة الفرعية تعيش فى الجانب الشرقى من دمشق . والسبّاع منذ القدم هم أعراب ولاد الرُّمّاح ، الذين كانوا يعيشون فى منطقة تحمل ذلك الاسم ، وتقع إلى الشمال من حرّة خيبر ، وأسفل القصيم ؛ وهذه هى المنطقة التى يتجول أو يترحل بدو الحطيم فيها فى الوقت الراهن . وهناك مستعمرة أو إن شئت فقل : مستوطنة أخرى من مستوطنات المواهيب القدامى ، المزراعون الذين "يربون الأبقار ،" فى منطقة الأحساء (التى تقع على بعد مسافة طويلة جدًا من هنا ، فى شرقى نجد) . هؤلاء المواهيب ، القليلون فى الوقت الحالى ، مضى عليهم الآن أكثر من ثلاثة عشر جيلاً فى العويرض ، ازداد عددهم ، بعد أن غزوا بنى صخر وأغاروا عليهم وجردوهم من ممتلكاتهم . والعويرض كلها ، ملكا طبيعيا لهؤلاء المواهيب ، نظرا لأنهم كانوا أصحابها فى يوم من الأيام ؛ وبالرغم من تناقص أعداد تلك الجماعة المواهيبية ، فهم يحتلون ذلك الجزء الجنوبى فقط . هناك أيضا بعض أسر المواهيب التى تعيش مع أقربائهم السبّاع فى سوريا ، كما أن هناك بعضا منهم يعيشون فى خيام مع بنى صخر فى منطقه بلقاء Belka . وديرة المواهيب فى اتجاه الشرق ، فى المنطقة أسفل الحرّة ، تسير محاذية لطريق الحج ، كما تمتد أيضا من الأخضر el-Akhdar إلى المدائن Medain . والمواهيب فى اتجاه الغرب ينزلون إلى كل من جاو Jau ، وأم شاش Ummshash ، وإلى النشيفة Ensheyfa ، فى بلاد السّحامة ، لكى يرعوا أبقارهم ويسقونها من تلك الأماكن . والسّحامة الأصدقاء ، يصعدون بنفس الطريقة إلى منطقة المواهيب الصيفية فى الحرّة ، أو قد يسكنون أو يقيمون بالقرب منهم فى الوديان الغربية . من هنا ، إن أخفقت إحدى ديارهم حلت محلها ديرة أخرى تخدم كلا من السّحامة والمواهيب . وهذا عرف من أعراف الجوار فى الصحراء ، والذى تلجأ إليه القبائل فى السنوات العجاف ، وفى أزمان الأخطار ؛ وهذا العرف هو الذى يسهل استقبال القبائل (كما شاهدنا مؤخرا بين بدو الفجير) بعضها البعض ،

اقتساما لخير الله . كرم الجزيرة العربية يقوم على قدر كبير من التسامح ، والتراحم الديني ، ومع ذلك فإن الصداقة هي التي تحافظ على ذلك التوازن ، الذي هو ، من منظور دين الصحراء ، مثل المرآة ، التي يمكن مد طولها ثم تقصيرها بعد ذلك ، ويصعب بعد ذلك وصل الأجزاء التي يجري فصلها : هذا يعني أن الصداقة والحب الطويلين ، قد يتباينان في مرحلة لاحقة طبقا للمصالح ، التي تُقَدَّم على كل شيء ، وطبقا للمرعى والماء أيضا . وعندما يحدث عراك ومشاجرات طوال اليوم بين رجال القبائل ، حول حفر الماء ، وحول أيام السقيا ، فإن ذلك يحتم أن تكون السياسة التي يتبعها الشيوخ قوية عندما يجلسون للبت في خلافات الرعاة والسُّقاة . حدث في العام الماضي نزاع كبير وخطير في ديرة السُّحامة ، وقد دار ذلك النزاع بين المضيفين الأعراب الأصدقاء والسراحين(*) Serahin ، أو إن شئت فقل : بني سرحان ، الذين هم جماعة صغيرة من المواهيب ، الذين وقفت بقيتهم إلى جانب السحامة في وجه أهليهم المعتدين . واحتكم الطرفان إلى السلاح ؛ ومعروف أن المواهيب أولي بأس في القتال وفي الشجار ، وقتل سحامي ، في ذلك الشجار ، بيدي سرحاني .

وعندما يعلم الناس بوصول أغراب إلى الديرة ، يشيع خبر وصولهم في كل أنحاء المنْزَل على وجه السرعة ، ويتوافد معارف عبيد الله واحداً بعد الآخر على بيته ، لتحية أولئك الأغراب ، وسماع الأخبار . وعندما يهم الناس بالوقوف ، ترى مضيفنا يطلب منهم ، في ود ، البقاء معنا ، بمعنى ، "ابقوا معنا وتناولوا الطعام معنا ." مضت فترة طويلة ، إلى أن ظهرت حمَّالة الحطب ، التي لا تقل أهمية عن بضائع وأواني العائلات البدوية الأمينة المترحلة : هذا يعني أن حمالة الحطب تلك ، التي تشير إلى الكرم يراها الرائي مثل ترس يجري تكتيفه مع الترس فوق الجمل الذي يحمل الأمتعة أثناء الرِّحْلات . وضع أمامنا ذلك الطبق الضخم وعليه كومة كبيرة من الأرز المطبوخ ، وفي منتصف تلك الكومة كان هناك إناء مليء بالسمن المنصهر اللذيذ ؛ كانوا يغمسون كل لقمة قبل أن يأكلوها في ذلك السمن ، (كانت اللقمة عبارة عن نصف ملئ اليد يكومها الآكل

(*) السراحين : السكان الذين يسكنون وادي السرحان وهو منخفض يقع في الجزء الشمالي الغربي من الحجاز . (المراجع)

على شكل كرة ،) ويرفعها إلى فمه بخفة ودقة يترتب عليها ألا يسقط منها ولو حبة واحدة . ويقوم المضيف بتحية ضيوفه بطريقة لطيفة ومناسبة ، طالبا منهم الاقتراب من الطبق والتحوط حوله ، وهو يقول لهم "بالرغم من أن الطعام على قدر الحال ، إلا أنكم يجب أن تقدروا نعمة الله حق قدرها " . والأغلب الأعم أن لا يجلس المضيف إلى تناول الطعام مع الضيوف ، إذ أنه يسعد وهو يرى ضيوفه يأكلون ، وأنه واقف إلى جوارهم للقيام على أمر خدمتهم ؛ ولكنهم هنا يجلسون جميعا كما لو كانوا اخوانا . والعرب يقولون دائما قبل تناول الطعام أو عندما يشربون السوائل "بسم الله" . ويجرى تقديم الأرز وجلبه من قدر الطهي ؛ وبالرغم من أن العرب ، في فصل الصيف ، يتركون الطعام فترة قبل تناوله ، (في الواحات يضع العرب الطعام في الشباك ،) إلا أنه كان ما يزال حارا إلى حد أننا بعد أن انتهينا من تناول الجزء العلوي من الطعام قد التهبت أصابعنا : بعد ذلك ، يتوقف الأعراب عن الأكل ويسحبون أيديهم مدة لحظة ، يقوم خلالها واحد منهم بالتهوية على الطعام مستخدما في ذلك حجر عباءته . كان مشوات يجلس إلى جواري ، وهو رجل كريم ومضياف في داخله ، بالرغم من أن حاجبيه كانا يوحيان بخطورته ، ركز عليّ مشوات هذا عينيه اللتان كانتا تشعان وداً أثناء تناول العيش والملح : كان يدفعني بكوعه وهو يقول موافقا : "كل ، سيفيدك الطعام ، كل بنفس الطريقة التي آكل أنا بها ؛ والطبق عندما يوضع أمام أحد من الرجال ، يتعين عليه أن يأكل منه بنهم ، كل ووسّع صدرك ، هنا بين البدو ." بدأ مشوات يدفع ساعده إلى الأمام ويصنع من الأرز كرات ، أو إن شئت فقل : لقيمات ، كان يضعها بالقرب مني ، كان مشوات بمثابة مضيفنا في ذلك اليوم ، بل إنه كان صديقا لطيفا أثناء هذه الوجبة . هذا المشوات كان يذكرني بالخير بالرغم من أنه كان خارج نطاق ذاكرتي ؛ كان مشوات قد سبق له أن مر على قلعتنا في المدائن في فصل الشتاء ، وكان قد طلب مني أن أملأ له غليونه بالدخان ، وكنت قد ملأت له يده بالتتون (التبغ) وكان يأمل في وجود مخزون كبير لدي في خرج الجمل ، من ذلك المخدر الذي يؤثر على المخ ،- هذا الدخان كان أحب شيء إلى نفس مشوات ، بعد حبه لولده الذي كان له عزاء تحت سماء هؤلاء البدو الرحل . كان محمد أبو سنون زوجًا لشقيقة مشوات .

عندما ينتهي أحد الآكلين من تناول الطعام يظل جالسا إلى جوار الطبق ، مادًا

يديه نحوه إلى أن ينتهى الآخرون من تناول الطعام ، ثم يردد الحاضرون عبارة "خلف الله عليك يا معزب" وهنا يرد عليهم المضيف قائلا : "هانى Hani " أو "صحة Sahah وعافية Auâf" . أو قد يقول الضيوف : "كثّر Káthir الله Ullah فضلكم Fathilakom" .

ثم بلغنى بعد ذلك أن مضيفنا أنفق على الوجبة التى قدمها للضيوف كل ما تبقى له من طعام فى ذلك الموسم الجدب . ولم يتبق لأهل البيت بعد ذلك سوى الحليب والمريسى وهذان لا يكفيان . ومن طبيعة الأعراب أنهم يستطيعون البقاء فترة طويلة يعيشون على الكفاف ، إلى حد أننا أيقنا أنهم بوسعهم أن يصبروا على الجوع وعدم تناول الطعام . وعظمة البدو تتجلى بصورة مدهشة فى تضحيتهم من أجل الكرم وهذا نابع من دينهم؛ هؤلاء الناس فى تعاملاتهم الأخرى أرذال ونصابون ولا يحبون إلا أنفسهم كما يكرهون الغير ، أو إن شئت فقل البشر ، بطريقة توحى بالحقد والحسد . وأبلغ شرف يصيبه أى واحد من هؤلاء الأعراب هو امتداح الأخرين لكرمه . والبدوى كلما زادت حساسيته وتعقله تحرك صوب الكرم فى استقبال الضيوف ؛ والبدوى ، بحكم زهوه يتعلق بنوع من التقدير فى هذه الدنيا : هذا يعنى أن دين البدو الطبيعى يساعده أيضا فى هذا الصدد ، وبخاصة أن أيام مثل هذا البدوى لا تعدو أن تكون تجوالاً بين السماء والأرض ، فى ظل أخطار تتفاقم وتتزايد من حوله . هذا البدوى يستقبل ضيوف الله استقبالا طيبا ، لأن الله هو (سبحانه وتعالى) مُضيف الجميع ، كما أنه (سبحانه وتعالى) هو صاحب وواهب ومعطى الخير كله ؛ والبدوى عندما يفعل ذلك ، يكون متطلعاً إلى البركة والعناية الإلهية . سمعت صورا كثيرة من صور الشكر والثناء ؛ وقد أخبرونى أن ترديد مثل هذه الصور أمر مطلوب ومحبوب فى بعض الأحيان ؛ من هذه الصور : "كثر Kathir الله Ullah لبانكم Lebanakom " بمعنى "كثر الله ألبانكم" ، أو "كثر الله إبلكم" بمعنى "كثَّر الله ماشيتكم" ؛ أو "كثر الله غنمكم Ghrannamakom" بمعنى "كثر الله قطعانكم" ، أو قد يقولون : "كثر الله عيالكم" بمعنى "أعطاكم الله الذرية الكثيرة" ؛ ومن بين هذه العبارات أيضا "كثر الله كلابكم "Kilabakom بمعنى "كثر الله الكلاب التى تحرس منازلكم" (إشارة إلى الدعاء للمضيف بأن يقلل الله من خسائره ومن الأخطار التى يمكن أن تحدق به)

عند هذه المرحلة فقط حضر أبو سنون لتحيتى ؛ وذهبت بصحبته لأضع حقائبى

وديعة في بيته ، ثم تحركنا سويا لزيارة شيخ الموءاهيب طلَّج Tollog، الذى سلمنى له عبيد الله ، تسليما ، وذلك بناء على طلبى ، على أنه وديعة من عند مُهنا . هذا الشيخ متسلق الجبال ، كان يبدو شبابا بالرغم من كبر سنه ، نظرا لأنه كان يكبر الجميع بعدد كبير من السنوات ، ولكنه لم يكن يبدو عليه كبر السن ، وربما يكون ذلك الشيخ قد تزوج فى زمانهم من جدَّات زوجاته الحاليات . كان الشيخ عندما وصلنا إليه ، عائداً من صلاة العصر ، واستقبلنى استقبالا وديا ، وبعد أن انتهينا من شرب القهوة فى الخيمة ، قُدمت لنا وجبة أخرى من وجبات الأرز . وقد اكتشفت واحداً من فجيرى منزل الشيخ زيد ، ضمن الجماعة التى كانت فى بيت الشيخ طلُّج Tollog، هذا الفجيرى جاء يرجو الشيخ أن يسمح له هو وأقاربه وأهله بالتجوال مع الموءاهيب ، (هذا الفجيرى كان قد سبق له إصابة بدوى بجرح وحكم عليه بالنفى) . ظللنا صامتين طوال حرارة النهار ، إلى أن بدأت تغرب الشمس ، ثم عدنا بعد ذلك إلى منزل المغربى .

منزل المغربى هذا ، كان عبارة عن خيمة شتوية طويلة ، وكانت عظيمة بشكل لم يسبق لى أن رأيته فى الجزيرة العربية ، وهو من نوعية بيوتنا ؛ كان يسكن فى ذلك البيت إضافه إلى أهل البيت ، أسرتان أخريان من أسر الأشقاء : كان الرجال الموجودون فى ذلك المنزل ، واحد منهم راعى لماشية ذلك المغربى ، والآخران من الأتباع الذين كانوا يرافقون ذلك المغربى فى رحلاته التجارية فيما بين بلدة تبوك Tabûk والساحل . ولما كان ذلك المغربى ، غريبا ، ومن السبيكة الغربية الجافة ، فقد كان يبدو عليه التفتح وسعة الأفق والفهم ، وكذلك الحرص المدنى بين هؤلاء الأعراب من أهل الجزيرة العربية الذين لا يكترثون بالأمور ولا يعملون عقولهم كثيراً . هناك طرق كثيرة يستطيع هؤلاء البدو ، من خلالها ، أن يحققوا مكاسب عن طريق المحاولة الأمينة ، ولكنهم لا يودون تحمل التعب أو العناء . هذا هو محمد الحمَّال الذى استطاع أن يحسن من حاله تماما خلال فترة قصيرة :- ألا يمكن لمثل هذه الشخصيات القليلة ، التى تتناثر بين القبائل الجائلة ، أن تصبح بمثابة نظار المدارس فى الجزيرة العربية ؟ هؤلاء البدو الرحل يمضون كل يوم من أيام حياواتهم وهم يتضورون جوعا ، انتظارا لرحمة الله: هذا هو البؤس والشقاء البين لبعض العقول البشرية التى يكاد يغمى عليها بسبب الجوع الذى يمتد معها إلى عدة أجيال ، وبسبب تيبسها وجفافها فى الصحراء .

هذا هو أبو سنون أصبح شيئا من لاشيء ، وهو أفضل واحد بينهم فى الوقت الراهن : ولكن هذا الرواج السريع الذى تحقق بفضل جد أبى سنون يعتبره الأعراب إرهاقا وإفراطا ؛ كانت حياة أبى سنون بين هؤلاء الأعراب هى حياة الغريب الأجنبى عنهم ويعيش فى منزلهم ، وكانوا يسخرون منه . جاء أبو سنون بلا لحية إلى هذه الديار ليكون مجرد نفر (فرد) فى حامية الأخضر el-Akhdar ؛ وبعد ذلك بعشر سنوات أو نحو ذلك ، كان يعانى من داء الربو ، وهاهو الآن قد تجاوز منتصف العمر . سألت محمداً ، كيف حصل على الثقة التى جعلته يعيش حياة البدو الرحل ، وسألته أيضا عن المكان الذى تعلم فيه حرفة تربية القطعان والإبل ؟- ولكنه ، لم يرد على سؤالى على مسمع ومرأى من البدو .

يتعين على محمد أن يتجه صباح الغد إلى بلدة الأخضر ومعه شحنة الأرز التى كان قد جلبها مؤخرا من بلدة الوجه Wajh ، ثم ينقلها بعد ذلك من الأخضر إلى بلدة تبوك . هذا المغربى ، لم يستطع بسبب قصر نفسه ، نيل قسط من الراحة فى الخيمة البدوية المفتوحة ، ولذلك استلقى أيضا بين قطعانه فى الخارج ، لينال قسطا من النوم. وعندما حزم أشياءه عند الفجر ، رحل مع رفاقه ، وطلب من زوجته أن تتولى شئونى وتعتنى بى لحين عودته مرة ثانية . هذا المخيم الموهايبى ، المكون من ثلاثين بيتا ، أقامه أصحابه على قسم من الأرض البركانية : لم يكن فى هذا المكان سوى بعض الأدغال المكونة من نبات الهزَّال التافه الحقير ، الذى لا يصلح أن يكون مرعى للماشية ، ولكنه نما بين الأحجار البركانية الضخمة . وهذه أوتاد خيام ربات البيوت ، التى لم تتمكن ربات البيوت من تثبيتها فى الأرض الصخرية ، جرى تثبيتها فوق سطح الأرض عن طريق كتل من البازلت ثقيلة الوزن ، وفوق هذه الصخور كانت ربات البيوت يشددن حبال خيامهن شداً محكما . وفى فلوق الصخور البركانية ، وفى زلط الحرَّة الحادة المحيطة بنا من كل جانب ، كانت تظهر سيقان بعض الأعشاب ، وبعض الشجيرات الصحراوية النادرة أو إن شئت فقل : القليلة جداً : هذا يعنى أن جحافل الجراد أتت على كل أعشاب الربيع ، الأمر الذى حتم جلب العشب المطلوب لمهرة الشيخ من مكان بعيد ، يبعد مسير يوم كامل ، ويقع السهل الرملى الموجود أسفل هذه الصخور

البركانية ؛ هذه القبيلة الصغيرة التى كانت تقيم فى الحرّة لم يكن لديها فلوة غير الفلوة التى لدى شيخ هذه القبيلة .

رحلنا وخيمنا بعد ذلك وسط عدد كبير من الصخور البركانية التى يقولون لها بلغة القوم "حليان" hillian، وكانت أكبر صخرة من هذه الصخور المحيطة بنا يصل ارتفاعها إلى ما يقرب من ٥٠٠ قدم ، فوق مستوى سهل الجبل ؛ كان هناك عدد آخر من هذه الصخور ، فى كل ميل مربع تقريبا . من هذا المكان ، ولمسافة مسير ثلاث ساعات فى اتجاه الجنوب ، عبر أرض بركانية مفتوحة ، شاهدنا ذلك المخروط البركاني العظيم الذى يطلقون عليه اسم "عناز" Anâz ؛ وهذا المخروط به سلسلة طويلة من القمم البركانية . مخروط "عناز" هذا الذى يعد أعظم المخاريط كلها يطلق عليه الأعراب اسم "شيخ Sheykh العويرض el-Aueyrid" : والمخروط الثاني بعد عناز ، فى الحرة ، هو جبل عشُوب Usshub، (وهو يطل على قرية الحجر ،) ، ومن ثم يطلق عليه الأعراب اسم "ابن" Ibn " عمه" Amm - hu . وقد أخبرونى، عن وجود موقع أثرى بالقرب من منْزَلنا الجبلى المرتفع .

وبينما كنا نقيم فى ذلك المَنْزِل وصل إلينا (برفقة رفيق ماهويى) ثلاثة رجال من الحويطات ، أعداء المواهيب الذين يقيمون فى تهامة . هذه الجماعة كانت عبارة عن شيخ يقال له "أبو" Abu "بطن" Bâtn ، ومعه بعض أتباعه . كان أبو بطن هذا يسعى لتسوية "المدّة" midda ، "والمدّة" هذه هى دفع الدية المقررة لشخص قتيل : - فقد كان واحد من الحويطات قد قُتل بطلق نارى أثناء شجار دار مع المواهيب . وحياة العدو تقدر عند هؤلاء الأعراب بما قيمته خمسة رءوس من الإبل . هذه المدة لا يجرى التنازل عنها بين القبائل المتعادية التى لا تعدو أن يكون أفرادها لصوصا يسرقون إبل بعضهم البعض : والنزاع الوحيد الذى لا يمكن أن يشتمل على الصفح هو الصراع المبنى على سفك الدم ، كما هو الحال فى الصراع أو النزاع القائم حاليا بين الفجير وبنى عطية ؛ هذه النار المشتعلة فى داخلهم حنينا إلى قتل الغير مثلما كان الحال فى الماضى ، يمكن أن تستمر معهم أجيالا طويلة ، وبالتالى فمن يقدر له أن يسقط فى يدى العدو يتعرض لخطر القتل دون رحمة أو هوادة . هؤلاء الأعراب ، فى ظل حياة المعاناة التى يحيونها (وبخاصة بعد أن فرغ كأس حياتهم ، ولم يعد يتبقى فيه سوى الحثالة)

والتي تزيد وتؤجج سفك الدم ، والتي تضعف القلب ، هؤلاء الأعراب يستشعرون غيرة جنونية تجاه أعدائهم : – والتطرف والتشدد الساميين هما أيضا من هذا القبيل ، هؤلاء الأعراب ، في أية عملية من العمليات الحربية ، يشبهون زنابير الجنس البشرى ، الذين يميلون في دواخلهم إلى لسع العدو أو الخصم ، بالرغم من أنهم قد يخلفون شيئًا من أمعائهم في هؤلاء الذين يلسعونهم : وعليه فمن المناسب لهم ، وهم يقومون بالغزو أن تدور بخلدهم ، فيما يتعلق بالمدَّة (الدية) فكرة دفع قيمة هذه الدية من ملكهم الخاص ، حتى عندما يتعين عليهم قتل عدو من أعدائهم . سألته : "وماذا يحدث إذا لم يتم الوفاء ؟" أجابني : "نحن لا يمكن أن نفعل ذلك ، نظرا لأنه يترتب عليه تهديد حياة الجميع طول الوقت وعلى مدى الأيام ؛ وهنا يتحتم على العدو أن يقتل وعلى الفور أي واحد منا عندما يلتقيه ."

هؤلاء الغرباء ، كانوا على وشك النزول عند خيمة أبي سنون عندما أبصروها مفرودة وواسعة ، وربما لم تكن لديهم الثقة التي تجعلهم يسألون عن الشيخ في مَنْزِل أعدائهم . قامت حمدى [*] ، زوجة محمد ، بطبخ الأرز المطلوب للعزيمة ، ولكن طلَّجَ Tollog دعاهم بعد ذلك إلى الذهاب إلى خيمته ؛ إذ يتعين أن يكونوا ضيوفا على الشيخ . هؤلاء الضيوف هم والشيخ كلهم كانوا رجالا أجلاء ، يتمتعون بتواضع الشيوخ واعتدالهم ، وكانوا يتكلمون بود وشفقه بقدر المستطاع ؛ كان هؤلاء لا يطلبون أي شيء سوى المنطق والعقل ، ولكن أولئك كانوا لا يريدون تضليلهم أو تأخيرهم . كان أبو بطن ، ذلك الرجل المتقدم في السن ، وصاحب المظهر الضعيف (أبشع من رأيت في بلدة كيراك Kerak البدوية في موءاب) ، كان من المطالبين بالدم والثأر : – فقد سبق له التعامل مع رجال القبائل الذين قتلوا ولده . والمعروف أن الغزو لا يلتقي إلا بقلة قليلة من الرعاة ، الذين لا يقوون على معارضته والتصدى له ؛ ولكن بعضا من الموءاهيب ، عندما اكتشفوا بعضا من الحويطات في ديارهم ، حملوا عليهم وراحوا يهاجمونهم وذلك من باب الدفاع عن مواشيهم ، ووصل بهم الأمر إلى حد فتح النار على جسد واحد منهم . وهنا تنهد والد ذلك الابن الشجاع ، لأن ذلك اليوم كان ينتظره

(*) حمدى : من المرجح أن يكون الاسم حمدية أو حمادى . (المراجع)

فى ذلك المدفن الضحل: "آه - ها ! ويل لى !" وينهى الرجل حديثه بتنهيدة عميقة قائلا : "نحن لا نسرق سوى المواشى ، ولكنكم تقتلون الرجال :"؛ وتنهد طلِّج Tollog من بعد الرجل ، لأنه كان أبا ، ثم لاذ الاثنان بالصمت .

عندما تحدثت مع هؤلاء متسائلا عن ديرتهم ، أجابوا على أسئلتى إجابات خالية من دلائل أو إشارات الحقد البدوى البغيض على دينٍ معادٍ . الأعراب بوسعهم الجلوس فترة طويلة فى جلال مهيب ، ثم تراهم بعد ذلك يسرُّون عن أنفسهم بشىء من السخرية الخرافية : وهنا قال شويش Shwoysh ، شقيق الزوجة المغربية ، قال وهو يجمع بين المرح والمرارة ، وعلى مسمع ومرأى من أولئك القبليين الأقرباء ، قال وهو يبتسم : نحن قوم ، يا خليل ، مع الحويطات ،- وقد يكون من بينهم أناس طيبين من أمثال هؤلاء الناس ، ولكن الباقين كلهم أشرار وأقذار ! - أعراب منهم ، نصبوا مخيمهم الصيفى على نبع من ينابيع مياهنا فى تهامة ،- وقد أرسل الله عليهم الفوضى والارتباك! أقول ، أليس لديك من بين أدويتك شىء سام أو مهلك نضعه لهم فى الآبار ، حتى نسممهم ، وسوف نكافؤك على ذلك "،- "دينى يحثنى على التعامل مع الرجال جميعا كما لو كانوا أشقاء ؛ إن فضتكم سواء أكانت فوق الأرض أو تحتها لا يمكن أن تحركنى فى هذا الاتجاه أو تغرينى ." وهنا ابستم الحويطانيون ابتسامة تنم عن الدهشة وقالوا : "أنعم بما قلت !" ورددت عليهم ، بأنى أتطلع إلى زيارتهم فى وقت من الأوقات . "(قال أبو بطن) إذًا أنا وصلت إلى ديرتهم ، فذلك يحتم عليهم الترحيب بى ." - بقى مَنْزلنا منصوبا إلى ما بعد رحيل الحويطانيين ، "مخافة أن يروا فى الرحلة المزيد من أراضى الحرَّة ." والبدوى المترحل عندما يمشى فى أرض غريبة عليه ، يتمعن تماما فى العلامات الأرضية ، حتى يتسنى له تذكرها عندما يمر بها مرة أخرى : زد على ذلك أن ركاب الدواب المتمرسين لديهم معرفه قليلة بهذا الجزء من البلاد ، أو إن شئت فقل : الديرة بركانية التربة .

تمنيت لو صعدت عناز ذلك التل البركانى العظيم ، وألقى منه نظرة على ذلك الجزء البركانى من البلاد : ولكن كلما وافق أحد على اصطحابى إلى هناك منعه الشيخ من ذلك ؛ احتفظ الشيخ طلِّج Tollog بذلك الامتياز لنفسه وأبنائه فقط. كان يدور بذهنه أنى ربما أنفعه فى اكتشاف عيون الماء أو الكنوز : وهو بصفته بدوى ، لم يخطر بباله

أى شيء آخر غير أن مجيئى إلى هنا إنما هو للإثراء ليس إلا، وأنه سوف يثرى معى. شيوخ الفجير ، أصحاب العقول المدنية الأكثر تحضرا ، فهموا ضباط الحج حق الفهم؛ أما هؤلاء الناس فهم أصحاب آراء متحجرة ، ومتسلقى جبال أشداء . بعد أن بحث طلُّج Tollog فى قلبه عن كل غريب سمعه من النصارى ، طلب منى أثناء جلوسنا حول وجار القهوه : "يا خليل ، بالله عليك ، أليس هناك وعاء للهواء - خبرنى عن مثل هذا الإناء ، وأعط بقية الجماعة فرصة للاستماع إلى ما تقول - يستطيع النصارى الطيران فيه ؟" - "هذا صحيح تماما ، يا طلُّج ؛ فقاعة كبيرة داخل جوال من الحرير ، أكبر من هذه الخيمة ، وبوسعه أن يطفو فى الهواء ." طلُّج Tollog : "قل لنا المزيد عن ذلك ! أليست هناك سفينة تصنع كى تسير تحت سطح الماء ، وبداخلها كل أعرابها ، والتى تستطيع الارتفاع فوق سطح الماء مرة ثانية ؟" - "(سألته) من أين جاء بما قال ؟"- "من ولد من أبناء عمه (هو واحد من السبيعات Sbaite) فى سوريا ، الذى تزوج من امرأة غربية ، ثرية جداً ، من بلاد فيما وراء البحار ، أو أنه لا يعرف من أين جاءت ."

انتقلنا إلى مكان آخر مرة ثانية ، وبعد أن نصبنا خيامنا ، نظرت حولى من فوق الأرض المرتفعة ، وأحصيت حوالى أربعين قمة من قمم تلال البراكين داخل أفق المنطقة التى كنا فيها ؛ وخرجت بعد ذلك لزيارة أقرب تلك القمم إلينا . ومسألة السير لمدة ميل واحد ، أمر صعب ومرهق ، وبخاصة فوق الصخور البركانية الحادة ومنايم أو إن شئت فقل : أحواض الصخور والأحجار البركانية شديدة الوعورة . وهنا سارعت إلى القيام بتلك الزيارة قبل أن ينادى على أى أحد من الأصدقاء الودودين ويمنعونى من ذلك ؛ وعليه وصلت إلى مخروط وقمة تل بركانى هما الأصغر من نوعهما فى هذه المنطقة ، إذ يصل ارتفاعهما إلى حوالى ٣٠٠ قدم ، وهما من المواد البركانية التى تقذفها البراكين ، وصخورهما من الصخور النارية الصدئة الخفيفة ، ولها كثير من الحواف الحادة . جانب هذا التل أثرت عليه الأمطار منذ عصور وآجال طويلة . تسلقت قمة هذا التل ثم دخلت الفتحة البركانية الموجودة أعلاه . داخل هذه الفتحة شاهدت جدران حادة من الحمم البركانية المتجمدة ، كما وجدت القسم البعيد من تلك الفتحة مهشما - وقد حدث ذلك التكسير قبل اندلاع الحمم البركانية - كما وجدت أيضا أن ذلك القسم كانت تغطيه قشره من الصخور النارية الناتجة عن ثورة البركان والطفح

الذى نزل على الجانبين نتيجة لذلك ، كما عثرت أيضا على صخرة جرانيتية حمراء اللون ، هوت من رأس واحد من تلك التلال البركانية ، إلى عمق الجبل . هؤلاء البدو الرحل يطلقون على الحجر الجرانيتى الأحمر ، اسم "حجر" hajr "الكرا" el-kra، وهذا الحجر ، يوجد فى بعض الصخور ، على عمق ليس بكبير ، وهم يقولون إنهم يشاهدون هذا الجرانيت الأحمر بالقرب من عناز Anâz ؛ كما يقولون أيضا : إن الجرانيت الأحمر موجود أيضا تحت جبال العويرض . توجد أيضا بعض البقايا الأثرية فى قرية جاو Jau ، وهذه البقايا الأثريه بنيت من كتل كبيرة من المادة نفسها ، أو إن شئت فقل من الحجر نفسه : وفهمت من البدو أن ذلك الصخر ، أى الجرانيت الأحمر ، إنه يشكل الصخر المكونة منه الطبقة السفلى من ديرة الشّفا Shéfa ، كما أن الجرانيت الأحمر يتمثل أيضا فى العلامات الأرضية البارزة القوية التى تظهر عند الأفق الشمالى الغربى، أى فى جبال تهامة ، أو بالتحديد فى كل من الوتيد Wuttid وجولة Jowla . والبدو يصنعون من أحجار الجرانيت فى قرية الحجر أفضل أنواع أحجار الرحى التى يستعملونها فى طحن الحب : هؤلاء البدو ليست لديهم العدد اللازمة لذلك، ولكنهم عندما يكونون بحاجة إلى كتلة من الجرانيت فإنهم يطرقون عليها، بلا انقطاع ، مستعملين فى ذلك صخرة صلبة أخرى ، إلى أن يطوعوها إلى الشكل الذى يريدونه ؛ وهم يحدثون ثقبا فى الصخرة التى من هذا القبيل ، عن طريق الطرق على رأس مسمار . وقد عثرت على حفرة طبيعية تحت قمة التل البركانى ويميل لونها إلى الاصفرار ، وقد نتجت تلك الحفرة عن خليج بركانى حدث فى الزمن البعيد جداً ، كما عثرت فى الأحجار المحيطة بتلك الحفرة ، على كثير من البللورات الشائعة التى يميل لونها إلى الاخضرار.

نحن نطل من أى مكان هنا على الحرّة ، على أرض جرداء تغلب عليها مكونات الحديد ؛ هذه مادة بركانية شديدة السواد وخالية من الحياة !– هذه عبارة عن وجه كالح متجمد من وجوه الطبيعة التى لا تعرف الابتسامة إلى أبد الآبدين ، أرض جرداء قاحلة مكونة من مادة تثير فى نفس من يراها لواعج الاحتراق والرعب . ما هى حياة العزلة التى لا يمكن أن تستشعر التحفظ وهى تتجاوز هذا المكان أو تتعداه ! السماء أيضا جرداء ، التربة عبارة عن مقاساة شديدة ! أين يبحث عن الراحة والسلوى ،

ذلك الذى تحدثه نفسه بالمجيء إلى هذا المكان ؟ – الإنسان في مثل هذا المكان يصاب وعيه بالاندهاش عندما يدرك وجوده المسكين فى هذا المكان، كما يحس أيضا باندهاش دنيوى ، في وجود قامة مقدسة أو سماوية من ذلك العالم المكون من العناصر ! هذه القوى الكوزمولوجية(*) الرابضة مثل الأسود عند نومها ، تبتلع داخلها برغشة الروح ، – تلك الحركة القصيرة والاغتصاب المتطفل الذى يشكل الحادث الضعيف فى المادة . شاهدت عناز ، كما لو كان راكبا عاصفة صخرية ، على بعد اثنى عشر ميلا ! – وقد أصابنى اليأس من مسألة الذهاب إلى هناك ، قاطعا المسافة كلها وسط الكثير من المنخفضات البركانية والشعاب الصخرية ، وكثير من الصخور البازلتية المتحدرة .

ومع تنقلنا مرة ثانية خلال الحرَّة ، خطر ببالى أننى لا أصدق أننى أتجول فى ديرة فظيعة من هذا القبيل ! المنظر من هنا يبدو (كما لو أن آلاف الثنيات) التى ترهق العين التى تنظر من أسفل بركان فيزوف فى اتجاه الجنوب الشرقى ؛ ذلك الاتجاه الذى يصعب على الأوروبى السير فيه بقلب مكلوم يترتب عليه إرباك قدميه ! – ولكن تجوال البدو ، فى الجزيرة العربية ، جلب عليهم اللبن والسمن لينتفعوا بهما فى حياتهم فقيرة الحال . والأعراب عندما ينزلون فى مكان وعر ، مثل قاع برى على سبيل المثال ، فإنهم يقيمون فى ذلك المكان مدة ليلتين أو ثلاث ليال من ليالى الصحراء ، بنهارين أو ثلاثة نهارات أيضا ، وهنا تصبح شقوق البازلت الضخمة ، هى والقلة القليلة من الأشجار الشوكية ، وكذلك أدغال نبات الوزَّال الهزيلة ، كل ذلك يتلاشى أمام عيون معارفنا الذين درجوا على رؤية هذه الأشياء ، ولكنها بالنسبة لنا تحظى بكثير من الحب الإنسانى ، إلى الحد الذى يصعب معه علينا تركها أو عدم العزوف عنها ؛ – وبالتالى فإن الماهوبى الذى يولد فى هذه البيئة يكون بينه وبين الحرة شكل من أشكال علاقة الحُب والإعزاز . هؤلاء المواهيب ، بمنطقهم البسيط يفترضون أن جزءًا كبيرا من العالم على هذه الشاكلة ، أى أنه عبارة عن صخور بركانية : وأطفال المواهيب هم ونسائهم طرحوا علىَّ السؤال التالى : "هل ديرتك ، يا خليل ، حرَّة أم سهول رملية ؟"

(*) الكوزمولوجيا : فرع من فروع الميتافيزيقيا يعتبر العالم كله منتظما . (المترجم)

لا يوجد أي شكل من أشكال الحياة في هذا المكان غير الأعراب هم وماشيتهم . في هذا المكان نقي الهواء والمرتفع لا يعيش الذباب ، الذي يوجد على شكل أسراب في ديار الأعراب الجرداء القاحلة . لا يوجد في هذا المكان سوى طائر وحيد أسود صغير ، ضامر الشكل ، هذا الطائر الصغير حجمه أصغر من طائر الدُّج ، وفيه بعض الريش الأبيض ؛ والبدو هنا يطلقون على ذلك الطائر اسم السويدية Sweydia ، التي تعيش بالقرب من الجنس البشري شأنها في ذلك شأن الطائر الذي يقولون له "صاحب الصدر الأحمر" . وفي كثير من الأحيان يسمع المترحل بين هذه الصخور ، صوت السويدية وهو ينبعث فجأة وعلى دفعات قصيرة مدويا فوق المروج الجرداء ، في الطرق والمسارات الصحراوية ، بين خرائب الجبال التيتانية Titanic والخوف ، ولهذا الصوت عذوبة كما لو كان قادما إلى روح من يسمعه ، من روح حانية عطوفة . ولا يوجد من الوحوش البرية في هذا المكان سوى الذئاب التي تعوى بين منازلنا الجبلية : هذه الذئاب توجد بأعداد كبيرة فوق الحرَّة ، وهي في هذا المكان أجرأ وأشرس من ذئاب الديار السهلية . والليل هادئ وسماؤه صافية ، في الجزيرة العربية ، ومع ذلك كان الجو منعشا عند مثل هذا الارتفاع وبخاصة في الأسابيع الأولى من شهر يونيو ؛ زد على ذلك أن نهارات الصيف هنا تكون عامرة بالهواء أيضا . وذات يوم في الصباح وجدت أن درجة الحرارة كانت ٧٩° فهرنهيتية عند شروق الشمس ، كما سجلت درجة الحرارة في جيلة Jaila 90° فهرنهيتية ، وعند منتصف النهار كانت درجة الحرارة ٩٥° فهرنهيتية في ظل الخيمة. هذه الأرض المرتفعة تكون قارسة البرودة في فصل الشتاء ؛ هذا يعني أن البدو الرُّحَّل لا يقوون على مقاومة لفحات البرد القارس : الأهم من ذلك أن الحيوانات البرية نفسها تهجر الحرَّة في ذلك الموسم . زد على ذلك ، أن المواهيب يعودون إلى تهامة في ذلك الوقت من العام ، ويحتمون بقاع وادي جزِّل Jizzl؛ الذي يعثرون فيه على الكثير من حطب الطرفاء (*) الجاف ، الذي يظل مشتعلا طول الليل داخل خيامهم المغلقه والمصنوعة من صوف الغنم : في الوقت الذي لا يضع البدو فيه على أجسادهم سوى قميص فضفاض من القطن ، ومن فوقه عباءة (بشت) واسعة ،

(*) يطلق البدو عليه اسم "الطرفة" . (المترجم)

كما أن الغالبية العظمى من هؤلاء البدو تنام بدون لحُف أو بطانيات ، ومع ذلك فهم يقولون : "نحن لا نعاني سوى القليل من البرد ، هذا إن لم نعاني منه على الإطلاق ." والبدو أثناء نهار الشتاء يسلون أنفسهم برشف القهوة أو الحليب بعد تسخينه ؛ وشمس الظهيرة في الشتاء تكون دافئة دوما في هذه الحرَّة .

الماء الذي كتب لنا أن نشربه في ديرة الصخور البركانية ، كان من إحدى البرك وكان لونه أسود ، وغليظ القوام وكريه الرائحة أيضا . هذه البركة تصل إلى الحثالة بعد أن تشرب الإبل منها مرتين أو ثلاث مرات ، وسرعان ما يتحول لون هذا الماء إلى اللون الأبيض الذي يغلب على لون الكتان ؛ ومع ذلك فإن البدو يملئون قرابهم من ذلك الماء ويشكرون الله :- إذ لا يوجد ماء آخر غير هذا الماء . ولكن الأسوأ من هذا ! أن البعض منهم ينزلون إلى ذلك الماء ليغتسلوا فيه ، إذا لم يجدوا إلى جوارهم واحداً من الشيوخ الذين يمنعونهم من ذلك ، والأدهى من ذلك أنهم يخلعون ثيابهم ويغسلونها في ذلك الماء: - والبدو دائما ، إذا ما توفر لهم الماء ، فإنهم يستحمون منه وذلك بحكم تعاليم الدين عندهم ؛ وفي المنازل يحمل البدوي سطلا من الماء ويخرج من الخيمة ، ليطهر نفسه في مكان مستور في الصحراء . ويحتمل أن البدو الرحل يقومون بتنظيف البرك (التي يتعين عليهم أن يتركوا فيها نصف ماءها ،) من الرواسب التي تسببت فيها الأجيال السابقة ؛ صحيح أن البدو لديهم سرعة البديهة ، ولكنهم يفتقرون إلى فضيلة العمل الجماعي ؛ زد على ذلك ، أن سلطةالشيخ ، لا يمكن أن تعمل على تقييد حرية أفراد القبيلة . قد يوجد بين الحين والآخر ، بين البدو ، بعض الأرواح (الأفراد) المحرضة ، على التمييز بين حرية الإرادة والمصلحة الخاصة ، وبالتالي يقوم البدو بتنظيف بعض الآبار التي يكونون قد توقفوا عن تنظيفها وتطهيرها .

عندئذ عاد أبو سنون مرة ثانية قادما من الخضر el-Khuthr وتبوك Tebuk وكان بصحبته بعض من رجال تبوك ، وهم أيضا جمَّالة من بني عطية . استراح معنا أبو سنون يوما واحداً ، وفي الصباح يمموا مسيرهم نازلين في اتجاه قرية الوجه . وهنا "(قال أبو سنون) يا خليل ، إنها لمصادفة غريبة أن تلقاني هنا ، وأن ألقاك أنا في هذه الأرض الجرداء الخراب . أنا مغربي ، وأنت إنجليزي ! - آه ! أين مني جبال مرّاكش البرّاد ، وأين مني تلك المياه الجارية في الوديان ، وكل ذلك نعمة من الله ؟ -

أين حقول القمح في البلاد ، وأين البساتين يانعة الثمار ، والليمون والبرتقال ، والأترج ، والكروم ، والرمان التى نعصرها لنحولها إلى مشروبات للصيف ، وأين ذلك القرع العسلى كبير الحجم الذى تمتد عيدانه على الأرض ، وأين منى ذلك البطيخ المنعش ؟ - هذه الأشياء الطيبة ، ألست رجلا غبيا ، عندما أهجرها ، لأجيء هنا لأعيش حياة البدو التعيسة الشقية ، وسط هذه الصخور الحارقة وبلا أى ظل يحمى من أشعة الشمس ؟" - "ولكنك ، يا محمد ، وجدت نعمة الله هنا أيضا ؛ ما الذى يريده الإنسان غير ثروة سهلة ؟" - "حسن . تقول الإنسان الذى يستطيع التغيير من مكان إلى مكان ، يستطيع أن يجد هذه النعمة في أية ديرة من الديار ؛" ثم أردف أبو سنون قائلا وهو يتنهد : "لن تطول حياته" ؛ كان يرى أن وفاته في هذه الصحراء ليست سوى شكل من أشكال التعاسة ، تاركا وراءه ولده من بعده ليكون بدويا هو الآخر . سألنى وهو يكاد يبكى ويضحك فى آن واحد : "أليس لك ، عندما تعود إلى الغرب أن تحمل معك ذلك الطفل (ذلك الصبى غير البار) إلى هناك ؟" كانت إبل محمد فى ذلك اليوم تزيد على عشرين جملا وجميعها صالحة ، وأن عنزاته وغنمه لا يقل عددها عن مائة عنزة ونعجة ؛ وهو فى الوقت الراهن لا يرى أى إنسان آخر أثرى أو أغنى منه بين هؤلاء البدو الرحل "الضعاف" .

حدثنى أبو سنون عن سفره من الغرب بصحبة بعض الناس المراكشيين الآخرين: أبحروا من هناك قاصدين الحج ، بصفتهم من المغاربة المغامرين ، الذين كانوا يبحثون عن الثراء . وفى أعالى البحار فاجأتهم العواصف ، وحملت الريح أثناء ثورتها ، قاربهم أياما عدة ، ولما كانوا عاجزين عن رؤية الشمس ورؤية النجوم أيضا ، فقد دفعتهم العاصفة فى اتجاه الشرق ، إلى أن وصلوا إلى ساحل الأناضول Anatoly ، واستطاعوا إنقاذ أنفسهم فى مرفأ أزمير Smyrna . ولما كانوا يعانون من الدوخة والدوار على إثر وجودهم على ظهر القارب ، وعلى إثر نجاتهم أخيرا من خطر الموت ، استطاعوا فى النهاية أن يسمعوا أنفسهم وهم يتحدثون إلى بعض الناس فى أرض غريبة وبلغتهم الخاصة ، كما استقبلهم ضابط الصحة فى المرفأ استقبالا طيبا ؛ كان ذلك الضابط طليانى الجنسية (نظرا لأن غالبية الضباط فى الحجر الصحى فى الليفانت Levant هم من الطليان) . سألنى محمد ، وعلى وجهه ابتسامة نتجت عن

تذكر شيء طيب ، سألني عما إذا كان الطليان والإنجليز أمة واحدة ؟ ولم ينشرح صدر محمد كثيرا ، عندما أجبته ، من باب إعلاء الحقيقة ، قائلا : "إنهما ليسا أمة واحدة ."

رحلات محمد فيما بين تبوك والوجه لم تكن خالية من الأخطار . كان محمد يقطع هذه الرحلة ثلاث مرات طوال فصل الصيف الحار ، بل وربما أربع مرات في بعض السنوات ، وكل رحلة من هذه الرحلات ذهابا وإيابا ، يصل طولها إلى ما يقرب من خمسمائة ميل صحراوي . ولو قدر لغزو من الغزوات أن يقطعوا عليه طريقه وسرقوا منه إبله، فإن خسارته ربما وصلت إلى حد لا يستطيع معه تعويضها حتى بعد القيام بكثير من تلك الرحلات المؤلمة . جرى الهجوم على أبي سنون في العام الماضي وأخذوا منه ناقته التي كان يركبها ، ولم يكن قد تجاوز سوى سهل الحجر ، ووقع ذلك السطو في المنطقة ما بين وادي تربة Thirba والقلعة . أثناء العودة من الشمال شاهدوا جماعة صغيرة مكونة من ستة راكبين ، ولكن هؤلاء الراكبين لم يلاحظوا أفراد الغزو . وهنا استدار أبو سنون وأوصل ذلك الخبر إلى مهنّا Mahanna ؛ لقد انتقل السحامه Shemma بالفعل. وبعد ان استمع محمد أبو سنون إلى آخر الأخبار الخاصة بترحالنا، تمكن من الصعود مباشرة من ذلك المكان إلى مُنْزَلنا ، على بعد حوالي ثلاثين ميلا من المكان الذي تركنا فيه . خط سير البدو الرحل يصعب اقتفاء أثره في هذه الأراضي البركانية ؛ والسبب في ذلك هو قلة وجود الرمل بين هذه الصخور ، مما يجعل عملية قص الأثر صعبة بل ومستحيلة . هؤلاء الأعراب يقولون لي إنهم عندما يقيمون مخيما من المخيمات ، فإن أسرة الأعرابي الذي يكون متغيبا عنها ، تقوم برسم خط من حول هذه الدار المهجورة ، بحيث يوضح هذا الخط موقع المنزل الجديد ، أو قد يستعملون إشارة أخرى هي عبارة عن غصن أخضر من أغصان السنط ، هؤلاء الذين ولدوا في الصحراء تنمو لديهم مهارة عظيمة عن الطرق والمسارات ، ومع ذلك فإن الغرباء الذين يتدربون على الحياة البدوية قد يصبحوا بدوا . ومن الممكن للبدو أن يذهبوا للبحث بثقة كاملة ، عن منازل مجهولة في الصحراء الشاسعة ، التي يعرفون أماكن الماء فيها ، ومن ثم لا تكون طاردة بالنسبة لهم . وعندما يجد الأعراب أن المكان الذي عثروا عليه لم يكن معروفا ، أو إن شئت فقل : مجهولا لهم ، فهذا يحتم عليهم أن تدور في أذهانهم مشكلة من نوع ما، – "في هذا الموسم يتعين علينا البحث عنهم في المكان كيت وكيت ؛

وسـوف نركب إلى هنا المسـقى أو ذاك ، وهنا سنرى آثار أقـدامـهم" إن قـدر لهم أن يكونوا في هذه الديرة أو المنطقـة ، - وإذا لم نتمكن من ذلك ، دعونا نبـحث عنهم فى مكان آخـر ، يحـتمل أن يكون أولئك الأعـراب قـد لجـأوا إليـه ." هـؤلاء الأعـراب عندمـا يجدون قطعة من الصـحراء جرداء ، وليس فى تربتها أى شـىء من النبات ، يعرفون أن المطر لم يسقط على هذه المنطقة !- وبالتالى يستنتجون أن الأعراب الذين يبحثون عنهم لم يجيـئوا إلى هذا المكان ، ويتـجـهـون البحث عنهم فى مكان آخـر : هذا يعنى أنهم (البدو) فى المناطق البدوية الواسعة الشاسعة ، قد يعثرون فيها على أصدقائهم . والبدو الذين يعـودون بعـد طول غيـاب ، ومن بلاد بعـيـدة ، مـثل سـوريا ، ومكة ، والعـراق ، يسـألون عن الأعراب الأصدقاء ؛ وهـم يذهبون لتصيد الأخبار من قرى الأسواق مثل قرية تيمة (تيماء) أو قرية العلا .

قال محـمد : "قد أكون بصـحبته غدا !" ولكنى أجبته قائلا : "لا" ، والسبب فى ذلك أنى بلغت من الضـعف حدًا لم اتمكن معه من التضـحية بـهواء الجبال ، وأقوم فى هذه الشـمس الحارقة بعبور سـهول تهامـة شديدة الحرارة . بقيت فى خيمتى ، وتنقلت على ظهر ناقتى ، ولم أتلقى أى شـىء من العرب الجائلين سوى الماء . وعندما كنت أشرب شيئًا من الحليب كنت أحـرص على رد قيمـة ذلك الذى أخذته ؛ هذا وقد أغـدقت على أبى سنون العطاء نظيـر فناجـيل الأرز الثـلاثة التى أعطانى إياها على امـتـداد أيام الضـيافه الثـلاثة ، فقد أعطيته ريالات كثيرة . كان المتسـوقون البلى Billi يذهبون إلى الوجه كل بضـعة أسـابيع قليلة ؛ قـد انتظر بعض الوقت ، ولكن نظرا لأن كل حـبة من حبات الهـواء كانت تنعش روحى ونفسـى ، فقـد رحت أتأمل من جديد مسـألة التـجوال خلال الجزيرة العربيـة . بدأ يتبدى لى أن وجود الغريب مع الأعراب أصـبح أمرا غير مـرغوب فيه من جانب الشـيخ العـجوز الحقود ، فقد وجه الشيخ طُلَّج Tollog اللوم إلى المغربى بسـببى ، وقـال مـحـمـد : "أنا لا يمكن أن أعصـى أوامـر الشـيخ ، بالرغم من أنى أود لك أن تسكن وتعيش مـعى هنـا ؛ هم يقـولـون : إنك واحـد من الفـرنجـة أتيت قـبلهم وأنهم سوف يحتلون ديرتنا . يجب أن لا يغيب عنك أن طُلَّج غضـبـان ، ولا يمكن لأحد أن يعارضـه أو يفعل غير مـا يريده هو ، ويجب أن لا يغيـب عن بـالك أن هـؤلاء بدو ، ولا يعرفـون شـيئـا عن الدنيـا مـن حـولهـم ." سـألت طُلَّج Tollog ونحـن فى المجلس ،

حول هذا الأمر ، "قال : اذهب مع محمد باكر ، وسوف يوصلك إلى قرية الوجه ؛ واعلم يا خليل ، أنك لن يصبح بوسعك بعد اليوم مرافقة الأعراب ." - "وإلى أين أنت ذاهب يا طلَّج ؟" - "أنا ذاهب غداً إلى الجبيلي ، سوف أشترك في الغزو (هذه أسباب ملفقة ساقها بدافع من أدبه البدوي) ؛ زد على ذلك ، أن الأعراب على وشك الرحيل إلى مكان بعيد ، في ديار تعاني من العطش الشديد ، ورحيلك يحميك من تلك المعاناة ." - "يا طلَّج Tollog ، أنتم أيها البدو ، لستم سوى أفراد ظمآنين ، ولكنى أنا أشرب القليل جداً من الماء وبوسعي تحمل الكثير مع الأعراب ، سواء أكان ذلك ظمأ أم جوعاً ؛ كل ما في الأمر أني أمل ألا تطردني بطريقة غير ودية ، في هذا الجو شديد الحرارة ، كي أموت في تهامة . أبداً ، يا طلَّج ، سوف أبقى معك ومع الأعراب ." - "بالله ، هذا لن يكون يا خليل ؛ إذ من الأفضل لك أن تعود إلى شعبك ، ولا تموت : ارحل غدا مع إبي سنون ، ولكن اشرب الآن قهوتك ، ولا نتكلم معنا حول هذا الموضوع بعد ذلك ."

طوال ذلك اليوم (وبناء على طلب طلَّج) لم يعطيني رب الأسرة التي كنت أسكن معها أي شيء من الماء كي أشربه ؛ من منطلق أن شعوري بالظمأ يمكن أن يعجل برحيلي عن الأعراب . كان المضيف يتحمل ذلك على مضض ؛ ولكني في فترة ما قبل الظهيرة ، وعلى العكس من كل طقوسهم ، التي تتنافى مع المنطق الإنساني ، ذهبت وطلبت جرعة ماء ، وهذا أمر لا يمكن إنكاره في الخيام المجاورة . وهنا خطر ببالي أن اتفق مع راعي من الرعاة البدو ، والذي وجدت أن لديه استعداداً للقيام بذلك ، على أن يقوم بإرشادي كي أصل إلى عناز Anaz ، وبذلك يتسنى لي عندما أنزل من الحرَّة ، زيارة كلا من بدا Béda ومدين Middan ، اللتان يقال عنهما إنهما يمثلان قرية أثرية مخربة في تهامة ، ثم أنتقل بعد ذلك من تهامة إلى الوجه . قالت لي زوجته ، إنه ذهب للسقيا ، وسوف يعود خلال فترة وجيزة . دعتني إلى الجلوس في الخيمة ، ثم صبت لي شيئا من الماء واللبن ؛ - سألتني ، بطريقة نفاق النساء ، هل تسارع وتذبح لي تيسا ؟ استدعت نديماتها وراحت تجعلهن ينظرن إلى النصراني في بيتها . وهنا جاء الرجال من البيوت ، وجاءت النساء البدويات : أمهات وبنات ، جئن جميعا ليجلسن ويطلقن لألسنتهن العنان ، ويشبعن فضولهن عن طريق الكلام مع الغريب . وبعد بداية الكلام ، أصبح كل هؤلاء الحريم يقفون إلى جانبي ، ورُحْنَ يدِنَّ سوء نية الأعراب وجهلهم ، لأنهم أساءوا فهم ديني ، "الذي لم يكن شريرا ، على حد قول الرجال ؛- كيف نصلي

نحن ؟ - خليل ، هل لك أن تقول لنا شيئا من صلواتكم ؟ هل تصلى بلغتك ؟ وهى ليست لغه عربية ." تلوت عليهن شيئا من صلاة الرب . "يا الله ! صحن قائلات : نحن ظالمون ، انظروا إنه يصلى بحق ، هؤلاء أناس طيبين ." ثم أضفن بعد ذلك المثل الذى يقول : "..."(*) هذا هو ما قالته ربات البيوت ، - بنات الطبيعة ، وبتواضع : "سوف نسأل عنك ، ونعرف إذا كان كما نسمع ، أن النصارى لا يختنون ، وكيف يستطيع الرجل معاشرة زوجته على هذا الوضع ؟ سألتنى ربات البيوت إن كان لدى دواء لواحد من أزواجهن الشباب ، التى لم تحمل منه زوجته بعد عامين أو ثلاثة أعوام من الزواج . وامتدحت النديمات "صبر" تلك الزوجة ، على زوجها وعدم تركها له ، لأن من حقها أن تفعل ذلك ."

كان فايز Faiz ، زوج هذه المرأة ، الذى وصل فى تلك اللحظة ، غير راغب فى مرافقتى ، نظرا لأن الشيخ كان قد منع ذلك منعا باتا . كان فايز هذا واحداً من الذين أعطونى فكرة عن الديار التى لا تحوم من حولها الشكوك . وفى عصر يوم من الأيام ، كان فايز هذا قد رسم لى على الرمل بمشعابه ، شكل الحرّة ، وكان يستعمل الأحجار فى تحديد الجبال ، وفى تحديد مجارى السيول أيضا ، وكذلك الوديان ، بما فى ذلك وادى الحريرى Hareyry ، ووادى الحمض el-Humth . وعندما نظرنا إلى الأعلى كانت الشمس توشك على الغروب ، ونهض الرجال من مجلسهم ، وذهب كل منهم لأداء الصلاة . وهنا يعجب فايز ، فلم يرانى عندما أوشكت على أن أجثو على ركبتى وأقول : "أين ربُّك ؟ هذا هو الوقت الذى تطلب وتلتمس فيه العفو من الله !" مات فايز فى نهاية صيف ذلك العام فى سهل الحجر قبل وادى تربة eth-Thirba ، فى الغزو الذى قام به البِشْر Bishr ، والذى أسفر فى ذلك اليوم الأغبر عن سرقة واغتصاب كل الماشية العظيمة التى لدى هؤلاء القبليين . ولما كان فايز من معدن أصيل وعنيد أيضا فقد اندفع بين مائة من الرجال المسلحين الأعداء ؛ لم يرض عن تسليم كل ما لديه فى هذه الدنيا ، فضلا عن ثقته أيضا بالإبل المملوكة للشيخ طلّج :- وهنا وضعت طلقة طائشة ، انطلقت من يد آثمة ، نهاية لمقاومة ذلك الرجل العنيد .

(*) رأينا حذف المثل لأنه يمس بالدين الإسلامى . (الناشر)

ملحق الفصل الرابع عشر

كلمه "ناموس" ؛ فى القاموس ، أو إن شئت فقل : .فى القاموس المحيط ، تجد كلمة "ناقوس" أو "ناجوس" بمعنى "الجرس" والنواميس تكون هى الأخرى على شكل أجراس : ونجد أيضا مادة "ناموس" بمعنى "عرين" أو "مريض" - ، وبخاصة كفن الصياد ؛ وحيث توجد النواميس توجد بعض الزنازين المصنوعة من الحجر ولها أبواب ويحكي لنا البدو عنها على إنها فخاخ لصيد الفهود والضباع . والنواميس السيناوية شبيهة بالرجوم الموجودة فى حرَّة العويرض ، وفى خيبر ، وسوف نوضح أن تلك عبارة عن مجرد جحور ليس إلا .- ومن رأى السير هنرى رولنسون أن كلمة "ناموس" السيناوية قد تعنى أيضا "مقابر" ؛ وهو يقول : إن حرف الميم وكذلك حرف الـ V يتداخلان ، وأن الشكل الصحيح لهذه الكلمة هو "ناقوس" وهذه الكلمه كانت معروفة فى كل الأماكن التى تواجد فيها العرب . وكلمة "ناقوس" فارسية الأصل ، ولكنها دخلت العربية وأصبحت تطلق على الجبانة القديمة وهذه الكلمة تداخلت مع الكلمة الإغريقية vaós، كما كانت هناك مئات النواقيس حول بلاد الرافدين، وورد ذكرها عند المؤلفين القدماء .

الفصل الخامس عشر

حياة البدو الرُّحل في الحَرَّة

طلُّوج يأمر والنصراني يقاوم . طاسة مهيبة من اللبن . يخشون من تصليح النصراني للشاي . زيارة طلوج أثناء الليل . بلاد الشفا . صورة لسطح الأرض . حرّة العويرض . الآثار الكوكبية في الحّرة. فورة بركانية عظيمة . بركان فيزوفس. هل الحمم البركانية Lava هي ما يقول له العرب "لابا" Laba ؟ الطلب من البدو فن . الشيوخ ليست لديهم معرفة كبيرة بالأرض . قبيلة جهينة القديمة . ارتفاع الحّرة . طلّوج يزود الغريب في خيمته . طلُّوج يصاب بالمرض . جمل الشيخ . أغنام البدو الرُّحَّل . الذئب أثناء الليل . كلاب الحراسة عند البدو الرُّحَّل . حياة راعي الغنم . ربا الراعي . راشيل هي روخال عند الأعراب . مريان في الأرض . زوجات الصوف . ماعز البدو الرحل تهتاج . البدو الرحل يربون صغار الغزال . موسم الحليب . الموماهيب ينزلون إلى صحارى السهول . الفايش . مشاهدة قطيع . النزول إلى وادى غريب . كومة قبر والدة أبي زيد . تسليات الأطفال . محسن الكريم يسطو عليه الغرازو أثناء القيام برحلته من الشمال . أبو سليم مُسَلّك العيون المغربي .

سمعت قبل اكتمال طلوع الشمس ، صوت طلّج Tollog العالى الأجش – حيث كان قد ذهب بنفسه إلى بيت المغربي – يطلب من محمد : "اصرف هذا الفرنجي عنا اليوم وخذه معك !" كما أكد أيضا على من سيرافق المغربي أن لا يتركني ويسهو عن أخذي معهم . كانت آخر كلمة سمعت ذلك الشيخ يقولها : "والله ، بعد أن أرحل ، سأعود لاحتلال الديار والبلاد ." – ذكّرت محمداً بوعوده القديمة ، التي شدتني إلى هنا . ورد الرجل عليّ ، بأنه مرتبط بالشيخ ، ومع ذلك ، أبلغني إنني إذا ما بقيت فلن

يكون هناك من يجبرني على ما لا أريده . يضاف إلى ذلك أن الأعراب هم أيضا كانوا رحيل rahil ، بمعنى أنهم على وشك الانتقال إلى مكان آخر ؛ كان محمد قد سبقنا في ركوب دابته ومضى في المسير قدما : وعندما وجد أن رجاله يضيقون الخناق عليَّ ، وجدت أن من الحكمة مقاومتهم ؛ وإلا إذا ما سمعت القبائل الأخرى بأخبار طردي من هذه القبيلة ، ألن تحاول عمل الشيء نفسه ، عندما أدخل منازلهم وديارهم ؟ يضاف إلى ذلك ، أنني ازداد تصميمي على الذهاب إلى خيبر . أركبوني على دابتي ، واستأنف البدو مسيرهم ، وراح أولئك الذين كانوا سيصاحبون محمداً في رحلته ، راحوا يستحثون ناقتي العجوز - وأقسموا بحياتي أن أسير معهم على هذه الشاكلة ! وراحت الدابة المسكينة تخبخب تحت وطأة ضرباتهم من ناحية ، وتحكمي فيها باللجام من الناحية الأخرى ، الأمر الذي أدى إلى تعثر الناقة من تحتي مرات عدة . "اترش ، أي امض قدما! قد لا أبقى هنا ، صاح أولئك القساة الغلاظ؛ والله ، إذا ما بقيت هنا ، فإن الأعراب قد يجردوني من كل شيء ويقتلوني ." - "أيها الأصدقاء ، ليس هناك من يقوى أو يستطيع إيذائي ، إذا لم يكن الأمر يتعلق بالخوف من الدولة (الإمبراطورية العثمانية .)" ولكنهم ردوا على كلامي باحتقار شديد - "ملعون أم الدولة !" وعندما قلت لهم : في رحلة الحج القادمة ، ألن يسألهم عني محمد سعيد (باشا الحج) ؟" ردوا علي وهم يصيحون قائلين : "ملعونة أم زوجة محمد سعيد ! يا خليل ، هيا وحياة الله ، سوف ترحل عن هنا !" - "قلت : بُيني ، مناديا إياه باسمه ، ألسنا معارف منذ مدة ؛ توقف يا ولد !" - "يا خليل اعلم أن طُلُّج جبار ، وهو يحكمنا حسب هواه ، وأنا أخشى أن يأخذ مني ناقتي." "تأكد ، أنه إذا ما أخذ ناقتك بسببي، فسوف أعيدها لك ، لأني رجل مخلص وأمين ." وضع واحد منهم يده على حكمة الناقة ، وكشر عن أنيابه واتجه ناحيتي موجها عكازه نحوي : هذا يعني أن هؤلاء كانوا من الخدم وليس من بينهم أحد من الشيوخ . "صاح بُيني Beneyyi قائلا: ممنوع العنف !" لم ينس الأعراب في ذلك الوقت أن الغريب كان ضيفا من ضيوف الله ! وعندما أيقنوا أن التهديدات أو التوسلات لن تجدي معي ، وأن جماعة السوق قد سبقتهم بحوالي ميل تقريبا ، تخلوا عن النصراني وتركوه ، وراحوا يجرون ويسرعون الخطى كيما يلحقوا بجماعة السوق .

اختفى عن بصرى هؤلاء البدو أثناء رحيلهم فى تلك الأرض الشاسعة الوعرة ؛ وهذه هى ناقتى راحت تحاول الانفلات للحاق بأولئك الذين كان يبدو أنهم متجهون إلى قرية الوجه . برّكت ناقتى ، إلى أن اختفى أولئك المسافرون وراء الأفق : لم استطع التحكم فى الناقة عن طريق اللجام . وبالرغم من أنى لم أصيح فيها كثيرا ، إلا أنها لم تتعبنى فى امتطاء صهوتها ، أو إن شئت فقل : الركوب فوقها ؛ قفزت على ظهر الناقة ، وسقطت منى بعض أشيائى ، ولكنى لم أعبأ باسترداد تلك الأشياء ؛ نهضت الناقة واقفة وأنا من فوق ظهرها ، وبدأت تعدو ، فى حين رحت أنا أوجه رأسها صوب البدو الراحلين .– كان ذلك كرب وبلاء عظيم لى ، أن أكون حائرا أو مشوش الذهن بين هذه الصخور البركانية الضخمة والمريعة ، التى كانت تشبه أرضية الفرن فى أشعة الشمس الحارقة ، والأدهى من ذلك ، أنى كنت بلا ماء ! مضيت راكبا ناقتى وفؤادى مكلوم ، مخافة أن لا ألحق بهؤلاء الناس مرة ثانية ؛ زد على ذلك ، أن بصرى لم يكن على ما يرام . لم يمض وقت طويل ، فقد شاءت السماء لى أن ، تقع عيناى على أثر هؤلاء الناس أثناء تجوالهم ، الذى كان قد حجبته عنى القيعان الوعرة برهة قصيرة من الوقت .

ركبت دابتى وحدى منفصلا عنهم ، ولم أكن واثقا من أن أحدًا منهم لن يشتمنى أو يسبنى . لم يكن هناك سرج فوق ناقتى ؛ وكان متاعى الذى ربطته بحبل يتدلى على جانبى الناقة . وتوقف رجل طيب ، تصادف أن مر بى ، ونزل من فوق ناقته ليقدم لى يد العون والمساعدة . وبعد فترة قصيرة أدركت واحدًا من رفاق محمد ، واحدًا من أولئك الذين صادقتهم عن طريق الدواء ، ونظرا لأنى كنت أشعر بالظمأ الشديد صباح هذا اليوم ، فقد ناديته باسمه قائلا : "يا عايد Aÿd ! هل لك أن تصب لى شيئا من الماء لأشرب ؟" وبعد شىء من التأخير ، والامتعاض ، أحضر لى شيئا من اللبن فى فنجال . لاحظت سلوكه الغريب ، كما لاحظت أيضا شخصا آخرا من أولئك القريبين منى ، يقول : "تموت" ، وهنا ظننت أن الأمر ليس على ما يرام . إذ قام عايد ، بإعطائى الفنجال دون أن يشرب منه قبلى : قال آخر : "ليس فيه أى أذى ." – "لقد شربت ، رددت عليه دون أن أشرب من الفنجال شيئا ، وأكرمك الله ." عاد عايد مرة ثانية إلى الجمل الذى يحمل زوجته ، وتظاهر بأنه يعيد اللبن إلى القربة ؛ ولكنه تسلل جانبا بعد

ذلك ، واستدعى الكلاب التى كانت ترافق القُفل ، وصب لها شيئا من اللبن فى تجويف صخرة من تلك الصخور البركانية : وعندما أدرك إنى كنت أراقبه ، عاد إلى وهو يبدو عليه عجزه عما يمكن أن يفعله بعد ذلك . "قلت له : أليس الله فوقنا ؟ ما الذى فى اللبن يا أيها الرجل ؟" - "ليس فى اللبن أى شيء يا أخى (الراعى السقيم) سوف يشربه ." ثم اتجه بعد ذلك بالفنجال نحو الراعى : بعد أن شرب المريض اللبن كله ، أمسكت عايد من يده ، وسلمت بأن لبنه كان ممتازا . وحدقنى الرجل بنظرة جانبية . القتل غير المباشر باستخدام السم فكره تدور فى أعماق أهل الجزيرة العربية ، من هنا فهم يتذوقون الشيء قبل أن يأكل منه أو يشرب منه الآخرون ؛ ومع ذلك ، فأنا أؤمن أن هذه الجريمة لا يجرى ارتكابها فى الصحراء . واصلنا مسيرنا وسط الحر الشديد طوال فترة الظهيرة ، فى الوقت الذى خيم العرب فيه طلبا للراحة : وعندما نزلت وحدى ، عن ناقتى لنيل قسط من الراحة ، نادانى أولئك الذين كانوا ضمن الجماعة قائلين : "لماذا لم أنصب خيمتى بين خيامهم ؟" هؤلاء البدو يخيمون ، حسب القرابة ، والرفقة ، وبمعدل خمسة أو ست جماعات فى كل مَنْزَل : ومع ذلك فهم يفضلون نصب الخيام على شكل خط طويل ، على نفس طريقة بدو البَلِى ؛ ولكن السُحَامة يخيمون على شكل شارع من الخيام .

جلست ، فى المساء ، بعد أن نقيت قليلا من الماء باستخدام الفحم النباتى ، أصلّح شيئا من الشاى ، فى حين راح القبليون ، الذين كانوا يتحوطون حول الوجار ، ينظرون إلى بحقد ينطوى على شيء من الشك . وعندما رفعت الغطاء ، وطلع البخار وهو يحمل رائحة مثل رائحة الورد ، تراجع البدو إلى الخلف ، وصاح واحد منهم : "إنه مؤذٍ ، ارفعه وأبعده عن هنا ! أبعده عنا ." - "قلت لهم ، ليس هناك شيء أصح ولا أحسن منه ، هذه نكهة طيبة ، وهى من نكهة أشجار الجنة ." صاح آخر : "إخص ، ينبغى أن يبعد ذلك عنا ! لأن رأسى بدأ يدور " . سوف أذهب الآن لمهادنة طُلّج : قال لى أحدهم : "بيته قريب من هنا ." وهمس له شخص آخر قائلا : "قل إنه بعيد عن هنا !" ورد عليه : "لا ، إنه بعيد جدًا عن هنا ." - "وكيف يكون البيت ، أيها الرفيق قريبا وبعيدا فى آن واحد ؟ عايد : "نحن نعرف ، يا خليل ، أنك تعرف الأشياء كلها ، [وأنك بواسطة كتابك تستطيع أن ترى ما لم يرى ،]" ولكن لا تذهب إلى بيت طُلّج

فالحباليص يتجولون فوق الحرّة ." – "إذن ، فليقرضني أحدكم سلاحا ، وأنا سوف أستعير سيفك لفترة وجيزة" . – "لا ، يمكن لك أن تفعل ذلك عن طريق دفع الأجر" .– "وأنا على أقل تقدير يمكنني أخذ عكاز هذا الصديق ." كان ذلك الصديق ، هو الراعي المريض ، الذي كان يعيش على صدقاتي اليومية من الدواء الذي كنت أعطيه إياه ، ولكن هذا الرجل الناكر للجميل حرمني وأنكر عليّ ذلك ، وهنا ألقيت العكاز على الأحجار . وهنا غمغمت الجماعة التي استاءت من ذلك التصرف ، وهنا قال أخوه عايد صاحب العين الحاسدة الشريرة : "نحن البدو ، ولسنا من أهل الحضر !"

كانت خيام الشيخ طُلّج Tollog، بحكم ضيق هذه الدار ، منصوبة في أرض خالية أخرى تبعد عن هنا قرابة ميل . مضيت سائرا في طريقي ، عبر هذه الأرض البركانية ، ماشيا في الظلام فوق الصخور والأحجار الغليظة السائبة والمفككة ، إلى أن بدأت تطالعني نيران حراسة الشيخ طُلّج . "يا الله ! (قالها طلج ، بينما أدخل أنا عليهم قادما من وسط الظلام ، ثم جلست بينهم بعد ذلك) ، أجئت على هذا النحو في هذه الظلمة ؟ لا يا خليل ، ودون أن يكون في يدك سلاح !" استقبلني هذا الشيخ العجوز استقبالا حانيا . قلت له : "لا يمكن أن أنام إلا بعد أن ألقاك ، وسبب تأخير قدومي إلي الآن ، مرده إلى تعبي والإرهاق الذي أصابني بسبب حرارة النهار . وأنت يا طُلّج ، لن تمنعني من تنفس الهواء العام ؛ وهذا هو الذي دفعني إلى المجيء إلى الجبل الذي نصبت عليه خيامك ." طُلّج : "ولكننا ، نحن البدو ، مساكين ، نحيا حياتنا في ظروف بالغة القسوة . نحن نخشى أن يحدث لك مكروه ، وبالتالي يوجه اللوم إلى المواهيب ؛ قد يخاطر رفيق طائش باغتيالك ، باعتبارك نصراني ، وبالتالي يجر علينا مسألة دمك !– ألا تخاف الذئاب يا خليل، ألا تخاف قطاع الطرق ! بالله عليك يا خليل، ألن تخبرنا ذلك الذي جئت به في ذهنك ، لتفعله هنا ؟ هل لديك مهارة اكتشاف الأشياء الخبيئة ، ورؤية الغيب ؟" – "ليس لدى أي شيء من هذا القبيل في واقع الأمر : هذا يعني أنكم لديكم بعض الظنون الآثمة في كتبي ، التي لا تعدو أن تكون مجرد نظم لآراء الناس بعضها إلى بعض . لديك قصائد تتغنى بأمجادكم الممتازة ؛ ونحن لدينا أيضا مثل هذه القصائد ، وكلمات تلك القصائد التي لا ينبغي لها أن تموت معنا ، مدونة في كتب من الورق ؛ ولكن الأعراب غير متعلمين ." – قال طلج ردًا على كلامي :

"نعم ، والله ، غير متعلمين !" – "يضاف إلى ذلك ، إذا مرض أحد منهم فأنا هنا لخدمته ، ولن أرفض أي واحد ؛ وهم أيضا قد يعطوني قليلا من اللبن ، باعتباري ضيف من ضيوف الله أقيم بينهم . تقولون : ما الذى جاء بى إلى هنا ؟ وما الذى دفعنى إلى السؤال عن الخرائب والآثار ؟ وأنا أرد عليكم قائلا : إنى أبحث هنا عن نقوش قديمة ، فى قرى الحجر كما سبق أن رأيتم بأعينكم ؛ وهذا لا ينطوى على أى مكسب مادى ، وإنما هو لإمتاع بعض المتعلمين ، المسلمين والنصارى ، الذين يدرسون اللغة القديمة ، مثل لغتكم التى دونت بها تلك النقوش ." طلّج : "ولكن ماذا عن تلك الأحجار التي عليها كتابات ونقلتها من قريه العلا؟ – "أنت بعد أن زرت تلك الأحجار ، سمعنا أو بلغنا فى صباح اليوم التالى أنها اختفت من مكانها ." – "لا تصدقوا ذلك الإفتراء والحماقة ، نظرا لأني بوسعي شراء أى حجر مكتوب ، من صاحبه ؛ ويجب أن لا يغيب عن بالكم أن إسطنبول فيها قصر كبير لهذا الغرض ، والذى تتجمع فيه الأشياء الغريبة والنادرة التى من هذا القبيل ، وتجيء إليه من سائر أنحاء الدنيا كلها . لقد شملنى الباشا بعطفه ،– والسبب في ذلك ، أن الباشا يعرف أهل Ahl السوّاح Sûwahh – أضف إلى ذلك أنى من الإنجليز ، حلفاء السلطان ، ومن ثم فهم من أصدقائكم. ما الذى فعله أبو سنون فى رحلته الأخيرة إلى قريه الوجه ؟" – "ومع ذلك ، فأنا أرى أنهم ليسوا مع الإسلام قلبا وقالبا : ألم يظهروا لنا شيئا من التحول الشرير فى السنوات الأخيرة ؟ هل أنتم تتزوجون من بنات الإسلام ؟" – "نحن بعيدين جداً ، نحن نجيء إلى إسطمبول مبحرين فى سفننا ، وبوسعك أن ترى سفننا ، معظم الأيام ، أمام الساحل الذى يقع خلف ، أو فيما وراء هذه الصخور البركانية ." – قال الرجل العجوز فى النهاية "ألن آكل منك ليرتين ، على أقل تقدير يا خليل ." – "أنتم أيها الأعراب لستم كرماء ، عندما ترون الغريب ، يمر مهموما ومكروبا فى دياركم ، بل أنكم قد تلبسوا ما معه وتجردونه من كل شيء ." – "ولكننا سوف نفرجك على الأماكن الأثرية وعلى الخرائب أيضا ، وأنت يا خليل ، ستكون حرًا فى تجوالك فى أى مكان تراه أو تود الذهاب إليه ." "لن أرى أى شيء من هذه الأشياء ، لأنى ليس لدى سوى مبلغ ضئيل من الريالات ؛ كل ما أوده هو أن أتنفس هواء الجبل هذا فترة من الوقت ، يالك من طلّج !– أم أنك سوف تطردني من هذه الديرة أيضا ؟" – "انصرف الآن مع

هذا الشاب ، الذى سيرافقك إلى المنزل ، وسوف تكون ناقتك فى صباح الغد ، على طريق الحج؛ انهض ، فهم يقولون إن ناقتك ضلت طريقها ." - "ولكن ، ماذا عن باكر ؟ هل ستطردنى من هذا المكان ؟" - "عُد الآن ، وسوف تكون مع جماعتك ." - "وحياة هذه اللحية ، يا طلّج ! هذا شيء لم يكن مفروضا أن نتحدث أو نتكلم عنه أمام البدو المحترمين الأشراف ." - "أنت معنا ، وكل ما فى الأمر أنك يجب ألا تخرج وحدك أو بدون سلاح أثناء الليل ؛" - ثم أرسل معى واحداً يحمل رمحا ليعيدنى ثانية إلى المنْزل الذى كنت فيه من قبل .

وفى مضرب آخر ، ينحدر قليلا على جانب الحرَّة ، وجدنا أن حرارة الحمو كانت أكبر بكثير فى هذه المنطقة عنها فى أى مكان آخر. ونظرنا من ذلك المنزل، نحو الأسفل من خلال الحرارة الخانقة إلى جبل جاو Jau ؛ ومن فوقه إلى ساحل يمتد على شكل شرفة بارزة وفيه صخور بازلتية سوداء ، وتحيط به مجموعة من تلال فوهات البراكين يطلق الناس عليها هنا اسم حـرُّة الخضيرى Khúthery . فى اتجاه البحر ، كانت تمتد من أمامنا الجبال المحيطة بديرة تهامة ، وهى مثل الجبال التى تراها بصورة غير واضحة من حرف جبل إيدوم ؛ أو تلك الجبال التى نراها عندما ننظر إلى الأسفل من الحجاز فوق مكة حيث نجد مجموعة من الجبال المنخفضه غارقه فى تهامة من ناحية مدينة جدة . وبلاد الشفا Shéfa هى كل ما نراه الآن من تحتنا ، على شكل سياج من الجبال ؛ والبدو يقولون إن هذه الجبال تبعد مسير يوم واحد عن هذا المكان ؛ وبعدها يستقيم حال التنقل والترحال . والبدو هناك يطلقون على البحر الأحمر اسم "البحر المالح" أو قد يقولون له "البحر" - " ردٌ على زَيْدٌ ذات مرة ، عندما سألته عن اسم البحر فقال : "بحر Bahr الظُلام eth-Thellam" بمعنى "بحر الظلمة أو الدكنة (الغرب) ." - وبنفس هذه الطريقة نجد أن الفريد Alfred(*)، مليكنا الساكسونى ، يقول فى كتابه الجغرافى : "أيرلندة تكون باهتة وغير واضحة ، فى الناحية التى تستقر

(*) ألفرد Alfred : عرف بألفرد الكبير Alfred the Greet تولى الحكم فى غرب سكسونيا فى عام ٨٧١ وكان فى صراع دائم مع الدانماركيين . وتمكن من السيطرة على إنجلترا كلها وحكمها حتى عام ٨٩٩ . واشتهر عنه كونه عالما ومشرعا فهو الذى أدخل نظام المحلفين وأسس جامعة أكسفورد . (المراجع)

الشمس فيها ، أي تغرب ." كل هذه الأرض المنخفضة الوعرة تقف عليها علامتان أرضيتان جبليتان وضخمتان أيضا (انظر الصورة رقم ٥٩ أيضا)؛ وهاتان العلامتان الأرضيتان يطلق البدو عليهما اسم الجولة Jowla والوتيد Wuttid(بمعنى وتد الخيمة) . بين هاتين العلامتين لا يوجد سوى ممر ؛ وهما ترتفعان على شكل ساحل جرانيتي متدرج ، يمتد من الشمال للجنوب ، يمكن قطعه سيرا على الأقدام خلال نصف يوم ؛ وأنا لا أذكر جيدا اسم ذلك الممر ، هل هو الحداد el-Hadád أم إنزان Enzan أم نجابة Negaba . والمسافة بين الحداد والعويرض تزيد على مسير يوم أو ما يزيد على ذلك . وكل ما هو موجود داخل الحداد يطلقون عليه اسم ألشفا Es-Shefa ، وكل ما هو خارج الحداد يطلقون عليه اسم التهامة et-Tehâma ، بل إن العويرض ، في أسلوبهم المهيب ، لها مفهومان في الشفا . وكل ما عدا ذلك ، في رأى المواهيب هو "التهامة" ؛ (نظرا لأن البدو يندر أن يتفقوا في وضع حدود للصحراء المفتوحة) وهذه المنطقة تمتد من حافه الحرّة حتى البحر .

والفراع el-Fará يقع في منطقة تهامة الشفا ، والفراع هذا عبارة عن قاع سهل من السهول ، تنمو فيه عيدان الخيزران . ومياه السيول تصل إلى ذلك القاع قادمة من كل من جولة والوتيد من ناحية ، والسيول القادمة من الوديان وكثير من الفلوج في العويرض من الناحية الأخرى . هذه هي الرءوس الموجودة على هذا الجانب من الحرّة ، أو إن شئت فقل : المجارى المائية الحجازية الكبرى في وادي الحمض el-Humth . هذا القاع العلوى ، الذي ينخفض عن الفراع يطلق الناس عليه هنا اسم وادى نجل Nejl ، الذي يستقبل مياه السيل القادم من جاو Jau، ومن بعده وادى نجيد Nejid . ووادى نجد ينحدر من جبل من الحجر الرملي وله رأسين ، ويطلقون عليه اسم شرافات النجيد Nejid . وهذا النجيد ليس هو نجد ، ذلك الاسم الذي يطلقونه على ذلك الجزء الضخم المرتفع من البلاد ، الذي يعد أفضل الأقسام التي أطلق عليه الجغرافيون القدماء اسم القسم "الرعوى أو البدوى من الجزيرة العربية ." وهناك تباينات كثيرة بين هاتين الكلمتين عندما تجريان على ألسنة البدو ؛ والبدو يتعجبون ويضحكون عندما لا يستطيع لسان أجنبي محاكاتهم محاكاة تامة . ووادي نجيد هذا يقع على طريق

القوافل ، بين قريتي العلا والوجه : والمسافة بين هذا الوادى والمناطق الداخلية تقدر بيومين ، ولكنهم يقطعون الوادى وحده في يوم واحد . والفِراع أيضا ليس هو الفرّاع Ferrá ، ذلك الاسم الذى يطلق على واحة من واحات قبيلة حرب في الجبال الواقعة بين الحرمين ، هناك وادى آخر ينزل من ناحية الغرب في الشّرافات ـ متجها صوب البحر ، ويطلقون عليه أيضا اسم وادى نجيد ؛ وهذا الوادى يتجاوز البداع Béda ويصعد إلى قرية الوجه . والبداع هذه عبارة عن موقع أثرى ينمو فيه شجر الدُّوم أو نخيل الجوز البرى ذى الأغصان . وفي الفراع توجد هجرة ، أو إن شئت فقل : مجموعة دائمة من خيام البلّى ، الذين يقومون على أمر قلة قليلة من النخيل . والمكان يبعد عن قرية البحر مسير يوم واحد ، حسبما يقول محمد المغربى ، ويعد وادى النجيد ، نجد أن ذلك الوادى تنساب إليه السيول التى تأتى منحدرة من الفراع (الذى يطلقون عليه حاليا اسم وادى جزّل Jizzl) ، ومن الوديان العميقة على جانب الحرَّة ، والتى يطلقون عليها أسماء: العروش Aurush، والدوخان Dokhân ، وظاع Thá ، وجيله Gaila وهى الوديان التى توجد فيها الجرْية(*) gerÿa، أو إن شئت فقل : هجرة (**) من خيام الزراع المواهيب . هذا الوادى يستقبل من ناحية أخرى ، مياه السيل القادمة من وديان الحريرى Hareyry : التى من بينها بعض الوديان، مثل وادى جيدة Jaida ، وهى عبارة عن وديان نخيل ، يرعاها بدو البلى ويقومون على أمرها .

جبل العويرض البركانى المنبسط ، له ثلاثة أعضاء تقع فى الشمال والجنوب ، وتمتد إلى مسافة مائة ميل تقريبا . والناس يعرفون أن الرحلة فى أى مكان من أماكن هذا الجبل تستغرق زمن الصيف بكامله : هذا بالرغم من أن المسافة فيما بين وادى تربة Thirba ووادى عروش لا تستغرق سوى نصف يوم فقط . ومعروف أيضا أن الأسماء الأرضية تتكرر فى معظم الأحيان فى الجزيرة العربية ؛ وهذا جزء من جبل أجا Ajja (فى جبال الشمر ،) يطلق الناس عليه اسم العويرض كما أن هناك جزءا

(*) الجرِيَّة : بكسر الجيم وفتح الراء وتشديد الياء ، تعنى القُرَيَّة أى تصغير قرية ، والبدو يقلبون القاف جيمًا فى كلامهم . (المترجم) .

(**) الهجرة : مجموعة صغيرة من خيام البدو ويقال لها أيضا "قُرَيَّة" . (المترجم)

آخرا في شرقي نجد يعرف باسم العروض el-Aruth . وكل هذه الأماكن تشترك في مغزى واحد هو "الاتساع" . والجزء العلوى من العويرض ، أى الجزء الذى يلي تبوك مباشرة ، يسميه (البدو الرحل الذين يقيمون في المنطقة) ، باسم "حرّة السّدنين" es-Sŷdenyîn ، الذين هم جماعة معروفه لبنى عطية ؛ ونساء هذه الجماعة يضفرن خصلة الشعر الأمامية على شكل قرن يتدلى فوق الجبهة ، وتزينه ببعض حبات الخرز : ويتردد هنا أن هذه "الجماعة كانت واحدة من الجماعات التى تمت إلى البلّى بصلة قرابة ، وأن هذه الجماعه كانت من جبل سيد Seyd في تهامة ، كما أن جبل سيد هذا لا يبعد كثيرا عن قرية الوجه ." - والناس هنا ينسبون بدايات أية سلالة نسبية ، أو قبلية أو أمة إلى جبل من الجبال ، بالرغم من أن مثل هذا الجبل قد يكون بعيدا جداً عنهم؛ - وعليه فإن القحطان، الذين يعدون من أنقى الدماء في جنوب الجزيرة العربية ، يقال إنهم جاءوا من جبل من جبال عسير والقبيلة التى تقوم بغزو ديرة قبيلة أخرى ، تقوم بالاستيلاء على جبل من الجبال ؛ من هنا فإن اسم معقلهم الجبلى القديم ، لا يغفل موروثهم عن ذكره ، بالرغم من أنهم قد يكونوا أبعدوا عنه منذ زمن طويل . - وأرض حرة السدنيين الجبلية المنبسطة عبارة عن "سهل ، ووديان ، وفيها أيضا بعض التلال البركانية ."

الحرة الثالثة ، وهى توجد في الوسط ، يسميها البدو ، الخُذيرة el- Khuthéra ، وهى أيضا فرع من بنى عطية . ووادى الرموذة Rumûtha الذى ينزل قادما من القسم الشمالي الغربى ، فيما بين تلال الشيبان Sheybàn والوترWitr ، يتجه صوب الشمال الشرقى ، وهو يفيض في الداخل في اتجاه تبوك ، حيث يقطع طريق الحج في هذه المنطقة وبذلك يعتبر حداً من حدود ديار المواهيب ، ومشكلا بذلك أبعد أجزاء الحدود العنزية من ناحية الجنوب . ولعلنا نذكر ، وادى الخدار ، ذلك الوادى الرئيسى الذى ينزل هابطا من شرقى الجبل ، ثم يعبر طريق الحج من ناحية القلعة ؛ ومعروف أن طول المسافة من هذا الوادى ، والتى تمتد خلال رمال الصحراء ، تقدر بحوالى أربع رحْلاَت. والسَّبوت S'but ، الذين هم أيضًا فرع من بنى عطية ، يتجولون في القسم الغربى في الحرَّات الشمالية ؛ هؤلاء السبوت ، نكتشف عندهم استعمالا قديما ، ورد ذكره عند

والين Wallin (*)، الذى عندما كانوا يعبرون هذه الأجزاء ذات يوم ، قادمين إليها من المويليح Mueylih متجهين إلى حائل Háyil بماشيتهم ، ليعيدوها على صوت جرس عند المساء . قد يبدو مثل هذا العمل أمرا شاذًا فى الجزيرة العربية ، ولكن الشىء نفسه نجده أيضا عند فروع أخرى من المعازى Maazy والحويطات . والجاو Jau يقسمون الخذيرى Khúthery من ناحية حرة المواهيب الثالثة والأخيرة . والبدو يطلقون كلمة الجاو Jau (وجمعها جيان Jian) على الأرض التى توجد فيها مياه منخفضة ، ومعها أيضا آبار فى الصحراء ؛ وبناء على ذلك ، يجوز لنا القول بصورة عامة إن مصطلح الجيان إنما يطلق على آبار الأرض المنخفضة ، عند قبيلة من القبائل ، كما هو الحال فى جيان Jian البشر Bishr . أما الجاو العظيم فهو عبارة عن سهل أجوف ، يقع فيما بين الصخور الرمليه عند الصخور السفلى من الحرّة ، والتى تبرز أيضا على شكل رف من ناحية الشرق ، ومصب ذلك الجاو تقفله ، إلى حد ما ، بعض كتل الصخور الرملية. وطريق فرق الغزو ، يمتد خلال هذا السهل ؛ وبذلك يستطيع أولئك الغزاة تحاشى المرور الصعب خلال الحرةُ للإبل التى لا تكون متجهة إلى مَنْزلها ، كما يقللون أيضا من تعرُّفهم وكشف مستورهم . والطريق فى هذه المنطقة يقع بين الوجه وقرية تبوك ؛ وهذا الطريق يقدر طوله بحوالى سبع رحْلات، من رحْلات الإبل المحمَّلة. والناس هنا متعارفون على أن ذلك الجاو يمثل ، بطبيعة الحال ، الحدود بين أهل قبلى Gibly وأهل الشّمال Es-Shemal ؛ أو إن شئت فقل: إن هذا الجاو يمثل الحدود الطبيعيه بين أعراب الشمال وأعراب الجنوب. أما الحرة الثالثة الجنوبية التى يتعين علينا تناولها هنا ، فهى عبارة عن غطاء هائل من المادة البركانية القديمة ، تتخلله أعداد كبيرة من قمم التلال البركانية، فوق جبل منبسط من الحجر الرملى. هذا ويزيد متوسط ارتفاع الفيضانات البركانية فى الأجزاء الشمالية التى قمت بزيارتها، عن ٥٠٠ قدم ، أما رأس عناز Anâz، التى تعد أكبر تلة من بين التلال، فيصل متوسط ارتفاعها إلى حوالى ٧٦٠٠ قدم .

(*) والين Wallin : جورج أغسطس والين ، رحالة فنلندى قام فى عام ١٨٤٨ برحلة إلى شمال الجزيرة العربية ، وفى تلك الرحلة زار مدينة حائل على عهد عبد الله بن الرشيد الذى تولى الحكم فى عام ١٨٣٥ على جبل شمر من قبل الإمام فيصل بن تركى ، انظر Notes taken during a Jownly thraugh Part of Northern Aorabia, Royal Geograpli Cal Sociriy, XX, 1851. (المراجع)

ورأس وادى الحمض el-Humth ، على الجانب الغربى من الحرَّة ، تمثل السيل القادم من وادى Wady قريب Garib ؛ هذا الوادى يمتد من هنا ، من خلال كل من ثوريّد Thorreyd ، وسهل الحجر ، إلى قرية العلا ؛ ثم يمتد من العلا متجاوزا إياها ، إلى بئر الغرنم (الغنيم) el-Gharannem ، الذى يستقبل مياه السيل القادمة من وادى الصُّدْر es-Sodr : وهذا المجرى المائى الجاف يتصل به هنا الفرع الغربى من وادى جزّل الذى ينزل هابطا إلى تلك المنطقة قادما من الشفا Shéfa . والحرَّة التالية من سلسله حرُات العويرض ، هى تلك الحرَّة الصغيرة التى ورد ذكرها مؤخرا تحت اسم الحريرى El-Hareyry ، التى هى أيضا عبارة عن أرض منبسطة من الحمم البركانية القديمة فوق جبل من الحجر الرملى ؛ وهناك بعض التلال البركانية فوق هذه الحرّة . وحرة الحريرى أعلى من الحرة الرئيسية ، وشكلها مستدير ؛ وهى تابعة لقبائل البلَّى .

ونحن نرى فى سلسلة الحرُات هذه منظر الغثف البركانى القديم الذى عصف بذلك الجانب الحدودى من شبه الجزيرة العربية . ولقد تتبعت تلك الحرات حتى مدينة مكة ؛ وذلك خلال ما يقرب من سبع درجات من دوائر العرض . ووسط العويرض قد يصل إلى ما يقرب من مائة وعشرين ميلا بدءا من جانب البحر الأحمر القاحل الجدب؛ الذى شاهدت فيه شعابا مرجانية مرتفعة ، التى تعد وثائق لمستويات أرضية ومائية مختلفة كان لها وجود فى أزمان العالم القديم .

ونحن عندما نلقى نظرة على العويرض ، لم يكن سهلا علينا تمثل قصة تلك القسمات أو الملامح الطبيعية ! هذا هو جبل منبسط من الحجر الرملى ، تصل مساحته إلى حوالى ألفى ميل مربع عند الحافة ، وفيه الكثير من التدفقات البركانية العامة : كما نرى بعد ذلك ، حولنا حدودا خرابا من الصخور التحتية والإبر المكونة من صخر الحجر الرملى ، وقد هوت إلى السهول المنخفضة .- من هنا يبدو لنا أن الفيضانات البركانية ساعدت على المحافظة على الصخور الرملية الهشة الموجودة تحتها ، فى الوقت الذى تآكلت فيه منطقة الحجر الرملى القديمة وتحولت إلى يباب بفعل معظم التحللات البطيئة ، وعلى نحو يجعل هذه الكتلة من العويرض التى يصل ارتفاعها إلى حوالى ستمائة قامة ، كما لو كانت جبلاً كبيراً ، كانت أرضيته فى الزمن القديم هى عبارة عن سهول الحجر الرملى المنخفضة فى الوقت الراهن !

عندما استعرضنا كثافة تلك الفيضانات البركانية ، أمكن لنا تصور البداية الأولى لتلك الحرة ، – هذه الأنهار البازلتية المتراكمة فوق بعضها ، والتى تتجلى فى جدران بعض انكسارات هذا الوادى من وديان العويرض الجرداء القاحلة . وعندما وجدنا أن التلال البركانية هنا ليست أعظم من مثيلاتها فى أماكن أخرى ، توصلنا إلى افتراض مفاده أن الكثير من تلك التلال (كما هو الحال فى تلة مونت Monte نوفو Nuovo) إنما هى عبارة عن أنواع من الخبث والمسحوق الذى ينبعث مع فورة بركانية شديدة . يضاف إلى ذلك أن الحمم البركانية الفوقية هى أقدم بكثير من الشكل الذى عليه الأرض فى الوقت الحالى :– وأنا أندهش تماما فى هذا البلد عديم الأمطار ، عندما ألقى نظرة على بازلت الحمم البركانية فى هذه الحرة ؛ هذا البازلت مشقوق ، ومفتوح إلى عمق يصل إلى حوالى مائة قامة ليصل بذلك إلى بعض الوديان الأرضية ، كما هو الحال فى جبل تربة Thirba . كتل هذا البازلت متآكله على شكل أخاديد فى الأجزاء الضعيفة منها ، بفعل أى شىء يتحرك فوقها ؛ ولكن يا لهذا التآكل العظيم الذى حدث فى "أحجار الحديد" ، تلك الأحجار التى هى مادة يصعب تحطيمها أو قهرها ! ونحن نفهم من نقوش الصخور فى مدائن صالح ، أن سمك المسمار لا يمكن أن يضيع من وجه الحجر الرملى الناعم ، فى ظل مناخ مثل مناخ الجزيرة العربية ، وعلى امتداد ما يقرب من ألفى عام !

هذه هى الكتل العجينية كل واحدة منها مشروخة من البيئة المحيطة بها ؛ وهذا النوع من الشقوق أو الشروخ ، يفترض أن يكون مفتوحا فى إطار ذلك الحجر الرملى ، المحمّل على رأس غازية من الحمم البركانية الكواكبية ، يضاف إلى ذلك ، أن هذه الشروخ عندما تنتفخ بفعل العنف الهائل ، فإن ذلك يحتم على الحمم البركانية التصرف على شكل شروخ طبيعية كثيرة ، كما يترتب على ذلك ارتفاع بعض هذه الشروخ والفلوق إلى أن تصل التربة عند سطح الأرض ، لتنساب خلالها على شكل اندفاعات من بخار الماء فائق الحرارة ، يكون محبوسا ومتمثلا فى شكل بحيرة أو بركة من الحجر المنصهر ، مكونا بذلك مع انبعاثات الحمم البركانية ذلك الاستعار البركانى الهائل . وفى العام ١٨٧٢ الميلادى كنت شاهداً على ثورة بركان فيزوف Vesuvius . وبينما كنت واقفا وحدى منذ طلوع الصبح على قمة جبل من الجبال ، فى ذلك اليوم

على وجه التحديد الذى ثار فيه البركان ، كانت قدماى تخوضان حتى ساقيهما فى مسحوق الكبريت ، المتراكم فوق تجويف مشتعل من الحمم البركانية : وفى وسط ذلك التجويف كانت توجد مدخنة على شكل ضرع ، تكونت منذ فترة قصيرة ، وكانت تفوح منها أنفاس حافرة أو قارضة؛ والتى ظهرت أثناء الليل ، لأولئك الذين كانوا فى السهل، كما لو كانت إشارة نارية تتساقط منها حمم بركانية . ومن أسفل هذه المدخنة كان هناك مركز جديد ضعيف من مراكز الفوران اليومية ، وكان ذلك المركز عبارة عن بركة من الحمم البركانية المنصهرة ، والتى كان يصدر عنها كل تلك الضوضاء والجلبة الشديدة من داخل الجبل ، وكانت تنبعث من تلك البركة ، بين الحين والآخر ، طائرة فى الهواء حشود من المقذوفات شبه المنصهرة . اقتربت من ذلك التخمر المخيف ، ورحت أراقب تلك البركة النارية التى كانت تصعد إلى الأعلى عند أجنابها وتفور من وسطها كما لو كانت عينا أو نبعا من المعدن ، - ولاحظت فى تلك البركة وجود غشاوة فى الهواء ، مثل تلك الغشاوة التى تطفو على سطح الحليب الساخن ، نوع من الزُبد الطرى ، الذى لم يدم سوى لحظة واحدة ، - وفى الفورة الثانية ، وبانفجار مخيف ومرعب ، يشبه انفجار المدفع البخارى ، بسبب التكسير المخيف فى الريح الناتجة عن الأبخرة المكتومة ، المتصاعدة من النار الجهنمية الموجودة تحت السطح ؛ هذا الانفصال اندفع طائرا نحو الأعلى فى الهواء كما لو كان لوحا من الألواح ، محدثا دويا وهو يرتفع ، ثم انفصل ذلك اللوح متفتتا ؛ شاهدت ذلك اللوح وهو يصعد مندفعا إلى الخارج ومنقسما إلى عدد كبير من الشقفات الصغيرة والكبيرة . وتساقطت تلك الشقفات ، وهى تحدث حفيفا وصفيرا فى الهواء ، وتتساقط طرية بالرغم من ارتفاعها مسافة نصف ميل نحو الأعلى ؛ ويهوى القسم الأكبر من تلك الشقفات على شكل صخور كبيرة ، كان البعض منها عبارة عن قشور ضخمة تشبه أحجار الأعلام . كان جانب البركة يسيل منه ميزاب من الحمم البركانية .

فى فترة العصر ، ارتفع وزن المعدن المنصهر داخل بطن تل البركان (الذى هو عبارة عن جدار من المسحوق البركانى وعروق من حمم بركانية قديمة ، ويشبه حفرة مليس الجبس ولكن داخل وعاء من الرمل ،) ؛ هذا المعدن المنصهر بدأ يأكل ذلك الجدار ، ويتسرب عند منتصف ارتفاع ذلك التل ، خلال جوانب التل المتآكلة ، التى كان

ينبثق منها شلال من الحمم البركانية . وتساقطت فوق بعض الأشخاص التعساء الذين كانوا يقتربون مصادفة في تلك اللحظة المخيفة من المكان ، زخة نارية من المسحوق البركاني ، أحرقت ملابسهم ، وكذلك أجسادهم إلى حد الوفاة ، إذ لم يبقوا على قيد الحياة بعد ذلك سوى ساعة واحدة . وهذا شاب خابت كل مساعيه وابتلعته وهو يتألم الحمم البركانية التي كانت تطارده ، تلك الحمم الذي كان تيارها كبيرا كبر تيارات نهر التيمز في منطقه كوبرى Bridge لندن . ـ وهنا بدأت الحمم البركانية السفلى ترتفع بدورها خارجة من بطن البركان العميق ، والتي تحتبس في داخلها عنفا توسعيا أشد وأقوى من عنف الحمم البركانية العليا ، وبذلك يكون الطريق إلى قمة الجبل قد أصبح مشتعلا الآن ، كما بدأ بالفعل دمار كبير في أعلى الجبل .

قبل طلوع نهار الغد ، كان نفق الجبل هو وكأسه قد تحول إلى غلاية كبيرة من الحمم البركانية ، غلاية كبيرة بحجم مدينة كبيرة ، راح لهيبها المخيف يثير الرعب والاضطراب في التربة على امتداد مسافة مسير نصف يوم من جميع النواحي والأجناب . وهذه هي المادة المعدنية السائلة العليا ، تختلط بالهواء ، وتتفرق على شكل حبيبات دقيقة تختلط بالبخار المندفع ، وهاهي تبرد فجأة متحولة إلى مسحوق يتساقط على الأرض ؛ وهذه هي سماء من البخار الذي يشبه المطر ، وسماء أيضا من الدخان الذي ينتشر على مساحة كبيرة في الأعلى ، ويطوق هذه العاصفة البركانية العاتية ، هذه السماء مشحونة بشحنة كهربية أكبر بكثير من طاقتها ؛ والرعد الذي يصدر عن ذلك الذي يدور هنا ، يصعب تمييزه في وجود هذا الطنين الهائل الصادر عن البركان . وهذا هو الهواء ، وعلى امتداد عدة أميال من حولنا ، وطوال أيام كثيرة ، ظل مليئا بالإشارات الخادعة ، والطنين المخيف الصادر عن هذا الجبل . وتهب مع الريح أمطار غبار الأعاصير على مساحة واسعة من البلاد ؛ وتتساقط بقايا الجمار المحترقة في كل الدائرة المحيطة بالجبل ، كما يتساقط خبث الأشياء المحترقة بفعل أوزانها على جانبي البركان ومن حول فوهته ؛ ويكون بين هذا الخبث بعض من قطع الصخور الغريبة ، التي جاءت أصلا من الإطار التحتي للأرض (أي من عمق ٥٠٠٠ قدم) ، - هذه الصخور في بركان فيزوف هي من الحجر الجيري . والمنظر الذي يراه من ينظر إلى ذلك الفوران من سرج الجبل ، أثناء الليل ، عبارة عن لافحة متقدة على شكل حزمة

أرجوانية وحمراء اللون تنبعث إلى الأعلى بشكل مخيف ، محدثة دخانا أسوداً يخرج من الفجوة البركانية ، التي وصل اتساعها حاليا ، إلى نصف ميل تقريبا . وهذا هو الضوء المخيف لذلك الوهج الكوكبي يخفت قليلا بفعل ذلك القناع الكثيف من الغبار البركاني الذي يتساقط على المكان ؛ وهذا هو ظلام ، وغبار أسود بلغا من الكثافة حداً لا نستطيع معه رؤية أيدينا ، أو الأرض من تحت أقدامنا ، وها نحن نتكئ على جدران تهتز، وهذا هو الجبل يخفق وبلا توقف من تحت أقدامنا: وعلى بعد مسافة ميل تقريبا ، ووسط استعار ذلك الصراع العناصري ، لا يستطيع الإنسان سماع صوته أو حتى صوت جاره . – وتمر الأيام ، وتحتضر معها بصورة متدرجة تلك الانفعالات والفورات المنبعثة من جوف الأرض ، مؤذنة بانتهاء تلك الثورة البركانية .

بعد أن يتخلص الرحم البركاني من أحماله السطحية ، يتساقط عمود الحمم البركانية ، خلال التأرجحات الأخيرة ، فوق جذور التل المجوفة ، تظل تلك القوة النارية عند هذه الجذور تحت قشرة سميكة وتروح تبرد شيئا فشيئا . وهناك قد تتكون خلال جيل أو جيلين كتل كبيرة في بعض القنوات أو المجاري التي لا يزيد عمقها على بضع قامات ؛ ونحن نقول بذلك ، من واقع الخبرة التي لدينا في هذا الموضوع . وعندما تنقضي عصور كثيرة من الراحة ، يبدأ ذلك النفق البركاني في الاندمال اندمالا محكما بالقرب من سطح الأرض . وفيما يتعلق بأي جيب من الجيوب المعدنية الأرضية المنصهرة، التي تكون على مستويات منخفضة، وعلى شكل بركة أو بحيرة في الأسفل ، يجب ألا نفترض أن مثل هذا الجيب ينتج عن عملية التبريد لفترة زمنية طويلة تقاس بالسنين الفلكية ؛ كما يجب علينا أيضا أن لا نسلم أن التداخل بين المواد يتوقف عند القسم المنصهر في جوف الأرض . والبركان عندما ينشط من جديد ، يجعلنا نتوقع تورم أو انتفاخ ذلك الرحم المعدني المنصهر ، ليحدث شيئًا مثل ذلك الذي حدث في الفورة الأولى ؛ – ولكن هذه الفورة الثانية ، قد تخمد بفعل بعض مياه البحر . وهنا يتعين على الصخر البازلتي أن يلين مرة أخرى عندما تزداد الحرارة البركانية ؛ وإذا لم تحدث تلك الليونة ، قد ينتفخ طريق مفاجئ عن طريق تمزيق قوة العناصر التي يصعب كبح جماحها في المنطقة العليا . – ترى هل كلمة "Lava" الإنجليزية هي كلمة "لابا" Laba العربية ، ثم دخلت إلى لغاتنا الأوروبية عن الإيطالية المغربية

فى جزيرة صقلية(*) ؟ وصقلية هى ذلك المكان الذى عثر فيه المحتلون العرب على كثير من الأشـيـاء التى يمكن أن يطلقـوا عليـهـا ذلك الاسـم "لابا" Laba . واللابا عند أهل الجزيرة العربية (وهى تتمثل فى ذلك الجزء الذى أتناوله من الحرات الكبيرة - التى أعرفها حق المعرفة ، وهما حرة العويرض وحرة خيبر) لا تقتصر فقط على كل ما يمكن أن ندرجـه تحـت هـذا الاســم ، ولكن ذلك الاسم يطلق أيضا على الكتل البازلتية ، كما يطلق أيضا على البازلت المسحوب ، وعلى البازلت الحاد ، فضلا عن إطلاق ذلك الاســم أيضا عـلى سائر أنواع البازلت الزجاجي : هذا لا يعنى أن كل أنواع الخبث ، أو نفايات المعادن ، أو بقايا الفحم الحجرى ، أو الأحجار النارية يمكن أن تندرج تحت هذا الاسم .- هذا هو كل ما عندى عن هذه الديرة البركانية .

التقاء أفرع وادى جزُل Jizzl ، خلف جبل الحريرى ، ووادى الحمض es-Humth القادم من الجنوب ، وكذلك وادى العيص el-Îss مُوَقَّعَ على الخريطة ، بعد تلك الخريطة التى استلمتها أو أخذتها من الأعراب . ففى وادى العيص توجد ستين عينا (قد تكون ست أو أكثر) وحوالى مائة وثمانين (ثمانية عشر أو أكثر) بئر ، كما يوجد فى ذلك الوادى أيضا أنقاض قرى قديمة ونخيل الدّوم . ونخيل الدّوم ينمو هنا حول كثير من المناطق السكنية المهجورة فى ذلك القسم من الجزيرة العربية الذى لا يعرف الندى ، والذى تكون المياه الجوفية فيه قريبة من السطح ؛ كما هو الحال بالنسبة للورد البرى الجميل ، وكذلك نبات القرّاص Nettle الربيعى فى الديار الشمالية . وفى وادى القرى Kora الذى تقع بدايته فى الحريرى ، توجد بعض أنقاض القرى ، التى هى أنقاض صلصالية يقولون عنها إنها لا قيمة لها . ووسط أنقاض هذا الموقع الصلصالى ، توجد قلعة ، أو إن شئت فقل معقل ، غير متقن البناء . والاسم وادى "القرى" يعنى ، على حد قول الأعراب ، "الوادى الوعر" أو إن شئت فقل : "الوادى غير المستو" ، الذى هو أمر شائع فى كل أنحاء البلاد . وهناك وادى قرى آخر فى اتجاه الجنوب ، توجد بدايته

(*) من المعروف أن العرب حكموا جزيرة صقلية واستوطنوا فيها ما يقرب من قرنين ونصف قرن ٨٢٧-١٠٩١ وكان لذلك أثر كبير فى إحداث تغييرات حضارية لم تقتصر على صقلية وحدها وإنما امتدت إلى الأقاليم المجاورة لها فى أوروبا كما انتقلت الكثير من المفردات العربية إلى العديد من اللغات الأوروبية . (المراجع)

فى حرة خيبر . (وفيه أيضا مواقع أثرية ، وماء يخرج من الأرض ، ونخيل من نخيل الدوم) ، وهذا الوادى يلتقى بوادى الحمض العظيم بالقرب من منطقه سُجوة Sujwa . ووادِيا تهامة : وادى العمودان Amudân ووادى الذرى Therry ينزلان من منطقة الجبل الرملى المجاور للحريرى، ويمران خلال جزء رملى عميق ، متجهين إلى وادى الحمض ؛ وهذان الواديان من ديار البركات Barakat (الذين هم فرع من البلِّى) ومن ديار أعراب جهينة أيضا .

– مسألة دراسة البدو فى هذه الديار تعد فنا من الفنون ؛ ولقد تحملت الكثير من الآلام عن طيب خاطر ، على أمل أن تضيف حياتى التى ستنتهى ، شيئا قيما إلى الجغرافيا الأوروبية . ومعرفتنا بشبه الجزيرة العربية ، التى تصل مساحتها إلى مساحة الهند على وجه التقريب ، ما تزال معرفة قاصرة بشكل كبير ، عن معرفتنا بأى بلد آخر من بلاد الدنيا التى تستحق الزيارة . ومعروف أن التساؤلات التى من هذا القبيل تكتنفها مصاعب كثيرة ؛ وفضلا عن بلادة الأذهان بشكل عام ؛ فإن تلك القلة القليلة من الشيوخ ، الذين لديهم عقول أفضل ، ويمضون كل حياواتهم التى تقوم على الحاجة والعوز فى ظلال خيامهم ، هم الذين لديهم أقل القليل من هذه المعرفة الجيدة . والغالبية العظمى من هؤلاء الشيوخ يستخفون بالأسئلة التى تطرح عليهم ، وهم يظنون أن أسئلتك لا طائل منها ، ويحسبون أيضا أنك معجب ومتيم بما يقولون . صحيح أننا يمكن أن نحصل على إجاباتهم وردودهم الملتوية التى تقوم على اللف والدوران ، ولكن تلك الإجابات والردود تكون بشىء من التردد والقلق من هؤلاء الأشقياء المولودين فى الخلاء ، ويغارون على مياههم وديارهم التى يتجولون خلالها . عقلاؤهم الذين يمكن أن يقولوا ما يعنون بصدق ، يملكون عقولا لا أمل فى إصلاحها . ولم يصبها أى شىء من التنقية والتطهر على إثر المعرفة التى أصابتها ؛ هذا يعنى أن تلك العقول يصعب عليها الاحتفاظ حتى ولو بمقياس واحد عن الطول والعرض . والعقول التى من هذا القبيل تقول لك : اهدأ ووسِّع صدرك – نظر لأنهم لن يزوِّروا العلامات الأرضية – داخل ديارهم ؛ ولكن الأراضى التى تكون خارج نطاق ديارهم لا تدخل فى نطاق معرفتهم ، أو إن شئت فقل : تظل خارج نطاق معرفتهم . كنت أعجب فى بعض الأحيان عندما أرى كيف تختلف آراء أصحاب الربط والحل حول الديار المجاورة لهم ، بل إن من

بينهم الكثيرين الذين لا يعرفون شيئا ولكن إمعانا منهم في إرضائك ، تراهم يروون لك أسطورة في آخر الأمر ، وأنا قبل أن أدخل الجزيرة العربية ، كنت قد أمضيت بضعة أشهر مع بدو سيناء ، والبدو الذين يعيشون في المنطقة الواقعة خلف الأردن ، ووجدت ذكر هذه الأماكن على ألسنة أهل الصحراء : وفي سنوات أخر كنت أنزل مع بعض الأسر السامية المختلطة من السوريين ، وعندما بدأت رحلتي من دمشق كنت قد تعلمت الكثير عن هؤلاء البدو . وعندما كنت مع الأعراب كنت أنصت جيداً للرجال المخلصين الذين كانوا من بين رفاقي ومعارفي . وفي كثير من الأحيان ، كنت أستخلص ، من خلال كلامي مع مختلف الأشخاص ، كثيرا من الإجابات والردود الصحيحة ، فضلا عن أني كنت أستخلص ، من مجرد كلمة يقولونها لي بطريق المصادفة ، كثيرا من المعلومات عن العلامات والحدود الأرضية . كنت أركز انتباهي على ردود الغرباء ، وكنت أستعيد تلك الردود مرة ثانية عن طريق الأصدقاء ؛ كنت أكرر السؤال نفسه على الشخص نفسه أكثر من مرة ، وأتدبر الردود لأخرج منها بما هو دقيق وصائب ، وبالتالي أتحاشى الردود الأخرى كلها ، هذا يعني أني تحاشيت البناء على أشياء لا طائل من ورائها .

لم يكن الشيخ مطلق ، شيخ بدو الفجير ، الذي يراعي الحذر في تسيير أمور قبيلته، لم يكن على استعداد لإعطائي شيئا عن الأرض في هذه البلاد : ففي ذات يوم ، بينما كنت أسأل قبليا ، في خيمة مطلق ، عن وادي العيص العظيم ، وبخاصة أن ذلك القبلي كان قد شارك في الغزو الذي دار في تلك الأجزاء من البلاد ؛ هنا وجدت مطلق يسأل هو نفسه قائلا : "خبرني ، كم يبعد وادي عيص Iss عن قرية الحجر؟" وربما كان ذلك مثالا على جهل الشيوخ هم والبدو الرحل بالمناطق الداخلية ، وذلك في الأمور التي لا تخصهم ولا تعنيهم . هذا الوادي العظيم ، أو إن شئت فقل : وادي العيص el- iss العظيم هذا ، الذي لم يكن بعيدا عنا ، كان في أرض معادية تنتمي إلى الجهاينة ، الذين تفصلهم الجبال عن بدو الفجير . وأنا على يقين أنه ليس بين البدو أو القبليين أحد يمكن أن يقول لي أكثر من ذلك الذي استطعت تجميعه وتوقيعه على تلك الخارطة

المنشورة مع هذا الكتاب ؛ عن الأرض الصحراوية الواقعه فيما بين تبوك Tebûk وخيبر Kheybar . قبيلة الجهاينة القديمة، التي يمتدحها الناس ويقولون لها "اختيارين" Ikh-tiarîn ، نظرا لكرمهم الزائد ، يقول عنهم جيرانهم إنهم أيضا من المصلين ومن الصائمين كذلك إتباعًا لدينهم . وقبيلة جهينة تسكن ديرة وعرة جدًا ، وكما يقول العرب ، فإن قسمًا كبيرا من تلك الديرة جرانيتي الصخور . وأنا ، بنفسي أيضا ، شاهدت بعض الأصداف المتحجرة التي يسميها الناس هنا "ظفر Zôfr مريام Miriam أم Umm السناكيت Sinnakit ؛ هذه الأصداف هي من الحجر الجيري الذي في هذه البلاد . يضاف إلى ذلك أن ابن الرشيد يرى أن مشروع غزو أولئك الجهاينة إنما يعد أمرًا صعبًا عليه .– والبدو الذين تعتمد حياواتهم الضعيفة على زخات المطر ، يتمتعون بفضول غريب فيما يتعلق بمراقبة الأرض ؛ هؤلاء الجهاينة لا يوجد بينهم بائس معدم ، يمكن أن يردك في ديارهم سواء نزل أم لم ينزل الغيث من عند الله .

في اليوم الخامس عشر من شهر يونيو وصلنا إلى أعلى نقطة مستوية من الحرَّة ، والتي تقع على بعد مسافة خمسة أميال شمالي عناز ، حيث سجل البارومتر ارتفاعا مقداره ٦٨٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، ولكن الظهيرة في هذا المكان كانت شديدة الحرارة ، وكانت تنهال على الخيام المصنوعة من الصوف . وعند منتصف الليل هبت ريح عاتية إقتلعت خيمة حمدي الطويلة . هذه الليلة الصيفية القصيرة أمضيناها في قلق واضطراب شديد ؛ فقد ضلت الإبل فيها طريقها ، كما هُيِّئ لنا أننا كنا نسمع أصواتا غريبه في الحرَّة : كما أن ربا Rubba ، الراعي المريض ، استيقظ قبيل الصباح ، على إثر ألم ووجع مبرح ، وراح يتأوه بصوت عال وطويل ويجأر إلى حد أن أخيه ظن أنه كان يعاني سكرات الموت . سمعت ذلك الراعي المريض وهو يحول أنينه إلى ما يشبه الإنشاد إذ كان يقول : "يا ربي ! أنا أيست من حالي ، وأنت تكويني Tekúbbny" بمعنى "يا رب ! لقد يئست من حياتي ، فخذني !" ثم راح ينتحب انتحابا شديدا ، كما لو كان يقيم شعائر جنازته الخاصة . ناديت ذلك الراعي المسكين وطلبت إليه أن يتمالك نفسه ، قدر المستطاع ، حتى يهيئ لنا شيئا من الراحة ، نظرا لأن نباح الكلاب أيقظنا الليل بطوله. وعقب ذلك مباشرة راح شقيق ذلك الراعي يغني غناءًا فجًا. وعندما لمته في الصباح ، على ما فعل ، أخبرني أن درجه حرارة ربا ، شقيقه ، كانت

قد بدأت تنخفض مما يعني أنه أوشك على مفارقة الحياة – سألته : "ولماذا كنت تغني بتلك الطريقة الفجة ؟" – "حسن ، قال الرجل ، لقد فهمت ، أنت لا تعرف عاداتنا وتقاليدنا ، فنحن هنا نغني للناس وهم يحتضرون ."

رحل الأعراب عن المكان مع شروق الشمس ، وبينما كنا نسير بالقرب من عناز شاهدت القمة وكأنها مشط من الحمم البركانية الوعرة . أنا الآن أرى الجبل من ثلاثة جوانب من حولي ، وهو عبارة عن مخروط كامل في كل جانب من هذه الجوانب الثلاثة. كانت كومة الغبار البركاني تبدو لي أكبر بكثير من مثيلتها في بركان فيزوف فوق المرصد . ومن فوق أعلى نقطة منبسطة فوق الحرّة شاهدت منظرا عجيبا من فوق أرض بركانية منخفضة ، حيث نزلنا حاليا عن طريق أجناب تل فوهة البركان من ناحية والحمم البركانية الحارة من ناحية أخرى ، والحرّة عند أسفلها عبارة عن شرفة بركانية منخفضة : وهاهي الصخور الرملية حمراء اللون تطالعنا من جديد ، بارزة من تحت أنهار الحمم البركانية المتجمدة ، كما تنتشر في هذه الصخور الرملية الحمراء قشور من الحمم البركانية المفككة . خيمنا في تلك الديرة المربعة التي تقع على بعد ١٥٠٠ قدم أسفل المنزل الذي كنا نخيم فيه من قبل : كان الأعراب يبحثون عن بركة ماء ، يسمونها أبو Abu ثين Thain؛ وإذا ما وجدوا فيها ماءً فسوف يرتاحون أياما قلائل . وبعد أن يأتوا على ماء البركة كله ، فسوف يتخلون عن ارتفاع الحرة وينزلون طلبا للسقيا من تهامة ؛ أو قد يذهبون طلبًا للسقيا أيضا من مدائن صالح ، وقد تهيأت لي هنا فرصة العثور على أحجار الصوّان ، هنا فيما بين الصخور البركانية والمشارف ، أو إن شئت فقل : الأراضي العالية التي تطل على الأراضي الأخرى ، كما عثرت على ذلك الحجر الصوان أيضا في البُطّين (التل المرتفع) ، الذي هو عبارة عن رف طباشيري به بعض أصداف المحار ، ومحروق إلى أن أصبح أحمر اللون ، بفعل الحمم البركانية غير الكثيفة التي انسابت من فوقه ، الأمر الذي أدى إلى ذوبانه وتوزعه بين الصخور على شكل كتل كبيرة منزلقة قليلة العدد .

هنا ، في هذه المنطقة ، طلب مني طُلَجٌ ، أن أُريه أشياء النصارى الغريبة : وفي عصر يوم من الأيام ، وبالرغم من كبر سن طُلَجٌ ، جاء وحده لزيارتي . وعندما نظر مليا من خلال تلسكوبي المزدوج قال متعجبا : "يا إلهي ! أهذه هجرة سليمة Sälema ،

هناك عند نهاية المنْزَل ، هذه هي الهجرة تتراءى أمامي وكأنها منضمة إلى البيت التالي لها !" - وعندما نظر خلال التلسكوب المزدوج وهو مقلوب ، ووجد أن الأشياء اختفت ، في مسافة لا نهائية ، راح الرجل يتأمل ويقول : " شوف Shûf ، انظر ، يا طُلُجُّ !" وعندما كان طُلُجٌّ يعبث بكتاب الطب الذى كان معى ، وراح يقلب صفحاته ناظرا إلى الصور ، ومستخدما في ذلك أصابعه الوقحة التي لا تعرف واحدًا من أحرف الكتابة قلت له: "هل أكتب لك اسمك ؟ - انظر هنا ، هذا هو اسمك "طُلُجٌّ Tollog".- " يا خليل ، قالها طُلُج وهو يتراجع خوفا بصورة مفاجئة ، أرجوك أن لا تكتب اسمى !" وعندما شاهدت التغير الذى طرأ على وجهه قطعت الورقة إلى قطع صغيرة ، ودفنت تلك القطع الصغيرة تحت أحجار الحرَّة ، مما جعله يشعرُ بالارتياح من جديد .

بعد ذلك مرض الشيخ المسن مرضا شديدا ؛ ولم تحضر أية واحدة من زوجاته المحبات له لاستدعاء الحكيم ،- وهذا أمر يندر وجوده عندما يكون الرجل متزوجا من أكثر من واحدة ، وعندما تكون تلك الزوجات وقتيات ، - ولكن أخته المسنة كانت تبكى . كان طُلُّج Tollog يرقد مستلقيا تحت مظلة ، نصبتها زوجاته له بين أدغال أشجار الوزَّال العالية التي تنمو في مجرى السيل ، أو إن شئت فقل "الشَّعب" es-Shaeb : شرب طُلُج بالأمس طاسة من المريسى ، الدافئ ، وازداد حاله سوءًا . أعطيته بعض نقط من زيت الكروتون Croton ، كما أعطيته جرعة أخرى من الزيت نفسه في المساء ؛ وفي اليوم التالى تحسن حال الرجل ، وراح يتكلم وهو في المجلس ، متفاخرا بالعلاج الفعال الذى أعطاه خليل إياه. وبناء على ذلك ، تردد عليَّ كل أهل.هذا الرجل ، من أجل "تطهيرهم مثلما حدث مع طُلُجٍّ ؛" كان الجميع يظنون أننى سوف أقدم لهم العون والمساعدة بلا مقابل كبير فيما يتعلق بغالبية أمراضهم؛ يضاف إلى ذلك، أن الدواء كان يروق لهم تماما ، لأنهم كانوا يتسلمون ذلك الدواء (مشوبا بالحلاوة والدسامة) على قطعه من السكر ، وفى مقابل ذلك كانت ربات البيوت يحضرن إلى حفنًا من الأرز ومن المريسى أيضا . وفيما يتعلق بطُلُجٍّ ، فقد كان رجلا أبويا بحق ، كما أنه كان يحسن معاملتى في كل الظروف؛ وعندما كان يقدم عشاءًا لضيف من الضيوف في خيمته، كان يرسل في طلب الغريب ليشارك ضيف الله الطعام؛ وكان أرباب البيوت، أو إن شئت فقل غالبيتهم يفعلون الشيء نفسه، عندما يقوم أحدهم بذبح ذبيحة إكراما لضيف من الضيوف.

هذه القلة القليلة من الناس الذين يعيشون في التلال، لم يتخلوا عن الكرم القديم ، تمتدحهم القبائل كما رأينا : ومع ذلك ، كانت هناك حكاية غريبة تتردد في خيام هؤلاء الناس . "حدث أن بلويًا Belüwy أو إن شئت فقل : رجلا من رجال قبيلة البلِّي Billi ، كان يعبر الحرَّة ؛ وعند غروب الشمس ، وفي المنطقة ، أو المكان ، الذي توقف فيه لقضاء الليل، ظهر له جمل غريب الشكل، ومدَّ الجمل عنقه فوق الرجل وراح ينطق بكلام مثل كلام البشر : "هذا الموتان(*) والجفاف الشديد الذي أصبح يداهمنا مرات كثيرة ، هو والجراد ، وبشكل لم يسبق له مثيل ، ويفاجئنا كل عام ، ومع ذلك فأنت لا تعرف سببا لذلك :- لماذا ارتد البدو عن عادات وتقاليد أجدادهم وآبائهم ؟ أنتم تجعلون عابر السبيل يعاني عندما يمر ببيوتكم؛ كما أن الجائع يمر عليكم دون أن تسدوا رمقه !" راح العرب يتكلمون عن الشيخ زرافات وجماعات في خيامهم وفي المجالس ، وهكذا أصبحت هذه الحكاية أمرا شائعا في سائر أنحاء الديرة . سألني بعضهم ،- باعتباري من أهل الكتاب ،- "عن رأيي في هذا الأمر ؟" كل الناس يعرفون ذلك الرجل الذي رأى ذلك الشيخ على أنه "رجل فاهم وواسع المدارك ."

والمواهيب ، بحكم معيشتهم في ديرة أمنه يصعب النفاذ إليها ، يربون الأغنام والإبل ، ومع ذلك فإن أكبر قطيع من قطعان هؤلاء البشر لا يزيد على مائة رأس من الغنم والإبل . وأغنام البدو الرحل ليست كلها من نوع واحد في الجزيرة العربية ؛ فهناك أغنام الأراضي المرتفعة في نجد ، كما أن هناك نوع صغير آخر (يشبه أغنام ويلز في بلادنا) ، يعيش في الديرة المتاخمة لحدود مكة . والأغنام العظيمة لها هيكل عظمي هزيل ، ووجه هذه الأغنام معقوف ، وفراؤها خشنة ومشعرة ؛ لحم هذا النوع من الأغنام طري وخشبي المظهر والتكوين ، - ومع ذلك ، فذلك اللحم دافئ وتدب فيه الحياة، عندما يلقونه في وعائهم البدوي . زد على ذلك ، أن الحرَّة مرتعا سخيا للذئاب ، التي طالما أزعجتنا أصواتها التي كانت تصدرها في الليالي غير القمرية . وهذه هي كلاب البلِّي طويلة الأذيال ، تقف في مكانها ، بعد غروب الشمس وعقب اختفاء ضوء النهار ، لتذهب بعيدا إلى مكان فيما وراء موقد النار ، أو إن شئت فقل : مكان خلف

(*) مَوَتَان : بفتح الميم ، وتسكين الواو ، هو "وباء المواشي" . (المترجم)

نار الوجار . كلاب الحراسة تجوب المكان هنا وهناك فيما بين الذئب اللص والقطيع ، وتروح تنبح بين الحين والآخر نباحا مخيفا ، وإذا ما اقترب الذئب من القطيع ، تتراجع أغنام القطيع متدافعة إلى جوار بعضها البعض :- وهنا يزداد خوف وهلع الراعي ، وينهض واقفا على قدميه ، ويحسب أن صياحه يمكن أن يعيد الحال إلى ما كان عليه . وهنا يروح البدو الملتفون حول وجار القهوة يحملقون خلال الظلام الكثيف ؛ ويتناول الراعي عكازه ، ويتقدم نحو الأمام وهو يلقي بعض الأحجار ، مناديا على كلابه ومحمسا إياها ، فتعود إليه ثانية وهي غاضبة ، وهنا ينتشر نباح الكلاب في كل أنحاء المخيم . وهذه الجمال والإبل المسالمة باركة تجتر طعامها طوال الليل الطويل ، هذه الإبل لا تلقي بالا إلى كل ما يدور من حولها ، وإذا ما حدث أن وقف أحد الجمال بفعل الخوف ، رآه الجالسون في الضوء الصادر عن النار ، وهو يقف على ثلاثة أرجل نظراً لأن الرجل الرابعة تكون مربوطة عند الركبة وتجعله يسقط إلى الأرض مرة ثانية . ولكن عندما نرى الأرجل الرمادية تجري ، فهناك احتمال كبير أن يكون الذئب قد أمسك بحمل صغير (بالرغم من أن رءوس تلك الحملان تكون مربوطة بعقدة في حبل على الأرض) ، وهنا يتناهى إلينا قادما من الظلام ، صوت احتضار الحمل أو التيس المسكين ، وهو بين فكي الذئب المفترس . وعلى هذه الوتيرة كانت القطعان الكبيرة -- التي تكون أكثر تعرضا هي الأخرى - تخسر بعضا من صغارها ، في كل ليلة من الليالي غير القمرية ، في كل المنازل التي كنا نقيم فيها في سائر أرجاء الحرة . والأعراب يتحملون كل هذه الخسائر بصبر ديني . حمدية ، ربة بيتنا ، فقدت ستة حملان في ست ليالي مظلمة ، وفي كل مرة كانت تقول : "الذيب eth-thib (الذئب) خطفها ، آه من ذلك اللعين !"

كلاب المواهيب وبخاصة الرعاة ، تظل تنبح حتى منتصف الليل ، إلى أن يأوى البدو إلى فراشهم طلبا للراحة ، ويستمر ذلك النباح إلى أن يطلع نور الصباح ، وعنده تكون حلوق تلك الكلاب قد تعبت وكلت ، وهنا قد تتوقف عن النباح . كلاب البدو هذه يضعف بصرها أثناء النهار ، وتكون مكدودة ومرهقة بسبب الحراسة الطويلة المضنية ، بل إن صوتها يكاد يكون ضائعا خلال فترة النهار . والبدو يندر أن يطلقوا أسماء على كلابهم أو ينادونها بتلك الأسماء ؛ ومع ذلك ، تعرف هذه الكلاب أسماءها ، وهي غالبا

ما تكون أسماء طريفة ، وهي من قبيل الأسماء التي يطلقها البدو على البشر الفانين . من هذه الأسماء ، على سبيل المثال ، "أم ذيل" Ummthail و "أبو سنّان" Abusinnan . أسماء الكلاب تظهر أيضا في أسماء بعض القبائل وفي سلالات الأعراب المختلفة ، كما هو الحال في العدوان Aduàn ، الذين هم فخذ من المعازى Maazy في الحسمة Hisma فوق عقبة المسرى el-Missry ، وفي الشعلان Shalán ، ذلك الفرع من القبيلة (الذي سمي على اسم عائلة شيخ الفرع) ، وهم من العنوز الشماليين ، ومن هذه الأسماء أيضا "ابن سمرى" IbnSimry الذين هم فرع من الحطيم Heteym (وقد أطلق هذا الاسم تيمنا باسم عائلة الشيخ أيضا) بالقرب من خيبر . من بين الأسماء الأخرى التي تطلق على الكلاب : "السوّان" Sowwan (وأم "سوّة" Sowwa)، والنظّان Nuzzan (وأم نُظّة Nuzza)، والموشى Mushy ، ورشدان Rushdan ، ودُجمان Dogman ، وأميرة Ammera ، وأويش Oweyish ، والطُّرّاف Tun'fa ، والحفيرة El-háfera ، والنمران Nimrân ، والحجيلان Hajjilan عديلّة Adilla ، والهوديبان Huddeban ، وعجيلان Ajilan ، والتوجه Tôga ، والزوجمان Zuggiman ، والدوبلان Dubbilân ، والسحران Seheran ، والهوامة Hówama ، والسمران Simrân ، والبوجان Buggan ، وعايدة ، Aida ، والواجة Waga ، والودّة Wadda ، والفجوان Fejjuan ، وعودة Auda ، والخوزاين Khuzayn .

بعد طلوع الشمس بنصف ساعة ، يحمل الراعي عباءته على كتفه ، وينادي على القطيع ، ويمضي قدما ؛ وهنا ينهض أفراد القطيع متكئين على ركبهم ، ويسيروا خلف الراعي إلى منطقة المرعى : – والكلاب لا تتبع الغنم . والماعز هي والأغنام ترعى مع راعيها الذي يتجول بها هنا وهناك إلى أن تحين فترة القيّالة ؛ وعندها يستدعي الراعي القطيع المبعثر ؛ وإذا لم يكن اليوم موافقا ليوم السقيا ، فإن الراعي يقتاد القطيع إلى ظلال الصخور ، أو إلى بعض الأشواك الصحراوية ؛ وعندها يحلب الراعي عنزة ليفطر على لبنها . والغنم تضم رءوسها بعضها إلى بعض ، في فترة اشتداد الحر ، أما الماعز فهي تحرس نفسها بنفسها ، أما الراعي فيفرد طوله الفارع على الأرض لينام نومة القيلولة ، إلى ما قبل العصر ، وعندها ينهض الراعي من نومه ، ليقود القطيع إلى المرعى من جديد ، لحين غروب الشمس ، وعندها ينادي الراعي مرة ثانية على قطيعه

لتجميعه ، وهنا يتبع القطيع راعيه إلى خيام الأعراب . وفي تلك الخيام تقع الماعز والنعاج التي امتلأت ضروعها بالحليب ، في أيدي ربة المنزل المسئولة ، لتقوم بحلبها على وجه السرعة ؛ وكثير من تلك الماعز والنعاج تعجل بالدخول إلى الخيمة البدوية وترقد على أرضها . أما فيما يتعلق بالراعي الذي ليس لديه ما يأكله فليس أمامه من شيء سوى الضروع ، وهو راض عن هذا الروتين الحياتي اليومي : من هنا ، وبالرغم من أن هذا الراعي قد يمشي حافيا طول اليوم . تحت الشمس المحرقة ، إلا أنه هو أكثر الناس سماحة في حياة الصحراء . والجسم البشري الذي يتغذى بالحليب ، في ضوء وحرارة الشمس الجافة ، يكون نحيفا ، ومليئا بالنخاع ، وله قدره كبيرة على التحمل ، ولكن فيما بين التفاخر بالفقر وصلافة البدو ليس هناك من يرضى أن يكون راعيا ، وإن فعل ذلك فهو من باب الضرورة القصوى . والرعاة ينامون أثناء النهار ، وبخاصة في ساعات الحر الشديد ، وبطونهم خاوية ، في ظلال الخيام ، ويظلوا يعانون آلام الجوع إلى أن تعود الماشية إلى المنازل في المساء . ولكن الراعي قد يفنى في الصحراء ، لأن مغامرته خفيفة ومحدودة ، وإذا ما سرق منه القطيع فهو ليس له فيه سوى قلة قليلة من الماعز والنعاج . ورعايته تنصب على حيوانات أناس أخرين ، الذين يثيرون الملل طوال النهار في البيوت التي تخلو من البشر والسرور ، وعندما يجيء الليل قد لا يحصل على قسط من الراحة مطلقا : ومع ذلك فهو سعيد بجولاته اليومية من خلال عمله الذي يقوم به على أحسن وجه ، في هواء الصحراء النقي الجميل .

غنم البدو الرحل تشرب يوما بعد يوم ، ومع ذلك فإن الرعاة من البدو ، قد لا يصلون بحكم اتساع ديارهم ، في كل الأحيان ، إلى مكان السقيا على وجه السرعة . وهنا يرسل الراعي ، على وجه السرعة ، في طلب إحضار الماء على ظهور الحمير . والحمار لا يتعرق ، ولا يرقى إلى مرتبة الجمل في كونه حيوان من حيوانات الخلاء ، أو إن شئت فقل الصحراء . ومع ذلك ، هناك الحمار الوحشي الذي يعيش في الشمال الشرقي ، أي في المنطقة القريبة من أنهار الصحراء السورية . والبدو يطلقون اسما محددا على كل رأس من رءوس الماشية ، وفي كل قطيع مختلط ، إذا ما نادى الراعي ، الذي تعرف الحيونات صوته ، "على اسم من تلك الأسماء تراه يرفع رأسه إلى أعلى ." جلسنا ذات مساء بجوار وجار حمدى Hamdy وربا Rubba، ذلك الراعي

المريض ، وراحا يحدثانى عن أسماء الغنم والماعز ، التى كانت تقف بالقرب منا ، أو راقدة تجتر طعامها من حولنا . والقطعان عندما تذهب للشرب ، تراها تنفصل عن بعضها ؛ "والراعى عندما يقتاد تلك القطعان بعد الشرب ينادى كل قطيع باسمه ." كان الراعى ربا Rubba رجلا طيبا بسيطا بالرغم من أنه لم يشكر حكيمه فى مرة من المرات . وقبل ذلك بثمانية عشر شهرًا ، وعندما كان يقوم بغزو ضد بدو الشرارات ، أصيب "بستوة" Stowh، أو إن شئت فقل : بجرح نتج عن ضربة سيف ، فى عجيزته : والتأم جرح ذلك التعيس التئامًا سيئا، وراح يؤلمه من الداخل ؛ ورقد طول النهار يتأوه ، وجعلته يتمتع براحة الليل عن طريق المسكنات ؛ ونظرا لأن ربا كان رجلا محطما ، فلربما يموت بسبب معاناته . لقد هجرته زوجته منذ مدة طويلة ، ولذلك تحول إلى مسكين داخل خيمة محمد العظيمة : هذا يعنى أن كل رفاقه كانوا بصحبة الماشية الصغيرة . كان ربا ، يعرف كل تفاصيل حياة كل واحد من أفراد ذلك القطيع ، بدءا من الفطام : كان ربا يقول : إن أفراد القطيع ، بالنسبة له تعد قطعا من جسده ؛ وأنه كان يحزن عندما يذبح فرد من أفراد قطيعه ؛ وأنه كان يأكل من لحم الذبيحة "بحكم الضرورة وليس عن طيب خاطر ."

نعاج هذا الجزء المرتفع من البلاد تصوم مرة واحدة كل عام، ولا تلد توائم مطلقا، والماعز قد تبرز فى بعض الأحيا، وهذا البروز يكون لكل ماشية الأعراب ، وغالبا ما يكون فى فصل الربيع ومراعيه . والعرب يطلقون على الحمل الذكر اسم "خروف" Kharûf، الذى يسميه أهل نجد "طلى" Tully وجمعه "طليان" Tullian؛ ويطلقون على الأنثى اسم "روخال" Rókhal (وهو راشيل Rachel فى الإنجيل) وجمعه "رُخْلْ" Rokhàl؛ وهذا الاسم يمكن أن يطلق أيضا على صغار إناث الماعز والنياق . سبق أن عرفنا أن وباء الماشية ، أو إن شئت فقل : الموتان ، قضى على قطعان الفجير : وهم يقولون لى : إن الغنم لا تربو أو تزدهر أو تزيد فى ديارهم ، والسبب فى ذلك هو الرمل الحاد الذى تأكله تلك القطعان مع الأعشاب الهزيلة التى تقتات بها ، ولقد شاهدت بنفسى ذلك الذى يقول عنه البدو نعجة "مصابة بالرمل" ، والتى وقفت بلا حراك طوال اليوم شأنها شأن الدواجن عندما يصيبها التوعك والكآبة ، وهنا سرعان ما تعمل الطبيعة عملها وتموت تلك المخلوقات . فى ذلك الوقت كان الموءاهيب فى جاو Jau ، التى مات

فيها هي الأخرى عدد كبير من مواشيهم ، نتيجه للآلام والأورام ، يظن البدو الرحل أنه كان هناك مرض خبيث في العشب في ذلك العام ، وأنه لم يؤدى فقط إلى نفوق دبوشهم (*) وإنما شاهدوا الجراد أيضا ميتا على شكل أكوام كبيره تحت الأدغال ، كما شاهدوا أيضا جثث اثنين أو ثلاث من النعام نافقه في الصحراء ، فضلا عن نفوق الكثير من الأرانب البرية . وهم يقولون أيضا : إن الإبل تأثرت بذلك المرض الخبيث ولكن أمكن تطهيرها وشفاؤها باستعمال جرعه من الزُّبد ، كما قالوا أيضا إنهم لم يخسروا من الإبل سوى اثنين فقط . وقالوا : إنهم كانوا يعالجون الماشية الصغيره باستعمال الحليب ، ولكن لم يتبقى من تلك الماشية الصغيرة سوى فرد واحد من بين كل عشرة أفراد مرضى . كانت بطون المواشى تنتفخ عند النفوق . – ولقد شاهدت وعرفت بنفسي أن أعداد كبيرة من الأرانب البرية نفقت بداء من هذا القبيل في وادى (نيوميدال) أحد الوديان الأسكندنافية ، في عام من الأعوام .

ربات البيوت البدويات يبعن أصوافهن في بلاد الحدود ؛ ولكن هذه الأصواف قليلة القيمة ، وبخاصة ذلك الصوف الذى يشحن من سوريا إلى أوروبا ولا يستخدم إلا في صناعة البسط والسجاجيد ، والأغطية الصوفية الخشنة . هذه النساء البدويات أبدين اعجابهن بلباس صوفي كنت أرتديه : "إنه حرير (رددّن هذه العبارة فيما بينهن ، وهن يتحسسن ذلك اللباس الصوفي) ، إنه ليس صوف " وعرب الجنوب الفقراء ليس لديهم سوى القليل جداً من هذا الصوف الخشن ، الأمر الذى يحرمهم من بيع أى شيء منه ، نظرا لعدم وصول أى من تجار ديار الحدود لشراء الصوف ؛ والنساء يحتفظن بما لديهن من صوف لتقمن بغزله، واستعمال خيوطه في نسج قماش الخيام الصوفية ، ولكنهن يبتعن تلك الخيوط فيما بينهن ، في بعض الأحيان . والأعراب عندما يجزّون أصواف أغنامهم ، لا يراعون في ذلك موعداً محدداً ، وهذا ينسحب أيضا على شعر الماعز : هذا يعنى أن ربة البيت عندما تجد أن نعجة أو خروفا قد طال صوفه ، فإنها تطلب من الراعى الإمساك به ، في حين تقوم هي باستخدام شفرة ثلمة ، وتقوم بقطع كل ما تصل يديها إليه من الصوف بطريقة همجية غير منظمة ؛ وبعد أن يضيع منها

(*) الدبوش : الحيوانات والماشية كبيرة السن . (المترجم)

ثلث صوف الخروف ، تطلقه ليعود إلى حيث كان بين القطيع . والبدو يتركون الصوف الناعم متعلق حول أعناق الإبل وحول أردافها إلى أن يتساقط من تلقاء نفسه ، وعند هذه المرحلة فقط تستطيع ربة البيت أخذ ذلك القليل ، الذى يمكن لها أن تندفه مستخدمة فى ذلك إصبع الإبهام والسبابة . وتقوم ربات البيوت بخلط شعر الماعز وأصواف الأغنام ووبر الجمال ، تمهيدا لقيامهن بغزله ، وكل ما تفعله ربة البيت هو فرز الألوان ليس إلا ، واللونان السائدان هما اللون البنى لوبر الجمال ، واللون الأبيض من صوف الغنم ، والنساجات البدويات ينسجن أحزمة بيضاء على أرضيات الخيام المصنوعة من الصوف الأسود كما يستعملن الصوف الأبيض فى تزيين حواف الصوف الأسود .

الماعز هنا تشكل أغلبية قطعان البدو المختلطة ، وهذا هو حال الغنم فى نجد : والبدو هنا يعيشون على حليب الماعز ، ورائحة الماعز هنا ليست زنخة . ويحدث فى بعض الأحيان، أن الماعز التى تشتتها الذئاب، أو التى يتخلى الغزاة عنها أثناء الهروب، تذهب وتتجول فى الصحراء لتكبر فى الصحراء وتتحول إلى ماعز برية ، وهنا يتحتم على الأعراب الاقتراب من تلك الحيوانات كما لو كانت ماعز برية . سألت البدو عن سبب عدم استئناسهم البدون الصغار (البقر البرى) ؟ وطالما أن البقر البرى المتوحش أشد قوة وأطيب لحما ، يمكنهم تهجين ذلك الماعز البرى مع ماعزهم وإنتاج سلالة محسنة . أجابونى : "سيكون ذلك مضيعة للجهد ، نظرا لأن البدون (البقر البرى) لا يمكن استئناسه ، نظرا لأن برية ذلك البقر تظل متأصلة فيه ." شاهدت فى كثير من الأحيان حيوانات الغزال بصحبة قطعان البدو ؛ وبشكل عام يجرى ربط ذلك الحيوان الغريب من رجله إلى ساق عنزة من ماعز الحليب ؛ شاهدت الغزال موضوعاً أيضا فى خيمة حليب الإبل : كان البدوى يرفع الحيوان الصغير بين يديه ، ليجعله يرضع فى بز واحد من ضرع الناقة. والأعراب ينادون على حيواناتهم بنداءات مختلفة، إذا ما أرادوا لها الغدو أو الرواح أو الوقوف . ويحق لنا القول هنا إن هناك كلام مشترك واحد بين البدو هنا ، فيما يتعلق بالماشية ، ومع ذلك ليس هناك ما يختلف اختلافا كبيرا ، فى هذا الصدد ، بين القبائل البدوية .

انتهى الآن موسم الحليب الجميل ، بما في ذلك المناطق المرتفعة البُرأد من الحرَّة. في شهور موسم الحليب الجميلة ، يصب اللبن الحامض من السميلي (القربة) لكل من يدخل بيتا من بيوت الأصدقاء :- واللبن الحامض "نعمة من الله" . وأعظم شيء بين الأعراب هو أن يصف الناس حياة أي إنسان منهم بأنها حياة إنسان "كريم" ؛ وبالتالى فإن أخس الأسماء عندهم هو "بخيل" . وأوعية الحليب عبارة عن طاسات من الخشب ؛ والبعض الجيد ، من تلك الطاسات ، يأتي به البدو من سوق الحج ؛ بعض أخر من تلك الطاسات يكون مربع الشكل ، ويقوم حدادو الصحراء بنحت تلك الطاسات بطريقة فجة. قلة قليلة جداً من الشيوخ هي التي لديها طاسات مصنوعة من النحاس الأحمر المطلى بالقصدير . هذه الأوعية لها أسماء كثيرة عند العرب مثل ، الجديهة Jiddÿha والمهاليب Mahallib والحلوية Helwia ، الزُّلفة Zilfa والحنابة Hanába . الجزيرة العربية مخلخلة من حيث الماشية . وربما كان هناك سبب يدعو إلى الاندهاش عندما نعلم أن الماشية البدوية لا تتزايد أعدادها في الخلاء ، أو إن شئت فقل الصحراء ! - ولكن أصحاب هذه الماشية والماشية نفسها يزدهر حالهم فترة طويلة من الزمن . التربة هنا ليست حاضنة بسبب ضرب أشعة الشمس لها والجفاف الذى ينتج عن ذلك ، وهذا الجفاف بحد ذاته ينهى الحياة بكل صورها : زد على ذلك أن الطواعين المهلكة تداهم مكة كل جيل من الزمن ؛ والبدو يمضون حياتهم راكبين وقائمين بالغزو ، ومن المؤكد أن الكثيرين منهم يموتون بسبب ذلك الغزو ؛ والسنوات التى تقل فيها الأمطار ، تخلو من الربيع ؛ هذا يعنى أيضا أن ماشية هؤلاء البدو تضيع على امتداد السنين ، بفعل الغزو ؛ إنها "أرض تأكل السكان الذين يعيشون فوقها ."

في اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو غادر الأعراب ذلك الجزء المنبسط المنخفض من الحرَّة : هذا يعنى أن أخر البرك جرى الإتيان على كل مائها، وهنا يتعين على البدو النزول من الحرة إلى السهول طلبا للماء . سرنا أثناء نزولنا خلال خلاء (صحراء) من القمم والتلال البركانية ، فوق أرض من الحمم البركانية ، عبر وديان ضحلة من ديار منخفضة محروقة . وفي منتصف الرِّحلة ظهرت لنا مجموعة من الرجال الذين كانوا يقفون فوق سلسلة الجبال البركانية . تساءلت : "من يكون هؤلاء ؟" الإجابة "جيش Jaysh ! أي أعداء ، وماذا نحن فاعلين الآن ؟" - هم هنا لإعطاء إنذار زائف :

رأيت الأعراب وهم يمرون بهدوء ، ومسلحين تسليحا سريا جيداً ، سمعتهم دون أن أبالي ، - ألا يمكن أن يحدث لنا جميعا شيء واحد ؟ "قالوا : اسمع وانتبه يا أنت ، انظروا كيف يستمد ثقته من كتبه !" ما رأيك يا أنت أليس "الجيش" هو ما تسموه أنتم Army ؟" - "لا - يا خليل ، هذا هو كلام مدينتك . البدو يطلقون كلمة "جيش" على النياق وراكبيها الذين يشتركون في العمليات الحربية ." هؤلاء الذين رأيناهم كانوا بعض رجال قبيلتنا ، لقد سبقونا قبل يومين ، وراحوا يصيدون البدون .

قبل دخول الظهر كنا قد وصلنا إلى حافة رأس الوادي التي يسمونها قريب Garib؛ ومنطقة القريب هذه هي التي تمثل حافة الحرّة . وادي القريب هذا عبارة عن تصدع شديد في حدود ذلك الجبل المكون من الحجر الرملي ، وهو ينفتح من أمامنا مثل منخفض من المنخفضات ، رحت أتعجب كيف سنستطيع الهبوط إليه ونحن على ظهور الإبل . وعند الحافة ، التي نزل الجميع عندها من فوق دوابهم ، شاهدت رجمين ، أو إن شئت فقل : تلين من الحجارة ، وربما كان لهذين الرجمين علاقة بالوفاة أو الموت (نظراً لأن القدماء كانوا يضعون مثل هذه الرجوم في المواقع المهمة) ، أو ربما كانا موضوعين هنا ليكونا علامتين إرشاديتين .

نزل الرجال والماشية بحذر وانتباه هبوطا من فوق تلك الأماكن الوعرة المنحدرة ؛ وهذه هي إبل الحرة المتمرسة تحافظ على نفسها أثناء النزول بصعوبة بالغة ، أثناء سيرها بين تلك الأحجار المتدحرجة ، هذا المنزل ، يقول البدو عنه ، إنه لم يكن بهذه الوعورة من قبل ، ولكن "نجما هوى منذ أربع سنوات " وأسفر عن هذا الطريق الوعر بعد أن طمس معالم الطريق القديم" ، وهذه هي مقدمة جسم الجبل المكون من الحجر الرملي تظهر من أمامنا . ومن فوق هذه الجبهة، أو المقدمة أرى الحافة المنحدرة للحرة ، ومن حولها كورنيش طويل من الحمم البركانية السوداء التي تشبه في لونها لون الفحم، والتي تساقط البعض منها في الصخر الرسوبي الرخو وبين الصخور البازلتية . ونحن قد نقرأ هنا في لحظة من اللحظات الطبيعية أن هذا الوادي المتصدع ، هو أحدث من تلك الحمم البركانية الضحلة البعيدة . وهناك أيضا في المنتصف صخرة شامخة مرتبة على شكل جداول ، وهذه الصخرة من الحجر الرملي (الصورة رقم ٦٠) والتي انهالت

عليها كمية كبيرة من الحمم البركانية . وفي المنخفض الموجود في الأسفل شاهدت صخرة بازلتية ترتفع من بين الحجر الرملي المنخفض .

رأس الوادي الذي هبطنا إليه ، كانت مليئة بكتل الحمم البركانية الضخمة ، وهذا الانجراف لا يقل حده عن حدة لسان الجبل الجليدي ، عندما ينحدر فوق رمال ذلك السهل الذي ينخفض عن مستوى ذلك الجبل . ومنطقة الحدود السوداء الموجودة في المنطقة التي تصطبغ باللونين الأصفر والرمادي ، هي التي تحدد منطقة الرعي في وادي علي ، وتفصلها عن الأرض المنخفضة الخارجة عن الزمام . وعقب الظهر مباشرة نزل البدو من فوق دوابهم وراحت النساء ينصبن بيوتهن فوق تلك الرمال الساخنة ، وكنا ما نزال على ارتفاع حوالي ٤٧٠٠ قدم . وادي الحجر الرملي من تحتنا كان يمتد لمسافة ميل تقريبا ، فيما بين صخور وعرة ، كما بدأت درجة الحرارة تزداد بعد أن نزلنا من الحرّة ؛ وهنا بدأ حليب القطعان والنياق في الزيادة والظهور ؛ ولكن ذلك الحليب تناقص في الأيام التالية إلى النصف تقريبا . وعندما عثر الأعراب على الماء في خزان طبيعي ، قرروا أن ينالوا قسطا من الراحة ، في هذا المكان ، على امتداد أيام قلائل . وظهر فوق الوادي كفر (هجرة) صغير مكون من خيام البدو الرحل : أصحاب هذه الخيام هم من السِّراحين Serahin ، – ذلك الفرع أو الفخذ من المواهيب الذين تصالحوا مؤخرا مع بقية أفراد القبيلة .

أسفل الصخره المقابلة من صخور الوادي ، وصلت إلى مكان فيه كثير من التماثيل ، أو إن شئت فقل النقوش الصخرية المحفورة ، ومن حولها صور للماشية والحيوانات . كانت هذه الرسوم التي رسمتها أيدي القدماء وجعلتها تنبض بالحياة ، كما شاهدت أيضا كومة كبيرة من الأحجار يقولون عنها "إنها كومة قبر والدة أبي زيد الهلالي" . في ذلك المكان هلَّ عليَّ كل أطفال المنْزل ، جاءوا مسلحين كما لو كان حيوانا متوحشا ظهر فجأة في ديرتهم ، وكل واحد منهم يمسك في يده مقلاعًا ، أو "مرداحة" Merdaha كما يقول له البدو . وهنا بدأ ذلك القطيع من الأوغاد يطلقون مقاليعهم من مسافة بعيدة . وعندما أوضحت لأولئك الأطفال أن بوسعي جعل الحجارة تغني مدوية من فوق آذانهم ، فروا هاربين . وعندما بلغ طُلَّعٌ سوء ما فعله أولئك الأطفال استاء منهم ، أمام الجالسين في مجلسه : "ويل لهم ! – وغمغم ذلك الشيخ قائلا : أَوَصل

الأمر إلى حد ، أن عيال البدو لم يعودوا يحترمون الغريب بعد ، الغريب ضيف الله ! ولا يهم أن يكون ذلك الضيف مسلما أم نصرانيا . خليل شاب أمين ، ووالله ، إن من يأذونه كلاب ، وملعونين ، ويهود أيضا ؛ أنت ، يا خليل ، لا تكترث بهم : وأنا أقول لك : إذا تجرأ أحدهم على فعل ذلك مرة ثانية ، فوالله ، سوف أقطع رءوسهم ، وألقى بها في البئر ." – هذه الكلمات المهدئة التي صدرت عن الشيخ ، لمنع الأطفال من تكرار ذلك الذي فعلوه ، هذه الكلمات حجمت الآباء أيضا وأوقفتهم عند حدودهم : هذا يعنى أن أولئك الأوغاد كانوا ، بلا شك مُحرَّضين من قبل الكبار المتشددين .

مظاهر الترويح عن الأطفال قليلة في المخيم البدوى ، ذلك أن الطفل أو الولد الصغير غالبا ما يدفعه والده إلى الرعى ، بمعنى أن يقوم ذلك الصبي الصغير برعاية الحملان وصغار الماعز في منطقة لا تكون بعيدة عن البيوت : هؤلاء العيال راحوا يصنعون لأنفسهم شقافا صغيرة مثلثة الشكل ويطلقون عليها أسماء "مرتاحاتهم وإبلهم" ، وهم ينظمون تلك الشقافة في الرمل ، وهم ينادون على رفاق اللعب قائلين "تعال Taal شوف Shûf ،" بمعنى "هيا ، احضر إلى هنا لترى بعينيك !" – بعض آخر من أولئك العيال ، لديهم لعبة يطلقون عليها اسم الفرنيني Ferneyny ، وهي عبارة عن شقفة من الفخار فيها ثقبين ، ومخيطة بخيط من خيوط الحياكة ، التي تغزلها لهم أمهاتهم من أفضل أنواع وبر الجمال ، هذا الحجر ، او إن شئت فقل : تلك الشظية من شظايا الخشب ، تعلق في المنتصف ، وعندما تقذف في الهواء يلف الأطفال الخيطين ليكونا خيطا واحدا ، مما يجعل تلك الشظية تدور محدثة طنينا عالي الصوت . شاهدت ورأيت عيال البدو وهم ينصبون فخا بالقرب من أبار المياه ، ليمسكوا أو يصطادوا به طيور الحبارى ؛ كان ذلك الفخ عبارة عن بيرق من الحجر ، يعلق تعليقا خفيفا فوق عصى ؛ وكان طُعمْ ذلك الفخ عبارة عن حفرة صغيرة في الأسفل ، يضع فيها أولئك العيال ، الطعم المطلوب مع شيء من الماء . – والكلمة الإنجليزية Masque التي تعنى "تمثيلية ترفيهية تتخللها الموسيقى والغناء [*] مأخوذه من كلمة "مسخرة" Maskhara :

(*) شاع استعمال هذه الكلمة في القرنين السادس عشر والسابع عشر . (المترجم)

لقد شاهدت أطفال البدو يجرون ويجمجمون (*) ؛ ونحن هنا نعجب لماذا لم يتطور ذلك المزاح الفكاهي الذي هو في الدم السامي ، ليصبح له شكلا مسرحيا أو شكل شعبي في الديار المستقرة التي يسكنها الساميون . سرعان ما نشبت بيني وبين هؤلاء الأطفال صداقة ، بل إن البعض منهم زاروني في خيمتي ذات مساء ، وهم مسودين وجوههم مستعملين في ذلك الفحم النباتي ، بعد أن صنعت لهم أمهاتهم لحى من صوف الغنم . كانوا يحيون قائلين إنهم "سودان"(**) Sudan بمعنى "رجال سود" ، وأنهم جاءوا من بلاد بعيدة ، وأن صاحب أفضل لحية بينهم هو شيخهم . وبعد أداء التحية البدوية الطويلة ، التي هي في معظمها تكرار ممل قد يستمر عشر مرات لعبارة واحدة هي "شيف Cheyf إنت ent "التي معناها "كيف حالك ؟ كيف حالك يارجل ؟" لم يعد لدى هؤلاء الأطفال ما يقولونه لي ، وانصرفوا عني ليلعبوا في منطقة الخيول البرية . – تحولت إنسانية الترحيب والاستقبال السامي Semitic إلى نوع من النفاق في المدن ، وهذا التحول منصوص عليه في العهد الجديد .

كان محسن قد مر على هذه المنطقة قبل مجيئنا إليها بوقت قصير ؛ هذا الشيخ الكريم من شيوخ ولاد علي كان عائدا من دمشق وأحضر معه مرهما من هناك لعينيه . وعند تبوك ، مر على ذلك الشيخ هو ومن معه ، غزو من الشرارات ، وبالتالي سقطوا في أيدي الأعداء . عثر اللصوص على صناديق الدواء في خرج الحكيم ، واكتشفوا أن ذلك الحكيم كان غريبا عليهم. "قالوا للشخص الآخر: من أنت بالله ؟" ورد عليهم الشيخ قائلا : "أنتم يا من تنتمون إلى الشرارات ، تعلمون أني محسن العلايدة ." – "وأنت محسن العلايدة – هيه ، أيها الرفاق ! هذا هو ذلك الرجل الكريم – في خرجك ، يا محسن ، لابد أن يكون هناك سكَّرٌ ." (تقدم القهوة في خيمة محسن محلاة بالسكر في شهر رمضان .) قال محسن (وهو يقدم قراطيس السكر بنفسه) ، "هذا هو السكر ، خذ ما تشاء ! وأعط منه شيئا لكلاب الشرارات !" "قال شيخ المنصر ،

(*) الجمجمة : الكلام بصوت غير مفهوم . (المترجم)
(**) الكلمة "سودان" هنا مستخدمة بمعنى عكس "البيضان" . (المترجم)

أتسمعـون ما يقـول أيها الرفـاق ! لقـد أخـذنا النياق هى وما عليها ! ولن نجـردهم مما معهم لأن هذا هو محسن الكريم ، والله ، لن نسىء إليه مطلقا ." وهنا سأل الحكيم عن نفسه "هل سيعيدون إليه أدويته ؟" – لا ، سوف نصطحب تلك الأدويه معنا ، لأننا نعتقد أن الحريم سوف يتعرفن عليها : ولكننا سنعيد إلى الغريب كتبه مرة ثانية ، ونتركهم لحال سبيلهم . – ونحن جد آسفين لأنك ستمشي على قدميك يا محسن ! والمسافة ليست بعيدة ، كما أنك تعرف الطريق إلى القرية ." – كان محسن فى ذلك اليوم قد تسلم من رئيسه الكبير مبلغا صغيرا من باب الإشفاق الإنسانى !– هذه الشهرة الأمينة كانت قد سبقت ذلك الرجل إلى أعدائه . وجاءوا ، إلى تبوك ، فى تلك الليلة ماشين على أقدامهم ، واستأجروا من تبوك لأنفسهم نياقا ، ركبوها ودخلوا عن طريق درب Darb البُخرة el-bukhra من داخل طريق الحج ، بحثا عن الأمن والسلامة ، ليصلوا بعد ذلك إلى بعض من الأعراب الأصدقاء.– هذه هى حياة الهروب التي يحياها أولئك الذين يعيشون فى الجزيرة العربية ، الذين هم أبأس أنواع الجنس البشرى !

حكيم العيون هذا ، كان مغربيا من مرَّاكش واسمه أبو Abu سليم Selim : بلغنى أن ذلك الحكيم قال للأعراب إنه سبق له أن عرفنى فى دمشق ، "أننى كنت من بلدياته ، وأنى رجل أمين ، وأنه هـو نفسـه كان إنجليزيا :" كان ذلك يعنى ، أن ذلك الحكيم ، إذا ما دعت الضرورة ، يستطيع إبعاد نفسه عن مطاردة الضباط الأشراف من الأتراك ليكون فى كنف القنصلية الإنجليزية الصديقة: لم يكن شخص ذلك الحكيم معروفا لى ، بل أننى تأكدت منذ ذلك الحين ، أن ذلك الشخص لم يكن معروفا فى القنصلية . وربما يكون ذلك الشخص ، قد سمع من ضباط الحج ، أثناء العودة ، عن المغامرة التي كنت قائما بها فى الجزيرة العربية ؛ يضاف إلى ذلك إنهم ربما طلبوا منه السؤال والتحرى عنى . كان أبو سليم ماهرا فى عمله ، فقد ورث مهارة أبيه ، الذى كان حكيما للعيون فى البلاد الغربية تحت اسم أبو سليم ، هذا الذى راج أول ما راج فى المستعمرة المغربية ، أصبح اليوم على كل لسان من ألسنة المسلمين الموجودين فى دمشق ؛ ومع ذلك لم يكن بوسعه ممارسة عمله علانية فى المدن الحكومية نظرا لأنه لم يكن يحمل مؤهلا . وسرعان ما ذاع صيت أبى سليم فى كل الأرجاء البعيدة من سوريا : إذ كان

يذهب إلى تلك الأرجاء في معظم الأحيان ، ولم يكن فيها من يمكن أن يسائله أو حتى يسأل عن مؤهله أو تعليمه، يضاف إلى ذلك أن كثيرا من مرضى العيون كانوا يترددون على أبي سليم في دمشق . كنت قد نصحت الشيخ محسن بزيارة أو التردد على أطباء البعثة المتعلمين في بيروت : ولكن مسلمي دمشق كانوا يفضلون المغربي على أولئك المتعلمين في مدارس الطب الإفرنجية . وبلغني أيضا أن المغاربة كانوا يعظمون أبا سليم باعتباره شيئا فريدا : هذا الرجل ، أبو سليم ، كان عندما يدخل مقهى من المقاهي ، يطلب من المحاسب أن لا يأخذ مليما واحداً من أي واحد عندما يغادر القهوة خارجا منها ،– هذا يعني أن جميع الحاضرين قد أصبحوا ضيوفا عليه ، فيما يتعلق بالشيشة وفنجال المشروب ، طالما بقي أبو سليم جالسا معهم .

كان أبو سليم قد سمع عن مريضه ، عندما قام محسن بزيارته . "(قال أبو سليم) ماذا ستعطيني نظير شفاء عينيك ؟" محسن : "تقول هذا بنفسك . ماذا يعني لو أنفقت الذهب سواء أكان أبيضا أم أحمرا ، حتى أستعيد بصري مرة ثانية ؟" – "مائة ليرة" (جنيه ، أو بالعملة التركية) . – "حسن ، اتفقنا على مائة ليرة ." – "انتبه يا محسن ، سوف أعالجك مجانا ، وسوف أرافقك بعد ذلك "إلى ديرتك في الحجاز ، لأمارس مهنة طب العيون بين القبائل ، فترة من الزمن ." هذا هو محسن استعاد بصره بصورة جزئية وأصبح يرى رؤية ضعيفة .

نزل أبو سليم بعد حادث شفاء محسن ، إلى المدينة (المنورة) لشراء بعض الأدوية : – بقي أبو سليم طوال فصل الصيف مع محسن في خيبر ، ولقد بلغني منذ سفره أنه بحكم أنه كان مبشرا بالإنجيل : "لم يستطع هناك ممارسة العلاج على كثير من الأفراد ، نظرا لعدم إيمان الناس في خيبر بما كان يقول به أبو سليم ." وهنا وجد من المناسب له أن يبقى بلا عمل في خيبر ، على أن يعمل من أجل أناس من البدو يمثلون جيلا بلا عقيدة. ومع ذلك ، وبحكم أن أبا سليم كان واحداً من المغاربة النجباء ، فقد ألقى بعض الأحاديث في خيبر ، إلى حد أنه وعدهم بعرق من المياه ، يبلغ من القوة حداً يستطيع معها ، عند فتحه ، إدارة طاحونة من طواحين الماء ، شريطة أن يعطوه مائة ليرة . يضاف إلى ذلك ، أن أبا سليم أبلغ هؤلاء الخيابرة أنه اكتشف "موقعا

قديما لكنيس* Kinîsy يهودى قديم (معبد يهودى) ؛ ولذلك فإنهم سوف يقومون بالتنقيب عن ذلك الكنيس ، ووعد بأنه سوف يأخذ الرقاق التى سيجرى العثور عليها ، والتى يمكن أن يعرف منها ومن الكتابات التى عليها ، الأماكن التى خبّأ فيها أولئك الخيابرة (الموسويين) كنوزهم الدنيوية ؛ وابتلع الناس كلام أبى سليم : ولكن متى يجتمع العرب للقيام بشىء جديد ؟ ليس هناك من بين هؤلاء العرب من هو على استعداد لإنفاق بنس واحد نظير الحصول على عشرة جنيهات : ولذلك تركوا ذلك الحكيم لحال سبيله ، ومع ذلك ظل الخيابرة يتحدثون عن الأستاذ أبا سليم وكلامه الغريب ، حتى عندما وصلت أنا إلى هذا المكان .

الفصل السادس عشر

الأعراب يتركون الحَرَّة وينزلون إلى محطة الصيف في وادى تربة

مولود جديد لطُّوج العجوز . نبات السَّنَّا . هودج الإبل الخاص بالنساء . رحلاتهن في قيظ الصيف. جراحة في الصحراء. ممر ثروييد . أشجار الورد السورية . وادى تربة الصحراوى . عدد كبير من عربات اليد العظيمة جيدة الصنع. القرى الميتة . الآبار المتدفقة في تربة . المحطة الصيفية . جوع الناس . حياة ينقصها كل شيء . يوم الجوع الحار . يظنون أن النصراني منفى . العرب ناقلوا حكايات . تنشرح صدورهم لخطاب الغريب . أسئلة وإجابات في الدين . عربات اليد . المنهل . طيور في الماء . مكان الدفن وأماكن الصلاة . المِلْوك . دفن الموتى . قربان طلُّوج . نشر الدم . القربان . القبائل لن تنزل إلى خيبر هذا العام . النصراني يود زيادة مياههم . المواهيب يتشككون في مسألة خضوعهم أو عدم خضوعهم لابن الرشيد . يحضرون أسلحتهم للنصراني . النعاج تعود إلى الديار طلبا للسقيا . السقيا . الفيل ، والبجعة ، والأسد ، ليست سوى أسماء من أسمائهم . الداريش .

بعد أن تركنا وادى قريب Garib خيمنا لمدة خمس ساعات في اتجاه الجنوب الغربى ، في منطقة يسمونها أجرَّة Agorra ؛ كانت حرارة منتصف الصيف شديدة تماما حتى في هذا الجزء المرتفع من الأرض ! في هذه المنطقة حملت امرأة شابة جميلة ، والتي يجيء ترتيبها الخامسة عشرة بين زوجات طلَّج ، وليدها الأول منه وراحة تواسى ذلك القلب العجوز في شيخوخته . وفي اليوم الأخير من شهر يونيو هبطنا متجهين جنوبا مستخدمين في ذلك طريق الحج ؛ وفي ذلك الاتجاه شاهدت من جديد الآثار التي خلفتها عجلات عربة مدفع الأورطة . ومن بين التلال البركانية التي

عن يسارنا ، ها هو جبل من الحجر الرملي شكله يشبه شكل خلية النحل ؛ الناس هنا يسمون ذلك الجبل باسم جبل مرزوم Merzum الذى هيئ لي أن قمته من البازلت ، بالرغم من وقوعه على بعد عدة أميال عن جانب الحرّة . رأيت في ذلك الممر القاحل كثيرا من نباتات السنًا ، أو إن شئت فقل : السنيّ ، المزهرة ؛ وزهور هذا النبات صفراء اللون ، وتشبه زهور البازلاء البرية تقريبا . وراحت ناقتي تقطف وتقضم أعراف ذلك العشب ، الذى تعافه الإبل في أغلب الأحيان ، إضافة إلى أن البدو يُسرٍّعون خطى إبلهم عندما يرون هذا النبات ؛ ولكن أولئك الذين كانوا راكبين دوابهم ويسيرون إلى جوارى نظروا إليّ نظرة بدوية حاقدة ، وكظموا غيظهم ؛ ثم قالوا لي بعد ذلك : "ما السبب الذى جعلك ، يا خليل ، تترك ناقتك تأكل ذلك النبات السام ؟"

رحلة المواهيب وسيرهم في الصحراء أكثر شجاعة ، إلى حد ما ، من رحلّة الفجير ؛ والسبب في ذلك أن ربات البيوت المتزوجات من الشيوخ يركبن دوابهن فوق سروج مبهرجة يطلقون عليها اسم "موكسير" máksir، ومفرود عليها سجاد زاهى الألوان . هذه الموكسيرات التي تصدر أصواتا هي على شكل سلال من الأغصان الرفيعة ، مجدولة ومخيطة بدقة إلى بعضها البعض باستخدام أعصاب عنق الجمل ، (التى يبيض لونها وتزداد متانتها بعد أن تجف ،) وشرائط من الجلد الخام . غالبية تلك الموكسيرات ، تكون مربعة الشكل ، تسمح للزوجة بالجلوس فيها القرفصاء ، ومعها أطفالها ؛ ومن فوق ذلك الموكسير يوجد عود أو عودين مطويين لتعلق الزوجة عليهما عباءتها ، لتكون بمثابة غطاء، يحميها هي وأولادها الصغار من أشعة الشمس المحرقة. لديهم أيضا ، في تلك الديرة نوع آخر من السلال ، التي ربما كانت من الموروث العربى القديم ، لأننى سبق لي أن شاهدت مثل هذه السلة في رحْلة من رحلات البدو في الصحراء Sàhara الجزائرية الصغيرة . وهذه السلة عبارة عن إطار طويل من الأغصان ، يشبه إلى حد بعيد جداً شراع طاحونة الهواء محملة على صُلب الجمل : هذا يعني أن الزوجة تزحف في ذلك القفص المستقيم ، الذى تجعل أذرعه البارزة التي تصطدم بالصخر وبالأشجار ، شيئا غير مريح أثناء التنقل . وساءلت نفسى ، كيف خطر ببالهم ، أن يستعملوا شيئا غير مناسب مثل هذه السلة . "هذا من أجل الزينة ، يا خليل ! كما أن النساء الشابات يركبن في تلك السلال وهن متشجعات ." والحريم

يقمن بوضع شراشيب حمراء اللون من حول أركان تلك السلال ، كما يضعن على السرج أيضا كسوة لها شراريب متدلية من الجلد . من هنا فإن ركوب ربات البيوت يشكل موكبا مبهرجا وجميلا ، في أذهان الأعراب ، أثناء مسير مواكبهم المتجولة . أما الرجال فهم يتقدمون ، مثل هذا الموكب ، راكبين نياقهم . والرجال يلتزمون الصمت ، في أغلب الأحيان ، أثناء ترحالهم ، إذا ما اشتدت حرارة الشمس وارتفعت درجة الحرارة ، والسبب في ذلك أن حديث الأعراب ، في ظل مثل هذه الظروف ، يجعلهم يفتحون أفواههم في ذلك الجو الجاف ، مما يؤدى إلى إحساسهم بالعطش : وهم يركبون نياقهم ويتنفسون الهواء من خلال غترهم (أغطيه رءوسهم)، التي يطلقون عليها اسم الثُّريب horrib والتي يضعون من فوقها شيئًا يسمونه المحسوب meyhsub ، أو المعصوب masaub أو العقال agal) ، بحيث لا يظهر من ذلك الغطاء أي شيء سوى هاتين العينين السوداوين اللتين تشبهان عيون اللصوص .

هذه الرِّحْلات التي يقوم بها البدو ، خلال حرارة الصيف يقولون عنها : إنها شديدة الفظاعة : فهذه هي الصحراء تزغلل العيون ، وتتسلط عليها أشعة الشمس ، وهذا هو المخ البشرى يكاد يغمى عليه من شدة هذه الحرارة ؛ من هنا فإن الأعراب كلهم ، وبلا أي استثناء ، ينسحبون ، خلال فصل الصيف ، إلى محطات سقياهم الصيفية العظيمة ، مما يجعلهم يقيمون في مخيمات ثابتة أو دائمة إن صح التعبير . هؤلاء هم الرعاة والأطفال يرحلون معنا وهم حفاة ويمشون فوق الرمال المتوهجة والأحجار المشتعلة ؛ والصبية يكونون حاسرى الرءوس في كثير من الأحيان ، بل ويكونون عراة أيضا . وفي بعض الأيام يقطعون مسافة قد تتردد بين عشرين وثلاثين ميلا ، وهم صائمون ولا يحمل الواحد منهم معه سوى قربة صغيرة من الماء . هذا يعنى أن مثل هؤلاء الصبية يتعرضون منذ فترة مبكرة وبحكم الضرورة ، لتحمل أعباء الحياة في الصحراء ، فضلا عن أنهم يتعلمون كيف يهتدون بالعلامات الأرضية : ولكن حرارة الشمس الحارقة التي تشوى أجسامهم العارية ، وكذلك تعرضهم لويلات الريح ، يتسبب في إصابة سيقانهم الضعيفة بكثير من الأمراض ، التي تنمو وتتفاقم معهم ثم تظهر عليهم أعراضها عندما يكبرون في السن . وعند الظهيرة خرجنا من الطريق الذي كنا نسير فيه ، لنصبح فوق مستوى مَنْزِل الحج بصورة طفيفة ، ثم دخلنا

بعد ذلك شقا طوليا متصدعا بين حدود العويرض المكونة من الحجر الرملي : هذه هي المنطقة التي يسمونها الثُّوريد eth-Thorréyid ، ووادي السيل اعتبارا من وادي قريب Garib إلى وادي السهل في منطقة الحجر . هذا الجزء من البلاد الذي انشق حجره الرملي على شكل صليب ، يتحول إلى متاهة طبيعية فيها كثير من الممرات المسدودة والمعقوفة والملتوية ، التي تمتد خلال الجبل . وسرعان ما نزل البدو عن دوابهم في هذه المتاهة ، وراحوا ينزلون أشياءهم ، كل في مَنْزِله ، في الظل الناتج عن الصخور ، وتركوا إبل الحمل حرة طليقة ؛ فعلوا ذلك لكي يُقَيِّلُون yugalalun ؛ هذا يعني أنهم سوف يمضون ، في هذا المكان ، ساعات الزوال ، طلبا للراحة على أن يبدءوا من جديد قبيل العصر .

هؤلاء هم إخوان الراعي المريض يحملونه بين أيديهم ، وهو يتأوه ألما بسبب الركوب غير المريح – وهذا هو الرجل الوقح يشعر بالارتياح وهو يستمع إلى أنين ذلك المريض. وهذا هو بنّي Benneyi ، شقيق الراعي المريض، في ظل هذا الظرف الطارئ، رأيته وهو يمسك إبرة ، وراح يحاول بها فتح خرَّاج ، أو إن شئت فقل : دُمَّلاً عند مفصل الورك . وأفلح بنّي في وخز الدَّمل إلى أن فتحه ، لينساب منه على الرمل صديد عجيب . وأمسك الحاضرون أنوفهم ، وابتعدوا قليلا عن المكان ؛ وعلى الفور سحب شقيق المصاب ، وعلى وجه السرعة ، واحدة من الغتر (أغطية الرأس) . ووقف الأعراب عند مسافة ظنوا إنها أدنى ما يمكن عمله لتجنب العدوى ، وتحاشيا لتلك الرائحة العفنة الصادرة عن ذلك الصديد . ونحن نجد في مدن الساميين بعض الأفكار الطيبة التي من هذا القبيل ، كما هو الحال بالنسبة للأقوال المأثورة عند الدمشقيين عندما يقولون : "من يتأخر في التطعيم يتعين عليه أن لا يشم لحم البشر !" والبدو يقدرون الروائح الطيبة باعتبارها مفيدة للصحة ، وهذا هو ما أقره أطباؤنا القدامى (ذلك الذي ترتاح إليه أنوفنا يرجع إلى الورود الجميلة الحلوة) . من هنا فإن الأعراب يصنعون بعض أدوية الأنف على شكل مساحيق من بعض الأعشاب ، والروائح الطيبة ، بحيث تعلق تلك المساحيق والروائح مدة يوم أو يومين في أنوفهم ، وفي أنوف إبلهم . ذات مساء ، عندما كنت في مدائن صالح ، استعرض عقرب نفسه على أحجار وجار القهوة؛

وتراجع الحاضرون كلهم ، وقام أحدهم بضرب العقرب بعصاه ، ثم وضعه فوق جمر النار ! "صاح الحاج نجم ، أخرجوا ! لقد أحرقت العقرب !" وهنا نهض الجميع وتركوا المكان ؛ ولما كان شيء من عصارة العقرب قد تناثر على جبهة حسن ، فقد مسح ذلك بظهر يده وهو يضحك ، وكان كل همه يتمثل في عدم تشمم رائحة ذلك العقرب وهو يحترق . الأعراب ، تسرهم العطور الطيبة ؛ وربات البيوت البدويات تصنعن كنوزا من تلك العطور التي تكون بحوزتهن ، إذ يستعملنها في الدواء : كانت ربات البيوت البدويات تسألني في أحيان كثيرة "أليس معك عطور تبيعها ؟" وأهل الجزيرة العربية عندما يزكون مكانا من الأماكن ، ولنقل مكانا كئيبا مثل قرية العلا أو خيبر ، يقولون : "إنه غارق في هواء فاسد ، وأنت تشرب منه ماء غير صالح ."

توقف بعض الرعاة الذين كانوا بصحبة القطعان ، كيما يسألون عن الطريق ، نظرا لأن هذه المتاهة الجبلية هنا غير واضحة المعالم ، حتى بالنسبة للأعراب أنفسهم . (قالوا لي) إن طريق الحج السوري كان يمر بهذه المتاهة في يوم من الأيام ! – ولكني لم أستطع ، عن طريق أي نقش من النقوش التي على حواف الحجر الرملي الهاوية ، معرفة ما إذا كان هناك أي قسم من أقسام طريق القوافل التجاري القديم . هذا المكان الزاخر باللصوص ، والعامر بالكهوف التي تتخذ شكل الصخور ، والمليء بالمعاقل (النقاط الحصينة) سواء على الأرض أو في أماكن السكنى الطبيعية ، والتي تشبه السراديب ، وتقع على جانبي السائر في هذا المكان ، لا يمكن لمثل هذا المكان أن يصلح لمرور القوافل أو حتى من يمارسون العمل ضمن هذه القوافل . في هذه المضايق التي تمتد لمسافة أميال ، هناك الكثير من أشجار السنط الشوكية ، كما يوجد بها أيضا شجر بري من أشجار التين التي تشبه أوراقها أوراق الريحان ويطلقون عليها اسم "العثوب" el-uthub ؛ كما يوجد في الأماكن المنخفضة شيء من العشب الأخضر ، الذي يوحي بأن ماء السيل يقع على بعد مسافة قصيرة أسفل ذلك العشب الأخضر . – ولكني لم أر في أي مكان أي أثر لأشجار الغار التي تحمل زهورا من قبيل الورد البلدي ، التي تسر زهورها الناظرين في كل المواقع الجديدة في الصحراء الجيرية من الناحية السورية . كما أن هذه الزهور جميلة في مدينة بيترا Petra ، وكم هي جميلة أيضا في مجاري سيول الأردن ! – ويا لجمال تلك الحدائق البرية فائقة الجمال التي

كانت فيها مدينة القيصر Caesarea فيلبِّى (*) Philppi في يوم من الأيام !– ولكن أنعم بالزهور المائية التى فى البيارات اللذيذة التى تنساب مياهها بفعل مياه بحيرة الجليلى Galilee ! ومن كان مسيحيا ، ينبغى (إن أمكن له ذلك) أن لا يتذكر ذلك المكان عندما يموت ويرحل عن الدنيا !

غربت الشمس عقب وصولنا مباشرة إلى سهل الحجر ، ومع ذلك واصلنا مسيرنا في ضوء الشفق الذى كان لونه يميل إلى اللون البنى ، ملتزمين فى ذلك الأطراف السفلية لصخور الحرّة . دخل الليل علينا ، وعجلنا بالنزول على وجه السرعة ، وكنا سعداء عندما توقفنا ، بالرغم من أننا كنا ما نزال صائمين وبلا عشاء ، كما سعدنا أيضا بإراحة رءوسنا على مخاد ، هى فى حقيقة أمرها قطعا من الصخر ، وسط هذا الانجراف البركانى الكبير . لم يكن فى ضروع الماشية التى كانت معنا أية قطرة من الحليب ؛ إضافة إلى أن أى أحد منا لم يقو على الوقوف فوق الأرض التى كان ينام عليها ، حتى يتسنى له جمع شىء من الحطب لإشعال نار المساء ، إذ كان الجميع ، فى هذه المنطقة ، خائفين ، من الدوس فوق الدبيان debyan أو إن شئت فقل : الثعابين . والبدو الرحل يخشون تلك الحيوانات أو الزواحف السامة ، وقد شوهد ثعبان فى بيت من البيوت وهو يزحف بين بعض الجوالات التى لم يأخذها البدو معهم ، (وقد تأكدت أن تلك الأسرة هجرت بيتها وتخلت عنه ، وبقيت بعيدة عنه عدة أيام إلى أن تأكدوا من زوال الخطر .)

أمضينا هذه الليلة القصيرة من ليالى الصيف على ذلك النحو إلى أن شقشق النهار ، وعندها حمّل الأعراب أشياءهم ومضينا قدما من جديد ، لنضرب خيام المخيم الدائم فى وادى تربة Thirba فى ذلك اليوم . كنا نقيم فوق عالم من الحمم البركانية ، تساقطت صخوره من كهوف العويرض ، إلى أن التحم ذلك الركام البركانى بالجيلة Jaila ، التى وصلنا فيها إلى بداية ذلك الوادى ، الذى يطل على المزحام Mezham فى

(*) مدينة القيصر فيلبى : واحدة من المدن السورية حاليًا . كانت مدينة فلسطينية قديمًا . وهى حاليًا قرية بنياس التى تقع فى أقصى جنوب غربى سوريا ، بالقرب من الحدود الإسرائيلية . والموقع هو أصلاً لمدينة بنياس Paneas الإغريقية الذى غيره الرومان إلى القيصر فيلبى . (المترجم)

الصخور المطبقة على سهل مدائن صالح . قاع هذا الوادى القاحل عبارة عن حوض جدب من الحصباء والحمم البركانية وكذلك الأحجار البركانية التى هى عبارة عن شرائح ورفوف ، وضفاف وشرفات ، وأكوام مربعة بلا عدد فى منطقة كبيرة من مناطق السيل . كل ذلك العمل ، وكل ذلك التشقق يتكرر ويحدث نتيجة مجرى مائى متذبذب : ولكن من أين تجيء وفرة المياه فى هذا المكان فى ظل مناخ منعدم الأمطار تقريبا ؟ هذه هى زخات الخريف الضعيفة ، تنزل بعد الأمطار التى تسقط على الجبال العالية ، أو المياه التى تنتج فى فصل الشتاء عن ذوبان الجليد ، كل هذه المياه يتعين أن تغوص وتمتصها تلك النفايات الشاسعة من الرمال والصخور .

بعد أن سرنا فى الجبل مدة ساعتين ، مررنا على كثير من الأكوام المبنية ، التى يطلقون عليها اسم "الرُّجوم" rijûm ، وسط هذه الصحراء القاحلة التى هى عبارة عن ضفاف وأحجار . رأيت بعضا من تلك الرجوم مبنية فى جزء من أجزاء قناة السيل ! — ترى هل توقفت قنوات السيل عن أن تكون مجارى مائية فى عهد أولئك البناة القدماء ؟ أم أن هذه الرجوم هى مقابر عائلات وأسر الشيوخ؟ — ولكن ما مدى قدم تلك الرجوم ؟ معروف أن الحياة السامية Semitic فى المناطق المرتفعة، ليست أصيلة بل يمكن القول: إنها تكون دوما بدائية ، من هنا يمكن القول : إن تلك الرجوم من زمن مقابر المعابد الخاصة بتجار قرية الحجر Hejr — والتى نستطيع التخمين ، بأنها وذلك من منظورنا إلى شكلها ، ربما تكون من بداية العالم الإنسانى ! معروف أن آثار الأيدى البشرية ، بما فى ذلك المقابر الأثرية ، إنما تشكل منظرا مريحا ويسر الخاطر فى سطح أو تضاريس هذه الأرض التيتانية Titanic (الشاسعة) .

جدران الوادى ، عند بدايته ، عبارة عن صخر رملى من فوقه الحمم البركانية التى فاضت عليه من الحرَّة ؛ وترتب على ذلك هبوط الحجر الرملى أسفل أرضية الوادى الآخذة فى الارتفاع . وبعد مسير ساعة فوق هذه الأرض تتحول جدران الوادى إلى مجارى مائية زرقاء اللون من فوق مجارى من البازلت ، ويصل ارتفاع كل هذه الأجزاء إلى مائة قامة . وفى الأعلى ، حيث يوجد وادى جانبى ، على الناحية اليمنى ، مررنا ببعض الآثار القديمة . وقد أطلعنى العرب فى تلك المنطقة على قناة مهدمة ، ويقع أو إن شئت فقل : أماكن من المبانى القديمة : شاهدت فى تلك الأماكن بعض المبانى

الجافة من الكتل البركانية ، والجدران الطويلة ، في اتجاه منتصف الوادي ، في منطقة الصخور الجرداء ، والشُرُفات ، والأراضي المستوية ، وفي مسورات البيوت القديمة :- ولكن تلك المستوطنة الميتة فقدت اسمها، وهم هنا يطلقون عليها اسم "الجرية" el-Geria بمعنى "القرية" . شاهدت بعد ذلك كثيرا من الرجوم التي تقف إلى جوار بعضها في الوادي ، وهذه الرجوم بناها الإنسان بالطريقة الجافة ، كما شاهدت أيضا كثيرا من الجحور تظهر على شكل مجموعة غلى جانب الوادي الذي يتخذ شكل الرف . والبدو ليس عندهم أي علم أو معرفة بتراث أولئك الذين عاشوا في الزمن القديم في عالمهم أو إن شئت فقل : بلادهم : "يقولون ، إن بناة تلك القرى الميتة هم يهود أو نصارى ."

ومع ذلك ما تزال هناك بعض عيون الماء في تلك الأجزاء العالية من البلاد ، الأمر الذي يجعل المواهيب لا يتخلون عن وادي تربة وبخاصة أولئك الذين يعملون بالزراعة من بين أولئك المواهيب ؛ هؤلاء المواهيب الذين يعملون بالزراعة هم من وادي العروش el-Aurush المقابل لوادي تربة ، ولكن السبب الرئيسي وراء تخلي المواهيب عن وادي تربة ، في هذا العام ، هو خوفهم من الغزو الذي يقوم به البشر Bishr (أفراد قبيلة بشر) بتحريض أمير الشمرّ Shammar . مررنا على عدد قليل من المساحات الزراعية الخالية من الزروع ، والتي تقع وسط أحجار الحرّة القاحلة الجرداء ، في الأرض القريبة من الأبيار ؛ في تلك المناطق نزل الأعراب عن دوابهم ، وبالتالي تسنى لكل أسرة النزول في المنطقة التي تود النزول فيها . وعلى امتداد سنوات متتالية ، وفي تلك الأجزاء البارزة من تلك التربة البركانية، وبدون أي غطاء ، راح أولئك المواهيب يزرعون الشعير والقمح، والقرع العسلي، والشمام والبطيخ ، بالإضافة إلى قليل من التبغ ؛ وكل هذه الأنواع من الحاصلات أفضل من مثيلاتها التي يمكن زراعتها في التربة الرملية الصفراء في قرية ولاد علي . قنوات الري يجري مدها من العيون ، التي توجد منابعها أسفل البيارات الخضراء اللذيذة من أشجار التين البري المثمرة التي يطلقون عليها اسم الحماتة hamâta . وبعد انتهاء ذلك الحصاد الهزيل ، يعود أولئك المستوطنون من البدو ، من أراضي الحبوب هذه ، إلى قرية الخيام التي يطلقون عليها اسم "الجرية" Geria (بمعنى "القرية" . - وادي عروش هو الآخر من الوديان الحجرية، ولكن فيه الكثير من النخيل المزروع الذي يروى من عين في الجزء الأعلى من جانب الوادي .

كنا نرى أمامنا بعض خيام البدو الرحل المتناثرة في الوادى المهجور ، والمملوكة للطوالة، Towwala من أبناء ولاد على . كان البدو الرحل جميعا ، يتركون بيوتهم المبنية وحريمهم ويلوذون بتلك البيّارة الجديدة ، حتى يتمكنوا من رؤية تلك الآبار، رائقة الماء ، التى هى عبارة عن حفر محفورة فى الجزء الخلفى من التربة السوداء التى يتكون منها حائط ، أو إن شئت فقل : جدار الجانب المرتفع من الوادى ، والمبطنة بمبان جافة : الماء فى هذه الحفر يجىء من بين الصخور الأرضية البازلتية -- يا لها من تسرية تسر النفس والخاطر عندما ينظر الناظر إلى ذلك الغطاء الفردوسى الذى هو عبارة عن بيارة خضراء كثيفة وماء جارٍ ! فى هذا المكان ، يتعين علينا نيل قسط من الراحة ، مع الماء المندفع ، حتى يتسنى لنا إنعاش عروقنا وأوردتنا التى أصابها الجفاف . وأنا منذ يوم أو يومين ، طوال ترحالنا ، لم أذق طعم الطعام ، وأنا اليوم تغذيت ، أو إن شئت فقل : أكلت من تلك الثمار البرية ، التى هى عبارة عن تين برى لا يزيد حجم الواحدة منه على حبة البندق ، ولا يختلف طعمه عن طعم توت الخشب ؛ ولكن السطح الخارجى لذلك التين البرى جاف وخشن ، فضلا عن أن ذلك التين حار ، ويحس من يأكله بحرارته فى لسانه وفى حلقه. من هنا فإن البدو لا يقبلون على قطف حبات التين هذه ، لأنهم يظنون أن ذلك يقلل من شأن رجولتهم؛ ولكن هاهم البدو يأكلون عن طيب خاطر ، من تلك الحبات التى جمعتها أنا بنفسى . حرارة منتصف النهار (الظهيرة) هنا فى ظل الخيمة ، وعلى ارتفاع حوالى ٤٥٠٠ قدم ، يصل متوسطها إلى حوالى درجة واحدة أو درجتين بعد المائة الفهرنهيتية ؛ ومع ذلك ، كنا ننتظر ارتفاع درجة الحرارة ، وسوف تصل هذه الحرارة إلى "درجة رديئة" كما يقول الأعراب .

هنا ، فى هذا المكان ، يقع المنْزَل الصيفى لأولئك البدو الرحل ، وهم يرتاحون فيه فى الوقت الراهن ، ولديهم معظم ذلك الذى يحتاجونه لأنفسهم ولماشيتهم ، إضافة إلى توفر الماء فى المكان أيضا . هذه هى مؤن هؤلاء البدو الرحل ، بدأت تتناقص بدءا من بداية العام ، عندما كان لديهم شيىء من النقود التى كانوا يصيبونها من صُرّة الحج ، ومع ذلك لم يكونوا يشغلون أنفسهم بما هو قادم ؛ وبالرغم من عدم وجود الكثير الذى يمكن أن يقتات به أولئك البدو الرحل ، سوى قليل من المريسى الذى تبقى معهم فى جوالاتهم . هؤلاء البدو يحتفظون إلى جوارهم بسلطانية من ذلك المريسى

المخلوط بالماء ، ويتناولونه فى معظم الأحيان أثناء النهار الطويل "الطويل (على حد قول الكتاب المقدس) والخالى من الخبز" .

بالرغم من قصر المسافة ، فإن أحداً لم يفكر فى النزول إلى قرية ولاد على لابتياع الطعام ، وهم يذهبون إلى قرية ولاد على عندما تضطرهم الضرورة إلى ذلك ، أو عندما يحل عليهم فصل الخريف . وحريم العائلات الفقيرة تلاقين الأمرين ، نظرا لأن الرجال يمكن أن يقوموا بجولة على الحرة يرعون خلالها الإبل ، ويشربون من ألبانها ما يشبعهم ، وهم يقولون فى هذا الصدد : "إنهم يضاعفون اللبن ." ناديت امرأة مسكينة الحال كانت تمشى بالقرب من خيمتى ، وكانت تغطى فمها وأنفها بغترة (غطاء الرأس عند الرجال) وسألتها "هل تشعرين بأى ألم ؟" "ردت علىَّ قائلة : "أنا مثلك "خرمان" Khorman ، أى جوعانة ، لعل الله يرسل علينا شيئا من الغوث !" من هنا فنحن نسمع العبارة التالية تتردد على ألسنة هؤلاء البدو : "نحن اليوم لم نجرح صيامنا ، وهذه هى الشمس تغرب الآن !" قطعان الماشية الصغيرة والكبيرة موجودة فى الجبال ؛ والبدو يقتادون الدبوش يوما بعد يوم للسقيا ، وبالتالى كانت ربات بيوت البدو ، تذهبن إلى تلك الآبار لجلب ألبان هذه الماشية ، ولكن تلك الألبان كانت تتناقص يوما بعد يوم إلى أن خفت الضروع فى النهاية ؛ ولكن ها هى الماشية الصغيرة بدأت ألبانها تزيد من جديد . والبدو يطلقون على زيادة ألبان الماشية الصغيرة اسم "تغريز الغنم tghrurriz el-ghrannem". كان البدو الرحل يقتادون قطعان الإبل للسقيا كل ثلاثة أيام . كان البدو يخلطون لبن النياق بالمريسى ، ثم يشربونه ، ويحسون على إثر ذلك بشىء من الانتعاش . ونظرا لعدم قدرتى على الاتصال بالمدينة ، فلم يكن يتبقى معى شيئا سوى تلك الحفنات القليلة من الأرز التى كانت ربات البيوت الكريمات قد جلبنها للمداوى نظير الدواء الذى أعطاهن إياه . وهنا قمت بسلق حفنة كبيرة من الأرز فى قليل من الماء وخلطته بشىء من المريسى ، ثم شربته وعشت عليه طوال اليوم ؛ كان الأمر يبدو لى كما لو كانت مناسبة ، عندما كنت أشرب شيئا من الحليب عندما أكون مع الماشية فى مكان السقيا . كنت أصلح الشاى فى بعض الأيام ، الذى كانت تفوح منه رائحة تسرى فى الأرواح الهزيلة فتبعث فيها الحياة من جديد . كان أولئك الأعراب يتألمون كلما وقفوا على حالى الذى كان يتدهور؛ والغريب بين البدو ضيف على الجميع،

وعندما كانت النساء الجارات تريننى وأنا أسير على الأحجار الساخنة ، لجمع شىء من الحطب للنار ، كانت واحدة أو أخرى منهن تعرض علىّ فى شىء من الشفقة وتقول: "يا خليل ، أذان athan لك lak أويش Oweyish" بمعنى "سوف أجهز لك شيئا قليلا من الطعام؟" وهنا كانت تعلق امرأة أخرى على ذلك بقولها: "اترك الأمر لها يا خليل، "و wa سواتها swat-ha أطيب tayib " ، بمعنى إنها تستطيع أن تفعل ذلك بطريقة جيدة .

يا لهذا العسر الذى لاقاه البدو فى فصل الصيف ! ومع ذلك ، كانت هناك بعض الأسر ، بخلاف أسر الشيوخ ، التى كانت تأكل على نحو أفضل من الشائع . أفضل ما يمكن أن تعثر عليه هذه الأسر هو عبارة عن وجبة غير مشبعة من الأرز المسلوق فى الماء ، تلك الوجبة التى كان حريمهم يعدانها فى السر وليس علانية ، وذلك عن طريق إغلاق الخيمة أو أن يكون الطهى أثناء الليل ، مخافة أن تفوح رائحة الطهى وتعم المكان ، إذ إن فواح رائحة الطهى يحتم على الطاهى دعوة من يجىء إليه إلى تناول الطعام . الفقراء من هؤلاء الناس ، عندما يبصرون أحداً قادما عليهم ، أثناء تناول الطعام يسارعون إلى القول "غطا" ghratta بمعنى "غطى هذا الطعام واستره عن الناظر إليه ." ومع ذلك ، إذا ما فاجأ أحد هذه الأسر ، فهم يبادرون على الفور بدعوته إلى الجلوس ومشاركتهم الطعام . والإنسان صاحب النفس العفيفة يرفض الجلوس ، أما إذا كان صديقا من أصدقائهم ، فهو يجلس ويتناول لقمة واحدة ثم ينهض على الفور قائلا "والله Wellah غديت ghradeyt" بمعنى "لقد أكلت وما أكلته يكفى" . هؤلاء البدو المساكين يعيشون هذه الحياة المعسرة خلال ذلك الجزء من العام ، أى عندما يجف الحليب من ضروع المواشى ، إلى أن يهل على أولئك البدو موسم التمر مرة ثانية . وعندما تشرق الشمس علينا كل صباح بحرارتها الخانقة ، فهى تحيى الذكريات فى صدورنا بمدى العسر والعوز ، من خلال فكرة مفادها : "كيف ستكون حياتنا فى هذا اليوم ؟" – وهكذا بالنسبة لى أمضيت الصيف صائما أفعل مثلما يفعلون ، ومتكئا على كوعىّ . ومع ذلك ، لم يكن يمر علىّ أسبوع حتى تتهيأ الفرصة ويقوم رب من أرباب الأسر بذبح ذبيحة ، سواء أكان ذلك من باب ذكرى تمام السنة لأسلافه ، أو من أجل مولد طفل أو ابن من أبنائه، أو لشفائه من المرض ، أو من أجل الحفاظ على صحة إبله . وفى كل هذه المناسبات كان أصدقاء صاحب الذبيحة يجتمعون للمشاركة فى تلك

الوليمة من اللحم المسلوق : وهم في هذه المناسبات يبحثون أيضا عن ضيف الله، وكنت أنا الآخر، أذهب للمشاركة في تلك المناسبات مخافة أن ينساني أحد منهم ؛ ولكن إذا حدث وكان صاحب الوليمة ، أو المناسبة ، واحداً من الجيران الذين أعرفهم ، أو من مرضاي ، أو شيخ من الشيوخ ، فإنهم كانوا يرسلون لي شيئا من طعام تلك الوليمة .

كانت أيام حياتنا ، باستثناء تلك الأمور التي لا داعي أو لزوم لها ، تمضي سهلة على شكل سكون طويل ! هــذه هي حياة البدو الرحل ، إنها عطلة طويلة ، مرتبطة أو متحالفة مع نوع من أنواع البساطة المقدسة ، ولكن تلك البساطة تكون مرتبطة بتسامح طويل في مسألة الجوع في الصحراء والخلاء . والشمس سرعان ما تبكر في الشروق بعد متعة ليالي الصيف القصيرة ، مما يؤدي إلى إيقاظ الأعراب في ساعة مبكرة ، والذين لا يطرق النوم جفونهم بعد ما يرون ضوء النهار ، إذ يتحتم على المسلمين بحق أن يؤدوا صلاة الصبح . والناس يجتمعون ، في خيمة القهوة ، ليشربوا سويا فنجال قهوة الصباح . ويبادر الأطفال إلى اقتياد القطعان المفطومة الصغيرة إلى الأدغال القريبة وإلى جوانب الوادي . أما النساء فيستأنفن غزلهن : وهن أثناء الغزل لا تؤدين أي عمل آخر من الأعمال المنزلية ؛ حيث لا يكن في استعداد للرحيل ، ولا يكن مشغولات بصناعة الزبد من الحليب ، كما لا يكن مشغولات أيضا بحلب القطعان . ولا يسمع أحد صوت الرحى في سائر أرجاء المنزل كله ؛ كما لا يكن مشغولات بمسألة جلب الماء .

كانت الشمس محمولة فوق الأفق ، وكانت الحرارة التي تشبه حرارة الفرن ومتسلطة علينا ؛ وفي ظرف ساعة واحدة بلغت أعمدة الخيمة من السخونة حداً يصعب معه لمسها . هؤلاء البدو يستلقون طوال النهار داخل الخيام وهم يلهثون (في جو بالغ الجفاف) دون تَعُّرقٍ : النهار هنا في هذا المكان ، يتمثل في تلك الساعات القليلة التي تكون عين الشمس خلالها على جبهاتنا مباشرة ، من يحاول الرقود ، يحس بالضيق . هذه هي الشمس تغرب في النهاية إلى جبهة الوادي في الحرّة ، وهذه هي الظلال المريحة تتقدم لتغطي خيامنا ، وها نحن بدأنا ننسى حرارة النهار المحرقة . وهؤلاء ربات البيوت تخرجن من الخيام ليتنفسن الهواء ، ويجلسن أمام بيوتهن وهن تغزلن . أما الرجال ، الذين يطلق البدو عليهم اسم "الزِّلم" ezzilim فيتجهون إلى مجلس الشيخ

وإلى خيمة القهوة ؛ ففى تلك الخيمة يكون "نادى" القبيلة ، وجرت العادة أن أذهب إلى تلك الخيمة لأحتل مكانى بين الحاضرين إلى أن يدخل علينا المساء . هذه هى جوانب الوادى تصطبغ باللون الأحمر ، وهذه هى الحرَّة تبرز من بين التلال البركانية الموحشة . وهذه هى الشمس تتضاءل من فوق طرف الشرعان المدبب ، الذى يظهر واضحا من هذه المنطقة ممتدا خلال وادى تربة Thirba ؛ طرف الشرعان هذا عبارة عن جبل من الحجر الرملى يقع خلف ركب Rikb الحجر el-Hejr ، ويعد علامة مميزة فى منتصف ديرة بدو الفجير Fejir . وبعد انحسار الضوء عن الأرض ، تبدأ حرارة النهار فى الانعكاس على جو الجبل قليل الكثافة : وهنا يهب على المكان نسيم بارد من الحرّة ، ويرخى ليل الجزيرة العربية الهادى سدوله من حولنا ومن فوقنا ، ويكون خاليا من الندى ومن البرد أيضا . وبعد أن استمعت إلى ما يقال بقيت فى منزلنا لتجاذب أطراف الحديث مع الحاضرين ؛ أو كنت أذهب سعيا إلى التعارف على أهل خيمة من الخيام . هؤلاء هم البدو يرقدون ملفوفين من حول وجار النار المسائية ، ويكونون بعيدين عن مجال الرؤية إذا ما رأوا بينهم غريبا غير مقرب إليهم وهم عندما أظهر عليهم فجأه أسمعهم يقولون: "إيش eysh بيهُ b'hu" بمعنى "ماذا حدث له !" ثم يقولون: "خليل حزين وصامت ! ربما يكون قد رأى شيئا سيئا اليوم (فى كتبى ، بعد الإطلاع عليها) ، ربما يكون قد مات له أحد ، من أقاربه ورفاقه ." كان البدو يسألونى كل يوم حول ما إذا كنت أُحس بالحنين إلى الوطن أم لا ؟ كانوا يتهامسون فى أحيان كثيرة بأنى رجل مطرودٌ أو منفى "إلى متى ستظل ، يا خليل ، تفتقد مكانك وصحبتك ؟" – ثم يقولون : "قد يطول ذلك إلى عشر سنوات ." "زمن النُّفى عند أعراب خليل يقدر بعشر سنوات ، التى إذا ما انتهت ، يصبح من حق خليل العودة إلى منزله . أليس عليك دم لأحد ؛ أليس ذلك هو الذى أوصلك إلى هنا ؟ خبِّرنَا ، هل أنت واحد من المجرمين أو الخارجين على القانون ؟ وإلا ، فنحن حائرين فيمن تكون أنت !

يرى البدو أن جريمة الدَّم، إنما هى من قبيل النحس الذى يصيب حياة أى إنسان من البشر ، وليست وصمة فى جبين الصداقة أو الرفقة الإنسانية . ذلك أن القاتل الذى يهرب إلى قبيلة أخرى أو إلى قرية أخرى ، إنما يحظى بالكرم العام ؛ بل إنهم يخصصون له مسكنا إذا ما كان بلا مسكن إلى أن يتمكن من استئجار منزل : هذا

يعنى أيضا أن المحسنين يدعونه لتناول الطعام ، إضافة إلى أن الرفاق لا يكون لديهم أى مانع من أن يضعوا أيديهم معه فى الطبق الذى يأكل منه . وهو من أمامهم عبارة عن هارب تعيس ، وليس شخصا آثما : معنى ذلك أنهم ينظرون إلى الجريمة التى ارتكبها على إنها خطأ إنسانى وليست خطئا مقدسًا (الذى هو الخطأ الوحيد الذى لا يغتفر) ، هذا يعنى أيضا أن ذلك المجرم لا يجدف فى حق الله عندما يرتكب مثل هذا الجرم .- والعرب عندما يروننى أجلس واضعا رأسى بين يدى يقولون : "لماذا تفعل هكذا ، يا خليل ؟ هذا الذى تصنعه ليس طيبا !" وعندما كنت أحملق فى جمال القمر الصافى مطيلا النظر إليه، كانوا يقولون لى: "لا تطل النظر إلى القمر على هذا النحو ، فهذا ليس فى صالح صحتك ." وأنا أرى ، أنه لا خطر من النوم فى العراء ، والوجه متجه إلى القمر الطالع ؛ وهذا هو ما يفعله البدو الرحل طوال شهور الصيف على امتداد حياواتهم : والبدو الرحل ، فى سوريا ، لديهم فكرة مفادها ، أن ضوء القمر ، أكثر من أى قدر من ضوء الشمس ، هو الذى سيصبغ وجوههم بالسواد . وكنت إذا ما رحت أنال قسطا من النوم، بعد صلاة العصر ، كانوا يوقظوننى بلطف وهم يقولون لى : "لا تنم فى هذه الساعة ، يا خليل ، فهذا ليس فى مصلحة صحتك ."

بالرغم من أن الكلام عن العرب قد يكون بمثابة انفعال من الضمير الحر (الليبرالى) إلا أن الإنسان ينبغى أن لا يلتزم الحذر أو الحيطة تماما فى الكلام عنهم . استماع العرب غير المكترث ، للأشياء البسيطة التى كنت أقولها ، جعلهم يسيئون التصرف بمثل هذه الأقوال ، إلى حد كان يدهشنى كلما سمعت تلك الأقوال ، تتردد كما قلتها أنا ، على لسان العرب أنفسهم : هذا يعنى أن هؤلاء الأعراب كانوا يقوّلوننى أشياء لم أقلها أو أفعلها ؛ ومع ذلك كان الشيوخ مقتنعين دوما برفضى الصريح والمباشر لكل ذلك . حدث أن أحضرت لى أم طفلها المريض ؛ ونظرا لأنى أمسكت ذلك الطفل مسكة حانية من يده ، فقد قال الأعراب أنى ماهر فى قراءة الكف . قالوا عنى أيضا أنى أحضرت كنزا من الرجوم ، وعلى (حد قول أحدهم) "طالما أن لديك نقود ، فهل لك أن تشترى منى ذلك الذلول الذى هو ملك لى؟" دخل بعض الشباب علىَّ الخيمة، حيث كنت جالسا أقرأ فى كتاب، وعندما تركت الكتاب يسقط من يدى قالوا: "انتبهوا ، لقد وقف فى هذا الكتاب ، على مصيبة ستحل بواحد من أعزائه أو أحبابه !"

وأنا عندما كنت أتحدث مع البدو كلاما من باب الوعي الإنساني العام ، أو إن شئت فقل : ذلك الكلام الذي يصلح لكل زمان ومكان ، كان الأعراب يستمعون إلى ذلك الكلام بإعجاب مشوب بالمتعة والسرور ؛ ويجيء رد فعلهم على ذلك الكلام رزينا ووقورا عندما يقولون "عَلَيْنَاك aleynak صادق Sadîk بمعنى "كلامك مخفف للآلام وملطف أيضا" . زد على ذلك ، أن الأعراب العاطلين يجدون متعة أيضا في الكلام المطاط الذي يحتمل الكثير من المعاني؛ هذا يعني أن الأعراب يقدرون ذلك الذي يستطيع تحريك عقولهم عن طريق الكلام ، ويرضون عن ذلك الذي يبعث المرح والسرور فيما بينهم . رجال الأعراب يقولون كثيرا عن الابتسامة ، إنها هي التي تريح الناس أكثر من أي شيء آخر ، وهم يرون أيضا أن الضحك يتسم بالجانب الإنساني أكثر من أي شيء آخر ؛ ومن الصعوبة بمكان أن يختلف أولئك الأعراب أو يتنازعون مع شخص تمتعوا معه بلحظة من تلك اللحظات التي نسوا فيها أنفسهم .

وجه الأعراب إليَّ ، ونحن جلوس حول نار المساء ، مئة سؤال وسؤال ؛ وكانت كل هذه الأسئلة ، تدور مثل العجلة الدُّوارة ، في فلك ذلك الذي يتملك أرواحهم السامية semitic . ألا وهي عاطفة الدين . أما النساء فكن يسألنني بفضول غريب عن تلك الشيخة Sheykha الكبيرة (*) ، أو إن شئت فقل : تلك المرأه الملكية في شعبي ، أو إن شئت فقل : أمتي ، "المرأة التي أكد خليل أن سلطتها أقوى من سلطة أي رجل في هذه الدنيا كلها !" رد أحد الأطفال على ذلك الكلام بقوله : "والله ..كم هذه السيدة عظيمة ؟ خبرِّنا هل هذه المرأة أكبر حجما من خيمتك التي تعيش فيها ؟" سألوني أيضا عما إذا كنت شيخا أم لا ، وهل لدي فرس في بلادي ؟ كانوا يستمعون إلى ردودي على أسئلتهم بشوق مشوب بالرضا والانشراح ؛ كان من بينهم واحد أو اثنان يتدخلان عندما يريان أني بدأت أحس بالملل ويقولان : "أنت يا من تسأله ، أين أدبك ودماسة خلقك ، لماذا تزعج الغريب ؟" . ومع ذلك كان الأعراب يعجبون بشكل عام كلما سمعوني أتحدث عن سلوكيات المسيحيين الطيبة . "(يقولون) طلبنا من خليل أن يحدثنا عن

(*) الشيخة الكبيرة : المقصود بها الملكة فيكتوريا التي وصلت إلى الحكم في بريطانيا في عام ١٨٣٧ ونصبت إمبراطورة على الهند في عام ١٨٧٦ وحكمت أربعة وستين عاماً حتى وفاتها في عام ١٩٠١ . (المراجع)

النصارى ؛ ووالله ، هؤلاء الذين نرى أنهم كفار ، يخشون الله أكثر منا نحن الذين نسمى شعب الله : يضاف إلى ذلك أن خليلا ليس عدوا ، ومن الذى يجرؤ على أن يقول غير ذلك ، وفكره وذهنه مثل فكر الأعراب". كان الأعراب يتعجبون في بعض الأحيان وهم يقولون : "حكى el-hichy خليل Khalil حلو helw" بمعنى "كلامى كان حلواً" فى آذانهم . كانوا ، مثل سائر كل الأعراب ، يتوقون شوقا ليسمعوا منى شيئا عن "جيزات jizzat النصارى en-Nasara" أو إن شئت فقل "الزواج عند النصارى" ، وكانوا يعجبون وأنا أحكى لهم مستفيضا عن الرباط المقدس الذى لا يباع ولا يشترى ، فى الزواج المسيحى !

أنا أعجب أيضا لذلك الظلام المطبق الذى يخيم على أولئك البدو الرحل فيما يتعلق بمسألة الدين عند الساميين Semitic ! قال لى هؤلاء البدو : "نحن مساكين وجهّال ! ونحن عندما تراودنا بعض الشكوك الدينية نستفتى فيها العلاونة (أى ولاد على) لأن أولاد على يكتبون كما يقرءون أيضا الكتاب المقدس ." ومن بين هذه المسائل الدينية – أن هؤلاء البدو المترحلين كانوا يصلون أكثر من جيرانهم فى الغرب أو الشمال – بعض هؤلاء البدو لم يسمعوا عن حياة ما بعد الموت ! كل ما يعرفه هؤلاء البدو الرحل هو أن من يغضب الله "سيلقى فى جهنم" . سألنى أحدهم ونحن جلوس حول نار المساء : "يا خليل ، هل هناك شيء بعد وفاة الإنسان ، خبِّرنا عن ذلك ، (فكرة أن الشعب المعوز أو المحتاج ، عندما يضحى بالكرم ، يتحتم عليه فى أحيان كثيرة أن يغش أمعائه هو) وهل إذا قدم الإنسان الصدقات طمعا فى رضاء الله ، سيجد تلك الصدقات فيما بعد؟" الصدقة هى منة من عند الله ، وهى شفقة إلهية من جانب الرجل المستقيم ، يخرجها المتصدق بالضرورة لغوث شخص آخر ؛ ورددت على السائل من واقع الكتاب المقدس (الإنجيل) : "من يعطى الصدقات إنما يقرضها لله ؛ وسوف تحصد فيما بعد ، ذلك الذى تزرعه." – "لقد سمعنا أنه ستكون هناك نارا، وماذا بعد هذه النار ، يا خليل ؟" – "النصارى والمسلمون يؤمنون بأن الموتى سيبعثون ، ليقفوا أمام الله يوم الحساب ، فى وادى يقع أمام جدران (المدينة) المقدسة ، أو إن شئت فقل : القدس " - "aîel-Kûds ! أين المدينة المقدسة ، وأين تقع مدينة الخليل (مدينة "الصديق" ، "مقام إبراهيم ، أو إن

شئت فقل: حبرون[*] Hebron)؟ سمعنا أن الناس سيجمعون فى حفرة تحت "الصخرة المعلقة هناك" : فما هذا ، فى رأيك ، يا خليل ؟ ومتى ستسقط تلك الصخرة ، وهل هى صحيح معلقة فى الهواء ؛ وهل تبدو الصخرة كما لو كانت توشك على السقوط ؟" – الكهف وغطاؤه ، "الصخرة المعلقة" عبارة عن حفرة ، وردت فى دين محمد (ﷺ) عن إبراهيم والبطاركة ،) أو بالأحرى هى عبارة عن غرفة مسقوفة ، محفورة بكاملها فى صخره من الحجر الجيرى ، فى المنطقة المحيطة بمعبد جبل Mount مورابة Moriah ، ومبنى فوق تلك الصخرة مسجد عمر : هذه الصخرة تشبه مسقى مائى صغير ، وهناك كثير من الخزانات الشبيهة بها والتى كانت تستخدم فى الزراعة قديما ، فى المنطقة المحيطة بأورشليم (القدس) .– "والحكم النافذ ، ماذا سيكون مصيرنا ؟" – "ستكون وجوه العادلين منوّرة مثل ضوء الشمس ، سيقودهم الملائكة إلى جنان الرب ، حيث ، حسبما ورد فى الكتاب ، لا يتذكرون متاعب الدنيا التى لاقوها ؛ ولكن الأشرار سيهوون فى النار ، حيث لا ينتهى عذابهم ." – "هل سنعرف أباءنا ونراهم هم ومعارفنا ؟ حدثنا أيضا عن دينك . متى جاء عيسى ؟"– "دين عيسى بن مريم ، من روح الله ، أى أنها أعلى من السماء ! هذا الدين يحرم ويمنع كل المعانى والتعامل الشرير ، ويطلب من الناس أن يخشوا الله ويحبوه لأنه هو خالقهم ، وأن نعبر لجيراننا عن حبنا الإلهى لهم ؛ وأن نحيا حياتنا بلا أضرار وفى هدوء ، ولا نكره أحداً أو نجعل منه عدواً لنا ، وأن نتمتع بالصفح والعفو ." كان البدو يرددون ذلك الكلام بعدى وقد ظهر الإعجاب الدينى فى وجوههم : ولكن الأمر كان يبدو غريبا عليهم ، فيما يتعلق بحب الإنسان لعدوه أو خصمه ، فى هذا العالم العامر بالحقد والحسد ، وغير العادل بطبيعة الحال . "يا خليل، هل صحيح أن التبغ هو بول إبليس؛ وهل سيهوى "شاربو" drinkers الدخان محترقين فى جهنم ؟" – "يا لحماقة الأطفال هذه ! – ما هو إبليس أو الشيطان Sheytan ؟" لم يستطيعوا الرد على هذا السؤال ، وكانوا يتعجبون أن هذين الاسمين مسميان لشىء واحد :– بدا قولى لهم أيضا طريفا لغرابته !

(*) حبرون : موقع هذه المدينة فى الضفة الغربية لنهر الأردن على مقربة من مدينة القدس . (المراجع)

قمت في عصر أحد الأيام بزيارة إلى تلك الرجوم التي تشبه خلية النحل (الصورة رقم ٦١) والتي كانت في مكان قريب من المكان الذي كنا نخيم فيه ؛ كانت تلك الرجوم عبارة عن أكوام من التراب فوق التربة الجرداء القاحلة ، ولها أوزان معقولة وصلابة معقولة أيضا . أحصيت من بين هذه الرجوم ما يقرب أو بالأحرى ما يزيد على مائة وخمسين رجما . كان بعض تلك الرجوم متصدعا ، أما البقية فمن الواضح أنها سبق اختراقها والتجوال خلالها . هذه النباتات التي على شكل أكوام مستديرة ، أو على شكل شبه بيضاوي يصل عرضها إلى حوالي خمسة وعشرين قدما ، كما يصل ارتفاعها إلى حوالي عشرة أقدام . داخل هذه الأكوام عبارة عن زنازين عميقة ضيقة ، بواقع زنزانة واحدة ، أو اثنتين بل وأحيانا ثلاث زنازين في الرجم الواحد، وهي مزودة بفتحات تشبه الفخاخ . عن طريق هذه الحفر التي من عمل الإنسان ، نزلت إلى بعض من تلك الرجوم ، حيث كنت أجد دوما بداخلها هواء يشبه هواء القبور ؛ ولكني لم أعثر على عظام داخل هذه الحفر أو الزنازين . لاحظت أن الزنازين كانت مبنية بطريقة إنكماشية نحو الأعلى ، ومغلقة من أعلاها بقرميد من الحجر ؛ ومن فوق هذا الغطاء توجد بعض الأحجار السائبة صغيرة الحجم أو إن شئت فقل: الحصى ؛ زد على ذلك ، أن فتحات تلك الخنادق تبدو كما لو كانت آبارًا عند رءوس تلك الرجوم . وعند كل فتحة من هذه الفتحات ، كانت هناك حافة بارزة ، أو إن شئت فقل : قدم متقدمة حول المسارات الأرضية لبعض هذه الرجوم . هذه الرجوم كلها مبنية بالطريقة الجافة ، ومرصوصة رصا جيدا ، وهي مبنية من البازلت المأخوذ من الوادي نفسه . هناك في وادي عروش أكوام أخرى من هذا القبيل ، كما أن هناك بعضا آخر من تلك الرجوم التي شاهدتها فيما بعد في وادي الشلاَّل Shellal، ولكنها كانت أقل حظا من حيث مصنعية البناء . وبعض الرجوم التي تظهر لي من هنا ، على حافة الوادي ، هي أكبر من كل الرجوم الأخرى التي سبق أن رأيتها ؛ وفي منطقة هذه الرجوم التي عند حافة الوادي أشاهد مدقا من مدقات الأغنام المؤدية إلى أعلا الحرَّة ؛ ولكني عندئذ كنت أبلغ من الضعف مبلغا عجزت معه عن الصعود إلى الحرة سيرا على قدماي . أخبرني الشيوخ أن ذلك الذي رأيته لا يعدو أن يكون دوائر من الجدران ليس إلا . سألت الأعراب ، "أليست هذه الرجوم هي مقابر القدماء ؟" الإجابة : "خطر ذلك ببالنا ، ولكن

البحث والتفتيش الذى قمنا به فى العام الماضى ، أسفر عن عدم وجود عظام أو بقايا عظام في تلك الرجوم .

اتخذت من دغل التين البرى الرطب ملجأ لى طوال بضعة أيام ، إذ كنت ألجأ إليه عندما تشتد حرارة الجو - والذى لم يكن ظله يدوم طويلا . كانت القطعان تتوافد على ذلك الدغل لترتوى من مائه الدافئ ، كما كانت تفد على ذلك الدغل أيضا ربات البيوت البدويات لتملأن قرابهن بالماء ، كما كان الرجال ينعشون أنفسهم بالاستحمام فى ذلك الماء . يوجد فى هذا الدغل بئران ، أولهما يقع خارج البيَّارة (وهو الأفضل) ؛ درجة حرارة الماء فى هذا الدغل تصل إلى ٨٣ْ فهرنهيتية . والبئر الموجودة داخل الدغل أو إن شئت فقل : البيارة (وماؤها فيه شىء من مذاق الكبريت) ينساب ماؤها فى بركة صغيرة من الصلصال ، مملوكة لبعض البدو الغائبين الذين يمتهنون الزراعة ، وهم يستخدمون ماء هذه البئر فى عملية الرى . هذا التين البرى (الحماة hamât) له أوراق صغيرة جداً ، تشبه أوراق أشجار توت الحدائق ؛ ونسغ أشجار التين البرية هذه ، يبلغ من الحموضة حداً يترتب عليه حدوث التهاب للجلد إذا مالامسه ، ويظل يحرق من يصيبه طوال يوم أو يومين . قلة قليلة من أشجار ذلك التين البرى ، هى التى يمكن العثور عليها فى هذه الصحراء ، وهى تنبت (بفعل زراعة الطيور البرية لها) حول مصادر المياه . وأنا لم يسبق لى أن رأيت بيارة من هذا القبيل فى الجزيرة العربية : بالقرب من هذه البيارة ، توجد مقبرة ، يعتقدون أنها منهل menhel، أو إن شئت فقل : مكان منخفض فيه ملائكة أو حوريات .

فى هذه الظلال الوارفة ، شاهدت ثعابين طويلة تشبه الكرباج ، كما شاهدت أيضا عناكب تبلغ من الكبر حداً تشبه معه راحة يد الإنسان ومعها أصابعه : كما شاهدت أيضا ذبابا كبيرا مختلف الألوان ، يلمع ويتلألأ فى هذا الفيض من الضوء المنكسر . كما شاهدت طول اليوم ، فوق تلك البركة الصلصالية سحابة من طيور الصحراء الرمادية التى تسبح فوق المياه ، وتجىء إلى هذا المكان قادمة من الصحراء ، لكى ترتوى وتطفئ ظمأها ؛ كما شاهدت أيضا بعض طيور خطاطيف الكثبان والمنخفضات ، فضلا عن بعض من يمام الصقور أزرق اللون ، وتلك كلها من الطيور التى تحوم حول مصادر المياه فى الجزيرة العربية . أسفل هذه البركة مباشرة ، فى

الوادى الواسع ، توجد بعض الأشواك الصحراوية ، التى نمت إلى أن أصبحت تشكل نوعا من الأخشاب ، ورجال المخيم يلوذون بتلك الظلال الهزيلة : وفى هذه الظلال يفرد الناس أجسادهم طلبا للنوم ، مفضلين تلك الظلال على الخيام ، وفيها يمضون ساعات الحر القائظ . منحدر الوادى خلف منطقة البيارة وبركة الماء يعد موطنا وملاذًا للحبارى الصحراوية التى لها أرجل حمراء اللون : فقد استمعت إلى تلك الحبارى وهى تغرد بلحن مرح لطيف ، طوال نهار الصيف بكامله . فى هذه المنطقة وحدها شاهدت الفراش يرفرف بأجنحته كما لو كان زهورا تتداعى فى هواء الصحراء . والأعراب يطلقون على ذلك الفراش اسم "الشرّارة" Sherrâra ، – أما أهل الحضر فيطلقون على الفراش اسم "عيسون" aisûn وبخاصة فى المدينة (المنورة) .

مقبرة شيوخ الموهاهيب ، توجد بالقرب من البيارة فى ذلك الجزء الحجرى الوعر من الوادى . شاهدت فى منطقة المقبرة بعض الجدران الأرضية المهدمة المتخلفة عن مبانى جافة ؛ وبين أكوام الحجارة الكبيرة ، توجد مجموعة صغيرة من قبور مختلفة الشكل ، كما يوجد عدد قليل أيضا من المُصلّيّات (أماكن الصلاة) ، من قبيل المصليات التى رأيناها عند ابن الرشيد فى الحجر ؛ هذه المصليات فيها متسع من الأرض يسمح للإنسان بالانحناء عند الدخول إليها ، وهى مفصولة عن المصلى العام بأحجار مرصوصة على شكل حدوة الفرس ، وقبلتها متجهة نحو مكة . فى تلك المصليات شاهدت ورأيت أفراد القبائل وهم يحضرون للصلاة على قبور أسلافهم . والبدو يحرصون على اجتياز ذلك الطريق أثناء الليل ، وهم يقولون إن الأشباح تجوس فى ذلك المكان ، الذى سكنه الكفار فى سابق العصر والأوان .

من هنا يصبح معنى "منهل menhel الملوك el-melûk"، "مكان إضاءة قوة الهواء." ولكنهم عندما وجدونى أحتقر خرافتهم هذه ولا ألقى لها بالاً "قال شاربو القهوة : يا خليل ، هذا صحيح بحق ، وبالرغم من أننا لم نر هؤلاء الكفار ، فقد رآهم آباؤنا ! هناك بعض القبليين الآن ، الذين مازالوا على قيد الحياة وهم على استعداد أن يقسموا أنهم سمعوا وداسو بأقدامهم ، فى رقصاتهم ، وسمعوا أصوتهم ، وأغنياتهم ، أثناء الليل ، وأنهم فهموا كلامهم ؛ وأن ذلك حدث فى زمن كانوا يجيئون فيه للصيد فى هذا المكان ، وكانوا يقيمون فيه وحدهم هنا فى هذا الجزء من وادى تربة ؛– وأنهم كانوا

متأكدين تماما من عدم وجود أى أحد من الأعراب مخيما فى ذلك المكان فى سائر أنحاء الوادى ." يردف هؤلاء البدو قائلين : "لو حاول أحد نزع غصن من الأغصان ، فسوف يُمْسَك به فى الهواء ، ولن يراه أى أحد بعد ذلك ؛ أو قد ينسى عقله ، ويهيم دوما فى أنحاء الخلاء (الصحراء) بلا طعام أو شراب ." حكوا لى أيضا عن حادث وقع منذ فترة طويلة ، لواحد من أثرياء الطُّوَّالة Tuâly – كان ذلك الطوالى معروفا لكل الأعراب ، – هذا الرجل (بالرغم من الخرافة السائدة بينهم) أضرم النار فى واحدة من تلك الأشجار المسكونة التى تنمو فى الجاو Jau : "ولكن ذلك الرجل بعد أن قاسى الكثير من المرض الخطير ، برزت أمعاؤه من شرجه وانتهت حياته نهاية مأساوية : ومات أطفاله أيضا بنفس الطريقة، كما نفقت كل ماشيته أيضا بالطريقة نفسها!" كان ذلك الرجل يملك حوالى أربعين جملا . تلك كانت إشارة أو علامة من علامات السماء الصامتة فى زمنهم ، والتى سجلت فى الكتب (هل كان لدى هؤلاء البدو معرفه سطحية بالقراءة والكتابة)، وربما انتقلت تلك الخرافة إلى الأجيال التى جاءت بعد ذلك ! كان البدو يقولون لى دوما أن أحداً من الأحياء لم ير تلك الرؤى الملائكية ، – وهم يقولون إن هذه العلاقة جاءتهم عن طريق القدماء . "سألونى ، إذا لم تكن تلك التوضيحات من قبل الملوك ، فماذا تكون ؟" الملائكة يُرَون فى الهواء على هيئة فرسان ، يتقدمون إلى الأمام ويرجعون إلى الخلف ؛ هؤلاء الملائكة "يختفون ، بالله ، من منظوركم ."

هناك أيضا بعض "المناهيل" menahil فى أجزاء من الجزيرة العربية ، بل وفى كل ديرة من ديار البدو الرحل . هذه المناهيل تتمثل بصورة عامة فى بعض الأشجار وبعض الأعشاب أيضا التى توجد فى الخلاء ، أو إن شئت فقل : الصحراء . فى تلك المناهيل ، يقوم القبليون المرضى أثناء ترحالهم ، وعندما يصلون إلى تلك المناهيل ، بذبح شاة ، قربانا لتحسن صحتهم ، أو عنزة ، ويروحون ينثرون دماء هذه الذبائح هنا وهناك . ويقوم ذلك المريض بطبخ لحم الذبيحة فى المكان وتوزيع لحمها المطهى على أصدقائه ، ويترك بعضا من ذلك اللحم معلقا على أغصان ذلك المنهل : ثم يستلقى بعد ذلك لينام على الأرض بدافع من إيمانه العميق بخرافته أن الملائكة سيجيئونه فى الرؤية، ويتكلمون عن بعض الدروس المهمة فى صحته. "يستيقظ المريض سليما ومعافًا؛ لكن إذا ما كانت صحة أى إنسان تسمح له بالنوم فى المنهل ، فإنه يصحو فى الصباح

محطما ومعتل الصحة ." والجاو Jau فيها منهلان ، أحدهما دغل من أدغال نبات "السرحاح" Sarhâh ، أما المنهل الثاني فهو عبارة عن واحدة من أشجار الأرو Oak دائمة الخضرة التي يطلقون عليها اسم "البوتم" butm أو الثَّروْة" Thirwa ؛ هذه الأشجار المسكونة (من الجن) يعلق عليها هؤلاء البدو الرحل أنواعا كثيرة من الخرز ، وكذلك شرائح من القماش ، وتمائم من مواد مُلَوَّنة ، فضلا عن كثير من الأشياء الأخرى . ومن بين المناهيل أيضا ذلك النبات الشوكي الصحراوي الضخم الموجود أمام القلعة قبل قرية ، أو إن شئت فقل : وادي الحجر . – ترى هل مسألة خرافة أشجار المنهل هذه ، بقية من بقايا عبادة الأشجار ، التي نعرف أنها سادت الجزيرة العربية وانتشرت فيها .

هذا الشيء نفسه ، نجده مستمرا أيضا ، في الريف والحضر ، في البلاد العربية المتاخمة للحدود . في كل هذه الأراضي المفتوحه نجد أشجارا ، وأماكن ، يصلي الناس لها ، وذلك في المنطقة بدءا من سوريا إلى مرَّاكش (المغرب) : في هذه الأماكن ، يعلق كل من يفد إليها من أجل الصلاة خرقة من القماش على تلك الأشجار إشارة إلى الصلاة التي أجيبت في ذلك المكان . ما أكثر تلك الأدغال التي لا تعطي ظلا ، في وقت الحر ، لعابر السبيل هذا الظمآن الذي لفحته حرارة الشمس ، الذي يروح يركع ويسجد أمام تلك الأدغال ، في وادي بردى Barada ، بالقرب من دمشق ، حيث ما تزال هناك بعض الأعراف والاحتفالات الوثنية بين المسلمين ، قمت بزيارة اثنتين من بيارات أشجار السنديان دائمة الخضرة ؛ هاتان البيارتان تعدان من أماكن التمني والأمنيات عند الفلاحين . هؤلاء الفلاحون إذا ما تحقق لهم شيئًا يكونون قد تمنوه ، يبادرون بالذهاب إلى إحدى هاتين البيارتين في يوم محدد من أيام العام ليقوموا هناك بتكسير قطعة من الفخار ؛ أو قد يضعون تميمة جديدة في كهف صغير موجود تحت صخرة في البيارة الثانية . هذا الكهف ، شاهدته ممتلئا تمامًا بأواني القرابين : هذا يعني أن الإنسان يرى تلك البيارة الثانية كومة من قطع الفخار المكسور . [هاتان البيارتان موجودتان في ساحل الوادي ناحية الغرب فوق قرية الزبداني Zibdany .] – تلك هي معتقدات عامة وشائعة من معتقدات الوعي الإنساني الخرافي غير المنطقي في سائر أنحاء الدنيا كلها . الأمثلة على ذلك كثيرة جدًا على نحو يصعب معه حصرها ،

وبخاصه فيما يتعلق بأشباح الملائكة ، التي وردت في كتاب موسى ، وفي التواريخ المقدسة لأزمان أو عصور إسرائيل الأولى . لدينا مثالا مدهشا [بالرغم من عدم وجوده في النص الأصلي] في العهد الجديد : في مواسمه تنزل قوة الهواء لتربك خزانا في أورشليم (القدس) ، ومن ينزل في البداية إلى الماء ، كان يشفى من وهنه .

سألت هؤلاء البدو الرحل عن عادات الدفن عندهم وعن طقوس الموت أيضا . الميت عندهم يدفن في نفس يوم الوفاة ، وإذا ما مات في المساء دفنوه في الصباح . وهم يغسلون الجثة ، ويكفنوها في قماش أبيض جديد : وهم يحفرون بشدة ، باستخدام أيديهم أو عصا من العصي ، في التربة الحارة ، قبرا ضحلا . وهم يوجهون قدمي الميت ناحية مكة (القبلة) ثم يقومون بوضع كومة من الأحجار الجديدة حفاظا على الجثة ؛ ومع ذلك فقد وجدت قبورهم في الصحراء وقد نبشتها الضباع الضارية ، كما شاهدت أيضا الأكفان مجرورة إلى سطح الأرض . وقد أبلغني ماهوبي Muhûby أنهم "يحلقون رأس الميت ، ويذرون شعره في الريح؛" وإذا ما ثبتت صحة كلام ذلك الماهوبي، فهذه العادة لا وجود لها في أي مكان آخر من الجزيرة العربية. قال لي الماهوبي أيضا: "هم لا يحلقون شعر المرأة ، وهم يدفنون معها مشط شعرها . وهم يدقون وتداً من أوتاد الخيمة عند رأس قبر ربة المنزل" . وهم ينثرون العطر على نعش المرأة عندما يحملونه . والمرء عندما يموت يقوم أقاربه بذبح نعجة عند قبره ، ولكن دون أن ينثروا دمها ؛ وهم يسلقون لحم النعجة ويوزعونه على المشاركين في الجنازة . وفي الذكرى التالية للوفاة يجتمع أو إن شئت فقل : يتجمع أصدقاؤه عند أقرب أقاربه.

الذي يذبح ذبيحة بقدر ما تسمح به ظروفه وحسب مقدرته - والبدو الرحل أصحاب ورع شديد فيما يتعلق بهذا الأمر - إذ إن الذبيحة ينبغي أن تكون بقرة أو جملا ؛ ولكن نظرا لعوز تلك الأسر وفقرها ، ونظرا أيضا لعدم توفر القطعان ، فإنهم يبيعون ثلاثة أو أربعة من الأغنام أو الماعز ، ويشترون بثمنها "فطيراً Fatir ، أو إن شئت فقل : ناقة فقدت أسنانها الأمامية ، ولم تعد تحمل (تنجب) : ويقومون بإعفاء تلك الناقة من كل الأحمال ويتركونها تسمن عدة أشهر - وهم لا يقدمون أضحية . أو إن شئت فقل : ذبيحة ، للمرأة الميتة .

بينما كنت جالسا ذات يوم في الظهيرة بالقرب من الحماة hamat (شجرة التين) جاءت مبليس Miblis زوجة طلُّج الشقراء الشابة ، ومعها خمسة أو ستة من قراب الماء: سألتها عن سبب كثرة القراب في ذلك اليوم ؟ أجابتني : "سيقيم طلُّج الليلة وليمة ، وسوف يذبح بعيرا صغيرا ؛ ولا تنسى يا خليل ، أن تحضر تلك المناسبة ." – وعندما كنت أجلس ضمن مجلس العصر سمعت أن الشيخ سوف يحتفل بتمام السنة اليوم ، وسوف ينحر ذبيحة تأبينا لوالده من ناحية ومولاه من ناحية ثانية . خرج طلُّج عندما أوشكت الشمس على الغروب ، ونادى طالبا إحضار سكين ، ثم شمر كُميّه ، – نظرا لأن رب الأسرة هو الذي يتعين عليه أن ينحر ذبيحته : وكانت ناقة وبعيرها تقف خارج الخيمة . صاح أحد الحاضرين قائلا : "انتظر ! لماذا تفعل هكذا يا طلُّج ؟ والرضيع أنثى . اذبح شاه ، يا أنت ، أو عنزة بدلا منها ." ورد عليهم حامد ولد الشيخ" – على من ستحل لعنة هذا القربان في يوم من الأيام ، "ولكن هذه الناقة الرضيعة ترفض الرضاعة ، ولذلك قررنا ذبحها ." كان ثمن تلك الأنثى الصغيرة يتراوح بين ثلاثه وأربعة ريالات ، إضافة إلى أن ذلك الثمن كان يزداد بمعدل ريال واحد كل شهر . لم تفت تلك الكلمات في عضد الشيخ . فعل الواقفون ، ذلك الذى أمرهم به الشيخ ، ووضعوا أيديهم الخشنة على البعير الصغير وطرحوه أرضا وهو يناضل ويزمجر . وعندما شاهدت الناقة الكبيرة ذلك التعامل الخشن مع وليدها ، اتجهت نحوه ، وأنزلت عنقها الطويل ، وزمجرت زمجرة عاطفية من خلال حلقها الكبير ، كانت تلك الزمجرة مليئة بالمتاعب . أحدث طلُّج جرحا عميقا في رقبة تلك الضحية البائسة ، وكان ذلك الجرح بالقرب من صدر البعير الصغير ؛ كانت الأم البائسة تقطع المكان جيئة وذهابا وتدور من حول نفسها ، وتتشمم الدم وسرعان ما وضع لحم البعير في الأواني ، التي راحت تغلي فوق نار البدو الضعيفة المكونة من قليل من الحطب وشيء من روث الإبل . وعند منتصف الليل أصبحت وجبة الوليمة التي أقامها طلج ، جاهزة ومعها أيضا الأرز المطبوخ . كنت قد غادرت المكان لكي أنام ، ولكن ذلك الرجل العجوز الطيب لم ينس الغريب ؛ فقد أيقظني مراسله ، بعد أن وضع طبقا شهيا خلف باب خيمتي ؛ "هذا الطبق من عند طلُّج ، هيا انهض وتناول عشاءك ." لحم البعير الصغير هذا طرى وحلو المذاق مثل لحم العجول الصغيرة . والبدو نادرا ما يأكلون لحوما غير اللحوم التي

يذبحونها هم بأيديهم ؛ ولكن يتعين أن تكون الذبيحة من النوع الذى يذبح بأيديهم ؛- والبدو يندر أن يأكلوا لحوم الصيد أو الطرائد .

ونحن عندما نتكلم بصورة موجزة عن الأضحيات التى يقدمها هؤلاء البدو الرُّحل فى الصحراء نقول : إن الطفل الذكر ، عندما يولد يذبح له والده نعجة ، ولكن الطفلة الأنثى لا يذبح لها والدها شيئا . وسبق أن تحدثت عن نثر الدم على الأرض ، كما أنهم يسكبون الدم أيضا فى أساس المنزل الجديد عند بنائه ؛ وهم يلجأون إلى مثل هذا العمل عند افتتاح مصدر جديد للمياه ، أو توسيع بئر من الآبار . وعندما يعود الغزاة بغنيمة من غزوهم ، يقال لهم "فيض" feyd أو "شسَّاب" Chessab . فى هذا "الفيض" أو "الشسَّاب" تخرج النساء ترقصن وتغنين لاستقبال أولئك العائدين من الغزو : ويجرى فى نفس الليلة تلطيخ ذلك الشسَّاب بدم الذبيحة أو الضحية . هذا هو متعاد Metaad ، واحد من جيرانى ، أرسل لى هدية من لحم عنزة سمينة كان قد ذبحها فدية لجمل مريض ؛ و "هنا ، قال الأعراب ، سوف تبدأ صحة الجمل فى التحسن ." وهذا هو ربا Rubba، الراعى المسكين ، أقام وليمة عشاء لأصدقائه ، مقسما بينهم لحم عنزة ، كان قد نذرها عندما كان مريضا ويحس بالألم . وهذا هو سويش Swoysh ، يقدم أضحية لمولاه ويقوم بتوزيع أجزاء الذبيحة فى خيمته ، ولم نتناول عنده طعاما . هؤلاء البدو على قناعة من أن تأخير تقديم الذبيحة لن يكون فى صالحهم وقد يضرهم . وهم يطلقون على الأضحيات الدينية كلها اسم "قربان" Kurbân . ولقد شاهدت بعض حضر المدينة (المنورة) يطلقون قليلا من البخور قبل نحر الأضحية أو إن شئت فقل : القربان ، نظرا لأن رائحة الطيب "مقبولة عند الله" ، كما أنها توجه عقولنا نحو الدين . - وفى الأماكن التى يكون الناس فيها هم الجزارين ، فلربما (مثل العرب) يكونون أكثر ميلا لإهدار دم البشر . والبدو عندما يقدمون أضحية (قربان) للجان ، فهم يقدمون أيضا قربانا للشياطين . والواحد منهم عندما يقدم قربانا من أجل الصحة ، فإنهم يعتقدون أن ذبح الخروف أو العنزة إنما يكون فداء عن حياة الجمل أو حياة البدوى هو نفسه ، بمعنى أن تلك حياة من أجل حياة . [وعليه فإن ذبح شاة أنقذ حياة ولد (سيدنا) إبراهيم.] هذه الأضحيات التى يتناولها الناس فى الصحراء بصورة جماعية تخفف قليلا من جوع أولئك البدو المستمر ؛ - هذه الأضحيات أو القرابين التى

هى نداء من عند الله العاطى ، عبارة عن تناول لعشاء ربانى من الخبز والملح مع الله (سبحانه وتعالى) !

انتظرت على أمل مواصلة الرحلة إلى خيبر . مرت علىّ أيام عجاف ، كنت لا أرى خيبر تقترب منى خلالها ، كما تناقصت خلالها قدرتى على الترحال والانتقال . كان محصول التمر قد بدأ ينضج فى تلك الوديان الحارة . والمؤكد أن الوماهيب كانوا قد ذهبوا إلى تلك الوديان مع بدو الفجير ؛ ولكن كان قد سبق لنا معرفة أن بدو الفكارة لم يذهبوا إلى خيبر فى ذلك العام ، إضافة إلى أن بدو الفكارة ، بحكم قلة عددهم لا يجرؤن على عبور منطقة موبوءة (فى هذا الموسم) بعصابات الغزو ، كان رسل شيوخ الفجير قد عادوا من خيبر ، ويحملون معهم أنباء مفادها أن "قسما كبيرا من تمر النخيل قد أكلته أسراب الجراد ، وأن جنود المدينة (المنورة) كانوا فى خيبر ليأخذوا مستحقاتهم من ذلك التمر" ؛ وبلغنا ، عندئذ أن الشيوخ والقبليين قرروا التنازل عن محصولهم فى ذلك العام . ومعروف أن ضريبة الدولة (الإمبراطورية العثمانية) كانت تقدر بواقع ريال مجيدى واحد عن كل ستة من الإبل ، أو ريال مجيدى واحد عن كل أربعين رأس من الماشية الصغيرة ، - والناس هنا يقولون ، إن هذا أخف وأعدل من الضريبة التى يفرضها جباةُ ابن الرشيد ، والتى يعدونها أيضا معتدلة وغير مبالغ فيها ؛ ولكن ذلك يحز فى نفوس أولئك البدو الذين ليست لديهم أيه خبرة فى المسئوليات أو الأعباء العامة .

كيف لشيوخ الفكارة أن يواصلوا حياتهم فى غيبة تمور خيبر عنهم ؟ - "عن طريق بيع بعض مواشيهم الكبيرة ، نظير الطعام ، فى القرى ؛" ولكن ماذا تفعل الأسر القبلية الفقيرة ؟ - "بوسعهم تأجير أفضل إبلهم ، لجلب الماء من الآبار فى الواحات ، مقابل عدة مكاييل من التمر كل شهر ." يضاف إلى ذلك أن الإبل القوية بدنيا قد لا تتحمل العمل فترات طويلة ؛ يتحتم بعدها إطلاقها إلى الصحراء ؛ والبدو يقولون ، إن المجموعة القوية والجيدة من الإبل لا تتحمل العمل لمدة تزيد على مائة يوم . هناك بعض من أصحاب الآبار ، الذين يشغِّلون تلك الإبل بصورة مستمرة ، الأمر الذى يجعلها تهن وتضعف فى النهاية . يضاف إلى ذلك أن الأشخاص المتذمرين ، فى وقت الشدة والعوز ، يفرضون أنفسهم على الموسرين من رجال القبائل ليحصلوا منهم

على شربة صغيرة من اللبن ، من باب مرضاة الله ، كما يطلبون منهم أيضا شيئا يقتاتون به في الغد . ولقد شاهدت ربات البيوت الغاضبات الحانقات وهن يقدمن تلك الصدقة التافهة بتراجع شديد ؛ ومع ذلك ، فإن هذه الصدقة القليلة ، تعطى وتقدم لهؤلاء الناس ، مخافة من الله وتحاشيًا لألسنة الناس وكلامهم . ولما كان الفكارة قد عقدوا العزم على عدم الذهاب إلى سوريا ، فقد قرروا ألا يقيموا هذا الصيف مخيمات دائمة ، وأن يواصلوا السير هم وإبلهم ، هذا يعنى أن كل أسرة من الأسر سوف يتعين عليها شرب الحليب في المساء . لم يكن في مَنْزلنا أحد يمكن أن يغامر بإرشادى إلى خيبر وتوصيلي إليها . ومع ذلك ، كنت أود مشاهدة خيبر ، ونظرا لضعفى وقلة حيلتى ، قررت أن أنهى رحلتى فى هذه المنطقة من الجزيرة العربية ؛ ترى ، ما هو ذلك السبب الذى يجعلنى أرهق حياتى بصورة مستمرة، عن طريق تعريضها للخطر بصورة دائمة؟ أو ما هو ذلك السبب الذى يجعلنى أعانى هذا الكرب والبلاء ، وأنا أواجه ذلك التعصب والتطرف في سائر أنحاء هذه البلاد المسلمة Ishmaelite ؟

رجانى المواهيب أن أكتشف لهم المياه القديمة . ورغبة المواهيب فى تلك الميزة الدائمة تفوق بكثير جشعهم العبرى وطمعهم فى الذهب . هؤلاء المواهيب على استعداد للتضحيه بكل المزايا المؤقتة ، فى سبيل منجم الماء الذى يدر عليهم زبدا وحليبا بصفة مستمرة . وبينما كنت جالسا فى المجلس ، سألنى بعض الشيوخ : "هل أستطيع أن أفتح لهم بعض المياه الميتة فى وادى تربة ؟" سألتهم :"ألم يحاولوا هم أنفسهم القيام بذلك ؟ طلّج : "إذن خليل سيكشف لنا الماء . ونحن موافقين على أن يأخذ الكنز الذى سيعثر عليه ، ويكون حكرا عليه وحده !" كانت بئرا قد تفجرت مؤخرا تحت الجانب البعيد من الوادى ، ولكن جرى توقيف ذلك النبع عن طريق سيل من الأحجار ، ولم يستطع البدو توحيد جهودهم من جديد لإعادة فتح تلك البئر من جديد . "سوف أشرع فى ذلك العمل ، وعليكم أن توجدوا لى كل صباح رجلين أو ثلاثة ليكونوا بمثابة عمال معى ." – رد علىّ طلّج متسائلا : "ولكن من ذا الذى سيخرج معك ؟ إن مثل هذا الرجل سوف يطالب بدفع أجره مقدما ، ونحن ليس من سلطاتنا إجبار أى أحد على فعل أى شيء من أى نوع كان ." – "وأنت إذا كنت جبانا إلى هذا الحد ، فمن ذا الذى يمكن أن يساعدك ؟" – "يجوز لك أن تقول ، – البدو ! البدو ! يا خليل . ولكن يستطيع

خليل في أضعف الأحوال أن يدلنا على منبع الماء ، الذي شاهدتم مجراه المكسّر يوم أن كنا في الوادي ." قلت لهم : إذا أركبوني فقد نستطيع الذهاب إلى هناك ونبحث عن ذلك المنبع ؛ ولكنهم حتى : مع مثل هذا الموقف كانوا عاجزين عن اتخاذ القرار .

كنت قد شاهدت من قبل دلائل وإشارات الماء الجوفي في الثُّرِيِّد Thorreyyid ، وتمنيت لو تركت لدى هؤلاء البدو الرحل مزية دائمة طيبة عن رحلة النصراني وضيافته في ديرتهم ، والأعراب يطلقون على حفر المياه الضحلة التي يستطيعون من خلالها الوصول إلى المياه الجوفية ، اسم "ثميلة" Themila وجمعه "ثمايل" Themeyil . قلت : "لعلهم يوفدوني مع مجموعة صغيرة من الرجال في تلك المهمة ، ولم أطلب مقابلا لذلك سوى حليب الناقة ." وفي ظل الحرارة الشديدة في هذا الجزء من العام، لن يشعر أحد بالمتاعب أو الآلام؛ كان الكثيرون منهم تراودهم الشكوك حول ما إذا كان الغريب – من أجل شيء قليل من الحليب – سيضللهم ؛ وبخاصة عندما وجدوا أني لم أطلب منهم مكافأة من نوع بعينه ؛ – والسبب في ذلك أنه يستحيل على هؤلاء البدو أن يسلموا بأن أي إنسان آخر لا يمكن أن ينتوي سوى الخير لجيرانه . وهنا قلت لهم : "لا تكثروا من هذا الحديث ؛ وأنا أعرف ، يا طلّج ، أنه إذا ما فتحت عين من عيون الماء فإنها سوف تثير نزاعا كبيرا بينكم (الأعراب يهوشون Yuhowwishun) حول حقوق استعمال الماء." اكتشاف عين من عيون الماء يمكن أن يسبب القلق والنزاع حتى بين الأقرباء ؛ وهذا النزاع يمكن أن ينكأ جراح الماضي ؛ وقد يعجز شيخ القبيلة عن احتواء مثل هذا القلق أو النزاع بين الأعراب : وقد بلغني أن هؤلاء الأعراب كانت بينهم مشاحنات حول مياه البيارة . ورد على طلّج قائلا: "يا الله ! هذا أمر طيب ولطيف ؛ (وأردف طلّج متعجبا) ، ولكن من أين لخليل بكل هذه المعرفة عن الأعراب!"

حاول بعض البدو إقناعي "طالما قطعت هذه المسافة الطويلة وربما تصعب عليّ العودة إلى بلادي ، فالأفضل لي هو البقاء في وادي تربة ، وزراعة ذلك الوادي ." – "وماذا عندما ينتقل أو يرحل الناس عن الوادي– ؟" الإجابة: "سيبنون لي قلعة، ويتركون معي بعضا من الرجال ؛ وأني يتعين عليّ افتتاح أو إن شئت فقل : اكتشاف المزيد من المياه المخبأة، وأن الوادي سوف يخضر لونه بفعل جدي واجتهادي ." سألتهم : "لماذا لم يحضروا هم بعض الرجال من قرية العلا على أن يقتسم المحصول فيما بينهم ؟" –

وأجابونى قائلين : "العلاونة ليست لديهم الشجاعة كى يتجولوا فى هذا المكان ." - وكنت قد سألت العلاونة أيضا لماذا لم يرسلوا بعض المستوطنين إلى الوادى القريب منهم الذى يوجد الماء فيه على عمق قليل ، وأرضه خصبة ؟ الإجابة : "إن من سيذهب إلى هناك سيعيش فى خوف دائم ، وما هو ذلك الذى يمكن أن يوفر لهم الأمن فى ذلك الجزء البرى من البلاد ، وما الذى يمكن أن يحمى عقيدة البدو الصغيرة."

جرى تناول أمرا هاما فى المجلس ، "مسألة خضوع القبيلة أو عدم خضوعها لابن الرشيد ؟" - كان ذلك هو الجدل أو النزاع السائد بين شيوخ السراحين . فى السابق كان أولئك المواهيب ، أو إن شئت فقل: أبو Abu شامة Shamah ، يقدم الزكاة ، أو إن شئت فقل : العشور إلى الجبل Jebel (*)؛- إلى عبد الله الأمير الأول ، واستمر ذلك إلى بداية حكم طلال . كانت تلك الزكاة عبارة عن ضريبة خفيفة عن كل خمسة من الإبل ، تصل قيمتها إلى ١٨٠ أو ٢٠٠ ريال ، وكانت تفرض الضريبة نفسها على كل ثلاثين رأس من المواشى الصغيرة بواقع ١٠٠ ريال . واعتماداً على جبل الحرّة ، راح أولئك البدو يمتنعون عن دفع الفدية الصغيرة ؛ وعندما كان عبيد بن الرشيد عائدا ذات مرة من حملة كان يقوم بها على تهامة ، عرّج ليغزو مَنْزل المواهيب على أحد جانبى العويرض ، ولكن هؤلاء الجباليون تفرقوا هاربين فى جوانب التلال ، وتحاشوا الاشتباك مع ذلك السِّرب المعادى . وعندما أيقن عبيد أنه لن يستطيع إخراجهم من بين الصخور الوعرة ، تراجع حاملا معه غنائم بيت واحد من بيوت المواهيب ؛ ولكن كان "من بين تلك الغنائم ، أولئك الذين أصيبوا بجراح بفعل نيران المواهيب ، على امتداد الطريق المؤدى إلى تيماء ."

ذات يوم ، وعندما كانوا يتدارسون فى المجلس السياسة التى يجب أن يتبعونها مع ابن الرشيد شاهدوا ، قبيل غروب الشمس ، القمر الجديد ، أو إن شئت فقل : الهلال ، عن بعد . وهنا وقف طلّج ومعه بقية الحاضرين ، وخرجوا من خيمة المجلس وراحوا يطيلون النظر ويحملقون فى ذلك النجم الحبيب ، ثم وجهوا وجوههم نحو

(*) الجبل : جبل شمر مركز حكم أمراء آل رشيد . (المراجع)

السماء وراحوا يدعون الله متوسلين ، "أن يحسن الله أحوالهم في زمن هذا القمر ، وأن يخلصهم الله من أعدائهم ." ثم قال لي طلّج بعد ذلك متسائلا : "ما رأيك ؟ هؤلاء أصحاب الجبل Jebel (أي حكومة بن الرشيد) يقولون عنا إننا مشركين Mushkrakîn ، أي نعبد الأوثان ، لأننا امتنعنا عن إعطائهم الزكاة ، يا خليل ، هل عثرت خلال ترحالك على أعرابي يصلي أكثر منا ؟ هؤلاء البدو ، الذين التقيتهم أنت في الأجزاء الشمالية ، أو بالأحرى أهل Ahl الشمال es-Shemâl ، هل يصلون ؟ – ما رأيك ؟ – لا ، إنهم لا يصلون إلا قليلا، إنهم أقرب إلى أهلك ، النصارى ." بدأت أجيب على تلك التساؤلات مؤكداً أن أهل الشمال هم الأفضل والأحسن ولكن الشيخ المتين لم يفهم ما قلت: "قال: أنت صادق الرأي ، لقد وقفت بنفسك أننا أفضل من أهل الشمال ؛ إنهم لا يصلون أكثر من الكفار ، أما نحن فمسلمين . أليس من صالحنا ألا ندفع الزكاة لابن الرشيد؟" – "طالما أن الزكاة خفيفة أليس من الأفضل لكم أن تؤمنوا أنفسكم من المواجهة ، بدلا من الهجوم عليكم من الأجناب الأمر الذي يترتب عليه ضياع عدد كبير من إبلكم ؟" – "صادق ، بالله ! ونحن ليس لدينا ما نخشاه أو نخافه من الخلف ، حيث كل الموجودين هناك ، إلى جانب الحويطات ، هم كلهم أصدقاء لنا ."

بعد أن أعرب هؤلاء القبليون عن رأيهم الذي مفاده أن الفنون كلها من عند النصارى ، كانوا يلجأون إليّ ساعات طوال ومعهم سيوفهم الطويلة وسيوفهم القصيرة أيضاً ويسألونى عن إمكانية التعرف على طباعهم أو أمزجتهم ؛ وهذا الطبع أو المزاج هم يتعرفونه من خلال تشمم الصُلب ، أو قد يطلقون أنفاسهم على نصل السيوف ، ويروحون يراقبون بخار الماء وهو يختفي من فوق أنصال تلك السيوف . بعض آخر منهم كان يضع بنادقهم الطويلة بين يدي ، وعندما كانوا يرون نقوشا على تلك البنادق أو الأسلحة ، كانوا يطلبون مني قراءة تلك النقوش . – وسوف أقول شيئا قليلا عن الأسلحة الشائعة بين هؤلاء البدو : بنادق الجزيرة العربية الطويلة ، هي دائما من نوع البنادق الفتيلية . وأفضل أنواع هذه البنادق هي تلك التي جلبها هؤلاء البدو من أوروبا في قديم الأزل ؛ (وباستثناء بعض هذه البنادق التي صنعت مؤخرا في أسبانيا وفي مصر) ، فإن كل هذه البنادق الفتيلية تنتمي إلى قرون ماضية . لقد مضى على تلك البنادق ستة أو عشرة أجيال اعتبارا من امتلاك أسلافنا لها ؛ لقد بيعت تلك البنادق في

أماكن بعيدة من أسواق الشرق. والناس هنا يطلقون على أفضل أنواع البنادق الفتيلية اسم "الأزّاري" el-Azzary – وقد قرأت على تلك البنادق العلامة التجارية التي كانت مكتوبه بأحرف لاتينية "لازاريون Lazzarion كوميناززي Cominazzi " ؛ وتجيء بندقية "المجار" el-Majar الفتيلية في المرتبة الثانية ، وهي أيضا بنادق قديمة – لا يستطيع البدو معرفة أي شيء عن تاريخها – وهي من صناعة المجر Hungary، وربما كان الأتراك هم الذين جلبوا تلك البنادق إلى مدن الحدود . وتجيء في المرتبة الثالثة البندقية الفتيلية الإنجليزية el-Engleysy ؛ وهذا أيضا اسم من الأسماء الواردة ضمن أنواع هذه البنادق ولا يعرف هؤلاء البدو أي شيء عن تاريخه . والبنادق الإنجليزية لا توجد عليها نقوش . وفي كل نوع من أنواع تلك البنادق يعلق البدو أهمية كبيرة على المعدن المصنوع منه البندقية . ومعروف أن الحدادين في الجزيرة العربية لديهم خبرة كبيرة في ذلك . هؤلاء البدو يعتقدون أن نوعية تلك البنادق تنحصر في أمرين ، مثلما كان أسلافنا يقولون عن أقواسهم ، هما : الرماية السريعة والرماية البطيئة . "يقولون : إن المعدن الجيد يظل دوما نظيفا وأنيقا ، ويلمع في الفم مثل فنجال القهوة ." أما المعدن الرديئ فيتلف بسرعة ؛ ولكن كل أنواع المعادن لابد أن تتسخ بسرعة بفعل شحنات البارود الضعيف ذات الحبيبات الخشنة . ولقد شاهدت بعض البنادق القديمة الطويلة ، تقذف الطلقة سيئة الصنع إلى مسافة حوالي مائتي ياردة .

والعرب يثمنون الأسلحة غاليا كلما زادت قدما وبقيت صالحة للاستعمال . والعرب يعتقدون أن الدنيا كانت أقوى في الزمن الماضي عما هي عليه الآن ، ولكن بعضًا من أسلحة العرب النارية بلغت من القدم والتآكل حداً يمكن أن تنفجر معه إذا ما وضعت فيها شحنات أكبر مما هو مطلوب لمثل هذه الأسلحة ؛ وإذا ما حدث ذلك ، فإن صاحب مثل هذا السلاح ، يشكر الله ، عندما ينجو من مثل هذا الانفجار ، وهنا يبادر بأخذ بندقيته إلى أقرب صانع ، لكي يصلح العطب الذي حل بها ، ويعد أن يثق بالله بأنه لن يصيبه منها أي مكروه . والعرب يثمنون أفضل قطع السلاح عندهم تثمينا غاليا ، إلى حد أن البندقية التي تعد من النوع الممتاز يصعب بيعها بأي ثمن مهما كان . وأعراب الجنوب ، الذين هم في مرحلة متدنية من رفاهية العالم يندر أن تجد بينهم ثلاث بنادق أو أربعة سيوف بين كل خمسة من الرجال . والذي ليس عنده بندقية من أعراب

الجنوب يزودونه بعصًا خشبية لها عند رأسها سن من الحديد ، ليست أفضل حالا من عصي تماثلها في الطول وفي الوزن ، أما إذا كان ذلك واحدا من المشاة فهو يحمل حربة الخيَّال القوية التي يطلقون عليها اسم "الشلّفة" Shelfa والبدوي المترحل الفقير ، الذي يود أن يكون بواردیا (حامل بندقية) ، يمكن أن يبتاع لنفسه بندقية ، من الأنواع المقلدة ، مقابل ثلاثة أو خمسة ريالات ؛ والبنادق التي تكون من هذا النوع هي في أغلب الأحيان من طراز "لازاريون" أو الطراز "البربري" Barbary أو الطراز المصري – بعد أن تلصق عليها أختاما مزيفة . والبدوي المترحل ليس صيادًا ، إذ من النادر تماما أن يضطر إلى إطلاق بندقيته ، وهو أيضا لا يطلق بندقيته أثناء الغزو ، في مرحلة أخذ الماشية من الرعاة ، ولا يطلق نيران بندقيته إلا عندما يسارع طلبا للهرب من المطاردة. والبنادق التي يحملها ميسورو الحال هم والشيوخ تكون متوسطة القيمة بشكل عام ؛ لأن هذا النوع من البدو لا يدفع ثمنا للبندقية سوى ستة عشر أو سبعة عشر ريالا . هناك بعض أنواع أخرى من السلاح في أيدي بدو الجنوب وتتمثل في قلة قليلة من المسدسات ؛ وقد اكتشفت أن تلك المسدسات من أصل أوروبي ومن النوع الذي كان أجدادنا يستعملونه ، وأفضل أنواع تلك المسدسات هو ذلك النوع الذي يطلقون عليه اسم "الإنجليزي" el-Enqleysy .

والسيف الأحدب الفارسي ذو الحد الواحد هو والسيف الهندي من أسلحة الجنب عند البدو ، وهذان السيفان شديدا الصلابة ومعقوفان مثل السيوف التي يحملها ضباطنا من الخيالة ؛ وهذا الشكل من أشكال السيوف هو المفضل في الشرق . وهم يقولون بحق : "إن السيف الماضي هو ذلك الذي تكون ضربته منشارية ." والبدو يقولون إن ضربة البلطة غير ماكرة ، أو إن شئت فقل : ليست ضربة قاضية ؛ معنى ذلك إن تلك الضربة لا تؤذي ولا تشج تماما . والبدو يقولون أيضا ، إن ضربة اليد المجردة ضعيفة ، ولكن ضربة الظهر هي الضربة التي يستجمع الإنسان فيها كل قوته ، وباستخدام الحد الماضي بواسطة يد خبيرة ، ومثل هذا السيف قادر على فصل رأس ابن المرأة عن جسده بضربة واحدة . شاهدت أيضا بعضا آخرا من السيوف مع قلة قليلة من المواهيب ، وقد جلبوها من بلاد الغرب ، من بين هذه السيوف سيفان من نوعية سيوف البحارة القصيرة حصلوا عليهما منذ زمن بعيد من سفينة تعطلت

أو رست عند الساحل ." كان الشعار المكتوب على أحد هذين السيفين مدون باللغة اللاتينية أما الشعار الذى كان مكتوبا على السيف الثانى فكان مدونًا باللغة الألمانية . كان السيف الثانى سيفا أحدبا مصنوعا من الحديد ، بل ربما كان مصنوعا خصيصا لأسواق الشرق . هذا هو مشوات Mishwat يحضر لى سيفه مع سيوف الآخرين . وعندما رحت أقلب السيف فى يدى ، رأيته يثبت علىّ ناظريه تثبيتًا غريبا ، ولكنى عندما تحسست حد السيف بواحد من أصابعى "(صاح مشوات) يا خليل ! ما تفعله ليس جيدا ! لماذا تعبث بقم Fumm السيف es-seyf ؟" كان مشوات يخشى من أن مرورى بإصبعى على حد سيفه يمكن أن يضعف ذلك الصلب الذى ينبغى أن يواجه به عدوه فى يوم من الأيام فى ميدان القتال . وفيما يتعلق بالأسلحة الأخرى مثل السكاكين التى يطلقون عليها اسم "الخوسة" Khusa ، يصعب العثور عليها فى ثلاث من خيام هؤلاء البدو الرحل الفقراء ؛ وعندهم أيضا سكين شبيه بالسكين الذى استعمله ، وهم يطلقون عليه اسم "الريش" Rish ولديهم أيضا نوع آخر من السكاكين يطلقون عليه اسم "الخنجر" Khanjar ، ولكنه يندر وجوده بينهم ، والبدو يطلقون على ذلك الخنجر اسم "القدّامية" Kiddamîyyah أو قد يقولون له "الشّبرية" Shibrîyyah : نظرا لأن هذا النوع من السلاح يشيع فى مناطق الحدود ، فى حين أن الأرض هنا منخفضة وجرداء ويفوح منها البؤس والشقاء.

إبل هؤلاء البدو تتردد على مكان السقيا كل ثلاثة أيام فى فترة العصر . ونحن نرى فى طلعة تلك الإبل علينا من بعيد (ذلك المنظر الذى يشيع الراحة فى النفس فى تلك الأرض الميتة) تلك الأعناق الطويلة التى تشبه أعناق النعام ، كما نشاهد أيضا الكتل الشهباء الداكنة المتحركة عند بداية وادى الحرّة ، ثم نستمع إلى تلك الإبل وهى تزمجر أثناء قدومها : هذه هى النياق وقد امتلأت ضروعها بالحليب الذى ستفيد منه الأسر الفقيرة ، إضافة إلى أننا سوف نشرب حليبا منعشا فى عصر هذا اليوم . وجسم الإنسان عندما ينال قسطا من الراحة ، لا يحتاج إلا إلى قليل من الطعام فى هذا الهواء الجميل شديد النقاء ؛ والجوع المستعر يجرى إخماده بتكرار تناول القهوة وشرب الدخان ؛ يضاف إلى ذلك أن جسم الإنسان ، وبخاصة لحمه ، يضمر شيئا فشيئا فى مثل هذا الجو بسبب كثرة العمل . والنوم هنا أثناء النهار ، هو وبَرَاد ليل

الأراضي المرتفعة في الجزيرة العربية هما اللذان يُسرِّيان عنا ويجعلانا ننسى متاعبنا، معروف أن الرعاة يسبقون الماشية ، عند الدخول إلى المخيم ، حتى يتسنى لهم معرفة زاد أسرهم ، وتمر الماشية من تلقاء نفسها متجهة صوب مكان السقيا الذي يطلقون عليه اسم "المويريد" Maweyrid ، والذي يتجمع عنده كل الرجال الذين من سلالة المواهيب : هذا يعني أن الشيوخ جميعهم ، فيما عدا الشيخ طلّج هو وولده الأكبر ، يتعين عليهم النزول للمشاركة في عملية السقيا .

هذا هو الغدير ، الذي يطلقون عليه اسم "الحوض Hawd جاهز ومستعد بواقع ، حوض واحد لكل مجموعة من الإبل : هذه الأحواض عبارة عن أوعية ضحلة ، يصل عرض الواحد منها حوالي ياردة واحدة ، وهي مصنوعة من جلود الإبل ومعلقة فوق بعض الأغصان الصغيرة . وهذه هي الدلاء التي وضع داخلها صليب من الخشب كي يبقي عليها مفتوحة ، وكل واحد من السقاة الذين يقف كل واحد منهم في بئر من الأبيار ، يرفع الدلو وهو يغني ليسلمه إلى يد زميل له ، على أن يقوم هذا الزميل نفسه بترديد اللازمة نفسها ، ويسارع إلى سكب محتويات ذلك الدلو في الحوض . هؤلاء السقائون يشمرون أكمام ملابسهم التي تشبه الأجنحة (والتي شوهدت ذات يوم في أوروبا القديمة ، ولكنها الآن رداء في الجزيرة العربية) ، كما يشمرون أذيال ثيابهم عن طريق ربطها إلى أعناقهم ، كل ذلك من أجل الإسراع والتعجيل بعملية السقيا . وهنا يمكن للرائي أن يوقن بأن البدو رشيقو الحركة ، وأذرعهم جافة وقوية وصغيرة العضلات : وهذه هي صدور الرجال ، بما فيهم الشبان الصغار ، شعثاء (منكوشي الشعر) . وفي أحيان كثيرة يلبس الأولاد الذكور أساور ، يطلقون عليها اسم "المذود" Mathûd ، من حول الجزء العلوي من الذراع : وقد ورد ذكر هذه الأساور في العهد القديم، ضمن قصة وفاة شاؤل Saul. إسورتهم ليست سوى طوق من النحاس الأحمر؛ وسوف يهدي ذلك السوار إلى "إبنة الخال" ، التي سيكون بذلك قد اشتراها لنفسه ، في يوم زواجهم . السقائون من الأعراب يؤدون عملهم بسرعة وحماس – وهذا العمل الطويل والسقائون ضعاف – مستخدمين في ذلك تلك الأغنية المبهجة . هؤلاء السقائون يقولون : إن أصعب جزء في عملهم هو "الوريد" Weyrid (عملية سقاية الماشية) : ولكن معروف أن الأعمال الشاقة يكون وقعها ثقيل على الرجال الذين يعانون من الجوع .

والبدو يتمتعون بقدر كبير من الشجاعة وبخاصة فيما يتعلق بالأعمال التى تقتضيها الضرورة . فى مثل هذه الظروف تراهم يقفون منتصبى القامات ؛ ومن هنا جاء ذلك القول المأثور الذى يتردد فى الواحات : "البدو كلهم شجاعة ." ولكن الجوع الذى يخيم عليهم ، على شكل نوبة قصيرة ، يجعل عقل الإنسان غير مستقر ، فيما يتعلق بمعدته الخاوية ، وهنا يسلم البدوى أمره لله ويتحتم عليه الجلوس على الأرض من جديد .

تلك الأغنية التى يتغنى البدو بها أثناء العمل لا تعدو أن تكون مكونة من مَدْرج مكون من ثلاث أو أربع كلمات ذات إيقاع ، ومعها مدرج آخر على شكل قافية ، وهذه الكلمات من بين الكلمات التى تخطر على أذهانهم بطريقة عفوية ، وغالبا ما يكون فيها شىء من المعنى ، وبعد أن يتغنوا بكوبليه ، أو إن شئت فقل : زوج من الأبيات ، فترة من الوقت ، ينتقلون إلى الكوبليه الذى يليه .- وتلك هى قافية من قوافى الرعاة التى نظمها صاحبها عنى عندما كنا فى الخيمة ويقول فيها : "يا خليل ! زى الفيل" التى معناها "يا خليل أنت مثل الفيل ." - هذا الحيوان الذى من قارة أخرى ، معروف لهؤلاء البدو من الناحية الاسمية فقط ، والشىء نفسه يمكن أن يقال عن الأسد وعن الخنزير أيضا ، وهذه هى مجرد أسماء فقط (وهى لا تعدو أن يكون معناها هو المعنى نفسه الذى نستعمله) بالنسبة لهؤلاء العرب الذين يعيشون فى وسط الجزيرة العربية . والأسد لا وجود له فى الجزيرة العربية ، اللهم إلا إذا كان ذلك ، حسب ما يرويه أهل الجنوب ، فى إقليم اليمن. ومعروف أن الخنزير البرى يشيع فى كل الأراضى السورية العالية فى منطقة الحدود : كان الأعراب قد سألونى مرارا عن ذلك الحيوان ، عند النصارى الذين لا يصلون ، والذى يحرم الرسول أ كل لحمه ؛ كان من بين هؤلاء البدو من أجابوا على ذلك التساؤل ، وبخاصة أولئك الذين سبقت لهم زيارة الشمال ، والذين تبدو الحكمة فى كلامهم إذ قالوا : "لقد رأينا وشاهدنا أثر ذلك الحيوان ، ووالله إن له لأرجل مثل أرجل الغزال، وله منخار إذا ما دققت فيه حسبته كلبا ." - سألنى السقاءون ، وهم فى ذروة عملهم ، لماذا أقف إلى جوارهم وأطيل النظر إليهم ، ولم أنزل معهم لتقديم يد العون والمساعدة لهم ؟ - "أيها الرفاق ، هل ترون هذه الأذرع المرهقة ؟ أنا ضعيف جداً بسبب الجوع ، وأنا لا أقوى على سحب الدلو ؛ ولكن أرجو أن تسمحوا لى بأن تشرب ناقتى قليلا من الماء الذى يتبقى فى الغدير ، وسيجزيكم الله خيرا ." وعندما سمعوا

كلامي ردوا علـى قائلين : "والله ، إنه يقـول الحـق ؛ ساعـدك الله وأعانك يا خليـل : ولا تشغل بالك بهذا الأمر ، وأجلس واسترح ، وسوف نسقى لك ناقتك ."

هذه الإبل العظيمة القادمة من مرعى الصيف ، الذى مكثت فيه وعرقت فى ضوء الشمس طوال ثلاثة أيام (ومن ثم فإن أفضل الإبل، من وجهة نظر البدو ، هى تلك التى لا تتعرق كثيراً) سوف تشرب من المسقى كمية كبيرة من الماء ، إذ سيشرب كل واحد من هذه الإبل - وهذا من وجهة نظر السقائين - ثلاثة أو أربعة قراب من الماء - وهذه الكمية تقل ، بواقع الثلث ، عن الكمية التي يشربها حصان البدوى، خلال فترة الصيف هذه ؛ وبعد أن تتورم تلك الإبل ، وتروح تتأوه من ذلك الحمل الذى ابتلعته ، يقتادها أصحابها إلى المنْزَل ، لتنضم إلى قطعان البدو مرة ثانية أمام خيامهم . وتروح تلك الإبل المبتلة تتبوَّل طوال الليل ، ومعروف أن الإبل ، فى كل الأوقات ، بل وأثناء الترحال والجفاف ، تفرط فى إفراز الماء ، ولكنها بالرغم من كل ذلك ، تكون أقل من الحيوانات الأخرى فى مسألة الإفراط فى إخراج الماء . وفى الصباح يكتشف أصحاب هذه الإبل أنها قد هضمت كل تلك المياه وعادت أجسادها إلى حجمها الطبيعي مرة ثانية . وعند شروق الشمس يجرى دفع تلك الإبل من جديد إلى المسقى علها تشرب المزيد من الماء ؛ بعد ذلك ، تتحرك تلك الإبل من تلقاء نفسها نحو الأعلى (*) ، سالكة طريق الجبال إلى مرعاها الهزيل ، الذى لا يوجد فيه طوال هذه الأشهر الطويلة الحارة سوى بعض النباتات دائمة الخضرة ، التى تكون مُرَّة أو ملحية الطعم ، إضافة إلى قليل جداً من العلف الجاف . سألت الأعراب فى كثير من الأحيان : "أليس لهذه الحيوانات أمعاء أو جزء فى أمعائها لحفظ ذلك الماء؟" وكانوا يجيبوننى قائلين: "لا ، يا خليل ، وإلا (وكل جمل من تلك الإبل يجرى ذبحه فى نهاية الأمر) كيف لنا بعدم اكتشاف ذلك إلى يومنا هذا؟" عذاب Azab ، أو إن شئت فقل: رعى هذه الإبل منفصلة، يبدأ منذ الأيام الأولى من فصل الخريف ، على ألا تعود للسقيا من جديد قبل صباح اليوم الخامس :- إذن ، من أين للجمل بكل ذلك اللُّعاب ؟ الذى يساعدها على ابتلاع العلف الجاف .

(*) البدو يستخدمون مصطلح يقول : "الجمال يصدُّرون" Yusuddirun بمعنى أن تتجه الإبل نحو الأعلى قاصدة المرعى" . (المترجم)

تراقب الأسر البدوية إبلها أثناء الرحيل إلى المرعى ؛ وتصبر عليها إلى اليوم الثالث ، حتى يتسنى لهذه الأسر الحصول على الحليب من النياق مرة ثانية . ونظرا لقلة الماء وعدم كفايته لسقاية القطعان كلها في وقت واحد ، فإن المنازل كلها لا تسقى إبلها أو قطعانها في آن واحد . هذا يعنى أننى كنت أستطيع الحصول فى كل مساء على شيء قليل من الحليب . فى عصر أحد الأيام عرفتنى حمدى Hamdy (التى كانت مضيفة طيبة فيما يتعلق بصحتى) الطريق الذى أسلكه كيما أعبر الوادى قاصداً بدو السّراحين Serahin . " قالت : يتعين عليك أن تقصد داريش Daryesh وهذا الرجل لديه أربعة نياق مخصصة للحليب" . داريش هذا ، كان هو شيخ السراحين ، وهو رجل ضيق الصدر . وعندما دخلت عليه عند الشفق ، صاح وعلى وجهه مسحة من الجرأة والشجاعة متسائلا : "ما الذى أتى بك إلى هنا ؟" أشرت فى صمت إلى الإبل الكثيره التى كانت أمام خيمته . وابتسم الرجل ابتسامة تنم عن الحماقة المفرطة ، "قال : وما الذى جعلك تترك أعرابك وتجيء إلى هنا ؟" - "حسن مرحبا بك يا خليل ، (قالت الصحبة) ، اجلس وانتظر قليلا إلى موعد حليب النياق ، وسوف يحضرون لك الحليب ." هذا الرجل الذى يشبه وجهه وجه الكلاب والذى سبق أن رأيته مرارا فى خيمة شرب القهوة عند الشيخ طلّج ، كنت دائما أرى على وجهه مسحة العداء لى والتشدد معى ؛ كان ذلك الرجل يطلق علىّ سهام عينيه ونحن جلوس فى المجلس ، ولكنه لم يسبق له الكلام مع أى أحد من الكفار ! "فتح الرجل فاه وصاح قائلا : ها ! إذا ما رأيتك فى الصحراء مرة ثانية، وكانت معى بندقيتى، فسوف أرديك قتيلا !" - " خذ بندقيتك غدا ، اللهم إذا لم تكن جبانا ، وأرم رميتك ، وسوف أرمى أنا رمية أخرى ؛ وأنا أقسم بالله أنى لن أرحمك ." - "اسمع يا أنت ، كيف أن النصارى "أهل Ahl كليمى Kellimy " ، بمعنى كيف أن النصارى "أصحاب كلمة" ؛ أى أنهم يعنون ما يقولون : - نحن البدو ، يا خليل ، وأنا عندما أقول شيئا ، لا يكون هو ذلك الذى أعنيه بالفعل ، وأنا لا أتمنى لك أى أذى ." عند هذا الحد جاءت الزوجة ومعها سلاطين الحليب الطازج ، وهنا قام الشيخ داريش بوضع سلطانية طيبة أمامى وهو يقول : "إشرب ، يا خليل ، وأنعش نفسك ." عدت إلى منزلى ، بعد أن دلّنى إلى الطريق ؛ ولكنى ضللت طريقى بسبب خفوت الضوء ، الأمر الذى سقطت على إثره من منطقة الحصى التى ينصبون فيها خيامهم ، إلى صخور مجرى السيل فى الأسفل .

الفصل السابع عشر

مخيم المواهيب الصيفي في وادي ترية

زيارة العلا شائعة خاطفة للأبصار في الجبل . النساء يغطين الحناجر . الحنظل . تعاويذ الحب . النساء الشقراوات . مبليس . قصيدة حامد . دعوة النصراني لتسمية واحدة من بناتهم . البدو يسأمون أغاني الصحراء . أسماء النساء البدويات . امرأة ولود . النزاع بين القبليين الشبان . دفاع طلّوج عن زيجاته الكثيرة . بدوي يقتل نفسه . ظُرف البدو الذي يضيِّق الصدر ، وعقليتهم الدينية . حمدي . طواعين مكة . مجاعة الصيف . النُّسَّاك القدامى . أخبار الحرب الزائفة . هل القديس سيرجيوس ، أصبح مسلما بعد وفاته ؟ الوجه . بعض النصارى يسكنون هناك. مهنا يصل للمطالبة بالدِّية . قروي من خيبر يصل إلى العلا . مقهي موسى . الجماعة أو الحزب السامي . القاضي المضياف . هل يجوز للرجل المتدين أن 'يشرب الدخان' ؟ العودة مع حوريش . يسلم النصراني ذلوله . أشباح في ترية . زر البدو مرة ثانية . النصراني الذي يتهمه حوريش ، يبرئ الشيوخ ساحته .

ذات ليلة ، وقبيل طلوع الفجر بقليل ، أفزع صوت فظيع البدو موقظا إياهم من أحلامهم ونظرا لأن ذلك الصوت كان صادرا عن عاصفة رعدية ، فقد بدا الأمر وكأن الدنيا أوشكت أن تكون حطاما . كنت مستيقظا في ذلك الوقت ، وسمعت ذلك الصوت من بدايته إلى نهايته ؛ فقد كان صوتا مزدوجا ، أي كان هناك في البداية صوت ضجيج مستمر ومروع عند رأس الحرَّة ، تلاه صوت آخر أقصر منه ، ربما كان صدى فظيعًا للصوت الأول ، وتردد في سائر أنحاء الوادي . بعد ذلك بلحظة ، خشيت أن أشاهد النيران البركانية القديمة ، التي تنام منذ زمن طويل في جوف هذه التربة ، ومن

ثم تلك الفيضانات من الحمم البركانية التي يمكن أن تنهال علينا : ثم خطر ببالي بعد ذلك سقوط صخرة ضخمة في الطرف البعيد من الحرّة ؛ ترى ، هل كانت تلك الضوضاء صادرة عن انهيار سلسلة من الأحجار ، انهيارا مفاجئا في أعالي الوادي ؟ كان ذلك الصوت المرتفع شبيها بذلك الصوت الذي يصدر عن انهيار الجليد في الجبال الجليدية أثناء العواصف الثلجية . تجمع البدو في خيمة القهوة قبل طلوع النهار على أثر وصول ذلك الصوت الفظيع إلى مسامعهم . توقف بعض البدو ، وهم في طريقهم إلى خيمة القهوة ، ليسألوا النصراني ، "ما الذي حدث ؟" – أنتم لا تعرفون ديرتكم حق المعرفة !" – "ولكن أحضر كتبك وأعرف منها ذلك الذي حدث، ألن تقول لنا، ماذا حدث ، يا خليل ؟" – "ترى ، هل كان ذلك صخرة متهاوية ؟" – "كان الأمر أكبر من ذلك بكثير، نظرا لوجود الكثير من التكهنات في تلك الديرة ." كانت أغلبية الجالسين في المجلس ترى أن ما حدث كان "نجما" هاويا ؛ كان ولد الشيخ في تلك اللحظة يفك فلوته ، وبالتالي شاهد ذلك الشهاب الذي ظهر في السماء ثم حدث الصوت في إثره تماما . كانت هناك زوجة عجوز مستيقظة ، عندما سمعت ذلك الرعد ، وأحست بالأرض تهتز من تحتها . خطر ببال كل الناس ذلك النيزك المضيء الذي مر ، قبل خمس سنوات "من فوق رءوسهم ، محدثا دويا هائلا ، في وقت الظهيرة ، متجها صوب الشمال ، ومحدثا خلفه ، في السماء ، سلسلة طويلة من الدخان : شاهد الناس ذلك النيزك وفي وقت واحد ، في كل أنحاء البلاد (كان طوله يقارب الألف ميل) في المنطقة ما بين مكة ودمشق ، مما جعل الناس في سائر أنحاء هذه الديرة يظنون أن ذلك النيزك سقط داخل نطاق حدودهم ." وخطر ببال الجالسين في المجلس أيضا ، نيزك آخر ، حدث في السنوات العشر الماضية ، واندفع في السماء أثناء الليل ، مما أضاء الصحراء المظلمة لتبدو كما لو كانت في رابعة النهار . كان الصوت الذي صدر عن ذلك : كر – كر – كر – كر !" – ولكن هذا هو ما يقوله الأعراب في كل أحاديثهم عن الضوضاء المتحركة .

عندما كُنَّ يجلسن معي عند باب خيمتي للتحدث إليَّ ، كانت تلك البدويات الكاشفات صغيرات السن – لقد جئن إليَّ ليطلبن مني أدوية – كانت الواحدة منهن تسحب غترتها فوق زورها والفك الأسفل من فمها . سألتهن لماذا تفعلن ذلك ؟" (قالوا) يفعلن ذلك لأن ذلك التقليد أصبح جزءًا منهن ، وأنهن يفعلن ذلك في وجود الشخصيات

المهمة ." [في اليونان ، عندما كانت تحت الحكم التركي ، كانت الأعراف تقضى أن تقوم النساء كبيرات السن ، عندما يخرجن من بيوتهن بتغطية أزوارهن والجزء الأسفل من وجوههن بمنديل ، - هذا الشيء نفسه شاهدته في الدول الأوروبية ، متمثلا فى تلك الصور القديمة الخاصة بمريم البتول .] عندما كنت أتغيب عن المكان ، كنت أترك خيمتي دوما مفتوحة ، بدون أية حراسة من أى نوع كان ، بالرغم من أن البدو كانوا يحذروني "لا تكن طائشا إلى هذا الحد ." ومع ذلك لم يحدث مطلقا أن ضاع أى شيء من خيمتي طوال إقامتي في منازل الأعراب .

أصبح العلاج الذى كان يقوم على نقطتين من زيت الكروتون Croton ، جرعة معتادة بين أولئك البدو : وعندما كنت أعطي الواحد منهم أربع نقاط ، كان يحس قليلا من التوعك ؛ وعندما أعطيت الواحد منهم ست نقاط ، وجدت أنها لم تؤثر على أو تحرك بنية هؤلاء البدو الحديدية ، بل إن البعض منهم لم يشعر بأى شيء حتى وإن صببت زيتي كله على الحرّة . وبينما كنت أدهش وأتعجب مما يحدث ، كانوا هم يعدون على أصابعهم ويكتشفون أن اليوم كان مصادفا ليوم الجمعة ، "ذلك اليوم ، الذى ليس من المناسب تناول الدواء فيه ، وبالتالى لن يفعل الدواء مفعوله ." فى النهاية ، كنت أعطى ، لبعض أفراد هذه السلالة الصحراوية ، ثماني نقاط ، لم يكونوا يشعرون معها بأى شيء سوى أثر طفيف من الإسهال . كنت أشتكى منهم وأقول لهم : "أنتم تحطمونى عندما تحملوني أثمان ذلك الدواء ؛ الجرعات التى أعطيكم إياها كفيلة بأن تميت أشخاص أخرين ." - "قالوا ، نعم ، صدقت يا خليل ، أعطنا أعط يا خليل ! البدو رجال أقوياء !" - في المدن العربية التي يتغذى أهلها تغذية جيدة ، اكتشفت أن الجرعة العالية المعتادة من زيت الكروتون كانت كافية تماما . هؤلاء الأعراب كانوا يطهرون بطونهم باستعمال نبات الحنظل أو العلقم ، ولكنهم لا يلجأون إلى ذلك إلا فى الضرورة القصوى ، ولمرات قليلة جداً طوال حياتهم : كان معجون ذلك العلقم شديد المرارة . يقال إن التحاميل التي تصنع من ذلك المعجون تفيد كثيراً المرضى الواهنين . والبدو يعرفون بالفعل نبات السَّنا أو السنى ، ولكنهم لا يفيدون منه .

هؤلاء الساميون البدائيون لا يعلقون آمالا كبارا على أيه مهارة من المهارات البشرية ؛ إنهم يركزون اهتمامهم على السماء ، ويطلبون التمائم والأحجبة من رجال

يمارسون السحر والشعوذة ؛ والواحد منهم عندما يكون بحوزته حجاب ، أو إن شئت فقل ، تميمة جيدة فإنها تصبح بمثابة المعلق والمعطل المريح لفهم ذلك الرجل ، يثق حامل مثل هذا الحجاب ثقة جنونية فى أن الله سوف يفعل فيه ذلك الذى يراه هو فى أحلامه . يجيئون إلىّ وهم يقولون لى "فتش Fattish بالكتاب b'il Kitâb يا خليل Ya Khalil ! فشر Fecher (أو فسِّر Fassir) ! " كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا يرونى دائما وأنا أقرأ فى كتبى وأطلع عليها . "ألا تستطيع عن طريق كتبك معرفة ذلك الذى يدور فى عقول الرجال ومعرفة نواياهم أيضا ؟" – "من ذا الذى يكذب عليكم إلى هذا الحد ؟" – "العلاونة يدّعون مثل هذه الأمور ." – "ألم يكن ذلك من أجل الاستيلاء على أموالكم وسلبها منكم ؟" – "والله ، إن خليل يعرف كل شيء ! ولكن ألا تستطيع عن طريق كتبك معرفة مكان الأعداء ، وهل الغائب يكون حيا أم ميتا ؟ ألا تستطيع ، عن طريق كتبك ، رؤية أسرتك ، يا خليل ، التى تعيش فى مكان بعيد عنك ، وهل تستطيع معرفة أحوال معيشتهم الغذائية ؟" وهكذا كان الكثيرون يأتون إلىّ لأغراض من هذا القبيل ، دون أن يكون لمجيئهم أية جدوى أو منفعة . "وا أسفاه ! (قالتها زوجة مسكينة هجرها زوجها) اطلع على كتبك وابحث فيها ، وخبرنى هل سأستعيد حب رجلى الطيب لى مرة ثانية – آه ! أليست لديك تميمة للحب ؟ أعطنى شيئا من الكتابة التى تجعلنى حلوة ومليحة فى عينيه مرة ثانية ." قال لى شاب ذات مرة : "حسن ، يا خليل ، خذ بوصتك ، وورقتك ، ومزّر هذا فوق ذلك للحظة واحدة ! وإن كنت لن تأخذ نقوداً مقابل ذلك ، فأعطنى تلك الكتابة ، التى تجعلنى محبوبا فى المكان الذى أحُب فيه ، – هيه ! اجعلها تبكى من أجلى فى أضعف الأحوال !" كان الأزواج يأتون إلى ويرجوننى أن أعطيهم أحجبة يمكن أن تعيد إليهم زوجاتهم القاسيات ، الهاربات الشاردات ، ولكنهم يحبونهن . "كيف يمكن للورق والحبر أن ينقذكم ؟" – "الكتابة عندما تحدث يا خليل ، تكون مصحوبة باسم الله ، وجدنا أنها يكون لها نفع عظيم ."

جاءتنى أيضا مبليس Mibils ، زوجة الشيخ الشابة الشقراء، وأجمل جميلات بنات أولئك البدو الرُّحل . من بين هؤلاء الموهابيب ، والسّحامة ، وكذلك البلّى ، نساء شعرهن كستنائى ، ونساء شقراوات الشعر ، وهن يقال لهن "مزيونات" Mezunas أو إن شئت فقل "جميلات" ؛ ولكن هذه النساء ، عندما تحرقهن حرارة الشمس ، وعندما يستبد

بهن العطش والجوع بصورة مستمرة فى بلد جدب ، تهزل أجسامهن وتضيع منهن نضارة وجوههن . كانت للشيخ طُلَع أخت صغيرة صاحبة جمال نسائى أخّاذ ، وكانت زوجة لشويش Shwoysh ومليحة القسمات ،– كانت ملامح تلك المرأة التى تسبى تسبب الكثير من المتاعب لذلك الشاب الصغير . أذكر ذات يوم أننى التقيت بالقرب من قرية العلا زوجة بدوية كانت تسير وحدها ، ومعها فتاة شابة ، ابنتها ، التى كانت دون علم منها بذلك ، بالنسبة لى ، صاحبة جمال أخّاذ فى تلك الصحراء المخيفة وجدتهما جالستين خائفتين ، مثل اثنين من الحبارى الخائفة ، وسط دغل من الأدغال تنتظران رجلا طيبا ، كان قد ذهب إلى البلدة . "قالتا : نحن من فخذ البلِّى من المواهيب !" ولكنهما لم تكونا من أعراب طلَّع . ومن بين أشياء الزينة هنا بين الشابات ، ذلك العقد الذى يصنع من أنواع من الخرز ، الذى يجلبونه من مكة .

سألتنى مبليس Miblis ، والضوء يترقرق فى عينيها الواثقتين : "هل بوسعى أن أعيد لها حب زوجها ؟" :– كل ذلك ، فى الوقت الذى كان جمالها يتبدى لى سواء فى كلامها أو فى حركتها . وعليه عندما كان الرجال يسألونى ، وما أكثر ما كانوا يسألونى عن الحريم فى بلادى ، كنت أشير بالبنان إلى مبليس صاحبة الصوت الحلو ، وصاحبة الشعر الكستنائى وأقول لمن يسألنى : "هذه التى تجلس هناك تشبه حريم بلادى !" وجهها ذو العينين الوسيعتين ، اللتين كانتا تبدوان مثل الكمين ؛ هذا الوجه كان يميل إلى الشكل البيضاوى ، بل والأرجح تشبيه ذلك الوجه بثمرة من الثمار اليانعة ، بين خصلات شعرها الجانبية كهرمانية اللون ، هذا الوجه لم يكن يظهر عليه أى ضوء من أضواء الروح .

كان الشيخ طلحٌ مستاءً دومًا من زوجته الشابة ، التى اختارتها عيناه لجمالها وجمال جسدها من بين أفراد منزل رقيق الحال ، هذه المرأة الشابة الحلوة كانت تحب سيدها العجوز ، الذى رفعها إلى هذه المنزله من التكريم من بين زوجاته ، أو إن شئت فقل : حريمه . لقد أنجبت مبليس للشيخ طلَّع ، منذ عذريتها إلى الآن طفلين ، هما أجمل أطفال القبيلة ؛ ومع ذلك ، فقد كانت مبليس ، فى بعض الأحيان ، تضرب ولديها ضربا مبرحا ، وهنا كانت تبدو وكأنها قد خلا قلبها من الرحمة والحب . والجمال الزائد عن الحد كنز لا يجلب الفرح على صاحبه ، إضافة إلى أن طلَّع نفسه ، وبصفته

رجلا حاد الطبع أيضا ، لم يكن على استعداد لتحمل صلابة أحوال تلك المرأة الشابة ، أو عنادها . كانت لدى طلّج زوجة شابة أخرى ، أنجب منها ولداً في الآجُرَّة Agorra ؛ قصد الشيخ العجوز خيمة تلك الزوجة الشابة وسمح لمبليس أن تخرج من مَنْزله . ولذلك جاءت مبليس لتبني بيتها معنا ؛ وعن طريق الابتسامات الجميلة الساحرة طلبت من الغريب أن يكتب لها حجاباً ، "لأنها كانت تخشى أن يرمي أو يوقع زوجها عليها يمين الطلاق". وأشرت أنا عليها باللجوء إلى حجاب التواضع الزوجي ، وبخاصة من جانب الزوجة ، وأن تنأى بنفسها عن التعالي والشموخ . وعدت أن تتحلى بذلك التواضع ، وسرعان ما راح طلّج يتحدث معها بطريقة حانية ، في رحلةٍ من الرحلات ، مما جعله يطلب إليها أن تنصب خيمتها إلى جوار خيمته من جديد .

عاش طلّج عهود رجال ثلاثة ، وصل في هذا العهد الأخير إلى حكم القبيلة . كان طلّج دائم الزواج ، وكان يشعر دوما بشباب القلب ، إذ كان يبدو للجميع كما لو كان أبا للقبيلة ، وواقع الأمر أنه كان بالفعل أعظم الرجال وأجدرهم في القبيلة كلها : - وشيوخ الجزيرة العربية كلهم تقريبا من هذا القبيل لم يكن عمر أي فرد من أفراد القبيلة يسمح لصاحبه بتذكر مرحلة شباب الشيخ طلّج ؛ وأكبر أفراد القبيلة سنا عاصروا الشيخ طلج عندما كان في منتصف العمر . كان طلّج في ذلك الوقت أبا لثلاثة أبناء كبار مازالوا على قيد الحياة ، وكانت له أبنة أيضا ، بخلاف الأطفال ، وكلهم ذكور ، أنجبتهم له زوجتان طيبتان في هذه السن المتقدمة . الولدان الكبيران ، اللذان أنجبهما من زوجة واحدة، كانا شابين صغيرين وأبوين أيضا. كان مشوات Mishwat، ولد عم الشيخ طلّج قد تزوج أم هذين الولدين بعد أن طلقها الشيخ ؛ وهي الآن الزوجة الأكبر سنا حاليا من بين زوجتيه . ورث ولدا هذه الزوجة من طلّج ، عن أمهما رجاحة الرأي والفطنة ؛ كان حامد ، الولد الأول ، شابا محترما ، ومتواضعًا تواضع أبناء الشيوخ العظام ، في عهود ابائهم ، وكان له رأي صائب في المجلس ، وقائداً شجاعًا لجماعات الغزو. إلا أنه كان في داخله شيء من الوحشية التي لم أعهدها بين الأعراب. فقد رأيت ذلك الرجل وهو يضرب دابته العنيدة ضربًا مبرحًا مستخدمًا في ذلك وتداً من الأوتاد ؛ هذه الوحشية كانت متأصلة في عائلته ، بل كانت في دم هؤلاء البدو متسلقي الجبال .

في بداية الأمر اكتشفت أن حامدا كان على العكس من ذلك ، إذ كان يغار من النصراني وحاقداً عليه ؛ كان حامد من النوع الجعّل سريع الانفعال ، وله آراء الشباب المتطرفة ، وبخاصة فيما يتعلق برؤيته لي في مَنْزَل Menzil الأعراب el-Aarab ، في ذلك الوقت ، كانت القهوة ، التي هي خيمة الضيافة وخيمة المجلس أيضا ، هي بمثابة بيت حامد إذ كان الشيخ الكبير يتطلع بوصفه أبا إلى راحته الخاصة ، أو ربما كان ذلك تنفيذا لإرادة زوجته الشابة التي كانت تريد الأمر على هذا النحو . رددت على حامد في يوم من الأيام ، بعد أن أساء إلي وقلت له : يا ya جوماني Gomany ! بمعنى "يا عدوي ! لماذا أنت عدو لي ؟" عض حامد شفته ، ومعروف أن ولد الشيخ يكون دوما خجولا في حضرة والده وطوال بقائه على قيد الحياة . وبعد ذلك بأسبوع ماتت كراهيته لي ، وأصبح واحداً من أصدقائي المخلصين الدائمين . راح حامد في ذات الوقت ، يسلي نفسه بقافية ، أو إن شئت فقل : قصيدة ساخرة ، نظمها عن خليل وهو راكب على "الخويرة" el-Khuéyra ؛ والمقصود "بالخويرة" هنا هو جملي الضعيف المسكين . أعمل حامد ذهنه في تلك القصيدة طوال نهار كامل وليلة كاملة من ليالي الصيف ؛ وفي عصر اليوم التالي وحول وجار القهوة راح حامد يسمع قصيدته الجديدة للحاضرين : وهنا راح الشيخ طُلَج العجوز يتناول أفضل أبيات تلك القصيدة بروح الفكاهة والاستخفاف ، وراح يكرر أبيات ولده بروح الدعابة ، وامتدحها . كان يجلس بيننا واحد من القصادين Kassad ، أو إن شئت فقل قصّاد من بني عطية ؛ كان حامد قد تتلمذ على ذلك القصّاد في كتابة الشعر .

كان عبد الله ، شقيق حامد ، الابن الوحيد لأمه سليطة اللسان ، قد نصب خيمته داخل منطقة منْزَلها ، بجوار خيمة "عمه"(*) مشوات . وفي هذه المنطقة كبر ذلك الصبي متشابها مع الاثنين إلى حد بعيد . ومع مجيئي أول مرة ، وفي ظل المداعبة والدلع السامي Semitic ، الذي نقف عليه في البلدان الأقوى من هذه البلاد ، ويدخل ضمن فنون الخداع التي تمارسها النساء ، أفلح عبد الله في التظاهر بالصداقة مع النصراني؛ ونظرا لأن حمدي كانت تنصب خيمتها في كل رحلة إلى جوار خيمة أخيها،

(*) المقصود بكلمة "عمه" هنا هو "زوج أمه" . (المترجم)

فقد كان عبد الله جارا لنا بصورة مستمرة . وعندما شاهدت صبيا صغيرا أسمر اللون معه سألته . "طفل من هذا أهو طفلك ، يا عبد الله ؟" - أجاب البدوى سليط اللسان قائلا : "أمه تقول ذلك ." ومرت الأيام وحملت الزوجة الشابة ، وأنجبت طفلة ، أو إن شئت فقل : ابنة ، وهنا قال عبد الله : "صاحبى Sahiby ، أى صديقى الكلى ، خليل يتعين عليه أن يختار اسما لهذه الابنة ." اسم من الأسماء الجميلة التى تطلق أو تعطى للإناث ، والذى يعتقد أنه لابد أن يكون من كلام بلده البعيدة ، وأن ذلك الاسم ينبغى أن يكون كلمة حلوة لها جرس أجنبى ، - "لقد سئم أسماء الأعراب ، وأن تلك الأسماء أصبحت معافة Muâffin وتملها الآذان ." "حسن فليكن ذلك الاسم مريام Miriam " - "لا مريام لا يصلح ، لأنه اسم يطلق على العبد أو العبدة فى هذه الأماكن." رددت كثيرًا من الأسماء على مسامعهم ، إلى أن وصلت فى النهاية إلى ذلك الذى لا يلقى قبولا فى آذانهم . "سارة ليس اسما سيئا ." إنه اسم ذائع بين هؤلاء البدو ، ولكن الأسماء الإنجليزية التى كان خليل يأتى بها كانت ثقيلة الوقع وثقيلة الجرس أيضا قياسا على الأسماء العربية التى تتردد على ألسنة هؤلاء البدو : علمت بعد ذلك أنهم سوف يسمونها بَنّاً Banna . والعرب بحكم أن لهم رأيا مسبق عن أنفسهم ، وهذا الرأى مشوب بالخيال المكسال المخلوط بالحزن والألم ، تراهم دوما يقللون من شأن أشيائهم الخاصة بهم . والعرب يعتقدون أن لغتهم فوق كل اللغات الأخرى ، وهم أيضا يعتقدون أنهم أول الأمم . فيما يتعلق بالشجاعة فى الحرب وفى القتال . ولكن البدو فى حياتهم يضحون بأشياء كثيرة فى بيوتهم ، التى لا يجدون فيها سوى الكلام والحديث فى الأوقات التى لا يكونون نائمين فيها ؛ من هنا فإن رءوسهم تؤلمهم بسبب خيوط العنكبوت التى ينسجونها طوال فترات ذلك الخواء. هؤلاء البدو مشبعين بأغنية جديدة ، لها علاقة بالطقاطيق المتكلفة التى ينظمها شعراء البادية ، وتستحث ذهن الإنسان ، الأمر الذى يرفع فيه ضغط دمه ، ويجعله يعبأ بحياته ويهتم بها . ولما كان البدو من الصعب إرضاؤهم ، فهم لا يعرفون سوى شكل واحد من أشكال الخداع ؛ لقد سمعت البدو وهم يسخرون ، من هذه العملية الشاقة والثقيلة على النفس ، لأنها لم تتغير مطلقًا ، إضافة إلى مدرج التثاؤب ، وربة الإبداع فى طبيعتهم الصحراوية ، التى تحتم أن يكون كل البدو راكبين كما هو الحال فى العبارة "يا أنت yaent راكبين Râkabin" والتى معناها "آه ! منك يا من تجلس راكبا" (على ذلول) . - هذا يعنى أن الذهن

البدوى ليس سوى قابلية للنحت والتآكل ، وبالتالى يمكن أن يصيبه النصب والإرهاق بصورة متدرجة من خلال هذه الدائرة الصغيرة ؛ شأنه شأن الحيوان المربوط الذى أكل علفه ، وارتاح قليلا ، وأوشك على المضى قدما .

فيما يلى أورد بعض أسماء حريم البدو : سالمة Sallema وسِلْمه Selma (من السلام) ، حمدى Hamdy (من الحمد) ، خُضْرة Khothra (تلك التى ولدت فى مكان أخضر) ، أُمطيرة Umteyra (المولودة فى المطر) ذرِيَّة Therrŷa (المولودة فى واحة من الذرة العويجة أو الذْرة) ، بُخَيْتة Bokhŷta (من الحظ أو البخت) ، الفُصيحة el-Fosîha (الفصيحة فى الكلام) ، عويضة Auwéytha ، الرُّملة er-Romla ، دليل Daléyel ، (من الدليل ، الذى يدل على الطريق) ، بُسَيَّة Bussiyeh ، فرجة Furja (سرور) ، جورمة Gorma (الوفيرة ، التى يحورونها أثناء اللهو إلى نبس Nibs ، أو قد يحولونها إلى ورمة Worma عند الغضب) ، صبيرة Sobere (من الصبر) عذبية Atheba (من الحلاوة أو العذوبة) ، أم الصوف Umm es-Sûf (أم الصوف أو زوجة الصوف) ، هوشة Howsha (وبَّخ) تعفيلة Taffila ، الحدِّيفة el- Háddefa ، الفيحة el-Feha ، الفشيلة el-Fushila ، جرذه Girtha ، جزيرة Githera ، صبَّة Sebba ، عتيجة Ateja ، اللجمية el-Lejima ، ناها Naha ، دغريمة Deghrèyma ، رقيَّة Rakyŷeh ، وجِّيد Wajjid .

شاهدت زوجة عبد الله وهى عائدة من الصحراء بعد ساعة واحدة من عملية الولادة ؛ كانت تمشى عائدة إلى منزلها وهى فى منتهى الإعياء ، وجاراتها يسندانها ، بعد أن قمن لها بدور القابلة : وبينما كانت تمر على الخيام كانت ربات البيوت القريبات منها يخرجن للقائها ، ويقمن فى صمت بدور ربات البيوت السابقات ، وتضعن أيديهن من تحت ذراعيها ، وبالتالى يتسنى لهن جميعًا المشاركة فى مضيها قدما نحو منزلها ، وأخر واحدة من ربات البيوت هى التى تصحبها إلى بيتها ، هذا هو حنان النساء على النساء . وبعد ذلك بحوالى يومين وجدت زوجة عبد الله واقفة إلى جوار خيمتها ؛ وكانت قد انتهت بالفعل من أعمال المنزل . وابتسمت هذه المرأة الشابة ، التى يوحى شحوبها بضعفها ، عندما سألتها عن أحوال طفلها ، - ولكن أخاها الشقيق لم يسأل عن الطفل الوليد ، نظرًا لأنها كانت أنثى . سألت زوجة شابة فى منزلنا ، هل كن يلدن بسهولة ؟ ولكن بدا عليها شىء من الخجل والكسوف لأن رجلا سألها مثل هذا السؤال ، ثم قالت

بعد ذلك بابتسامة عذبة وصيحة لطيفة : "أنا لم ألد سوى مرة واحدة إه Ih ! إه ! Ih ، لقد كانت مرة طيبة بطبيعة الحال" .

البدو بشكل عام كثيرى الثرثرة ومغرمون بالحكايات ، وهم حتى فى هذا الإطار ليسوا أجواداً تماما ؛ وأنا لم أسأل كثيراً عن الأشخاص ، نظرا لأن الكلام ، فى مثل هذا الحال ، سيرتد إليهم مرة ثانية . ومصداق ذلك ، أن خبر سؤالى عن عدد زيجات الشيخ طُلَّعٌ سرعان ما ذاع وانتشر بين أفراد المجلس ، وفى اليوم التالى ، عندما وصلت إلى نادى القهوة ، التقانى الشيخ طُلَّع بمزاج رائق تماما ، وعينان توحيان بأن لديه فعلا ما يقوله على الفور "نعم ، يا خليل ، لقد تزوجت الكثير من النساء ، ومع ذلك أرجو ألا تظن أنى آخذ الحريم أو إن شئت فقل : أتزوجهن ، بطريقة "هى Hy يللاه ! Yellah " أى من أول لقاء واعتماداً على الله . إننى أختارهن بعد تعقل وتمحيص ؛ (وعند هذا الحد انخفض صوت الشيخ طُلَّعٌ إلى ما يشبه النحيب أو البكاء الكوميدى أو الفكاهى) ولكن الأمر لا يسير حاليا على تلك الشاكلة ، وهذا أمر يدعو للأسف ، زد على ذلك أن هذه اللحية شاب شعرها ؛" وهنا قال الرجل ، دونما خجل أمام والديه الكبيرين ، وببساطة البدو ، التى لا يستطيعون معها تخبئة أى شىء : "أنا لست على ما يرام فى نظر جوارى Jowwari، وهذا هو سبب كل خلافنا ، أليس لديك دواء يساعد الرجل ؟ ليتنى أعيش فى راحة بال مع أسرتى !" كان ذلك العجوز يبتسم من كل قلبه وهو يتكلم ، فى حين كان أبناؤه يأخذون الأمر مأخذا مرحاً ، بل وضحك الحاضرون أيضا . لقد استطاع طُلَّع أن يحكم الأعراب ، ولكنه عجز عن احتواء كبرياء وحزن جواريه Jaras . كان طُلَّع يدخن غليونه طول اليوم وهو جالس فى الخيمة " وعندما كان الدخان ، عزاءه الوحيد ، يخذله (وحسبما قال لى بصراحه تامة مازجا المرح بالرحمة) كان يتملكه الغضب " ويروح يضرب حريمه البرئ " .

كان مشوات قوى البنية ، ولكنه عجز عن تسود زوجاته : فهذه أم عبد الله كانت تخيفه وترهبه بلسانها . أما الزوجة الثانية ، هى امرأه شابة ، فقد هربت منه مؤخراً وكان مشوات يتنهد كثيراً عندما كان يتحدث عنها ؛ صحيح أنها غادرت الأسرة وتركتها ولكنها لم تغادر قلبه أو تخرج منه مطلقا . "قال لى : إنها جميلة ، إن لها جدائل شعر تصل إلى خصرها ." والبدويات يندر أن يكون لهن شعر طويل ، كما أن

شعرهن يندر أيضا أن يكون كثيفًا . والرجال يتركون سوالف الشعر الجانبية على حالها الطبيعي التي هي عليه : من هنا فإن البدو عندما يمتدحون جمال شاب من الشبان يقولون : "إن له سوالف كبيرة وطويلة" . هذا هو محمد بن الرشيد ، أمير الشمَّر، الذي يناهز منتصف العمر ، ولا ترقى ملامحه إلى ملامح الأمراء ، يقولون عنه: "إنه شاب جميل ، إذ له سوالف طويلة " . الرجال الكبار ، يرفضون تلك الزينة التي يتمسك بها ذلك الشباب المأسوف عليه ، وهناك بعض أخر من الناس لا يطيقون تلك السوالف مطلقا . وأنا عندما كنت أُعيرُ مشوات من باب المداعبة ، وقلت له إنه ليس من الشرف أن لا يدفع ثمن الدواء الذي أعطيته إياه ، رد على قائلا : "حسن ، أنا مدين لك حق ، ولكن أنتظر وأصبر إلى أن أتمالك نفسي من جديد وأهرِّس " éherris ، أي أتسود الحريم وأسيطر عليهن ."

تلك كانت عائلة الشيخ طُلَج : كان لذلك الشيخ أخ في السابق ، وقد أصابتني الدهشة عندما علمت أنه قتل نفسه رميا بالرصاص ! ولم أستطع الوقوف على تلك المرارة التي أودت به إلى ذلك ؛ وعندما تحريت ذلك الأمر سرًا قيل لي أن ذلك حدث منذ زمن بعيد ، لم يستطيعوا تحديد المدة . وكما هو واضح في ولد عم مشوات ، وفي مزاج طُلَج الحاد الذي يتغير بسرعة ، وفي عجلة أولاد طُلَج وتسرعهم ، لابد أن تكون هناك أخطاء طبيعية في عقول أفراد أسرة ذلك الشيخ ، وبخاصة أن تلك العقول تكاد تكون ملتهبة ومشوشة أيضا . روح هؤلاء الساميين Semites تتعلق بالتراب أو إن شئت فقل : بالأرض ، ولكن ثقتهم الدينية ترتفع إلى سماء قريبة منهم ، في حين تحيط بهم دائرة الحنان الإنساني من كل جانب . يندر بين هؤلاء البدو ارتكاب الخطيئة الكبرى التي تقبل عليها الأرواح اليائسة المنعزلة . إذ كيف لروح ذلك البدوي أن تيأس أو تُهون من أمر العناية الإلهية ، التي لا تعتريها أية شائبة دينية ؟ ويد اللّه تحنو على أولئك البدو في كل أوقات الضيق والشدة ، ولما كان البدو مولودين في ذلك الخلاء والجدب غير المفيد ، فذلك يعني أنهم ، بطبيعة الحال ، يقاسون الكثير من المعاناة الطويلة . هذه الروح السامية Semitic عديمة الإيمان والمنحطة أيضا ، تعتمد على الله في شكل سكون تام . وهم يرون يد الله تعمل عملها في كل ما يحيط بهم ، كما أن اسم الله يدخل أيضا في أسمائهم ، إنهم ينادون الله في كل ما يخرج من أفواههم .

– هذا هو طلال(*) أمير الشمر الشهم يفتح النار على نفسه فى نوبة من نوبات الحزن الجنونى الذى أصابه ! – هذه الوفاة البائسة التى لقيها الأمير خالية تماما من أى نوع من أنواع الشك . طرحت على العالمين ببواطن الأمور من مدن الجزيرة العربية السؤال التالى : "ما الذى يمكن أن تناله ، فى النهاية ، روح تعيسة من وراء القيام بعمل من هذا القبيل ؟" أجابوا على سؤالى : "إنه يحترق !" – وسط تعفن مجتمعاتنا المدنية ، التى تبدو أن الملائكة الحارسين يرحلون عنها ويهجرونها ، نشاهد ، فى كل وقت وحين ، الكثيرين الذين ينزلقون نحو حافة الهاوية . يا لهذه الكروب التى تعتمل فى أعماق الروح ، ويا لهذا الجحود الذى يؤلم القلب ويوجعه عندما يكون من الأصدقاء ، ويا لهذه المحاولات التى تبوء بالفشل ! ويا لهذه البحار التى تبتلع كل شىء ، ويا لهذه العواصف والآلام الموجعة المميتة ، التى يلاقيها الإنسان فيما بين ميلاد العقل ووفاته ! وعندما تصل النار المستعرة إلى القلب ، وعندما يغضب الإنسان ، فإن تلك الأيدى التى لا تستطيع ضبط نفسها تنزل الضرر برأسه هو نفسه ، لتحجب عنه وهم العالم المكروه وذكراه الموحشة عن نفسه ، وعندما تجرى نجدته فى الساعة المنسية ، بعد أن تكون شجاعته قد اهتزت – بفعل عطر الحنان الإنسانى ، فلربما ظل على قيد الحياة إلى يومنا هذا . كثير من الناس كانوا يبحثون عن السلوى والعزاء فى بلاهة أرواحهم ، وبخاصة عندما يلاقون بجمود الوجه والاعتراض ، هؤلاء ماتوا قبل الأوان بسبب القصور الذى أصاب إنسانيتنا .

منغصات الروح البشرية لا حصر لها ، الإنسان ظاهرة غريبة من ظواهر البؤس . فى ظل بعض المناخات الأخرى هناك الكثيرين غير هؤلاء البدو يتمسكون بالدين ، ويبحثون فى غلظة الجسد ، عن الإرادة الكاملة للروح :– ولكن ذلك لا ينطبق على سذاجة العرب المتناهية ، – العرب طبيعيون فى مسألة الدين . هذا يعنى أن هؤلاء العرب ليس لديهم وعى كامل برائحة الخطيئة فى داخلهم ، إنهم لا يرون البرص الذى

(*) طلال أمير الشعراء : حكم إمارة الرشيد ١٨٤٧–١٨٦٧ وتوسعت الإمارة فى عهده ، وكانت علاقاته ودية مع كل من الدولة العثمانية والسعودية . وعلى أثر فقدانه لقواه العقلية أطلق على نفسه الرصاص ومات فى عام ١٨٦٧ . (المراجع)

أصاب أرواحهم ، هناك دم شغوف ، أو إن شئت فقل : ضعف مؤذٍ يتمثل في خليط من الخيوط الإنسانية ، الذى لو قدر له أن يكون مع آدم فى السماء لما أفاده ؛ وكما يتهافت الذباب على الجراح ، فإن صروف الدهر أيضا تتهافت على الأشخاص الذين يكونون من هذا القبيل . وفى الصحراء أيضا تجد الوخزات المتأصلة فى الدنيا منثورة تحت أقدام أولئك الأشخاص : وفى دواخل هؤلاء الأشخاص تكمن الاهتزازت غير المحددة التى تصيب الروح الإنسانية ، وبالتالى لا يكون هناك منقذ فى حياوات الرجال . والأعراب ليسوا سوى رءوس منتشية ، ومستَخفَّة ، ولكنها مليئة أيضا بالحزن الذى يقوم على التفكير العميق والتأمل ؛ ومثلما يوجد جمل أجرب فى كل قطيع ، ونعجة عليلة أيضا فى كل قطيع ، هناك أيضا فى بعض منازل البدو بعض الأشخاص المحتقرين ومشوشى الفكر .

الأعراب يعيشون فى خوف دائم من الذئاب ومن العدو ، يفكرون دوما فى دينهم . وبينما كنت أتجول فى الوادى سمعت صوتًا حاداً يناديني من إحدى الخيام ويقول : "ليه Ley تحوِّم Tahowwam " بمعنى "لماذا جئت تتجول هنا ؟ ألا تخاف الحيوان البرى القاسى ؟ ألا تعلم أن الغريب يأكله الضبع ، (حج Hág الضبع eth-thûba)؟" العاملون فى قوافل القصيم يقولون الشيء نفسه عن الأسد . حيثما دخلت أو ذهبت كان هذا النوع من البشر يرهقوني بدينهم غير المألوف عندما يقولون : "خليل ، فين Fen ربك Rubbuk ؟ بمعنى "أين ربك ؟" أو ، ألا تستطيع أن تقول مثلما نقول نحن ؟ يا Ya ربى Rubby ! أو تقول "الله Ullahu أكبر Akhbar . " وهنا كان البعض يصيحون "ألا تسمعون أن بوسعه أن يقول هذه الأشياء مثلما يقولها المسلمون؟ ولماذا يقولون إذن إنه رجل وثنى ؟ كلمة أخرى ، يا خليل ، ردد بعدى : "الله Uallh الرحمن er-Rahman الرحيم er- Rahim" : – اصغوا أيها الرفاق ! إنه يقولها ويرددها ؛ إذن كيف يقولون إن اليهود والنصارى لا يستطيعون النطق بلفظ الجلالة ؟"

البدو يفضلون رأى الغريب فى المسائل غير الدينية ، متصورين أن ذلك ربما يكون ميلاداً سعيد للفهم ، ومتصورين أيضا أن حظوظ الرجال قد تكون أفضل فى أبراج غير أبراجهم الفلكية . والعرب أثناء نوبات ضيق صدورهم الخيالية يتحدثون حديثًا مرا عن أمتهم ؛ مضيفتى حمدى Hamdy ، ابنة عم الشيخ ، هى امرأة قوية البنية ، أو إن

شئت فقل : "شيخة الحريم"، وهي تفيض أنوثة ، عندما كان يلح عليها الكثيرون طلبا لشيء من التتون (التبغ) الذى سبق أن جلبه زوجها من الساحل ، وعندما كانت تجدهم ما زالوا مشغولين بأمرى ؛ "قالت متسائلة : إلى متى ستظلون تضايقون الغريب ؟ اطردهم ، يا خليل ، إخص ! البدو كلهم 'حطب النار' بمعنى "البدو كلهم وقود نار جهنم" " هذه المرأة البدوية قالت بعد زوجها الأول ، وقبل أن يتزوجها المغربى ، قالت كلمتها إنها 'لن تتزوج من بدوى' . هذه المرأة أنجبت حاليا طفلين من أبى Abu سنون Sinûn ، ولكن هذين بحكم اختلاف الصفات الوراثية ، كانا يبدوان سلالة غريبة بين الأعراب . ولكنها بدأت تشعر حاليا بضغوط وتوترات الزوجة فى الجزيرة العربية ، عندما تدخل مرحلة منتصف العمر ، وعندما تبلغ المرأة هذه السن يفكر ، أو إن شئت فقل : يأتى الرجل الطيب بعروس جديدة تنضم إلى أسرته .

كانت حمدى ، امرأة مجدّة ، وحرة ، فى عصمة زوجها المغربى ، كما كانت أيضا واحدة من النساء العاملات الجيدات ؛ كانت هى التى تصنع بيديها حَكَمَةُ ناقته التى كان يركبها ، كما أنها هى التى كانت تصنع له الخرج الأبيض المنسوج ، ذى الشراريب الطويلة المصبوغة بالألوان المرحة . وأنا لم أر عيباً فى هذه المرأة سوى شيء قليل من التهور والاندفاع ، الذى كان أصيلاً فى أسرتها . والذى رأيتها تمارسه مع ولدها الأكبر من زوجها السابق . هذا الصبى أشقر الوجه ، الذى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما ، كان يافعًا ، ويمتاز بروح ممتازة وطيبة ؛ كان ذلك الصبى يرعى صغار الماعز والحملان فى أسرة "عمه" (زوج أمه) ، كان ذلك الصبى عريانا ، منذ مولده ، كما كان ذلك الطفل اليتيم يتجول بين الأعراب على هذه الشاكلة ، تحت الشمس ، وتحت نجوم الليل البارد . كان المهر الذى دفعه المغربى ، لمشوات أخيها غير الشقيق ، عبارة عن ناقة ؛ كانت هذه الناقة تشكل حوالى ١/٢٠ من الثروة الحيوانية التى عند هذا الرجل الثرى . وقام مشوات بتقديم الناقة لأخته حمدى . بعد ذلك ، ويوم أن حدثت الكارثة التى ألمت بهؤلاء القبليين ، وجرى خلالها تجريدهم ، فى الحال ، من إبلهم ، ولم ينجو من تلك السرقة سوى إبل أبى سنون وحده هو وطاهر ، عندما كانا يخيمان فوق الحرّة ، فى تلك الأثناء كشف المغربى عن كرم جوده : فقد قام الرجل فى ذلك الوقت باعطاء مشوات Mishwat ناقتين طيبتين ، كما أعطى طُلَع أيضا ثلاث نياق ،

كل ذلك من قطيعه الذى كان يقدر بعشرين رأسا . لم تكن حمدى الشيخة البدوية هى وحدها التى تتكلم باحتقار عن البدو ، أو إن شئت فقل : الأعراب ، نظرا لأن مثل هذا العمل يعد أمرا شائعا بين البدو ؛ هذا هو شاب صغير جاء يسألنى شيئا من الدواء ، ولكن شخصا آخرا صاح فيه قائلا : "لا تعطيه شيئا ، إنه ولد نتن ." ونظر إليه الشاب ورد عليه قائلا : " يقطع Yakta عمرك Umrak " ورمقه بنظرة حادة . ورد عليه الشاب السابق قائلا : "إنه يشبه ذلك الذى أنكته من أنفى ، وهو والله ، وقود لنار جهنم !"

كل الأسر التى كانت ضمن هذه العشيرة البدوية كانت ترتبط مع بعضها البعض بصلة قرابة ، والسبب فى ذلك، أن القبلى يندر أن يتخذ لنفسه زوجة ، أو إن شئت فقل: ربة بيت ، من خارج القبيلة . والمواهيب أصحاب أجسام قوية ، ويبلون بلاء حسنا فى العمليات الحربية . قبل عشرين عاما كان هؤلاء المواهيب يقومون بالغزو على شكل جماعات مكونة من ثمانين راكبا – أما الآن فقد انخفض ذلك العدد إلى النصف – يضاف إلى ذلك أنهم كانوا أكثر ثراء من الآن فيما يتعلق بقطعان البقر والأغنام وكذلك الإبل . كان مُعَمَّر Muámer شقيق طُلَج ، شيخا فى ذلك الوقت ، ومات أبناء مُعمَّر : ماتوا بسبب مرض الجدرى وأبو Aub توفيش Tawfish (الكنية التى يطلقونها على مرض الكوليرا) – طواعين مكة – دمرت الأعراب . والموتى بعد أن يدفنوا ويواروا التراب لا يأسف أحد عليهم ، ولا يحيون ذكراهم : هل يمكن للمسلمين أن يعترضوا على قضاء الله ؟ وبالرغم من صلة النسب والقرابة وتوفرها فى كل حالات الزواج الخاصة بالبدو ، لم يكن من بينهم أحد مُشَوَّه أو مصاب بمس من الجنون . وعندما استمع العرب إلى رأينا عن عيوب الزواج الطبيعية التى تظهر بين أولئك الذين يتزوجون وتكون القرابة بينهم من الدرجة الأولى ، بدءوا يقتنعوا بها إلى حد ما . "وردوا قائلين : هذا الكلام ليس مضطرداً بصورة دائمة على أقل تقدير ؛ وهذا الذى تقوله نحن نراه فى الماشية ، ومع ذلك تكون صغارها بحالة جيدة ."

عانيت وقاسيت مع البدو من مجاعة الصيف ، هؤلاء الذين يذلهم الجوع فى جو من هذا القبيل ، وخالٍ من بذور التخمر والتعفن ، لا يصابون بالأمراض المهلكة . جسم البدو يشبه جسم السفينة المصنوع من الخشب الخفيف ، الذى يظل مجدولا إلى أن يجىء فصل الربيع ، حيث يقوم البدو باستعواض طبيعته المتلاشية ، ومن ثم يتجدد دمه

بعـد تناول الطعـام الآثم أو إن شـئت فـقل : الثـريد ، طوال عـدة أيام . والبـدو على استعداد دائم لأن يرووا حكايات مدهشة عن شخص يعرفونه ، استطاع أن يأكل طليا كاملا في مرة من المرات . وهم يعتقدون ، أنهم يتعين عليهم أن يشربوا من لبن النياق القليل المتوفر لديهم ، ويعتقدون أيضا أن حليب النياق هو الذى جعل أجسامهم رشيقة وخفيفة ، فضلا عن زيادة قدرة تلك الأجسام على تحمل الجوع والإرهاق وكذلك الصبر لفترات طويلة . وإذا لم يتوفر لبن النياق فهم يستعيضون عنه بقليل من المريسي ، غير أن المريسي يكون غير كاف إلى الحد الذى يجعلهم يتكاسلون . ويندر في حياة هؤلاء البدو أن يتحولوا إلى طعام آخر مثل الجراد ، الذى يقولون عنه : إنه يحفظ عليهم حياتهم إلى أن تحل عليهم أزمان مواتية . معروف أن سوء التغذية بين البدو يبعث الضعف فى أحشائهم ويجعلها تتآكل ؛ وليس هناك شعوب أخرى مصابة بهذا المرض أكثر من هـؤلاء البدو : يضاف إلى ذلك أن سـكنى هـؤلاء البدو وإقامتهم فى أراضى لا تصيبها الأمطار يجعلهم لا يذوقون أو يطعمون الثمار عندما تظهر في مواسمها المختلفة ، هذا يعنى أن شبح الجوع ، وأمراض الصحراء كانت أمرا واردا في كل خيام هـؤلاء البدو . والعبـارة البدوية الشهـيرة "معانا Máans لون Lon" التى معناها "لم يتبق لنا شيء فى هذه الحياة ." تلوكها كل ألسنة البدو ، ويرددها كل واحد منهم على مسامع الآخرين . وتمر الأيام ، ومن بعدها أيام أخرى فى ظل هذا الضعف الناتج عن الجوع ، وفى ظل النسيان الذى يخيم على هذا العالم البعيد ، وفى ظل الحياة التى تستنفد الجسم البشرى وتهد قواه . والملجأ الوحيد ، بل والعزاء الوحيد لنا هنا يتمثل فى نسيم ليل الصيف الجميل فى الجبال ، والذى يهب علينا كل يوم ؛ وأنا عندما كنت أستلقى طلبا للراحة وسط أحجار البازلت البرية ، وتحت نجوم السماء الصافية ، وفى أرض الأعداء ، كنت أجد متعة أكثر فى ذلك ، عن النوم أو الاستلقاء فوق الأسرّة والمخاد فى غرف نومنا المغلقة . – فى هذا المكان ، لا تجد طريقا واصلا أو قادما إليه من مدينة العالم ، والألف عام تنقضى كما لو كانت نهار يوم واحد ، نحن فى الدنيا (العالم) ولسنا فيها أيضا فى آن واحد ، حيث أنجبت الطبيعة إنسانا ، ذلك اللغز الذى يحير نفسه ، وبذرت فيه الروح الشريرة بذور الاستهتار . ونحن عندما ننظر إلى ذلك المنظر الذى لا نهاية له ، نجد أن حياة الجسم الفانى تتضاءل ، ونجد الروح تفرد

جناحيها على ذلك الغموض المقدس .- خطر ببالى أننى كنت أحصى ما يزيد على عشرين نيزك فى كل ساعة من الساعات التى كانت تمر على .

طوال تلك الليالى والأيام كنت أتأمل نُساك العقيدة المسيحية القدامى فى بلدان الصحراء العالية ، فى ذلك الجزء من العالم – فى هذا المكان كانت تظهر فى كل عصر من العصور موجة بدائية تجدد الأرض وتحاكمها ؛ وكيف فرت إلى هذه الأماكن موجات متعبة وعنيدة وشديدة المراس ، محاولة بذلك استعادة حياة آدم عليه السلام داخل أرواحها ، ومتطلعة إلى إقامة وعيش خال من الخطايا مع العناصر ، فى مكان يعملون فيه على إنقاذ أنفسهم من المصائب الشائعة ، مما يجعلهم يستنفدون ما تبقى لهم من صبر ، ويرحلون بعد ذلك إلى حياة أفضل . هناك نوع من الفلسفة الطبيعية الذى يقوم عليه الحكم العادل والعلاج العادل أيضا للأمور . الزهد الدينى هنا هو الجراحة الماضية التى تستأصل ميول الإنسان الانحرافية من جذورها ؛ وبذلك يتفق ذلك التفاخر الخيالى والحزن العميق الذى يكمن فى الروح الإنسانية ، تلك الروح التى سئمت نفسها فى هذه الدنيا ، وعلقت بها بعض الأدناس خلال فترة قصيرة ، أو إن شئت فقل : فى المدى القصير . هذه الروح التى تتطلع إلى تخليص نفسها من هذه الأساليب المحيرة ، تراودها أثناء غضبها رغبة فى إفناء ذلك الجسد المعادى والتخلص منه ، نظرا لأن هذا الجسد هو المصدر الوحيد لأمراضها . محمد ﷺ طلب أو أراد إنقاذ ذلك الجيل من أبناء السبيل ، هؤلاء المصلين الذين ضُربت من حولهم الظلمة فى الصحراء ، إذ كانت بينهم أنواع من النماريد Nimrods الروحية ، تتجول من حولهم فى أرض الأحلام الدينية ، لتبنى من نفسها درجًا صاعدًا إلى السماء . وكان السبب وراء ذلك ، أن البعض من هؤلاء النماريد كانت "لديهم روح النبوة" وكان أولئك النماريد قد حُيوا فى رجال القوافل صغار السن العلامات السرية لرسالته Apostleship (بعثته) المستقبلية . ولكن محمد ﷺ ، فى القرآن الكريم ومع كياسة الفهم العربى ، يلاحظ القناع القاسى الذى يرتديه العصاة Undoers، لله ، ولأنفسهم وإخوانهم فى الإنسانية : "الله أرسل الإنجيل على رسوله عيسى بن مريم ، ومن ثم إلى الأمة المسيحية ؛ ولكن طريق النُّساك هو من صنعهم هم أنفسهم"

جاءني أبو سنون مرة ثانية ، كان الرجل قد تغيب منذ مدة طويلة ، الأمر الذي شغل ذهن زوجته وأذهان أصدقائه عليه ، والمؤسف أنه لم يجيء إلى بيته لنيل قسط من الراحة ، ولكنه كان يتعين عليه أن يعود ، في صباح اليوم التالي ، من حيث جاء ، أي لإحضار المزيد من الأرز من قرية الوجه ، كان المغربي ينقل طوال رحلات الصيف إلى جانب الأرز شيئا من المريسي؛ كان الرجل يسير أثناء الليل في أراضي تهامة المنخفضة شديدة الحرارة. جاء لنا محمد بأخبار من قرية الوجه . "لقد نصب المسلمون مذبحة تشبه مذابح الغنم ، إذ قتلوا وأسروا حوالي ٣٢٠,٠٠٠ من النصارى ؛ ولم يقع من جانب الإسلام سوى ٣٠,٠٠٠ " شهيد " فقط : – هل سمعت هذا ، يا خليل ! الشكر لله! – لقد انضم الإنجليز أيضا إلى جانب السلطان ! سينصر الله السلطان نصراً عظيما ! لقد اجتاحت جيوش الدين بلاد الأعداء ، وهم يتقدمون الآن صوب مدينة موسكو العظيمة ، وعندما يستولون عليها ، سيبعدون عنها ملك الصُّفر Yellow العظيم مربوطا بالسلاسل ، وسوف يستعيدوا كل الأراضي التي جرى الاستيلاء عليها من قبل وأخذت عنوة من المسلمين. لقد هزموهم لا في البر فقط وإنما في البحر أيضا: لقد غاصت متحطمة سفن كثيرة من سفن موسكو(*)!" كان محمد هو الذي حمل هذه الأخبار إلى البدو ، (تلك الأخبار التي لم تحظ بقبول كبير عند الرعاة ، فيما يتعلق بكلامه عن الأجانب) ، وأوصلها إياهم عن طريق سياق مبتسم صادر عن رجل صاحب معرفة كبيرة ، ويتواضع لتعليم الجهَّال .– ترى ، كيف لي بتفسير الأنباء التي أوردها المغربي عن الحرب ؟ وأنا عندما غادرت سوريا كان الأتراك يحاربون كلا من صربيا Servia هذا يعني أن الأخبار التي حجبت عنا في دمشق كانت نذير شؤم . "القديس جورج – على حد قولهم – أصبح مسلما منذ وفاته، وأنه ظهر في مونتنجيرو Montenego وهو يطارد الكلاب المسيحية مستخدما في ذلك رمحه ؛ وأن الجبال ابتعدت عند ظهوره مسافة مسير ساعتين" . – لم يكن القديس جورج وحده ، ولكنهم يعتقدون ويؤكدون أن

(*) تشير هذه الأخبار إلى ما عرف بمذابح البلغار وهي تلك المذابح التي قامت بها الدولة العثمانية لقمع الثورات التي حدثت في البلقان في عام ١٨٧٦ والتي كانت بتحريض روسيا المتزعمة لحركة الجامعة السلافية وكان قيام الدولة العثمانية بقمع تلك الثورات مبرراً لكي تعلن روسيا الحرب على الدولة العثمانية في عام ١٨٧٧ . (المراجع)

سيدنا عيسى (أيضا ، هو وأمه مريم أصبحا مسلمين ؛ وأن الخلق لم يخلق إلا لسيدنا محمد الذى له الأولوية على كل مخلوق آخر" . وأن شخصا يدعى سيرجيوس Sergius كان قديسا مسيحيا فى دمشق ، "ولكنه أصبح الآن فى زمرة الإسلام ؛" وبوسع من يريد أن يشاهد ضريح سيرجيوس هذا فى السوق (الشارع) بالقرب من إحدى النافورات ، وقضبان نوافذ ذلك الضريح كلها مغطاة بخزف على شكل قرابين . وذات صباح ، ومع بداية الثورة والتمرد ، وجدوا مصابيح سيرجيوس مضاءة عن آخرها ، كما أن نافورته كانت تفيض دما ، كانت الخوارق الطبيعية التى فسرها المتعلمون أصحاب العمائم الكبيرة تقول إن هناك 'دمارا عظيما ينتظر الدم المسيحى !'

يقول البدو عن سكان ميناء الأرز فى قرية الوجه : "إنهم بخلاء مع الغريب ، أناس لهم لهجة تختلف عن لهجتنا (كلامهم خليط من اللهجة المصرية ولهجات أخرى)" . يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البدو، الذين تعودوا على الإقامة فى المناطق المرتفعة الجافة ، لا يطيقون حرارة الصيف فى تلك المنطقة القريبة من شاطئ البحر . وفى تلك القرية ، هناك بعض من رجال القبائل، الذى يرددون فى تلك القرية حكاية ذلك "النصرانى الذى يتجول مع الأعراب، وراح يدون بلادهم ويسجلها ، – وهل استطاع أولئك الذين يعيشون فى تلك القرية القريبة من البحر ، أن يقولوا للناس شيئا عن أهل بلدى ، أو أين يوجد ذلك البلد ؟" وردوا على ذلك السؤال قائلين : "إذا جاء النصرانى إلى هنا فإنهم سوف يستقبلونه ." وفى الوجه ، أخبرنى البدو متسائلين : هل بعض النصارى ، "رجلان أو ثلاثة رجال ، لهم ذقون حمراء ، هم أشخاص أمناء بالرغم من أنهم كفار ، وهم يعيشون وحدهم فى القلعة ، ويلبسون فوق رءوسهم قبعات عريضة ؛ – لكن خبرنا هل من المقبول أن لا يطيق الكافر النظر إلى السَّما (السماء) Sema ؟ – انظر إلى أعلى ، يا خليل ، إن كنت تستطيع ذلك." طلبت منهم أن يتذكروا أنهم ، فى كل عام ، يشاهدون الحجاج السوريين (الدمشقيين) هم والحجاج الفرس Persians ، وهم يلفُّون وصلات من الجلد على جباههم ، لكى يحموا عيونهم من الشمس .– ولكن هذا الرأى واجهته فى كل أسفارى التى قمت بها فى الجزيرة العربية ؛ فى كل الأماكن التى وصلت إليها كان هناك بعض الأطفال وبعض النساء اللاتى كن يقلن لى : "ارفع عينيك يا أنت إلى

السَّما (السماء) ! " قال أحد القحطانيين(*) الخلصً ، الذى سبق أن تعرفت عليه فى القصيم Kasim، قال عن أهل نجران ، الذى سبق أن زارها مرات عدة : "إنهم ليسوا مسلمين حقيقيين(**) ،- إنهم لا يؤذنون للصلاة (بنفس) الكلام الذى نقوله نحن - وإنما مثل الفرس ، كما يلبسون عمائمهم مدفوعة إلى الأمام كي تغطى عيونهم ، (وأردف قائلا :) مخافة أن ينظروا إلى سيدهم ." هؤلاء الرجال الثلاثة الموجودين فى برج من الأبراج ، خطر ببالى أن يكونوا (يونانيين أو إفرنج) هم الذين يقطنون أو يعيشون فى منازل خفيفة .

وصل إلينا مهنا Mahanna ، الذى قطع المسافة عبر الحرَّة قادما إلينا مطالبا بالمدَّة Mida لأفراد قبيلته الذين سقطوا فى شجار العام الماضى . كان شيخ السُّحامة يقيم في خيمة القهوة ، التي كان يجرى دعوته منها هو وأعضاء المجلس ، لتناول وجبة الضيافة ، التي سبق أن أعدها له أحد المواهيب الكرماء ، وبالتالى كانوا يجلسون إلى وجبة من الأرز المطبوخ في الماء ، والمضاف إليه شيء من ملح وفلفل قرية تيماء ، والملون بلون الزعفران . كانت تلك العزائم خاصة بأسر الشيوخ ، كان المضيفون ،فى تلك الأزمان غير الرائجة ، يقدمون أعذار الشهامة والمروءة عن البدو الرحل ! وأظن أيضا ، أنه كان هناك بعض الناس ، الذين كانوا ينفقون كل حياتهم في ذلك المكان . كانت سلوكيات الإنسان معتدلة ، كما كانت مهمة الإنسان لطيفة أيضا وهو يتحسس جرحا التأم حديثا ، وهو بين إخوانه المتصالحين ؛ يضاف إلى ذلك أن شيوخ البدو كانت لهم سياسة طبيعية عظيمة . هؤلاء الشيوخ يتمسكون بشدة بذلك الذى يمكن أن يحصلوا عليه ، ويتنازلون بطريقة لطيفة عن ذلك الشيء الذى يستحيل عليهم الحصول عليه . ابتسم مهنا ابتسامة فيها كثير من الود عندما وجدنى هنا ، وغمرته السعادة عندما سمع طلُّج يمتدحنى من قلبه بحق ؛ وقام ذلك الرجل الطيب بتقديم غليونه الطويل إلىّ طالبا منى أن أملأه له بالتتون (الدخان) .

(*) من قبيلة قحطان ، وهى إحدى القبائل القديمة فى الجزيرة العربية . (المراجع)

(**) أهل نجران : على خلاف ما ذكر أعلاه فإن أهل نجران مسلمون حقيقيون ويعتنقون المذهب الزيدى ، وهو نحلة من نحل الشيعة . (المراجع)

في صبيحة اليوم التالي أوفد مهنا رجلا إلى قبيلته يحمل إليها بعض الأنباء ، مفادها أن عدد النياق لم يجر بعد تحديده بين الطرفين : والخطر هنا كان يتمثل في الاختلاف حول مسألة التحديد هذه ، الأمر الذي كان يمس أهم انفعالات أولئك البدو . كان مهنا يطالب بأربعين ناقة ، قيمة الدية بين أفراد القبائل . قال السَّراحون إن تلك الدية ينبغي أن تكون خمسة نياق فقط، كما هو معمول به بين القبائل في حالة العداء!- نظرا لأن الرجل قتل من منطلق العداوة ، وأنهم دفعوا الدية في ذلك الوقت بواقع خمسة نياق : ولكنهم يرون مهنا يعود إليهم اليوم ليطلب منهم خمسة وثلاثين ناقة أخرى ! ولكنهم يتعين عليهم أن ينفذوا كلام داريش Darŷesh الشيخ السُّرحاني ضيق الصدر .

ولما كان التبغ الذي مع مهنا قد انتهى ، فقد حتم عليه ذلك الذهاب إلى قرية العلا لابتياع شيء من التبغ ، من هنا فقد رافقه ، في هذه الرحلة ، كل من حامد وشويش Shwoysh . والبدو يطلقون على الرحلة التي يقوم بها عدد قليل من الرجال ينتقلون خلالها بسلام في الصحراء ، اسم "طُرقية" turkieh . قبل أن يركب هؤلاء الرجال دوابهم ، جاءوا إليّ يسألونني عن طريقة اتقاء أو تجنب ذلك الذي يسمى بحمى الواحة ، - الذي يطلقون عليه أيضا اسم "حمى الحجاز" في نجد ، التي تتملك أجساد هؤلاء البدو ، على نحو يصعب معه عودة الجسد إلى سابق حالته الصحية مرة ثانية . حمى العلا El-Ally حمى طويلة الأمد أكثر منها حمى مهلكة أو مميتة . والبدو لديهم حساسية شديدة جداً ضد الرطوبة والتخمر ؛ كما أن لديهم حساسية شديدة أيضا ضد برودة الليل غير الطبيعية التي تنتج عن المناطق المروية ؛ هؤلاء البدو يعودون إلى ديارهم في كثير من الأحيان وهم يحملون كثيرا من الأمراض غير المرئية ، والموت غير المرئي أيضا ، من أسواق القرى التي يترددون عليها .

عندما عادوا قادمين من العلا ، أبلغني مهنا أنه يجري بينه وبين رجل من خيبر حديث ، وأن ذلك الرجل أبلغ مهنا أنه سوف يتجه إلى خيبر عائدا إليها ، في صباح اليوم التالي ، أو إن شئت فقل : بكَير bâchir ، وأنه (مهنا) يود أن يرسلني مع ذلك الرجل . وبالرغم من أن خيبر والعلا لا تبعدان عن بعضهما سوى مسافة رحلة طويلة من رحلات الإبل ، إن أن قرويي هاتين القريتين يمضون حياواتهم دون أن يزوروا

بعضـهم البعض الآخر ، كما أن المدينة (المنورة) تعد سوقا لهاتين القريتين . قام البدو بسرقة عجل مخصي من قرية خيبر ؛ وعندما بلغهم نبأ وجود ذلك العجل في قرية العلا ، قام القروي (صاحب العجل) يرافقه أحد البدو بالذهاب إلى العلا ليطالب باستعادة ذلك العجل المخصي . "قال مهنا ، إنني سوف أصل في الوقت المناسب إذا ما بدأت رحلتي في الصباح ." ولم يكن من السهل عليَّ العثور على رفيق يذهب معي إلى "المدينة" المنورة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الشخص الذي اتفقت معه أثناء الليل خيب ظني مع طلوع النهار .

مع طلوع النهار ، جرى اقتياد سبعة عشر جملا ، إلى خيمة القهوة ، وذلك من باب سداد المدة (الدِّية) أو الوفاء بها ؛ بالأمس تسلم مهنا في وادي عروش كثيرا من سيقان النخيل بدلا من الإبل ، - والمعروف أن الساق الجيدة من سيقان النخيل تقيم على إنها جمل . ولكني أسمع الآن أن مهنا يرفض كل العروض التي تقدموا بها ، ويصيح قائلا : "الأعراب سوف يعودون إلى عدائهم المستحكم ، وأنه لم يعد يتبقى بينهم سوى الموت الأسود! - ووالله ، فإنه لن يرضى بأقل من أربعين ناقة ." ركب مهنا ناقته، وأدار ظهره دون أن يستأذن من الحاضرين ، وراح يتجه صوب رأس الوادي ، عائدا إلى ديرته عن طريق الحَّرة . هذه الحدة ، في الاستعراض ، إنما هي شكل من أشكال سياسة ذلك الرجل في الحصول على المزيد من الإبل ؛ يضاف إلى ذلك ، أنه لم يكن من مصلحة ذلك الرجل تسوية أمر خطير ، مثل هذا الأمر ، دون أن تكون هناك بعض المصاعب . راح المواهيب الذين كانوا ينتظرون ذلك الحادث ويتطلعون إليه ، يراقبون مهنا أثناء انصرافه ، ثم ذهب كل واحد منهم إلى مورد تزود الماشية بالماء ، أو إن شئت فقل : مسقى الدواب .

عثرت على الشيخ طلُّج ، جالسا عند عين الماء ، مع أولئك الذين كانوا ينتظرون دورهم في السقاية . وهنا وجدت الشيخ سيدان Seydan ، الذي كانت له طبيعة معينة ، وكان يفضل الغريب في كل الأحوال ، يقول : "إذا لم يكن هناك أحد غير ولدي فسوف يذهب هو معك ، نظير أجر ." كان ذلك الابن يدعى حوريش Horeysh ، ونظرا لأنه كان موجوداً في بيته فقد ذهب لإحضار ناقته ، ولكنه سرعان ما عاد إلى خيمتي وهو يكشر عن أنيابه ويقول لي أنني ينبغي أن أزيد له في الأجر ، وقد لبيت له ذلك الطلب .

والبدوى يحتم الحصول على أجره قبل بدء الرحلة ، على أن يحاول بعد ذلك بذل كل ما فى وسعه . كان لابد من فك النقود فى قرية العلا ، وهنا قال حوريش بطريقة همجية غير مهذبة ، لامه أخوه على إثرها ، إنه لا يثق بما قلته له ، وقال : "إننى كنت نصرانيا". وهنا أعطيته النقود فى يده ليقوم هو بفكها من قرية العلا ، ثم استأنفنا مسيرنا بعد ذلك .

أثناء سيرنا انضممنا إلى جماعة صغيرة أخرى كانت مسافرة، كانت تلك الجماعة عبارة عن رجل سرحانى يقوم بتوصيل أخته وولدها الصغير إلى الواحة . كان زوج هذه المرأة البدوية ، وهو رجل قروى من قرية العلا ، قد أرسل فى طلب ولده حتى ينشأ ويتربى فى كنف تلك الحياة المستقرة . وكان يسافر أيضا مع هذه الجماعة الصغيرة رجل آخر كان يسوق معه رأسين أو ثلاثة من الحيوانات الصغيرة ، وقد تعرفت على ذلك الرجل ، واكتشفت أنه حضرى من قسمات وجهه قاتم اللون . كان ذلك الرجل قصابًا ، جاء ومعه قليلا من التبغ لكى يبيعه للبدو ، وها هو الآن يعود ومعه لحوم حية (حيوانات) . كانوا يلقون السلام على بعض الرعاة الذين كانوا عند منبع الوادى ؛ ولما كنا نسير بحذاء ساحل الوادى المنخفض فقد وصلنا إلى وادٍ آخر ، يقع منبعه فى الحدود الجبلية المكونة من الحجر الرملى والأجزاء البازلتية العالية من الحرة ، – وهى منطقة خالية من الماء لا يزورها أو يتردد عليها الرعاة البدو ، ويخيم على تلك المنطقة أيضًا شكل من أشكال الصمت العنصرى . هذه العدة الخشبية التى على ظهر الجمل ، أيقظت فىَّ شعورا دفينا وغير مريح أحسست معه بالجوع ، ولا أذكر أننى فى حياتى كلها ، فيما قبل تلك الشهور التى أمضيتها فى الجزيرة العربية ، لم أتناول الإفطار حتى ولو لمرة واحدة . وهنا نحن نصل إلى تلك الغابة الضخمة من الصخور التحتية المكونة من الحجر الرملى؛ والناس هنا يطلقون على تلك الغابة اسم الأخمة el-Akhma، وهى تمثل الحد الخارجى للعويرض . ومع دخول وقت الظهر ، نزل المسافرون عن دوابهم ، كما هو متبع فى السفر أثناء فصل الصيف ، وجلسوا فى ظل صخرة عالية ، لقضاء أشد ساعات النهار حرارة . وعثرت فى تلك المنطقة على نقش حميرى ؛ ولكنى خشيت الوصول متأخرا إلى قرية العلا بسبب مثل هذا التأخير الذى لا داعى أو لزوم له .

عندما استأنفنا مسيرنا من جديد ، كنا قد أقبلنا على الجزء الثالث والأخير من نهار اليوم . وهنا سارعت لأحمل عن القصاب قربة مائه التى كان يحملها على ظهره ، مستهدفا بذلك أن يعجل من مسيره معنا ، وحتى لا ينفصل عنا فى ذلك المكان غير الآمن ؛ القصاب قال : "لا ! لن يفترق عن القربة التى هى فى مقام أمه". وهنا رد عليه البدو ، وهم يتعجبون : "صدقت يا رجل ، إنها أمك بحق !"– هذا هو الفكر الذى يدور فى أذهان أهل الجزيرة العربية عندما يفترقون عن الماء مدة ساعة أو ساعتين ! وفى النهاية ، بدأ يطالعنا منظر نخيل القرية ، فى ضوء الشفق . وعندما نزلنا عن دوابنا عند بوابة القرية كان الليل قد أرخى سدوله علينا ، وأحدثنا شيئا من الجلبة ونحن نسوق دوابنا عبر البوابة ؛ هذه الدواب عندما تشممت الشوارع الضيقة خافت من الدخول إلى الظلمة الموجودة أسفل الغرف المبنية . وهنا ضربت ناقتى العجوز رأسها فى الجدران ضربة شديدة ظننت بعدها أنها ربما تكون قد أصابها مكروه . وهنا جاء قروى أو اثنان كانا عائدين متأخرين إلى القرية ورداً علينا السلام والتحية وراحا يعاملاننا بود نحن البدو . كانت المسارات الضيقة فى هذه المدينة الحجازية الأصيلة تفوح منها رائحة ماء الورد بشكل فظيع . وتوقفنا فى مكان واسع ذهب فيه حوريش للبحث عن واحد من معارفه اسمه فرحان Farhan ؛ وبعد أن تركنا جمالنا الباركة بعد ربط ركبها ، قام الشابان اللذان أخذانا إلى الأمام ، بحمل أكياسى الكبيرة على اكتافهم ، ومشيا أمامنا فى اتجاه الباب . جلسنا فوق الضفاف (المصاطب) الطينية ، التى جرى صنعها لتكون بجوار المداخل كلها، ثم أحضروا لنا بعد ذلك طبقا من التمر، وسلطانية أخرى من مائهم غير الصحى ؛ – كنا لم نتذوق أى شىء من الطعام طوال ذلك النهار الذى انقضى علينا . تلك الغرفة كانت مخزنا ، وضعوا فيه أشيائى ، وأغلقوا عليها الباب طوال الليل . وبعد ذلك اقتادنا هذان الرجلان إلى شرفة نظيفة فى منزل خالٍ ، يمكن لنا أن ننام فيه .

وصلنا مبطئين mabty ، أى متأخرين ، كما توقعت ؛ فقد بدأ ذلك الخيبرى رحلته قبل ظهر هذا اليوم ، – والبدو هنا يطلقون على فترة ما قبل الظهر ، بعد انتصاف النهار ، اسم "البيريح" el-beyrih ، بمعنى "أمس" .– هذه الساعات القليلة التى ضاعت منا كانت بسبب التباطؤ الغادر من جانب حوريش ، الأمر الذى هيأ لى فرصة لقضاء

عـام آخر من المتـاعب والأخطار فـي الجزيرة العـربيـة ، نظرا لأن هدفي الرئيسي كـان يتمثل ، بالدرجة الأولى ، في زيارة خيبر . هنا ، في خيبر ، نجد أن حرارة الليل البهيم لا تتناقص بشكل محسوس عن ذلك الذي كانت عليه أثناء نهار الظهيرة ؛ استلقينا على الأرض شبـه لاهثين ، إلى حـين طلوع الشـمس ، وبعـدهـا لم نسـتطع النوم حـتى ولو للحظة واحدة . هذه الديرة لا تعرف الأسرّة ؛ وعابرو السبيل يستلقون على الأرض لنيل قسط من الراحة ، ويستـخدم الواحـد منهم ساعده ليكون مـخدة يضـع عليـها رأسـه ، مفترشا الأرض من تحته :– والمرء يرى هنا ، في كثير من الأحيان ، البدو المساكين ، الذين جاءوا للتسوق، وهم ينامون عند الظهر في المدينة أو القرية ، مثل الصبي يعقوب، ويضع الواحد منهم حجرا من تحت رأسه ؛ بل إن قروييي قرية العلا أنفسـهم يندر أن يداعب النوم جفونهم طوال فصل الصيف الطويل الحار والقسم الأكبر من قروييي العلا يقضـون ليالي الصيف في البسـاتين ، التي يحتفظون فيها بتـعاريش يصنعونها من جريد النخيل وسقيانه ، ويفرشونها بحصير يصنعونه من زعف النخيل . وهم يقيمون وينامون في تلك التعاريش ، كيما يتسنى لهم حراسة محصول التمر والفاكهة أثناء فترة النضـوج ، ويهب عليـهم وهم في تلك التـعاريش هواء مشبـع بالرطوبة ، وشيء من البـراد قـبـيل طلوع الصـبح . وعـقب طلوع النهـار ، نركب إبلنا ونواصل المسيـر في الشوارع . ويستمـر حـال المعاناة هـذا مع تلك الماشية خاوية البطـون ، طـوال ثلاثة أو أربعة أيام ، لتعود محملة بالتمر مع رب الأسرة ،– هذه الحمولة تكون أكبر بكثير جداً عن أية حمولة تحملها هذه الماشية وهي بكامل صحتها وعافيتها ؛ والمرء يمكن أن يصادف تلك الحيوانات المسكينة وهي تمشي متثاقلة عائدة إلى المنزل ، قادمة من تلك المستوطنات الطاردة .

وجهنا مواشينا صوب مقهى القاضي موسى ، ذلك الرجل الحجازي الذي له عقلية إسلامية بدائية بحق وحقيقة ؛ ولما كان ذلك الرجل عائدا من مقر راحته الليلية في البساتين busatin ، فقد استقبلني بابتسامات إحسانه الذي يوحي بالكرم . وهنا جرى إشعال أو إن شئت فقل : شب نار قهوة الصباح ، وقام مقدم القهوة ، أو إن شئت فقل: "القهوجي" Kahwajy بتحميص البن على نار الوجار ثم طحنه طحنا إيقاعيا في هون البن . ويتوافد الأشخاص المعروفون ، على ذلك المقهى ، قادمين من البساتين لتناول

فنجال قهوة الصباح ، هؤلاء الأشخاص المعروفون هم من سوق (حارة) القاضى موسى ، وهم يخلعون نعالهم قبل الدخول إلى المقهى ، وعندما رأونى أنا ورفيقى ونحن جالسين بالقرب من الوجار ، حيونى تحية طيبة ، "أهو أنت ، يا خليل ، - من أين جئت؟" وتقدموا لمصافحتى . هنا لا تجد تحضر شيوخ الصحراء وقرى نجد الذى يجعل المرء يفقد صوابه ، والذى تصدق عليه الكلمات التى قالها إشعيا ذات مرة فى وجه بنات يهوذا الخائن ، "هم متعالون ، ويمشون بأعناق ممدودة ، وعيون فيها فضول ، ينفثون السناج وهم يمشون ." ولكن أهل العلا متزنون وطيعون وعاقلون .

- هذه هى صالة ونادى قهوة "جماعة" موسى ، المقصود "بالجماعة" Jummaa هنا هو الاتحاد الأسرى الطبيعى ، الذى يولد وبينه صلة قرابة أو نسب ، من خلال كبير ، يكون هو رأس المنزل ، ويكون وارثا لسلطة الأب الأكبر . هذه الروابط والانقسامات عن طريق القرابة تمثل الحياة المشتركة الواحدة والأمن المشترك الواحد فى بلد تعمه الفوضى التى تكون من هذا القبيل . والغرباء الذين يفدون على هذا التحالف يجرى تعرفهم عليه من خلال أصدقائهم . والرجال الذين يجرى تحريرهم من عبوديتهم يتحولون إلى عملاء فى منزل رب الأسرة ، وأطفال هؤلاء الرجال ، مع أطفال الغرباء الذين يتكاملون مع ذلك التحالف ، يمنحون نفس الأبوة التى يحصل عليها أطفال الأسلاف : هذا يعنى أنهم يصبحون "أبناء عمومة" فى الجماعة نفسها .

الأجزاب السياسية المختلطة أمر نادر الحدوث فى الجزيرة العربية ؛ والسبب فى ذلك أن أى إنسان ، مهما كانت قوته ، حتى وإن كان فى المدينة ، لا يمكن له ممارسة سلطة من السلطات العامة إلا إذا كان منحدرا من سلالة شيخ من الشيوخ . ففى كل المدن الواحية توجد قرابات كثيرة ، وغالبا ما تكون متشابكة من خلال أكثر من سلالة نسبية واحدة ؛ وهنا يكون مثل هذا الشخص مناسبا للحكم - وأصدق مثال على ذلك هو أمير عنيزة - الذى يعد الرأس الطبيعية لذلك البيت القديم المنحدر عن الشيوخ القدامى ، وبخاصة الشيوخ الذين يكون آباؤهم من البدو ، الذين أسسوا مستوطنة

(*) عنيزة : من البلدان الهامة فى منطقة القصيم . كان يحكمها أثناء رحلة "دونى" الأمير زامل بن عبد الله ١٨٦٧-١٨٩١ . وينتمى أمراء عنيزة إلى قبيلة السليمى وهى بطن من بطون قبيلة السبيع . (المراجع)

النخيل في الصحراء . في بعض المدن ، قد يتصادف قيام حزب فرعي ، من خلال تهيؤ الفرصة المناسبة ، بالوصول إلى المقدمة ويتسود كل شيء ، مثلما حدث لبيت ابن الرشيد في حائل ، الذي باركه الوهابيون فيما بعد ، الأمر الذي أدى إلى نمو ذلك الفرع الجانبي ليصبح أعظم الأسماء قاطبة في الجزء العالي من الجزيرة العربية . - تجمع أتباع دين محمد ﷺ كان عبارة عن جماعة مختلطة ، وهذا التجمع يشكل في الوقت الحالي نوعية ، أو إن شئت فقل : تحزُّب خاص من الأمم - يكشف عن قسمات القرابة في الوجه لهذا الحزب أو ذاك من أحزاب الجزيرة العربية .

الجماعات في الواحات عبارة عن "إخوانيات" تسكن أحياء عديدة . وأهل الحضر الذين يتشاجرون ولا يكونوا من نفس "الإخوانية" ، يحاول كبار السن بينهم إعادة الوفاق إليهم ؛ ولكن في الواحات الكبيرة ذات الحكم الذاتي ، كما هو الحال في عنيزة ، فإن المواطنين الحضر ينقلون خلافاتهم ليحكم فيها الأمير الجالس في المجلس ، وذلك أسوة بما يفعله البدو عندما يحملون مشاكلهم إلى شيوخهم . وإلى أن بدأت مزايا ومنافع الحكم الوهابي تتبدى للجميع ، كان القرويون منقسمين ويقفون في وجه بعضهم البعض ، وجماعة في وجه جماعة ، سوق (شارع) في وجه سوق (شارع) أخر في السواد الأعظم من مستوطنات الجزء المرتفع من الجزيرة العربية . - سمعت أثناء الخطر الذي كان يتهددني في خيبر إنه "إذا ما تعرضت حياة الغريب للخطر في سوق (شارع) من الأسواق ، واستطاع الهرب إلى شارع أخر ، فإن ذلك الشارع يحميه ويدافع عنه ."

أحضر موسى قطعة من البطيخ ليرفه بها عنا ، وبعد ذلك مباشرة اصطحبنا لتناول الإفطار ؛ والإفطار في قرية العلا عبارة عن خبز مخمور معجون بالزبد ، ومعه سلطانية من ماء العلا الذي تفوح منه رائحة الكبريت . ونظرا للإحباط الذي أصابني بسبب خيبر ، فقد انتابني شيء من الحيرة . إذ من الخطورة بمكان على من لا ينتمي إلى الدين الإسلامي، أن يحاول العودة إلى تسامح المسلمين الذي لا يدوم فترة طويلة ، الأمر الذي جعلني على استعداد دوما في كل مكان إلى التراجع عن التشبه بالمسلمين تماما . ترى ، هل ينبغي أن أسكن المدينة ؟ حيث يتصبب العرق على شكل قطرات من فوق جباهنا ، وحيث الهواء الساكن الذي لا يتحرك ، والليالي التي تسير على وتيرة

واحدة . الطعام متوفر في الواحات ؛ ولكني آثرت العودة إلى الخلاء (الصحراء) التي يهب عليها الهواء . كان الشيخ طُلَج العجوز الطيب قد قال عند رحيلي ، ومتوقعا افتقادنا لرفيقنا الخيبري ، "أنت رجل من الذين يقيمون مع البدو ، عد إلينا ثانية يا خليل ، وابق معنا إلى مجيء موسم الحج الجديد ." وهنا قال القاضي موسى : "يا خليل ، إذا أردت السكنى والإقامة في المدينة ، فابق هنا معي ، ومرحبا بك ." - كنت قد اخترت القاضي موسى ليكون مضيفا لي ، وهو بدوره وجَّه طيبته الطبيعية نحو الضيف النصراني : وفي هدوء راح القاضي موسى يسألني عن كثير من الأشياء ، وكان يستقبل ربودى استقبالا طيبا ، على مرأى ومسمع من الجميع . وعندما كانت يد صديقه تمتد نحوى بالغليون ، كانت هناك يد أخرى ، تجعل صاحبها يثير القضية القديمة "هل يتعين على الشخص المستقيم أن يشرب الدخان ؟" قام البعض بالرد على هذا السؤال قائلين : "إن الإنسان ينبغي ألا يضيع الكثير في ذلك الدخان !" وبعض الجيران الآخرين ، الذين كانوا أكثر تمسكا بالخرافات ، غمغموا قائلين إن الإنسان ملوم في ذلك ؛ وهذا هو شخص ينظر إلى الدخان نظرة كره واستياء ، تكلم على إثر نفرة بالكوع وجهها إليه من كان يجلس إلى جواره ، تكلم فقال : "ألست أنت بنفسك تزرع الدخان ، وتتعهده في الحقل ، الذي يجاور حقلي ؟" - وبناء على هذا الكلام غير صاحب الموقف الرسمي موقفه كيما يلتمس لنفسه الأعذار ثم قال: "حسن ، إنه لم يفعل أي شيء سوى بيع شيء من هذا الدخان للبدو ؛ (ثم سألنا) ألم يكن البدو كفارا بالفعل ، وأنهم وقود نار جهنم ؟" وعندما وجد موسى أن ملاحظتنا ومراعاتنا اللذين كانت هشة وغير متماسكة سألني : "ماذا يقول النصارى عن هذا الموضوع ؟ - هل شرب الدخان ، خطأ فيما بينكم ؟ أهو حرام !" وهنا أجبته على الفور قائلاً: "الله ، هو الذي خلق الحرام !" ؛ وعندما خرجت هذه العبارة من فم النصراني ، رحب بها ذلك القروي الحجازي الذي ينتمي إلى الشيوخ ؛ يضاف إلى ذلك أن ذلك القروي كان من أصدقاء الغليون ، وراح يردد في سره العبارة التي تقول: "الله لم يخلق شيئا محرما."

عندما سألت حوريش عن مصير العملة التي أعطيته إياها لفكها من قرية العلا ، رد عليّ وهو يكشر عن أنيابه قائلا : "إنه دفعها ثمنا للشعير في المدينة ." ورددت عليه ، أنه طالما أنفق نقودي ، فإنه يتعين عليه أن يحمل أكياسي الثقيلة على ذلوله (ناقته)

فى رحلة العودة ، إضافة إلى أنى سوف أركب أيضا فوق هذه الناقة . وعلق القاضى على كلامى بأنه عادل ، وأيد القرويون الحاضرون ما قاله القاضى ؛ هؤلاء القرويون تطوعوا من تلقاء أنفسهم ، مثلما كان الناس فى عهد أيوب الصدِّيق ، لتعنيف هؤلاء البدو الخونة ، - يضاف إلى ذلك أن كل أولئك القرويين كانوا يكرهون ذلك الحوريش المتوحش . زد على ذلك أن الشاب السِّرْحانى ، الذى رافقنا فى الرحلة، عندما مرَّ بنا ، اعترض هو الآخر على تصرفات ابن قبيلته . وعليه عندما وجد حوريش أن الكل يعارضه ، رضخ (كما هو حال البدو دائما) لرأى الجماعة وانصاع له .

وبينما كنا نرحل فى فترة بَرَاد مطلع النهار ، وافقت على أن يركب حوريش ناقته فترة من الوقت ، تلك الناقة التى كانت تحمل أمتعتى ، ومضينا قدما خارجين من الهواء الساكن الراكد ومبتعدين أيضا عن طاعون الذباب الذى يعشش فى الواحات . كانت ظلال الجبال المرتفعة تنعكس على المسار الذى نسلكه : ثم وصلنا إلى مقدمة صخور المقابر فى الخريبة ، وواصلنا مسيرنا نحو أسفل الحرَّة ، تاركين الطريق المؤدى إلى الحجر يصعد فى اتجاه جانبنا الأيمن . كنا نرى من أمامنا أرضا لامعة من الصلصال تنمو فيها كتل من العشب الطويل ؛ وفى هذه المنطقة كان يتعين علينا تجاوز دغل من أشجار الطرفاء ، التى كان بدو الحويطات يتخذون منها مكمنا لهم فى معظم الأحيان : من هنا كان البدو عندما يقتربون من ذلك الدغل يستحثون دوابهم كيما يتجاوزوه عدْواً . ولم تتمكن ناقتى العجوز من الجرى إلا مثل جمل من الجمال . ركبت الناقة ، محاولا تمالك نفسى من فوقها ، فى الوقت الذى جرى خلاله حوريش بناقته مبتعدا عنى . وعندما وصلنا إلى مسافة بعيدة فى الأخمر Akhmar، شاهدت رفيقى مرة ثانية ، وناديته قائلا : "طالما أنه سينقذ نفسه لوحده على الناقة ، فهل له أن يعطينى سيفه القصير ؟" - كان مسدسى مربوطًا داخل خرج الجمل الذى كان موضوعا على ظهر ناقته . ورد علىَّ حوريشن قائلا : "إنه سوف يهرب فى ظل أى خطر من الأخطار التى يمكن أن تتهدده ، دون أن يلقى بالا أو اهتماما ؛ وما هو السبب الذى يجعله يعطينى السيف ؟ وأننى إذا لم أكن قادرا على العدو بناقتى ، فسوف يتخلى عنى ويتركنى" . ولم ينتظر ذلك الرفيق بعد ذلك ولو للحظة واحدة . هذه السرعة أوصلتنا إلى منطقة الحوارء Howwâre ؛ - هذه الرأس السوداء المستوية لها علاقة

بالبازلت ، الذى انساب عليها من العويرض بطريقة متساوية ، ولكن ذلك البازلت مفصول هنا عن الجبل ، إذ بينه وبين الجبل مسافة تقدر بمئات الياردات !

عندما بدأت الشمس في الغروب طلبت من رفيقي أن ينتظرني ، ونزلت من فوق ناقتي ورقدت على الأرض وأنا أشعر بالإعياء التام . وهنا وافق رفيقي على أن أركب أنا ناقته ، شريطة أن أضع أكياسي الثقيلة على ظهر ناقتي . – "ناقتي المحمَّلة لا يمكن أن تحمل راكبا ، ولكن يمكن لك أن تركب خلفي" . – المسافة ليست بعيدة ، وأنا سوف أمشي سيراً على أقدامي ." ساعدني رفيقي على ركوب الناقة ، وعندما أصبحت فوق الناقة ، جرى مسرعا وتناول لجام ناقته مرة ثانية . واستخدمت عقبي في استحثاث الناقة على الجرى بسرعة ، ونظرا لأني كنت أحس بارتاح ، ونظرا أيضا لأن الحظ كان في يدي فقد مكنني ذلك من تحقيق شيء من التميز على حوريش ، بليد الحس ، والقوى جداً ، والمسلح أيضا بسيف : هذا يعني ، أنني إذا ما دعا الداعي ، يمكن أن أشق طريقي إلى الأعراب في وادى تربة ، أو عبر السهل إلى قلعة مدائن صالح . وعندما نظرت حولي ، وجدت ذلك البدوى الثقيل قد ركب في صمت على ظهر ناقتي المسكينة . وطلبت منه النزول من على الناقة وأن يسير معي على قدميه ، ولكنه استحث الناقة العجوز وتجاوزني ، بطريقته الفجة في الركوب . ناديت عليه ، وطلبت منه النزول من فوق الناقة ؛ وعندما سمع خطو ناقته السريع التي كانت تحملني ، انطلق نازلاً إلى الأرض من فوق الناقة ، ثم وقف على قدميه ونظر إلى نظرة كان يخشى معها (حسبما أكد هو بعد ذلك للأعراب – إذا لم يكن يعرف أني مُسَلَّحٌ ،) أن تخترق الطلقه التي سيطلقها النصراني جانبيه .– واعتبارا من ذلك الوقت ، بدأ حوريش السير على قدميه ، وكان يجرى من حين لآخر للإمساك بلجام ناقته ، ولكني كنت أفلت منه بسرعة . "على Aly هونك houn-ak ، على Aly هونك houn-ak يا خليل Ya khalil !" بمعني "تمهل ! انتبه إلى الناقة ." هذا هو ما قاله ذلك الأمطل ، الذى يتصرف على هذا النحو ، بالرغم من أني هيأت له ركوبا مريحا . خطر ببال ذلك البدوى ، وهذا هو حال البدو ، إن النصراني جرده من ناقته وأنه سوف يفر هاربا بها . "وأنا حتى لو كنت لصا من اللصوص فأنا لا أعرف طرق هذه البلاد أو دروبها ، أو كيف لي أن أضحى بناقتي هي والأغراض التي عليها ؟" – "والله – إنها لتهدئة ، يا خليل ." – "ألسنا

رفاقا؟ " – "أنا لم أكن أبغي شيئا سوى شرب القليل من الماء ." – "هيا ، تعال وأشرب أنت أيضا ، ثم اركب خلفي ." واقتربت بعد أن شربت وركبت خلفه ورحنا سويا نقود الناقة التي كانت تحمل الأمتعة .

عند بداية الوادى غير حوريش خط سيره ليكون وسط أحواض وضفاف خالية من المسارات وعامرة بالأحجار المتدحرجة وقنوات السيل المتآكلة ، بدلا من السير أسفل الصخور القريبة . ولم يستطع الوقوف على السبب الذى دفعه إلى مثل هذا التغيير ، إلى أن سألنى حوريش في صوت صغير خافت "هل الأشباح التى فى هذا الوادى أشباح نصارى أم أشباح يهود ؟" وهنا بدأ ذلك البائس يتخوف تخوفا شديدا من النصرانى ، الذى سبق أن أساء إليه منذ فترة وجيزة جداً ، كان يخشى ويخاف أن تطبق عليه في هذا المكان أشباح بعض من أسلافي . – "زاد على ذلك قائلا : آه الملائكة !" وعند اقتراب منتصف الليل كنا قد اقتربنا من المَنْزل القاحل ، الذى كانت الخيام السوداء الأولى فيه ، هى خيام حمدى : كانت كلاب الحراسة ما تزال صاحية ، وراحت تقفز وتعترضنا وهى تفتح أفواهها ، . رددت (أسماء الكلاب) رشدان Rushdan وعديلة ! Adilla وعندها جاء هذا الكلبان يسعيان نحوى ويقتربان منى .

بعد أن نزلت من فوق دابتى صاح حوريش حقداً ، وهو يمضى قدما : "أيها الناس ! ها أنذا أعيد إليكم ذلك وأنا لا أعرف إن كان – يهوديا أم نصرانيا ." هؤلاء البدو الرحل الذين ينامون النهار ، يكون نومهم خفيفا جداً فى الليل ، هذه هى سالمة Salema العجوز سيئة الخلق والسلوك ، تخرج من بيتها فى الحال بصحبة بعض جاراتها ، ورحن يساعدننى على إنزال اشيائى ! – وهذا دور طيب تقوم به الحريم لمساعدة الرجل القادم من سفر طويل . وبالتالى فهن يطلبن منك شيئا من التبغ . صاحت سالمة : "أيتها الرُّغَّايات !" – كان مزاجها لا يشبع من الكلام البدوى الفاضح الفاحش ، "آه . هى – هى – هى ! هذه هى صنيتك المدورة تعود مرة ثانية !" هنا يحضر على الفور من الخيام المجاورة رجل أو رجلان ويجلسان إلى جوارى ليسألانى عن أخبار الواحة ، ويحصلا من العائد على شيء من التبغ . جاء هذان الرجلان وهما يرتعدان بعد أن استيقظا من نومهما ، وكانا يلفان عباءتيهما المهلهلتان من حولهما ، وهناك فرق كبير بين درجة حرارة النهار ودرجة حرارة الليل ، إذ يصل الفرق بينهما

إلى ثلاثين درجة : قدم لى أحدهما سلطانية من المريسى ، وقامت النساء بنصب خيمتي ، ولكن خطر ببالي أن استلقي على الفور على الأرض في ضوء النجوم ، - سوف يطلع الفجر الحار علينا خلال فترة وجيزة .

تبدأ حركة البدو مع طلوع النهار ، وبعد أن فتحت عينيى بقليل ، وجدت مشوات Mishwat واقفا على رأسي ، وجاء من بعده وعيل Wáyil ذلك الشيخ السرحاني العادل الودود : - ذهبا سويا (عيل ومشوات) ليجلسا في خيمة حمدى ؛ وعندما انضممت إليهما راحا يسألاني عن ذلك الذى حدث بيني وبين حوريش Horeysh . - وهنا أدركت أن رقودى في العراء أحلم خارج الخيمة كانت له أخطاره . كان حوريش قد أتهمني أمام أخيه الذى ينتمى إلى عائلة الشيوخ ، "أن النصرانى كان سيأخذ منه سيفه ، ويهرب بناقته ، وأنني لعنت (وهذا لم يحدث) والدهما ." وهنا أقسم سيدان Seydan ، مع أول نوبة من نوبات ضيق صدره ونفاد صبره ، أن يقوم بعمل قاس تماما مقابل ذلك الخطأ الذى وقع على أخيه ، ونهض الرجل من مكانه "ليقطع رأس ذلك النصرانى ، على حد قوله ." ولكن الشيوخ عارضوه قائلين إنه لابد من سماع أقوال خليل . كان مشوات صديقا لى من الناحية الفكرية ، إذ كان يكره "عدو الله" : صحيح أن تلك الكراهية أفادته نفسيا إذا أراحت قلبه، ولكنه كان يشعر بالأسف عندما يرى أن ضيف أخته متهم في أمر مميت أو مهلك : ولما كان وعيل رجلا ، بمعنى الكلمة ، رجلا كان يقف بجانبى في المجلس ، هذا الرجل جاءني بصمته الذى يوحى بالشفقة ، ليسألنى عن حقيقة ما جرى ، ومحاولا وضع حد للعنف المنتظر. وافق وعيل على ما قلته ، بل أن مشوات أيضا ، ظهرت في عينيه ، أنه موافق وراض عن دفاعى عن نفسى . عندئذ جاء سيدان ؛ وعندما وجدني ودودا وهادئا بالفعل جلس إلى جوارنا . حييته بإلقاء السلام عليه، ولكنه أشاح عني بوجهه . ورجاه وعيل أن يعمل عقله في الأمر ويتأمله جيدًا ولكن سيدان رد قائلا: "الرجل نصرانى، وأنا أقول أقطعوا رأسه ، ولن يكون هناك من يطالب بديته نظرا لمقتله بأيدينا ." وهنا بدأ قلب سيدان يرق ويحن ، وسط هذا الكلام الكبير . وهنا انضم إلينا رجال جاءوا من البيت المجاور ، ليروا ما سيؤل إليه ذلك النزاع ، نظرًا لأنهم يعرفون أن سيدان ، عندما يغضب ، يتحول إلى رجل خطير . وهنا تمكنت من الوقوف على ما يدور في أذهانهم لأن منهم من أيدني ومن عارضني ووقف ضدى؛

وكان ولد الشيخ طُلَج من بين أولئك الذين وقفوا إلى جانب عبد الله ؛ هذا الولد أعطى صوته من واقع حقده الدفين "أنني كنت أنتوى الإضرار بحوريش Horeysh . ، ألم يقل الحكماء "بعدم مصادقه الأحمق" ؛ ولكن ما الذى يمكن أن يفعله ذلك الذى يعجز عن الاختيار ؟ وقد يكون من الأفضل ، في بعض الأحيان ، الاسترشاد بأحمق بدلا من الامتناع عن القيام بأى شيء على الإطلاق . لقد تسببت رفقتى مع حوريش فى ضياع زيارة خيبر منى . كان يمكن أن أنزل ، فى خيبر ، ضيفا على الشيخ مطلق ، شيخ ولاد على ، الذى سبق أن زكانى البعض عنده تزكية طيبة ، وكان بوسعي أيضا أن أتجه من منْزل الشيخ مطلق مباشرة إلى بلدة حائل وأنا فى أمن وسلام . – وأنا عندما وصلت إلى خيبر بعد ذلك ، كنت قد لاقيت كثيراً من الآلام وواجهت كثيراً من الأخطار ، ولاقيت فى تلك البلدة أسْرًا لا قبل لى به . هؤلاء الأعراب ، الذين يفضلون إنهاء الأمور على وجه السرعة ، حتى يعودوا إلى حالتهم الطبيعية ، نهضوا وذهب كل واحد منهم لحال سبيله بعد أن اقتنعوا بوجاهة دفاعي ومصداقيته :

وهنا وضعت مسدسى Pistol تحت قبضتى واقتدت ناقتى إلى المسقى : ولكنى عندما عدت أخفيت السلاح فى خيمتى ، ثم اتجهت بعد ذلك إلى خيمة القهوة . حيث كان الشيوخ جالسين هناك. وجدت فى الخيمة كل من طلج، وحامد، ومشوات ، ووعيل ، وداريش ، ولم يغب عن المجلس سوى سيدان ، جلست معهم وطلبوا منى ، بعد ذلك أن "أحكى للشيخ عن مغامراتى"، ثم بدأ مزاجهم يتحسن شيئا فشيئا إلى أن وصلوا إلى حد الابتسام . وهنا قال الشيخ طلج : "ما رأيك فى حوريش ؟" – "لن أعجب لو لم يكن رأسه "متين Matin بالحيل hail -bil " بمعنى أنه "مخه متحجر" واستطلقت تلك الكلمات الضحك من أفواه الحاضرين . طُلَّجٌ : "والله إن حوريشا لفاسد Fasid (بمعنى "منحل أخلاقيا") . وهنا نادى حامد خليلاً قائلاً : "مُد إلى يدك يا خليل" ، وهنا قال كل من مشوات وداريش : "مد لنا يدك ، يا خليل ." :– كل هؤلاء كانوا من شيوخ المواهيب بالإضافة إلى سيدان ، لم يستطع أحد منهم الامتناع عن ذلك الفرح والسرور البدوى ووسط ذلك المرح وصفاء النوايا ، وبعد أن راح كل واحد منهم يمسك بيدى اليمنى ، كان يتمنى لى دوام الصحة ، ويشكرنى قائلا : "عافيه Afia عليك" . وهنا قال وعيل : "والله ، إنه يقول كلاما لطيفا ، إن خليل لا يكذب ." – "(رد عليه طُلَج) صدقت والله !

وها نحن الآن قد تصالحنا معك من جديد ، يا خليل ، وأصبحنا كلنا رجل واحد ، وأنت أصبحت مثل واحد من أبنائي : – وأردف الرجل قائلا : أنت لست وحدك الغريب هنا في هذه الديرة ، ولكننا جميعا وافدين عليها ، وخليل "أختيار" Ikhtiyar (بمعنى أن قلبي لم يكن منفصلا عنهم في مسألة المرح والود والحب) ، إنه من الأعراب الطيبين ، بمعنى ، الإنجليز أعراب طيبين ." وعيل Wāyil : " قل لنا شيئا عن نظرك الثاني ، يا خليل ، إقرأ لي ذلك المكتوب في كف يدي ." (مد يده لي) . طلَجٌ : "نعم ، انتبه يا خليل البعض يقولون إن كلمة "سليمان" مكتوبة هنا ." – "أنا لا أرى شيئا ، ولكنكم لن تصدقوني ." قالوا : "والله ، خليل لا يخدع العرب ." – طلَج : "ما رأيك يا خليل ، في المهرة المربوطة هناك ؟ لقد اشتريتها من العنوز ، وهي ترضع ، ودفعت ثلاثة من الإبل ثمنا لها ."

الفصل الثامن عشر

الفَكارة يمضون الصيف فى الحجر

طلُّوج ينتقل مع معظم آل بيته . ظاهر . السموم . إنذار فى الليل . الغزو . الجراد من جديد . ولد حوريش يعتدى على النصرانى . ظاهر يسبك الطلقات . كلامه عن الملوك . مهر العروس . الدّية ، طريقة تحديدها . الفصادة . الاستعداد للذهاب إلى طلُّوج فى وادى الشلاّل . سلامى . الناقة الخورة تكتشف الطريق . الأعراب فى الوادى . المصالحة مع حوريش . حكاية عبد الله الحاقدة . كيف يتجرأ النصارى على شن الحرب على الإسلام ؟ مبدع الأغانى والأناشيد . أسطورة الكنز المسحور . ابنة ظاهر زوجة طلُّوج . عبوس الرعاة البدو (المستمر) . أضحية مشوات . نزاع القبليين فى العويرض. المرور وحيداً إلى مدائن صالح . الشيخ الفُجيرى يمكن معرفته من بعد . تعال لزيارة الفُكَارة مرة ثانية . زيارة الحاج نجم فى القلعة . شيخ متزمت من ولاد على . كلام مطلق وكلام طلُّوج إلى النصرانى . إبراهيم عمود الحج . آثار الحجر . غزوة من غزوات المهنا . السلالة النسبية للشرارات والتى يجهلونها . شيوخ الموأهيب يركبون مطاياهم قاصدين ابن الرشيد للتعبير له عن خضوعهم له . دفء الهواء أثناء الليل. الزواج من من زوجة العم المطلقة . زيارة العلا مرة ثانية فى أوائل موسم التمر . هويشيم . شهر رمضان . حرارة الصيف فى الحجر . ذُرَيح Therrÿeh أكبر أبناء مطلق . حاج سورى يعيش مع أعرابنا . نخيل القلعة . أمسية مع الحج نجم . رحلة جديدة إلى العلا . إنذار أثناء العودة فى الليل . داريش ودولان يعثران على آثار أقدام حوريش .

أسفرت مغامرة حوريش الفاشلة عن تعزيز موقفي عند الشيوخ ، نظرا لأن حورش كان رجلا ملفوظا بين هؤلاء الشيوخ ؛ ولكن ذلك أثار نوعا من العداء العام المتشدد الذي جعلهم يظنون أنهم أصبح لديهم من الأسباب ما يبيح لهم الثأر من النصراني . وعقب ذلك مباشرة ، انتقل الشيخ طلّج ومعه القسم الأكبر من الأسر ، إلى وادي Wady شلاّل Shellal على بعد مسافة مسير ثلاث ساعات تقريبًا ؛ ولكن أهل مَنْزِل حمدي ، وأهل مَنْزِل ظاهر Thâhir ، ولد عمها بقوا في وادي تربة . وفي اليوم التالي ، وتحسبا للصوص الليل ، ضممنا منزلنا إلى منزل ظاهر ، الذي كان مقابلا لنبع الماء العالي . هذا يعني أن ربات البيوت ، في منزلنا ، سوف ينصبن خيامهن بالقرب من الماء، حيث ينتشر روث الماشية على الأرض كلها فيما عدا مكان واحد فقط، اكتشفته عندما كنت أستطلع الأرض بغية النزول في مكان بعيد عن ذلك الروث ، وهنا تناولت حمدي في يدها قبضة من الروث وقالت لي : "ما العيب في هذا !" فأنا أشم رائحة هذا الروث ، كما أننا يمكن أن نضعه أيضا في أفواهنا ؛ إنها رائحة معيشتنا ، وهي رائحة حلوة عند البدو" . اتجهت بعد ذلك لنصب خيمتي إلى جوار خيمة ظاهر . ظاهر هذا ، كان رجلا محترما ، يتمتع بشيء من الوعي الطبيعي الحر ، وهو حاليا في سن متقدمة ، وروحه قوية وبدنه قوي أيضا شأنه شأن كل أولئك الذين عثرت عليهم بين البدو ؛ وقد قمت بعلاج زوجته من التهاب في عينها .

لم يكن التكاسل الشديد في الخيمة من مسئولية ظاهر ، نظرا لأنه كان مشغولا بل وعلى استعداد أن يأخذ على عاتقه كل مسئولية من المسئوليات العامة . كان ظاهر يلبس ثوبا عربيا طويلا ، الذي يلبسه الرعاة ، ويصل طول ذلك الثوب إلى ما فوق ركبتي ظاهر ، ولم يكن الثوب يغطي أطراف ذلك الرجل أيضا . كان ظاهر وحده ، أو بصحبة رفيق آخر يختاره هو ، يركب ناقته ، في معظم الأحيان ، ويتقدم القبليين من البدو الرحل ، حتى يستطلع لهم الصحراء من أمامهم ؛ في بعض الأحيان كان ظاهر يقع في كمين من الكمائن التي كانت تنصب له لأخذ الناقة منه ، أو للقضاء على الحياة الإنسانية الغريبة التي كانت تقع داخل نطاق المدى الذي تصل إليه طلقات بندقيته : وقد أخبرني أبناء ظاهر أنه لم يكن يدخر وسعا في القيام بأي شيء ،- وهكذا نجد أن الضرورة هي التي تشحذ همم هؤلاء البدو إلى حد انعدام الضمير ،

في العنف الذي قد يأتونه خارج أراضيهم . كان يمكن لظاهر هذا ، الذي أصبح حاليا في منزلة "عمي" بل وصديقا مخلصا ، أن يكون هو قاتلي ، لو أنه التقاني قبل ذلك في الصحراء ! هذا الرجل الصحراوي كان صيادا ولا كل الصيادين من أهل قبيلته ، ولا أبالغ إن قلت : إنه واحد من بين الصيادين القلائل بين البدو . تلك كانت ابنته الجميلة الطيبة ، التي كانت أجمل جميلات البدويات الشابات ، والتي أنجبت للشيخ طُلَيع طفلا في الأجرَّة Agorra ! - كان ذلك العجوز قد قال عندما طلب يدها إنه يتمنى أن تنجب له طفلا شبيها بأبيها . كنت أمضي القسم الأكبر من وقتي ضمن جماعة ، أو إن شئت فقل : صحبة ظاهر : كان ظاهر صاحب فهم ووعي أكثر نضجاً عن أولئك الذين يحيطون به ، كما كان كلامه سمحاً وترحابه ملحوظا ! وقد أمضى ذلك الرجل سنين حياته بدويا وفي هذا النوع من الحياة التأملية أكثر من مجرد الحصول على المعرفة الطبيعية . كان ظاهر حاد البصر وكانت قدرته البدنية على التحمل عالية جداً ، كما كان أيضا واحداً من بين البدو القلائل الذين تربوا على الغزو : لقد غنم الكثير من الإبل ، إلى حد أنه تحول من رجل "ضعيف" في بداية الأمر ، إلى أن أصبح الآن من بين أوائل الرجال الذين يشتهرون بكبر أعداد مواشيهم ! يضاف إلى ذلك ، أن ظاهراً بحكم شخصيته القوية ، وبحكم حصافة عقله أيضا ، كان بمثابة زعيم القسم الفقير من بين أفراد القبيلة . "(قال لي ذلك اللص القوي وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الرجولة) يا خليل ، لماذا تبحث عن الحليب بعيدا عن هنا ؟ في الوقت الذي أملك أنا فيه نياقا كثيرة ." ومع ذلك ، لجأ ظاهر ، في يوم عودة الإبل إلى المنزل ، إلى المماطلة في التنفيذ . هذا الظاهر ، بعد أن خلط الحليب بالماء ، وبالرغم من أنه كان مدينا لي بأجر علاج عين زوجته ، لم يرسل لي سوى جرعة صغيرة من ذلك الحليب المخفف ؛ ولكنه أعطاني تلك الجرعة بوجه بشوش تماما .

عندما كان الجوع يعض ظاهر بنابه ، كان يسارع إلى حمل بندقيته الطويلة ، ويأخذ معه حفنة من المريسي ، وينطلق سعيا إلى إسكات ذلك الجوع ، ثم يغيب بعد ذلك عن الأنظار ! وقد اشتهر عن ذلك الرجل أنه يغيب نهارا من نهارات الصيف وليلة من لياليه ، يعود بعدها مرهقا ومتعباً في الصباح ، قادما من مسافة بعيدة ، تمكن فيها من التقاء واحدة من الماعز البرية أو ظبيا من الظبيان ؛ - يضاف إلى ذلك ،

أنه يكون قد وقف على دلائل وعلامات ذلك الذى حدث مؤخرا فى الصحراء . لم يكن غبار المغامرة الأخيرة مع حوريش قد اختفى وضاع ، وكان من المفيد لى البقاء داخل إطار صداقة هذا الرجل ، الذى دافع عن قضيتى ولم يخش أحداً عندما وجه لومه إلى الطرف الآخر . – هبت علينا فى ليلة من تلك الليالى ريح قوية من رياح السموم ، – ريح السموم هذه ، هى تلك الريح التهامية الساخنة التى تهب على الحرَّة : هذه الريح الخفيفة المقلقة لا يمكن أن توسع الصدر أو تنشط الدم ، ومن ثم تكون تلك الريح متبوعة بشىء من التوعك وآلام الرأس ، أو إن شئت فقل : الصداع . هذه الرياح الساخنة التى يقول الأعراب عنها إنها "موبوءة" تشيع وتستمر إلى منتصف فصل الصيف كل عام ؛ ولكن أحداً من أولئك البدو الذين تحدثت معهم حول موضوع ريح السموم ، لم يقل ، أو يذكر لى ، أن أحداً مات بسبب هذه الريح .– لقد اكتشفت أن ريح السموم تهب طوال الجزء الأكبر من العام على الصحراء العالية فيما بين القصيم وديرة مكة المدارية ، التى أمضيت فيها أحر فترات فصل الصيف ، حيث يكون الجو مشتعلا أثناء طلوع الشمس : لقد أصابنى الإعياء التام مرة أو مرتين عندما كنت فوق تلك الصحراء العالية . يقال ، إن الإبل ، قد تموت فوق تلك الصحراء العالية بسبب قلة التنفس ، أثناء هبوب تلك الريح الحارة أو الساخنة : التى تجلب الدمار لتلك الماشية الضعيفة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن تلك الريح الحارة تقضى أيضا على السواد الأعظم من الأعلاف البرية الضعيفة . وبعد اجتيازى وادى فاطمة بوقت قصير جداً ، سمعت فى جدة أنباء عن نفوق الكثير من إبل القرويين بسبب ريح السموم .

استيقظت أثناء الليل ، مذعورا من نومى ، على إثر شائعة راجت وانتشرت فى خيمة ظاهر Tháhir ، – كان الناس يجيئون ويروحون هنا وهناك ، فى ضوء النجوم : لم أتمكن من معرفة كنه ذلك الذى كان يدور فى المكان ، ولكن ما علىَّ مما يدور ، نظرا لأن مصيرى أصبح مرتبطا بمصير ظاهر ؛ يضاف إلى ذلك ، أن عودتى إلى النوم مرة ثانية ، لن تفسد على متعة حياتى الوحيدة . تناهت إلى مسمعى قبل طُلوع الصبح قافية غريبة عذبة كان يتغنى بها صوت واحدة من النساء (كانت تلك القافية شبيهة بالتغريد السعيد الذى يصدر عن طيهوج الخشب فى شمالى أوروبا) وما تزال إلى يومنا هذا عالقة بذاكرتى ولا تغيب عن بالى . ومع تضاؤل أضواء النجوم ، نظرت إلى

الأعلى ، فرأيت شخصا يقف عند رأسي ، واحد من البدو له شكل كشر ؛ كان ذلك الشخص يحمل بين ذراعيه كتلة كبيرة من البازلت ، ثم تظاهر بحركة من حركات التضليل ، عندما وجد عيناى مفتوحتان ، بعدم إلقاء تلك الكتلة وتركها تهوى على صدره . "صاح الرجل ، آه ! يا ملعون ، أنت أيها النصراني الذي تنام هنا ! لو أنني هويت بذلك الحجر عليك ، فسوف يقتلك وبذلك أكون قد قتلت عدوا من أعداء الله ." كنت أعرف أن ذلك الشخص الحاقد ، واحداً من الرجال الذين يتسمون بالخجل والتصرفات السلوكية الوحشية ، كما كنت أعلم أيضا أنه مكروه ولا يرحب به أحد في خيام تناول القهوة . هذا الشخص كان يود أن يصب عليّ جام غضبه على إثر الاتهام الديني الباطل الذي وجهه حوريش إليّ مؤخرا . وعندما أدرك أنني لا أوليه بالا. أو اهتماما ، ونظرا أيضا لأن حمله كان ثقيلا ، فقد قام بالتخلص من ذلك الحمل بطريقة متدرجة وذهب إلى حال سبيله وقد تكونت لديه عن النصارى فكرة أقل حقداً وتعصباً ؛ ولم يعد ذلك الشخص يضايقني بعد تلك المرة .

كانت قد وصلت من الحرة أثناء الليل أخبار من الشيخ طلج في وادي شلاّل :- تمكن كل من داريش ومعه حليمة Haleyma ، تلك المرأة الفجيرية التي تعيش معنا ، تمكنا عندما كانا راكبين في اتجاه بدو الفجير ، من مشاهدة غزو قوامه أكثر من مائة رجل ، يركبون نياقا ويقتادون معهم بعض الخيول ، وكانوا يمشون في سهل الحجر ! ولم يستطيعا تبين القبيلة التي ينتمي إليها ذلك الغزو ، - وربما كانوا من قبيلة بشر التي يخافها البدو ويخشونها . سألت ظاهراً ، "ألم يمر ذلك الغزو وينتهي ، فما الذي يخيفك الآن ؟" - "أخشى أن يتجه ذلك الغزو إلى وادي تربة طلبا السقيا والماء ." "قالت زوجته "نُهج" Nuhej بمعنى "سوف نهرب بلا مقدمات أو إنذار" في فترة العصر ، شأننا في ذلك شأن إبل الحمل والنقل - وكانا قد أرسلا في طلب إبل النقل تلك أثناء الليل - عندما تصل إلينا ." - "ماذا لو وجدوك متأخرا ؟"- ظاهر : "سوف نتسلق جانبي الوادي ونفتح النار عليهم ؛ المواهيب لا يبكون على أي شيء ، وهذا شيء مشهور عنهم ، عندما يكونون وجها لوجه مع أعدائهم." تأكد كل من داريش وحليمة ، بعد ذلك ، أن ذلك الغزو الكبير قد تجاوزهما وانتهى أمره ، ولذلك أعادوا إبل النقل الى المرعى في الحرّة مرة ثانية .

هذا هو اليوم الأخير من شهر يوليو ، ونحن نحس خلاله بالبراد والانتعاش ، مع ذلك كانت درجة الحرارة في الظل حوالى ٩٧ْ فهرنهيتية . وهنا بدأ البدو يقولون إن حمى هواء منتصف الصيف قد بدأت تنحسر ، ولكن ظاهراً ، بحكم كونه أعلم الجميع في مدرسة البدو قال : إن بعض النجوم الحارة سوف تظهر عند الأفق بالرغم من كل ذلك ؛ وقال أيضا : إن أشد فترات العام حرارة ستحل بعد شهر من الآن . سرى الذعر والاضطراب بين الناس في الصباح عندما سرت بينهم أخبار الغزو ، الأمر الذى منعهم وحال بينهم وبين مغادرة المنْزَل إلى منْزَلٍ آخر ؛ لو كانت مواشي هؤلاء البدو في الحرة في ذلك الوقت ، لكانوا قد فقدوا . في أسوأ الأحوال ، كل متاعهم ومقتنياتهم وثرواتهم أيضا . ويرجع الفضل في ذلك إلى أن الخيام ، السوداء المنصوبة بطريقة غير منتظمة في الأرض البركانية غير المستوية ، لا يستطيع أحد تمييزها أو التعرف عليها من بداية الوادى التى يبعد مسافة خمسة أميال عن هذا المكان . سألت ظاهر إن كانت تلك الجماعة المسلحة من بدو الفكارة ؟ ولكننا عرفنا فيما بعد أن تلك الجماعة المسلحة كانت من بدو الفجير، الذين لم يسبق لهم القيام بالغزو منذ زمن بعيد ؛ وها هم يقومون بالغزو ومعهم بعض أفراد قبيلة البشر ، وكانوا يشنون ذلك الغزو على بنى عطية . بلغنا بعد ذلك أن أولئك الغزاة استولوا على ثلاثين جملا . تساءلت : "ألم يأخذوا أكثر من ذلك ؟" وأجابني الشيوخ، "ولكن هذا عدد كبير من الإبل." كنت في فصل الخريف قد سمعت مطلق زعيمهم، يتفاخر بأن ذلك الغزو كان غزوا بمعنى الكلمة عندما قال: "إي ، والله إنه غزو بحق ." – لقد سطوا على هجرة (قرية صغيرة) من هجر أعدائهم في المساء ؛ وهنا هرب كل من كانوا في البيوت (الخيام) عندما شاهدوا الأعداء ، وهنا تقدم البشر وحدهم وراحوا يجوثون خلال الجاو Jau ، ليسرقوا الماشية من تهامة ؛ وفي فترة متأخرة من النهار ، وعندما وجدوا أطفال البلّي يرعون قطعان الغنم ، أجبروا هؤلاء الرعاة الصغار على أن يقولوا لهم أسماء ملاك الإبل والأغنام ، وهنا بدءوا يذبحون حيوانات من يشاءون من تلك الأسماء ، وذبحوا من تلك الأغنام "خمسين رأسا لتكون عشاء لهم"،– ولكن نظرا لأنهم كانوا هنا على مسافة بعيدة (تزيد على مائة ميل) من ديرتهم ، فإنهم لم يأخذوا معهم أى شيء من الماشية الصغيرة بطيئة الخطى .

شاهدنا بعد ذلك "جحافل" من الجراد ، كان ارتفاع هذه الأرض القاحلة يبدو كما لو كان فوق مستوى التربة ، أثناء هبوب ريح المساء ، وكان ذلك الارتفاع يبدأ من ناحيهة الغرب متجها صوب كل من قرية العلا el-Ally وخيبر : فى هذه المنطقة شاهدنا سحبا كثيفة من الجراد تهفهف بأجنحتها وهى تمر علينا دون أن تحدث أثرا كبيرا على ضوء الشمس الذى كان آخذا فى التضاؤل .

عندما وصلنا المسقى التالى اتجه نحوى صبى (واحد من أولئك الذين يرافقون الماشية عند عودتها من الجبل) كان يحمل رمحه معه ؛ ولكن الواقفين منعوه من الوصول إلىّ . كان ذلك الصبى واحداً من أبناء حوريش ، ولو تمكن لَثأر لوالده من التهمة التى افتراها والده على النصرانى ؛ - وهم هنا لا يعدون قتل الشخص الأعزل نوعا من الخيانة . جلس ذلك الصبى بعد ذلك فى خيمة ظاهر ، فقد كانوا أبناء عمه ، ولكنه كان أفضل من والده ؛ وبينما كنت أتحدث مع ذلك الصبى هدأت ثورته . وفى يوم آخر ، وعندما كنت أستحم خرج علىَّ من بين الأدغال شاب وقف يهددنى بحجر كبير كان يمسك به فى إحدى يديه ، بينما كان يمسك عكازه البدوى فى اليد الأخرى . وعندما عنفته بأنه وغد وقح ، تراجع ثانية ؛ وعندما عثرت عليه فى المساء عند المسقى سحبته أمام الناس جميعا ، - كان بوسع ذلك الشاب أن يضربنى عندئذ بسيفه القصير، ولكن الواقفين منعوه أو حالوا بينه وبين ذلك . كان ذلك واحد من أولاد الساقطة سالمة Salema ؛ كان هؤلاء الأولاد من الرعاة الغائبين ، ولم يسبق لى رؤية وجوههم من قبل .

جلس ظاهر يصلح طلقات لبندقيته . وهو يشترى الرصاص المطلوب لصناعة تلك الطلقات من سوق الحج ، أو من سوق المدينة المنورة . كانت الصبَّة المعدنية تتم فيما بين لوحين من الحجر ، ، قام هو بنفسه بتشكيلهما ؛ (وكما يقال) فإن أعمال الطرق هذه هى من أعمال العرب المترحلين ، يضاف إلى ذلك أن شكل تلك الأعمال كان بدائيا ، كما هو الحال بالنسبة لتلك الأعمال البدوية التى تقوم بها غالبية أفراد هذا الجنس السامى غير الأنيق . كان ظاهر يضع كل رشة من رشات الرصاص داخل حصية ، وفوق كل حصية كان يصب عليها غشاءً سميكًا من الرصاص . قلت له : "طلقاتك خفيفة جداً ، وليست متمركزة تمركزا جيداً كما إنها ليست مستديرة ، فكيف يمكن لمثل

هذه الطلقات أن تطير بحق ؟" – "ولكن الرصاص عزيز في هذا البلد ." كان ظاهر يرى أنه بوسعه عن طريق هذه الكرات البدائية الرمي على هدف طوله ذراع واحد ، ومن مسافة مائتي خطوة! ولكنه اعترف بأن ذلك لم يكن يوفر عليه نقوده، إذا لم يكن الغزال أو العنزة البرية التي يصطادها تساوى ريالين أو ثلاثة ريالات . هذا الظاهر الذى كان يتمتع بذهن حر وصريح ، وهو ما يميز الرجل القوى صاحب الفهم الجيد ، لم يتشكك فيّ عندما كان يجيب إجابة أمينة على تساؤلاتي التي كنت أطرحها عليه حول بلاده (على قدر معرفتي بتلك البلاد في ذلك الوقت) . كنت في هذه الأحاديث وفي الأحاديث الأخرى ، أمضي ساعات طوال من ساعات أيام الصيف شديدة القيظ ، ومع ذلك كان كلام ظاهر يتجه دوما صوب الدين ، وإلى الانفعال الطائفي عند أولئك الساميين ؛ كانت رؤية روح ذلك الرجل شديدة الوضوح ؛ وعندما كنت أتجرأ وأسأله ، "أليست عبادة الناس للمنهل تجديفًا في حق الرب ، بل وأثر من آثار الخرافات الوثنية في ديار بدوكم الرحل ؟" وبعد أن تأمل ظاهر رأى الملائكة هذا ، لمدة لحظة واحدة ، ذلك الرأى الذى تربى هو نفسه عليه ، رد على سؤالي وهو يحس بالحرج والضيق قائلا : "لا ، والله ، هذه العبادة ليست عبادة طيبة ، إنها شكل من أشكال الخرافات ." كان ظاهر ، عندما يقوم الآخرون لأداء الصلاة ، تعتريه حاله من الحالات النفسية غير الصريحة أو المباشرة ؛ وعندما كان بعض الأشقياء ، يكابرون ويتحدون ذلك الرجل المحترم كان يقول لهم كلمة سريعة ، "اذهبوا للصلاة ! (ويتثاءب بعد ذلك) " والله Wellah أنا ana عجزت ajizt " بمعنى "لقد سئمت ما أنا فيه ، أنا ، يا من أدعو إلى هذه الصلاة" ، – آدم طالت أيام انتظاره اعتمادًا على عناية إلهية حانية من فوقه ، وما يزال فارغا !

بعض البدو كانوا يُسلُّون أنفسهم بأن يسألوني رأيي في هذا وذاك من الأشخاص:– وكما هو الحال في كل الصداقات الصغيرة المألوفة ، تشيع بين هؤلاء البدو بعض شرارات الحقد التي تنبعث من القلوب. وأنا كنت، في بعض الأحيان أحاول الرد على تساؤلاتهم بطريقة تضمن لي الأمن والسلامة ؛ فقد سألني سليم Selim ولد ظاهر الكبير : "ما رأيك في مشوات Mishwat ؟" – "أليس هو مكسور الرأس إلى حد ما؟"– وما إلى ذلك من الكلمات ، التي تحظى في نفوسهم بالقبول ، ويستقبلونها بالضحك من القلب وتثير لديهم الدهشة والعجب .

هذا هو سليم قد عاد إلينا ثانية قادمًا من وادى العروش ، الذى ذهب إليه طلبا للغزل والتودد ، تمهيدا للزواج . كانت أم سليم قد أبلغتنى أنهم لن يدفعوا مهرا ، نظرا لأن الكنَّة ، أو إن شئت فقل : زوجة الابن تعد واحدة من أقاربهم : هذا يعنى أن والد العريس سوف يقدم فى زواج ولده ناقتين وعددا من رءوس الماشية الصغيرة . معروف أن غالبية البدو لا تسمح دخولهم الهزيلة بدفع أية مبالغ لزوجاتهم ، هذا يعنى أن البدو نادرا ما يدفعون مهرًا أو صداقا للإناث . يسود بين هؤلاء البدو نوع من أنواع الخرافات ، مفاده أن من يستطيع الدفع بالإبل ، سوف يعفى نفسه فى كثير من الأحيان ، من كثير من الريالات . والشخص عندما يُبرئ ساحته من ديَّة من الديات – التى تقدر بأربعين ناقة عن القتيل – فى الوقت الذى لا تزيد فيه ثروته الحيوانية كلها عن أربع أو خمسة من الإبل ، يشعر بالسعادة لأنه سيكون له أصدقاء كثيرين سيقومون بالتوسط له . من ذلك مثلا أن بندقيته التى قد لا تساوى ثلاثة أو أربعة ريالات ، سوف يدفعون فيها ثلاثين ريالا ، بدلا من الجمل ، كما يشترون وعاء طبخه بخمسة عشر ريالا ، كما يشترون أيضا سيفه الذى لا يصل ثمنه إلى ثلاثة دولارات ، بما يساوى عشرة دولارات . كل صديق من أصدقاء هذا الرجل سيقف إلى جانب المطلوب منه دفع الدِّية كيما يسدد له شيئا نظير الصداقة ، ومن أجل عيون المعرفة الطيبة "أيها المرتاد! أنت يا عبد الله ، تنازل له عن ناقة، أقول تنازل له عن هذه الناقة ، حبا منك لى ." ولكن "صاحب الدية" قد يزيد الأمر غرابة ، ويقف منهم موقف التاجر ، لأن مثل هذا الموقف يكون لمصلحته ولفائدته .– وهنا تسقط هذه الجريمة ، ويقوم كثير من الأشخاص غير المبالين بإعطاء أصواتهم لصالح القبلى المخطئ ، حتى يمكن استعادة السلام والأمن عن طريق المنطق والعقل : وإذا ما تبقى من الدية شىء ، يتعهد أصدقاء المخطئ بدفعه على شكل دفعات محددة .

أحس ظاهر بشىء من الصداع النصفى ، وطلب من ولده سليم Selim أن يستنزف من عنقه قليلا من الدم . وهنا تقدم ذلك الشاب ، الذى ورث عن والده مهارة يدى الصياد ، ومعه قرن من قرون البقر ، مثقوف من طرفه ، وبعد أن أحدث بسكينه جرحا فى عنق والده ، راح يمص الجلد ، ثم أغلق فتحة الجرح بقطعة من الجلد كان يضعها فوق لسانه بالفعل . عندئذ قام ظاهر الذى أحدث له ولده حجامة فى كل من

الرأس والعنق ، والظهر ، وبعد ان استشعر شيئًا من التخفف ، بتغطية الدم المستنزف بشيء من التراب ، وهنا دخل علينا رجل يسأل : "ما هذه الكومة ؟" وأجابه ظاهر : "إنه دم قمت أنا بدفنه ." معروف أن كل منازل البدو الكبيرة فيها الكثير من أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعالجون بالفصد ، وبالكي ، ويخلعون الأسنان ، فضلا عن الحلاقين . وفي أحيان كثيرة تنتج قرح جلدية عن عمليات الكي ؛ وقد أطلعني بعض مرضى الدم على قرح كثيرة من هذا القبيل بعد أن مضت عليها سنوات طوال . ونرى بين هؤلاء البدو أيضا بدويات شابات لم يتورعن عن وسم وجوههن تخفيفا للصداع وعلاجا له .

عاد أبو سنون إلينا بسلامة الله ، مرة ثانية :- وبذلك يكون قد قطع ثلاث رحلات صيفية فيما بين تبوك وقرية الوجه . بقي أبو سنون صامتا طوال سبعة أيام ؛ وبعد تلك الأيام السبعة ، وبعد أن أحس بكثافة هواء الخيمة وثقله علينا ، كان على استعداد للمشاركة في الغزو ، الذي سوف يتولى حامد قيادته ، خلال أيام قلائل . "لكن لماذا تفني حياتك بهذه الطريقة ؟ هل محمد بدوى حتى يذهب لسرقة الماشية ؟" ثم رفع رأسه بعد ذلك إلى أعلا وقال "طمع Toma يا خليل ، قالها وهو مهموم ، إنه الطمع Tomal ، إنها الرغبة في الاستحواذ ، والاستحواذ على المزيد ، وهذا هو حال هذه الدنيا ؛ وأنا أعيش مع البدو، وأفعل مثلما يفعل البدو، يضاف إلى ذلك أنى قد أكسب جملا أيضا ."- عقدت العزم على الانضمام إلى أول جماعة مسافرة ، قاصدا الأعراب في وادي شلال Shellal ، قبل أن أموت جوعا هنا في هذا المكان ، نظرا لأن تلك المؤن التي جلبتها من ولاد على كنت قد أعطيتها لحمدى Hamdy . وأنا إذا ما وصلت إلى ذلك الوادي المنخفض ، سأكون على بعد مسافة قريبة جدًا من الواحة . وبناء على ذلك ، يمكن لمحمد الذي سوف يتجه إلى البلدة في غضون يوم أو يومين أن يتركني عند بداية ذلك الوادي .

وفي الصباح ، وعندما كانت الماشية عائدة من المسقى ، أخذنا إبلنا وركبناها . وودعني ظاهر وداعًا حانيًا متمنيًا لي "السلامة" ؛ ومضينا في طريقنا قدمًا ، وسرعان ما ضاع من ناظرى منظر البيارة الخضراء في ذلك الوادي القحل . رافق سلامي Salamy أبو سنون ؛ وسلامي هذا شقيق لظاهر ، ولكنه مختلف عنه تمام الاختلاف ، كما رافقهما أيضا شخص يدعى هادى الطُّوَالي، الذى كان متزوجا من شقيقة سيدان.

كان ذلك اليوم يوافق الأول من شهر شعبان . كان ينتظرنا على الطريق صبى ، طلب من واحد من جماعتنا أن يركبه معه ، إذ كان هو الآخر مسافرا إلى وادى الشلاَّل ؛ كان ذلك الصبى واحداً من أبناء حمدى من زوجها البدوى السابق . مثل هذا الطلب لا يرفضه القبليون ، فقد طلب ذلك الصبى من سلامى أن يُركبه معه ، فرد عليه قائلا: "لا !" ولكنه سرعان ما ناداه على الفور قائلا : "هيا ، تعال واركب معى ." وبالقرب من بداية الوادى ، تركنا طريقًا من طرق الأغنام ، يقع على حافة العويرض ، فى منطقة يصعب على الإبل السير فيها . كانت إبلهم كلها متخففة من أحمالها : وبينما كنا نسير على أقدامنا كنت أتطلع كل لحظة إلى ناقتى العجوز المحمَّلة ، وأتخيل أنها سوف تنزلق وتهوى ساقطة من ذلك الجرف -- ربما كان فى ذلك شىء من الحقد من جانب سلامى Salamy ؛ ذلك الرفيق المزوِّر ، الذى اقتادنا ، وعلى غير رغبة الجميع ، إلى النزول إلى ذلك الطريق الوعر الخطير .

نزلنا بعد ذلك بنصف ساعة ، إلى أرض الوادى المنخفضة ؛ التى عثرت فيها على عشب طويل يشبه عشب الريحان ، ولكنى لم أر ذلك العشب من قبل . ثم تجاوزنا بعد ذلك المزيد من السلاسل الجبلية ، ومن بعدها الوادى العظيم التالى لها ، لنصل ونصبح على مقربة من وادى الشلاَّل. كنت راكبا ناقتى فى المقدمة مع سلامى -- "قال سلامى ، أعرنى وعاءك حتى أشرب قليلا من الماء ، وضع لى فى الوعاء شيئا من الدخان (التبغ)." -- "الوعاء والدخان فى قاع الخرج ، وأنا مرهق تماما ؛ ولكنى سوف أقوم بتبريك ناقتى ، وبعدها تعال أنت وخذهما بنفسك ." استقبل ذلك الرجل ردى هذا بابتسامة تنم عن عدم الرضا ، وبكلام خبيث ، فى الوقت الذى كنا فيه على بعد خطوات قليلة عن المكان الذى سوف نفترق عنده إلى الأبد .

وصلنا بعد ذلك إلى شق فى الجبل ، كان مفتوحا على بداية وادى الشلال ، ونزل الصبى من خلف سلامى ، الذى أصدر تعليماته للصبى بألا يدل النصرانى على الطريق الموصِّل للأعراب ، وطلب منه إسراع الخطى ليسبق ناقتى بطيئة الخطى حاولت ناقتى اللحاق ببقية الإبل ، ولكنى عندما بركْتها ربطت ركبتيها عندما كانت بقية الإبل على مرمى بصرى . كان الممر الذى دخل منه الصبى يوصل إلى وادى بركانى شبيه بالسهل ، لم ألاحظ على صخوره الصلدة سوداء اللون أى أثر من آثار مواشى البدو ؛

ونظرا لأن أرض ذلك الوادى غير المستوية ، حجبت عنى رؤية ذلك الصبى ، فقد اختفى عنى تماما . ومضيت قدما فى اتجاه ارتفاع الوادى ، وهنا رأيت تحت قدماى دغلا تتخلله النباتات الشوكية . وعندما ركبت ناقتى ثانية أبصرت الصبى أمامى ، كما شاهدت الوادى الكبير منقسما من الأمام . أعطيت الخويرة (الناقة العجوز) رأسها ، بمعنى "أعطيتها حرية الحركة ؛ وبعد أن نظرت الناقة حولها ظلت واقفة ، ثم بدأت بعد ذلك تتحرك وتمشى بطريقة آمنة ومطمئنة ، هيئ لى معها أن الناقة تعرف طريقها . هذه الناقة لابد أن تكون قد جرى سرقتها فى غزو من الغزوات التى وقعت لقبيلة حرب منذ سنين بعيدة . التقيت بشخص ، أو إن شئت فقل : بصاحب تلك الناقة ، وهو من قبيلة بشر ، فى بلدة حائل ، الذى أبلغنى أن تلك الناقة كانت تعرف الديرة كلها ، إلى حد أنها فى بعض الغزوات كانت "هى التى تقوم بعمل الدليل" : كما أخبرنى أيضا أن تلك الناقة كانت تعرف أيضا المكان الذى كنا نتجول فيه فى الحرة ، وتعرف أيضا اتساع ذلك المكان من ناحيه نجد ؛ معرفة الأرض هذه كانت متيسرة لتلك الناقة فى كل مكان . وعندما رحت أعدو بالناقة تمكنت من تجاوز ذلك الصبى التعيس ، الذى كان اسمه كريبش Kreybîsh، الذى كان يتدارى خوفا منى ويغطى وجهه خوفا منى أيضا. ولما كنت أتوجه بناقتى صوب الذراع الرئيسية من الوادى المنقسم ، الذى بدأت تظهر فيه الكثير من أشجار الطلح ، بدأت الخويرة (الناقة العجوز) تبطئ الخطى ؛ شاهدت بعد ذلك بعضا من الرجوم ، كما شاهدت أيضا بعض الجدران المهدّمة فى مستوطنة قديمة ميتة . تجاوزت بعض الصخور لأرى بعدها أول خيمة من خيام البدو . ولوح لى الجالسون داخل هذه الخيمة بأنى قد أجد الراحة عندهم ، كما أن هذه الخيمة كان مشوات Mishwat يقيم فيها معهم ، ومشوات هذا هو شقيق المرأة حمدى ؛ وهنا عقدت العزم على نصب خيمتى فى المنزل الذى فيه مشوات .

غيرت الأشجار والأحجار النظام القديم الذى كانت عليه هجرة hamlet البدو الرحل . عثرت على بيت مشوات أو إن شئت فقل : منزله ، من قطعة من القماش الذى نسجته زوجته ، وكانت قطعة القماش تلك ، مفرودة ، مثلما كان الحال فى وادى قربة ، على الأرض أمام الخيمة ، التى كانت مغلقة بسبب حرارة الأرض الشديدة . قال صوت حلو انبعث من داخل الخيمة : "مرحبا بك" ؛ كان ذلك صوت زوجة مشوات ، التى كانت

تنظر من تحت حافة الخيمة ، وطلبت مني النزول عن راحلتي والدخول إلى الخيمة اتقاء للشمس . وهنا نهضت زوجة مشوات ، وخرجت من الخيمة لتحضر لي سطلا من الماء ، "لأني ، على حد قولها ، لابد أن أكون مشرفا على الموت بسبب العطش :" كانت حرارة الأرض الحارقة قد شوت قدماى وأنا أنزل أشيائى القليلة من فوق ناقتي . وإذا كان الأعراب ، بسبب تشددهم وتطرفهم ، لم يستقبلوني استقبالا طيبا ، فقد رحبت كلابهم بمقدمي مرة ثانية : ها هنا من بين هذه الكلاب ذلك الكلب من كلاب حمدى الذى ضل طريقه وتبع الأعراب قادما معهم من وادى تربة ؛ هذا الكلب اسمه رشدان ، وقد جرى نحوى فرِحًا ، متعرفا عليَّ إلى أبعد حد ممكن . عقل الطبيعة فى ذلك الحيوان المسكين يميز كثيرا عن أصحابه الأقل منه عقلا ، إلى حد أن هذا الحيوان لا يعرف أى فرق من الفروق بين النصراني والمسلم .

ها هما مشوات وعبد الله قادمان من خيمة القهوة بعد أن شاهدانى وأنا أصل إلى منزلهما . وبعد أن تحسس مشوات ثقل صندوق الأدوية الذي كان برفقتي ، "قال ، ها هى حزم خليل من الريالات !" وفتحت الصندوق أمامهما ، وكان بداخله بعض العقاقير الثقيلة التى من قبيل سكر الرصاص ، وقلت لهما ، إنه لو عثر على نقود فى الصندوق ، فمن حقه الاحتفاظ بها لنفسه . وهنا تراجع مشوات إلى الوراء ، تحاشيا لتلطيخ سمعة المضيف وشرفه -- "لكن لماذا جئت إلى هنا يا خليل؟" اقتادنى مشوات إلى ظل الخيمة، حيث قامت زوجته بخلط سطل من المريسى للضيف الذى حل عليهم ؛ ثم انصرفت بعد ذلك لتطبخ لي وجبة من الأرز فى الماء . كنت لم أذق الطعام منذ أيام كثيرة ؛ إضافة إلى أن ذلك الوقت كان من أيام الجوع عند البدو .

بعد أن انتهيت من زيارة المجلس ، الذى استقبلنى الشيوخ فيه استقبالا وديا من جديد ، قصدت بعد ذلك إلى سيدان . "قلت : ناد حوريش ، وأنه ذلك الشجار ، لأنى أنا لست المخطئ يا صديقى ." جاء حوريش ، الذى كانت خيمته قريبة من خيمة أخيه ، على إثر سماع صوت أخيه ، وعندما وجدنى فى الخيمة انتحى لنفسه جانبا . "تعال ، يا حوريش ، ورد علي ، "بالله عليك Bullah أنا ana خالفت khalaft عليك aleyk" : بمعنى "هل أسأت إليك ، ونحن على الطريق قادمين من قرية العلا ؟"" وتخوفا من أن يرد البدوى ردًا مخالفا ، بعد أن استحلفته بالله ، أقسم أن يمتنع عن الكلام . ثم تعثر

لسان حوريش وتتعتع قليلا بعد ذلك ثم قال : "انا لا أستطيع القول إنك أسأت إلى . سيدان : "بس ! Bess أى ، كفى ." - "مد لى يدك إذن ، بالرغم من أنك خدعتنى ." سيدان: "إى، يا حوريش، مد يدك لخليل، وينتهى الأمر ! ويصبح كل من خليل وحوريش أصدقاء من جديد ؛ أنت ، يا خليل ، مخلص للرفيق ، ولكن نحن أيضا مخلصين ." - "المعروف أن البدو هم أفضل الناس فى رفقة الطريق ." - "لا ، ليسوا كلهم كذلك ، كما أن هناك قلة قليلة أخرى ، يمكن للغريب أن يثق بها ويركن إليها ؛ وليس هناك قبيلة واحدة من بين القبائل المحيطة بنا ، لم تتلطخ سمعتها أو اسمها بارتكاب الجرائم التى من هذا القبيل ؛ ولكن ذلك لم ينسحب مطلقا على الموهاهيب ، أى لم يثبت أن أحداً من الموهاهيب خان رفيقه أو خدعه ." - "ومع ذلك ، فقد لاقيت اليوم شيئًا من هذا القبيل من جماعة مواهيبيه ." (لم يعرف الشيوخ أننى جئت إليهم لوحدى .) - "آه ، أقول لكم إن سلامى غشاش دومًا ." قال آخر -- ذلك السرحانى الشاب الذى كان عضوا فى جماعتى السابقة أثناء سفرنا إلى قرية العلا ، والذى يطلقون عليه ، بسبب سوالفه الطويلة ، اسم "أبا القرون" - "حسن ، كان المفروض أن لا تعود إلى ديرتك بصحبة أخى مع أبى Abu قرون Krûn ، لأن أبا قرون هذا نجس néjis بمعنى أن "روحه ليست من الأرواح العامرة بالدين" ، والله يعلم أن أبا قرون هذا كان قد خطط لقتلك." هذا السلامى نفسه، عندما كان يزور وادى الشلال مؤخرا، كنت قد حمّلته حزمة من التتون (التبغ) على سبيل الهدية منى إلى الشيخ طلّج ، ولكن الشيخ لم يستلم تلك الحزمة مطلقا . "قال العجوز ، يا لغرابة هذا الأمر ، والغريب أيضا أن ذلك الكلب كان هنا ! لقد "شرب" drunk تلك الحزمة لوحده ، ولكن متى كان الخير فى ذلك السلامى؟"

حكى لى عبد الله، بطريقة توحى بالحقد أنه كان طوال تلك الأيام، فى زيارة لوادى جيدة Jaida ، أحد وديان الحريرى ، الذى عثر فيه على غزو كبير قامت به قبيلة البلِّى ؛ وأن ذلك الغزو كان قوامه حوالى ثلاثمائة وثمانين خيالاً - معروف أن الأعراب فى مثل هذه الأمور يضاعفون الرقم عشر مرات - وأن ذلك الغزو عندما كان عائدا من طريق داخلى ، عَرج على السُّعادين Saadîn ، الذين هم بعض من قبيلة حرب على طريق الحج بعد المدينة (المنورة) مباشرة . عبدالله : "وبينما كنت أتكلم معهم عن النصرانى

الجائل ، الذي كان يُدوِّن البلاد ، قالوا :" لو جاء الينا ، فوالله ، سوف نكرمه !" - "وردت عليه قائلا : إنني لم التقي أحداً من البدو أكرم أو أصدق من البلّي .

كانت الماشية ترعى فوق الحرة حيث كانت توجد بعض الأدغال الصالحة للرعي ، واقتدت ناقتي إلى مسافة ميل أو ميلين في اتجاه أعالي الوادي . وبعد أن ربطت رجلي الناقة الأماميتين بحبل ، أطلقتها لحال سبيلها مثلما يفعل البدو ، وبعد أن رحت استظل بضفة السيل المجوّفة ، وجدتني أروح في ثبات عميق . وعندما صحوت من النوم كان وقت العصر قد أوشك على الدخول ، ووجدت شيئًا من المشقة في العثور على ناقتي من جديد ، التي كان لونها يطابق لون أرض هذا الوادي البري ؛ وركبت ناقتي وعدت بها إلى المنْزل . ولكن الشيوخ ضحكوا عندما كانوا جالسين في المجلس ، وشاهدوا الغريب يفد عليهم راكبا ناقته بطريقة الرعاة : "سمعتهم يقولون : انظروا ! والله ، لقد تحول خليل الى بدوي بمعنى الكلمة ."

البدو يخيمون في هذه المنطقة حول حفرة من حفر الماء ، تشبه البركة ، والتي يأتي البدو على كل ماءه في الصباح عندما يسقون منها ماشيتهم ، ولكن منسوب الماء يرتفع في هذه الحفرة مرة ثانية ، قبيل دخول وقت العصر ؛ يقول البدو ، إن هذا الماء "من الشتاء" ، أي من الأمطار التي تسقط في فصل (الخريف) ثم تغوص في أرض السيل ، نظرا لعدم وجود نبع مائي تحت هذه الأرض . والبدو عندما يغيبون عن تلك الحفرة تتحول إلى مسقى تشرب منه الطيور والمخلوقات البرية التي تفد إليها قادمة من جبال الصحراء ، كما شاهدت بالقرب من تلك الحفرة مكامن للصيادين ، بناها أصحابها من أحجار غشيمة جرى رصها بطريقة غير منظمة ، كما جرى عرشها أيضا بأفرع من أخشاب أشجار السنط. وذات صباح وبعد أن ذهب الشيوخ لقضاء أمر ما ، لم يتبق معي في القهوة سوى حامد Hamed ، هو وشخص أخر سرحاني ، وكانت كل أفكارهما الغبية تنصب على عمليات السلطان الحربية ، وهنا سألني ولد الشيخ طلُّج ، "ما هي تلك الحروب التي تدور حاليا في العالم ، وكيف ضعفت قوة الإسلام ؟ إلى حد أن النصارى تجرءوا في هذه الأيام على شن الحرب على سلطان المسلمين !" أوضحت لهما وأنا ألف صندوق فناجيل القهوة ، أن "الطريق أو المسار في هذه الدنيا (العالم) يشبه دوران العجلة . الجزء العلوي الحالي منها كان قبل ذلك هو الجزء السفلي ، وأن

ذلك الذى عـلا مـؤخـرا ، بدأ يـهـبط الآن ." الكلام الذى يكون من هـذا القـبـيل ، وبهـذه الصـيـاغـة تسـتـقـبله آذان العـرب وعـيـونهم دومـا بقـبـول فـيـه الكثـيـر من براءة الأطفـال وسذاجتهم .

دخل علينا بعد ذلك شخص غريب ، هو شاعر بنى عطية ، ذلك الرجل الذى بلغ من الفقر والمسكنة حداً جعله لا يضع على جسده سوى القميص فقط ؛ هذا الشاعر كان مريضا بالحمى فى الآونة الأخيرة ، وكان ضيفا فى فصل الصيف على المواهيب. هذا المسكين الذى وفد علينا لا يحتقره البدو أو يزدرونه : إذ مازالوا يفسحون له مكانا حول وجار القهوة ، ويجلسونه بجوار الشيوخ . وأفضلهم لا يرتدى أفضل مما يرتديه ذلك الشاعر ، يضاف إلى ذلك أن ذلك الشاعر يمكن أن يكون خدوما لأولئك الشيوخ فى تلك الأمور الصغيرة التى يستطيع القيام بها . كان على Aly ، من مؤلفى الأشعار الفاحشة أو المكشوفة ؛ التى يتذوقها الأعراب ويستحسنونها ، – ومن ذا الذى لا يقبل المرح قبولا حسنا فى هذه الدنيا ؟ الجميع يسعدون عندما ينسون أنفسهم ومعها الساعات الطوال . كان على Aly مؤلفا جيدا ويبلى بلاء حسنا ؛ ولقد سمعت الشيخ طلّج العجوز يردد أبيات ذلك الشاعر وهو يضحك ويبتسم ملئ شدقيه ، بل إن الصحبة كلها كانت سعيدة بذلك الشعر ؛ كما كانت ربات بيوت الشيوخ يستجبن ويتجاوبن مع تلك الأشعار وهن يضحكن ، ويتهامسن بكلمات مرحة من داخل خيامهن ، أو إن شئت فقل : بيوتهن .

هذا المسكين ، شاعر المرح والسرور ، الذى عضه الجوع بنابه ، جلس مهموما ، فى الآونة الأخيرة ، ولم يكن أمامه شىء يأكله سوى صراصير الليل ؛ قال لنا ، إنه لم ينزل جوفه طوال هذا الأسبوع ، سوى دخان قليل من التبغ وشىء قليل من الماء . وعندما رأى الشيوخ قادمين ، "وا ، أسفاه ! أهكذا يتعامل المواهيب مع ضيوفهم ؟ – أنا أموت ، وسوف تدفنونى هنا فى وادى الشلاّل Shellal ؛ وأنا أقسم بالله ، أننى ليس فىّ من القوة ما يجعلنى أرحل عن هذا المكان ، إلا فى صباح الغد ، – وقد سبق لى أن رحلت من قبل ، ولكنى كنت أخشى وأخاف أن ألاقى أحداً من الفكارة ." جلس الأعراب صامتين بعد أن استمعوا إلى شكوى ذلك الرجل الموجعة والمؤلمة : ثم تكلم الشيخ طلّج بعد ذلك بنغمة من الود والحنان ، "يا على ، نحن نأسف لما حدث لك ، ولكن

ألا ترى أنت بنفسك ذلك الضيق الذى نحن فيه ." - لم تخرج من فم ذلك الشيخ كلمة خبيثة ، لأن ذلك يتعارض مع إكرام وتوقير ضيوف الله .- البدو يترافعون عن بعضهم البعض عن طيب خاطر ، من هنا فإن الواحد منهم قد يتباهى بالآخر ، من باب المجاملة ، عندما يقول (تلك الجملة الإنجيلية) "إنه أفضل منى ." من هنا فقد امتدح حامد شاعره أمامى بهذه الطريقة ، حتى أرق عليه وأعطيه دواء للحمى . "قال حامد ، هذا هو على ، صحيح أنه فقير ، ولكنه رجل له رفقة مهمة مع الشيخ ، فضلا عن أن له علاقة لها وزنها أيضا مع باشا الحج ." - "يا على ، أنا أعرف أن الباشا يتمنى أن يرى كل أفراد قبيلتك وقد أعدموا جميعا ." ابتسم على وأخذ الأمر على محمل حسن ، سوف يحسب الناس البدو أبناء للشجعان ، بالرغم من أن ذلك يمكن أن يكون على حساب شيء من أمانتهم . "سمعت فى موسم الحج أيضا أن بعضكم متوحشين وغير متحضرين : خبرنى ، ما نوع بدو بنى عطية ، الذين يمشون عراة ، ولا يعرفون الخبز ، ويقولون ، إنه ليس هناك عالم آخر غير ذلك الذى يعيشون فيه ؟ - ويعتقدون أن المخلوقات الخرافية الأسطورية تتملك ليل الشتاء !" وهنا رد علىّ على الرجل رداً لطيفا: "إى ، بالله ، إنهم معروفون لنا ، ولكننا يصعب علينا تعرفهم : وهم مع انتهاء النهار يحفرون لأنفسهم فى الرمل حفرا تصل إلى مستوى أعناقهم ، وينامون فيها وهم يشعرون بالدفئ تماما ."

حكى لى ذلك الشاعر الفكاهى أسطورة "الجرية" Geryeh (القرية) التى هى عبارة عن رحلة إلى الشمال من تبوك : فى هذه المنطقة لا يوجد سوى أطلال قرية مسوَّرة ، تقع وسط أكوام مثل أكوام الخريبة . هناك خرافة شائعة تقول إن كنوزا ثمينة مدفونة فى تلك المنطقة ، وأن النقود تتدحرج ، فى كل يوم جمعة ، خارجة من الأرض ، وتروح تجرى من تلقاء نفسها فى السهل الصحراوى لحين غروب الشمس . كان البدو يطلبون منى بفضول كبير ، "هل يمكن إسكات ذلك أو تهدئته ؟" معروف أن البدو تتضح أمامهم الأمور فى حدود آفاقهم الطبيعية القصيرة ، كما أنهم يميلون إلى عدم المصداقية أو الخرافة فيما يتعلق بالأشياء الدنيوية . أضاف رجل آخر من بنى عطية "توجد بجوار بنى عطية صخرة من صخور الحجر الرملى (لم يسبق له زيارة تلك الصخرة) ، وفى تلك الصخرة توجد بوابة ، وخلف تلك البوابة ممر محفور فى الصخرة ، التى توجد

غرف في جدرانها ، ووالله ، هذه الغرف تشبه الدكاكين التي في السوق ، كما يوجد كنز عظيم خلف باب لا ينفتح ، (حيث يوجد السحر) ويحرسه رجل أسود شاهرا سيفه .- قال البدوي ، تعال يا أنت ، واستخرج تلك الكنوز ، وستكون ملكا لك ، وبالتالي ستكون قد كشفت لنا المياه المخبأة !"

نهض طلّج واقفا في مكانه وأشار إلي بالخروج معه : اقتادني ذلك الشيخ العجوز إلى خيمته ، ثم اصطحبني إلى القسم المغلق الخاص بربة بيته الشابة الجميلة ، شقيقة ظاهر ، التي يعترف الجميع بجمالها بين النساء . كانت تلك الزوجة جالسة ترضع طفلها ، وكانت منحنية على كوعيها ، على سجادة تركية بهيجة الألوان . نظرت الزوجة الشابة بعينها إلى الأعلى : ومع هذه الحركة الرشيقة أحضرت سطلا مملوءا بالتمر ، وبصوت المرأة الحاني راحت تقنعني بلطف أن آكل. خرج طلّج إلى غدران سقاية الإبل، وجلب للضيف ماء يشربه ؛ وبناء على ذلك ، تركني ذلك الشيخ العجوز مع شقيقة ظاهر لتناول الغداء ، وذهب هو إلى المجلس . هذا الكرم الواضح من جانب شيخ كريم كان بمثابة إشارة أو علامة لي على مدى تدني الأسر الكبيرة . كان من النادر أن تعاني خيمة طلّج من الفقر أو الحاجة أو العوز ؛ وطلّج بوصفه شيخا من شيوخ الأعراب ، كان يحصل أيضا على ما يسمى بالخوة (*) Khuwa ، بواقع حمولة جملين من التمر ، من بلدة تبوك ، كما كان يحصل على حمولة جملين أخرين من قرية تيماء . - كان بعض هؤلاء القبليين يمتلكون بعضا من النخيل في تيماء ، ولكن عندما نشب العداء بينهم وبين ابن الرشيد ، لم يستطيعوا الذهاب إلى تيماء ؛ وبالرغم من ذلك ، بقيت حقوق هؤلاء البدو قائمة دون مساس بها . قالت مضيفتي في لطف ، "إنها بلغها أنني نصبت خيمتي بالقرب من خيمة والديها ؛ وعن معاملتهما لي ، هل كانت على ما يرام ؟ - ولكن ، يا خليل ! كل ، من أجلي ! لماذا لا تأكل ؟ ألا تستطيع الأكل ؟"

كان حوريش قد أخذ على عاتقه القيام بدور القهوجي. "كيف حالك يا حوريش؟" - "على ما يرام ؛ وكيف العيون Ayun بلا bila سنون Sinûn ؟" قال حوريش هذه العبارة

(*) الخوة : تعني في هذا السياق الإتاوة التي كان يدفعها الحضر لشيوخ البادية تحاشيًا للاعتداء عليهم من القبائل . (المراجع)

حقدا على ناقتي العجوز : ولكن هذا الاستلطاف لم يرسم أية ابتسامة على وجه أي من الحاضرين . – لماذا لم تخبره زوجته أن فكيه كانا على نحو يجعله يبدو كما لو كان جملا ؟ والبدو في كثير من الأحيان تكون لهم أسنان تشبه أسنان الخيول ، وبيضاء كما لو كانت مطلية باللبن الحامض ، أو إن شئت فقل : لبن الخض : هناك أيضا كثير من الشبان الذين يرعون الماشية يكشفون بصورة مستمرة عن أسنانهم وهي مسنونة مثل أسنان الكلاب عندما تكشر عن أنيابها . ولما كان هؤلاء الشبان يمارسون مهنة الرعي منذ طفولتهم ، ويتحولون إلى رفاق للصخور والأدغال والماشية في الصحراء ، فهم يكبرون وهم لا يعرفون أي شيء عن التفاهم الإنساني . وفي ضوء استمرار ضرب الشمس لجباه هؤلاء الشبان طول اليوم ، فإن ذلك يؤدي إلى بروز جباههم إلى الأمام ، وترتفع شفاههم إلى الأعلى ، وتبقى على ذلك الوضع بسبب تيبس العضلات ؛ والقلب الرقيق والذكاء الفطري ، منعدمان عند هؤلاء الشبان لافتقارهم إلى الصحبة الإنسانية في ذلك النوع من التخلف العقلي .– وأنا هنا أذكر أن شابا نصرانيا سوريا قال لي إنه عثر في الكتاب المقدس على قول مأثور مخيف ليس في صالح البدو ؛ ثم تناول إنجيله (التبشيري)، وقلب منه صفحة واحدة وقرأ "جراد تقدم أو جاء من حفرة سحيقة، عليه شعر يشبه شعر خصل النساء، وله أسنان مثل أسنان الأسود!" هذا وقد سبق لي أن سمعت الناس وهم يشبهون البدو المساكين وهم يتسوقون في بلدة القصيم ، بأسراب الجراد أو "مثل mithil الجراد el_ jerad " على حد تعبيرهم .

كانت في وادي شلال ريح جبلية ، كانت تلك الريح تهب نحو الأسفل نظرا لأن السهول أسفل الجبل كانت تسخن بصورة مستمرة ؛ وكانت تلك الريح أيضا تزيد من سوء أشعة الشمس ، وبخاصة في أيام موسم الصيف ؛ هذه الريح كانت تتزايد إلى ما قبل العصر بقليل ، ويزداد هبوبها من رأس وادي الشلال في الحرّة إلى حد أنها كانت تطيح بخيمتي الصغيرة .

بلغتنا أخبار مفادها أن بدو الفكارة Fukara كانوا على وشك التخييم في منطقة الحجر ، إذ كان من عادة هؤلاء البدو أن يقيموا مدة شهر واحد من شهور الخريف ، في كل عام ، بالقرب من موارد المياه في وادي الشلال . وهنا خطر ببالي أن أعود إلى أولئك الفكارة ، حيث سيرحلون بعد ذلك مباشرة إلى قرية تيماء ، التي يمكنني منها

الوصول إلى بلدة حائل Hayil . عندما عثر عليَّ مشوات Mishwat وأنا جالس إلى جوار جدار مهدم ، أثناء هبوب الريح سالفة الذكر ، أقرأ فى كتاب "صاح الرجل ، يا خليل ! لا تحاول الإنكار ، هل جئت إلى هنا لاستخراج كنز من الكنوز ." وفى المساء ، نحر مشوات شاة قربانا لصحة إبله ، - ياله من مسكين ! لم يكن مشوات مدركا للإرادة العليا ، كما كانت الأحداث كلها فى غير صالحه ! فقد أصبحت تلك الإبل بعد شهر من الزمان فى قبضة العدو وتحت تصرفه . طرح مشوات تلك الشاة صامتة على الأرض ، وهى تحاول التخلص والتملص من قبضته (ومعروف أن رأس الأضحية لابد أن تكون فى اتجاه القبلة أثناء الذبح) ؛ برك مشوات ، فوق الشاه ، وسمى باسم الله ، ثم نحرها مستخدماً سيفه فى ذلك. وأخذ مشوات شيئا من الدم المندفع ووضعه فى سطل، ثم راح بعد ذلك يحمل ذلك السطل ويتجول بين قطيعه ؛ ويغمر إصبعه فى سطل الدم ثم يلطخ عنق وخاصرة كل حيوان من الحيوانات الباركة على الأرض . كانت الأغنام تقترب من الوعاء . والبدو عندما يذبحون أى حيوان من حيواناتهم ، وبعد أن يسلخونه تقوم النساء بالتخلص من أمعاء ذلك الحيوان على بعد مسافة صغيرة ؛ ويقوم البدو بعد ذلك ، وعلى وجه السرعة بشوى حلويات ذلك الحيوان على نار الوجار ، ويوزعونها كما لو كانت قطعا من الحلوى على أبنائهم وأطفالهم . وكلاب البدو تتشمم دم الذبيحة الذى ينساب على الأرض ، ولكنها تعافه ولا تأكله . وقد شاهدت ، عندما كنت مع بدو الفجير ، أنهم يلقون بقطع من كبد الذبيحة ، فى نار الوجار ، ليأكلها بعد الشواء صغار أفراد الأسر ، قبل عشاء الضيوف . وهم أيضا يلقون رأس الذبيحة فى النار ليشووها ، ومخ الحيوان لا يأكله أحد سوى النساء ، ولدى الرجال خرافة مفادها أن أكلهم المخ يضر بأبصارهم ونور عيونهم .

كان الغد مصادفًا للورد ، أى يوم سقيا الحيوان ، مما أدى إلى النزاع والجدل فيما بينهم . لم يتفق الأعراب فيما بينهم على السعر المحدد للناقة عندما يجرى سداده أو دفعه برءوس حيوانات صغيرة ، حتى يتمكن ذلك الرجل السراحينى من دفع نصيبه فى المدَّة (الدية) التى يتعين دفعها إلى مهنا . والعرب لا يكونون عادلين فى المساومة أو المكاسرة ، وهذا هو صوت داريش العالى بدأ يتناهى إلى مسامع كل السُّقَاة ؛ وقد شاهدت ، وأنا فى خيمتى ، الشيخ السراحينى وهو يرفع ذراعاه الخشبيتان ،

كما شاهدت أيضا أن ذلك المخصى هو وغريمه قد استل كل واحد منهما سيفه . وهنا خرج الشيخ طُلَج العجوز من خيمته لفض ذلك الاشتباك ؛ ولكنه عاد ثانية إلى خيمة القهوة عندما لمس عدم جدوى صوته في ذلك الصراع . معروف أن المواهيب عنيدون وأولو بأس ، ولذلك فقد ثارت ثائرة داريش إلى حد أنه كاد أن يتشاجر مع الجميع . بعد نوبة التصايح الأولى ، بدأت تسود كلمات التهدئة والسلام ، وبدأ العرب ينصرفون كل إلى حال سبيله ، عائدا إلى خيمته ليكون إلى جوار ماشيته . راح وعيل ، وهو متجه إلى بيته يصيح في زوجته ، طالبا منها فك البيت لأنه سوف يترك هذا المكان في التو واللحظة ؛ وبعد ذلك بفترة قصيرة اقتنع وعاد لهدوئه ورضخ للصالح العام .

سوف يزور الشيوخ ، في الصباح ، الفكارة الذين نصبوا خيامهم في منطقة الحجر ، لمناقشة مواضيع الصالح العام المشتركة ، والقضاء على ذلك الفتور الذي نشب بينهما منذ موسم الحج ؛ كان الشيوخ يودون أن يكون الشيخ مطلق على وفاق معهم ، وينضمون إلى أعرابه ليكوّنوا معهم مخيمًا واحدًا . ركب الشيخ طُلَج ويصحبته كل من حامد ، ووعيل ، وداريش : أما مشوات فقد رفض الذهاب معهم ، وذلك على العكس مما كان عليه رأيه مساء أمس ، من هنا فقد "أرسلت" ناقتي إلى الحرة مع ماشيته ، وهنا عرضت جوتذه Gottha ، الراعية الشابة ، ابنة الأرملة ثنوة Thanwa ، الذهاب على الفور لإحضار الناقة من المرعى :-- هؤلاء البدو المساكين ، على استعداد في كثير من الأحيان ، لأداء هذا النوع من الخدمات للشيخ أو للغريب . مرت ساعة كاملة قبل مجيء الناقة ؛ وبالرغم من أن الشيوخ كانوا قد رحلوا منذ مدة طويلة ، إلا إنني خطر ببالي أن أخاطر بالركوب وحدي وأفعل مثلما فعلت عندما جئت إلى هذا المكان . وقدم لي مشوات آخر توجيهاته ونصائحه ومحدداً لي العلامات الأرضية التي "يمكن أن تعينني" وتلك التي يجب أن لا أهتم بها ، وهذه التي عن يميني وتلك التي عن شمالي :" وأعطيت زوجته ، حسب طلبها ، شيئا من "دواء الحمى" ، وتمنيا لي رحلة طيبة وسرعة الوصول .

كان ذلك الوادي القفر وسيعا ، ولم تكن آثار الأقدام ظاهرة فوق أرضية ذلك الوادي المكونة من الصخور البركانية الصلدة ، وبخاصة آثار أقدام أولئك الذين سبقوني بالمرور في هذا المكان . وهنا وجدتني أطيل النظر إلى الأرض المنخفضة ، –

حتى يتسنى لي العثور على مخرج طبيعي لماء السيل ؛ وبهذه الطريقة استطعت أن أنجح في الوصول إلى حوراء Howwara . في كل أنحاء هذه المنطقة شاهدت بعض الكرات الصغيرة فوق الرمل ، هذه الكرات عبارة عن مادة معدنية تساقطت من الصخرة الرملية المتآكلة ، ومعظم تلك الكرات تشبه بقايا حيوانات متحللة ؛ القبليون المساكين يأخذون تلك الكرات ، وبخاصه تلك التي يمكن أن تتدحرج في بنادقهم ، ويستعملونها بدلا من الطلقات الحقيقية .

ونظرا لأني لم أكن راكبا راحلة جيدة ، فقد كان كل واحد ممن يسيرون على أقدامهم ، قادرا على اللحاق بي :- تمنيت أن لا ألتقي الحباليص ، والمعرف أن أبا سنون سطا عليه الصوص في هذا الممر القصير المؤدي إلى القلعة . وعلاوة على الصراع الشرس من أجل الحياة ، سينشرون أيضا أن النصراني كان يحمل مسدسا من نوع خطير ؛ ولو قدر لذلك المسدس أن يضيع مني ، فسوف أكون مكشوفًا ومهددا في ترحالي كله ، وسط أعداء مسلحين . كان الطريق مليئا بالصخور المجوفة التي تصلح أن تكون ملاجئ ومخابئ لأولئك الأشقياء ؛ - ومن ذا الذي يجدني هنا ، وهو يفعل فعلته دون أن يراه أحد ، ويبقى على حياة النصراني ! هذه هي القمم العالية ، والقمم المستدقة لجبل إثلب بدأت تتبدى لي؛ كما بدأت أرى أيضا قطعان إبل الأعراب ، التي كان الرعاة يحدونها ببطئ عبر السهل . بعد أن قطعت تلك الأميال القليلة ، وصلت إلى خيام بعض الصُلوبة ، المنصوبة في منطقة منخفضة عن القلعة ، وعرفت أن خيام الشيخ منصوبة بالقرب من آبار الماء أسفل صخور البرج Borj .

واصلت المسير بناقتي ، وتجاوزت قبليا من عائلة الشيوخ : عندما رأيت ذلك القبلي من الخلف، استنتجت على الفور من تربيعة كتفيه ، ومن عباءته الخشنة المقلمة ، ومشية قدميه الحافيتين ، أنه واحد من أولئك الذين يُصلِّحون القهوة في أسرة زيد :- كانت رأس ذلك الرجل ترتفع فوق صدر بارز إلى الأمام ، وذراعاه قريبتان من أردافه ، وكان يمشي مشية النساء . هذه هي مشية الشيوخ في الصحراء ، كما أن هذه أيضًا هي مشية الشخصيات الرئيسية . هذا يعني أن تلك الشخصيات إنما ولدت وربيت في ظل الرقة الشديدة لحياة الصحراء ، وتجلس تلك الشخصيات تشرب القهوة في المجالس طوال حياتها . وزوجات هذه الشخصيات هن اللاتي يقمن بكل ما يلزم هؤلاء

الشيوخ داخل الخيام ، وبالتالي فإن هؤلاء الرجال الذين يسكنون الخيام ويقيمون فيها بصورة دائمة ، لا يكون لديهم ما يفعلونه خارج هذه الخيام ، يضاف إلى ذلك أن هذه الشخصيات يندر أن تشارك في الغزو الذي يقوم به البدو . أسفل غترة (غطاء رأس) ذلك الشيخ يمكن أن تقف على حكمة الرجل السياسي ، مع شيء من الرقة الأنثوية ، كما ترى أيضا عينان وسيعتان توحيان بالطموح ، ومترقبتان ومن فوقهما حاجبين جميلين . وشيوخ الفجير كلهم ، حسبما يقال ، يجمع بينهم نوع من التشابه في الصوت وفي القرابة أيضا .

نزلت عن ناقتي أمام الخيمة التي وجدت نياق شيوخ الموهاهيب باركة أمامها ، هؤلاء الشيوخ كانوا قد سبقوني في الوصول إلى تلك الخيمة . كان هناك جمع كبير داخل الخيمة ، وتلك كانت خيمة الشيخ مطلق . نظر الفكارة إليَّ في هذه المرة نظرة كالحة متشددة . خفة الظل والمرح الذي كان يعم المكان ، كان من أجل زيد ورفاقه (زيد الصبلوص) ؛ يضاف إلى ذلك ، وحسبما قيل ، لا يمكن لكافر أن يعود إلى المسلمين ويرحبون به للمرة الثانية : ولم يرحب بي أحد ، سوى رجل شاب جاء بعدي ، ورحب بي ترحيبًا وديا ، وسلم عليَّ سلاما وديًا أيضا ، كان ذلك الشاب واحد من الشباب الماهويين ، وكان في المنفى ، وهو من أعراب الشيخ طُلَيَّ . وجه إليَّ شيوخ الموهاهيب نظراتهم الصامتة التي توحي بشيء من الود والصداقة ، وراحوا يومئون برءوسهم إشارة منهم إلى ذكرى حلوة سابقة . قال الشيخ طلج: "ها ، يا خليل ! لو كنا قد علمنا بمجيئك ، لكنت انتظرتك." ثم تحول طلج إلى الأعراب وقال : "كان خليل يعيش معنا طوال هذه المدة ، ووالله ، كلامه لطيف ومنطقي ومعقول ؛ وبالرغم من أنه نصراني إلا أنه وُلِد يراعي تماما مشاعر المسلمين ." – معروف أن الموهاهيب لا يحبون الفكارة ، الذي ينعتونهم "بالفجارة" el-Fuggera (*) ويسمونهم أيضا يهود خيبر . وهنا بدأ الشيخ طلج الحديث عن الأمور التي جاءوا من أجلها : "والله ، يا شيخ مطلق ، وأنتم أيها الفكارة ، أنا أعلم ما يقال من أن "الفكارة والموهاهيب لا يمكن أن يكونوا على وئام مع بعضهم البعض ." – كانت تهامة في تلك الأيام عامرة بالأعراب ، وكان مرعى

(*) من "الفجور" (المترجم) .

الصيف نادرا وعزيزا ، مما جعل طلج يتطلع إلى التجوال فترة من الوقت مع الفكارة ، وقد استمع مطلق على مضض ذلك الكلام ، نظرا لبعض مظاهر الاحترام والتقدير (الواجبة لابن الرشيد) . جاء طلج أيضا لاستطلاع رأى الفكارة فى مسألة خضوع قبيلته لابن الرشيد : وهنا يمكن لوعيل هو والسراحين Serahîn أن يعملوا من أجل السلام والوفاق . فكر الفكارة هم والمواهيب فى عدم الخوف بعد اليوم من البشر ، الذين كان ابن الرشيد يحرضهم على الفكارة والمواهيب . وبحلول وقت الظهر دخلت علينا كومة إفطار كبيرة من الأرز ، كانت تبرد منذ فترة ، فى القسم المخصص للنساء فى الخيمة . كانت حرارة سهل الحِجْر ما تزال خانقة .

نهض الشيوخ من حول طبق العشاء وذهبوا لشرب القهوة فى القلعة وزيارة الحاج نجم . اندهش الرجل العجوز وابتسم عندما رآنى للمرة الثانية : وجدت عند الحاج نجم كلا من زيد ومحسن وأصدقاء آخرين . وسرعان ما جلس الضيوف على شكل صف طويل ، فوق سجاد الحاج نجم ، بجوار الجدار الغربى من الطرقة أو الممر : ولكن البدو لم يطيقوا مناقشة بعض خلافاتهم الصغيرة ، ورأيت وعيلاً وهو يستدعى من المجلس مرتين ليقسم على سيفه حول أمر متنازع عليه ؛ هذا الحلف على السيف نوع من الخرافة الرسمية التى تحظى بالرواج بين هؤلاء البدو . وهنا صاح محمد ، ذلك الجندى البدوى صيحة شجاعة ، فى وجود المواهيب ، "والله ، وفيما عدا أنه قيَّد واحداً منهم ، والأول (بعد ذلك) الذى ربما يكون قد أخذه واستولى عليه !" وهنا رد الشيخ طُلج رداً أبويا : "يا ولدى ، نحن لا نعترض على كل ما هو ملك لك ." نهض البدو من مجلسهم مرة ثانية عندما أوشكت الشمس على الغروب ، كى يعودوا إلى مَنْزَلهم . قام الشيخ مطلق بذبح شاة لوجبة العزيمة ، ولكن مضى ثلث الليل ، قبل أن يصبح اللحم (ومعه القطع الممتازة هى والكبد فوق كومة الأرز) جاهزا للأكل . وهنا تحلق الضيوف حول الطعام وراحوا يمدون أيديهم اليمنى ، وهم يذكرون اسم الله على الطعام – كانت لقيماتهم الأولى عبارة عن قطع من "ليّة" الخروف ومعروف أن اللية فى هذا النوع من الغنم تغطى تقريبًا الجزء الخلفى من الخروف وتزن عدة أرطال ؛ – هؤلاء البدو يظنون أن هذه اللية حلوة وصحية أيضا . هؤلاء الأعراب الذين سبق أن قلت لهم مراراً إن الغنم عندنا ليس لها مثل هذه اللية ، وإنما لها ذيل صغير ، فردوا على قائلين : "إذن

لابد أن تكون أغنام النصارى من النوع السيئ. بعد أن ينتهي البدو من تناول الطعام، ينهض الضيف وهو يدعو لمضيفه (الذى لا يسعده أى شىء سوى امتداح الحاضرين لكرمه والثناء عليه) ، والبدو فى هذه الحياة الصحراوية ، التى يعز فيها تدفق الماء يمسحون أيديهم من الدهون في ذلك الجزء من الخيمة الذى يكون مجاورا لهم ، أو قد يفركون أيديهم فى أعمدة الخيام أو أى سرج من سُرُج الجمال التى تكون قريبة منهم . والبدو الرحل لا يشربون الماء على الطعام أو إن شئت فقل : أثناء تناول الطعام ، ولكن سلاطين الماء أو اللبن توضع على جنب ليشرب الناس منها بعد أن يفرغوا من تناول الطعام . ولم يحدث إلا مؤخرا ، أنْ بدأ البدو يحضرون إناء كبيراً ، ويملأونه بخليط من لبن الضأن ولبن النياق؛ ثم يروح الضيوف يصبون لأنفسهم ما يشاءون من ذلك الحليب.

تعجبت وأنا أستشعر فى داخلي شكلا من أشكال الرعب ، من حقد هؤلاء البدو المتشددين الذى يشبه الحقد الشيطاني ؛ وبخاصة أن أى شكل من أشكال الاتصال بهؤلاء البدو ، أو أى شكل من أشكال الحياة الشريفة الكريمة الحقيقية ، أو أى شكل من أشكال الأداء الجيد لا يمكن أن يحظى بأى شكل من أشكال الرضا أو القبول من الخرق الممل ، غير الإنساني ، والمتأصل ، فيما يتعلق بخطايانا ، فى دين هؤلاء البدو المتهم بإهدار الدماء . ولكنى سبق لى أن أكلت من طعامهم ، ويحتمل أن أنام أيضا بين الذئاب . هذا يعني أن الغد مظلم تماما مثل الموت ، هذا يعني أيضا أن كل الطرق كانت موصدة أمامي . دخل المجلس ، بعد ذلك ، شيخ من شيوخ ولاد على ، وكان واحداً من شيوخ تلك القبيلة فى ذلك المكان بالذات ، كان ذلك الرجل مشهوراً بين البدو بأنه محامى عرفى ، وذلك فيما يتعلق بعادات وتقاليد الصحراء : جلس ذلك المحامى العرفى بالقرب منى وركز عليٌ ناظريه ، وسأل شيوخ الموءاهيب بصوت خفيض "لماذا أحضروا النصرانى معهم ؟" قالوا : "جاء خليل من تلقاء نفسه ." استدار ذلك المحامى إلى حامد وهمس له بكلمة أعتقد أننى استرقت السمع عليها تماما ، "ولماذا أنت لم تتركه وراءك – وهكذا ؟" ثم أشار إليه بعلامة الموتى وهم يلهثون فى أواخر لحظات أعمارهم . أجاب حامد على سؤال ذلك الشقى وهو يتنهد قائلا ، "استغفر الله Istugfir Ullah " ! كان تعريبة Târiba (المحامى العرفى) رجلا متقلب المزاج ، وقد حدث بعد ذلك ، أن قام ذلك المحامى فى مرحلة لاحقة ، بالدفاع عنى فى تيماء ، ضد التطرف

ضيق الأفق من قبل شخصية قروية مهمة ، هددتني ذات يوم "أنني ما لم أتحول إلى دين الله ، ورسوله ، وبخاصه أنني أمشى بلا اكتراث ليلاً ونهاراً في حارات ومسارات الواحة ، فإن طلقة واحدة من بندقية رجل من الرجال الذين يخشون الله ويخافونه قد تنهي حياتي في أي وقت من الأوقات" . وهنا رد تعريبة على ذلك القروي رداً يعبر عن عدم الرضا والاستياء ، "والله ، إن البدو أفضل منك !" كان اعتراض تعريبة على طريقتي في السلام (إذ كنت أقول مثلما يقولون) ، سلام Salaam عليك Aleyk . هذه هي "تحية الإسلام ، ولا يمكن أن تتلفظ بها أفواه عبدة الأوثان ، الذين لا يمكن مسالمتهم أو مهادنتهم أو مصاحبتهم ، لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة أيضا :" كما قال أيضا إنه سوف يُعرِّف الناس أنني "خواجة" Khawája . وكلمة "خواجه" هذه هي اللقب الذي يطلق على اليهود وعلى المسيحيين في المدن السامية Semitic المختلطة التي خضعت للفتح العربي .

قال الشيخ مطلق في الصباح ، "حنا Henna رحيل Rahil بمعنى "نحن على وشك الرحيل" : أنت ، يا خليل ، لا يمكن لك البقاء هنا مع الأعراب ، وأنا شخصيا لا يمكن أن أسمح لك بذلك ، إضافة إلى أن أحداً منهم لن يكون على استعداد لاستقبالك ." – "أقول لك إنهم جميعا سوف يستقبلونني ؛ هل تعتبرني عدواً ؟" – "حسن ، أنا لا أعتبرك عدواً ، ولكن حياة البدو شاقة ، وفي ظل حرارة الصيف الشديدة يكون من الأفضل لك البقاء في القلعة Kella (*)" وهنا رد عني شيوخ الوهاهيب رداً طيباً ، "خليل ليس غراً ، إنه مثل واحد من البدو ، ولقد سمعنا ذلك من أبي سنون ، وسمعنا أيضا أن أعراب خليل (**) من الأعراب المتحالفين مع السلطان ." – قال الشيخ مطلق "هذا هو زيد عم خليل، دعوه يرافق زيداً ." ولكن زيداً رد قائلاً : "خليل يعد حاليا خارج نطاق سلطتي ، ولن أكون مسئولا عنه بأي حال من الأحوال ، يضاف إلى ذلك ، أنه عندما كان معي ، وكنا أصدقاء إلى حد بعيد ، وسمني خليل بأني حبلوص (لص) !" وهنا افترق

(*) نطق الشيخ مطلق هذه الكلمة الإنجليزية بحرف G بدلا من الـ K . (المترجم)

(**) أعراب خليل : المقصود بأعراب خليل الشعب الذي ينتمي إليه الرحالة دوتي ، أي الإنجليز المتحالفين مع السلطان العثماني ، ومن المعروف أن إنجلترا رغم إدراكها بأن الدولة العثمانية أصبحت رجل أوروبا المريض إلا أنها كانت تقف إلى جانبها خوفًا من روسيا القيصرية . (المراجع)

الأعراب وانتشروا بعد تناول قهوة الصباح ، ثم نهض الشيخ طُلج واقفا وأخذني على جنب . "قال الشيخ الطيب العجوز ، يا خليل ، إذا كنت لا تستلطف هؤلاء الناس ، فنحن راحلين الآن ، وبوسعك أن تعود بصحبتنا ؛ أو إن شئت ، فعندما تجد من المناسب لك بعد ذلك ، عد إلينا وسوف نرحب بك ، وابق معنا إلى عودة الحج ."

فك شيوخ الموهاهيب عُقُلِ نياقهم وجعلوها تنهض واقفة ، بعدما كانت باركة أمام خيمة الشيخ مطلق ، وصائمة منذ الأمس . ركب الشيوخ فوق عدد (سُرُج) النياق ، بينما كانت واقفة ؛ والشيخ طُلج ، بحكم كبر سنه ، كان هو الوحيد الذي ركب ناقته وهي باركة : ومضى الشيوخ في طريقهم . ولم يتبقى من أولئك الشيوخ سوى الصيحة الأخيرة التي صاحوها دون أن يلتفتوا إلى الخلف، أو حتى يستأذنوا . ومن عادة أولئك البدو أن يرحلوا في ساعة مبكرة من الصباح :- هذا يعني أن الضيف الذي يحظى بالضيافة الكاملة طوال الليل يتعين أن يطرد من المكان مع طلوع الصبح. بقيت قلقا في خيمة الشيخ مطلق ، نظرا لأن زوجته من ولاد على كانت سليطة اللسان ، إلى حد أن أبناء زوجها كانوا يكنونها "بالمرأة الغجريه" إذ كانوا يقولون لها "صُلُوبية" Solubbia ؛ ولما كانت آخر حفنة من مؤني قد انتهت ، فقد توجهت إلى الخيام المجاورة القريبة من آبار الماء التالية للآبار التي نحن بجوارها حاليا ، أو إن شئت فقل : توجهت إلى الخيام التي يسكنها شيخ ولاد على إبراهيم Ibrahim السَّنَّاد es-Sennad ، الذي كان يمثل بريد الحج : هذا الرجل صاحب المزاج المتشدد إلى حد ما ، كان ودودا معي ، ومن بين معارفي أيضا .

عثرت على الشيخ إبراهيم السنَّاد ، شيخ ولاد علي ، في خيمته الصيفية ، نظرا لأن قيَّالة الظهيرة كانت قد أوشكت على الدخول علينا. اندهش الرجل من دخولي عليه ، وهنا طلب الرجل من ربة بيته (زوجته) أن تخرج الصقر من الخيمة ، وتجهز لي عدة (سرج) الناقة كي أجعل منه مسندا أتكئ عليه . هذا الرجل الذي استقبلني في بداية الأمر بنظرة شبه متحفظة هاهو يقول لي في ود ، "مرحبا بك ؛ وأنت ، يا أيتها الزوجة عجلي وجهزي على وجه السرعة ، حتى يتمكن خليل من تناول طعام الإفطار ، وليكن ذلك بأسرع ما يمكن ." سألت الرجل ، أثناء حديثنا عن ضيافة البدو . "أجابني في ود ، أن الضيف ، أيا كان ، وكذلك الغريب ، هو ضيف الله ، وله معزة الأحباء ." قال

الرجل عن زوجة مطلق ، "إنها ليست من أصل طيب ، ابنة شيخ قليل القدر بين الشيوخ" : ثم أردف بعد ذلك ، "اسمع ، يا خليل ، إذا كنت أنفقت كل ما معك ، وبالرغم من تدني حالي في قرية العلا في الوقت الحالي ، حيث رهنت سيفي نظير الحصول على قليل من الشعير ، إلا أنى على استعداد لتعزيز موقفك عند الحاج نجم ، كي يعطيك بضعة ريالات إلى حين مجئ الحج ." ومع ذلك كان الحديث الذى دار بيننا مشوبا بتشدد ذلك الرجل الذاتي ، "الأسير المسلم الذى يجرى تبادله ، في الجهاد ، يكون مقابل عشرة أسرى من النصارى بالتمام والكمال ." وأبلغنى أيضا أنه سوف يسافر هو وخلف ومحمد الشرارى ، قبل رمضان ، لقضاء بعض أمورهم فى دمشق ، على أن يعود مع الحج ، وطلب منى أن أرافقهم فى تلك الرحلة .

ولما كنت أقيم ، وهذه هى المرة الثالثة ، أمام تلك السلاسل الجبلية الكالحة من آثار الحجر - والتى تشبه جحور الفئران ، من على بعد ، فى المنطقه الواقعة أسفل الضفاف الجبلية المكونة من الحجر الرملى الصلد - لم أعثر فى تلك الجحور على أى شيء لم يسبق لى أن شاهدته من قبل .

كان محمد الديبس ed-Deybis على استعداد لمرافقتى إلى خيبر، نظير أجر كبير؛ لأنه سوف يحضر من خيبر لأسرته حملا من التمر ويعود مع الأعراب : ولكنه فى الصباح اعتذر عما قاله فى المساء ، " يا خليل ، السبب فى ذلك (وراح يضرب بيده على عظمة عنقه) ! وأنا والد لأطفال ." عثرت على رجل آخر اسمه جازى Jazy ، ولكنه تراجع بعد الاتفاق وقال: "هذه سفرة متهورة." وعثرت على شاب من الخمالة Khamala ، كان يملك ناقة طيبة ، وقال إنه سوف يجعلنى أركب ناقة أخرى نظير عشرة ريالات عن تلك السفرة ، وأنه على استعداد لقبول ناقتى ثمنا لتلك السفرة . ولكنه هو الآخر ، انسحب عندما جد الجد؛ وكانت يد زيد هى التى وراء كل ذلك التعطيل، إذ كان ما يزال يزعم أنه حريص على أمنى وسلامتى إضافة إلى مسئوليته عنى أمام الدولة (الإمبراطورية العثمانية) .

بلغنا أن مهنا Maanna الذى قام بغزو بالقرب من خيبر هو وثمانية من رفاقه ، قد سرق خمسين من إبل الحطيم Heteym ، وأن نصيبه من تلك الإبل قدر بحوالى

سبعة جمال : – ومع ذلك سمعنا فيما بعد ، أن تلك الإبل أعيدت ، أو إن شئت فقل : استردها أصحابها ، نظرا لأخذها من أعراب ليسوا أعداءً لهم . هذا يعنى أن البدو يمكن أن يكونوا فى كثير من الأحيان أصحاب سياسة عادلة وأصحاب شهامة ومروءة، تحت أى ظرف من الظروف . ولكن العجيب بحق ، كيف يمكن لهؤلاء البدو المرهقين ، فى ظل القيظ والحرارة طوال العام ، وليس معهم من شىء سوى حفنات من المريسى ، كيف يمكن لهم أن يتجولوا مع بعضهم البعض طوال أيام سعيا إلى الغزو ، فى ظل تعب مرهق ومميت ، وفى ظل أيضا عدم تأكدهم من العودة إلى ديرتهم بأى شىء ، فضلاً أيضا عن عدم تأكدهم من العودة أحياء إلى منازلهم المصنوعة من قماش صوفى محكم النسج . كان من بين ضيوف الشيخ مطلق شاب شرارى(*) ، جاء لعلاج بعض الإبل المصابة . وعندما سألت ذلك الشرارى عن جد أو إن شئت فقل : والد قبيلته ؟ رد علىّ قائلا : "الأعراب لا يتذكرون الماضى القديم ، ولكن بإمكانك معرفة ذلك من كتبك ؛ راجع كتبك لترى إن كان ذلك فيها أم لا ." كان هناك أيضا ضيف من نصف قبيلة "ولاد على" الذين يقيمون فى الشمال ، هذا الضيف سبق له أن جاء راكبا ناقته مع حج العام الماضى ، لزيارة أقاربه فى الجنوب . أمضى ذلك الضيف كل هذه الشهور مع هؤلاء البدو بصفته هاربا ، وهو يتنقل حاليا من خيمة إلى خيمة مع الفكارة ، إلى أن يحين الموعد التالى لصعود موكب الحج .

عاد إلينا شيوخ الموءاهيب فى اليوم الرابع ، يقتادون معهم جملا ، وسوف يركب الشابان الصغيران حامد وعيل ، مع قربان السلام هذا لتوصيله لابن الرشيد . ماهو مطلق يقيم وليمة عشاء من جديد ؛ وعندما طلع النهار ، ركب الصديقان ، على حد قول الناس ، راحلتيهما ومضيا فى طريقهما إلى ابن الرشيد ومعهما الجمل ذى السنامين . كل الأعراب الداخلين فى نطاق سلطة الأمير ، والذين كانوا يعادونه إلى ما قبل استئجاره لهم ، كانوا يستأجرون فى سفرهم رفيقا من بدو الفجير ، وبالرغم من أن ذلك الفجيرى كان من بين معارف الشيخ طلَّج القدامى ، إلا أنه أساء إلى تلك المعرفة عندما بدأ يساوم ويكاسر فى أجر تلك الرحلة ؛ ومع ذلك ، كان ذلك الرفيق واثقا من

(*) شاب شرارى : من قبيلة الشرارات . (المراجع)

حصوله على غيار من الملابس من حائل . إبتداء من هذا المكان أمضى هذان الشابان سبعة أيام راكبين (ركوب البدو) وقاصدين "الجبل"(*) THE JEBEL . وعلى ذلك ، عاد طُلَج ، وحده ، إلى وادى شلال Shellal ، ومعه حمَّالة صبِّى خَلْفِيَّة . – كانت ليالى تلك النهارات الحارة تبدو براداً فى سهل الحجر القريب ، ومع ذلك فقد اكتشفت أن درجة الحرارة (عند الفجر) كانت ٧٢ْ فهرنهيتية، وفى أحيان كثيرة كانت تصل إلى ٧٦ْ درجة. قراب الماء التى كانوا يعلقونها فى الهواء اعتبارا من غروب الشمس، كانت تتعرق دوما، وفى غضون ساعة أو ساعتين كانت تعطى من يشرب من مائها مذاق الماء المثلَّج ، – وعندما قست درجة حرارة تلك القراب وجدتها ٥٢ْ فهرنهيتية . والماء الموجود فى الأبيار الموجودة تحت البرج أبرد وأحسن من الماء الذى يجرى جلبه من بئر الناقة داخل القلعة. – كل الماء الذى ذقت طعمه فى الجزيرة العربية كان فاترا ، ومختلفا تماما عن المياه الجوفية التى فى مناخنا ، والسبب فى ذلك أن رياح السموم تختلف عن أية رياح صحية أخرى ! – هذه الآبار بعد أن يجرى نضح مائها ، بواسطة مسقى من المساقى التى تستخدم فيها الإبل ، يرتفع الماء من جديد فى تلك الآبار خلال ساعات قلائل . مذاق هذا الماء ليس واحداً فى الأبيار كلها ؛ ذلك أن ماء البئر الذى يبعد مائتى خطوة جنوب غربى القلعة هو الأفضل مذاقا . والسقاة عندما يسقط منهم شىء من أشيائهم فى الآبار ينزلون فيها طفلا لجلب ذلك الشىء – اليوم كان طفل الشيخ مطلق هو الذى أنزل إلى البئر – الأعراب يربطون ذلك الطفل من تحت ذراعيه: وعلى حد قول الأعراب، فإن لديهم رءوسا ممتازة على استعداد للمغامرة بحياتها على هذا النحو ، ويقولون أيضا : إن الطفل ينزل بكل سرور وانشراح إلى هذا العمق الكبير والظلام الدامس .

نزل بعض المتسوقين قاصدين قرية العلا وكنت أنا بصحبتهم . كانت غالبية أولئك المتسوقين من الفهجات ، جماعة من الشحاذين يحملون على جمالهم أحمالا من العشب البرى ، الذى سوف يقايضونه بشىء من التمر . كان من ضمن هذه الجماعة بعض من النساء القبليات اللاتى كن يسرن على أقدامهن : كانت واحدة منهن ، وهى

(*) الجبل : جبل شمر مركز حكم آل رشيد ويشتمل على جبلى أجأ وسلمى ، ويشتمل على قرى ومدن كثيرة من أبرزها حائل عاصمة آل رشيد ، وقفاز وبقعاء وسميراء . (المراجع)

مخلوق ضعيف جداً ، زوجة من قبل ، لرحيِّل Rahyel شقيق الشيخ مطلق ! وعندما طلقها تزوجها ابن أخيه الأكبر ذُريح Therryeh ، وقد ظهر ذلك ، على أنه شكل من أشكال التملق والمداهنة . كانت تلك الجارة المسكينة قد أنجبت لولد الشيخ مطلق بنتا ، ونظرا لكبر سنها عن سنه، فقد طلقها وتركها لحال سبيلها. هذه المرأة الوحيدة حاليا ، تحمل معها سطلا مطلى بالقصدير ثمنه يتراوح بين شلنين وثلاثة شلنات ، جاءت لتبيعه، وتشترى بثمنه جلدين من جلود الأغنام كي تستعملهما قرابا فى خيمة العزوبية. سألت ذُريح Therryeh مرة ثانية عن زواجه غير الموفق هذا ، "هل حياتك الزوجية على ما يرام ؟" وأجابنى ، "نعم إنها كذلك !" ولكن والد مطلق الذى كنا نجلس فى خيمته رد علىّ مؤكدا ، "أبدا ، والله ! ليست حياته الزوجية على ما يرام ." وبينما كنا نركب نياقنا ونسير فى الأدغال بين الصخور الوعرة والقمم والصخور المرتفعة ، سمعنا صرخة مفاجئة من خلفنا تنذر بالغزو ، ولكن سرعان ما تعرفنا راكبى الإبل ، على أنهم من أفراد القبيلة ، ومن المتسوقين الذين جاءوا إلى القرية .

فى قرية العلا ذهبت لشراء بعض المؤن من صالح Salih المسلمانى Moslemany ، ولكنى اكتشفت أن ذلك الرجل لم يكن صادقا أو أمينًا فى تجارته ، مثل سائر التجار الآخرين ، وقد جاءت زوجته تجرى خلفى فى الشارع كى ترد الحق إلى صاحبه الشرعى . والعلاونة بخلاء فى تعاملاتهم . وأنت إذا ما اشتريت منهم شيئا وأعطيتهم قطعة من النقود قيمتها أكبر من الثمن المطلوب ، فمن المحتمل أن يرفضوا إعادة الباقى إليك ، أو إعادة بضاعتهم إليهم ، قائلين لك ، "يمكن أن تأخذ بالباقى بضاعة !" يضاف إلى ذلك أنهم يكذبون فى ردودهم وكلامهم ، بأنهم ليس لديهم شىء بعينه ، ولكنهم سرعان ما يظهرون ذلك الشىء على الفور إذا ما توفرت لهم ظروف أحسن وسعر أفضل . زد على ذلك أن الغريب العطشان يمكن أن يمر على أبواب هؤلاء العلاونة طالبا إليهم اعطائه قليلا من الماء ، ولكنهم يردون عليه ، "ليس لدينا ماء هنا ،" بالرغم من مشاهدة ذلك الغريب لقربة الماء المعلقة فى مدخل المنزل . وقد اكتشفنا أن القرويين فى قرية العلا رفعوا أسعارهم بنسبة ثلاثين بالمائة عندما علموا أن بدو الفكارة كانوا مخيمين فى سهل الحجر .

الموكب الأخضر في قرية العلا شيء جميل ، كسى أرض الصحراء بعد أن كانت جرداء . شاهدت ألف عرف من أعراف النخيل المحملة حاليا بثمار أرجوانية اللون وثمار صفراء وثمار حمراء ، كل هذه أنواع من التمر ، تلك الثمرة التي يجعل الناس منها هنا غذاء لهم ؛ أول هذه التمور الذى يجرى حصاده هو من النوع الرخيص ومع ذلك فهو طيب أيضا ، ويباع بواقع عشرين صاعا للريال الواحد ، هذه البساتين الكثيفة في قرية العلا لا يفسد سكونها سوى ذلك الصراخ المرح الذي يصدر ، بين الحين والآخر ، عن طائر من الطيور آكلة التمور ، وقد اكتشفت أن درجة الحرارة عند الظهيرة تصل إلى ٩٣ْ فهرنهيتية في تلك البساتين الكثيفة. والشمس هنا تطلع متأخرة، ولكنها تبكر في الغروب ، عندما تختفى خلف سواحل الوادى العميق ؛ ولكن الليالى على اختلاف أنواعها تكون شديدة الحرارة ولا يتخللها أى شيء من الانعاش . شاهدت في السواد الأعظم من أرض الخضراوات نوعا من القرع العسلي كبير الحجم ، كما شاهدت أيضا أنواعا من الشمام طيب الرائحة .

دخلت البلدة للمرة الثانية قبيل دخول وقت العصر ، عندما يتجمع القرويون لشرب القهوة في مقاهي شيوخهم . ومع أول قهوة التقيتها دخلت من عتبتها ؛ أفسح الحاضرون مكانا للغريب ، وجلست بين الجالسين .- وسرعان ما سمعت صوتا من أصوات أولئك القرويين ؛ كان ذلك الصوت يحمل نغمة التأنيب ، وكان صادرًا عن مرح شبه محموم ، "هنا يجلس واحد من أبناء عمك ، وأنت لم تعرفه بعد !" نظرت فوجدت شابا خفيف الحركة ، يجمع محياه بين السماجة والمرح الخفيف ، وكانت بشرته بيضاء وتميل إلى الاحمرار ، وذلك بالمقارنة مع بشرة العلاونة التى تشبه كُنَاسة المداخن . كان ذلك الشاب يجلس وعلى رأسه طربوش تركي أحمر ، له "زر" متأرجح من الحرير الأزرق ، - من المعروف أن أكثر أولئك القرويين الذين يكونون على طريق الحج ، يتشبهون بالدمشقيين . والد هذا الشاب ، كان نصرانيا ، وجاء هنا بغرض التجارة ، أو بسبب الهرب، من بعض أجزاء مصر ، إلى هذه المنطقة ، ونجح الناس فى قرية العلا فى إدخال ذلك الرجل في الإسلام. هذا الشاب الصغير ، واسمه هويشيم Howeychim هو ولد هذا الرجل ، الذى حيانى قائلا : "كيف حالك ؟ وأنا ، مثلك ، إنجليزى (كان من الأفضل أن يقول ، من النصارى الأحرار) . والدى كان من تلك البلاد: وعندما جاء إلى

هنا ، تكاثروا علينا ، وأمسكوا به وضربوه ، إلى أن نطق بعبارة "محمد Mohammed رسولٌ الله rasúl Ullah " . يا خليل ، الكلاب هى صاحبة اليد العليا ؛ وأنا هنا ، بفضل الله ، أصبحت مسلما : – وتقول "لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله" وتسكن معنا وسوف يعطونك نخلا . " رد شاربو القهوة بدورهم ، " نحن نعد بذلك ، ولكن انتبه يا خليل ، – ماذا كانت الكلمتان الصغيرتان ؟ انطق بهاتين الكلمتين معنا ولن يصيبك أى أذى . يا خليل ، آمن بالدين المنقذ ، وعندها لن تهمك أمور الحياة ، وسيكون كل شيء معك على ما يرام فى النهاية . – الجيران ، خليل رجل أمين ، ولكنه أعمى ، وقد يرضى الله عنه ويعطية النور ، وإذا لم يعطه الله (سبحانه وتعالى) النور فتلك إرادته (سبحانه وتعالى)، والبلد هنا من بلاد المسلمين ، وهو حر يتجول فيها كيفما شاء دون مساءلة من أحد ."

عزمنى هويشيم Howeychim على بستانه ، قائلا إنه سوف يعطينى بعضا من الشمام ، ولكننا عندما وصلنا إلى ذلك البستان جعلنى أدفع ثمنا لذلك الشمام أكثر مما هو محدد له بسعر السوق ؛ وعندما عدنا فى أيدينا ذلك الشمام ، تولى هو الرد على الرغى والقيل والقال الذى أصابنا من كل أولئك الذين التقيناهم؛ إذ كان يقول لهم: "والله ، إن هذا بقشيش Bakshish أعطيته للنصرانى !" كان ذلك الرجل الوقح يجرى مهرولا من أمامى ! وعندما كان يرانى مقبلا عليه أجرجر قدماى كان "يصيح قائلا : ما هذا ! إنك شاب ، أما انا فأحمل خمسين عاما على ظهرى :" كان ذلك الرجل ، يرى أن مسألة الضعف هذه أمر محتمل ، بالرغم من أنه كان يبدو أصغر منى بعشرين عاما : "ولكنك صبى تماما ، وبوسعك أن تعدو وتقفز أكثر من عنزة برية ." – "آه ، أنت تقول ذلك لأنى بلا لحية ؟ كل ما فى الأمر أن الفئران جاءتنى وأكلت لحيتى أثناء الليل ." هذا الهويشيم، كان له ذهن يعينه على عمل أى شيء . قبل سنوات قلائل ، تخيل الهويشيم، تلك التربة الخالية ، المكونة من الغرين القيم ، والتى تقع على مسافة نصف ميل فوق الواحة ، وأسفل الخريبة ، بنى هويشيم لنفسه فى ذلك المكان حصناً Redout ، يزيد حجمه على حجم منزل أو منزلين ، وما زال ذلك الحصن باقيا إلى يومنا هذا ، ويحمل اسم ذلك الرجل . الحصن ، أو إن شئت فقل ، القلعة التى من هذا القبيل تكون عبارة عن "مسور مغلق مكون من أربعة جدران عالية ، ضماناً للأمن ، يحتمى بها الفلاحون

على وجه السرعة من تحرش البدو الرُّحل بهم . ولكن هويشيم لم يجد بغيته أو ما كان يتطلع إليه في قرية العلا ، نظرا لأن أولئك الحضر القساة لم يكونوا على استعداد للسير على الخط الذى رسمه ذلك الرجل ، ومن هنا تبخرت آماله كلها . كان هويشيم دونا عن سائر أهل هذا البلد ، صاحب مطمح كبير كان يهدف من ورائه إلى أن يتمكن فى يوم من الأيام من تسلق رءوس كل هؤلاء الناس ، كى يصل إلى رئاسة البلدة . ذهب هويشيم فى العام السابق لزيارة خيبر، وعثر هناك على رجل [أصبح صديقا لى بمعنى الكلمة فيما بعد] ، اسمه محمد النجومى el-Nejumy ، من المدينة (المنورة) ، - الذى حصلت منه أثناء مرحه الصاخب على الحكاية التالية - لما كان محمد النجومى رجلا قويا ، فقد حدثه هويشيم عما يدور بخلده ، وقال له تحديدا ، إنهما الاثنان ينبغى أن يعودا إلى قرية العلا ، ويجعلان من نفسيهما سادة هناك بقوة السيف . قال :"أهل القرية من العلاونة جبناء بحق وحقيقة ، وأن أولئك العلاونة سيكونون ، والله ، لعبا فى أيديهما لو أنهما أطاحا بقلة قليلة من الرءوس ، الأمر الذى سيمكنهم من تسود البقية والسيطرة عليها فى النهاية" . - عندما اكتشفت أن تلك الجماعة البدوية لن تتحرك قبل الغد ، عدت إلى قهوة موسى ، التى سبق لى النزول فيها ، وقام ذلك الرجل الطيب بتقديم شيء من علف البستان لناقتى : أمضيت الليل وأنا خائف من هواء النخيل الرطب ، أمضيت الليل نائمًا على سطح منزله الذى كان يشبه الشرفة .

وصل المزيد من البدو فى الصباح ، وكان زيد من بينهم . قالوا لنا : إن الأعراب تحركوا بالأمس (عقب رحيلى عنهم) ، وهم الآن عند آبار العذيب el-Atheyb - بالقرب من البلدة . كنت قد تركت زكائبى أمام بيت الشيخ مطلق ؛ ولكن أصدقائى طلبوا منى الهدوء ، لأن المضيفين "لابد أن يكونوا قد حملوا تلك الزكائب معهم من باب التكريم ." عدت إلى أولئك الأعراب بصحبة زيد ، الذى اشترى تمرا وأرزا بالأجل لحين مجيء موسم الحج .

- البدو الرحل هنا يعيشون متفرقين ، على مساحة طويلة منحدرة من الرمال ، تقع بين صخور الأخمر Akhmar العالية وجبل الحرَّة ؛ هؤلاء البدو كانت منازلهم تحتل مسافة تزيد على ثلاثة أميال ، عندما مررنا بها . وفى مساء الليلة التالية وصل مهنا ، الذى كان يقود كفلاً آخراً متجهًا إلى مدينة الوجه . صحيح أن مهنا نزل أمام خيمة

الشيخ مطلق ، ولكن رحيل هو الذى قدم طعام العشاء ، إذ قام بذبح خروف طيب عند غروب الشمس ؛ وفي ساعة متأخرة من المساء ، استدعانا جميعا ، ونهضنا واقفين من خيمة الشيخ مطلق ، كى ننتقل إلى خيمة رُحيل . نظر إلىَّ مهنا نظرة ودية ونحن نتحلق حول طبق الطعام ؛ - "قال مخاطبا زيداً ، الذى جلس وتناول عشاءه بجوارى ، أهذا هو حال خليل لا يأكل دوما ؟ كيف لرجل ، تربى هذه التربية أو نشأ هذه النشأة ، يتحمل حياة البدو !"

كان رمضان ، شهر الصوم ، على وشك الدخول ، وهذا الشهر يشغل أرواح المسلمين ، بما فى ذلك الأعراب الذين يعيشون فى البادية ، ويضفى على تلك الأرواح المزيد من الورع والتدين ؛ هؤلاء البدو ، يحاكون ما يحدث فى الحضر ، ذلك الذى شاهدوه فى المدينة (المنورة) ، وهم يخرجون من بيوتهم فى مواقيت الصلاة ، ويقفون على شكل صفوف ، ويستمعون إلى الإمام ، ويحنون جباههم الخالية ثم يسجدون . والشيخ مطلق عندما يكون هناك لا يصلى بالناس إماما ، ولكنه يقف مثل واحد منهم . والمسلمون جميعًا يتساوون فى الدين والعبادة . وأى درويش فاجر بوسعه أن يؤنب أميره ويوجه إليه اللوم فيما يتعلق بمسألة الدين ، ويتعين على ذلك الأمير قبول ذلك التأنيب واللوم بصبر لا ينفد . هذا هو الشيخ مطلق ، صاحب الصدر الضيق ، يؤنبه شخص ويقول له "حان موعد الصلاة" : "جوم goom يا Yá صلِّ S?l !" بمعنى "هيا ! إلى الصلاة، انهض يا مطلق ، انهض وصلى !" - وصل أولئك المتحمسون فى تشددهم إلى حد جعل مطلق يقول عنهم مثلما قال أيوب الصديق ، "لا يمكن أن أدرجهم ضمن كلاب قطيعى !" ومع ذلك ، يقف الشيخ مطلق مطيعا ويذهب لأداء هذه الفريضة الدينية . وأعظم الشيوخ لا يمكن أن يفعل غير ذلك ، لأن هذا الذى يفعله فيه سلامه وأمنه بين إخوانه أتباع محمد ﷺ . قلة قليلة من حريم البدو هن اللائى يصلين أمام بيوتهن فى شهر رمضان ؛ ويندر فى غير شهر رمضان أن ترى امرأة تصلى .

على امتداد تلك الليلة ، كان القمر بدرا ، وبدت السماء وقد اكتست بزرقة ضوء النهار الجميل ، كما خلت أيضا من النجوم وغاب القمر كلية مع اقتراب الصباح ، وقال لى الأعراب، أنهم رأوا السماء حمراء مثل الدم ، وهذا "مؤشر من مؤشرات درجة الحرارة المرتفعة" . كانت درجة الحرارة ٨٢ْ فهرنهيتية عند شروق الشمس ؛ وطلع علينا

النهار بلا حبة هواء واحدة ، وقبيل العصر كانت درجة الحرارة حوالى ٤٠,٥ْ مئوية ، كانت السماء ملبدة بالغيوم ، وكان الأعراب واهنين ، ويرقدون على الأرض فى الظلال الناتجة عن الجبل الضخم . وفى اليوم التالى ارتفعت درجة الحرارة لتصل إلى ٤١,٥ْ مئوية (١١٠ْ فهرنهيتية) ؛ فى عصر ذلك اليوم تحرك البدو عائدين إلى سهل الحجر . وأثناء سيرنا ، نزلت امرأة مسكينة كانت تسير بالقرب منى ، نزلت عن راحلتها بمحض إرادتها ، وهى حافية القدمين ، والأرض من تحتهما عامرة بالأشواك ، وهبت لمساعدة الغريب عندما وجدت أن أمتعتى التى لم تكن محكمة الربط أخذت تنزلق وتسقط على الأرض :– وهذه هى فضيلة طبيعية وفطرية من فضائل الأعراب .

عندما نزلنا فى مدائن صالح للمرة الثانية ، قامت الأسر البدوية بنصب خيامها فى أماكنها السابقة ، وشبت نيران المساء فى نفس الأماكن السابقة التى كانوا يشبون فيها نيرانهم من قبل . ومع طلوع شمس اليوم التالى ، وهى أبرد ساعات النهار ، وجدت أن درجة الحرارة كانت ٨٦ْ فهرنهيتية ، وجدت أن درجة حرارة فترة العصر كانت ٤١,٥ْ مئوية . حال ذباب الحجر المقلق ، الذى كان فى كل مكان مثل الطاعون ، كما كان أيضا فى الظل الناتج من الصخور المرتفعة ، وفى ظل الخيام أيضا ، حال بينى وبين الحصول على الراحة بأى حال من الأحوال . أويت إلى الديوان Diwan ، ذلك الممر الصخرى الذى لا تشرق الشمس عليه مطلقا ؛ ولكنى حتى فى هذا المكان وجدت جحافل كبيرة من الحشرات . فى كل مكان جلست فيه ، كنت ألاحظ طائرا من الطيور آكلة الذباب ، وهذه الطيور صغيرة الحجم ولونها يشبه لون الإردواز ، وهى تشبه إلى حد كبير طائر أبى فصادة ، وهى تنقض بخفة ورشاقة على الذباب ، وتختطف فريستها التى لا يمكن أن تفلت منها مطلقا : طرحت على ذلك الطائر غترتى (غطاء رأسى) ، وأمسكت به ودللته دون أن أصيبه بأذى ، ثم تركته يطير من بين يدى : وبالرغم من كل ذلك لم يبتعد ذلك الطائر عنى سوى مسافة قصيرة جداً ، ولم يطر مبتعداً عنى .

كانت خيمة الشيخ مطلق الوسيعة مكانا ينام فيه القبليون الجائلون فى فترة العصر : فى تلك الخيمة كانت ألسنة المتحمسين لرمضان البذيئة تصب جام غضبها على النصرانى ، إلى حد أننى قلت لزِرّيح Therryeh ، فى أحد الأيام : "آه ، من

جحافل الذباب ، هي والحرارة وكذلك الكلام الجارح الذى يصدر عن هؤلاء الدبوش : إنهم يعرفون مصلحة الإنسان أكثر من الرب الذى خلقه ." - "أنت تقول صدقا ، إنهم دُبوش بحق ." - "ولكن ماذا يعبدون ؟ العقاقير المثيره للشهوة والغليون ! - تلك هى مقدساتكم أيها الأعراب ." - "آها - ها - ها ! والله ، يا خليل ، هم لا يمكن أن ينكروا ذلك ، وكل أفكارهم تتركز حول هذه الأمور ؛ البدو يقدسون هذا وذاك ." صحيح أن ذريحا كان الأخ الأكبر للشيخ ، ولكن صالحًا أخيه الأصغر ، ذلك الشاب قوى البنية صاحب المزاج المتغير ، كان هو الأكثر قربا إلى قلب أبيه ، إضافة إلى أنه كان من نسل أم تنتمى إلى أسرة من أسر الشيوخ ؛ وقد ورث صالح عن جده ، من أمه ، صُرَّة لها قيمتها . كان مطلق يفضل صالحا ، الذى بدأ شأنه يتزايد فى القبيلة ، وعندما وجد زريح نفسه شبه مخلوع فى المَنْزلْ ، رضى بأن يكون واحداً من أفراد البلاط . كان زريح يشغل نفسه يوميا بزيارة والده ، (الذى كان يحس تجاهه بقليل من الدفء ،) وكان ذلك يبدو من باب التملق والمداهنة : كان ذريح قد بنى لنفسه بيتا كبيراً مثل بيت مطلق، إضافة إلى أن منزله كان منزلا مستقلا مع الأعراب؛ كان لدى زريح إبل كثيرة ، إضافة إلى أنه كان قائداً شجاعا من قادة الغزو . سمعت هذا الرجل وهو يقول بين زملائه وفى صوته مسحة من الحزن، "- ولكنى لست شيخًا !" ورد عليه زملاؤه متهللين، "أنت شيخ Sheykh الشيوخ es-Sheukh ." أما صالح فقد كان مقيما فى منزل والده ، حيث كانت خيمته التى كانت أحسن الخيام ، لا تعدو أن تكون مجرد هجرة hejra متواضعة .- ويتناول زريح بيده الكتاب الذى كنت أقرأ فيه ، وراح يُسرِّى عن نفسه بأن أخذ قلمى الرصاص ليحدث رسما على صفحة من صفحات الكتاب - هذا الرسم من وجهة نظرهم - عبارة عن صور للرجال والحيوانات .

كان من بين أولئك النائمين فى خيمة الشيخ اتقاء لحرارة الشمس رجل لاحظت أنه ليس من أهل الجزيرة العربية : "درويش تائه أو ضائع (حسب ظنى) تخلَّف عن قافلة الحج : " ومع ذلك كان وجهه أكثر اسمراراً عن بقية أوجه البدو . قال لى إنه بستانى من بيروت ، وأنه بقى هنا مع الأعراب متخلفًا عن الحج الثالث : وقال لى أيضا إنه اشترى بالنقود التى كانت معه زوجا من الإبل ، كما زوجه بدو الخمالة Khamala امرأة منهم ، أنجبت له طفلين . قال ، إنه اعتزم العودة إلى وطنه على الفور ، وأنه

سوف يصحب معه عائلته البدوية . كان الرجل يحس بالقلق والإرهاق في الصحراء ، ومن رأيه أن حرارة فصل الصيف الحالي لم تكن أكبر من مثيلتها في بلده الفينيقي . هذا الشخص كان مصابا في إحدى عينيه ،- إن كثيراً من المجرمين يرافقون الحج ويهربون من العدالة : والمؤكد أن الفلاح متدني الروح المعنوية إلى هذا الحد ، لا يمكن أن يضحى بما لديه من أشياء جيدة ، بلا سبب ، طمعاً في حياة هؤلاء البدو القاتلة !

دخل الحاج نجم في تلك الأمسية الأخيرة في جدله القديم حول البلدان الغربية . قال مطنبا للجمهور المتشوق ، "يجب أن لا يكون تقديركم لخليل ومن هم على شاكلته بأنهم كفار ، لأنهم يؤمنون بمعظم الأشياء التي نؤمن بها نحن . سيدنا عيسى Isa ، ولد السيدة مريم ، ربهم ، هو في واقع الأمر نبي من أنبياء الله . وكذلك عندهم موسى عليه السلام ، وداود وقدامى الأنبياء ، وهم يقولون مثل المسلمين إن الله إله واحد ، وأنه لا شريك له وليس هناك غيره . انتبهوا ، يتبقى شيء واحد بيننا وبينهم ، إنهم لا يقولون عن سيدنا محمد ،- عليه الصلاة والسلام - أنه رسول الله . ويجب أن تعلموا أن أهل (شعب) خليل ، أي الإنجليز ، أصدقاء للإسلام ، كما أنهم جيران لنا ، ولا يفصلنا عنهم سوى البحر الضيق من فاس ومراكش ، وبلادهم قريبة جداً منا إلى حد أن شاطئ بلادنا وبلادهم يظهران للسكان على الجانبين من خلف الماء : وكلام الإنجليز "وعر" Waar " - [ولكن البلاد السورية تقول عن هذا الكلام أنه "حلو" Helw ، كما يقولون عنه أيضا إنه "لغة Loghrat الطير et-Teyr" بمعنى إنه يشبه تغريد الطيور"] . ثم عاد الحاج نجم يتمتم ويغمغم ، بحبه وهيامه لبلده الغربي ، "المليء بالينابيع ويظله مناخ صحي ، والذي تمتد أعمار سكانه إلى آجال بعيدة !" وراح الرجل يعد على أصابع يديه "كيف أن الإنسان يمكن أن يتجول على امتداد أيام كثيرة في أي جزء من أجزاء بلاده ، دون أن يرى نهاية للنخيل في ذلك الجزء ! وأخيرا فإن الصحراء الجرداء تمتد ناحية الجنوب امتداداً يقدر بمسير شهرين جنوبيا في اتجاه السودان (أرض الناس السود) ؛ الذي تذهب إليه كل عام قوافل كبيرة من التجار المغاربة ، الذين يترددون على مدينة تمبكتو Timbuctu (*)، كما يذهب المغامرون إلى البلاد

(*) تمبكتو : عاصمة سلطنة مالي وكانت تعد من أهم الحواضر الإسلامية في السودان الغربي . (المراجع)

العميقة الواقعة خلف السودان ، سعيا إلى تجارة الرقيق ، وتجارة الذهب والعاج وأيضا ريش النعام ." تحدث الحاج نجم أيضا عن المدن الكثيرة التي على شاطئ البحر : كما تطرق أيضا إلى العواصم الكبيرة . وفى فاس ، كان عدد المساجد يقدر بثلاثمائة مسجد ، إلى حد أن الإنسان عندما يدخل وقت الصلاة يمكن أن يسمع أصوات المؤذنين تنبعث من كل مكان فى أرجاء المدينة ؛ كما أن عدد الحمامات يقترب أيضا من عدد المساجد : وهناك نهر ينساب خلال المدينة ، يجلب السكان منه المياه النقية . والجميل أيضا أن ينظر المرء إلى الشوارع العالية المستقيمة ، وإلى المنازل المبنية حفاظًا على خصوصية العائلات [في ضوء الغيرة على الأسرة الإسلامية ،] فى كل مرحلة من المراحل ، زد على ذلك أن الأسواق تغص أيضا بكل ما يلزم الحياة اليومية ، كما أن كل حرفة من الحرف لها مكان مخصص لها ، إلى حد أن الإنسان يستطيع خلال رحلة قصيرة ، الحصول على كل ما يحتاجه دون أن يضيع وقته فى البحث هنا وهناك ." رد الأعراب ، وهم يأخذون بعين اعتبارهم كل كلمة من كلمات الحاج نجم ؛ وبعد أن انتهى من كلامه قالوا : "اسمع ! يا حاج نجم ، أنت لديك أشياء رائعة يمكن أن ترويها للناس ، وتلك الأشياء هى من معارفك الخاصة : أى ، والله ! من يسافر يرى الكثير ، ومن منا ، بخلاف من استمعوا لهذا الحكى ، يمكن أن يخطر بباله كل ذلك ؟ الدنيا كبيرة ، بلا شك ، وفيها الكثير من العجائب ، عجائب أكثر بكثير مما نعرف :– صدقت ! يا حاج نجم ، ماذا نكون نحن البدو ، سوى دبوش ، أو إن شئت فقل قطيع من الحيوانات الصغيرة !" – أثناء عودتنا إلى خيامنا قال لى محسن : "أنا معجب بالحاج نجم ، وهو يتكلم بطريقة شيقة ، وإذا ما تتبعه أحد ، فإنه قد يعانى من مصطلحاته المغربية ، وأنا شخصيًا لا أفهم أكثر من نصف كلامه ." وأنا لم أحتاج معه إلى مترجم : وقد لاحظت أن الأسماء الغربية للبلاد الأجنبية ، وكذلك الأشياء الأجنبية أيضا كانت تربك البدوى الذى تربى فى الصحراء وتحيره .

كانت درجة الحرارة أقل مما كانت عليه من قبل ؛ كانت تلك الأيام تشبه الأيام الأولى من فصل الخريف ، ومع ذلك كانت درجة الحرارة فى فترة العصر تتراوح بين ٤٠,٥م و ٤١° مئوية . كان الحاج نجم العجوز ، قد طرد محمد ، ذلك الصبى البدوى من القلعة ؛ ولذلك جاء ذلك الصبى لتمضية الليل معنا فى خيمة محسن ، الذى وافق

نظير الحصول على صقر ذلك الصبي ، أن ينقله في الغد إلى قرية العلا ، الذي يمكنه السفر منها إلى أهل أمه البدوية . وفي الصباح ركب محسن راحلته ، ومن خلفه الصبي كما ركبت أنا أيضا ناقتي وذهبت لزيارة البلدة معهم . ترك الصبي البدوي زوجته تقطع المسافة سيرا على الأقدام، إلى أن تصادف أن مر بنا قبلي جاء للتسوق ، فأركبها خلفه ، على غير رغبة منها . مررنا على قبر بدوي منعزل ، موضوع حوله بيارق برية من الحجر الرملي ، – قالوا ، هذا شيخ كبير من شيوخ ولاد علي ، مدفون في هذا المكان . وبالقرب من نهاية الأخمة Akhma ، أروني صخرة مجوفة ، يطلقون عليها اسم "مخزن Makhzan الجندي el-Jindy ." – وأن طريق الحج القديم كان يمر بذلك المكان متجها إلى قرية العلا . "توفت زوجة أحد الجنود أثناء السير ، وعجل زوجها بدفنها في ذلك المكان ؛ ونظرا لعدم وجود امرأة ضمن الجماعة المسافرة ، تقوم بإرضاع طفل المتوفاه ، فقد تغاضى ذلك الجندي ، عن ذلك الطفل بأن تركه في ظل الصخرة . وعندما عاد الأب مرة ثانية مع عودة الحج إلى المكان نفسه (بعد ذلك بسبعين يوما) وجد طفله ما يزال على قيد الحياة ، بعد أن تولت إناث الغزال الصحراوي إرضاعه ."– نزلنا عن راحلاتنا في قرية العلا ، عند دخول وقت الظهر ، أمام قهوة موسى : كان القاضي في ذلك الوقت مريضا بالحمى . زرت هذا الرجل الطيب في منزله وتركت له شيئا من الكنين(*) .

عندما عثرت على هويشيم ذهبت معه إلى منزله كي أبتاع بعض المؤن ، وأدخلني الرجل إلى مخزن بضاعته ، حيث شاهدت فيه أكواما كبيرة منظمة كل حسب نوعه ، وكل هذه الأكوام كانت من التمور الجديدة . وطلب مني الجلوس أمام أفضل أنواع هذه التمور ورجاني أن أجرح صيامي ، وأحضر الرجل لي شيئًا من السمن في الطبق الذي يستعمله قاعدة لمصباحه . وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث سمعنا شيئًا من الضوضاء في الشارع ، كما سمعنا أيضا حركة أقدام عند باب المخزن ، وهنا أمسك هويشيم بصفيحة التمر ، ليخفيها عن أعين أي من البدو الجوعانين الذين يمكن أن يدخلوا علينا فجأة . وسرعان ما دخلت علينا عنزة ، وهنا دخل علينا ، بعد خطوتين من

(*) الكنين : عقار قديم كان يستخدم في علاج بعض أمراض القلب . (المراجع)

دخول العنزة ، ذلك القبلى المسكين ، الذى كان يقتاد تلك العنزة بدلا من النقود . ولكن هويشيم عنف ذلك القبلى ووبخه وهو يصيح قائلا : "أخرج ، أيها البدوى الكلب ، أخرج من منزلى ، أنت وعنزتك ! - عليك اللعنة - لعن الله الأب الذى أنجبك !" واعتذر الرجل القبلى عما بدر منه : "هو لم يطلب شيئا سوى عنزته !" ولم يجرؤ ذلك القبلى على مجادلة أى إنسان فى الواحة ، نظرا لأن الجميع سوف يطاردون مثل هذا البدوى بالأذى والصياح والاحتقار . قال هويشيم عن الفكارة "مافى MaFi أرذل Arzal منهم Minhum " بمعنى "ليس هناك من هو أرذل من البدو المترحلين ."

بعد دخول الليل ، خرجت أبحث عن جماعتنا البدوية بين النخيل ، إذ كان من المقرر لتلك الجماعة أن ترحل قبيل منتصف الليل ، أى عند طلوع القمر ، عثرت على محسن ومعه عدد قليل من البشر ، نائمين على حصر مفرودة فى مزرعة التاجر ، وكان البعض منهم يشربون القهوة .- قمنا برحلتنا متجهين نحو الجزء العالى من الأرض ، وكنا نسير أثناء الليل ، وبعد مسيرة طويلة ، وصلنا إلى الأرض الفضاء التى أمام سهل الحجر ، وهذا هو القمر العجوز يعكس القليل من الضوء ، وشاهدنا النار التى يشبها الناس باستعمال حجر الصوان أمامنا ، كما لو أن شخصا كان يريد التربص بنا ، ورأينا فى ذلك أيضا الكبريت الذى يجرى إشعاله فى بنادقهم الطويلة ! - الحياة العربية مليئة بالمخاوف التى من هذا القبيل . وهنا لاذ البدو بالفرار على ظهور نياقهم ! أما الحريم فقد رحن يجرين هنا وهناك على أقدامهن ! وهذان هما رجلان جاءا معنا وكانا يقودان عددا قليلا من المواشى الصغيرة (الغنم) ، راحا يضربان تلك الأغنام ويستحثونها عن طريق الضرب المبرح حتى يمكن إخفاؤها فى ظلال الصخور المعتمة . ورحت أنظر حولى فى ذلك الضوء الخافت بحثًا عن محسن ، رفيقى ، ووجدته يتجول فوق السهل : سارعت أجرى فى أثره ، ونظراً لأن قبيلتنا كانت هى التى تسيطر على تلك الديرة وتمتلكها فقد كنا جميعا ننزل إلى الأسفل ونحن مجردين أو إن شئت فقل : عزُلا من السلاح. وهذه هى ناقتى العجوز ، قد بدأت تجرى وسقطت من تحتى مرتين ، وكنت كلما أوقفتها ، كانت تتماسك على مضض وعلى نحو كنت أخشى معه أن تجهض وتخسر وليدها الذى يقال إن عمره يصل إلى عدة أشهر حاليا فى بطنها ، وهذا هو جوال التمر الذى كنت أحمله فوق ناقتى ، مساعدة منى لامرأة مسكينة ، هذا هو

الجوال يسقط من فوق عدة (سرج) الناقة . تساءلت: "ما كل هذه الفوضى يا محسن ؟"
- أجابني "إنهم الصباليص" ، ولكننا عرفنا بعد ذلك ، وبصورة متدرجة ، أن تلك الفوضى لم تكن سوى إنذار كاذب . ولكن ناقة محسن العفية ، عندما استشعرت هواء الليل العليل ، شردت لوحدها ، وراحت تجرى ومحسن من فوقها ، قاصدة مدائن صالح . وعندما وصلنا إلى مدائن صالح قبل طلوع الفجر بلحظات ، وجدت محسناً جالسا في تفكير عميق داخل منزله (بيته) ، الذى وصل إليه قبل وصولى بنصف ساعة . وعندما ووجه محسن بتلك الحماقة – فقد تخلى عن رفيقه – راح يبارك ، بصورة تهكمية ، معرفة الأباء لتلك التوافه التي واجهتنا ، وراح يسم الجميع بأنهم "بدو" وأنهم أيضا "أجسام مصابة بمس من الجنون ." وقال إن السبب وراء تلك المتاعب التي وقعت أثناء الليل ، هو زنجي شاب ، أو إن شئت فقل العبد الذى حرره الشيخ مطلق ، الذى كان يمر متأخراً ، ولم يكن أمامه من بد سوى إشعال غليونه ، عندما سمعنا مقبلين عليه ، ظنا منه أنه سوف يعود بصحبة جماعة صديقة .

زار منزلنا كل من مشوات Mishwat ، شويش Shwoysh ، وسيدان Seydan وكلهم من المواهيب : هذا هو شويش ، الذى لديه زوجة جميلة جداً في بيته ، جاء لإقناع زوجة هاربة ، موجودة حاليا بين بدو الفكارة ، بالعودة معه إلى البيت . وهذا هو داريش Daryesh ، الذى انتقل مع أسرته من طُلَحٌ ، جاء إلى هنا لينصب خيمته أسفل القلعة . كان داريش قد قام مؤخرا مع دولان Doolan وشخص آخر برحلة طويلة إلى ديرة الرولة Ruwâlla على بعد حوالى ٢٥٠ ميلا ؛ وهاهم عائدون خاويبي الوفاض ومرهقين ومتعبين من منطقه تقع إلى الخلف من منطقة الجوف . وعندما كانوا قريبين من وادى تربة عثروا على ناقتى ، كما تعرفوا أيضا على أثر أقدامها ، كما تعرفوا أيضا على آثار أقدام حوريش الحافية . حكى داريش لهم الحكاية ، ونزلوا من فوق راحلاتهم كيما يتثبتوا مما شاهدوه: وهنا راح دولان يبتسم لى "ها – ها – ها! خليل ، نعم ، هى – هى – هى ! لقد عثرنا على كل شيء في الرمل ، وبالتالى قلنا نتوقف طلبا لشيء من الفرح والمرح . "عفوا" Afuah (Elafu) والله ، "عشت" Aysht يا خليل بمعنى "أعطاك الله الصحة والعافية على ما فعلت" : ويضع هذا المسكين يديه على كتفى ويجثو على ركبتيه من الضحك . وقد استراحت قلوب الواقفين عندما رأوا النصرانى

قد هز حوريش الفتُّوة (القبضـاى) (بل وأخذ جمله نو السنامين ، من وجهة نظرهم) .
"والله ، يا خليل ، أنت ولد عـمىٍّ ، - ومـا رأيك فى داريش ؟" - لم يطق الذهاب إلى داريش ليبلغه بردى على سؤاله الذى قلت فيه إن داريش "غندور ، مزده بنفسه ، وشخص متعال متكبر" وأن الشيخ السراحينى ، عندما التقانى للمرة الثانية ، كان يبدو أنه أعلى منى قامة ، كما اكتشفت أن إحاطة الغريب علما بشهامته وكرمه كان أمرا مناسبا تماما . هذا هو دولان يعرج بعد أن رفسه الجمل ، والمعروف أن ضربة قدم الجمل ثقيله جداً ، وتدهور حاله فى هذه الدنيا ، الأمر الذى أدى إلى إيكال مهنة الراعى إلى شخص آخر . قال ذلك الفهجى المسكين " معناش " (*) Manásh بمعنى "لم يتبقى لنا أى شىء " ، وراح ذلك المسكين يعض ظفر إبهامه بأسنانه . عاد الموءاهيب مرة ثانية إلى وادى ترية . وهذه هى البئر تمتلئ ببطئ ، وأن ذلك حدث ، على حد تعبير البعض منهم ، منذ استحمام النصرانى فى تلك البئر ، "وكتابته" على الماء ؛ يا لهذا الكلام ، ألم أعمل هناك طيلة فترة الصباح فى تطهير القنوات والمجارى المائية ؟ وترتب على ذلك أن أصبح تيار الماء أقوى من ذى قبل ، الأمر الذى جعل البدو يقولون : "لقد أحسن الغريب ، وقسما بالله أنه أفادنا ، ويتعين على كل من يسقى من هذا الماء أن يحلب عنزة لذلك الغريب ."

في ذروة هذا المناخ ، كنت أراقب تقلبات الجو يوميا باستعمال الباروميتر . كان ارتفاع مدائن صالح [...] يصل إلى ما يقرب من ٢٩٠٠ قدم .

(*) هذه الكلمة إضغام للعبارة البدوية "ما معنا mamána شىء "Shy" أى لم يعد يتبقى لنا شىء مما كان لدينا من قبل" . (المترجم)

الفصل التاسع عشر

تيماء

الرحيل مع الأعراب بصفة نهائية عن مدائن صالح . إنذار مع مطلع الشمس . كارثة المواهيب. الرحلة إلى تيماء . مشاهدة القمر الجديد. بداية شهر الصوم الكبير . منظر تيماء من بعد . المزارعون . امرأة فقيرة مشتتة الذهن . بيت ريفى فى الضاحية . رمضان . جنى التمر الجديد . حديث الحضر حول تنور القهوة . صباح شاق . عابر سبيل يتناول طعام الإفطار . حسن . عجيل . زيارة المرضى . عادة التُّفْل على العيون المتورمة . خلف ، شيخ تيماء . إفطار الصيام الكبير بعد غروب الشمس . عشاء الصيام الكبير عند منتصف الليل ."حكايا" البدوى "عن الرحالة" . بدوى من الشمال يتكلم منصفا النصارى . أحد المنفيين من العلا . توبيخ واحد من المتشددين . أعمدة أثرية . أسرة حدّاد . تيماء ثلاث واحات . فرس بثلاث أرجل . صيد الطيور البرية فى تيماء . هجرة الطيور . النصرانى لا يراعى صيامهم . محسن ينصب خيمته فى حوطة أو بستان من بساتين تيماء . لعبة الدُّاما . صيام النساء . قلق محْسن على أهل بيته . فصل الربيع . "البدو هم الذين سيتقنون الإسلام". رأيهم فى صيام المسيحيين .

أخيرًا ، وبعد انقضاء عدة أيام أُخر من الحر الشديد ، والتى كانت بمثابة الأيام الأخيرة من ذلك الصيف ، وعلى وجه التحديد فى الثامن والعشرين من شهر أغسطس غادر الأعراب سهل الحجر . وهاهم "يُيمِّمُون وجوههم مرة أخرى شطر" بلاد تيماء ، وركبت أنا معهم وأنا أحس بسعادة بالغة مثل السعادة التى يستشعرها التلميذ عندما يترك مدرسته الداخلية عائدا إلى منزله ؛ - وتخلصت أخيرا من احتقان العينين واحتقان الأنف اللذان يصيبا من يعيش فى منطقة هذه القمم الصخرية ، كما تخلصت

أيضـا من القلعـة ومن المغـاربة الخطرين الذين فى مدائن صـالح . الآن وبعد أن تركنا منطقة طريق الحج التركى ، أصبحت أجد أمامى ، أو إن شئت فقل الجزء المرتفع الحرُ من الجزيرة العربية !

تجاوزنا السـهل المغلق الموجود فى الناحية الجنوبية الشرقية . شاهدت الكثير من الصـقور التى كان يحملها راكبو النياق فى تلك الرِّحْلة ؛ لقد أشتروا هذه الصقور من عرب البوابة ! وهناك بعض أخر من سادة البدو ، كانوا يحملون معهم فى تلك المسيرة كلاب الصيد الخاصـة بهم ، فوق ظهور الإبل ، مخافة أن يؤثر الرمل الحار على أرجل هذه الكلاب . استمر ترحالنا على شكل مسيرات قصيرة فى اتجاه الشرق طوال أربعة أيام ، وكان البدو كلما توقفوا فى فترة ما قبل الظهيرة ، يطلقون ماشيتهم فى المرعى . وبذلك تكون حرارة الصيف قد انتهت بالنسبة لنا فى هذه المنطقة المرتفعة متحركة الهواء. وعند شروق شمس الغد وبينما كنا جالسين لمدة لحظة ، قبل استئناف الرحلة ، وأمامنا نار شببناها على وجه السرعة ، وجدت أن مقياس درجة الحرارة قد سجل ٣٧ْ فهرنهيتية ؛ واتضح لنا أن الريح التى كانت تهب علينا كانت ريحا باردة .

وأنا هنا سوف أترك تلك القرية الجائلة ، وأذهب مع محسن وجماعةً من القبليين المساكين الذى سيذهبون لتمضية شهر رمضان فى بلدة تيماء ، حيث بدأت بشائر نضج محصول التمر الجديد . وسوف تجىء القبيلة إلى تيماء بعـد شـهر مـن الآن ، أو بالأحرى فى الأيام الكبيرة من الصوم الكبير (*) عند المسيحيين ، وذلك لتمضيه أجازة العيد فى القرية من ناحية ، ولشراء التمور أثناء موسم الحصاد .

عندما طلعت شمس اليوم الأول من شهر سبتمبر ، وبينما كنا نغادر منازلنا ، سمعنا صرخات فى جانب من جوانب المخيم ، تصيح قائلة : "القوم" El-Gom ! . وعلى إثر هذه الصرخات اندفع القبليون من بيوتهم ، وقد لف كل واحد منهم حزام الطلقات حول جسمه ، ويمسك فى يده بندقيته الفتيلية الطويلة ، أو مسلح برمح أو حربة . واتجه

(*) الصوم الكبير : صوم أربعين يوما قبل عيد الفصح عند المسيحيين . (المترجم)

الشيوخ لإحضار خيولهم ، في حين تقدم المشاة إلى الأمام ، وراح الكل يصيحون .
ولم يتبق مع الحريم سوى عدد قليل جداً من الرجال المسنين ؛ وشيئا فشيئا "ظنوا أنهم يسمعون أصوات الطلقات تصدر من الخلف" . وهذا هو زيد مر علينا ، وهو بطيء بعض الشيء ، ويعدو ولكن ببطئ . كانت قسمات وجهه توحي بالصرامة ، وكان يستحث فرسه سعيا إلى المناورة والمحاورة التي كان يحاول القيام بها ، وكان الرمح الطويل يهتز على كتفه ، فضلا عن أن سوالف شعره الإسلامية كانت تتهفهف مع الريح راجعة إلى الوراء ، هذا هو أحد أبناء السبيشان Sbeychan يبدو كما لو كان شخصية عسكرية محاربة . وهؤلاء هم الصبية المتحمسون يقفزون فوق نياقهم ، ويسوقونها نحو الميدان ليقفوا على تطور المعركة : هذا الإقدام من جانب هؤلاء الصبية يقدره الكبار حق قدره . وهذا هو محسن ألقى حمله على الأرض ، وجرى في إثرهم ، بلا سلاح فوق ناقته المجنونة . ولم يمض وقت طويل حتى شاهدنا رئيس كتيبتنا قادم علينا : – (وكما قيل) فإن ركوب مائة رجل على إبل بسنامين يعد منظرا مهيبا ، عادوا راكبين فوق سُرُوجهم المرتفعة أو إن شئت فقل : العالية ملتزمين بالخطوات العميقة لماشيتهم ، وسط لمعان الحديد، ويتغنون بأغنية الحرب، على شكل نسق طويل يشبه نسق القطعان.

علمنا بعد ذلك بنبأ الكارثة التي وقعت لأصدقائنا ! فقد عثر الرعاة الأول على بعض الإبل الغريبة في الصحراء ؛ وقد تعرفوا على تلك الإبل من العلامة ⊃ التي تدل على أن تلك الإبل مملوكة للمواهيب ومن هنا راحوا يصيحون ، وبعد تكرار ذلك الصياح نفسه بعد الرعاة، وصلت أصداؤه إلى المنازل .– وعندما تولى ذريح Therryeh قيادة الجماعة المسلحة ، جاء رعاة تلك الماشية للقاء هذه الجماعة المسلحة وتحية تلك الجماعة بالعبارة التي تقول : "قوَّاك Gowwak يا ya ذريح Therreyh ، نحن من بدو العواجي "وأخذنا" المواهيب بالأمس فقط ؛ والله ، أخذنا كل إبلهم في كل من سهل الحجر ، والمنطقة المجاورة لوادي تربة ." – ونظرا لأن بدو الفكارة على الجانبين كانوا أصدقاء لبدو العواجي ، فلم يستطيعوا التدخل بين الطرفين ؛ ولكن لو أن المواهيب كانوا يتحركون ويخيمون مع بدو الفكارة في ديرتهم ، لما تحداهم البشر وتعدوا عليهم .
تجمعت من جديد ، في صمت وتأمل الجماعة المتجهة إلى تيماء ، كان قوام تلك الجماعة

حوالى أربعين راكبا ، وراح كثير من أفراد هذه الجماعة كل يفكر ويتدبر تهديد أمنه وسلامته بصورة مستمرة ، وهو يواجه ذلك الحظ العاثر . وخلال ساعة واحدة كان أصدقاؤنا المقربين قد خسروا أرزاقهم أو إن شئت فقل : معاشهم ؛ واتضح حجم الهزيمة الكبيرة نظرا لأننا شاهدنا شيوخ هؤلاء الأصدقاء - لا من باب تجنب هذا الخطر وإنما لوصولهم متأخرين إلى أرض المعركة - وقد توجهوا للتعبير عن خضوعهم المذل للأمير . وهنا تنهد الأعراب أسى وحسرة وبلا اعتراض على ما يجرى ، ثم توقفوا بعد ذلك عن الشكوى قائلين : "لقد حدث ذلك بقدر من الله (سبحانه وتعالى) !"

بعد مسير ساعتين ونحن ركوب على ظهور نياقنا وصلنا إلى المسقى طلبا للشرب وملئ قراب الماء من بئر منعزلة من آبار القدماء ، وهذه البئر مبطنة بالحجر المبنى ؛ وبالقرب من تلك البئر كانت هناك شجرة من أشجار التين البرى . وأثناء سيرنا فى ذلك اليوم مررنا بثلاثة آبار صغيرة ، التى تكثر (فى المناطق التى لا تكون المياه الجوفية فيها على عمق كبير) فى كل أنحاء خلاء صحراء الجزيرة العربية القاحلة : هذه الآبار تكفى لسقيا مواشى السكان الصغيرة .

كانت الرحلة ساكنة وخانقة الريح ، ونزلنا عن دوابنا قبل العصر ، فى منطقة وجدنا فيها ظلا ناشئا عن صخور ضخمة ، كما وجدنا فيها أيضا بعض أشجار الطلح ، فضلا عن مرعى للإبل . خلد الرجال إلى الراحة وراحوا يشربون القهوة ؛ وشبت ربات البيوت النيران ورحن يخبزن خبزا سريعا ، تحت رماد النيران ، هذا الخبز كان مصنوعا من آخر وجبة لديهم من وجبات الشعير . وبعد ساعة أو ساعتين ، وعندما أفاق الرجال والحيوانات من الحرارة الخانقة ، ركبنا راحلاتنا من جديد واستأنفنا مسيرنا فى الصحراء ، أو إن شئت فقل : فى السهل الصحراوى ، إلى أن أوشكت الشمس على الغروب ، وعندها توقفت الجماعة فى منطقة سبق لهذه الجماعة أن خيمت فيها فى فصل الربيع ."تعجبت قائلا : أيها الرفاق ، هذه هى أم سبع ! Umsubba" ولكن هؤلاء الأعراب أحسوا بخيبة الأمل والإحباط، وذلك من باب التخوف من الأعداء ، عندما سمعوا غريبا ينطق باسم المكان ، بالرغم من أن ذلك المكان تميزه تلك المسلة الطويلة الفريدة المكونة من الحجر الرملى .

ومن حول نيران الحراسة راح الناس يتساءلون فيما بينهم ، حول إذا ما كانوا قد جرحوا صيامهم في ذلك اليوم ، الذي حدده بعض شيوخ هؤلاء البدو على أنه اليوم الأول من شهر الصوم : ولكن محسن المتحرر ، قال : إنه لا ذنب على من أكل "إلى أن يرى الهلال الجديد (وغالبا ما تكون تلك الرؤية في مساء اليوم الثالث من الشهر) ، وبعدها يصوم الناس الشهر اعتبارا من ثبوت تلك الرؤية" . بعض آخر ردوا عليه : "الناس في المدن يعتمدون على الهندي (المقصود علم الحساب الهندي) ، وهم يقولون إن ذلك الحساب دقيق ولا يخطئ مطلقا ، ولكن ما الذي نعرفه نحن البدو !" استطعنا في دجنة الليل ، مشاهدة القمر الجديد عند الغروب ، وعمره ثلاثة أيام : وراح البدو يحيون تلك العلامة السماوية بشيء من الأدعية الدينية ، وبخاصة أن تلك العلامة جلبت لهم شهر التدين والتقوى. سكان الصحراء يصومون كل شهور حياواتهم، وهم يلتزمون بذلك الصيام اليومي ويراعونه بدقة بالغة في ذلك الشهر الفضيل . ولكن رمضان عند البدو عبارة عن إرهاق غير عادي يشيع فيه تأوهات هؤلاء البدو وشكاواهم ؛ إذ يصبح من الصعب على هؤلاء البدو الامتناع عن الشرب وعن تدخين التبغ لحين غروب شمس الصيف : بل إن المتزوجين يفترقون عن زوجاتهم طوال أسابيع الصوم . والبدو الرحل هم والقرويون يقولون إن شهر الصوم الكبير الذي يتعين الحفاظ عليه نظيفا وطاهرا ، يتحول إلى موسم للشر والخبث ، إذ تنساب فيه رذائل الطبيعة البشرية . والذين يراعون الصيام والصلاة خلال هذا الشهر ، من بين البدو لا يزيد عددهم على النصف بأي حال من الأحوال ؛ - أما بقية البدو فمن "الجُهال" ،- بمعنى أنهم لا يعرفون كيف يؤدون الصلاة ، ومع ذلك فهم يحتفظون في داخلهم بقليل من التطرف والتشدد ، وهذا نوع من الحقد الوطني أو إن شئت فقل: شكل من أشكال الوطنية السامية Semitic . - وبالنسبة للرعاة الذين تشويهم طول النهار حرارة الصحراء ، يصعب بل ويستحيل عليهم أن لا يشربوا الماء إلا بعد أن ينطفئ فرن الشمس عند غروبها . المسافرون عليهم القضاء ؛ القرآن يرخص لهم أن يقضوا الأيام التي عليهم عندما يعودون إلى ديارهم .

بدأنا مسيرنا في ساعة مبكرة من صباح الغد ، وكان ينتظرنا طريق طويل خانق ساكن الهواء ، يتعين على البدو قطعه أو إن شئت فقل تجاوزه اليوم وهم عطشانين ؛ وعندما بدأت حرارة الصباح تزداد من فوقنا ، كنا قد قطعنا مسافة كبيرة في اتجاه

قرية تيماء – هذه هي العلامة الأرضية المتمثلة في جبل غنيم(*) Ghreneym بدأت تظهر لنا – وها نحن نصل إلى تلك التربة العارية الجرداء التي تقع قبل بلدة تيماء ؛ هذه التربة عبارة عن أرضية من الصخر الرملي أرجواني اللون ، المشوب بأحجار الحديد وبالحصى أيضا ، الذي لا تنمو فيه الحشائش بل ويندر أن نرى فيه أي دغل من أدغال الصحراء . مع بدايات فترة العصر بدأنا نشاهد أعراف نخيل الواحة ، ثم اقتربنا بعد ذلك من مسوَّر البلدة الدائري . هذه هي البساتين الخارجية بدأت تطالعنا ونحن نقترب منها ، – هذه البساتين تشبه في نظرنا جنة عدن بعد منظر الصحراء الذي تعودت عليه عيوننا ؛ وها نحن نرى النخيل المحمَّل بالثمار ، من تحت الأعراف الجميلة ؛ هذه تمور ذهبية اللون ، وتلك تمور أرجوانية اللون . لقد مرت جحافل الجراد هذا العام على القرى كلها ، ولم ينجو من أشجار تلك القرى سوى ما يزيد قليلا على النصف وبخاصة في قرية تيماء . تفرقت الجماعة وراح كل عضو من أعضائها ينصب خيمته فوق أرض صديقة . أما أنا فقد رافقت محسن ، حيث برَّكنا إبلنا فوق بعض بقايا الجدران الطينية المهدمة في أرض واسعة : وراح الرجال ينادون في عجالة على ربات البيوت ويطلبون منهن نصب الخيام ؛ نظرا لأن البدو العطشانين يودون اتقاء حرارة تلك الشمس الحارقة .

خرج علينا من البوابات التالية بعض العمال الذين كانوا يحملون فؤوسا في أيديهم ؛ طلبت من أولئك العمال عُلوجًا من التمر الجديد (من باب إحسانهم السامي Semitic إلى الأغراب) ، وكوبا من الماء . "(قال القرويون وهم يتعجبون) أخ ! ما لهذا الرجل الذي معكم ، أيها الفكارة ، الذي يأكل ويشرب في رمضان ، ومازالت الشمس طالعة ! – يا للعار ! ألا تعرف الله ، يا أنت ؟" ثم انهالت عليَّ بعد ذلك التعليقات والتوبيخ من كل جانب . قال أحدهم : "أليس هذا هو خليل الكافر ، ذلك الرجل الذي كان هنا من قبل ؟ نعم ، إنه هو ." – "خسئت يا أنت ، يا من تمنع عنى

(*) جبل غنيم : من الجبال المقدسة عند التيامنة الذين كانوا خاضعين للمملكة النبطية . وقد وجدت في قمة ذلك الجبل العديد من المخربشات المكرسة إلى الإله الأكبر «صلم» تدعوه إلى أن يحقق النصر على الأعداء. (المراجع)

الطعام وأنا عابر سبيل ، مسافر musafir" – (قال صوت امرأة ، تصادف أن كانت تمر بالقرب منا وسمعت ما يدور بيننا) " ها ! هذا الغريب يقول الحق ، إنكم أنتم ، يا رجال تيماء ، الذين لا تخشون الله ." ثم مضت مسرعة في طريقها بعد ذلك . وفي وقت آخر ، وبينما كنت أسير معهم ، جاءتني تلك التي كانت تبدو امرأة مسكينة من البدالة Bedlam ، وهي تجرى ، وراحت تشدني من عباءتي دون أن تقول كلمة واحدة ، وفتحت حجابها ؛ وبنظرة تدمي القلوب مدت إليَّ هذه المرأة يديها الضعيفتين ، وهما مملوءتان بالتمر والرمان ، وراحت تومئ لي برأسها إشارة منها لي بقبول هذا التمر والرمان ؛ كانت تلك المرأة تعيش في المكان الذى قصدناه للسقيا وطلب الماء .– هذه المرأة المسكينة جاءتني في المساء ، كما لو كانت شبه مشوهة وتكاد تتراجع مما تراه. "قالت : أيها الغريب ، تبًا لي ! لماذا لم تأكل كل الثمار التى قدمتها لك ؟ لقد جريت وجلبت لك تلك الثمار عندما سمعتك تتحدث عن الطعام . اعلم أني امرأة مسكينة مصابة في عقلي .– يا الله ! من أعطى هو الذى أخذ ؛ لقد خسرت أطفالي ، الواحد بعد الآخر ، أربعة أبناء ، وقد رجوت الله أن يترك لى الطفل الأخير ، ولكن توفاه الله أيضا – واعذاباه ! – كان ذلك الطفل الأخير قد دخل في طور الرجولة . وأنا في بعض الأحيان يعتصرني الحزن ويضنيني ويسيطر عليّ ، الأمر الذى يجعلني أهيم مثل المجنونة ؛ ولكن قل لي ، أيها الغريب ، أليست عندك نصيحة لي في هذا الأمر ؟ وفيما يتعلق بي فأنا أفعل ذلك الذى تراه ، – أحاول تلبية احتياجات الآخرين – متطلعة إلى رحمة ربي لي في النهاية ."

– هؤلاء هم رجال تيماء ضغطوا على جماعة الآبار ، ضغطا بارعا وجعلوهم يجلبون الماء للضيوف . كان المكان المخصص لضيفنا عبارة عن بيت ريفي كبير ، يقع على بعد مسافه قصيرة من جدران البستان الرئيسى في قرية تيماء . ووسط ذلك البستان ، كان هناك مبنى عل شكل منزل ، أو إن شئت فقل : قصر kasr ، – كانت هناك مجموعة من الغرف المبنية من الصلصال داكن اللون ، تحيط بأرض فضاء طويلة على شكل مربع ، وكانت تلك الغرف مظللة لحمايتها من أشعة الشمس ، بواسطة سقف سائب محمل على أعمدة من جريد النخيل . كان بستان المضيف واحدا من بساتين النخيل ذات الأسوار الجيدة ؛ لم يكن ذلك البستان مقصورا على النخيل فقط وإنما

كان صاحبه يزرع فيه القمح أيضا ، كما كان ذلك البستان يسقى ليلا ونهارا من بئر مركب عليها جهازين لجلب الماء : ومع كل ذلك لم تكن هذه الممتلكات تكفى تماماً أو تفى تماماً ؛ بالاحتياجات المعيشية البسيطة لأسرة عربية من عام إلى عام . كان ذلك المضيف يبيع ما يزيد عليه من ثمار أشجاره غير المضمونة ، للبدو نظير ثمن معقول ؛ فقد كان محتما على ذلك المضيف دفع أجور العمالة الموسمية التى كان يستخدمها ، ودفع أجور الإبل التى كان يستخدمها فى جلب الماء من البئر ، ودفع ثمن الأدوات ، علاوة على دفع ثمن حبل البئر المصنوع من الجلد ؛ وفى ضوء ما يقوله هؤلاء الملاك الصغار ، عن مصروفاتهم وعن مديونياتهم ، يستطيع المرء أن يعرف أن أولئك الملاك يرفعون رءوسهم بصعوبة بالغة فى هذه الدنيا .

هؤلاء العرب الذين يعانون معاناة شديدة من العطش فى الأيام الأولى من شهر رمضان ، يستلقون على صدورهم يتنهدون ألما طوال ساعات النهار التى تمر بطيئة عليهم ، ويروحون يركزون أبصارهم وأفكارهم على ضوء النهار إلى أن تغرب "عين الشمس" مبتعدة عنهم . وبعد انقضاء خمسة أو ستة أيام من أيام شهر رمضان ، يكون هؤلاء العرب قد اعتادوا على الابتعاد عن حرارة وضوء النهار، ويحاولون استغلال الليل إلى أبعد الحدود . وإذا ما صادف شهر الصوم موسم حصاد القمح ، أو حصاد محصول التمر ، فإن العاملين فى جمع هذه المحاصيل يتعين عليهم تحمل العطش البالغ من أجل الدين : والمعروف أن القرويين ، فى شهر رمضان ، يتنازلون عن كل العمل الجاد ، باستثناء مسألة إدارة بئر الماء التى يجب أن لا تتوقف مطلقا . كان القسم الأكبر من أنواع التمور التى ينتجها أولئك القرويون قد نضجت وطابت مع انتصاف شهر الصوم؛ ومع ذلك ترك أولئك القرويون تلك التمور معلقة على أشجارها.- صاحب المزرعة ، الذى كررت له رجائى بمباشرة عملية الحصاد، تأخر عن القيام بذلك، كما لو كان ذلك التأخير غير نابع منه ."(همس لى أحدهم) هذا فيه ألم للرجال ، الذين يهدهم العطش والجوع ، عندما يرون شخصا آخرا يأكل الحلوى ويشرب الماء :" - صاحب المزرعة تلكأ أيضا كى يسخر بعض الشىء (وهذه رغبة يحبها العرب) من ذلك الغريب من منظور أعرافهم الدينية العالية . ثم خرج صاحب المزرعة بعد ذلك ، وأحضر لى عسلوجين من عساليج التمر الممتاز ، من ساق واحدة من النخيل ، كانت تلتف حوله

عيدان شجرة التوت ، التي كانت بدروها تحمل ثمارا أرجوانية اللون لم تنضج بعد ؛ هذا التمر المليء بالعصارة حلوة المذاق يطلق البدو عليه اسم "البلح" blah طوال فترة النضج ؛ والعرب يعدون البلح صحيحا ومنعشا تماما . يضاف إلى ذلك أن الأنواع الشائعة من التمور تكون من الناحية الغذائية ، أفضل عندما تكون بلحا ، – البلح عندما يلين عندما يكتمل نضجه على أشجاره ، وينتفخ حجمه بفعل أشعة الشمس وينساب منه نوع من عسل التمر .

عدنا إلى أصدقائنا في الكوخ عند حلول المساء ، وهي الفترة التي يُسرِّي العرب فيها عن أنفسهم ويشغلون خلالها غلايينهم التي يتمتعون بها ، وذلك من باب العزاء لأنفسهم . هذه هي النار قد شبت من جديد في الوجار الذي كان بارداً من قبل ، وهذه هي فناجيل القهوة قد جهزت من جديد ، ومشروب القهوة لا يراه الناس أو يعرفونه هنا ، في معظم الأحيان ، في هذا المكان الفقير . تلى ذلك وصول بعض الأشخاص قادمين من البلدة ، وكان كلام هؤلاء الناس معنا ، نحن القادمون الجدد عن الحدّاج (بئر الماء) المهدّم ، "قالوا لنا ، إن التيامنة مقتنعون أن البئر انهارت بعدما "كتبت عنها" ، وأنهم إذا ما رأوني مرة ثانية في بلدهم ، فوالله ، سوف يقتلني أهل البلد الذين أصابهم الغضب ." ولأنهم سبق أن شربوا معي شربة الصحبة والصداقة ، فقد نصحوني بعدم المغامرة والدخول إلى تيماء مرة ثانية :– سوف أترك الأمر لأصدقائي البدو ، لأنهم هم الذين يتعين عليهم المحافظة على حياتي . رد محسن (وقد كان رجلا حاسما) على ذلك بقوله ، "مع طلوع نهار الغد ، يتعين على خليل ، أن يركب ناقته ويعود ثانية إلى زيد." – "قلت لهم : انتبهوا ! ، إذا كنت أنا مذنبا في مسألة انهيار الحداج (بئر الماء) ، فأنا لم أجيء إلى هذا المكان بمحض إرادتي . وهل يمكن لأجسامنا أن يطول تحملها إلى أبد الآبدين ؟ المباني القديمة تسقط ، وكذلك أيضا فإن هذه البئر القديمة لابد أن تتحلل في وقت من الأوقات ." – "ولكننا سمعنا ، أنك رفضت إعادة بناء البئر بعد سقوطها!" – تركناهم على هذا الوضع في تلك الليلة .

كانت اللحظات الأولى من شروق شمس الغد ، من تلك اللحظات البشعة الثقيلة التي كانت تمر عليّ ، في معظم الأحيان ، في الجزيرة العربية ، وذلك عندما علمت من أصدقاء العيش والملح ، أن حياتي أصبحت مهددة ، وراحوا يحثوني ويقنعوني بالهرب

ومغادرة المكان على وجه السرعة . جاء إلى بعض الحريم عندما استيقظت ، - كان محسن قد غادر المكان في فترة البَرّاد ، أي قبل طلوع الفجر ، قاصدا تيماء ليبيع فيها رداء جديدا لونه مثل لون الزعفران ؛ وكانت بقية الرجال قد ذهبوا معه - هذه هي شقيقة زيد ، مضيفتي ، هي والنساء الأخريات رحن يحثونني على الرحيل ومغادرة المكان على وجه السرعة ، "مخافة أن يقتلني أحد أمام عيونهن" . - هذه الزوجات البدويات كن قد ذهبن أثناء الليل لزيارة صديقاتهن في المستوطنة ، وأثناء حديثهن ذكرن أن النصراني قد وصل بصحبة الجماعة . "صاحت ربات البيوت التيمانيات ، النصراني ! ، - أليس هذا ، على حد قولهم ، واحد من أبناء الشيطان ؟ عجبا ، جاء ليقيم بيننا ! وأنتن ، إن كنتن تخشين على حياة خليل ، فلا تسمحن له أو تتركنه يدخل تيماء ، - لأنه بمشيئة الله ، إن دخلها اليوم ، فسوف يقتل في الغد : لقد أقسم بعض رجالنا على قتل خليل ." - "ولماذا تظنون السوء بذلك الرجل ؟ وهو يعيش بين البدو منذ مدة طويلة ، وفيما عدا أن اسمه النصراني ، فليس هناك أي غبار عليه ."- "مع ذلك ، يجب أن تعلمن أنه شخص شرير ، كما أنه من أعداء الله ؛ وهم يزيدون على ذلك ، أنه ساحر ودجّال . ألم تسمعن عن انهيار الحداج (بئر الماء) ؟ والرجال يقولون : إنها عينه الحسودة .- ألم تكتشفن أنه آثم ؟ ولكن أحدا لا يستطيع أن يقطع بماهية ذلك الخليل ، ولا حتى بالمكان الذي قدم منه إلى أرض الأعراب . من الذي سبق له أن علم بمجيء أي نصراني إلى هذا المكان ؟ وأهلنا هنا يرون أنه لا ينبغي أن يبقى على قيد الحياة ؛ وقتله سيصبح ميزة ومنفعة ."

"قالت زوجة محسن ، يا خليل التيامنة مصممون على قتلك بسبب ما حدث في الحدّاج (بئر الماء) ، وهم إذا ما جاءوا فنحن قلة ولا يمكن لنا أن نقاومهم . التيامنة ليسوا هم البدو ، الذين لديهم فكرة طيبة عنك ، فضلا عن احترامهم وتقديرهم للدولة (الإمبراطورية العثمانية) ، ولكن أهل تيماء أصحاب الرءوس اليابسة ، وأصحاب أذرع طويلة أيضا ، إلى حد أننا ونحن نقيم هنا ، نشعر بالخوف منهم: التيامنة خونة ، ملعونين malaunîn ! " - قال محسن الذي وصل في التو واللحظة : "إخص ! سيأتي البعض منهم إلى هنا، أثناء بقاء خليل في هذا المكان؛ أربك الله التيامنة! أركب ناقتك ، يا خليل ، وحل بينهم وبين ما يريدون !" - أردفت النساء قائلات : "إذا ما فعلت ذلك

على وجه السرعة ، فلن يستطيعوا قتلك ." صاح الأطفال قائلين : "أركب ناقتك وعجل بالابتعاد عنهم يا عم خليل ." هذا هو صالح صاحب الشعر الأشيب ، وحامل بندقية والد زيد ، وحارس زيد الخاص ، كان يستحثني على الركوب والهروب إلى البدو ، "(قال) أعرابنا مازالوا في المكان الذي تركناهم فيه ، كما أن ولدي ومعه شخص آخر على وشك أن يعودا بناقتيهما مع الإبل ؛ هيا ، أركب ناقتك وأنقذ نفسك مع هذين الشابين ؛ وأبق مع زيد ، وبين أصدقائك ، إلى أن يحين موعد مجيء قافلة الحج ." – "وإذا كان كل ما نقوله غير كاف لتحريكك وحثك على التصرف بسرعة ، قالها الرجل العجوز هو ومحسن ، فذلك يعني أنك فقدت فهمك وتقديرك للأمور ! – وأنتم أيها الرفاق ، هذا الرجل الذي كنا نعده حصيفا وعاقلا (من خلال كتبه الحكيمة) ، يتشابه تماما مع أي رجل من الرجال الذين يتلبسهم الجن : انهض حالاً ! حتى لا يهدرون دمك أمام أعيننا . وهم إذا ما جاءوا إلى هنا ، لن يكون أمامنا سوى استعطافهم ، ولكننا لن نستطيع منعهم من ذلك الذي يريدون فعله ،– والله ، إن أهل هذا البلد ملاعين . – نحن لا نعلم شيئا عن ذلك الذي ربما يكون قد ارتآه (في كتبه) ؛ ومع ذلك ، لا تبقى هنا يا خليل ، انهض فورا ، واهرب من هؤلاء الناس مع الشابين ! آه ، من هذا التأخير ! إنه لا يلقي بالا لكلامنا جميعا ، وإذا ما بقي هنا ، فقد لا يكون أمامه من الحياة سوى لحيظات قصيرة :– وها هو خليل ، ما يزال لم يتحرك أو يفعل شيئًا !" صوت آخر ، "قد يكون الله قد كتب عليه الموت هنا ؛ حسن ، اتركوه وشأنه ." ورحت ألوم أولئك الرجال الذين وثقوا بكلام الحريم السخيف .– "وماذا سيحدث إذا ما جاء التيامنة ، ألا أستطيع أن أجعلهم يتراجعون عن طريق العقل والمنطق ؟" – "هؤلاء الذين سيأتون حالا إلى هنا سيكونون غاضبين ولن يستمعوا إلى كلام أي أحد ." – هناك حكة جلدية بين الألم واللذة ، وهذه الحكة تتمثل في تلك القسوة البالغة التي يستشعرها الأطفال ، عندما يرون شخصا آدميا مثلهم يعاني او يقاسي من كرب مميت ، دون أن يؤثر ذلك على شغاف قلوبهم ؛ وها أنا عندما أتطلع في هؤلاء الأطفال من حولي ، أراهم وهم يطيلون النظر إلى عيني ، والبعض منهم يفغرون شفاههم عجبا وحسرة ، كما أرى أيضا احمراراً غير إنساني بدأ يظهر على وجوه هؤلاء النساء ذوات الوجوه الذابلة الشاحبة . "آخ ! ماذا يحدث لو قدر الله لهذا الرجل أن يقتل !– ها نحن

نرى أنه لا يفهم ما نقول ولا يستمع إليه ، ولا أظن أنه يتغابى عن فهم ما نقول ! ها نحن نكرر ما قلناه مرة ثانية : أركب ناقتك ، يا خليل ! فليس أمامك فسحة كبيرة من الوقت . والله ، نحن لا نود لك أن يهدروا دمك بجوار بيوتنا ، وعلى أيدى أهالى تيماء المتهورين ، ونحن لا يمكن لنا أن نسلمك لهم ." – "أيها الأصدقاء ، عندما كنت فى تيماء فى المرة الأولى وجدت أهلها طيبين وعلى ما يرام" . – "عندئذ ، أنت كنت بصحبة شيخ كبير ، هو زيد ، أما هنا فليس معك من يحميك ويأويك ! – ولكن طالما حاولنا ولم نفلح فى إقناعك ، نتمنى أن لا يصل الأمر إلى ما نخافه ونخشاه ! – لقد فات الأوان ، وربنا يستر ."

عندئذ وصل شابان من أهل تيماء ، وتكلما معنا كلاما حلواً . كان أولهما يدعى حسن بن سلامى Salamy ، حسبما قال لى البدو ، وهو من الشمال ؛ ويمارس حاليًا مهنة الجزارة فى تيماء، – وحسن هذا هو الذى جلب هذه المهنة الجديدة إلى تلك البلدة التى تشبه بلاد البدو . كان ذلك الشمرى(*) يتباهى بأنه شاب متمرس فى الأسفار ، فقد سبق له أن زار الشام وزار العراق وهو حاليا يبحث عن مزايا العقل الحر. ولما كان حسن هذا واحداً من أشد العقول تحركا، فقد كان أول من خرج على أثر سماع شائعة وصول شخص غريب إلى تيماء ، واقتاد معه ذلك الشيخ ، الذى يسكن معه فى نفس السوق (الشارع) ليكون بصحبته . سيقوم حسن بنفسه بتحديد ما إذا كان ذلك النصرانى ينتسب إلى شعب من الشعوب أو قبيلة من القبائل التى سبق أن زارها ، أو ربما يكون قد مر ببلاد هذا الشعب أو تلك القبيلة أثناء اشتراكه فى رحلات القوافل. يضاف إلى ذلك، أنه دار بخلده، أن ذلك النصرانى ربما يكون فى يده شطارة Shatara أو تفوق ، فيما يتعلق ببناء الحدّاج (بئر الماء) ، وبالتالى يمكن أن يحصل ، نظير ذلك ، على الشكر والثناء من شيوخ القرية . هؤلاء التيامنة كانوا قد بنوا جدار البئر ثلاث مرات منذ حلول فصل الربيع ، بنوا جدار البئر ثلاث مرات ، وها هو ينهار من جديد . وهذا هو أفضل المهندسين القرويين ، الذى بنى منازل تيماء الوسيعة العالية من الصلصال والصخور ، كان هو المشرف على بناء جدار البئر فى المحاولتين الثانية

(*) الشمرى : من قبيلة شمر . (المراجع)

والثالثة ، بل إنه تقاضى مكافأة كبيرة على ذلك ، - تقاضى خمسين ريالا . وكالعادة ارتفع الجدار ، وقام ملاك الأراضى بتركيب عدد الرى ، وبدأت فرق الرى عملها على التربة التى لم تجف ، حتى لا يستغرق الرى زمنا طويلا ! وهنا هوت وانفصلت التربة الضعيفة ، وانهار كل ما بنوه مرة ثانية . لم يعرف التيامنة ذلك الذى يمكن أن يفعلوه بعد ذلك ، وعندما دخل عليهم رمضان ، تركوا الأمر على ما هو عليه : يضاف إلى ذلك أن العمال (حفاظا منهم على وقتهم) طالبوا بأجور أكبر ، - إضافة إلى أن هؤلاء العمال لا يعملون في شهر الصوم إلا مدة نصف اليوم فقط .

كان آخر انهيار للبئر قد مضى عليه أسبوعان . "قال البدوى ، إننى إذا كنت صاحب شطارة Shatara فى البناء ، فإن الشيوخ سوف يغدقون على ، ويعطونى ذلك الذى سوف أطلبه ."أكد حسن من جانبه هذا الكلام ، نظرا لأنه واحد من الراعيات" râiyat ، أو إن شئت فقل : أحد الملاك الرئيسيين للبئر ، أو بالأحرى فى الجزء المخصص له من البئر ، ألا وهو الجزء الذى انهار بالفعل . قلت ، "سوف أذهب لمعاينة البئر ، إذا كانا يريان أن البلدة آمنة ."- "(قال حسن) لا تخشى شيئا ، وأنا ضامن thâmin لك أمام هؤلاء الموجودين هنا ؛ وأنت إذا لم تكن صائما فتعال إلى بيتى ، وسوف أعد لك إفطارا ؛ ثم نذهب بعد أن نتناول الإفطار لمعاينة البئر ؛ ولكن فيما يتعلق بسقوط الجدار ، فهذا من الله ، وليس بيد الإنسان ." كان مغشيا على من الجوع ، وكان سلاحى مربوطا فى ردائى، وعندما سمعت أنهم سوف يأخذوننى لتناول الإفطار ، نهضت لمرافقتهم . قال البدو : "يجب أن تثق فيما نقول !" ومع ذلك جذبتنى زوجة محسن من كم جلبابى لتهمس لى قائلة ، "يا خليل ، نحن نعرفه - إنه شيخ كبير ، ومع ذلك قد يكون هنا من أجل اقتيادك إلى الدمار : احترس منهما ، "إفتح iftah "عيونك ayûn-ak " بمعنى "افتح عينيك" لأن التيامنة كلهم خونة ."

بينما كنا نقترب من نهاية قرية تيماء ناديته قائلا : "يا حسن ! هل أنت قادر على الدفاع عنى إذا ما قدر لنا أن نلتقى أحدا من الأشخاص الأشرار ؟" وهنا رد على حسن بابتسامة ماكرة ، ومن باب الخروج من مغامرة للدخول فى مغامرة أخرى ، وباستخدام العبارة السامية Semitic التى تميز كلامهم ، رد قائلا : "ليس هناك ما يمكن أن تخشاه أو تخافه ، وأنا أضع كل هؤلاء الناس فى بطنى ." وعن طريق

حارات البلدة وصلنا إلى عتبة دار حسن الكبيرة . جلسنا فوق سجادة تركية زاهية الألوان ، في الفناء الذى يقع أمام قهوته ، وتحت تكعيبة كبيرة من تكعيبات العنب ، التى كانت أذرعها الممتدة تشبه غابة أمام اخضرار أشعة الشمس : ودخل علينا جار واحد أواثنان . وصبوا على يدى ماء من الإبريق ábrik ، ووضع المضيف أمامى صينية من التمر الذى يطلقون عليه اسم "الحلو" – هذا النوع من التمر يسيل منه سائل حلو يشبه العسل – أحضروه لى وهو ساخن بفعل أشعة الشمس ومعه بعض من الرمان .– تعجبوا عندما رأونى آكل دونما اعتبار للصيام العام ، ولكنى استرضيتهم عندما قلت : "أما imma أنا ana مسافر musafir " بمعنى "أنا على سفر ." أبتسموا عندما أخبرتهم بأن البدو لا يثقون بهم ، فيما يتعلق بى ، وقلت لهم أيضا : "الحال هنا يشبه البدو ! ولكن ، يا خليل ، ليس لديك هنا ما يمكن أن يخيفك ، بالرغم من وجود بعض العقول بيننا مثلما هم بين البدو ؛ ولكن أصحاب مثل هذه العقول يخشون الشيوخ ، وهم عندما يرونى معك ، "خلاص" ! khalas بمعنى "انتهاء الخطر وزواله ."

اتجهنا صوب البئر الكبيرة ، حيث سمعت عندها أصوات كثير من الشبان والبدو العاطلين – "انظروا ، ها هو قادم ، انظروا إنه الكافر ! هل سيقتله الشيوخ ؟ أليس هذا الكافر هو الذى تسبب فى انهيار الحدّاج (البئر) ؟ أم أنهم سوف يكلفونه ببنائه من جديد ، ويكافئونه على ذلك ، وهم يقولون ، إن البئر عندئذ سيكون أفضل مما كان عليه من قبل ." رجانى حسن ألا أعير كلام هؤلاء الأوغاد أى قدر من الاهتمام ؛ وعندما مررنا حول البئر ، تركنى حسن هناك ، وقال لى إن أحداً لن يجرؤ على إصابتى بأى أذى . هذا الرجل الذى يشبه الفراشة الشجاعة ، والذى يضع على رأسه غترة زاهية الألوان قيمتها ريال واحد ، لن يُرى بعد ذلك بصحبة الكافر .– لم يكن ذلك من قبيل الأمانة : ذلك أن الأمر عندما يتعلق بالدين ، فإن الشجاعة الفردية تختفى من تلك الشهامة المظهرية ، إذ يصعب على فرد واحد الوقوف فى وجه الجماعة . من هنا اقتربت من بعض كبار السن الذين كانوا جالسين يتفاهمون تحت إطار واحدة من السوانى (السواقى) : وعندما ألقيت عليهم السلام ، حيونى هم بدورهم بتحية معقولة ؛ وسألتهم إن كان هناك خطر فى تنقلى خلال البلدة؟ "لا تشك فى أى شىء ؛ وقالوا لى ، ادخل واخرج ، حسبما يحلو لك فى كل دروب وطرق تيماء ، ولا تلقى بالا لكلام أولئك

الشبان الأغبياء ." – لقد ذهب الشمرى ، يحمل رسالة "للأمير" ؛ ولذلك استدعى كبير الشيوخ في تيماء (في عهد بن الرشيد) وهو الشيخ خلف khalaf العمَّر el-Ammr . – هذا الشيخ أمير (عند العرب) ، وهو بيده الأمر amr : من هنا يصبح معنى "أمير emir القافلة el-kafila " "حاكم قافلة مدينة عربية" ؛ والعرب يقولون شيئا مماثلا فى السلاح أيضا : "أمير emir العشرة" ويقولون أيضا "أمير emir مائة" . وقف البدوى على استعدادى للقيام بالمطلوب ، ولذلك قدم لهم الحجة التالية ، "بئرهم القديمة كانت من عمل الكفار القدامي ، وخليل كافر ، ومن ثم يصبح خليل هو الأفضل فى عملية إعادة بناء الحدّاج (البئر) ."

سألت من يدلني على الطريق المؤدى إلى دار عقيل Aj(k)eyl ، الذى كان واحداً من أولئك التجار التيامنة الذين كانوا يحلون ضيوفا على القلعة (قبل موسم الحج) في مدائن صالح . كان ذلك الرجل قد عرض على بشيء من الود ، أن أقيم فى منزله إذا ما تصادف أن ذهبت إلى تيماء . وهكذا شدني كلام ذلك الرجل الطيب ، كما أقنعتني تلقائيته بصدق ما يقول . ومع ذلك رجاني البدو أن لا أثق بعجيل ، "إنه آدمى أسود القلب يمكن أن يقتلني في منزله من أجل ذلك الذهب " أو معدن النقود ، الذى يتصور أهل الجزيرة العربية أنه بحوزة كل غريب من الغرباء . كان زيد قد قال لى من قبل : "قتل عجيل أخيه ، في نزاع على قطعة من النقود !" وأردف ذُريح Therryeh قائلا : "احترس من هذا الرجل ، لأن عجيل جلف بحق ." – هنا قال زيد كلاما طيبا : "أنت إنسان ساذج تماما ، يا خليل ، إذا لم تستطع بالفعل تمييز كل ذلك والوقوف عليه ، حب النقود هذا يستحوذ على الأعراب قبل كل الأشياء الأخرى : وأنت إذا ما أخذت ذلك بعين اعتبارك ، فلن يخدعك أحد أبداً ؛ صدقني ، إن أى إنسان عندما يربط نفسه بنصرانى ، فذلك يكون على أمل الحصول على شيء من المنفعة . زد على ذلك ، أن من الصعب عليك قطع المسافة من هنا إلى جبل غنيم Ghreneym ؛ ومع ذلك لابد لك من فعل ذلك ، – وأنا أقولها لك ، يا خليل ، إن بوسعك أن تتنقل فى ديرة الأعراب عن طريق الطُّعْمة Toma فقط !" – أى عن طريق إلقاء بعض اللقيمات التى تقلل من جشع الأعراب الفظيع .

ذهبت عندئذ لأتبين بنفسي ، بعد الوعود التي سبق أن أعطاها عجيل ، إن كان بوسعي أن أسكن أو أقيم في غرفة من غرف منزل عجيل : "أجابني عجيل ، كل الأماكن مشغولة ، ولكنه سوف يتحدث مع والده في هذا الموضوع ."– اقتادني شاب من أهل البلد لزيارة أمه المريضة . وفي دار أخرى ، من الدور الكبيرة ، وجدت هذه المرأة مستلقية على الأرض وتعاني منذ مدة من مرض من أمراض الحويصلات ، الذي لا شفاء منه سوى بالموت . وعدني ظاهر رب هذا البيت بمبلغ كبير إذا ما شفيت هذه الزوجة العجوز ، وسوف يسمح للحكيم بالإقامة في منزله ؛ ولكن وجه ذلك الرجل كان يوحي بالكآبة والغلظة ، كما أن عينيه كانتا توحيان بالعنف ، مما جعلني أفكر مليا في مقصده المتشدد (كما لو كان يريد أن يدخلني في الإسلام عنوة وبالقوة) ، إلى حد أنني استطعت ، عن طريق الاعتذار اللطيف المهذب ، أن أخرج من المنزل مرة ثانية وأغادر المنطقة المجاورة له عن آخرها .– اقتادني شخص آخر للكشف على امرأة أخرى كانت تعاني من مرض الاستسقاء في منزل قريب من الحدّاج (البئر) ؛ كانت المرأة ترقد (متورمة على نحو جعل أولئك الذين كانوا بصحبتي عندما دخلت إليها ، يسخرون من ذلك التورم) تحت نخلة ، صنعت منها صديقاتها مظله لتلك المرأة . ووعدت هذه المرأة بدفع أجر الحكيم إذا ما جاء شفاؤها على يديه . وأنا عندما كنت أزور المرضى كنت أهدف من وراء ذلك إلى تخفيف ذلك الطبع الوثني عن طريق الإحسان المسيحي ؛ ولكني توصلت إلى أن كل ما يمكن أن أفعله ، سيكون بلا طائل ، وأنه قد يكون خطر على أن أبدد جزءا من كمية الأدوية الصغيرة التي في حوزتي ؛ – علما بأن هذه الأدوية هي بمثابة جواز سفري أو إن شئت فقل : مروري الوحيد في حالة فشلي في هذا البلد المعادي .

هذه أم شابة، ما تزال فتاة رشيقة ، أحضرت إلى طفلها وطلبت مني أن أتفل على عيني ذلك الطفل الملتهبتين ؛ هذه العادة ، أو إن شئت فقل : الرأي السامي Semitic الذي هو من صميم العادات والتقاليد ، وقفت عليه بعد ذلك في الأماكن كلها التي زرتها في الجزيرة العربية.– هؤلاء هم بدو المطير في القصيم، أحضروا لي بعضا من خبزهم، وشيئا من ملحهم ، كيما أتفل عليه من أجل أن يعالجوا به أصدقائهم المرضى . – وسرعان ما حذت نديمات هذه المرأة الشابة ، حذوها ورحن يطلبن مني الشيء نفسه ،

وعندما أنبتهن على تلك الخرافات أجبن بأن "هذا هو العرف السائد هنا منذ أزمان سحيقة ." - يضاف إلى ذلك أيضا أن أهل الجزيرة العربية يتفلون على كالون الباب الذى لا ينفتح بسهولة .

استأذن عجيل منى قائلا : "إن امرأة بدوية من معارفهم قد حلت عليهم ضيفة منذ الأمس ، وأن تلك البدوية شغلت الغرفة الوحيدة الشاغرة عندهم ، وأن مسألة طرد الضيف يمكن أن تصيبه بالأذى : ومع ذلك ، فإنه سوف يساعدنى ويقدم لى يد العون ، حتى لا يخدعنى أحد فى البلد ، إذا ما ذهبت لشراء أى شىء من الأشياء ." ومع ذلك ، وعندما كنت أشترى منه قمحا فى يوم من الأيام ، فإن عدد الصاعات التى أعطانى عجيل إياها لم تكن مملوءة تماما .

خطر ببالى أن أقيم فى منزل خلف Khalaf، وأن ذلك سيكون من الأفضل والأحسن . وكان خلف قد تكلم عن موضوع قيامى بإعادة بناء الحداج (البئر) ؛ وكان بوسعى حل هذه المشكلة البسيطة ، إذا ما أحسست بالانتعاش إلى حد ما ، - عملية تسوير بئر الماء تسويرا متينا ، أكثر من ذى قبل ، وأترك لهم هذا العمل ليكون تذكارا لهم بمرور رجل مسيحى على بلادهم ؛ يضاف إلى ذلك ، أن التقرير الطيب الذى سيصدر من أهل تيماء ، عن هذا العمل ، سوف يفتح البلاد أمامى . كان خلف ومعه بعض رجال أسرته وبعض الضيوف جالسين مربعين على المصطبة أمام بيته فى الشارع ، وكانت فوق تلك المصطبة مظلة مصنوعة من جريد النخيل ، وكان الجميع ينتظرون غروب الشمس ، حتى يمكن أن يدخل بعد ذلك لتناول طعام الإفطار . وجدت فى خلف رجلاً نحيفا طويلا معتدل المزاج ، تجاوز مرحلة منتصف العمر ؛ كما وجدت فيه أيضا طيبة التسامح وانفتاح فكرى يليق بشيخ من الشيوخ : كان خلف رب أسرة حصيفا ، كما أنه كان زائد الكرم . كان كل عالم هذا الخلف يتمثل فى هذه القرية الصغيرة من قرى النخيل ، فى تلك الصحراء الشاسعة ، ويتمثل أيضا فى بلدة حائل التى كانت عاصمة لهذه القرية ، كما كان سكان مدينته أقل عددا من طاقم سفينة من السفن الكبيرة ، ومع ذلك كان يبدو عليه الفهم والتفتح، ولا تبدو عليه الوقاحة الفطرية ، هذا يعنى أنه كان يبدو نبيل السلوك (من ناحية مجتمع الذكور) ؛ وملمح نبل السلوك هذا يمكن الوقوف عليه فقط بين الأفاضل من السلالة العربية . والعرب لم يكونوا همجا

فى يوم من الأيام ، وإنما هم من عرق نقى يبعدهم عن الهمجية والبربرية ؛ والعرب عندما يخرجون من بساطتهم العربية ويدخلوا خلية حياتنا المدنية (كما هو الحال فى بومباى) ، فإن أقدامهم لا تكون أقل ثقة من أقدام الآخرين ، وبالتالى يبدون فى الرواج هنا شيئا فشيئا .

جلست فى صحبة خلف ، ولم نتحدث فى شيء ، بعد تبادل التحية ، إلا بطريقة طفيفة تماما ؛ والسبب فى ذلك أن الجميع كانوا متعبين من الصيام . وعندما هممت بالانصراف أشار لى إشارة ودية وطلب منى البقاء معه : وأثناء غروب الشمس ، وعندما نهض خلف واقفا ومعه الآخرين ، اقتادنى معه إلى داخل منزله ، "لشرب القهوة ، وقال لى ، لقد دخل علينا المساء ؛ كان المنزل من الداخل عبارة عن فناء جميل ، وكان البيت مُلَيّسًا من الداخل بالجبس Jiss ؛ جلسنا أرضا فوق بسط طويلة أمام وجار القهوة ، المطلى باللون الأبيض أيضا ، على الطريقة النجدية ، والذى وقف عنده بالفعل عبده الذى كان يعمل على شب النار ، وتصليح القهوة ؛ – سيكون ذلك أول انتعاش لخلف وأهل منزله ، بعد غروب الشمس . وفى قرى نجد ، يرى الناظر إلى وجار القهوة مجموعة كبيرة من دلال القهوة منها الكبير ، ومنها الصغير ، وهم يستعملون تلك الدلال لحفظ المتبقى من القهوة السابقة ، ويتناقلون ذلك المخزون من دلة إلى أخرى . وهم جالسون حاليا ، وأمعائهم خالية ، وكلهم يراقبون ضوء الشمس الذى يختفى رويدا رويدا خلف أعراف النخيل ، إلى أن سمعنا صوت المؤذن ، وهو يرفع الأذان لأداء الصلاة . عند هذه المرحلة فقط يصبح بوسع الشخص المتدين أن يضع فى فمه لقمه من الطعام ويقوى نفسه ؛ وعلى الفور بدأ تقديم القهوة ، وبعد أن تناول كل واحد منهم فنجالا واحدا ، بدأ يفرد عباءته أمامه فى اتجاه القبلة ، وراح يؤدى الصلاة . بعد أداء الصلاة ، يجرى تقديم الوجبة الأولى التى يطلقون عليها اسم الفطور Futur ، أو إن شئت فقل : الإفطار ؛ كان الإفطار فى منزل خلف عبارة عن عساليج من التمر الطازج الذى جرى إحضاره من النخلة . تناولوا الطعام ، بالرغم من أنهم كانوا يعانون من العطش طول النهار ، ولم يشربوا ماءًا طوال تناول الطعام ؛ وبعد التمر وضعوا أمامنا شرائح من بطيخة كبيرة ولكنها عديمة الطعم ، وهذا النوع من البطيخ يشيع فى تيماء فى فصل الخريف .

كان معنا شابان من تبوك حلاً ضيفان على تيماء ، وكانا يرتديان ملابس العطلة ؛ هذان الشابان جاءا إلى تيماء لابتياع شيء من التمور في موسم الحصاد . أخبراني أنه "لا توجد في هجرتهما (قريتهما) بئر تحمل اسم سيدنا موسى ." – هذان القرويان المسكينان ينسبان نفسيهما إلى بني Beny صخر Sókhr ، الذين كانوا سادة لهذا البلد الشاسع في يوم من الأيام . وهما لا يعرفان السبب الذي جعل الناس يطلقون على عشيرتهما اسم الكعباني kaab'ny، "اللهم إلا إذا كان ذلك الاسم نسبة إلى الكعبة في مدينة مكة ." وهم يقولون : إن المسافة من تبوك إلى الوجه ، أو إلى تيماء أو حتى مدينة معان Maan ،– هذه المسافة تقدر بحوالي خمسة رحْلات والإبل مُحمَّلة . هؤلاء القرويون يحصلون على ما يحتاجونه من الأرز من بلدة الوجه ؛ ولكنهم يقولون إن القمح والملابس (السورية) أفضل في بلدة معان . وقالا لي أيضا أن الأرض فيما بين تيماء والقرية التي جاءا منها عبارة عن خلا (صحراء) ليس فيها أي مجرى من مجاري السيل .– جلس معنا أيضا ذلك الشمَّري Shammary ، وراح يتحف الجماعة بالحكايات التي كان يرويها عن ترحاله وأسفاره ؛ وهو يتفاخر بأنه استطاع الوصول إلى شعب كان يعبد الشيطان Sheytan ويعبد الشر the Evil أيضا ، وأنه سمعهم يتلفظون بالكلمات التالية : "اتركني وشأني ، حتى أنكأ الله بهذا الرمح وأخرجه من عرشه في السماء !" وراح هذا البدوي يضحك ساخرا من ذلك التجديف ؛ وهنا رد عليه جمهور القرويين وهم مكشرين عن أنيابهم ، غيظا وحقدا على ذلك الكلام ، "إخص ! akhs إخص ! . " ثم وصلت بعد ذلك ، في ساعة متأخرة من المساء جماعة من بدو الفكارة مكونة من ثلاثة أفراد ، وريد Weyrid وجلوِّي Jellowwy ، وفريع Feraya ؛ هذه الجماعة وصلت بعدنا ، ولما كانت تجمعنا بهم معرفة سابقة فقد جلسنا نشرب القهوة حتى ساعة متأخرة من الليل . ولم يكن من المناسب لي الخروج من المنزل في الظلام ، لغياب القمر ، بحثا عن رفيقي البدوي الذي لم أعرف إلى أين ذهب ، وهنا آثرت الرقود على الأرض ، متخذا من ذراعي مخدة ، أملا في قسط من النوم بجوار وجار القهوة . كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل عندما صحت الجماعة لتناول وجبة السحور ، كانت تلك الوجبة عبارة عن تمر ليس إلا ، – هذه تغذية بالغة السوء ؛ وبعد تناول السحور عاد العرب مرة أخرى إلى النوم على الأرض في بَرَاد النجوم ، إلى

أن طلع نهار صوم اليوم التالي ، وعندها نهض الأعراب لأداء الصلاة . تحدثت مع خلف في الصباح ، وقال لي : إنه "سيعطيني غرفة في منزله ، في غضون يوم أو يومين :"- وأردف قائلا ، إن الغرفة في الوقت الحالي "عبارة عن مخزن ، مليء بالقمح ، الذي قالت زوجته إنه لا يمكن إخلاؤه من الغرفة في الوقت الراهن ." - وربما يكون من رأى حريمه الذي يؤمن بالخرافات أن مسألة إيواء نصراني في المنزل ليست من حسن الطالع .

المكان الوسيع حول الحدَّاج (البئر) يستعمله الناس ميدانا عاما . ويفد إلى ذلك الميدان العام المواطنون الذين يأتون من الصحراء ، وهم يرتدون ثيابهم الجديدة ، ويحملون سيوفهم في أيديهم ، وذلك عندما تنحسر حرارة الشمس في فترة العصر ، يأتون إلى هذا المكان ليجلسوا ساعات طويلة على ضفاف الحداج (البئر) المبنية من الصلصال ؛ يضاف إلى ذلك أن هذا المكان يتسكع فيه البدو الغرباء العاطلون في الواحة . وقد صادفت ، في أحيان كثيرة ، في ذلك المكان كثيرا من الرجال الذين كانوا من الصُنَّاع : سألني واحد من هؤلاء الصُنَّاع : "قال ، ألم أراك في سوريا ؟ كان ذلك من حوالي عام في كرياتين Keriateyn . " (أي آخر بقعة مأهولة بالسكان قبل بالميرا Palmyra) . ذات يوم عندما تجمع حولنا عدد من الناس راح ذلك الصانع يتكلم عن دين النصراني ؛ قال للحاضرين ، إن أفراد قبيلته بينهم وبين النصارى على الحدود السورية ، معاملات يومية : "وأنتم من حقكم أن تثقوا بهم قبل الناس جميعا ، ونحن عندما نكون معهم وبينهم ، تراهم يقولون إذا لم يقم أحد من الرجال للصلاة عند قيامها : "جوم Gom صلِّ Sully على ala دينك dînak يا مسلم Ya Musslim : جوم Goom يا ! Yâ صلِّ ! Sull " بمعنى "انهض ، يا مسلم ، وصلِّي للرب حسب دينك ؛ هيا إلى الصلاة ، أيها الرجل ، اذهب ، صلِّ !" وهم لا يثقون بنا في غير ذلك ." عرَّج ذلك البدوي ، بشيء من التفاهم ، على الطابع غير الاجتماعي في توأم العقيدة الدينية . قال البدوي : "الذي يفصل بيننا هو شيء صغير ؛ فهم يؤمنون بالله وبالأنبياء ، ولكنهم لا يعتبرون محمداً نبيا من عند الله: وسبب ذلك عندهم ، على حد قولهم، أن كل الأنبياء القدماء كانوا من سلالة بني إسرائيل ، ولكن محمداً من خارج هذه السلالة ، وليس أيضا من سلالة الأنبياء ." وكرر ثانية إنهم إناس طيبون ، وراح يردد تلك الكلمة

الإسلامية الشهيرة الشائعة ، "تعشى مع اليهود (إذا ما وصلت إلى بلاد الكفار) ولكن نم تحت سقف النصارى ." هذا الرجل ، جاء إلى هذا المكان منذ عامين ضمن جماعة من أفراد قبيلة العنزى المساكين ، الذين يطلقون على أنفسهم اسم السِّباع es-Sbáa ، والذين تمتد أراضيهم التي يتجولون فيها من شمالي سوريا حتى مدينة حلب . كانت قبيلة ذلك الرجل من العنوز القدامى الذين عاشوا في منطقة خيبر ، يضاف إلى ذلك - أن حقوق البدو في تملك الأرض ، لم تسقط حتى الآن بالرغم من تخلي هؤلاء البدو عن تلك الأرض منذ مدة طويلة - لقد جاء أولئك السباع للتجوال في الجنوب مع البشر Bishr، وبذلك يتسنى لهم أن يأكلوا من نخيلهم في خيبر : وها هم السباع عائدون حاليا إلى سوريا ، ولذلك دعاني ذلك الرجل إلى مرافقتهم في رحلتهم إلى سوريا .

عثرت على غريب آخر جاء من قرية العلا للعيش في تيماء ، هذا الغريب اسمه سليم Selim ، وهو من المنفيين بسبب قتل واحد من الناس ، ومع ذلك كان الرجل يستلم كل عام حصة من التمور . ذات يوم ، وبينما كنا نتحدث في فناء عجيل ، أصر جريض Greyth ، ولد العجيل ، وهو من النوع المتشدد ، أصر على أن النصارى "هم أبناء عمومة (قبليون) اليهود ."- "لماذا سوء القصد هذا ، يا أبا عجيل ، أهذا فقط لأن اسمي من دين آخر غير دينكم ! تدبر أيها الرجل ، ألم أولد على ذلك الدين بناء على رغبة من السماء (الله) ؟ وأنت إذا ما استطعت أن تثبت لي أن دينك يمكن أن يفيد الإنسان أكثر من ديني ، فسوف أدخل في الإسلام وأصبح مسلمًا . نحن لسنا يهود ، ولكن صدقني ، يا أنت ، يا من يجهل هذه الأمور ، نحن سلالة من والد واحد ، ولسان واحد "- مع من ؟ أقول مع اليهود ." تراجع جريض Greyth! وهنا تحولت إلى سليم Selim الشبيه بالزنوج ، ويعرف القراءة والكتابة ، وقدم هو الدليل نيابة عني من كتابهم المقدس ، وكان ذلك الدليل يبين السلالات التي انحدرت عن آباء العالم الجديد سام ، وحام ، ويافت .

كان هناك حداد شاب اسمه سيدان Seydan استطاع الوصول إليَّ ؛ وكثير من أهل الجزيرة العربية وبخاصة الصُّنَّاع منهم ، يحسبون أن بوسعهم تعلم حرفة من النصراني ، والسبب في ذلك أن الصُّنَّاع من أهل الجزيرة العربية يسلمون بأن الفنون والمعرفة تنبع منا . هذا الحداد الشاب ، جاء إلى هنا بصحبة أسرته ، قاطعا المسافة

سيرا على الأقدام، وقادما من بلدة حائل مسقط رأسه، ليستقر في تيماء ويعيش فيها .
كان ذلك الحداد من بين أولئك الذين توقفوا في القلعة في العام الماضي في مدائن صالح عندما كانوا في طريقهم إلى قرية العلا . دخلت ورشة أولئك الصناع كي أُصلّح قطعة من الصلب حتى يمكن استعمالها في توليد شرارة مع قطعة من الصوان ، – هذه القطعة ثمنها مرتفع في ظل الحياة الصحراوية الضعيفة والفقيرة ، وبخاصة في شب نار الفجر في الحطب الذي تنبعث منه رائحة طيبة عند الاحتراق : – هناك مثل من أمثال الشتاء يردده الفقراء في أوروبا ، يقول المثل : "النار نصف الخبز !" الصلب هنا عبارة عن حلقة مقدارها أربع بوصات ، يجري تقصيرها إلى بوصتين ، ويجرى طوى طرفي القطعة إلى الخلف بعد أن انتهى ذلك الحداد من طرق قطعة الصلب ، كانت الشمس قد أوشكت على الغروب . "قال الحداد الشاب ، نحن لا نعمل طول اليوم في شهر رمضان !" وينهض الحداد من مكانه ، وقد ابتلت ملابسه من العرق ، ويروح يجفف حبات العرق من على وجهه ، وبينما كان يغلق أبواب ورشته دعاني إلى شرب القهوة معه في داره. وتجول الرجل معي ليريني نقشا كان في منزل واحد من جيرانه . في ذلك المنزل عثرت على مجموعة قليلة من الأحرف الأثرية القديمة ، كانت على عتبة من الحجر الجيري ولونها أزرق داكن ، هذه العتبة من النوع نفسه الذي سبق لي العثور عليه من قبل في تيماء كان منزل الحداد هو آخر منازل البلدة عند الخروج منها ويقع خلف منزل خلف Khalaf مباشرة ، وهو منزل صغير ، ولكنه مبني بناية جيدة من الطوب اللبن . كان الحداد هو وشقيقه قد قاما في العام الماضي ببناء ذلك البيت على قطعة أرض كبيرة تجاور الصحراء مباشرة ، وقد بنيا ذلك المنزل بطريقة منازل حائل ؛ لم يعولا كثيراً على العمارة التيماوية .

في مرة أخرى ، أخذني ذلك الحداد الشاب إلى مسافة قصيرة خارج بلدة تيماء (ولكن داخل أسوار القرية) في اتجاه الشرق ليريني بعض الأعمدة الأثرية العظيمة . وصلنا إلى حقل مساحته حوالي نصف فدان ، بنيَ عليه من اللبن المسجد الكبير . شاهدت في ذلك المكان بعض رءوس الأعمدة الكبيرة ملقاة هناك ، كما شاهدت أيضا بعض الأعمدة الملساء ، التي يصل سمك الواحد منها إلى سبع وعشرين بوصة ، وهي مصنوعة من الحجر الجيري الذي يميل لونه إلى الزرقة ، ولا يوجد (في رأيي) عمود

مماثل له فى الدائرة المحيطة به . ونحت هذا العمود ليس على ما يرام ؛ ولم أر عليه أى نوع من النقوش . هذه القطع الحجرية الضخمة لا يمكن أن يكون قد تم نقلها على ظهور الإبل . وخطر ببالى أن ذلك ربما كان موقع معبد تيماء القديم ؛ وكم تبهر هذه الآثار كل من ينظر إليها ، وهى تعانى من هجران البشر لها ، ومن الموات الذى يصيب الطبيعة فى الجزيرة العربية ! والغريب الذى يتصادف وجوده فى هذه البلاد يجب عليه ألا يطيل النظر أو يتمعن تلك الأنقاض والآثار ، ومن هنا عدنا إلى المنزل على وجه السرعة .

كان سيدان يحكى لى أشياء عظيمة عن بلدة حائل : كان من رأى سيدان أن هذه المدينة أو البلدة من بلدان الجزيرة العربية (التى يبلغ عدد سكانها حوالى ثلاثة آلاف نسمة) ، بأسواقها المنظمة تنظيما جيداً ، ودورها الكبيرة التى يمتلكها كثير من الأثرياء ، وحياتها المدنية السهلة الميسرة ، وكثرة عدد الأشخاص الذين يتجولون فى المناطق العامة وهم ملفوفين بالشيلان ، ومسجدها العظيم الذى يتسع لهذا العدد الكبير من السكان ، ينبغى أن تكون مثل الشام [أى دمشق التى تضم ١٣٠ ألف نسمة] ! ورحنا نتجول أكثر خلال البلدة ، وخلال المقبرة ونحن نبحث (بلا جدوى) على شواهد القبور عن نقوش أثرية قديمة . كان هناك نقش واحد ما يزال موجوداً على عارضة فى حظيرة إبل عجيل ، ولكن المؤسف أن تلك العارضة سقطت على الأرض وتكسرت ، وأبلغونى أنهم لا يمكنهم العثور على تلك القطع المكسورة ؛ كان هناك أيضا نقش طويل على حجر من أحجار جدران الحدّاج (البئر) التى انهارت بالفعل . [وأنا اعتبارا من كتابه هذا الكلام فى العام ١٨٧٩ الميلادى ، أؤكد ان نقش البئر شاهده كل من هوير(*) Huber ويوتنج(**) Euting من بعدى بعدة سنوات . ويوتنج

(*) هوير Huber : رحالة فرنسى قام برحلة فى الجزيرة العربية ، ونشر دراسته عن النقوش التى عثر عليها فى مجلة الجمعية الجغرافية فى باريس تحت عنوان : Inslri ptions recuillirs dans L'Arabie . Centrale, Societe Geoqraphie, Paris, 1884. (المراجع)

(**) يوتنج Uting : عالم ألمانى فى النقوش التذكارية ، سجل رحلته فى داخل الجزيرة العربية فى كتاب نشر فى ليدن فى عام ١٨٩٦ بعنوان : Tagbuch Einer Reise in inner Arabien, Leiden, 1896.

يسلم بأن ذلك النقش ، الذى هو من النقوش الإهدانية ، ومكتوب بالحروف الآرامية شأنه فى ذلك شأن النقوش الأخرى التى اكتشفتها أنا فى تيماء ، قد يرجع تاريخه إلى أربعة أو خمسة قرون قبل المسيح.]

كنا فى بعض الأحيان نقطع مسافة ميل ، خلال أنصاف الأيام الرمضانية ، عبر الصحراء لنصل بعد ذلك إلى واحد من أعمام سيدان ، الذى استطاع بفضل عمله فى مهنة الحدادة، شراء حوطة hauta (بستان) طيبة فى واحة الغرب Ghrerb، أو إن شئت فقل : فى مكان على طرف الواحة من ناحية الغرب . وعندما وصلنا إلى تلك الحوطة ، أو إن شئت فقل : البستان ، أحضر لنا ذلك الصانع ، الذى كان يريد منى شفاء عينى ولده ، ليمونا ورمانا ، وتركنى جالسا فى ظلال شجرة الفاكهة ، ودخل هو ومن معه لممارسة أعمال الحدادة ، فى الورشة التى أقامها هذا الصانع هنا فى منزله الذى يقيم فيه . ذات يوم ، تحدث إلىّ ذلك الحداد الشاب عن مسألة الكرم فقال : "يا خليل ! هل إذا جئت إلى بلدك ستذبح لى خروفا ، وتعطينى شيئا من النقود ، وفتاة لتكون لى زوجة ؟" قلت : "لن أذبح لك أى شىء ، نظرا لأننا نشترى اللحم الذى نحتاجه من السوق ؛ وسوف أعطيه شيئا من النقود إذا ما كان بحاجة إليها ؛ وإنه يمكن أن يحصل على زوجة إذا ما التزم بقانوننا ؛ وإنه سوف يلقى ذلك الترحيب فى دارى التى أصبحت له دارا وأصبحت لى شرفا وتكريما ". جلسنا فى منزل خلف ؛ ورد علينا الحداد الشاب قائلا : "عجبا لمدى صدق واعتدال كلام النصارى ! قد يكون خليل قد قطع على نفسه وعداً الآن - شأنه شأن أى واحد منا - بكثير من الأشياء الحلوة والجميلة ، ولكنه قد لا يبر بذلك الوعد ." وأنا من باب مكافأتى لسيدان Seydan سوف أريه عروق حجر الحديد فى الصحراء المحيطة بنا ؛ وقد تعجب عندما سمع أن معدن الحديد يوجد فى تلك الأماكن الضحلة ! - ولكن ، كيف يمكن صهر ذلك الحديد ! حديدهم ، الذى يتعين نقله عبر الصحراء مسافة خمسمائة أو ستمائة ميل ، على ظهور الإبل ، من مدن الساحل ، له قيمة غالية فى الجزيرة العربية .

واحة تيماء عبارة عن ثلاث واحات : الواحة الرئيسية ، تقع فى الوسط ، ويطلق الناس عليها اسم الحدّاج (البئر) ؛ أما واحة (هجرة) الشرق es-Sherg هى وواحة

(هجرة) الغرب el-Ghreb ، فهاتان الواحتان ترويان من أبار القدماء التي يجرى اكتشافها بين الحين والآخر . في كل هذه الواحات الثلاث ، وباعتباري "واحداً من رجال الدواء" ، كان لي أصدقاء ومعارف ، وبخاصة في واحة (هجرة) الشرق Sherg؛ وحينما كنت أدخل كان الناس يفرشون سجادة الضيافة تحت ظلال أشجار النخيل الخضراء أو تحت ظلال أشجار التين : يلي ذلك ، قيام رب المنزل بإحضار الغريب ويقدم له خيارة يرطب بها فمه أو بعض عساليج التمر ، ويطلبون منه أن يأخذ قسطا من الراحة ، بينما ينصرفون هم للقيام بأعمالهم البستانية . - كسب العيش العربي الخالص عملية تسر الخاطر عندما تكون مشاعا أو على مرأى ومسمع من الجميع ، وكسب العيش هذا فيه شيء من الاكتفاء الذاتي في بعض الأشياء القليلة جداً التي يجرى اختطافها بطريقة عادية جداً عند القيام برحلة من الرحلات ! هذا يعني أن حياة هؤلاء الناس حياة بسيطة ومليئة بالهموم السطحية . يضاف إلى ذلك أن جهل هؤلاء الناس ليس من النوع المتوحش أو القاتل ، كما أن فقر هؤلاء الناس لا يعد من قبيل الوضاعة والاحتقار . ولكن منازل هؤلاء الناس وقحة وغير منظمة ؛ وبالرغم من مشاعر الحب الطيبة لدى هؤلاء الناس ، إلا أنهم لم يتعلموا بعد الاعتداد بالزهور طمعا في حلاوتها وجمالها ، كما أنهم لا يلقون بالا لتغريد الطير .

كان من بين هؤلاء الناس شخص يدعى شافي Shafy ، أخذني ذات صباح قبل طلوع الشمس (حتى نعود قبل ارتفاع درجة الحرارة) ، لزيارة نقش أثرى قديم في الصحراء . وبعد مسير حوالي ميل ، سألني شافي إن كنت ربًاعا جيدا ، - "(قال) بالرغم من أني تخطيت سن الشباب ، إلا أني بوسعي أن أسابق الناقة وأتغلب عليها ؛ وها أنت سترى بعينيك كم أنا خفيف الحركة ،" وأخذ شافي يجرى مبتعدا عني . وبينما كان شافي بعيدا عني ، اقترب ناحيتي رجل كان يحمل في يده عكازاً عربيا ؛ كما أبصرت أيضا خيالاً جاء من تيماء للقائي . وهنا تمنيت لو أني لم أصل إلى هذه المسافة وأنا أعزل بلا سلاح . كان هذان الرجلان من أهل الواحة الشرقية ، بالرغم من أنهما كانت تبدو عليهما البداوة ، وكان هذان الرجلان قد جاءا إلينا لمعرفة ما إذا كنا

قد عثرنا على كنوز أم لا. جاء الخيال يعدو بحصانه وفي يده حربة طويلة؛ وهنا تبين لى أن الفرس التى كان يركبها ذلك الخيال كانت تمشى على ثلاثة أرجل فقط ! أما رجلها الرابعة فكانت مربوطة في جزء منها . ضحك الحاضرون ، ولكنهم قالوا الفارس "عطا الله Atullah" "فرسه من أحسن السلالات، والله، وأنه جاء في هذه الساعة المبكرة لاستنشاق الهواء ؛ كانت تلك الفرس تلد لذلك الرجل مهراً أو فرسا ." كان النقش الذى جئنا من أجله عبارة عن نحت بدائى باللغة العربية . ولما كان عطا الله رجلاً ثريًا ، ورب أسرة من الذين ينعمون برغد العيش ، فقد كان يود منا العودة معه . كانت بساتين ذلك الرجل من أفضل بساتين تيماء : وإلى جانب هذه الثروة ، عثر ذلك الرجل فى الفترة الأخيرة على فوهة بئر قديمة بالقرب من المكان الذى يعيش فيه فى الصحراء . أحضر لى هذا الرجل الثرى سلة كبيرة ملأها بأفضل أنواع الفاكهة ، وطلب منى أن أتردد عليه مرارا .

حيثما كنت أتجول فى الواحة كنت أشاهد بعض المبانى البدائية ، المبنية من نوعين أو ثلاثة أنواع من الحجارة ، ومسقوفة بالعصى والطين . هذه المبانى عبارة عن مواقع لحملة البنادق ، وكل مبنى من هذه المبانى لا يتسع إلا لرجل واحد يرقد مستلقيا على صدره . وعند طرف هذا المبنى ، أو إن شئت فقل : الموقع ، هناك مسند يضع الرامى عليه بندقيته ، كما يوجد أيضا وعاء من الصلصال خارج الموقع ، تقوم الحريم قبل طلوع الشمس بملئه بثلاث قراب من الماء . وهذه هى الطيور البرية ، التى تحوم عاليا فى الهواء ، تقع أبصارها على الماء المتلألئ ، تنقض عليه لتشرب منه بعد المسافة الطويلة التى جاءت منها أو قطعتها ! والناس هنا "يعمرون" البنادق بقطع صغيرة من الحجر . واقع الأمر ، أن القرويين الذين ليسوا من بين العمال يصطادون من هذه الطيور ، حوالى خمسة طيور ، حتى الفترة إلى ما قبل دخول وقت العصر ، ثم يعودون إلى بيوتهم لشرب القهوة ويحسبون أنهم مضُّوا يوم عطالتهم : وقد وجدت أن كل الطيور الميتة كانت عبارة عن صقور حوَّامة وصقور عادية ومن طيور الرَّخام ، خلاصة القول : أن هذه الطيور كانت من الطيور الجارحة والمفترسة ، – ومع ذلك يندر على

الإنسان أن يرى تلك الطيور وحيدة في الصحراء. سألت بعض الحاضرين: "هل تأكلون لحم هذه الطيور ؟" - "إي بالله ، نحن نأكل لحومها ، وإلا لماذا نصطادها؟ وإذا لم تكن لحومها جيدة ، فهي أفضل ما يتيسر لنا ؛ وما لا نأكله نحن نعطيه الحريم ، إذ إن الحريم يرضى بأي شيء ويكفيه أي شيء ." - والتيامنة ملامون لأكلهم الطيور الخسيسة ؛ ذلك أن غالبية البدو تعاف نفوسهم أكل هذه الطيور . ولذلك سهلت على الإجابة عندما لامني أهل الجزيرة العربية على أكل النصارى للحم الخنازير . "إذا كان الله يأمركم بشيء ، فيجب عليكم الحفاظ على ذلك الأمر والإلتزام به ؛ وها أنا أراكم تأكلون الغربان والحدأن ، كما تأكلون لحم النسر الذي يأكل الجيف والرمم . البعض منكم يأكلون البوم ، وبعض آخر منكم يأكلون لحوم الثعابين ، وأنتم جميعا تأكلون السحالي ، وتأكلون الجراد ، فضلا عن أكل الفئران أيضا ؛ والكثيرون منكم يأكلون لحوم القنفذ ، وفي بعض قرى (الحجاز) يأكل الناس الجرزان ، وأنتم لا يمكن أن تنكروا ذلك ! أنتم تأكلون أيضا لحوم الذئاب ، ولحوم الثعالب وكذلك لحوم الضباع ، وخلاصة القول ، ليس هناك من شيء دنيئ إلا وتأكلون لحمه ." هؤلاء الشبان القرويون يزجون وقتهم في استعمال البنادق في الصيد . تراهم يحملون بنادقهم الطويلة طوال ساعات طلوع الشمس ، ويتجولون بين طرق البساتين ، مهددين بذلك أرواح العصافير التي تقف على أفنان النباتات . وها هي أصوات طلقات هؤلاء الشبان تتردد أصداؤها من حولك ، بل إنك تسمع أيضا أزيز تلك الطلقات وهي تمر من فوق رأسك . هنا في تيماء ، يصطاد هؤلاء الشبان ، في مواسم محددة ، بعضا من الطيور المهاجرة التي تجئ إلى هذا المكان . ولقد شاهدت هنا بعض الطيور المائية البيضاء التي لها أعراف فوق رءوسها ، كما شاهدت أيضا طيور الغرنوق ، أو إن شئت فقل : طيور الكركي ، التي يطلقون عليها هنا اسم "السعدي" Saady ، والتي يصطادها أولئك الشبان من مزارعهم ، في هذا الموسم ؛ هذه الطيور المرهقة حطت عند برك مياه الري . والعرب هنا يحسبون أن هذه الطيور المائية العابرة تأتيهم من أراضي بلاد الرافدين المروية (التي تبعد عنهم مسافة أربعمائة ميل .) هذه الطيور تعود إلى أوطانها في فصل الربيع. وعندما كنت في قرية الطور Tor تلك القرية التي تقع على ساحل جزيرة سيناء،

في شهر مارس من العام ١٨٧٥ الميلادى ، شاهدت سربا من تلك الطيور ، قادما من ناحية البحر ، كان ذلك السرب مكونا من عدد لا يحصى من الطيور بيضاء اللون ، - وأنا لم أستطع تميز تلك الطيور إن كانت من طيور اللقلق أو طيور الرَّخام ؛ كان ذلك السرب يمر من فوق رأسى متجها شمالا .

في الوقت الذى كان البعض فيه مستاءا من النصراني لأنى لم أراعي حرمة صيامهم، كان هناك بعض آخر يدافع عني، "ولكن لماذا يتعين علينا أن نقسوا عليه، في الوقت الذى ، بالله عليكم، لا يصوم فيه نصف البدو ، الذين تقول عنهم إنهم مسلمون ؛ خليل مولود فى إطار دين غير ديننا ، وهم يصومون في أوقات أخر . أليست النصارى هم أهل الإنجيل ، الذى هو أيضا كلام الله ، بالرغم من إبطاله بعد مجيء القرآن أو إن شئت فقل : الفرقان el-Furkan . " - وأنا فى المدينة (المنورة) سمعت كتابهم إلى جانب "الفرقان" Furkan ("القراءة التى تفصل عباد الله عن الجهل الدنيوى") ، التى يشيع بين الناس هنا تسميتها "الختم" el-Khtam، وقد مد الناس هذه الكلمة لسهولتها، لتشمل أى كتاب ؛ إذ إنهم هنا لا يعرفون غير الكتب الدينية . وبينما كنت أتجول فى البلدة ، كان بعض الناس يطلون عليَّ من أبواب منازلهم ويدعوننى إلى الدخول ؛ وبينما كنت أجلس وأروح أتحدث معهم ، كانوا يقدمون إليَّ التمر ؛ - وفى البداية ، وارضاء منهم لضمائرهم كانوا يسئلونى "هل أنت مسافر ؟" .

كانت خيام كل من محسن وصالح، وكذلك خيام الأسرة البدوية ، منصوبة فى بستان من بساتين ذلك البدوى الفجيرى ، الذى استضافنى فى فصل الربيع ، عندما ذهبت مع زيد لزيارة تيماء . ونظرا لوجود الإبل فى الصحراء ، فقد انتقل هؤلاء الناس على ظهور الحمير التى استعاروها من معارفهم ؛ وقد جرى العرف ، أنه إذا ما طلب إنسان حمارا من قرى الجزيرة العربية (بالرغم من أنهم لا يسمحون بتأجير الحمير) أن لا يرفض مثل هذا الطلب . أما أنا فقد قمت بنصب خيمتى الصغيرة إلى جانب خيامهم ، بالقرب من أسوار الواحة فى تلك الحوطة (البستان) . كان فى تلك الحوطة حقول القمح ، وقلة قليلة من أشجار النخيل المحملة بالثمار ؛ ومع ذلك لم يكن البدو ولا

أطفالهم يمدون أيديهم على التمور التي لم تسقط بعد من النخيل . وبعد أن نفد آخر ريال مع محسن ، لم يكن على بيِّنةٍ من المدة التي يمكن أن يبقى خلالها في تيماء ؛ - وهذه هي المفاجآت التي تواجه كل البدو الفقراء ! إذ يتعين على هؤلاء البدو أن يطرقوا أبواب الناس في قرية السوق ، ليتبينوا "أولئك الذين يمكن أن يقدموا لهم خيرا" ويقرضونهم نقوداً بزيادة ثلاثين في المئة عن سعر السوق ، إلى أن يجيء المدد ، والذي يتمثل هنا في الصرة Surra " التي يحصل عليها هؤلاء الناس في موسم الحج . اشترى محسن بالأجل ثمار نخلة طيبة في الحقل الذي نخيم فيه ، كي يسد رمق أطفاله بتلك الثمار طوال هذا الشهر ؛ وكان هؤلاء الأطفال ، كلما أحسوا بالجوع يتسلقون النخلة ليأكلوا من ثمرها .

كان محسن رجلا مريضا ، وكان الصيام متعب له تماما ، إذ كان الصيام يحول بين البدو وبين غلايينهم طوال نهار اليوم ، كما كان يمنعهم أيضا عن قراب الماء طوال النهار أيضا ؛ وكان من عادة هؤلاء البدو ، في شهر الصوم ، أن يناموا اعتبارا من طلوع الشمس ، ولا يغيرون أماكن نومهم إلا بحثا عن الظل ، ويستمر ذلك النوم إلى ما قبل العصر بفترة وجيزة . لم تكن حرارة الصيف قد خفت بعد ، إذ كانت درجة الحرارة تصل إلى ٩٧ْ فهرنهيتية عند الظهر ، وذلك تحت جريد النخل الذي كانوا يعرشون به المقاهي في بيوت تيماء . كان البدو يصحون من نومهم عند دخول وقت الظهر لأداء الصلاة ، حيث يستشعرون شيئا من الارتياح على إثر وضع الماء على أيديهم وعلى أذرعهم وأرجلهم أثناء عملية الوضوء - والبدو ليسوا بحاجة إلى ادخار الماء وتوفيره والاقتصاد فيه في الواحات - وكانوا أيضا يستعملون الماء في ترطيب ألسنتهم ؛ نظرا لأنهم يتمضمضون بالماء ويخرجونه من أفواههم مرة ثانية . وبعد أن ينتهوا من أداء الصلاة ، يتجمعون أسفل الجدار الغربي العالي ، الذي بدأت تنكسر عليه ظلال المساء ، ويجلسون في ذلك المكان ليمارسوا لعبه "المبيطة" beatta التي يمكن القول عنها إنها لعبة من ألعاب الدَّاما ؛ والرقعة التي يمارسون عليها تلك اللعبة عبارة عن صفين في كل صف سبعة حفر أو إن شئت فقل : "بيوت" beyts ؛ وهذه الرقعة

يصنعها البدو المستقرون من قطعة من الخشب ، ويطلقون عليها اسم "المنقولة" múngola ؛ ولكن عند بدو تيماء وأهل قرى الحجاز تكون تلك الرقعة عبارة عن حفر صغيرة يحفرونها في الأرض . وأنا لم أر هذه اللعبة في نجد ، التي جرى فيها التخلص من كل ألعاب تزجية الوقت ، في زمن الإصلاح الوهابي ، من منطلق أن تلك اللعب تبعد روح البشر عن التأمل في الله الحي الذي لا يموت . وفي كل حفرة يوجد سبعة أحجار ؛ هذه المنقولة كانت بمثابة أطول لعب الصيف عند الحاج نجم في القلعة التي كانت في مدائن صالح ، وكان أولئك البدو بمثابة رفاق اللعب المرضي . "(قال العجوز صالح) إي ، والله ، الحاج نجم من عشيرتي ashîraty بمعنى "كواحد من قبيلتي" ." كان البدو يتخذون من روث الإبل ، أو إن شئت فقل : "الجلّة" jella ، طلقات بدلا من الحصى الشفاف الذي كانوا يجلبونه من سهل الحجر (والذي كانوا ينقلونه أيضا إلى دمشق) – وكانوا يطلقون على الطلقات التي يصنعونها من روث الإبل ، اسم "جود" gaud، وما إلى ذلك من تلك الأسماء. وأنا لم أر مطلقا أهل الجزيرة العربية الحقيقيين يلعبون من أجل المكسب أو الخسارة ؛ – إنهم يعتبرون الإنسان خارجا عن إطار دينه إذا ما عرّض ذلك الخير الذي أعطاه الله إياه ، لمغامرة غير محسوبة . وقد شاهدت لاعبي الورق في قرية العلا وسوف نشاهدهم أيضا في خيبر ، ولكن هذه قرى من قرى الحجاز التي أصابتها العدوى من المدن المقدسة .– العبيد الأحباش أبلغوني أن لعبة المنقولة يلعبها الناس في ديارهم ، وأن هذه اللعبة تنتشر في كل أنحاء الدنيا .

ترى ، من الذي يقاسي أشد الآلام في ذلك الصيام ؟ زوجة محسن بكل تأكيد هي التي تكابد مثل هذا الألم ، لأن لها طفلا ترضعه من ثديها ! وبقوة العزيمة والمثابرة ، حافظت شقيقة زيد على شهر الصوم ، ولم تكن تشرب أو تأكل إلا بعد غروب الشمس . من أجل هذا سمعت نساء البلدة وهن يمتدحنها ويثنين عليها ، – "كانت مثلا للبدوية البسيطة تحظى بإعجاب الجميع !" النساء المتدينات الحوامل تصمن أيضا وفاء بتعاليم دينهن ، وهن يجبرن أطفالهن الصغار على الصيام أيضا . كانت زوجة محسن ، امرأة طيبة ، وأمّا جيدة أيضا ، وربة بيت جادة ومثابرة ، وكانت كلها حب وخدومة ،

ومشاركة لزوجها المسكين في متاعبه ؛ زوجها كان مثل زيد تماما ، عبارة عن خليط من الجد والمرح في إطار إنسانية الصحراء . كانت زوجة محسن امرأة ولود ؛ مما أدى إلى - بالرغم من أنهم يعزون مسألة الإنجاب هذه إلى الله (سبحانه وتعالى) - ضعف حال زوجها ماديا ، إذ لم يكن لديه سوى خمس من الإبل ، وحوالى عشرة دبوش ، إضافة إلى بيتهم المصنوع من الصوف الخشن ، والمواعين اللازمة لذلك البيت :- كل ذلك لا يتجاوز ثمنه ٦٠ جنيها إنجليزيا . من هنا كان اعتماد محسن بصفة أساسية على الصُرَّة التي كان يتسلمها من الحج كل عام. ونظرا لأن محسن كان ضعيفا فيما يتعلق بتقلبات الحظ هذه ، فقد كان يؤنب أهل بيته في كل الأحيان ، كان يؤنب الجميع : زوجة وأطفالا ، ولكن الزوجة كانت تصبر على ذلك وتتحمله . لم تكن تلك الزوجة أو الأطفال يشتكون من الكلمات النابية الفظيعة (التي لم تصل إلى حد الشتائم المهينة مثل "أنت كلب") ؛ الكلمات أو الشتائم التي من هذا القبيل فقدت بين الأقارب وبين أفراد القبائل سوء القصد الذي تنطوي عليه في آذان هؤلاء البشر . ولنأخذ الطفل على سبيل المثال ، - نجد الأب يصيح ويشتمه قائلا : "سبُّك ! Subbak أي شج الله بطنك ، اللعنة على هذا الوجه !" أو قد يشتم الزوج زوجته ، إذا لم تلبي طلبه بسرعة ، فيقول لها "صلُّوبية Solubîa "، امرأة غجرية ، أو قد يشتمها قائلا : "بغريلة" baghrila أي "بغلة" (والبدو يشاهدون ذلك الحيوان في القلعة) ؛ أو قد يصيح الزوج شاتما : "انهدم Inhaddem بيتك beytich " بمعنى "أعدمك الله" أو قد يقول : "الله Ullah يفكني yafukkiny منك minnch " بمعنى "الله يخلصني منك !" أو يشتم قائلا : "والله ، أنت لا يعرفك إلا عبد !" ولكن جرت العادة أن يرجو الأب البدوي ولده عندما يريد منه أن يفعل شيئا ، وهو في مثل هذه الحالة يرجو ولده وكأنه أفضل منه ، ويعيدا عن التصحيح والتقويم . والأب بعد أن يؤنب ويوبخ الأسرة كلها بهذه الطريقة ، نرى محسن يتحول إلينا بعينيه الباسمتين ويعطفه البدوي باعتبارنا أصدقاء له .

هبت ريح خفيفة خلال الأشجار ، - انسابت تلك الريح في البداية ، بعد حرارة الصيف التي استمرت شهورًا طويلة ، مما أثر على أجسادنا التي كانت متعطشة لمثل

هذه النسمة ! وهكذا بدأنا نحس بالانتعاش في فترات العصر ، فضلا عن أن الشمس لم تعد تشرق على ارتفاع كبير جداً ؛ كان ذلك الوقت من العام يصادف فصل الخريف . وعند غروب الشمس ، كنا نتجول خلال تيماء ، إذا ما دعانا أحد إلى منزله ؛ أو كنا نقصد ذلك المنزل بعد تناول العشاء لشرب القهوة ، وتمضية فترة المساء في الحديث مع الآخرين . والبدو الذين يسكنون الخيام أرق طبعا من أولئك القرويين الذين اعتادوا على فلاحة التربة ، بجد واجتهاد مع طلوع النهار :- والبدو الرحل يتفوقون على هؤلاء القرويين من حيث القدرة على تحمل الجوع ، والترحال والانتقال إلى مسافات بعيدة . ونحن عندما نكون جالسين تجد الواحد من هؤلاء البدو يمد غليونه لمن يجلس بجانبه ، وهو يقول: "اشرب Issherub وكيِّف wakeyyif راسك ras-ak ." " إشرب! واجعل رأسك يحلم بالسرور." وهذا الكلام من باب مواساة الروح ومواساة حاسة "الكيف" keyyif،- الهدوء بعد التعب ، الراحة بعد العناء ، مهرة جميلة أو ناقة جميلة ، أو الطلعة البهية لأمرأة جميلة .

في بعض الليالي ، عندما كان أولاد البدو يزوروننا ، كان البستان ، مثل الصحراء يدوي ، بأغاني هؤلاء الأولاد الفجة ، على أنغام الرباب المصنوع من النحاس الأصفر . سألتهم ، "ما رأيكم في خطاب الأمير ؟" [تعليماته إلى التيامنة بالتخلي عن تلك الآلة الموسيقية.] أجابوا: "ابن الرشيد يمكن أن يصدر أوامره للقرويين، ولكننا نحن البدو!"- ونظرا لأن الوقت كان زمن حرب كبيره ، فإن أفكار هؤلاء البدو كانت تنصب في بعض الأحيان على الجهاد(*) الذي كان معلنا في ذلك الوقت بين النصارى والإسلام . جاءنا رجل من البدو قادما من الجوف ويحمل معه أخبارا كاذبة ، - "إن سلطان المسلمين قد خرج من اسطنبول ، لينزل إلى أرض القتال ، وأن السلطان مراد الذي جرى عزله مؤخرا كان بصحبته، يحمل معه بيرق النبي !"- "(تنهد محسن) إعلموا جيداً أنه عندما تسوء الأمور بالنسبة للإسلام ، فإن الأعداء الغزاة "سوف Shall يهزمون repulsed

(*) الجهاد : الإشارة في هذا السياق إلى حركة الجامعة الإسلامية التي أعلنها السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦-١٩٠٩، وكان يهدف بها إلى مقاومة التعديات الاستعمارية على الولايات التابعة للدولة العثمانية. (المراجع)

أمـام بيوت الشَّعـر houses of hair ! " بمعنى [أن البدو هم الذين سوف ينقذون دين الرسول ﷺ]. والله ، هكذا وكيد ! wakid بمعنى "هذا مؤكد ومكتوب فى الكتاب !" – يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل المسكين استشعر الراحة عندما علم أن انتهاء تلك الآلام سيكون لصالح الأعراب . قلت : "بالرغم من كل زهوك وفخرك ، فأنت لا تدفع شيئا ، ولا تدفع حتى ولو رجل واحد لخدمة السلطان !" – "ردوا علىّ ، ما حاجة السلطان إلى ذلك الذى يمكن أن نقدمه نحن المساكين ؟"

سألنى البدو ، فى بعض الأحيان ، عن صيامنا ؛ وقلت لهم إن النصارى من عادتهم أن يصوموا يومًا واحدًا فى الأسبوع ، وهم يداومون على صيام شهر الصوم الكبير ، بعض النصارى يصومون شهرين أو أكثر من شهرين . – "وكيف يكون صيامهم ؟ – إلى حين غروب الشمس ؟" – "لا ، ليس الأمر كذلك ، ولكنهم يمتنعون عن أكل اللحوم ، والبعض منهم يصوم عن كل ما يخرج من اللحم ، مثل الحليب والبيض ، ولا يأكلون سوى الثمار التى تخرج من الأرض ، مثل الخبز والسلطة ، وزيت الزيتون ، وما إلى ذلك؛ – وطوال فترة الامتناع هذه يكون بوسعهم أن يأكلوا عندما يريدون ذلك." "آه – ها – ها ! وهل تسمى أنت ذلك صياما ؟ لا ، والله ، يا خليل ! أنت تضحك وتنكت !" ولكنهم يحسبون ذلك حمية صيامية ، "مثل الموت" فى تلك البلدان الغنية ،– أن يأكل الإنسان مثل هذه الأشياء الضعيفة ومثل هذا الطعام الضعيف ." – "الله قادر ! حسن، ذلك كان صياما جيدا ! – وصاحوا جميعا بين الضحك والدهشة – يا ليت الله ، يكتب علينا مثل هذا الصيام كل يوم !"

الفصل العشرون

حصاد التمر

زواج العذراوات . نساء شقراوات . أهل تيماء أميون . البدو يلاحظون طيشهم ومرحهم . إبل الآبار . عمال يعملون فى هدّاج مُخَرَّب . مشروع لإعادة بناء الهدّاج . الممثل المقيم لابن الرشيد . ابن الرشيد ، حكيم الأعراب . حكومة المدينة (المنورة) تضع عينيها على تيماء . مرضى غير معقولين . وباء الروماتيزم فى الواحة ، عين الحسود . شعوذة إخراج الأرواح الشريرة . المتشددون فى رمضان . أنقاض تيماء الموسوية . مقابر تيماء الأثرية الكبيرة ذات النقوش التى ورد ذكرها فى التقارير . الضواحى السبع القديمة لتلك المنطقة . أرض جديدة للآبار . دم العبيد الأفارقة فى شبه الجزيرة . الرابطة العربية معتدلة . نهاية رمضان. احتفال العيد. مُطلق الصفّارة . موسيقى دمشق . وصول القُكارة . بنو البشر ينسابون على البلدة . حصاد التمر . راقصة من قبيلة حرب . كلام مِشْهِل . أخبار طيبة عن المواهيب . زيارة حامد ووحيل لابن الرشيد . القصابون من البدو الرُّحَّل . التماس من محْسن . "الثور البرى" أو الوضيحى . النَّبالة القديمة . أصدقاء الأعراب يتباطئون فى المساعدة فى رحلة النصرانى . البِشْر فى تيماء . شيخ من شيوخ الحطيمى . خلاف مع رعاة زيد . الأمسية الأخيرة فى تيماء . زيد .

كنت أستقبل المرضى فى الحقل الذى كنا نقيم فيه . وفى هذا المكان اكتشفت أغرب المغامرات . فقد سمعت شابة غير متزوجة من تيماء ، أن الغريب الذى وصل إلى القرية كان دولانيا (أى من موظفى الإمبراطورية العثمانية) ، أو إن شئت فقل : أحد رجال الحكومة ، ولذلك دار بخلدها فكرة الارتباط به عن طريق الزواج ، وتمهيدا لذلك أهدت زوجة محسن شيئا من التبغ ، ووعدتها بالمزيد إذا ما تم ذلك الزواج ؛ وبناء عليه

امتدحتها مضيفتى أمامى على إنها "شابة جميلة وناضجهة ، وأقسمت بالله أن عينيها وسيعتان وكبيرتان ، وأن رائحتها مثل رائحة العنبر ." هذه الأنسة الطيبة كانت ابنة لواحد من الدمشقيين (وربما كان راعيا لقلعة من القلاع) ، الذى كان يعيش فى هذه المنطقة فى فترة سابقة ، وكانت تلك الآنسة تحتقر أن يكون أى واحد من أولئك القرويين القساة زوجا لها ، كما احتقرت أن يكون زوجها واحداً من البدو الرحّل . وقد وقفت على الحقيقة التى مفادها أن كل سكان بلدان الجزيرة العربية ، يحتقرهم سكان المدن الحدودية على أنهم "بدو" ، ويظهر ذلك الاحتقار بصورة واضحة فى كلام سكان مدن الحدود ، - وهم يقولون أيضا متسائلين ، أليس كل سكان نجد (إضافة إلى الحدادين) من سلالة بدوية خالصة ؟ لجأت ابنة ذلك الرجل الشامى (الدمشقى) إلى خيمة محسن، حيث جلست فى القسم المخصص للحريم، وبمعزل عن الآخرين على أمل أن تتمكن من رؤية ذلك الرجل صاحب البشرة البيضاء الذى جاء من بلاد والدها ؛ - وأنا بدورى شاهدت وجهها الشاحب وعينيها اللتان ليستا جميلتين تماما ، واستطعت أن أحزر من صوتها الحريص ومن محياها - والعرب لم يحدث مطلقا أن كانت لديهم أفكارا طيبة عن الأشياء الحديثة - إستطعت أن أحزر أن تلك الفتاة كانت تكره العيش فى هذا المكان ، وأنها على استعداد للهرب مع زوج ، يكون جيداً شكلا وموضوعا ؛ وتلك هى الأشياء التى تزعم هذه الفتاة أنها متوفرة فى النصارى . وعندما أبلغوها أنى لا ألقى بالا لذلك الذى تهتم هى به توقفت عن المجىء إلى خيمة محسن ؛ وتركتنى حائراً فى معرفة ذلك الشىء الذى حرك فيها قلبها الصغير الذى يحس بالوحدة: "قالت، أن كل ما يدور بخلدها هو أن تصبح زوجة لدولانى (أى واحد من موظفى الحكومة)".

طلب منى بعض التيامنة البقاء معهم والإقامة بينهم ، "طالما أننى قطعت تلك المسافة الطويلة من بلادى إلى هنا" - وقد خطر ببالهم أن عودتى تكاد تكون أمراً مستحيلاً ، - وقل "لا إله La ilah إلا Ill الله Ullahh ، و Wa محمد Mohammad رسول Rasul الله Ullah ." وعندئذ سيسبغون علىّ بعض الممتلكات ، التى يمكن أن تكفينى وتكفى زوجتى إذا ما تزوجت . ولكن عندما اكتشفوا عدم اهتمامى أو مبالاتى بهذا الأمر ، "قالوا ، ها ! إن لديه أسبابه الخاصة به ، أليس لحمهم أفضل من لحمنا ؟ والنصارى ليست فيهم أمراض ،- كما أن حريم النصارى ، أجمل فى عينى خليل ، من

بنات الإسلام : يضاف إلى ذلك ، أن النصراني لا يتزوج إلا بعد أن يقتل مسلما ، إذ يجب عليه أن يستحم بذلك الدم ، ثم يقولون عنه بعد ذلك إنه تطهر ." ورد آخرون ، "نحن لا نصدق ذلك ! خليل ينكر هذا : " أضاف شخص آخر ، "ألم تسمع من بعض الناس الذين كانوا في الشمال ، أنهم لا يعرفون أي شكل من أشكال الزواج بينهم ؟" رددت عليهم قائلا : "أنتم يا من يتلبسكم الجن ! هذا الذي تقولونه ينطبق على الدروز ! شفاهكم تقطر دعراً وفحشا طول اليوم ، أما هم فلا يتشدقون بكلمة نابية أو مؤذية فيما بينهم ." – "هل يقول الدروز ؟ الله ! أليس هذا الاسم هو الذي يطلق على ألد أعداء الإسلام ؟ – حسن ، يا خليل ، نحن نسلم بكل ما تقول ، والأكثر من ذلك نحن نتمنى لك أن تكون بخير وسعيد ؛ تزوج واحدة من النساء اللاتي يعرضوهن عليك ، وسوف تصبح أحوالك أكثر سهولة ويسرا ، نظراً لأنك سيكون معك من يشاركك أفراحك وأتراحك : وإذا ما أردت وضع حد لذلك الزواج تستطيع فعل ذلك في أي وقت تشاء ." – "ولكن ليس حسب الدين المسيحي ." – "ومع ذلك هناك مثل جيد ، من الحكمة أن يتوامم الإنسان مع المنوال أو الأسلوب حيثما يكون ."

عندما قالوا لي : "إننا أحرار في الزواج والطلاق ، وهذا أفضل مما لديكم : " كان الرد عندي جاهزا، "لقد أعطى الله آدم زوجة واحدة؛" وهنا صمت الجميع مندهشين في دواخلهم أن الكتاب المقدس يعارضهم .– كانت هناك شابة أخرى ، أنجبها دولاني (موظف حكومي) في البلدة، وبينما كنت جالسا ذات يوم في ورشة الحداد دخلت الفتاة لتتحدث معنا : وبعد أول كلمة تصدر من فمها سألتني بتركيز شديد عما إذا كانت بوسعي أن أتزوجها أم لا. سيدان Seydàn: "إنه عرض طيب، وأنت ترى أن المرأة طيبة الملامح وجميلة ! إنها أرملة ، يا خليل ، ولديها ولدين :" – وكأن سيدان أراد أن يقول : "الولدان سيكونا مكسباً لك ، والأمر هنا يشبه من يشتري فرسا ومعها وليدها ." – "هل مطلوب مني أن أتزوجك وحدك ، يا سيدتي ، أم أتزوجك ومعك أطفالك ؟ تعالي وسوف أرشح لك صديقا من أصدقائي ، وأنا أرشح لك هذا الشاب الصغير ، أم أنك ترغبين ، ذلك الشاب ، شقيقه ، وهو يصلح للزواج منك . ولكن الأرملة الشابة قالت وفي كلامها شيء من الاحتقار والازدراء : "هل تعتقد أني سوف أجعل أي صانع من الصنّاع زوجا لي !"

كانت أجمل النساء في البلدة كلها فجير Fejir زوجة مضيفنا - جميلة ولكن لا يعرف الناس قدرها : "نظرا لبخلها وعدم كرمها" - وكانت هناك جميلة أيضا من الجميلات ، ابنة رجل مصرى يدعى إبراهيم ، الذى نفى نفسه فى قرية تيماء ، هربا من خطر قوانين بلاده ، أو ربما كان النفى لسبب غير ذلك . ذات يوم كنت جالسا على المصطبة عندما هلت علينا تلك العذراء الجميلة مقبلة علينا ، كانت تمشى غير مكترثه بجمالها وحسنها ؛ ولاحظت ملامحها وقسماتها اللطيفة الحلوة ، متغاضيا عن بقية جمالها : صمت الجالسون على المصطبة أثناء مرورها من جنبنا ، وراخت نظراتهم تتعقبها وتتركز عليها . قال واحد منهم وهو يسترد أنفاسه من جديد، "رأيتها يا خليل ! هذه هى التى ينظم الشباب عنها الأغانى كيما يتغنون بها أسفل نافذتها أثناء الليل ؛ أين رأيت مثيلاً لها حتى هذه اللحظة ؟ خبرنا كم تساوى هذه العذراء ، هذه الفتاة ، كم يدفع لها من يريدها ، مهراً أو صداقا ؟" إبراهيم المصرى عاش سنوات عدة فى تيماء ، وكان يعمل فى تجارة التمر مع البدو ، لقد جاء إلى تيماء من دلتا مصر ، والذى لا شك فيه أن إبراهيم هذا لابد أن يكون قد عرف الأوربيين ؛ هذا الرجل ، عندما كنت أراه جالسًا أمام باب قهوته ، كان ينهض واقفًا ويحيينى . وذات يوم عندما رآنى أقلب صفحات كتاب من كتب الجغرافيا فى منزل خلف ، قلبت الصفحة ورحت أقرأ عن ذلك البلد النهرى ؛ وراح ذلك الرجل ، يستمع بسرور بالغ ، بعد سنوات كثيرة، أسماء بلده وقراه ، وكان يستوقفنى ليصحح لى نطقى لأسماء تلك البلدان والقرى . وهنا تكلم شخص دخل علينا ، "هل خليل كتيب ! Kottib (أى كاتب) بمعنى ، هل خليل رجل ممن يعرفون الحروف؟" ورد عليه خلف قائلا: "إنه يستطيع القراءة مثل واحد منا؛" كان الشيخ نفسه يقرأ أمامنا متتعتعا وبطيئا ومتهجيا الحروف أيضا :- وما الذى يمكن أن يستفيدوه من حروفهم ؟ شيخ الدين يقرأ على الملأ لكل الناس فى المسجد فى أيام الجمع ، يقرأ عليهم من القرآن الكريم ؛ وهذا الشيخ هو المحامى وهو المبرم لعقودهم الصغيرة والبسيطة ، - وبعد هذه الأشياء ، لا توجد أمور أخرى فى الواحة : هذا يعنى أن أهل هذه الواحة لا يمكن لهم أن يتحدثوا عن أى شىء فى الأزمان السابقة لأزمان أجدادهم .

عبد العزيز الرومـان ، أحد شـيوخ الأسـواق الثلاثة ، كان أميا ؛ لم تكن هناك مدارس في تيماء ، وكان على الأبناء تلقى التعليم من آبائهم . قال لى بعض شبان أسر الشيوخ أنهم لا يعرفون من التعليم سوى الحروف الأبجدية ،- وكانوا يجعلوني أستمع إليـهم وهم يقـولون : "أليف Alef ، با ba ، تا Ta ، ثا Tha ، جـيم Jīm – ولكن عندمـا يصل الأمر إلى حد التعمق في التعليم ، فإنهم "يَكُبُّوه" hu- Yakub، بمعنى يتخلون عنه: هذا يعني أن هؤلاء الناس لم يكونوا ممن يشـغلون أنفسـهم بالتـعليم ، أو أولئك الذين يسـعون إليه . وفي كل صبـاح ، كانت حرارة الشـمس تناديهم ليخـرجـوا من بيوتهم لمـارسة الأعمـال السهلة البسيطة التي يفرحون بها في حياواتهم البسيطة . والتعليم عند العرب ليس سوى نوع من أنواع الفضول الذي يؤلمهم ويؤذيهم ، وهم يرون التعليم لا فائدة لهم منه ، – التعليـم عندهم مـجرد زينة ينعم بها الأثرياء في حياتهم الرغدة . هؤلاء القرويون الشمريون ، أصحاب عقول ضحلة وخاوية ، وليسوا ملاحين أو متأملين ؛ وهم عندما يفعلون أو يمارسـون عمـلا بسيطا في الوقت الراهن ، تراهـم يعودون فجـأة بعـقـولهم وأفكارهم إلى الوراء . ولذلك يقـول الناس عنهم : "التـيـامنة جـهَّال ، وغـيـر متـعلمين ، ولا يفـهمـون الزمن أو يعرفون قـدره ." والعنوز Annezy يطلقون عليـهم المقولة التي تقـول : "الشُمْر Es- Shammar عيـونهم Ayunuhum حمـر Humr ،" – بمعنى أن هؤلاء التيامنة من أصـحاب العيون الحمراء ؛ هذا يعني أن هؤلاء الشمر قد يكشفـون عن كرمهم للغريب ، غير أنه لا يمكن أن يأمن على نفسه وهو بينهم ؛" ولكن ذلك لا يعدو أن يكون مـجـرد فـيض من فيض الأقـوال والأمثـال التي من هذا القـبيـل ، وترددها كل القبائل المحيطة بهم .

قـوة هـؤلاء الحضـر وسـلاطة ألسنتهـم يلاحظها البدو ويعرفونها جيداً . وتيماء لا تذكر في الجـزيرة العربية ببئرها (الصدَّاج) وإنما يذيع صيـتها بتلك الكلمة غير المتحضرة التي يرددونها بمناسبة وبغير مناسبة. وهم يقولون "الشيطان فيها ، إبليس ! Iblis ! إبليس !"– وكلامـهم يسير على النحو التالي : "الطفل لا يستمع إلى ما أقول ، إبليس Iblis ! هل تعصاني ؟ إبليس ! ما هذا الذي كسر ، ضاع ، تلف ، أو الذي فعل بطريق الخطأ ؟ إنه الشيطان ، إبليس ! إبليس !" وعليه فإن التيامنة عندما يقع شيء يثـيـر المتـاعب أو القلق ، تراهم يصـيـحـون "واحسـرتاه ! ثم يقـولون : "إبليس" !" هذه

الكلمة شائعة تماما على ألسنة الشباب والنساء والأطفال ؛ ولكن العقلاء من الكبار يحاولون الامتناع عن ترديد هذه العبارات أو الكلمات . وعندما سألتهم عن دواعي استعمال هذه العبارات والكلمات أجابوني قائلين : "وأنت يا من لم يمض عليك في تيماء سوى عامين ، لم تجد مفرا من أن تردد هذه العبارات والكلمات أيضًا !" اكتشفت أن النساء البدويات ، أثناء إقامتهن في تيماء ، قد أصبن أيضا بتلك اللازمة ، وكن يقلن من ضمن كلامهن "الملعون إبليس" ، أما الرجال فيقولون باحتقار ، "هذا الإبليس ، الذي هو الآن على ألسنة حريمنا وفي أفواههم ، سوف لن نسمعه بعد الرُّحلة الأولى ؛ وهذا يعني أن إبليسهم هذا لا يمكن أن يُحْمل على ظهور الإبل ، وهم يقولون : "حنا Henna البدو el-Beduw" . وهنا يجب أن نقر أن الآثار الضارة للعدوى الكلامية يمكن أن تؤذي تمامًا في المناطق التي لا نكون فيها غرباء ! – في تلك المناطق لا يتبقى لنا من فورات العقل سوى بقايا لغوية متقاعسة غير معروفه لأية أمة من الأمم . – التيامنة سليطو الألسنة ، لأنهم أصحاب عقول شريرة ؛ ... وإذا ما قارنا سكان قرية العلا بسكان تيماء نجدهم "يقولون ، بين العلاونة ، لا يوجد أناس طيبين ، وكل التيامنة أصحاب قلوب فاسقة وفاسدة ." – مباني الناس في تيماء عالية ووسيعة وصحرائهم مفتوحة ، في حين أن كل شيء في قرية العلا ضيق ومستقيم .

جرى التغاضي مرحليا عن إعادة بناء الحداج (البئر) من جديد : هذا يعني أنه كان هناك حوالي أربع وأربعين سانية (ساقية) في انتظار إعادة بناء البئر ، وأن تلك السواقي أو إن شئت فقل : السواني كانت تابعة لأحياء الشيخين الآخرين . كان خلف هو وأهل سوقه (حيِّه أو شارعه) ، الذين انهار البئر من الناحية التي كانوا يستغلونه منها، كانوا يعتمدون على سواني الأحياء الأخرى ليفيدوا منها بعد أن يسحب أصحاب تلك السواني أطقمهم الخاصة بجلب الماء . ودواب جلب الماء كلها نياق – ولكن الجمال الذكور ، بالرغم من أنها أقوى من النياق ، إلا أن الناس يعتقدون أن الجمال الذكور لا تكون سلسة في العمل مثل النياق ، فضلا عن إنها تستغرق وقتا طويلا لتدريبها على عملية جلب الماء – يجرى تعليقها في حبال رفع الماء من البئر ، عند الساعة الثالثه بعد منتصف الليل ، وهنا يتسبب صراخ السواني أثناء عملها في الواحات ، في إيقاظ

(البدو) الذين جاءوا من أجل التسوق ، من منامهم بعد تناول السحور . وربات البيوت التيماويات يجلبن من البساتين سلالا من العلف ، لإطعام إبلهم التي تستعمل في جلب الماء ، ويكون ذلك مع طلوع الشمس ، هذا التبن ، الذي يبللونه بالماء ، والذي يجرى تنعيمه أثناء الدرس لفصل الحب عن التبن ، يجرى خلطه مع أوراق القرع وأوراق الشمام وأية أعشاب خضراء تعثر عليها ربات البيوت . وبالرغم من أن أهل القصيم يعتقدون أن ذلك النوع من العلف ضعيف جداً ويفقد الإبل قليلا من لحومها ، ومن سنامها ، الذي يمثل صحة هذه الإبل ، إلا أن أهل القصيم يحافظون على ذلك النوع من العلف ويبقون عليه ؛ وفي بعض الأحيان يجرى تقديم وجبة لتلك الإبل من البلح غير الناضج ، في ذلك الفصل من العام . والإبل الجيدة يجرى استئجارها بالشهر ، من البدو ، بواقع مائة صاع من التمر لكل جمل من الجمال ، أي بما يعادل حوالي خمسة ريالات . – هذا العلف طيب الرائحة يوضع أمام تلك الحيوانات العاملة الضعيفة في مدود من الطين ، يجرى تجهيزه عند نهاية كل مسار من مسارات السواني . وبذلك يتسنى للناقة عند المنزول أن تملأ فمها من ذلك العلف قبل أن تبدأ في الصعود من جديد . ويجرى فك تلك النياق من السواني قبل الساعة التاسعة ، إذ عندها تبدأ الشمس في الارتفاع في السماء ، وتترك النياق لتشرب من "السُّريان" Suryán (القنوات) ، – والإبل لا تشرب كثيراً في مثل هذه الظروف إذ أنها بحكم عملها في الواحة تشرب كل يوم : ويجرى بعد ذلك اقتياد تلك الإبل إلى حظائرها ، وفك عِدَدها من فوق ظهورها كيما تنال قسطا من الراحة ، وتجتر طعامها ، وبالتالي يذهب أفراد أطقم الماء لنيل قسط من النوم . وحبال جر الماء يصنعها البدو من ليف النخيل ، والذي يجدل هذه الحبال هم الرعاة الذين يعملون في جلب الماء من الآبار ، في كل الواحات على اختلاف أنواعها ؛ – ومن في الجزيرة العربية لا يبادر إلى جدْل حبل يشده من حول نخيله ؟ والعمال الذين يعملون في جلب الماء من الآبار يكسون حبال الليف بقطع من القماش حتى يحولوا بينها وبين الاحتكاك بجسم الناقة . وعند الساعة الثانية بعد الظهر يجرى إعادة النياق إلى العمل في جلب الماء من جديد ، وتستمر النياق في عملها لحين غروب الشمس ، عندما يدخل وقت الصلاة ، ويعود الناس إلى بيوتهم لتناول طعام العشاء . والبدو يعترفون أن العمل في جلب الماء من الآبار عمل شاق

إذ إنه يفسد عليهم راحة الليل ، - عندما تهددنا الطبيعة - زوجة الأب - من جديد في رحمها المغذي ، وعندما يتغذى العقل اليائس على كثير من المواكب بهية الطلعة لمناظر أشد الناس بؤسا وشقاء من بين أفراد الجنس البشري ، - وساعات الليل إذا ما قورنت بساعات النهار تكون شديدة البرودة . وعمال جلب الماء من الآبار هم أفقر شباب القرية ، وهم لا يرثون شيئا ، ودائما ما تكون أحوالهم من أحوال السخرة ، التي تقوم على التعامل مع حبال الآبار ، وهم يؤجرون أنفسهم لتلك الحرفة المؤلمة .

شاهدت ، في مرحلة لاحقة عمال جلب الماء من الآبار وهم يُرَكِّبُون اثنين من السواني عند حافة من حواف البئر المدمرة ، أو إن شئت فقل : المهدومة ، وعمل أولئك العمال طوال أنصاف الأيام وهم يستخدمون الإبل لرفع سلال من الأحجار والتراب الذي انهار وسقط في البئر . وعندما وجدت أولئك العمال يعملون ببطئ في رفع تلك الأحجار ، قلت لصديق من أصدقائي : "هذا عمل بطيئ ." ورد على قائلا : "عملهم فاسد Fâsid ، وليست له قيمة ." - "لماذا تستأجرون هؤلاء البدو المساكين ، طالما أن هناك كثيرين الذين يعرضون أنفسهم عليكم ؟" - "هذا ليس عمل البدو ، إنهم ليسوا رزينين ، ولا يتحملون القيام بعمل من هذا القبيل ."

أرسل كل من خلف ، وحسن ، وسلامي ، شيوخ السوق (الشارع) في طلب نياقهم (التي غالبا ما تكون دوما في المرعى مع البدو في الصحراء) : لأنهم سوف يركبون مع الرديف إلى حائل ، ليتحدثوا مع الأمير في شأن إلغاء بعض الضرائب إلى حين الانتهاء من إصلاح العطب الذي حل ببئر الماء . والمعروف أن القرويين عندما يسافرون في فصل الصيف "يقيلون" Yugaillun ، بمعنى "ينزلون عن دوابهم لتمضية فترة الظهيرة ، في الأماكن التي يعثرون فيها على الظلال . لم يكن الشيوخ صائمين لأنهم كانوا مسافرين ، بالرغم من أنهم كانوا في عز رمضان : والقرويون يمضون سبعة أيام في الوصول إلى جبل شمر راكبين على ظهور نياقهم ، - هذا يعني أن هذه المسافة تساوي خمس رحْلات من رحلات البدو .

انهيار جانب البئر ، سهّل على من يريد النزول إليه ، وهذا هو ما فعله الكثيرون (القسم الأكبر منهم من البدو) حتى يتسنى لهم الاستحمام في ماء البئر وإنعاش

أنفسهم في تلك الأيام . والمعروف أن ماء هذا البئر هو الماء الوحيد الذي يستعمله القرويون في الشرب ، ولكن العرب يتصرفون تصرفات أقل من المأمول منهم في مثل هذا الأمر : لقد أحسست أن الماء تغير طعمه مع أننا كنا في فصل الصيف بحرارته المعهودة . لم يتبق في البئر بعد انهياره، سوى القليل جداً من مباني الجدران القديمة ، التي كانت تتساقط وتهوى بين الحين والآخر ، وكان يجرى تجديدها بجدران جديدة ، كانت تبنى بطريقة سيئة تماما. صحيح أن الأحجار المستعملة من النوع الممتاز، ولكنها ليست مثبتة تثبيتًا جيداً بالأسمنت . في الجانب الغربي من جدران البئر أطلعوني على شكل من أشكال المباني المزدوجة ؛ وفي المناطق التي ينقص فيها حجر من الأحجار ، يتصورون أن ذلك هو منظر الباب ، "الذى كان الحريم تنزل منه إلى البئر لجلب الماء يوم أن كانت تيماء يهودية"(*) . وبينما كنت في البئر ، قام بعض الأطفال الأوغاد بإلقاء الأحجار على النصراني . ولقد شاهدت البدو مرارا وهم يستحمون في تلك البئر ، واندهشت كثيراً لافتتان أهل الصحراء الجافة بذلك الماء ؛ كانوا يردون على قائلين : "أيها الغريب ، لقد تعلمنا السباحة في خيبر ، حيث توجد هناك بعض البحيرات الصغيرة على حدود الحرَّة، وبخاصة في الطريق المؤدي إلى وادي "الحمض" El-Humth أي بالقرب من "الطبيق" Tubj : هؤلاء البدو كانوا من قبيلة بشر .

تخيلت أن أولئك الشيوخ ، يمكن أن يثقوا بي ، في مسألة الطريقة التي يمكن بها إعادة بناء الجزء المنهار من البئر : ولكن نظرا لأن هؤلاء الشيوخ كانوا قد سافروا إلى حائل ؛ فقد رأيت أن من الأفضل إرجاء القيام بهذا العمل لحين عودتهم إلى تيماء . كان القرويون عندما يبنون البئر يكوِّمون التراب خلف الجدار ؛ ولكني سوف استبدل ذلك التراب بتربة جافة ومدكوكة ومكبوسة كبسا جيداً ؛ وإذا ما كان ذلك سيؤدي إلى زيادة التكلفة ، فإن التربة المتعفنة بعد خلطها بالحصى والزلط قد تكون أقل تكلفة ، وتكون أخف أيضا عندوضعها فوق التربة المدكوكة . يضاف إلى ذلك أن القسم الأكبر

(*) كان من نتيجة الثورات التي قام بها اليهود في أورشليم أن قام الرومان بطردهم من فلسطين في عام ٧٠م واتجهت جموع كثيرة من اليهود إلى جزيرة العرب حيث استوطنوا أخصب بقاعها في يثرب وخيبر وخدك ووادي القرى وتيماء . (المراجع)

من الأحجار التي استعملوها في بناء الجدران كانت غير مشذبة أو خام ؛ وأما أنا سوف أحضر بعض الأحجار مربعة الشكل من أنقاض البلدة القديمة ، وسوف أنقل تلك الأحجار على ظهور الإبل . وأبني الجدران الجديدة ، فوق منحنيات سهلة ، وأمنعها من السقوط عن طريق حوائط ربط تبنى من الخلف ، لتكون بمثابة جذور للجدران الجديدة ، على أن تكون هناك أجزاء بارزة مثل الرُكَب ، في اتجاه الماء . وكنت على ثقة أن الجدران إذا ما بنيت بهذه الطريقة فسوف تكون متينة ، حتى وإن أدى الأمر إلى عدم استخدام الملاط . وقلت لهم (وكان ذلك وعدٌ مني) أن البئر يمكن أن تظل على هذا الحال ، طيله مائة عام من بعدي ، وكذلك رأيت أن يكون هناك تحويطة حول كل جدران البئر ، تكون على شكل إطار من جذوع أو دعامات النخيل . ولكني اكتشفت أنهم . كعرب لم يكونوا متحمسين لهذه الفكرة ، بل شككوا فيها أيضا ، بل إن البعض منهم طلب مني تأكيدا بأن الأحجار لن تسقط أو تهوى بعد رصّها ؛ سألوني ، "إن كنت بناءًا أو لدي أية خبرة سابقة في عمليـة البناء ؟" ونظـراً لأني لم تكن لدي أية جوائز أو مكافآت ، ونظرا أيضا لأني كنت أكتفي بناقة وعليها سرج ، فقد اعتبروا هذين الأمرين مؤشرين على عدم كفايتي وقلة خبرتي ، وبالتالي فلن يفيدوا من ذلك شيئا .

كان المُتَسلِّم Mutasallim ، أو إن شئت فقل : مندوب بن الرشيد ، يجلس في معظم الأوقات على المصطبة الطينية ، في فترات العصر ، وكنت كلما مررت به أحييه تحية من القلب ولكنه لم يكن يرد التحية مطلقا . ذات يوم ، وبينما كنت جالسا بالقرب من ذلك المتسلم ، - كان يجلس وحيدا نظرا لأن أحداً من الناس لم يكن يتشوق إلى صحبته أو يسعى إليها ، - "قلت : ما الذي يشغلك ؟ هل أنت أصم ، أم أنك تعتبرني عدوًا ؟" اعتدل سعيد ، الذي كانت روحـه المعنـوية متدنيـة ، ورفـع قامته قليـلا حتى لا يهرب مني منظر جبهته الخطيرة ، ثم راح بعد ذلك يلتمس لنفسه الأعذار : "حسن ، لقد كان في زيارة لمصر ، ورأى أمثالا لي هناك ، - لا ، هو لا يمكن أن يَعُدَّني عدوا له ؛ الإنجليز "يهاشمون" Yuhashimun (يناصرون) سلطان الإسلام" . ثم سألني هذا الرجل المهم سؤالاً واضحًا ومباشراً : "خبرني ، هل كان القدماء في هذه البلدة يهوداً أم نصارى ؟" - "أستطيع القول إنهم كانوا مثل هؤلاء الناس ! - وهنا أريته أولئك الأعراب الكثيرين الذين يضعون غترا على رءوسهم ويرتدون عباءات ، وكانوا يتسكعون

حول بئر – يهود بالله ." ابتسم سعيد المتسلم ابتسامة خبيثة ، لأنه اكتشف أن الغريب لم يخطئ فيما قاله عن التيامنة .– وخلاصة كل ما تعلمته (من خلال طرح الأسئلة على العرب) عن نظام حكومة ابن الرشيد هو ما يلي : "يحاول التأكيد لهم أنهم يمكن كسبهم عن طريق الهدايا والعطايا ، ويشهر سيفه في وجه أعدائه ، ويدوس على من يخافه أو يخشاه ؛" والبدو يقولون عن ابن الرشيد ، "إنه لم يكن في يوم من الأيام حاكما Hakim بحق ، وأنه لم يطح برأس إنسان ." وبالرغم من أن بعض البدو يمكن أن يقولوا أشياء معيبة في حق الحاكم ، وأن تلك الأشياء فيها كثير من الخلل والزلل ، إلا أنها لا تتردد كثيراً في القرى على شكل أسى أو أحزان . والقرويون يعتقدون أن حالهم على ما يرام تماما ، لأنهم يلقون معاملة عادلة .

بعد احتلال خيبر ، كانت الحكومة التركية في المدينة (المنورة) تفكر في الاستيلاء أيضا على تيماء .– وفي العام السابق لاحتلال خيبر ، كانت تلك الكتيبة من العجيل ومعهم المشاة وقطعة مدفعية ميدان واحدة ، قد أرسلت من المدينة (المنورة) في حملة سرية، أو إن شئت فقل: مهمة سرية في اتجاه الشمال؛ وتهامس الناس بأن تلك الكتيبة كانت متجهة لاحتلال تيماء : ولكن الجنود بعد أن قطعوا مرحلتين من المسافة صدر إليهم أمر جديد يطلب منهم العودة مرة أخرى ، وبالتالي عادوا ثانية إلى خيبر . كان الناس يعتقدون أن كبار رجال المدينة (المنورة) جرى شراؤهم ، في الوقت المناسب ، برشوة كبيرة دفعتها حائل. معروف أن الأتراك يحبون الفضة (النقود) ، ويحبون أيضا التفخيم والتعالي ؛ ومعروف أن "سلطان الأعراب" الشمر ، كان يريد العمل مع الأتراك من هذين المنطلقين ؛ معنى ذلك أن سلطان الشمر كان يصطاد مع الأتراك في مدينة الرسول ، مستخدماً الطعم التركي نفسه . كان التيامنة يعيشون طبقا لرغباتهم تحت حكم الحكومة النجدية الصريحة ؛ هذا يعني أن أهل تيماء لم يريدوا للإمبراطورية العثمانية استغلال أية ذرة من المدينة (المنورة) لصالحها .– وقد أكد لي الأفراد الثقات، أن واحدا من الغرباء الذين زاروا تيماء قبل سنوات قلائل ، جرى تضليله في الصحراء ثم قتله بعد ذلك، بأمر من خلف ، نظر لأنهم شكوا في أن يكون جاسوسا للإمبراطورية العثمانية ! قتلوا ذلك الغريب المسكين مخافة أن يجر عليهم ويلات الإمبراطورية العثمانية الكئيبة ؛ سمعت من بدو الفكارة أن ذلك الغريب كان "عبداً" Abd .

لم يزدهر حالى فى مسألة علاج المرضى فى تيماء ، فهؤلاء الذين قدموا الدليل على الأدوية فى أيامنا هذه يصعب عليهم التمسك بتلك الأدوية فى الغد نظرا لعدم المبالاة أو الاهتمام بتلك الأدوية ؛ وأفضل هؤلاء الذين قدموا الأدوية لم تكن لهم سوابق فى هذا المجال . ولذلك فهم يشعرون بالقلق عندما يبتلعون تلك الأدوية لوحدهم . هذا هو داريم Dareyem ، أحد الشيوخ ، كان مريضا بالاستسقاء ؛ وكان أصدقاؤه يهتمون معى بشأن هذا الرجل . جاء ذلك الشيخ ذات يوم عائدا من صلاة الجمعة ، قبل حلول شهر رمضان ، وأحس بالحر فشرب شربة ماء باردة من القربة ، واعتبارا من ذلك اليوم بدأ جسم هذا الرجل يتورم . خلطت لذلك الشيخ شيئا من قشدة الطرطير(*) ، مع شىء من الماء ، ثم شرب هذا المحلول ، وتحسن حاله ، ولكنه سرعان ما بدأ يهمل تناول الدواء ، "لأنى لم أشفه فى سبع ليالى" وبالتالى رفض تناول الدواء بعد ذلك . قلت للأصدقاء ، "أعتقد أنه لن يعيش أكثر من عام أو عامين !" - ولكنهم استمعوا إلى ما قلت دون اهتمام أو مبالاة ، الأمر الذى جعلنى أستشعر القلق والفتور فى داخلى . "ردوا على ، أن الموت والحياة بيد الله !" جاء إلىَّ أشخاص آخرين يطلبون منى علاج عيونهم ؛ ولكنهم كانوا يخشون دفع ست بنسات أو صاعين من التمر على سبيل الأتعاب للطبيب ، بل إن البعض من هؤلاء عادوا إلى بيوتهم وهم يسبون ويلعنون لأنى لم أعطهم الدواء على سبيل الهدية . البدو ، فى القرى ، كانوا يلجأون إلى الحكيم بطريقة أكثر صراحة ووضوح ، وبنوايا طيبة أيضا ، لعلاجهم من السعال الذى كانوا يحسون بآثاره فى عظامهم ، ولعلاجهم أيضا من أمراض ألامعاء ، - أو إن شئت فقل من أمراض الصحراء ؛ ولكن أفراد قبيلة العنزى كانوا يلجأون إلى الحكيم لعلاجهم من حمى الملاريا التى كانت تصيبهم فى خيبر .

يشيع فى شهر الصيام بين هؤلاء الناس ، نوع من أمراض الروماتيزم ؛ ويرجع سبب هذا المرض (الذى يندر أن يوجد فى البلدان متوازنة الغذاء) إلى شرب الماء البارد قبل النوم ، بعد أن يجرى تبريده فى قراب الماء ؛ وقد يكون سبب ذلك المرض راجع إلى أن هؤلاء الناس ينامون فى العراء بلا غطاء ، وبالتالى يضر برد الصباح

(*) هو ثانى طرطرات البوتاسيوم الخام . (المترجم)

صحة هؤلاء الناس ، عندما يستيقظون من منامهم ويجدوا الصقيع حول عيونهم المتورمة . هذا المرض يستمر مدة عشرة أيام يحس المريض خلالها بألم يشبه ألم التراب عندما يكون في العين ، كما يحس أيضا باحتقان واحمرار شديد في العينين ، الأمر الذي ينذر بخطورة تسرب أية مادة إلى القرنية ؛ هذا المرض يشيع في معظم المستوطنات النجدية ، إلى حد أنه من بين كل ثلاثة أشخاص يكون واحد منهم مصاب بهذا المرض . هذا النوع من الرمد أصيل في السلالة العربية ، كما أنه يصيب الغرباء الذين يعيشون في هذه المناطق : وهاهم الأحباش هم وأطفالهم يعانون هنا من هذا المرض ، ولكن هذا المرض لا يصيب سوى قلة قليلة من الزنوج ؛ وقد وجدت أسوأ حالات هذا المرض في خيبر ، بالرغم من أن الناس هناك يعيشون الحياة الريفية نفسها . هذا هو محسن ومعه شخص أخر في المنطقة التي ننزل فيها ، أو إن شئت فقل : في المخيم المقام على أرض الواحة ، أصيب في عينيه ويحس فيهما بوخز شديد ؛ ولكن هذا المرض مر مرور الكرام ، نظراً لأن هذا المرض مقصور على الواحات ، وليس من أمراض الصحراء الجافة . وأنا نفسي ، كنت أشرب كل مساء ، شربة ماء كبيرة من قراب الماء المعلقة ، وأنا أنظر متأملا في ذلك العدد الذي لا ينتهي من النجوم ! – ذلك المنظر السماوي الذي لا يمكن أن تحرمني من رؤياه أيام الحياة المتعبة التي تمر عليَّ ؛ ثم شربت مرة ثانية من ذلك الماء عندما كان في ذروة برودته ، قبيل طلوع الفجر . وذات صباح ، وكان ذلك في منتصف شهر رمضان ، أحسست بتورم في عيناي ؛ وهنا ، وعلى العكس مما يفعله العرب ، واعتماداً على العلم الذي استقيته من كتبي ، رحت أغسل عيناي بصورة مستمرة . والعرب يقولون : "لا تجعل الماء يلامس العين إذا ما أصابك ذلك المرض ." ولكن غسيل العين بصورة مستمرة هو الذي خفف الألم ومكنني من فتح عيناي .– ولكن أهل الجزيرة يواصلون التمسك بخرافتهم عن موضوع استعمال الماء مع مثل هذا المرض ، بل إنهم يحولون دون استعمال الماء مع أي شكل من أشكال الالتهاب .

مضت عشرة أيام على إصابتي بذلك المرض، وكان يدور بخلدي، "ماذا لو خذلتني عيناي ! – وأنا في هذه الأرض المعادية وبعيدا عن كل ما يلزمني ويصلح لي ." كان بعض أهل القرية ، وأنا أمر عليهم أتحسس طريقي بألم بالغ ، وأكاد لا أرى الأرض ،

كانوا يسألونى ، "أين أدويتك !" وكانوا يرددون المقولة القديمة "أبو قراط يعالج نفسه" . وبعد أسبوعين، من ترك الماء ، بدأ الالتهاب يخف ، وشفيت عيناى ، وأنا أحمد الله على ذلك ! إذ لم تحدث لى أية مضاعفات. بقى نظرى ضعيفا إلى حد ما بعد شفاء عيناى ، ولم تكن رؤيتى جيدة مثلما كانت عليه من قبل ، يوم كنت فى الجزيرة العربية ! وكنت دائمًا أحس وخزا فى عيناى ، بل كان ذلك النوع من الرمد يعاودنى عندما كنت أرشف الماء البارد أثناء الليل ، – اللهم باستثناء تلك الليالى التى كنت أتناول فيها عشاء من اللحم . ولقد تعلمت من الخبرة ومن التجربة أيضا ، أن الإنسان ينبغى ألا يشرب الماء أثناء حرارة اليوم الجاف ، ويفضل عدم شرب الماء إلا بعد غروب الشمس ؛ والمثل الشعبى ، فى البلاد العربية التى تشرب الماء يقول "شرب الماء قبل النوم يعد واحداً من المبالغات التى تؤذى جسم الإنسان ." قال لى أحد التيامنة ، وهو يشعر بالأسف لما أصابنى: "هذا لأنك أصابتك العين (الحسد) – ماذا! ألا تفهم المقصود بإصابة العين ؟ المؤكد أنهم نظروا إلى عينيك ، يا خليل ! لدينا بصّاصين (قاتلهم الله !) يعيشون بيننا ، يستطيعون من خلال نظرات عيونهم (الحاسدة) أن يسقطوا طائرا من السماء ! وسوف ترى ذلك الطائر وهو يهوى من السماء صارخًا كاك Kak – كا Ka – كا Ka – كا KA . وأنا أقسم بالله ، إن نظراتهم (حسدهم) يمكن أن تنسف نخلة على نحو تراها تذوى وتذبل . – هذه أشياء يؤكدها كثير من الشهود المخلصين ."

عندما كنت أمر فى السوق (الشارع) ، كان كثير من الناس (كلهم من البدو) يمدون إلى أيديهم وهم جلوس على المصاطب ، من باب أنى لدى مهارة قراءة الكف : كان الكثيرون منهم يتطلعون إلى قوة الشعوذة فى النصرانى ، وكانوا يرجونى نيابة عن أصدقائهم المرضى (لأنهم يرون فى تسود مهارة الطبابة ، القدرة على تقييد الجان) . لم يكن لدى هؤلاء الناس ما يقولونه ، عندما عبرت عن احتقارى لاستيائهم ، عن طريقة التعبير عن احتقارى وازدرائى العلنى للشعوذة والدجل ، لأنى لو وافقت على ذلك وجاريتهم فيه ، لكنت قد جعلتهم ينظرون إلى وكأنى أقذف دينهم بالأحجار : ومع ذلك ، فقد اكتشفت بعد ذلك فى مدينة حائل أن الدجل والشعوذة كانت تحيا هنا تحت ستار التسامح ، – هذا النوع من الخرافات التى لا تمت للدين بصلة ، هى والتصرفات

والتعاملات التي يدعي أصحاب العقول المريضة أنهم يأتونها مع العالم السفلي ، لا تتوافق مع المذهب الوهابي(*) .

الشيء الخيالي العجيب الذي وجدته في تيماء (والذي يشبه إلى حد بعيد الحكايات التي يحكيها البدو الرحل عن المناهل ،) يتمثل في أن لديهم واحة من واحات الأشباح يطلقون عليها اسم "عوينات Aueynat مسلأت Mas?llat الأمان el- Aman" . "هذه الواحة تبعد مسير ثلاث ساعات بالإبل ، عن تيماء في اتجاه الشمال الغربي ، وهي مسكونة في معظمها بالبدو . والعبيد والخيول تنبثق من مظهر النخيل المسحور ؛ ولكن كل ذلك يختفي إذا ما اقترب الإنسان من هذه الأشياء ."

في إحدى القرى ، لم أتمكن مطلقا من الهرب (من طاعون تلك العقول المعدى) من التشدد الإسلامي . والتيامنة بحكم كونهم تجارا متلاعبين ، ويسبحون في مظاهر الحياة الجنسية والحسية ، هم من المسلمين الذين لا يتمسكون تماماً بالعقيدة ولا يعضون عليها بنواجزهم ، وهذا ينسحب أيضا على الصوم وعلى الصلاة . الناس هنا ، كما في نجد ، يبدون كما لو كانوا مؤمنين جددا في إطار دين فتي جديد ، أو كما لو أن محمداً (ﷺ) نفسه قد مات من بينهم منذ فترة وجيزة : هذا يعني أن الجميع كانوا مشغولين بالدين طمعا في الحصول على نعم الله ؛ - الدين هنا هو الشغل الشاغل والطريقة الوحيدة التي يزجي بها هؤلاء الناس أوقات حياتهم الفارغة . نظف الوهابيون هذه التربة وطهروها من الحشائش الضارة ، التي تخلفت عن الأعشاب القديمة الزائفة والغريبة ، وبالتالي فإن هذا التجديد لا يمكن أن يغيب عن الوعي العام في عشية أو ضحاها . التُّعبير ، والاستهزاء والمقاطعة والخصام كلها أمور صارخة وغير مستحبة في المزاج العربي : والتشدد في هذه البلاد ، يكمن أو يتأصل في الأفراد الذين يعانون من الحرمان . والدين عندما يتملك العقول الطيبة يصبح أمرا مستحبا ، ويصبح بحاجة إلى التخلي عن شيء من حب الذات المؤلم ومن التطرف أيضا ؛ حب الذات هو والتعصب والتزمت في العقيدة يسري بين الناس هنا باعتباره

(*) ليس هناك مذهبًا وهابيًا كما يذكر المؤلف وإنما الأصح التعاليم الإسلامية الصحيحة التي دعا الشيخ محمد بن عبد الوهاب المسلمين لاتباعها . (المراجع)

ثمرة طيبة من ثمار الروح الناجمة عن وطنية الناس الدينية هنا . - الوطنية والدين ! يبدو لنا أن كل الفضائل تكمن فى هذين الأمرين ؛ ولكن الإفراط فى أى منهما تنتج عنه مصائب كثيرة ! - كان المتشددون يصيحون فىّ قائلين : "جوم ! Goom أطلب Utlub ربك Rubbuk ،" بمعنى "أنهض ، يا أنت ، وأدعو ربك وأطلب منه ." الشباب الذى نتج عن هؤلاء المتشددين ، كان شبابا ضعيفا ، لا يحظى بالحب ويشعر بالتعاسة ! كانت تنهال علىّ كلمات كثيرة من هذا القبيل من ألسنة بعض النساء : وكان يدور بخلدى أن هؤلاء الناس ، كانوا يشبهون سماسرة السماء ، وأن كل إنسان يتعين عليه أن يتحاشاهم ويتجنبهم ! ومع ذلك لم يجرؤ أحد من هؤلاء على سب النصرانى فى القرية لأنى كنت بصحبة البدو ، وتحت رعاية شيوخهم .

تعرفت على رجل صغير فى منتصف العمر ، يدعى إبراهيم ، وقد انحدر من أسرة رومانية وذلك على العكس من بقية سلالته ، وإبراهيم هذا رجل عاقل ومتزن فى

الحاكم اليهودى لكل من خيبر وتيماء" (هذا الحاكم ذاعت شهرته فى الماضى) : والمعروف أن السكان الذين لا يعرفون القراءة والكتابة جديدون على تيماء ، إضافة إلى أن أهل الجزيرة العربية ليست لديهم سجلات لمثل هذه الأمور . قالوا لى : "إن هناك وجّاجًا Wajjaj مدفونا تحت الرمل ، وأن هذا الوجاج عبارة عن بئر ضخمة أخرى مثل الحدّاج ." رافقنا فى تلك الجولة اثنان من عبيد أسرة ذلك الشيخ ، بعد أن حصلا على حريتهما ؛ جاء إلينا هذان الرجلان وكانا يرتديان ، فى شجاعة وجسارة ، ملابس أولئك الذين ينحدرون من سلالة الزنوج ، وكان كل واحد منهم يحمل سيفه . قفز هذان الرجلان وهما يضحكان بين الأنقاض ، وراحا يجريان مثل التلاميذ عندما يخرجون من المدرسة ليسألانى : "ألا يرضينى أن أقيم فى تيماء"وأنقب لهم عن ذلك الوجّاج ؟ (موقع هذا الوجاج غير معروف) وبالتالى تتحول كل تربة ذلك السور الجرداء إلى حدائق مثمرة ."

اكتشفت عن طريق ملاحظة البارومتر ، أن المدينة القديمة تقع على ارتفاع خمسين قدما فوق مستوى القرية ،– هذا يعنى أن حفر البئر عند هذا الارتفاع ينبغى أن يصل إلى عمق مضاعف ؛ ولكن ذلك العمق لم يكن أكبر من الأعماق المماثلة فى كثير من قرى نجد . شاهدت أيضا فوق التربة آثارًا لقنوات رى قديمة . هذه القنوات التى كانت تستخدم فى توصيل الماء ، كانت أمام أعين هؤلاء الناس بصورة مستمرة ، ومع ذلك لم يكلف أحد منهم نفسه بتتبع تلك القنوات، حتى يتسنى له معرفة بدايتها . – لو قدر لأى إنسان متفتح أن يولد بين هؤلاء الناس ، ألا ينبغى له أن يروح فى ثبات ذلك الإهمال والفتور ؟ يدا الإنسان وحده لا يمكن أن تحققا مشروعا كبيرا ؛ وإذا لم يكن هناك من أحد يرافقه ويقف إلى جانبه ، فإنه سوف تفتر همته وتضيع شجاعته ! هذه القنوات الصغيرة بدائية الصنعة وغير متقنة ؛ وهذه البدائية هى وعدم الإتقان أمران شائعان فى مناطق الأطلال القديمة فى الجزيرة العربية . والناس هنا يظنون أن عيون الماء يمكن العثور عليها تحت سطح التربة ؛ وقد عثر الناس وهم يحفرون فى الأرض على بعض المجارى المائية القديمة . وقد سمعت هؤلاء الناس يتكلمون عن استئجار بعض الأشخاص المهرة من قرية العلا ، كى يقوموا بالبحث عن تلك العيون

المائيـة : ولابـد أن يكـون ذلك الكلام قـد دار على ألسنة هؤلاء الناس على امـتـداد سنوات كثيرة !

وفي مـرحلة لاحـقة ، وبعـد أن جـاء بدو الفكارة واحتلوا الديرة من هذا الجـانب ، غامرت بالدخول إلى الصـحـراء كي ألقى نظرة على كل تلك الخرائب والأنقاض . وأثناء تجوالي خلال هذه الأنقاض والخرائب ، وجدتنى أعبر أو أتجاوز مسوّر المدينة القديمة ؛ وكانت المنطقة الواقعة داخل هذا المسور عبارة عن رمل وزلط صـحراوى ، وخـارج ذلك المسـوّر شاهـدت مـسـاحـات من الشـوارع القـديمـة ، أو إن شـئت فـقل أحـجـار أسـاس المنازل . كانت مصنعية بناء ذلك السُّور الكبير مصنعية بدائية وغير متقنة ؛ فقد كان المسور عبارة عن كتل كبيرة من الحجر الرملي مرصوصة باستعمال ملاط من الطين : كانت المسافات فيمـا بين وجوه الأحجار محشّـاة بالملاط الطيني نفسـه ، الذى لا يؤثر فيـه مناخ هذه البـلاد ، وبالتالي يزداد صـلابة وتماسكا مـع مرور الوقت . من هنا فإن العمل القديم يبدو كما لو كان جدارا من الصلصال صنع البنّاء له وجها ؛ ويصل سمك الجدار إلى ما يقرب من القامة ، و (فى المنطقة التى يبرز السور فيها الرمال المتحركة) يصل ارتفـا ع السـور إلى مـا يزيد على ثلاث قـامـات . شـاهـدت فى مكان من الأمـاكن برجـا منخـفضـا (هل كان ذلك البرج قبرا ؟) وقـد امـتـلأ تمامـا بالصلصـال ؛ كمـا شاهدت في مكان آخر بابًا سريًا كانت عارضتاه الجانبيتان مصنوعتان من قطع كبيرة من الأحجار . كما شاهدت أيضا شظايا صغيرة حمراء اللون وشظايا أخرى من حجر شفاف حليبى اللون ، كل هذه الشظايا كانت مبعثرة فى سـائر أنحـاء البلدة القديمـة ؛ وكل هذه الشظايا غـريبة على هذا البلد . [شـاهـدت شـيـئـا من هذا القـبيل فى مـواقع قديمة على ساحل الخليج الفارسي.] - ولكنى عندما رحت أبحث حول تلك الجدران عن نقوش أثرية من نقوش تيماء ، لم أعثر على أى شيء منها : كانت عيناى ، لا تبصران جيدا ، بفـعل الرمـد الذى أصـابهـمـا ، إضـافـة إلى أنى كنت أتحـرك بخطى الشـخص الهارب، وحدى وحافى القدمين، وكنت أخوض وأغوص فى الرمال المنجرفة الساخنة .- شـاهـدت فى الرَّبحـة Erbha أنقـاضـا لـبـعض القـرى ، وبعض الأبيـار ، وكذلك بعض القنوات المهدمة ، كما شاهدت عند الأفق قممًا من الحجر الرملى فى اتجاه الجنوب الشـرقى على بعـد أميـال قليلة من تيمـاء . كمـا شـاهدت أيضـا فـوق الأرض المرتفعة

الواقعة خلف ملاحات الواحة في اتجاه الشرق ، مبنى قديما دائريا ، ربما كان معقلا أو قلعة من القلاع القديمة ، أو ربما كان هيكلا heykal حسبما يتصورون ، والمقصود "بالهيكل" هنا هو "معبد وثني" كان يطل على تيماء كلها : الناس هنا يدعون أن ذلك الهيكل ، أو إن شئت فقل : المعبد كان كبيرا مثل قصر زِلُّوم Zellum ؛ وأنا لم أتمكن من زيارة ذلك المعبد .

يضاف إلى ذلك أن إبراهيم أبلغني، - وأنا لا يمكن أن أثق تماما بما قاله ، نظرا لأن البدو لم يؤكدوا ذلك الذي قاله ، - "أن هناك أرضًا ، اسمها "الخُبو el-khubbu (الخبُّة khùbbah) بالوادي b'il wady المهجع Mohajja "، تحت جبل غنيم Ghreneym ، وفيها كثير من الأحجار العالية الواقفة على أطرافها ، ومن فوقها نحت لعينين بشريتين وأنف وقرون من الشعر ، ومن الأسفل يوجد نقش naksh ." وقد ذكرتني كلمات إبراهيم بذلك الحجر الذي سبق لي العثور عليه في قصر زِلُّوم Zellum ! ترى ، هل كان إبراهيم يقول الحقيقة ، أم أنه كان يكذب على الغريب في مثل هذه الأمور ؟ ربما كان يتكلم عن مدفن تيماء القديمة ، في زمن الإنجيل ! ولذلك راودتني رغبة قوية في زيارة المكان . وعندما سألت محسن عن ذلك قال لي : "إنه كان يرعى الماعز عندما كان طفلا في ذلك الجانب كله من الغنيم" – ولكن ماذا عن تلك الخبة khubbu ! فوالله ، حسب علمه لم يكن هناك شيء من هذا القبيل ، كما أنه لم يصدق ذلك الكلام ." والمؤسف أني كنت في البلدة في ذلك الوقت ، وكان البدو الغرباء يتوافدون على البلدة قادمين من كل جانب ، إلى حد أني لم أستطع التأكد من هذا الأمر أو التحقق منه . ولم أسمع أن أحداً عثر على قطعة من النقود القديمة في تيماء ، سواء أكانت تلك القطعة من الفضة أو الذهب أو حتى من النحاس الأحمر . معروف في البلاد العربية أن نقود الكنوز تجلب الحظ وأنها تصلح للعزائم والرقي ؛ ومن يعثرون على نقود الكنوز يذهبون بها إلى الحداد ليصنع لهم منها خواتم أو أشياء تتزين بها نساؤهم وأطفالهم . أراني شافي Shafy، إناء إغريقيا عثر عليه (فارغا) عندما كان يحفر في أرضه ؛ هذا الإناء يشبه دوارق الزيت المستعملة في جنوب أوروبا ؛ – في ذلك الوقت لم يكن هناك أوعية طينية في تلك الأجزاء من الجزيرة العربية ! كما عثرت على بقايا أواني القدماء ، وكثير من الزجاج المكسور فيما بين جدران الواحة وملاحات تيماء . والناس هنا يقولون إن تيماء

الأثرية كانت عبارة عن بلدة قديمة داخل هذا السور ، وأن تلك البلدة كانت لها ثلاث ضواحي: الغرب ، والشرق ، والحدَّاج (البئر) ، وهي موجودة حاليا : وهذا الذى يقوله الناس هنا نقلا عن التراث يحتاج إلى إعمال الذاكرة فيه جيداً ، "كانت المدن القديمة لهذا البلد سبع مدن : تيماء ، والحجر ، والمبيَّة Mubbia(t)، وأمّ جسور Umgassur ، وخيبر ، والخريبة ، والمجيرة Mogera " .

ذهبت في أحد الأيام إلى مكان جرى فيه مؤخرا اكتشاف بئر قديمة أعيد افتتاحها . كان ولد صاحب البئر ، أو إن شئت فقل : مكتشفها ، يقود جملا عند البئر لجلب الماء ، إلى الحوض الجديد الذى جرى إنشاؤه على قطعة من الصحراء ، جرى تسويرها بالفعل وحرثها وتقسيمها إلى قطع صغيرة لزراعة الحبوب ؛ هذا الماء كان أبرد من المياه الأخرى ، ولكن طعمه لم يكن سائغا ، مثل مذاق الماء الذى يجرى جلبه من الحدَّاج . تسلق الرجل ذلك السور الطينى (إذ كانت هناك ثقوب فى أسوار البساتين ، الأمر الذى كان يمكن النساء أيضا من تسلق ذلك السور) ، ثم عاد إلى بهدية من الرمان : والعرف فى البلاد العربية ، يقضى بأن من يدخل حقل الغير أو بستانه يصبح ضيفا على ذلك البستان ، ويقوم صاحب البستان بملء يدى ذلك الضيف بالفاكهة إذا ما تيسرت وكان ذلك أوانها . وعليه ، ومع استمرار الصبى فى اقتياد الناقة ، من خلال صوته ، جلس معى لنتحدث سويا . هذا البئر الذى يصل عمقه إلى سبع قامات أمكن تطهيره بواسطة ثلاثة رجال من رجال الرحلات ، بواقع ستة بنسات أو ثمانية بنسات فى اليوم الواحد ، وعلى امتداد خمسة وعشرين يوما ، أى أن التكاليف الإجمالية وصلت إلى ما يقرب من عشرة أو اثنى عشر ريالا ؛ كما أن هذه الأرض الجديدة التى تصل مساحتها إلى ثلاثة أو أربعة أفدنة ، التى جرى إعدادها كانت تساوى ما يتراوح بين مائتى وثلاثمائة ريال أى بواقع ما يقرب من ١٨ جنيها إنجليزيا للفدان الواحد . كان الأمر مازال يتطلب شيئا من الإنفاق على زراعة بعض من فسائل النخيل ؛ يضاف إلى ذلك تكاليف استئجار الإبل كل عام ، إضافة إلى الأجور التى تدفع لمن يقومون على أمر اقتياد تلك الإبل ، وهى تعمل فى جلب الماء من البئر . هذا يعنى أن فسائل النخل الصغيرة سوف تثمر خلال خمس أو ست سنوات ، وتصبح نخيلا كبيرا خلال خمسة عشر عاما ، وتثمر بعد ذلك بكل طاقتها ، - ثمار هذا

النخيل كل عام لا تتعدى قيمتها المائة ريال : هذا يعني أن إنتاج ذلك الحقل الحظيظ ، لا يمكن أن يغطي في النهاية تلك التكاليف الكبيرة التي أنفقت عليه . وأية حوطة من حوطات تيماء عندما يبيعها مالكها ، يدفع المشتري جزءا من ثمنها بالعملة الفضية ، أما بقية الثمن فيجري سداده على شكل تمور ، ومستلزمات البيوت ، وعلى شكل أواني؛ - وهذه الأشياء ، هي وسجاجيد الجلوس ، هي كل المنقولات التي يمكن أن يراها أي إنسان في منازل الجزيرة العربية . وقد يبيع البائع التمر نظير مبلغ من النقود ، إلى البدو الذي يفدون إلى تيماء طلبا للتسوق والتبضع .

أخذ مسوّر تلك الحوطة الجديدة يمتد إلى أن تعدى محيط الواحة في اتجاه الصحراء : هذا يعني أن تيماء ليس لها سور عام من حولها ، ولكن أقسام هذه الواحة كل واحد منها مسوّر بواسطة الجدران الخاصة بالأفراد أنفسهم . في هذه المستوطنة هناك حوالي أربعة أو خمسة طرق ، أو إن شئت فقل : مسارات ، عند نهاية الطرق العامة ، - والجزء البعيد من تلك المستوطنة تتحكم فيه البوابات ؛ ومع ذلك يستطيع المشاة التجوال في المستوطنة طوال الوقت من خلال فتحة موجودة في الجدار الجانبي (وهذه الفتحة ضيقه جداً) ، - هذا الشيء له مثيل أيضا في القرى السورية الواقعة في الصحراء مثل قرية كرياتين التي تقع قبل بالمرا Palmyra . - وقعت عيناي ، ذات يوم في الصباح الباكر ، على جماعة كبيرة من بدو الشرارات ، الذين كانوا ينتظرون السماح لهم بالدخول ، عند البوابة الشمالية ؛ وكان هناك أيضا بعض من أهل البلدة ، حتى يكونوا أول من يتعامل تجاريا مع تلك الجماعة فقيرة الحال ، التي جلبت معها شيئا من السمن لتبيعه في سوق البلدة: هذه الجماعة من بدو الشرارات ، كان الهزال والضعف يبديان على أفرادها ، إضافة إلى أنهم كانوا يرتدون ملابس مهلهلة نظرا لحياة الفاقة والمعاناة التي يحيونها في الصحراء ، هؤلاء الشرارات جاءوا إلى تيماء لابتياع الطعام من القرية في موسم حصاد التمر ،-يضاف إلى ذلك أن سلوك هؤلاء البدو كان ممقوتا ومكروها. انفتحت البوابة لهؤلاء الشرارات في مرحلة لاحقة ، ودخلوا البلدة ليقيموا في حوطة من الحوطات الخالية، تقع على ذلك الجانب من الواحة.

ونحن نورد هنا شيئا عن الدم الأفريقي في هذه البلدان؛ كل مدينة ، وكل قبيلة من قبائل هذه البلدان فيها عدد من العبيد والإماء بل وعدد من أسر الزنوج المحررين ،

والكثيرون من هؤلاء العبيد والإماء ، مولودون في بلاد غير هذه البلاد ، ولكن جرى تحريرهم هنا ، والناس هنا يطلقون عليهم اسم المولّدين muwalladin . وقلة قليلة من أشباه الزنوج ، تعيش في تيماء ؛ أشباه الزنوج هؤلاء ينحدرون عن آباء أحرار ، اغتنوا وتحسنت أحوالهم المعيشية فاتخذوا لأنفسهم زوجات بيضاوات فقيرات من بين نساء الصنّاع ، أو إن شئت فقل : الحدادين ، الذين ينظرون إليهم هنا على أنهم ليسوا أحرارا . - كانت هناك امرأة بهية الطلعة ، حلوة الملامح من بدو الحطيم في قلعة مدائن صالح ، تزوجت من عسكرى زنجي ، هو العبد الذى حرره ، أو إن شئت فقل : أعتقه الحاج نجم ، وأوفده لحراسة خزان الماء فى المعضّم Moaddam . كانت السعادة تبدو على وجه تلك الزوجة (بالرغم من حساسيتها بعض الشيء للون بشرة العبيد) التى كانت تحب أطفالها حبًا جمًا ، والذين كانوا زنوجا وملامحهم أفضل من ملامح الأطفال غير المولّدين . وانا لم أرى أحداً من الأحباش فى تيماء ، أو حتى بين البدو الرُحّل . والسبب فى ذلك أن كلفة مثل هؤلاء العبيد المبدئية تكون مرتفعة ؛ إضافة إلى ضعف قدرتهم فى الأعمال الوضيعة . هناك عدد كبير من العبيد الأحباش فى المدينتين المقدستين ؛ كما أن هناك أيضا أعداداً كبيرة من أولئك العبيد فى الإقطاعيات التى فى الجزء العلوى من الجزيرة العربية ، مثل حائل وبريدة(*) Boreyda ، وهم يعملون أعوانا وخدما للأمراء : هؤلاء العبيد طوال القامة مثل العرب وأقوياء البنية ، كما أنهم أشداء ولطفاء ؛ هؤلاء العبيد مطيعون للأمير ، ولديهم الروح إلى الدخول فى العمليات الحربية التى يأمر بها الأمير . والصبى الزنجى المتين يمكن شراؤه ، فى تلك المناطق ، أثناء العودة من الحج، بحوالى ستين ريالا (أى ثمن جملين أو ناقه واحدة إن صح التعبير) . من بين هؤلاء العبيد ، هناك صنف منهم تغلب عليه ملامح أو قسمات السمرة :- ولكن العبيد السود عددهم أكبر بكثير من أنواع الرجال أصحاب البشرة البيضاء . ولقد سألت كثيراً من الزنوج ، الذين كانوا عبيدا فى الجزيرة العربية منذ طفولتهم ، - وعرفت أنهم جميعا ينحدرون من بلدان فى أعالى النيل ، وأنهم جرى سرقتهم عن طريق الغزوات التى كان العرب يقومون بها .

(*) بريدة : عاصمة إقليم القصيم . (المراجع)

جاءتنى امرأة مسكينة (معتقة حاليا) كانت تخدم فى منزل الثوينى Thueyny ، الذى يطلقون عليه لقب الرومان er-Roman ، وكان ذلك المنزل مقام فى منطقة منزل البستانى الذى كان مجاورا للمنزل الذى كنا نقيم فيه ، وأنا بدورى كنت أمضى معظم فترات الظهيرة في ذلك البستان ، جاءتنى تلك المرأة وقالت : أنها تستشعر الشوق والحنين إلى وطنها ، وأهلها ، وبيت أبيها . وتنهدت ثم قالت : "آه ! لو أن الله يهيئ لها فرصة رؤية هذه الأشياء مرة ثانية !" أرضها بالمقارنة مع هذا البؤس الخالص ، وفقر التربة الشديد الذى ينعكس على العبودية ، مليئة بخيرات الطبيعة وإحسانها ، تلك الأرض التي اختطفت منها يوم أن كانت في مرحلة إكتمال النضج والنمو . حدث ذلك الاختطاف ذات يوم عندما كانت ترعى ماعز والدها على جوانب التلال بالقرب من النهر، بصحبة فتاة أخرى . شاهدت نديمتها ، وقد علت الدهشة وجهها ، وهى على بعد مسافة قصيرة منها ، عندما اختطفها الفرسان العرب ؛ وعندئذ حاولت تلك الفتاة الاختباء بين أغصان شجرة من الأشجار ، ولكن أولئك الفرسان عرفوا مكانها وأمسكوا بها وسرقوها هى الأخرى .– وها هى اليوم أصبحت امرأة حرة من جديد ، ولكنها تعيش فى أرض تعانى فيها الجوع والغربة ، فضلا عن إنها بعيدة جداً عن بلدها ، الذى لا تستطيع تحديد كنهه أو مكانه فى الوقت الراهن ، وذكرت لى هذه المرأة اسم دنقلة Dungola . ومعروف أن العرب الذين يسكنون مناطق الحدود ، يغيرون مثل الزنابير على البلدان الأكثر رغداً وأمنا . قالت : إن شعبها أناس يحسون السعادة : وهم لا يستعملون النقود فيما بينهم ؛ والإنسان ، إذا ما أحس بالجوع فى بلادها أو إن شئت في قرى بلادها ، من حقه أن يدخل إلى الحدائق ليأكل منها ما يشاء إلى أن يشبع . وقالت إن ملابس الناس في تلك القرى هى من القطن الخالص وأنهم هم الذين يصنعون نسيج تلك الملابس : وقالت إنهم ليسوا ولم يكونوا بحاجة إلى إحضار أو جلب أى شىء أجنبى فيما بينهم ."– سألتها : " ما الذى يرتديه أهل بلدها ؟" وعندها ردت على قائلة : "هم لا يرتدون سوى إزارا لستر العورة" ، كانت هناك فتاة زنجية تقف بالقرب منا وتنصت إلى كلام هذه العمة، وكانت هى الأخرى قد خطفت من تلك البلاد ، ولكنها لا تذكر الموعد بالضبط ، راحت تعبر عن احتقارها وازدرائها لشعبها الأفريقى وهى تقــو ل : " إبليــس ! Iblis إبليس ! Iblis – هى hi – هى hi هى hi ، إنهم بذلك

لا يختلفون عن الرجال المتوحشين غير المتحضرين !" ظروف العبيد هى دوما أمور مقبولة فى الجزيرة العربية ، وغالبا ما تكون ظروفا سعيدة : والعبيد هنا ينشأون باعتبارهم إخوان مساكين وفقراء لأبناء الأسرة ، وهم نوع من مكافأة الرب لرب الأسرة المسلم المتدين ، وهو "العم" ammy لهؤلاء العبيد أثناء عبوديتهم" وهو أيضا "الأب" abūy بالنسبة لهم . امتلاك العبيد هنا ، عملية صعبة وقاسية ، وبخاصة فى المدن المقدسة المختلطة (حيث تسود الطاعة العسكرية الفظيعة ، والعنف التركى أيضا ، والتى يتجر فيها المواطنون الفقراء بالأعمال التى يؤديها أولئك العبيد) . "ورب البيت هنا ، إذا كان من النوع الذى يخشى الله ويخافه" يعتق عبيده خلال بضع سنوات قلائل ؛ وهو لا يعتقهم ويرسلهم لحال سبيلهم خاوىّ الوفاض ؛ ولكن فى الجزء المرتفع من الجزيرة العربية (حيث لا يتملك العبيد فيه سوى الأغنياء) ، يقوم ذلك الرجل الطيب بتزويج العبد المعتوق سواء أكان ذكرًا أم أنثى ، ويعطيه شيئًا من ثروته ومقتنياته ، سواء أكان ذلك فى شكل إبل أو بعض النخيل(*) .

هؤلاء الزنوج الذين يجرى عتقهم تظهر عليهم القوة البدنية والازدهار ؛ إذ هم أبناء ، بالتبنى ، لبعض الأثرياء ، فى حين أن العرب الفقراء الذين لا يملكون شيئا يؤجرون أنفسهم للغير ، للقيام ببعض الأعمال أثناء النهار . ولكن من بين الظروف الطبيعية لأجسام أولئك الزنوج ، أنها تستفيد جداً من الطعام البسيط ، وينشأون أقوياء فى التربة الضعيفة ، التى نرى العرب فيها ينمون نموا ضعيفا . وسبق أن قيل : إن الطبيعة وضعت علامة مؤسفة لأهل القرى فى نجد الذين يعيشون على أكل التمور، وأن تلك العلامة تتمثل فى تلك الملامح والقسمات الحزينة التى تعلو وجوه هؤلاء البشر ، التى ما أن يراها أحد حتى تترسخ فى ذاكرته . وطعام التيامنة هو التمر أثناء النهار ، وطعام المساء أيضا تمر فى معظم الأحيان ، ولكن الخبز يقدم مع التمر فى البيوت الأحسن حالاً ، أو قد تقدم العصيدة مع شىء من القرع العسلى . هؤلاء الأفارقة لا يحسون بأى قلق أو ضيق لأنهم كانوا عبيدا فى يوم من الأيام – إنهم فى أغلب

(*) هذه شهادة جيدة لمعاملة العرب للرقيق إذا ما قورنت بالمعاملة القاسية التى كان يلقاها الرقيق الذى كانت كثير من الدول الأوروبية تصدرهم للعمل فى مزارع العالم الجديد . (المراجع)

الأحيان يكونون أسرى من الحروب – بالرغم من أن تجار العبيد كانوا يختطفونهم من والديهم . كان الرعاة الذين يتبنون أولئك العبيد ويشترونهم يضمونهم إلى عائلاتهم ، ويقومون بتختين الذكور منهم – وكان ذلك يقوى من روح هؤلاء العبيد المعنوية ، حتى فيما يتعلق بعاطفة الحنين إلى الوطن القوية – لقد نظر الله اليهم فى محنتهم ؛ وبوسعهم أن يقولوا: "هذا فضل الله" ، لأنهم استطاعوا عن طريق ذلك الذى حدث لهم، أن يدخلوا فى الدين المنقذ . ومن هنا فهم يعتقدون أن هذا البلد ، الجزيرة العربية ، هو الأفضل، حيث اعتقوا فيه ، وأن الحياة المدنية فى هذا البلد أفضل من بلدهم ، وأن هذه هى بلاد الحرمين الشريفين، أرض محمد (ﷺ):- ولذلك شكر هؤلاء العبيد الله، على بيع أجسادهم في أسواق العبودية !

أخيرا غربت شمس آخر أيام شهر الصوم ، معلنة انتهاء رمضان . ومع طلوع اليوم التالى مشيت مع محسن إلى تيماء لتناول طعام الإفطار هناك ."هيا ، يا خليل ، اليوم عيد، وسوف تفرح وتمرح؛ الحمد لله، قال محسن، إن شهر الصوم قد انتهى !" – "أنت تشبه شخص أطلق سراحه من السجن ." – "صدقت ، والله ، فأنا أبدو مثل رجل خارج من السجن ! وأنا من حقى الآن أن أشعل غليونى . أنا ذاهب لتناول طعام الإفطار مع بعض معارفي – ألا تعرف تقاليدنا وعاداتنا التى تبيح لنا أن نأكل شيئا من كل دار صديقة ؟ سيأكل الناس اليوم حتى الشبع ! وأمامنا اليوم سبيلين ، إما التجوال وتناول الإفطار مع من تعرفهم ، وهنا يتحتم عليك أن تقول : "عيدك Aydak مبارك Mubarak " فى أى مكان تدخله :- أو هيا بنا ! أنا وأنت نتحرك سويا لتناول الإفطار معًا ."

كان الانتعاش يبدو على وجوه القرويين فى هذا اليوم من أيام العطلات وبخاصة أثناء شروق الشمس ؛ لقد اكتسبوا جميعا فوائد الصيام ومزاياه ؛ وهاهم اليوم يرتدون ثيابهم الجديدة . الكثيرون منهم يعطرون غتر رءوسهم ، ولحاهم ، وعباءاتهم ، وذلك بوضعها فوق الدخان المتصاعد من المبخرة ، البعض منهم يتعطر أيضا بماء الورد . هؤلاء هم المعيِّدون يخرجون من كل الأبواب ، ويدخلون من كل الأعتاب ، وهم يتزاورون ويحيون بعضهم بعضا من بيت إلى بيت . وحيثما يدخل الرجال ، يقدم لهم طبق العيد الذى يحتوى على الخبز المحلىّ ؛ وهذه جحافل من الذباب البشرى تنهال جالسة على

ركبها من حول ذلك الطبق ، في التو واللحظة ، والكل يرفع اليد اليمنى مملوءة بالخبز ، في اتجاه الفم - ويتكرر ذلك ، مرة ، واثنتان وثلاث مرات - إلى أن يظهر قاع الطبق المعدني . وعندها ينهض الجالسون ، لينتقلوا إلى تناول الإفطار في البيت التالي ، ثم البيت الذي يليه ، إلى أن يمروا على كل منازل المنطقة : وبعد ذلك ، وبعد أن تمتلئ بطونهم ، يتجمعون ويدخلوا بيتا من البيوت الصديقة لتناول القهوة . وحيثما يدخل هؤلاء الناس يقولون : "عيدك مبارك" ، والناس هنا يردون على هذه التحية بقولهم : "عدي Aaddi علينا aley-na ؛ و Wa حنا Henna عايدين A?idin " بمعنى "ونحن أيضا نحتفل بالعيد." ويمضي الناس النهار بطوله يتجولون هنا وهناك في ملابسهم الجديدة ، والمزينة بخيوط حريرية بغدادية ذهبية اللون ومعها خيوط قطنية وردية اللون ، وهذا المنظر يكون له بريقه في هذا البلد الذي لا لون له . وقد رأيت اليوم رجلاً يرتدي ثوبا قام هو بتلوينه ، وكان يقف وسط الشارع الطيني ويلبس عباءة قرمزية اللون .

مر الممثل المقيم لابن الرشيد من السوق (الشارع) قبيل الظهر ، مرتديا ثياب سيده الجديدة التي هي غاية في الأبهة ، وهو في طريقه لزيارة خلف . ولما كان خلف صاحب عقل حر ورزين، فقد عاد لتوه قادما من بلدة حائل ، وطوال الأيام الأربعة عشر من شهر رمضان التي أمضوها في الطريق ، والتي كانوا يأكلون خلالها ، لم يصم منها خلف يوما واحداً ، بالرغم من وجود المتشددين ، الذين كانوا مشغولين بطبيعة الحال ، بمراقبة مراعاة الناس للدين في البلدة . ولقد شاهدت خلفًا مرارا وتكرارا وهو يتحمل لجاجة هؤلاء المتشددين ، نظرا لأنه لم يكن بوسعه تحاشيهم أو تجنبهم : كان خلف يتسم باعتدال الشيوخ ، ولكنه في داخله كان له رأيه الخاص . ومعروف أن شيوخ تيماء لم يفوتوا عزيمة في حائل ، حيث كان الأمير يعطي كل واحد منهم جملا ومبلغ ستين ريالا مجيديا ، (وهو ما يطلقون عليه في معظم الأحيان إسم "العَزازيات" ghrazziat)، وذلك تعويضا لهم عن التكاليف التي تكبدوها في حفر البئر ، هذا بالإضافة إلى غيار جديد من الملابس كان يحصل عليه كل شيخ من الشيوخ ، وبذك يصل إجمالي ما يحصل عليه كل شيخ من هؤلاء الشيوخ ، إلى حوالي خمسين جنيها إنجليزيا . كانت عينا خلف قد التهبتا ، وقمت أنا بتجهيز قارورة دواء لعلاج عينيه ؛ وربما يكون خلف قد قلل من قيمة تلك القارورة التي حصل عليها من النصراني ، إلى

حد أنه أخذ القارورة دون أن يشكرني ، بل إنه راح يطيل النظر إلى وجهي . كانت زوجات البدو الرحل ، هن وأطفالهن ، لا تلبسن ملابس جديدة ، ولكنهن رحن يرقصن طوال اليوم في الحوطة . وعندما أصر الأصدقاء البدو على أن أريهم الرقصة التي نرقصها في يوم العطلة ، فضلت ألا أقطع عليهم مرحهم ، ولكني عندما توقعت حكمهم الطبيعي ، كنت أشعر بالكسوف والخجل من أن أُريهم الطريقة الصحيحة للرقص . - واستطاعوا بطبيعتهم إدراك مدى خفة وسهولة أسلوبنا في الرقص إلى حد أنهم قالوا : "أوه ! ما هو ذلك الهز الغريب للسيقان ، وما هو ذلك التقدم إلى الأمام والرجوع إلى الخلف !" - بدا الأمر لهم وكأن تلك الرقصة كانت واحدة من الرقصات الشعبية الإنجليزية القديمة ! ولكنهم عندما استمعوا إلى المزيد عن رقصنا ، والذي يلف الرجل يده فيه حول خصر المرأة ، وأن كل رجل يرقص وصدره يلامس صدر إمرأة جميلة ، أصبحوا ينظرون إلينا باحتقار وعلى أننا من أصحاب الرذيلة والسفالة .

حضر كثير من الأعراب إلى تيماء ، وبينما كنت أتجول في البلدة سمعت شخصا يُصَفِّر - وهذا صوت غريب على البلاد العربية ! التي تنظر إلى ذلك الصوت وكأن أحداً يتهامس مع الجن . اكتشفت أن ذلك الذي كان يصفر ، كان واحدا من معارفي من بدو الفجير ، وسألته عن المكان الذي تعلم منه هذه البذاءة ؟ "تعلمت عندما كنا في الشام ." - من المحتمل أن يكون قد تعلم ذلك الصوت من نصراني غندور من أولئك الذين يتباهون بأنفسهم ، أو من واحد من أولئك الفرنجة الذين يتجولون في بلادهم . - عند هذا الحد جاءنا رجل صلوبي ، كان يركب حماراً ، ويغني ! وكان يغني بصوت رخيم ، ويرفعه بصورة مدهشة في بعض الأحيان ! ناديت ذلك الفجيري وسألته : "هل تظن أن غناء الناس في سوريا أفضل من هنا ؟" - وهنا أجاب الصلوبي قائلا : "أبدا ، والله ! أنا أيضا كنت في الشمال !" وضحك من أعماقه وهو يحتقر ويزدري تلك البلابل ، - غناؤهم لا تطيقه آذاننا نظرا لإهمالهم الشديد - أفضل الموسيقيين في دمشق (هم يهود) . وأنا لم أسمع قط امرأة تغني في تلك البلاد (اللهم باستثناء مهرجان غناء البنات) . - ترى ، أين ذهبت الألحان الجميلة ، التي كانت تتغنى بها النساء الحسناوات ، في تلك الصحراوات العربية في "العصر الجاهلي" ؟

في عصر ذلك اليوم من أيام العيد ، وصل بدو الفكارة ، نظرا لأن القبيلة ارتحلت وأصبحت على بعد مسير ساعتين من بلدة تيماء ؛ سقت القبيلة مواشيها من مجارى أصدقائهم المائية فى قرية تيماء . ووصل إلينا زيد راكبا على مهرته ، ومن خلال فتحة في الجدار ، في اتجاه الصحراء ، جرى اقتياد الإبل إلى مكان السقيا . كان أهلنا في الحوطة يفتقرون إلى حطب الوقود ؛ وجاء زيد بعباءته وقد امتلأت بالجلّة (روث الإبل الجاف) ، التي يقال ، إنها ممتازة في إشعال النار . تناول القبليون عشاءهم ، وقالوا لنا ، إنهم اصطادوا عددا كبيرا من الثعالب في شهر رمضان . – ولكني لم أشاهد ناقتي ضمن إبل أعراب زيد ، عندما كانت واقفة تشرب من السوريان (القنوات) Suryan ؛ أجابني الراعي الصغير قائلا : "لقد ضلت الناقة طريقها !"

احتفالات العيد تستمر ثلاثة أيام ، ولكني شاهدت القرويين في اليوم الثاني وهم يخلعون ملابسهم الجديدة ، ويذهبون لاستئناف عملهم في الحصاد . هذا هو التمر ، تجاوز موعد نضجه ، وراح يتساقط من النخيل ؛ هؤلاء هم البدو الرحل بدءوا يتوافدون على البلدة ، ليقوموا بدور المشترين في عملية حصاد التمور ، وهؤلاء هم البدو يتعجلون الانتهاء من عملية التسوق ، ويتعجلون العودة أيضا إلى منازلهم الجائله التي خلفوا فيها زوجاتهم وأطفالهم ، وراءهم في الخيام بلا حراسة أو دفاع ، كما تركوا أغنامهم وماشيتهم في الخلاء . هذه هي جماعات من قبيلة البشر تفد على البلدة كل ساعة قادمة من ناحية الشرق : وراح الفكارة يتعجبون من ذلك العدد الكبير من الوجوه ، التي قال لي زيد عنها ، إنه لم يسبق له أن رآها من قبل . هؤلاء القبليون من البشر ، بعد أن انعزلوا عن الأرض التي كانوا يرثونها في خيبر ، جاءوا هذا العام للتزود بالطعام من تيماء ، حيث تكثر فيها التمور وتجود أيضا ، إضافة إلى أن أسعار التمور في تيماء أرخص منها في قرى وكفور الجبل : عدد كبير من هؤلاء البشر لم يسبق لهم أن جاءوا أو زاروا هذا المكان من قبل . من بين تلك الجماعات التي توافدت على تيماء ، بعض الناس الذين حيوني قائلين : "يا رجل ! إلى أين يُوصل هذا الطريق ؟ أين الحدّاج (البئر) ؟" – في ظل هذا الضجيج وتلك الحركة اليومية ، لم تعد تيماء تلك الواحة البسيطة سابقا ، بل إن الطرق النظيفة إمتلأت بالروث . ونظرا لأن القرويين كانوا في بساتينهم ، فقد كانت كل أبواب المنازل مغلقة ؛ كان الرجال والحريم يعملون

في حصاد التمر في حوطاتهم أو إن شئت فقل : (يَجدُّون Yajidûn النُّخل en- nûkhl)، حيث يقوم أولئك الذين يتسلقون النخيل بقطع سبائط التمر وتدليتها إلى الأرض بواسطة حبل . وهاهم أفراد الأسرة حفاة الأقدام يتقاطرون عائدين إلى منازلهم وهم يحملون وينقلون سلالا كبيرة من التمر إلى الغرف المخصصة لذلك في أكواخهم . استمرت عملية الحصاد طوال نهار ذلك اليوم ، واستمرت إلى نهارى اليومين الثانى والثالث ، بل انها استمرت لحين غروب شمس اليوم الثالث ؛ وعندما بدأ الناس يتناولون إفطارهم، كالعادة، عند الظهيرة ، بدءوا يستشعرون القوة والحيوية من جديد ، بعد رمضان . - هؤلاء هم البدو يتنقلون من حوطة إلى أخرى ، ويدخلون الأماكن التى يتطلعون فيها إلى الأكل من ذلك الكرم الحلو . عجل التيامنة في عملية الحصاد نظرا لأن موسم الحصاد تأخر كثيرا عن موعده ؛ وفي اليوم الثانى من عملية الحصاد اضطربت السماء . وعندما أمطرت السماء كانوا قد نقلوا بالفعل ما تبقى من الثمار إلى الغرف المخصصة لذلك في أكواخهم ؛ والتمر إذا ما أصابه البلل يتعفن . سقط الوابل ، وكان الجميع في بساتينهم ، كما أن سوانى الحدَّاج كلها توقفت وصمتت الأصوات التي تصدر عنها : قالوا لى إن النخيل لن يصاب بأذى طوال سقوط الأمطار عليه ، خلال الأيام القلائل التى تعقب عملية الحصاد .

رأيت زوجة بدوية ، مزينة بزى برى بسيط ، كما لو كانت امرأة من الغجر ؛ كانت تلك المرأة تتجول من حوطة إلى أخرى وهى تنشد وتتغنى بأغنية مرحة : امرأة غريبة ، كان الناس يتعجبون ويسخرون من هذه المرأة ، كما كان الحريم يقتربون منها لتلمسن بأيديهن ملابسها الغريبة ، وحيثما كانت تدخل هذه المرأة كان الناس يطلبون منها الجلوس وتناول الطعام . وعندما عرفت أن تلك المرأة كانت من قبيلة حرب ، وبذلك تكون أول إنسانة أراها من أفراد هذه القبيلة ، التى تجاور الحرمين ، رحت أتأمل هذه المرأة وأنظر إليها في صمت . هذه المرأة ، أخذت نفسا طويلا ، وازدادت دهشة على دهشتها عندما شاهدت رجلاً أبيضا في المنطقة ، - "تقول إنك ، نصرانى !" "ها ! لقد سمعت هذا الاسم ، وكيف وصل النصرانى إلى هنا ؟ ألم نكن نحن أطفال ذلك الشرير ؟ ومع ذلك حييت هذه المرأة بكلام جميل ودعوت لها بالبركة !" قلت : "العرب يدعون الله أن يلعن كل ما لا يمت إليهم بصلة ، ولكننا ندعو الله أن ينزل رحمته على كل أفراد

الجنس البشري؛ وأنا أدعو الله، من كل قلبى ، أن يبارك لك فى أسرتك ، وفى أطفالك ، وفى ماشيتك ." ردت علىّ قائلة : آه منك ! كم هى الشائعات والقيل والقال ، كثير فى هذا العالم ، – إى ، بالله ، أى بالله ! انتبه يا هذا ، لابد أن يكون هذا الرجل من نوعية طيبة ومسالمة من البشر ." هذه هى صوانى مليئة بالتمر الذى جرى جنيه من النخيل ، فى حين استدعيت تلك المرأة لتناول الطعام مع الحريم . وطلبوا إلىّ أن أتناول الطعام مع الشيوخ الذين كنت أقف بجانبهم ، وجلسنا نأكل مع مضيفنا ثوينى الرومان ، الذى كانت أرض الحصاد التى نقف عليها ، ملكا له : كان مسهل Misshel العواجى Auajy- el واحداً من الحاضرين – ومسهل هذا واحد من كبار شيوخ البشر .

بعد ذلك ، وبعد أن حل الوئام بيننا (نتيجة تناول الطعام مع بعضنا البعض) قلت لمسهل Misshel : إننى أعتزم الذهاب إلى كل من حائل وخيبر ، وأننى سوف أعود معه شرقا فى اتجاه الصحراء ، ومن هناك ربما أعثر على بعض الذاهبين إلى جبل شمّر ، ومن ثم أستطيع مواصلة الطريق بصحبتهم . هذا الرجل البدين (إذ كان هذا هو حاله بين البدو) رد على الغريب رداً حاداً ، بصوت مدوى ، تشوبه غلظة الصحراء قائلا: "لكننا الآن ذاهبون للبحث عن "الجوش" el- gush فى الخلاء F'il khala " بمعنى ، إننا ذاهبون للبحث عن أدغال برية فى الأرض الجرداء ، لإبلنا ، وأننا قد نذهب إلى مسافه بعيدة ؛ نحن لسنا ذاهبين إلى جبل شمّر .– قال : "خيبر ! خيبر ! أين ؟ – ولكن يجب أن تعلم يا خليل ، أننا ليس لدينا من يرشدك إلى ذلك المكان : الدولة (الإمبراطوريه العثمانية) هناك . وأنا أقسم لك بالله ، إنه ليس بيننا سوى قطع الأواصر . لا ! أبعد كل هذه الأمور عن ذهنك ، لا تفكر فى الذهاب إلى نجد ؛ زد على ذلك ، أنك لا يمكن لك أن تصاحبنا أو ترافقنا فيما نحن مقدمون عليه ." – "خبرنى يا مسهل ، هل أنا صديق أم عدو ؟" رد على مسهل ، بعد شيء من الصمت رداً يتسم بالصوصية ، "حسن ، أنا لا أعتبرك هذا أو ذاك ! ولا أعتبرك صديقا أو عدواً ؛ – (غمغم ذلك السليط) – لولا الله ، لكنت قد سلبتك ما معك فى مرة من المرات ." هذا المسهل ، "الذى يحكم سبعة قبائل " ، يتولى منصب الشيخ الكبير الأصيل لقبيلة العواجى ، التى هى الأكثر عددا وأشد بأسا فى العمليات الحربية فى سائر أنحاء البلاد . ورجال قبيلة مسهل هم الذين "قاموا" فى هذا العام ، بالغزو العام لولاد على ،

أكثر من مائة رمح ، وهم أيضا الذين قاموا بعد ذلك ، وخلال يوم واحد ، بالاستيلاء على كل مواشى الموهاهيب . وفى العام الماضى اشتبكت قبيلة العواجى مع الدولة (الإمبراطورية العثمانية) وقتل عدد كبير منهم ؛ ومحمد بن الرشيد هو الذى حرّضهم على ذلك . والناس هنا يمتدحون الشيخ مسهل على إنه رجل "عتيد" من الرجال الذين يجيدون استعمال الحراب ، – بدا لى ذلك الرجل وكأنه وارث للحق والفضيلة مع شىء من الظلم . – وقد عرض على عبد العزيز الرومان رمح شيخ مسهل ، وهو يشعر بالمجد والفخار ؛ شاهدت ذلك الرمح موضوعا فوق أوتاد معلقة فى جدار مقهى الشيخ مسهل ، وهو المكان الذى يجلس الشيخ فيه بصفة دائمة ؛ كان طول ذلك الرمح يصل إلى حوالى أربعه عشر قدما . يضاف إلى ذلك أن ذلك الشيخ العظيم كان صديقا لشبابه ، مثلما كان الشيخ مطلق الفجيرى صديقا لشبابه هو الآخر . كان أفراد قبيلة البشر يتفاخرون أيضا برمح الشيخ مسهل ، "رأس الرمح كبيرة مثل قبضة اليد ، وتمتد كما لو كانت لسانًا ، وهذا الرمح متعطش لدم أعداء الشيخ مسهل ."

كان عبد العزيز ، هو الآخر ، خارج تيماء فى شهر رمضان ، إذ كان يقوم بجولة لإحضار بعض الإبل للعمل فى جلب الماء من البئر : وعندما عرّج عبد العزيز على سهل الحجر ، اتجه فى البداية لزيارة قبيلة الموهاهيب الصغيرة فى وادى تربة ، التى كانت عدوة لهم فى الفترة الأخيرة – لم يكن عبد العزيز على معرفة بهؤلاء الموهاهيب من قبل – ولكنهم أصبحوا أصدقاء الآن بعد أن جرت مصالحة بينهم وبين ابن رشيد . أكرم الموهاهيب وفادة عبد العزيز إكراما كبيرًا ، "فهذا يذبح تيسا هنا وذاك يذبح شاة هناك ، على شرف العشاء المقدم له ، إلى حد أنه (كان يستعمل يديه وعينيه) عندما كان يعبر لى عن ذلك الكرم القديم الذى لقيه منهم ؛ وكان ذلك قبل فترة قصيرة من ضياع إبلهم فى الغزو الذى حدث لهم . صحيح أنه شاهدهم وهم فى أثر تلك النكبة ؛ ولكنهم بدءوا يرفعون رءوسهم من جديد . فقد أكرم بدو البلّى جيرانهم وأغدقوا عليهم الكثير من العطايا . وهذه هى ماشية الشيخ طلُّج ، أصبحت أكبر من ذى قبل ؛ فقد أرسل له الشيخ مهنا سبعة من الإبل . لقد وجد مهنا طلُجًا محطما ومكسور الخاطر ، بالرغم من أن بقية أفراد القبيلة ، كانوا قد انصلحت أمورهم بشكل أو بآخر ، طبقا لعدد أصدقائهم ، ومقدرة هؤلاء الأصدقاء ، ومدى حنانهم فى العطاء عن طيب خاطر :–

والحال في الصحراء ، في ظل ظرف كهذا ، يشبه يوم القيامة ، إذ يتلقى كل واحد في ذلك اليوم حسبما قدم ، وبالتالي يلقى الكريم الكثير طالما إنه كان في عون أصدقائه من قبل . وقبل انتهاء الشهر كان حال الموهاهيب قد تحسن ووصل إلى نصف ما كان عليه من قبل الغزو : ذلك أن قطعان الموهاهيب التي كانت على الحرة وقت الغزو ، لم يتمكن الغزاة من أخذها أو الاستيلاء عليها . ولكن عبد العزيز أثار أحزاني عندما كذب عليّ وأبلغني نبأ وفاة كثير من أصدقائي السابقين ، إلى أن عرفت من شويش Shwoysh ، المنفي حاليا بسبب خلاف بينه وبين الشيخ طُلَّج ، والذي جاء إلى تيماء بصحبة بدو الفكارة ، أن أولئك الأصدقاء لم يمت منهم سوى واحد فقط هو صديقي فايز Faiz :- يضاف إلى ذلك ، أن شيخ تيماء كان قد سبق له الذهاب إلى قرية العلا ، التي لم يسبق له أن زارها قط من قبل ، باعتبار أن قرية العلا واحدة من قرى الحجاز الصديقة لدولة (حكومة) المدينة (المنورة) . كان واحد من البدو الرحل يركب خلف شيخ تيماء ، وكانت أحوالهما على ما يرام ، إلى حد أنهما قطعا تلك الرحلة التي يزيد طولها على ثلاثمائة ميل ، خلال أيام قلائل من شهر رمضان ،- ولكنهما لم يكونا صائمين بطبيعة الحال . وأنا عندما أطلب من هذا الرجل أن يزكيني عند مسهل ، أجده يحيل عليّ بعض البدو ليحكوا لي حكاية مزيفة : "أنه من المستحيل بالنسبة لي أن أمر بصحبة أي أحد من قبيلة بشر إلى بلدة حائل ، من منطلق أنهم لم يكونوا (وهذا زيف) على وفاق مع الأمير ، نظرا لأنه أصدر أوامره لهم بإعادة ماشية الموهاهيب إلى أصحابها ، وهم لا يريدون ذلك ." - ولكني وجدت كل من تحدثت معهم يعارضون ذهابي إلى نجد ؛ من منطلق أنهم سيجدونني أعود من نجد إلى نفس المكان الذي كنت فيه قبل الذهاب إلى هناك ."

في حائل ، حضر كل من حامد ووعيل عودة الأمير ،- كان الأمير قد خرج في غارة . بعد أن عاد ابن الرشيد ووافق على خضوعهما ، وقبل الناقة الهدية ، ثم أعاد الرجلين إلى محل إقامتهما . وبينما كانا عائدين إلى محل إقامتهما ويحملان أخبارا طيبة ، عبر صحراء (يصل طولها من حائل إلى تربة أكثر من مائة فرسخ) ، وبعد أن وصلا إلى منتصف الطريق في ديرة البشر ، شاهدا إبلا ترعى ، التي تأكد أنها هي الماشية التي سرقت من قبل ! - كما شاهدا على تلك الماشية العلامات المميزة الدالة

على أنها مملوكة للمواهيب بحق . نزلا عن راحلتيهما لقضاء الليل عند واحدة من الخيام الكبيرة ، وتلك كانت خيمة مسهل . وبعد تناول العشاء سمعا من مضيفهما (وكان هو الذى عرأهما) عن المصائب التى حلت بهم فى ديارهم ؛ وهنا أعطى مسهل لحامد ، واحدة من نياقه ليعطيها لوالد مسهل العجوز .- وعندما راحا يتدبران الأيام ، اكتشفا أن اليوم الذى حدث فيه الغزو ، كان يصادف ذلك اليوم ، الذى تقدما فيه بالخضوع والولاء ، وأنهما كانا فى حائل ينتظران عودة الأمير . وفى الصباح ركبا راحلتيهما ليعودا من حيث جاءا :- ولكن هل يمكن للأمير (الذى كان على عداء معهم) أن يأمر بإعادة ماشيتهم لهم ؟

استقبلهما محمد بن الرشيد استقبالا غير مريح ؛ إذ كان الحاكم قد تسلم قبل وصولهما ثلاث نياق ، كان العواجى قد أرسلوها بالفعل عقب الغزو الذى قاموا به . يضاف إلى ذلك أن الأمير كان سعيدا جداً بذلك العقاب الذى نزل بأعدائه القدامى ، بالرغم من أنه يستقبلهم اليوم باعتبارهم من أتباعه ومن الموالين له . ومن يحكم تلك القبائل الجائلة فى الصحراء ينبغى أن يكون قلبه غليظا وسيفه بتاراً ! ولكنه قد لا يفلح فى احتواء تلك القبائل احتواء حقيقيا .

هذا هو فرد من الشرارى الذين يقيمون فى الحوطة المجاورة لنا ، ذبح جملا بمناسبة العيد ، وباع شيئا من لحمه نظير شيء من التمر . ليستعمل ذلك التمر مئونة لعائلته طوال فصل الشتاء القصير . ذهبت لأبتاع منه شيئا من لحم ذلك الجمل ، ووجدته قصّابا لطيفا ، وكان ينادينى فى كل لحظة قائلا "يا ولد أخيه ." وفى يوم آخر قام واحد من بدو الفهجى بذبح ناقة كبيرة السن – كانت تلك الأسرة الفهجية تملك مزرعة نخيل صغيرة خارج أسوار القرية ، الأمر الذى حولهم من بدو رحّل إلى بدو مستقرين . كانت الناقة المذبوحة تساوى خمسة ريالات ، ولكنه عندما باع اللحم بالتجزئة حصل على مبلغ كبير ، قصدت ذلك الرجل ، ولكنه يرفض بيع اللحم بالنقود قائلا : "من يود أن يشترى منى لحما فليدفع لى ثمنه تمرا ." والقسم الذى لم يباع فى اليوم الأول ، شووه بدمه : – وبالرغم من أن ذلك يعد غير شرعى ، إلا أنهم أكلوه ، أى أنهم يأكلون الدم – هذا يعنى أنهم ليسوا ملمين بنصوص القرآن . استمر بيع لحم تلك الناقة ثلاثة أيام ، وعندها بدأت تفوح من اللحم رائحة غير مستحبة ؛ ولكن هؤلاء

الحضر هم والأعراب يأكلون أيضا لحم الطرائد على هذه الشاكلة ، والتي منها الماعز البرى على سبيل المثال وكذلك الوعول ؛ والبدو يصطادون تلك الحيوانات وتبقى معهم يوما فى الصحراء إلى أن يعودوا إلى منازلهم : ومع ذلك ، ففى الوقت الذى رفضت فيه أن آكل معهم من ذلك اللحم الذى سرى فيه الدود ، كانوا هم يستطعمونه ويقبلون عليه. وبعد أن أشتريت شيئا من اللحم ، قامت ابنة محسن ، الفتاة الصغيرة التى كانت تخدمنى ، بسلق ذلك اللحم ، وبعدها دعوت أصدقائى البدو لتناول العشاء ؛ ولكن لحم الإبل العجوزة لا يكون له مذاق مثل مذاق اللحم الطرى .

تساقطت علينا أمطار الخريف ونحن نتناول طعام العشاء خارج البيت : هذه هى السماء التى كانت مشرقة الشمس يغشوها شيء من الظلام . وأطبق المساء علينا ، بهبوب ريح شديدة ونحن داخل الخيام المصنوعة من الصوف . وبينما كانت قطرات المطر تتساقط علينا من خلال تلك الخيام المهلهلة ، كان محسن يسألنى عن بلادى ، – وكنت قد أوشكت على الرحيل عنهم ومغادرتى إياهم . وعندما سمع محسن منى أننا لدينا الكثير من نعم الله ، الخبز والملبس ، والأمن ، وكيف أن الإنسان يحميه القانون ، إذا ما طلب منه ذلك ، – كانت تلك العاصفة الليلية تسبب لنا الكثير من القلق ،– هنا ازداد محسن حزنا على حزنه ، وراح يندب حظ الأعراب وتعاستهم ، لأن افتقارهم إلى الملابس يسبب أمراضا كثيرة، وبخاصة أنهم ليس لديهم ما يكفيهم من الطعام أو الماء، ويتجولون فى الصحراء الجرداء ، ولا يعرفون الاستقرار مطلقا ؛ يضاف إلى ذلك ، أن هذا البؤس يلازمهم طوال حياتهم . كان محسن ، عندما تتكاثر عليه همومه وآلامه ، يرفع يديه إلى السماء – وهذا نوع من الصلاة غير الرسمية يطلقون عليه اسم "الدعاء" Duáa – أرحم يا رب ! خلقك، الذى أنت خلقت: أرحم المساكين ، والجوعانين ! أرحم يا الله ،– يا الله ! ومع ذلك وبالرغم من هذه الشكوى ، التى يرون أنفسهم من خلالها وكأنهم أيتام عناية الهية ممسكة ، إلا أن قلوبهم عامرة ببهجة العقيدة والأمل ، إلى حد أنك تراهم يقولون على الفور، وهذا هو ما فعله محسن بالفعل، – "الله Ullah كريم" Karim .

التيامنة لا يأكلون لحم الإبل فى معظم الأحيان ، ولكن الصلوبة يجلبون لحم الصيد والطرائد إلى البلدة ، وهؤلاء الصلوبة يعيشون هنا فى خيام خلف الجدران ،

وهم يعملون بالحدادة والسمكرة . والصلوبة يركبون حميرهم ويذهبون للصيد في الصحراء ، ويعودون سيرا على الأقدام ومن أمامهم حميرهم محملة بلحوم الغزال ؛ والناس هنا يشترون منهم كل ما معهم من لحوم قبل أن يصلوا إلى السوق . وأفضل من في هؤلاء الصلوبة هو شخص يدعى مطر Matar ، وهو شخص لطيف ، كنت أتحدث معه ، في أحيان كثيرة ، عن ممارسته لمهنة الصيد . وعندما سألته عن الثور البرى ، أو إن شئت فقل : الوضيحى Wothyhi ، أرانى حمارا أبيضا من حمرهم المتينة ، ثم قال : "الوضيحى يشبه هذا الحمار ! - والوضيحى شعره أبيض (شأنه شأن حيوانات السهول الرملية الكبيرة) ، وليس له كفل ، وأذنيه قصيرتان ، وذيله يشبه ذيل البقرة ، وينتهى الذيل بخصلة من الشعر ." والوضيحى هو أسرع حيوانات الصيد ، أو إن شئت فقل : أسرع الطرائد ، ولحمه أحلى وأطرى من لحم الغزال ؛ وجلد ذكر الوضيحى - وهو سميك جدًا - هو أحسن الجلود التى تستخدم فى صناعة النعال . وقد شاهدت فى العام ١٨٧٥ الميلادى ، جلود الوضيحى التى جاء بها أصحابها من صحراء الشرارات إلى بلدة معان Maan . يضاف إلى ذلك أن قرون الوضيحى التى تشبه القضيب أو الساق أشياء شائعة ومعروفة فى تيماء ؛ ويبدو الشرارات هم الذين يجلبون القسم الأكبر من تلك القرون ، وهم يقدمونها هدية لأصدقائهم ، الذين يأخذونها إلى مخازنهم لكى يستعملونها فى تكسير كتل التمر المتشابكة : وقد رأيت صلوبة تيماء يستخدمون تلك القرون أوتادًا لخيامهم .- تحدثت مع مطر عن النِّبالة القديمة ، ورد علىّ قائلا : "فى كثير من الأحيان كنت أنا ورفاقى نعثر فى الصحراء على رءوس سهام مصنوعة من الحديد ، ويصل طول الواحد منها إلى أصبع تقريبًا ، كنا نعثر عليها أثناء قيامنا بصيد البدون ، ووالله هذه الرءوس كانت تشبه رءوس الرماح الصغيرة ، - نحن لم نعثر على الرماح ، نظرا لأن الخشب تعفن وتحلل ." أخبرنى أيضا أنه شاهد صور بشر مرسومة على الصخر ، "كانت تلك الصور تمسك فى أيديها أقواسا ونبالا ، ويضع كل واحد منهم ، على رأسه ، غطاء رأس طويل !" - هذا الرداء أصبح الآن غريبا على الجزيرة العربية .

تواصل سقوط الأمطار يوميا ، وهبت على الصحراء ريح باردة ، وكانت السماء دوما ملبدة بالغيوم . وأوشك البدو الذين جاءوا لزيارة تيماء على الرحيل ، وراودتنى

رغبة في اصطحاب أولئك البدو إلى ناحيهة الشرق ، - متخليا بذلك عن بناء البئر ، وبدلا أيضا من البقاء في ذلك الفراغ الطويل . كان العام يتغير ، وأنا بدوري لابد أن أغير حياتي في الجزيرة العربية ! كان أصدقائي غير متحمسين لمضيي قدما ، وكانوا يقولون: "ما الذي سوف أفعله أو أريده من حائل ، والذي يحتم عليّ الذهاب إلى هناك ؟ وأنني بعد تيماء ، لن أكون في مأمن من أولئك الأعراب الذين لا يعترفون بالدولة (الإمبراطورية العثمانية) ." وفيما يتعلق بابن الرشيد قالوا لي : "إنه نجس Nejis، قاتل لأقاربه بالسيف :" وأردف عبد العزيز الذي كان يجمع مكوس ، أو ضرائب الأمير : "لقد وصلت أخبارك إلى ابن الرشيد ! - ما مفاده "أن نصرانيا ، لا يعرفه أحد ، يقوم بالتجوال مع الأعراب ، وأنه "بدون" أشياء " وأنه استاء عندما علم بذلك . والبدو في الشرق سوف يخشون استقبالك ، مخافة أن يسائلهم الأمير عن ذلك ."

كنت أتشوق وأتطلع إلى الرحيل مع البِشْر Bishr، لأن العائلات التي جاءت للتسوق من تيماء تقيم في حوطة نائية من الحوطات التابعة لثويني ، ذهبت لزيارة تلك العائلات في تلك الحوطة . كانت كل أسرة تقيم مستقلة عن بقية الأسر فوق سطح الأرض وسط سروج الإبل ووسط الأمتعة ، وكان المطر يتساقط عليهم نهارا ويقضون الليل في العراء بلا مأوى : الوحيد من بينهم ، كان هو الشيخ مسهل الذي كان يسكن ويقيم داخل خيمة . كان مسهل في ذلك الوقت ، قد ذهب لشرب القهوة في البلدة ، ولكني عثرت على عسكر Askar (ذلك الشخص الذي جُرح) ، ذلك الشاب الذي فيه شيء من الطيبة والكرم ، وجدت ذلك الشاب أفضل مما كان عليه وهو في بيت والده : أستقبل عسكر تحيتي مرحبًا بي قائلا : يا Yaهَلاً Hullal . وانشرح صدره عندما سأله الغريب عن إصابته ، كما انشرح صدره أيضا لأني ما زلت أعرفه . سقط المطر علينا ونحن جلوس حول نار المخيم ، أثناء تصليح القهوة : وهذه القهوة هي أفضل ما تذوقت في الجزيرة العربية - لا عن طريق طحن قليل من حبوب البن كما يفعل التيماويون ، وإنما بطحن حفنة من البن على الطريقة النجدية . وبصورة متدرجة رحت أسألهم عمن يمكن أن يرافقني إلى بلدة حائل ؟ قال أحدهم، "إنه لا يهمه أن يكون هو ذلك الشخص؛ وإنهم بعد أن يرجعوا من تيماء ، فسوف يتعين عليه الذهاب إلى حائل : وما الذي سيدفعه خليل ، وسوف يضعه أو يوصله إلى وسط مدينة حائل ؟" - "سوف أعطيك

ثلاثة ريالات." راحت بقية الحاضرين ومعهم عسكر يحاولون إثناء ذلك الرجل عما قاله ، ولكن الرجل أصر على ما قال ، ومد لى يده اليمنى ، مؤكدا أنه لن يتراجع عن ذلك الاتفاق ، وأصبح عسكر شاهدنا على ما جرى بيننا واتفقنا عليه . مساعدة هؤلاء البدو الفقراء المحتاجين بمبلغ يسير جداً ، يشترون به قميصا وعباءة ، سهّل على كثيرا من ترحالى وتجوالي (وهذا ما سبق أن توقعه زيد) ، بين قبائل الجزيرة العربية المتشددة والتى لا تعرف القانون :- ولكنى وجدت أن البدو لا يفرقون كثيرا عن الفكارة . هؤلاء البدو الرحل من قبيلة بشر ، لا يحسبون أنفسهم فى إطار طريق الحج ، ولكنهم من أفراد القبائل التى تعيش من عمل أيديها فى مناطقها ، وأفراد هذه القبائل أشداء وأقوياء ويشبهون بدو الشمال . وهم يلبسون ملابس من العراق ، وهم يثبتون غتر رءوسهم على جباههم بعقال من الصوف ملفوف عدة لفات كما لو كان عمامة .

فى الصباح ، جاءنى واحد من أولئك البدو ، وسحبنى من عباءتى فى الشارع ليقول لى متسائلا ، "هل يمكن أن أذهب معه إلى ديرته لعلاج رجل قبلى يعانى ، منذ سنوات ، من مرض فى معدته ، إلى حد أنه كان يتقيأ الطعام الذى كان يأكله ؟" اكتشفت أن من كان يتحدث معى ، كان واحدا من الشيوخ ، ثم سأل زيدا الذى كان يقف بالقرب منا ، "هل اكتشفوا أن النصرانى حكيماً جيداً ، طوال الفترة التى عشتها معهم وبينهم ؟" سعدت بسلوك ذلك الشيخ البسيط وسعدت أيضا بنظراته الصريحة . وبالرغم من أن ذلك الرجل كان يبدو شخصية مهمة ، إلا أنه كان حطيميا ، أى من الحطيم ، أى أنه كان "حنَّاس Hannas بن Ibn نومس Nómus " بمعنى أنه كان "شيخ النومسى Noamsy "؛ والنومسى فرع من الحطيم ، بينه حاليا وبين مشهل Misshel نوع من التحالف ؛ وهذا الفرع يسكن حاليا المنطقة البدوية من العَّواجى Aujay ، والتى وجدوا فيها لأنفسهم ملاذا بعيدا عن أعدائهم . قال لى زيد : "ليس هناك ما يخيف إذا ما رافقتهم وذهبت معهم : هذا يعنى أن حناس رجل أمين جداً . وبالله أنا لا يمكن أن آمن عليك فى يد إنسان غير هذا الرجل ."

سقى الفجير مواشيهم مرة ثانية فى تيماء ؛ وشاهدت الماشية الكبيرة وهم يقودونها نحو المسقى ، وبعد السقيا أحضروا إبل الحمل وجرى تبريكها بجوار الخيام. وسوف يتحرك محسن هو وبقية الناس فى الصباح الباكر ، عائدين إلى الصحراء .

وعثرت على ناقتي بين الإبل ، ووجدت أنها مصابة بجرح في صلّبها ، وقد يستغرق شفاء ذلك الجرح مدة تتراوح بين خمسة عشر وعشرين يوما ، ولكني يتحتم عليَّ الرحيل في الغد . أحضرت الأصدقاء البدو لإلقاء نظرة على الجرح الذى أصاب تلك الناقة العجوز ، وقالوا لى إن هذه الناقة كانت تُركب وأسيئ استعمالها ، وأن آثار السرج ما زالت موجودة على الشعر الذى يكسو جلد الناقة . وأن الخطأ هنا يقع بالدرجة الأولى على عيسو Iso راعي الشيخ زيد ، وعيسو هذا شاب كانت تجمعني به صداقة . وعليه شددته من ذقنه أمام الجميع ، ولعنته قائلا : "والد هذا يهودي ." هذا الشاب ، قوى البنية وقوى العزيمة ، وضع يداه على كتفي وسبني بأني نصراني ، ولكني قلت له : "كان ينبغي عليك أن تحافظ على الناقة " ، ورحت أشده تماما من لحيته . وهنا لزم القبليون الذين كانوا يلتفون حولنا ، لزموا الصمت ، بل أن أسرته هو أيضا لزمت الصمت ، فالجميع كانوا أصدقاء لي ، وكان الجميع لديهم فكرة طيبة عن تجوالي معهم بطريقة عادلة . وعندما أدرك عيسو أنه يلام على ما فعل ، وأنه لا بد أن يتحمل ذلك الذى نزل به ، أحنيت رأسه على صدره وتركته يذهب لحال سبيله . استعمال القوة لا يكون مجديا في بعض الأحوال ، ومن الحماقة أن يلجأ الإنسان إلى القوة في علاج أمور لا علاج لها ؛ صحيح أنني تجاوزت عن الخطأ الذى ارتكبه عيسو ، ولكني كنت أرى من الضروري توضيح أن قبولي لذلك الذي حدث ، كان على مضض ، يضاف إلى ذلك أن العرب يودون للرجل أن يكون مثل الرُّمان حلو ومر في آن واحد ، معتدل ومحب مع أصدقائه في حالة الأمن ، ولكنه يغضب غضبا عادلا ومبررا إذا ما دعا الداعي للدفاع عن حقه هو أو حق جار له ، وبدأ والد عيسو يتردد على خيمتي شيئا فشيئا ، وبصوت خفيض راح ذلك الرجل العجوز يعترف ويقر بالخطأ الذى ارتكبه ولده : "ولكن ، لماذا تسبني يا خليل ، بتلك السبة ، عندما كنت بين أصدقائك ، وتصفني أمام كل الناس بأني يهودي ؟" ولكن عندما رآني صالح العجوز ، وأنا أبتسم ، راح هو الآخر يبتسم ، وسلم على يدي اليمنى التي مددتها له .

عثرت على زيد ، في المساء ، جالسا على واحدة من المصاطب الطينية بالقرب من الحدّاج (البئر) ؛ كان الرجل ينتظر في وسط البلدة ، على أمل وصول بعض معارفه من القرويين ، قبل غروب الشمس ، ليدعونه لتناول العشاء ، وعندما عدت إليه ثانية ،

بعد ساعة من الزمن ، وجدته ما زال جالسا في المكان نفسه ، وكان محياه الأسود يجمع بين صبر البدو على الجوع واحتقاره للتيامنة. ربما ظهر زيد أكثر غنى وازدهاراً، لو أنه كان متحرراً وأجل الصداقة في الآخرة وفي هذه الدنيا ؛ ولكن ضيق اليد هو الذي يولد الضعف وخفوت الإرادة لدى جيرانه . وقفت أتكلم مع زيد ، ورأيته في النهاية يتناول غليونه ، الذي هو بمثابة الدواء الذي يعالج الجوع ، وهنا وجدت زيدا يستدعي صبياً ، خرج من دار مجاورة ، ليحضر له شيئا من الفحم المشتعل ، ووجدت القروي الشاب يطيعه ويجيب طلبه .

في الساعة الأولى من تلك الليلة هبت علينا عاصفة من الريح والمطر . وتمايل النخيل العالي ، وأنحنى ، وكان يبدو للضيوف وكأنه سوف يقتلع من جذوره . وهنا لجأت أنا ومحسن إلى منزل الفجر Fejr مضيفنا ؛ ولكن سقف المنزل الذي كان مصنوعا من عيدان الأشجار والقش المغطى بالطين ، سرعان ما بدأ يتخلله ماء المطر ، وبدأت الرطوبة والبلل ينهال علينا من خلال جدران المنزل . تحدث محسن عن سفري في الغد برفقة البشر Bishr ، وطلب من فجر Fajr أن يكون شاهدا على ما يقول ، وحاول ذلك الرجل الفجري أن يجعلني أحيد عما قررته قائلا : "حتى زيد نفسه ، قال الرجل ، قد تخلى عني ، وكان مفروضا على زيد أن يزكيني عند البِشْر ، وكان من المحتمل أن لا أراه بعد الآن ." - "هل ينبغي أن أعجب من ذلك أو أندهش له ؟ - زيد لا قلب له ،" رد الاثنان عليّ قائلين : "إي ، بالله ، زيد ليس له قلب" ، وكررا "ما Ma له Lahu قلب Kalb" . كان فجر يعاني من ألم حاد ، أو إن شئت فقل : يعاني معاناة شديده من آلام الحصا el-Hasa ، ذلك المرض الذي يشيع في هذه المنطقة ، بالرغم من أن المنطقة هنا أرضها من الحجر الرملي ، ومع ذلك قد يكون المرض مجرد التهاب ، لأنهم يظنون أن المرض يصيبهم بسبب مشيهم حفاة على التربة الحارقة . وعندما هدأ الطقس ، اتجهنا صوب الخيام التي أصابها البلل لننام الليلة الأخيرة لنا في تيماء .

الفصل الحادى والعشرون

الجبل

الرحيل عن تيماء مع البِشْر . رحلة فى اتجاه الشرق خلال المطر . مشهل الشيخ العظيم يُصلِّح القهوة ويقدمها . نساء البِشْر . ابن مرتاد . كرم الشيخ فى البرية . تعال إلى خيام مِشْهل . تهديدات مِشْهل . الرحيل مع جماعة إلى حائل . رحلة مع ركّاب الذلول . النصرانى يقيم بدويا ولصا من لصوص الماشية . الوصول إلى الخيام أثناء الليل . بدوى من الذين خدموا فى العجيل . شيخ من شيوخ الشمر فى الصحراء . الشيخ يتمنى الخير للإنجليزى . نجد تكاد تكون عديمة المطر . أسئلة البدو وأجوبتهم . الإرهاق البالغ بسبب الركوب . ظهور الماء . مجلس عسكر . الوصول إلى أولى قرى الشمّر . موجوج . الحكم الذى أصدره الشيخ للنصرانى . قهوة الشمر . الفقيه الشاب صاحب الفكر الحر . بدوى عراقى يتهم النصرانى . كلام نجد . الرحيل إلى حائل . رىّ السَّلف . لقاء خطر فى الرىّ . البشر والشمّر ليسوا جيرانا طيبين . منظر علامة حائل الجبلية. قفار . نساء نجد المنقبات. الكرم العام فى قفار . ضواحى قفار الطّلية . السهل الصحراوى قبل حائل . مسافرون بمحض الصدفة . الخيّالة . الاقتراب من حائل . المكر البدوى . عبد العزيز . دخول حائل . المكان العام . القصر . مُفرّج . المقهى العام . صالة الضيوف أو المُضِيف . سكرتير الأمير . مثول النصرانى أمام الأمير بن الرشيد . الحضور . رواية القرآن عن المسيح . قراءة غير موفقة . خَتْم . جولة فى مزرعة القصر مع الأمير محمد . آبار الرى العميقة . الوضيحى .

قامت النساء بتحميل خيامهن وأمتعتهن على ظهور الإبل ، وألقيت نظرة على الأعراب أثناء رحيلهم قبل طلوع النهار . كان زيد يركب فرسه ، وواصل مسيره قدمًا

من القرية التي أمضي الليل فيها ؛ "قال زيد : لو أنني أرافقه وأذهب معه الآن ، فسوف يأخذني إلى البِشْر ويربطهم بمسئوليتهم عن أمني وسلامتي ؛" ولكن زيداً لم يكن بوسعه الانتظار ، إذ كان يتعين عليه أن يتبع الأعراب ، إضافة إلى أنى لم أكن فى ذلك الوقت ، مستعدا للرحيل ؛ واختفى رفاقى من الفكارة ولم أعد أراهم بعد . ومر عليَّ غريب ، قدم لى يد العون على وجه السرعة ، وراح يساعدنى وأنا أحاول تحميل أشيائى وأمتعتى على ظهر ناقتى العجوز : ورحت أقود الناقة وهى تحاول مقاومتى ، فى محاولة منى للانضمام إلى بقية الإبل ، لمسافة نصف ميل تقريبا بالقرب من تلك الأسوار المؤدية إلى هؤلاء البِشْر، الذين شاء حظى الجيد أن أراهم وهم لم يبدوا التحرك بعد . وعند البشر ، قصدت إلى ذلك الرجل الذى يدعى حيزان Hayzan ، الذى سبق أن وافق على اصطحابى إلى مدينة حائل : كما اشتريت من بشرى آخر إطار سَرْجٍ من سُرُوج الركوب ؛ حتى يتسنى لى تحميل أشيائى وأمتعتى على الناقة المجروحة . كان البشر يستعجلون ماشيتهم ، ولذلك بدأنا المسير على وجه السرعة .

تركنا تيماء عن يميننا ، ومضينا قدمًا ، بين قمم الإرباح Erbah وقمم الغنيم متجهين نحو الصحراء ؛ وسرعان ما تبدت لنا بعد ذلك حدود صحراء النفود القاحلة ، والتى كانت تمتد ، بدورها أيضا ، فى اتجاه الشرق . واصلنا مسيرنا أثناء سقوط المطر فى طقس سيئ ؛ وعند الساعة الرابعة مساء ، نزل البشر عن إبلهم فى الصحراء المبتلة وعلى ارتفاع حوالى ٦٠٠ قدم عن مستوى تيماء ، وهنا ساق البشر الإبل الجائعة إلى المرعى . شب البدو المترحلون النيران ، وراحوا يضعون عليها أنواعا معينة من حطب الأدغال ، الذى كان من بين النباتات التى تأكلها الماشية ، وبالرغم من أن ذلك الحطب كان مبتلا بفعل قطرات المطر ، فإنه كان سريع الاشتعال . حاول البدو الحفاظ على أنفسهم ، قدر المستطاع ، من الريح الرطبة ، والمطر الغزير ، بأن راحوا يكوِّموا الأدغال من حولهم؛ وثبتوها فى الأرض عن طريق وضع أحجار ثقيلة من فوقها.

تحركنا مع طلوع الشمس : أعاد عواء الإبل المفاجئ ، والضوضاء الناتجة عن محاولة تلك الإبل الامتناع عن التحميل ، أعاد إلى ذاكرتى ذكريات حج العام الماضى ! وقبل الساعة العاشرة صباحًا ، أصبحت حلوان Helwan على مرمى بصرنا ، وصفى الجو أكثر من ذى قبل . وعرّج البشر قليلا فى اتجاه الجنوب الشرقى ، حيث ظهرت

أمامنا قرية برِّد Birrd (ويصح فيها أيضا برِد Bird) : وعند الساعة الثانية بعد الظهر ، نزلنا عن راحلاتنا ، ودفعناها في اتجاه المرعى ؛ كان الارتفاع هنا في هذا المنطقة مثل ارتفاع الأمس ، أي حوالي ٤٠٠٠ قدم . وتوقف المطر وخرج حيزان للتصقر(*) . كان من ضمن هذه الجماعة رجلين أو ثلاثة رجال كانوا يصحبون صقورهم معهم ، وكانت تلك الصقور راكبة على قمم السروج، وكل واحد منها موضوع فوقه غطاء عينيه الكامل، أو الغطاء الذي به نافذتين يرى الصقر من خلالهما ، أو جاثمة على أيدي أصحابها . في بعض الأحيان ، كان أصحاب هذه الصقور يدفعونها لمطاردة الأرانب البرية الصغيرة التي كانت تظهر لنا فجأة أثناء سيرنا في الصحراء ؛ كانت أجنحة الصقور مبتلة بفعل المطر : وكانت الطيور تطير طيرانا فاترا وتحلق على ارتفاع منخفض ، وبعد دورة أو دورتين كانت الطيور تعود وقد أمسكت بواحد من تلك الأرانب البرية ، ويروح الصقَّار يمسكه في يده وهو مشدوه . هذا يعني أن حيزان كان يصطاد كل يوم أرنبا بريا ، وكان يحضر لي جزءا من لحم ذلك الأرنب في المساء ، وكان ذلك يكفي احتياجات جسمي المرهق . افتقدت كلا من حنَّاس وابن عمه ريَّان Rayyan ، بينما كنا نسير في الطريق ؛ فقد ترك هذان الرجلان أعرابنا أثناء ترحالهم ويمموا مسيرهم نحو أهليهم الذين كانوا يخيمون في الجنوب ، فوق حرة Harrat خيبر(**) . ها أنا اليوم وحدي مع العواجي ، – وهؤلاء البدو هم إلى حد ما عنيفين، كما أنهم دوما من البدو البخلاء ، ولكني كنت استشعر أملا قويا في الوصول إلى حائل خلال فترة وجيزة . جلست لشرب القهوة مع الشيخ مسهل ، الذي سوف يقوم هو بنفسه بعمل القهوة . هذا الشيخ الذي "يحكم سبعة قبائل" هو الذي حمص البن ، وطحنه ، وغلاه ، وهو أيضا الذي قدم لي بيده ، ذلك الخليط الجميل . لم يعطني مسهل سوى فنجال واحد ، وقدم لأفراد قبيلته فنجالين وأحيانا ثلاثة فناجيل . ونظرا لأن العمل الذي قام به ذلك الرجل كان يسيئ إليه لأني نصراني ، فقد قلت له متعجبا ، "هذا بالله شيخ كبير وقهوة قليلة ! أهذا هو عرف العواجي ، يا مسهل ، ان يجلس ضيف بينكم وأنتم جميعا

(*) التصقر : الصيد بالصقور . (المراجع)

(**) حرة خيبر : تعرف هذه الحرة أيضًا باسم حرة النار وهي الحرة التي يطؤها الحجاج في طريقهم إلى المدينة المنورة . (المراجع)

تشربون القهوة ، في حين يمسك هو بفنجاله فارغا ؟" بعد أن تحديث مسهل بهذه الطريقة ، راح يصب لي القهوة على غير رغبة منه ، وهو يتمتم ببعض كلمات تبين عن مزاجه المتشدد ، قائلا "يا ya فركه ! farkah " .

وصلنا في ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث إلى مشارف جبل إرنان Irnan ؛ وهنا قلت لجاري : "ها ، ها هو جبل إرنان !" وهنا صاحت امرأة كانت تركب راحلتها وعلى مقربه منا ، بحيث كانت تسمع ما نقول ؛ صاحت قائلة : "أوه ، ما الذي تريده أنت من إرنان ؟" وقبيل العصر نزلنا عن راحلاتنا في أرض مرتفعة تقع فوق يبع yba مغير Moghrair ، التي اكتشفت ، عن طريق الآلة ، أنها على ارتفاع يقدر بحوالي ٤٠٠٠ قدم . شاهدنا ، عن بعد ، بعضا من إبل أعراب ابن Ibn مرتاد Mertaad ، وهم من حلفاء البشر . بعد أن نصبنا خيامنا ، جاءت إلى خيمتي امرأة ؛ كانت تطلب إبرة وخيطا (الأشياء التي من هذا القبيل تعد هدايا مقبولة في الخلاء أو إن شئت فقل : في الصحراء) ؛ ولكني طلبت منها الذهاب إلى حال سبيلها عندما وجدتها تساومني مساومة شديدة . وردت علي وهي تنظر إلي شذرا . "ها ! نصراني ، ولكننا عن قريب سنأخذ منك كل هذه الأشياء ." وقد رأيت من باب الكراهية [العنصرية] ، أن ربات البيوت البشريات كن يرتدين البروكة beroka ، أو إن شئت فقل : براقع الوجه الوثنية ، والتي لا يظهر منها سوى عينان غائرتان فقط . أوحت لي غرابة وجه هذه المرأة أنني كنت أجوس ، في ديرة أخرى ، من هذه البلاد ؛ وهذا القسم من البلاد هو نجد الغيورة [والوهابية] ؛ – الأكثر من ذلك ، أن تربة الجزيرة العربية نفسها متباينة ومتنوعة .

في اليوم الرابع من مغادرتنا لتيماء ، وصلنا إلى صخور وعرة من الحجر الرملي في منطقة تقع خلف يبع yba مغرير Moghrair . قسوة المطر والهواء شديدة في الجزيرة العربية ، وبخاصة عندما تواجه الشمس عيوننا، وننظر عبر سديم من الضباب الناتج عن الحرارة الشديدة ، ويتساقط مخيما على حدود تلك الجبال الجافة حتى النخاع أو إن شئت فقل : شديدة الجفاف ! هذه هي الريح وقد اختلطت بالمطر وراحا يهبان هبوبا شديدا على الصحراء الواسعة أثناء الليل . ومع حلول المساء ، نصبنا خيامنا ، إلى جوار خيام بعض من عرب Arabs مرتاد Mertad ، ورحت أنا بعد ذلك ، أتقدم شيئا فشيئا من نيران الحراسة البهيجة . وحيثما كنت أدخل إلى منطقة النار

أمام أي بيت مـن البيـوت الرئيســهة ، كان رب ذلك البيـت يستقبلنى استقبـالا وديا ثم يحضر لى بعد ذلك مباشرة سلطانية كبيرة من حليب النياق . لم يوجهوا إلى أى نوع من الأسئلة ، - والتزام الصمت هنا هو من كياسة المضيف ، وكانوا قد رأوا خيمتي البيضاء منصوبة قبل غروب الشمس . وعندما وقفت ، استعدادا للانصراف ، طلب منى الرجل بإشارة لطيفة البقاء لمزيد من الوقت. وشاهدتهم وهم يحضرون شاة لذبحها ؛ - ونظرا لأن الشيخ مسهل ، نزل أمام بيتهم فسوف يذبح ذلك الرجل شاة لتكون عشاء للضيف . قال لى عايد Ayid بن مرتاد Mertaad ، ذلك الشيخ الطيب ، إن أعرابه كانوا يذهبون إلى الشمبل the Shimbel ، بل إن الحال كان يصل بهم إلى حد الوصول إلى كل من بالميرا Palmyra وكرياتين Keriateyn ! رقدت على الأرض ورحت في النوم داخل هذه الخيمة الصوفية الكريمة ، إلى أن أصبحت الوليمة جاهزة ، وعندها أرسلوا فى طلب كل من الشيخ مسـهل هو وشيـوخ العواجي. هذا الخروف المسلوق (فى منطقة بعيدة جداً عن ساحل البحر الأحمر) قدِّم مع نوع آخر من الأرز يطلقون عليه اسم التِّمن Temmn ويأتون به من العراق وهو (بالرغم من أنهم يعدونه أقل من أنواع الأرز الأخرى) له نكهة طيبة وقوام أفضل من الأنواع الأخرى . وبعد أن فرغ مسهل ومعه كل من جاءوا من البشر وشيوخهم ، نهضوا واقفين ثم انصرفوا لحال سبيلهم بعد أن شكروا المضيف ودعوا له بالبركة - ولم أرى ذلك من قبل - فقد حمل الشيخ مسهل معه قطعة من اللحم وعظمة من عظام الخروف ، وذلك لزوجته التى كانت تصاحبه فى الرحلة .

فى صباح اليوم الخامس لمغادرتنا لتيماء صعدنا إلى أرض وعرة شديدة الارتفاع فى اتجاه الشرق من طريق يطلقون عليه اسم درب Derb الزلاَّج Zillaj ، ووجدت ونحن فى هذا الدرب أننا كنا على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم ، وشاهدت زهيرات صغيرة ، من بنات المطر ، كانت قد تفتحت بالفعل فى الصحراء . وعند دخول الظهر ، كنا قد وصلنا إلى منْزل مسهل الذى كان مكونا من عدد قليل من الخيام التى نصبت إلى جوار بعضها فوق تلك القطعة المستوية من الأرض التى وصلنا إليها ، والتى يطلقون عليها اسم الخرَّام el-kharram ، وكانت أيضا على ارتفاع ٥٤٠٠ قدم : كان الترمومتر (مقياس درجة الحرارة) قد سجل ٨٠° فهرنهيتية . واعتبارا من هذه المنطقة بدأت سلسلة

الجبال تبدو لنا وكأنها فوق السحاب ، وهذا هو جبل إرنان Irnan في الشمال ، يبعد عنا مسير يوم تقريبا .

في العصر جاءنا رجلان قبليان غريبيان ، جاءا من ديرة في الضاحية الجنوبية بالقرب من المدينة (المنورة) : قالا لنا إن المطر لم يسقط على ديرة جهينة ، أو في سائر أنحاء وادي الحمض Humth ! وضعوا أمامهما طبقا من التمر ؛ هذان البدويان ، دعياني [باعتباري ضيفا] ومن منطلق عرف الصحراء أن أقترب منهما وآكل معهما من ذلك التمر :– هذا المسهل ، بالرغم من أني كنت معه في خيمته لم يدعو النصراني للأكل من ذلك التمر ! تناولت تمرتين وأكلتهما من باب "العيش والملح" فيما بيننا . كان معي حزام مغربي كبير مصنوع من الصوف أحمر اللون ؛ وهنا قال مسهل : إنني ينبغي أن أعطيه ذلك الحزام ، وإلا فإنه ، بالله ، "سوف يجعل مني أنا وما معي من أشياء" غنيمة له . هذا الحزام الذي يشيع في البلدان المستقرة ، والذي يطلقون عليه اسم "الكُمُر ، kumr ، مطلوب ومرغوب من الخيَّالة البدو المترحلين ، وهم يظنون أن ربط أجزاء الجسم غير المتينة بذلك الحزام ، إنما يعطي الإنسان قوة على قوته . "قلت له" إن الحزام ضروري عندي ؛ وطلبت من مسهل أن يعطيني جملا صغيرا قويا ، على أن أعطيه أنا ناقتي ومعها الحزام ."– كان عدد إبل ذلك الرجل يزيد على المئتين ! "رد عليَّ مسهل قائلا : حسن ، إذن ، سيأخذني غنيمة له ." – "ألا ترى أن نوى التمر ما يزال في يدي ، وأنت لا يمكن أن تقبل على ذلك يا مسهل ، فأنا بيني وبينك الآن "عيش وملح" ." – "ولكن ذلك لن يجديك أو ينفعك ؛ ماذا يحدث لو أنني طردتك غداً بعيدا عنا ، أنت ومعك ناقتك العجوز ، فهل تستطيع أن تهتدي إلى طريقك وتعود إلى سهل الحجر ؟" – "أنا أعرف أن المسافة تصل إلى حوالي أربع رَحْلات في اتجاه الجنوب الغربي ، إن الله سيأخذك بجريرتك ، وأنا أحسب أن هذا لن يرضي الله (سبحانه وتعالى) ، وسوف أمضي معكم قدما ." – "ولكن البلد كله مليء بالحباليص ." – "يا شيخ مسهل ، يا غني ، هل تسمح لك عاداتك بتجريد إنسان مسكين من مقتنياته ! وأنا أرى أن هذه التهديدات كلها مجرد لغو ليس إلا ، لأنني ضيف عليك ." – والبدو يظنون أن النصارى خبراء في ركوب الدواب ، وعليه قالوا لي : "أنني سوف التقي الشيخ مسهل في الغد على ظهر حصان ، وينبغي أيضا أن أكون مسلحا بمسدس ؟"

ورددت عليهم قائلا : "إذا كان لابد من ذلك ، فسوف أحاول وأبذل قصارى جهدى ." – "لا ، فى الغد سوف يركب خليل ناقته العجوز (قالها مسهل مرة ثانية) ويعود إلى مدائن صالح !" وبابتسامة صارمة توقف عن الطلب ، بعد أن وجد أن كلامه لم يحركنى . وهنا قال ولده الأصغر الذى كان يجلس معنا فى الخيمة ، قال كلاما طيبا : "حسن ، دع خليل يحصل على ما يريد ، – وفى الصباح سوف يعطونى ناقة صغيرة بدلا من الخويرة (الناقة كبيرة السن) والحزام . والعرب فى جشعهم عندما يحاولون إتلاف حياة الغريق ، الذى لن يساعدوه مستقبلا ، يكونون أرذل من أية أمة أخرى !

طلب منى حيزان ، فى الصباح ، الاستعداد للرحيل ، إذ كان عسكر ومعه بعض الرفاق متجهين إلى حائل ، وبالتالى يمكن أن أركب معهم ! سألنى حيزان "هل ناقتى العجوز تستطيع مسايرة النياق الصغيرة فى الجرى ؟"– "إنها ناقة عجوز ، وليست صغيرة السن ." – "إذن ، يتعين علينا أن نسافر منفصلين عنهم ." كان حيزان بعد أن استلم النقود التى اتفقنا عليها ، قد قال إنه لا يستطيع مرافقتى هو بنفسه ، "وإنما الذى سيرافقك هو هذا الرجل ،" الذى قال عنه إنه شقيقه ، إضافة أيضا إلى أنه أطلق عليه اسما غير اسمه . – كان من الصعب علىّ تحاشى الوقوع فى مثل هذا النصب والخداع من قبل البدو ! قال مسهل : "حسن ، أنا أضمنه ، سافر فى أمن وسلام ." ووضعت شرطا يقضى بتحميل حقائبى على ناقته الصغيرة ، وأن يكون من حقى أن أركبها أيضا ؛ وبعد ذلك مضينا قدما فى طريقنا .

كان رفيقى فى الرحلة شبيه برجل من رجال الأحراش : كان عسكر ومن برفقته قد سبقونا على الطريق ؛ مررنا على بعض حفر الماء الضحلة التى جرى تطهيرها مؤخرا ؛ وانتابتنى دهشة لوجود مثل هذه الحفر على مثل هذا الأرض المرتفعة . ثم وصلنا بعد ذلك إلى حرف الجبل فى الناحية الشمالية ، من جبل خرّام kharram ، هذا الحرف كان شديد العمق وشديد الانحدار نحو السهل الموجود فى الأسفل ؛ والإبل أثناء سيرها فى مكان من هذا القبيل ترتكز على أرجلها الأمامية وتجعلها أكثر تماسكا، محاولة النزول نحو الأسفل بحرص بالغ . وهكذا رحنا نهبط ، حسب استطاعتنا ، مستهدفين الوصول إلى الصحراء الرملية ، متجهين بعد ذلك صوب ساحل منخفض من الصخر الرملى ، يطلقون عليه اسم العبّاسية Abbassieh ، ويقع

إلى الغرب من بلدة مسمة Misma واستطعنا في النهاية اللحاق بعسكر ومن معه . وعندما اقتربنا من الطرف الشرقي للجبل ، ظن من معى أنهم شاهدوا حباليص يتجولون بين الصخور. هؤلاء اللصوص هم من "حطيم النفود وهم أيضا من الأعداء" ، وقد شوهدوا في تلك المنطقة التي رأى الناس فيها في اليوم السابق بعضا من طلائع الحباليص الذين يقومون باستكشاف المكان . "(قال عسكر) ، هل تستطيع ناقتك ، يا خليل ، أن تساير نياقنا في المسير ؟ نحن بدو ، ونحن ننهش nenhash) ويصح فيه أيضا "نهجج nahajj) ! ونحن لا نهاب أي نوع من الأخطار ونحن ركوب على نياقنا ؛ عجل قدر ما تستطيع ، والا خلّفناك وراءنا ، وبذلك تسقط وحيدا في أيدي اللصوص ." وبعدها راح كل واحد منهم يستحث ناقته على الجرى : أما ناقتي العجوز ، والمرهقة بعد الرحلة الطويلة التي قطعتها من تيماء ، فقد تأخرت كثيرا عن باقي النياق ، وتلك كانت قدرتها . وخلصت إلى أن الجميع سوف لا تكون لهم فائدة في حالة الخطر ؛ هذا يعني أن الطالع كان في غير صالح هذه الرحلة ، لم يكن في أحد من الرفاق أي شيء من الخير اللهم باستثناء عسكر وحده . وهذا هو الرفيق غير المتحضر ، الذي حاولت ربطه منذ البداية بأن جعلته يحلف بأغلظ الأيمان ، والذي حلف لي "على ساق العشب" أنه لن يتخلى عني ، هذا هو الآن يصيح فيّ قائلا : "والله - بالله ، إنه سوف يتخلى عني إذا لم أُعدِّل خطوى وأسرِّع من مسيرى (وهذا أمر مستحيل) ؛ لأنه يتعين عليه اللحاق برفاقه ، كما أنه كان رفيقا لهم ." من هنا فقد راح الجميع يجرون بنياقهم مسافة ميل أو ميلين .

أسفر المطر الذي تساقط في الأيام الأخيرة عن برودة الهواء ؛ ها هي فترة ما قبل الظهيرة ، حيث السماء ملبدة بالغيوم ، ولكن الشمس تسطع بين الحين والآخر محدثة نوعا من الدفء . وبعد عناء كبير وجلبة كثيرة وصلت أخيرا إلى الرفاق الذين كانوا طائرين بنياقهم ، وهنا قلت لعسكر : "لو قدر للأعداء أن يهجموا عليك ، فهل ستضحي بي أنا الذي أعد رفيق طريقك ؟" "قال : سوف أُركبُك ورائي على ناقتي ، وسوف يكون مصيرنا مصيرا واحداً نحن الاثنين ؛ لن أضحي بك ، يا خليل ." كانت الجماعة تأمل في النزول في منزل الأعراب في تلك الليلة ، قبل أن نصل إلى جبل مسمة Misma ، الذي بدأ يلوح لنا من بعد . كان السهل عامرا بالرمال والأعشاب التي تنمو

فى الأحجار الرملية ، التى كانت تجاويفها عبارة عن برك صغيرة ملأتها مياه الأمطار العذبة . وقبيل العصر طرد أفراد الجماعة الإبل وجعلوها تسبقهم بمسافة كبيرة جداً ، نزلنا عن إبلنا وتسلق البعض الصخور المجاورة ليستطلع المكان ، وعادوا ليخبرونا أن أولئك الأعراب كانوا أيضا راحلين، وأنهم يبدو عليهم أنهم على وشك التخييم من جديد. واصلنا المسير ركوبا على ظهور نياقنا قاصدين جبل مسمة Misma ، إلى أن وصلنا إلى أولئك البدو ؛ الذين لم يكونوا سوى عائلة من عوائل الشَّمَّر تتجول فى تلك القفار الشاسعة . والمؤكد أن أفراد هذه العائلة تملكهم الخوف الشديد بعد أن رأونا ، لأننا وجدناهم ينكمشون ويلجأون إلى الأرض المنخفضة ، أخذين معهم إبلهم قليلة العدد ، فى الوقت الذى لم تكن ربة البيت قد نصبت فيه خيمتها . كانوا يراقبوننا ونحن نمر عليهم ، ونظراتهم توحى بعدم الاستقرار أو الاطمئنان ، والسبب فى ذلك أنه ليس هناك وئام بين العنزى والشَّمَّر - والذى يشكل ذلك العداء هو مسألة الأمير . كنت سأطلب من أولئك البدو أن يسقونى شربة ماء ، نظرا لأننا واصلنا مسيرنا طوال اليوم على ظهور راحلاتنا دون توقف ، إضافة إلى أن النهار أوشك أن ينتهى متحولا إلى ليل ؛ ولكن رفاقى واصلوا مسيرهم . طلبت من رفيقى أن يعيرنى ناقته المريحة والسريعة ، وذلك وفاء بما اتفقنا وتعاهدنا عليه ؛ ولكن هذا الرفيق الأشعث غير المتحضر أنكر علىَّ ذلك ، بل إنه رفض حتى أن يبطئ المسير . وكنت فى أحيان كثيرة ، أتأخر عنهم كثيرا جداً ، بينما هم يجرون ، الأمر الذى كنت أخشى أن أفقد الاتصال بهم عن طريق البصر ، كما كنت أخشى أيضا أن تنهار ناقتى المتعبة من تحتى ، وبالتالى تجهض وتفقد وليدها .

وبناء على كلام عسكر ، وبعد أن أدركوا أننى لن أقوى بعد ذلك على تحمل المزيد ، وافق رفيقى على تبادل الركوب معى ، وبالتالى ركبت أنا ناقته صغيرة السن ؛ دخلنا بعد ذلك فى فجوة منخفضة فى جبل مسمة بالقرب من طرف الجبل الشرقى المكون من سلسلة طويلة من صخور الحجر الرملى . وراح رفاقى ينظرون من طنف الجبل ، بحثا عن خيام الأعراب سوداء اللون ، فى السهل الصحراوى الواقع خلف الأفق . قال أحد الرفاق إنه يحسب أنه رأى خياما على بعد مسافة كبيرة ، ولكن بقية الرفاق شكوا فيما قاله ذلك الرجل ، وهنا كانت الشمس بدأت فى الغروب . وهنا نزلنا

إلى الرمال العميقة المنجرفة على أجناب الجبل ، وهنا فاجأتنا ريح ، كانت تشبه فى هبوبها هفهفة جناحى الطير ، ونحن ركوب على نياقنا ، مما أدى بالإبل إلى إسراع خطاها ، بالرغم من أن الأفراس ، يمكن أن تسبقها فى الأرض المستوية . وكما يقول شعراء العرب القدامى إن ركوب الذلول يجعل الراكب يحس وكأنه "يسبح" فوق الأرض الرملية ، الأمر الذى يجعل الراكب المتمرس لا يحس بسرج الجمل من تحته .

نزلنا إلى بركة من ماء المطر فى الصخر الرملي، وعندها نزل الرفاق عن راحلاتهم وتوضئوا من ذلك الماء وراحوا يؤدون صلاة المغرب ؛ ولكن عسكر ، وبالرغم من دخول الليل علينا ، لم يكن معه شيئا يجفف به نفسه ، فقد راح يغسل كل جسمه ، وراح رفاقه يسألونه : "قال ، إن هذا هو ما يفعله الرجل بعد أن يعاشر زوجته ؛" وبعد الاستحمام عاد واثقا من نفسه يطلب الرحمة والعفو من الله :- وهذا هو ما فعله (سيدنا) موسى . والمسلمون سواء أكانوا مرضى أم أصحاء ، إذا ما أصابت أجسامهم النجاسة بكل أشكالها ، فلا تصح معها الصلاة ، أى إنهم يمتنعون عن الصلاة . جاءنى كثير من المرضى ، وهم يشكون أن الضعف أو المرض الذى يعانون منه "قد يمنعهم من الصلاة" ؛ ولذلك يرى هؤلاء المرضى أنفسهم وكأنهم معزولين عن الرحمة وعن الدنيا أيضا . ولذلك فإن هؤلاء المسلمين يجعلون الله راعيا وناظرا إلى البشرة Skin (المظهر) ، بدلا من أن يكون وازنا وباحثا وكاشفا الحقيقة السرية التى فى قلب الإنسان . واصلنا مسيرنا فى عتمة الليل ؛ ولم استمر فى ذلك السير إلى مسافة بعيدة ، نظرا لدخول الليل البهيم علينا ، ولم أستطع تهدئة رفيقى نصر Nasr ، وهنا تحتم عليَّ العودة إلى ناقتى العجوز "والسبب فى ذلك ، على حد قوله ، أننى قد أشرد مع الناقة أثناء الليل ." ومن رأى نصر ، وكان ذلك أيضا هو رأى حوريش من قبل ، أننى كنت بدويا ، ولصا من لصوص الإبل ؛ وهذه الفكرة الخيالية هى التى جعلته فى مرحلة سابقة من اليوم ، يوافق على أن أركب أنا ناقته ، التى كانت هى أسرع النياق الموجودة على الإطلاق ؛ أما فيما يتعلق بكل من عسكر والبقية التى كانت كلها من الشيوخ ، فقد خلفوا وراءهم أفضل نياقهم فى ديارهم ، لأنهم كانوا يدخرونها للعمليات الحربية .

سرنا مدة ساعتين بعد غروب الشمس ، وقطعنا خلال مسير ذلك اليوم ما يقرب من خمسين ميلا ؛ وهنا بدءوا يتشاورون مع بعضهم البعض حول ما إذا كان من الأفضل لهم النزول عن راحلاتهم وقضاء الليل فى هذا المكان الذى وصلوا إليه ؟ كنا لم نتناول إفطارنا فى ذلك اليوم ، ولم يكن معنا طعام أو ماء ، كانوا واثقين من أننا سوف نتعشى كل ليلة مع الأعراب . اتفقوا فيما بينهم على الاستمرار فى المسير إلى مسافة أبعد قليلا عن هذا المكان ؛ وبعد فترة وجيزة بدأت تلوح لنا نيران الحراسة التى يشبها البدو . بعد ذلك بساعة ، أصبحنا على مقربة من أولئك الأعراب ، وعندها سمعت أصوات المساء فى منزل من منازل أولئك البدو الرحل ؛ كانت تلك الأصوات عبارة عن أصوات المرح المملة التى تصدر عن الأطفال ، الذين يدورون حول نيران الحراسة ويغنون عند بيوت الشَّعْر . وصلنا فى سكون ولم تنبح الكلاب . كانت هناك خيمتان أو ثلاث خيام . وعندما رآنا العرب صمتت الأصوات كلها : هذه النيران الجميلة ، التى شاهدنا حولها قبل لحظة واحدة ، بعض الرجال ، انطفأت فجأة بإلقاء الرمال عليها . كان عددنا يتردد بين ستة وسبعة رجال ، وكان كل واحد منا على ظهر راحلته ، وظن الناس أننا ربما نكون غزوا معاديا . وبعد أن نزلنا عن راحلاتنا فى صمت انتحينا جانبا ثم جلسنا على الأرض : ولم يتكلم أى أحد منا مناديا باسم زميله مطلقا ؛ والسبب فى ذلك أن الصحراء الواسعة مليئة بحالات الثأر وإهدار الدماء . وعندما يكون هناك اجتماع غريب من هذا القبيل ، بل وفى مثل هذه الساعة ، فإن البدو الرُّحل يزداد شكهم وعدم يقينهم فى بعضهم البعض . وأنا عندما كنت أضيق ذرعا بصمتهم ، كنت أقول لهم سلام Salaam ! وهنا كانوا يرجوننى التزام الصمت والسكون . وعندما أدرك البدو أننا مسالمون ، تقدم واحد منهم بحذر نحونا ، وألقى علينا السلام قائلا : "سلام Salaam عليك aleyk " وهنا رددنا عليه جميعا السلام قائلين : "عليكم Aleykom السلام es-Salaam " . والبدو عندما يتبادلون السلام بهذه الطريقة تزول من بينهم شكوك الشر والخطر . وهنا اقتاد ذلك الرجل ، الذى اقترب منا ، كلا من عسكر ورفيقه إلى بيته ، فى حين ذهبت أنا ومعى نصر Nasr إلى بيت آخر ؛ ونصر هذا كان رفيقا لى ، وقد التقيناه سائرا فى الصحراء مع ولده بالقرب من مسمة Misma . وهنا شب البدو من جديد النيران التى كانوا قد أطفأوها .

لم نتمكن من معرفة هوية أولئك الأعراب، ولم يتمكنوا هم أيضا من معرفة هويتنا؛ ولقد عرفنا أن أهل الصحراء لا يسألون الضيف عن هويته إلا بعد أن يفرغ من تناول الطعام ؛ ومع ذلك فإن الأعراب عندما يتبادلون الحديث عن ، المطر خلال العام ، أو عن المرعى ، ربما يتمكنوا من معرفة قبائل بعضهم البعض . وأنا عندما سألت رفيقى الجلف "إلى أى قبيلة ينتمى هؤلاء البدو ؟" رد على هامسا ، "إنه لم يعرف ذلك بعد " ؛ وبعد ذلك بفترة وجيزة ، فهمنا من الأصوات التى تناهت إلى مسامعنا أنهم ، فى الخيمة المجاورة قد تعرفوا على عسكر . كان عسكر ولدا من أبناء شيخهم الكبير ؛ وعرفنا أيضا أن أولئك الأعراب كانوا ولاد Wélad سليمان Selyman ، وهم بطن من بطون قبيلة البشر ، هذا بالرغم من عدم معرفة الناس هنا لوجوه بعضهم البعض . وبعد أن انتقل مضيفى إلى الخيمة الرئيسية لمعرفة الأخبار ، تركنى مع ربة بيته ، التى شاهدتها وهى تقشر القمح باستعمال مِضْرَب فى قدح من الخشب ، وهذه الطريقة ليست معروفة عند البدو الذين سبق أن تعرفت عليهم فى الجنوب ؛ والناس هنا يقدمون القمح المبشور كوجبة للضيوف . كان الوقت من العام هنا يصادف فصل الشتاء ، فى هذه الصحراء الجرداء ، ولذلك قام البدو بوضع سياج من أعشاب الأدغال الجافة ، حول خيامهم لحمايتها من الريح والمطر الغزير .

جاءنا بعد ذلك ، رجل من الخيمة الثالثة وتناول معنا الغذاء . وقد اندهشت عندما رأيت ذلك الرجل ، كما اندهش هو أيضا لرؤيتى : كان الرجل واحداً من البدو ، ولكنه كان يضع على رأسه قلنسوة أو إن شئت فقل : طربوش تركى أحمر اللون ، كما كان يرتدى قميصا مقلماً يطلقون عليه اسم "كمباز" kumbaz ، فى بلاد الحدود المتمدنة ! وعندما سألت ذلك الرجل عن عمله ، رد على أن "ضعفه" جعله يلتحق بالجندية فى الشام وراح يخدم الدولة (الإمبراطورية العثمانية) هناك نظير أجر يتقاضاه بالريالات : ولكنه الآن عاد إلى الحياة البدوية ، ومعه ما يعتبره مبلغا كبيرا من المال . ومع بداية تحسن أحوال ذلك الرجل اشترى لنفسه إبلا ، وماعزا وأغناما ، كما كان على استعداد لشراء ناقتى العجوز ، ويدفع فيها المبلغ الذى حددته أنا ، وهو سبعة ريالات ، على أن يقوم بذبحها عتقا لوالده المتوفى – البدو يعملون بالجندية ، هذه المسألة كانت تشكل لى عالما جديداً ! ومع ذلك ، فقد بلغنى فى مرحلة لاحقة ، أن هناك بعضا من البشر

وبعضا من أفراد قبيلة حرب يعملون ضمن العجيل (فريق النقل) في المدن الكبيرة . كان البدوي ، الذي رأى في الغريب حياة المدينة الدمشقية ، يسعد وينشرح صدره ، عندما يدردش طويلا مع الغريب ، حتى وإن كان ذلك الحديث مقصورا على ذكر أسماء الأسواق والشوارع في تلك المدينة الواسعة الشاسعة . أبلغني ذاك البدوي أنه سوف يحضر ثمن الناقة في الصباح؛ و أضاف ، أنني إذا ما بقيت قليلا معه في هذا المكان ، فإنه سيكون على استعداد لإرشادي في رحلتي إلى حائل ، التي سوف يتعين عليه الذهاب إليها خلال فترة وجيزة . – ولكن عندما ناداني رفيقي في الصباح وطلب مني الاستعداد للرحيل قبل طلوع الفجر ، لم أتمكن من البقاء مع ذلك البدوي . وعندما التقاني ذلك البدوي ، بعد ذلك في حائل ، لامني لأني لم أنتظره ، وسألني عن ناقتي ، التي كنت قد بعتها بثمن بخس . وقال لي أيضا ، إنهم عندما وصلنا إليهم في تلك الليلة ، جهزوا بنادقهم الفتيلية ليفتحوا النار علينا ؛ ولكنهم عندما شاهدوا الجوالات الكبيرة فوق ناقتي ، وبعد أن سمع صوتي ، عرفوا أنني لم أكن واحداً من البدو ، وأننا لم نكن نشكل نوعا من أنواع الغزو .

عجلنا المسير في الصحراء مرة ثانية على أمل العثور على منزل كبير من منازل الأعراب ، يمكن أن نشرب فيه شيئا من القهوة . والشيوخ الذين تعودوا على خيام القهوة لا يحبون الأيام التي تمر عليهم دون شرب القهوة ، من أيام حياتهم ؛ وسارت الجماعة على هذا الحال ، وهم يدخنون التبغ بلا توقف . وصلنا مع طلوع الفجر ، ونزلنا من فوق راحلاتنا ، وقسمنا أنفسنا إلى جماعتين ، وذهب عسكر هو وجماعته إلى خيمة قهوة الشيخ : تلك هي آداب الصحراء ، التي تقضي بعدم وضع الأعباء كلها على أسرة واحدة . كان هؤلاء الناس من الشُمَّر ، واستقبلونا بكرمهم المعهود . قدموا لنا تمراً ممتازًا (له مذاق ولون غير مذاق ولون تمور قريتي العلا وتيماء) وضعوه أمامنا ومعه سلطانيه كبيرة من لبن النياق (ذلك الشراب المنعش في تلك الصحراء القاحلة) . استدعونا بعد ذلك إلى خيمة الشيخ ، حيث قام هو بنفسه بتصليح القهوة ، ووجهه تعلوه ابتسامات النخوة والشهامة . وعندما سمع ذلك الشيخ أنني حكيم ، طلب مني أن أحضر إليَّ حفيدته المريضة للعلاج . وقلت لأم هذه الحفيدة إننا على سفر ، وأن العلاج الذي سأعطيه لابنتها قد لا يفيدها كثيرا . وهنا استدار الشيخ إلى رفاقي وقال لهم :

"أنني لابد أن أكون شخصا أمينا ." – "رد عليه عسكر : هذا حقيقي ، ويجب أن تثق به في كل شيء ." ناولني الشيخ سلطانية الحليب، وبعد أن شربت منها جرعة ، سألني، "من أي بلد أكون ؟" ورددت عليه : "أنا إنجليزي" ، وعليه همس في أنني قائلاً : "إنجريز ! Engreys – إذن أنت نصراني ؟" وهنا قلت له بصوت عالٍ : "إي ، بالله !" وهنا ابتسم لي الشيخ من جديد ، وقال في نفسه ، "لن أخونك ."– وبعد أن انتهى من تصليح القهوة ، صب لي أنا فنجالاً ، قبل أي واحد من الباقين . وبعد أن شرب رفاقي الفنجال الثاني ، نهضوا واقفين استعجالا للرحيل : طلب الشيخ مني الانتظار بعض الشيء ، كي أشرب المزيد من حليبه الطيب واستعيد في داخلي بواعث القوة .

واصلنا مسيرنا شرقا في تلك الصحراء الجرداء ، مخلفين وراءنا منطقة المسْمَة Misma ، ونرى عن يميننا بعض العلامات الأرضية الجبلية المعروفة الدالة على ذلك المسقى الكبير الذي يطلقون عليه اسم بيثة Baitha النثيل Nethil . وربما نكون قد واصلنا مسيرنا راكبين من خرُام kharram إلى مدينة حائل في الجهة الشرقية من جبل أجا Ajja (*)؛ ولكن المرافقين لي كانوا يظنون أن ذلك المكان خالٍ من البدو المترحلين . هذا السهل الواسع المرتفع ، – الذي يصل ارتفاعه إلى ما يقرب من ٣٨٠٠ قدم ، تنتشر فيه الأصداف كما لو كان مكونا من أحجار الحديد ؛ ولكن قبيل الظهيرة اكتشفت أننا كنا في منطقة من أحجار الجرانيت ، ومررنا من تحت جبل صغير من البازلت اللامع ، أسود اللون . كانت القمم الصخرية البارزة من تلك التربة رمادية اللون مثل الجرانيت ؛ هذا هو جبل إبران Ibran الذي يميل لونه إلى السواد ، نراه بعيدا عند الأفق ، على بعد مسير ساعات عدة من هنا ، ويمتد في اتجاه الشمال . وبعد فترة وجيزة دخلنا في رمال النفود ، حيث شاهدنا فيها العلف البرى ، وهنا نزل البدو عن دوابهم ليجمعوا شيئا من ذلك العلف . كان الهدف من ذلك هو إطعام المواشي إلى أن يستعدوا لدخول حائل ؛ هذه المنطقة المجاورة لحائل ويطلقون عليها اسم المحال Máhal ، عبارة عن تربة جرداء ولا تقل كثيرا عن المنطقة المجاورة لقرية تيماء . مسألة جمع العلف هذه لا تليق بشيخ من الشيوخ الكبار : وبينما كانت بقية

(*) أجا : أحد جبلين يتكون منهما جبل شمر وهذان الجبلان هما أجا وسلمى . (المراجع)

الجماعة مشغولة في جمع العلف ، كان عسكر يحفر بيديه في الرمل ، لكي يختبر العمق الذي تقع عنده مياه المطر ؛ وهذا العمل هو أهم الأعمال التي يقوم بها البدو لحين مجيء فصل الخريف التالي ؛ كما أن هذا الماء هو الذي يساعد على نمو الأعشاب الجديدة . كانت الأمطار قد سقطت غزّيرة على تلك المنطقة طوال ستة عشر يوما؛ ومع ذلك لم نشاهد في تربة هذه الصحراء الجرداء أية بادرة من بادرات النباتات الجديدة . وعندما وصل عمق الحفر إلى ما يقرب من ذراع واحدة ، تناول عسكر شيئا من التربة الجافة ؛ هذا يعني أن رطوبة المطر لم تصل إلى عمق ياردة واحدة ! هذا يعني أيضا أن الأمطار الموسمية تعد مسألة جزئية أو فرعية في الجزيرة العربية ، التي تعد هذه المنطقة منها ، واحدة من المناطق التي لا تسقط عليها الأمطار . فبينما سقطت الأمطار في منطقة خرّام ، نجد أنها لم تسقط على منطقة جهينة ؛ ولم تسقط على خيبر سوى أمطار قليلة جداً ، وخيبر تبعد عن هذه المنطقة حوالي مائة ميل ، الأمر الذي جعل هذه المنطقة لا تعرف الربيع في تلك الجبال البركانية في ذلك العام .

بعد أن قطعنا مسافة قصيرة في صحراء النفود ، شاهدنا قطيعاً من الإبل يتحرك أمامنا في المرعى ، وأفراده متفرقين هنا وهناك ؛ ومن خلف ذلك القطيع شاهدنا خيام البدو منصوبة في تجويف من تجاويف الأرض المحيطة بهم . والبدو ، عندما يخيمون في مجموعات صغيرة ، يختارون أو ينتقون المناطق المنخفضة ، حيث يكونون في مأمن من غوائل الطقس ، يضاف إلى ذلك أن البيوت يصعب تمييزها في ضوء النهار عندما تقام في مثل هذه المنخفضات ، إضافة إلى أن النيران التي يشبها هؤلاء البدو في المساء ، يصعب أيضًا تمييزها أثناء الليل في تلك المناطق المنخفضة . هؤلاء البدو ، هم أيضا من الشُمُّر ؛ لأن هذه القبيلة تحتل المنطقة التي تمتد من أمامنا هنا إلى أن تصل إلى قرى الجبل Jebel ؛ - هؤلاء البدو كانوا منتشرين على شكل عائلات ، كما لو كانوا يعيشون في بلد آمن داخل ممتلكات الأمير ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البدو كانت تحيط بهم آبار المياه من كل جانب . جحافل أسراب الذباب في هذه المنطقة الرملية كانت تشير إلى أننا في مستوطنات النخيل . كنا كلما وصلنا خيمة من الخيام ، نجد الأعراب يسألونا على الفور ، وبفضول شديد : "ماذا عن المطر ؟ هل سقط الغزير منه على ديرة العوّاجي؟" وكان رفاقي يجيبونهم إجابة واحدة قائلين "لا la تنشد tanshud"،

بمعنى "لا تسألوا عن مسألة المطر هذه." وعندما كان أحد يسألهم ، "من هو ذلك الشخص الذى أحضروه معهم ؟" كان العوّاجي يردون عليهم ، بإجابه لم أفهم معناها ، إذ كانوا يقولون لهم : "الخير El-kheyr الله Ullah . " كان شيخ هذه المنطقة على استعداد لشراء ناقتي ، وأعرب عن استعداده لتوصيلي بعد ذلك إلى حائل بعد أيام قلائل أنزل خلالها ضيفا عليه .

خطر ببالي تمضية الليل في هذه المنطقة ؛ ولكن رفاقى بعد تناول العشاء ركبوا إبلهم وبدءوا يجرون من جديد ومعهم رفيقى نصر ؛ هذا يعنى أنهم لم يتوقفوا ولو للحظه واحدة حتى أبيع الناقة . - وهنا آثرت الرحيل مع أولئك الذين أعرفهم ، وبالتالي أكون واثقا من الوصول إلى حائل ، على البقاء في خيام بدو لا أعرفهم ولا يعرفوننى ؛ يضاف إلى ذلك ، أننا علمنا خبر وجود مخيم شمّرى كبير على بعد مسافة قصيرة ، فضلا عن وجود شيخ من شيوخ القهوة . وعد عسكر بتسليمى إلى أولئك الأعراب ، إذا ما استطاع إقناع رفيقى بالبقاء معى . لقد أتعبنى وهدنى ذلك التنقل المتعب على ظهور الإبل : إذ كان قلبى يقفز إلى حلقى فى معظم الأحيان ، وهذا هو ما يطلقون عليه هنا اسم "قطو katu القلب el-kalb" أو إن شئت فقل : "قطع القلب" . كانوا يسبقوننى طوال ساعات اليوم ، وهم يستحثون إبلهم على السير ، إلى حد أننى كنت أرى أن الموت - فى حال عدم توفر النية الحسنة - هو الخلاص الوحيد من كل تلك الآلام التى أكابدها. كان الأعراب ينصبون خيامهم فى الجبل المجاور ؛ ولكننا بعد أن أمضينا ساعتين فى المسير أثناء الليل ، وعندما لم نشاهد آثار النيران التى يشبها أولئك الأعراب ، خطر ببالنا أن بدو العوّاجي ، على حد قولهم ، ربما يكونون قد بدءوا الرحيل أثناء الليل ، حتى يصلوا إلى حائل فى ساعة مبكرة. هذا يعنى أنهم لابد وأن يكونوا قد تخلوا عنى، وبالتالى لم أتمكن من المضى قدما فى ترحالى ، بل إن ناقتى كادت تموت من تحتى : وبالتدريج راح عسكر الذى كان يغالبه النوم ، يتمتم لرفاقه قائلا : "هيا بنا ننزل عن دوابنا وننال قسطا من النوم ." وهنا أبصرنا عن بعد نارا من نيران الحراسة فى الجانب الأيمن ، تلك النار كانت مستورة عنا بفعل انحناء فى سطح الأرض ؛ ولكن الجماعة لم تلق بالا لتلك النار ، نظرا لحلاوة النوم فى تلك اللحظة : نزلنا عن إبلنا ، وربطناها من أرجلها، ورقدنا، إلى جوارها، لننال قسطا من الراحة فى تلك الصحراء .

بعد أن سرنا في الصباح مدة تقل عن ساعة من الزمن ، وعند شروق الشمس ، شاهدنا عددا كبيرا من الخيام السوداء ضمن مخيم من مخيمات البدو ، ذلك المخيم الذي وعد بدو العواجي بأن نحصل فيه على قسط من الراحة : ولكنهم كانوا فور الانتهاء من شرب القهوة ، وبعد أن يأكلوا شيئا من تمر الشمر ، يبادرون إلى ركوب إبلهم من جديد . من هنا أرى أن الوعود التي يقطعها البدو على أنفسهم تذهب أدراج الرياح ؛ يضاف إلى ذلك أن رفيقي ، ذلك الجلف ، لم يكن يعير كلامي انتباها ، إضافة إلى أن عسكر نفسه لم يستطع إقناعه بذلك : قال عسكر : "والله ، أنا ليس لي عليه أية سلطة" ؛ وصاح نصر قائلا: "يا خليل ، عليك أن تختار بين البقاء هنا أو الركوب معنا ؛ ولكني سوف أذهب ضمن جماعتي ."لم يكن أمامي ، سوى الانضمام إلى ذلك السباق معهم ؟ وهذا بحد ذاته يسبب لي ألما ، إضافة إلى أن ناقتي كانت على وشك الانهيار من تحتي . أثناء مضينا قدما ، "قال عسكر : واضح أن خليل لن يصمد معنا ؛ هل بوسعك العودة مرة ثانية إلى المخيم يا خليل ؟ ولا تظن أنهم سوف يرفضون استقبالك."– "كيف يستقبلوني ؟ لقد كذبتم عليهم في القهوة ، وقلتم لهم إنكم لستم من بدو العواجي ، إضافة إلى أنكم لم تركوني عندهم : وماذا يمكن أن يحدث لو علموا أني نصراني ؟ يضاف إلى ذلك ، أن هذا النصر ، الذي هو رفيقي ، يتخلى عني!" – "قالوا: إننا سوف نصل اليوم إلى مستوطنة من المستوطنات ، وسوف نتركك فيها ." كنا قد نسينا أن نشرب عندما كنا في المخيم ، وواصلنا سيرنا ونحن عطشانين ، وازدادت حرارة الشمس ، وضاع أملنا في العثور على أية بركة من برك الأمطار في تلك الصحراء القاحلة . بعد ذلك ، وعندما شاهد أفراد الجماعة وميضا صغيرا تحت الشمس وعلى مسافة بعيدة ، بدءوا يسرعون الخطى في اتجاه ذلك الوميض ،– ولكن اتضح أن ذلك الوميض كان عبارة عن قاع من الصلصال اللامع البراق ، وفي وسطه ، حفرة ضحلة ، تحاشيناها جميعا . كان ارتفاع هذا السهل يقدر بحوالي ٣٧٠٠ قدم ، وقد بدا لنا وكأنه يمتد من أمامنا في اتجاه جبل أجأ Ajja ، الذي بدأ يظهر من أمامنا كما لو كان جانبا هائلا من جبل جرانيتي كبير ليس شديد الارتفاع ، ويمتد ناحية الشمال وناحية الجنوب أيضا. التربة هنا عبارة عن رمال جرانيتية، وأحجار مستديرة ، وصخور جرانيتية متحللة . وقبل الظهر بساعتين ، تجاوزنا أنقاض "هجرة" hamlet

بجوار أحد الآبار التي هجرها أهلها قبل خمس سنوات . قال عسكر : "نفقت الماشية بعد سنوات عدة من الجفاف ، الذي ترتب عليه انعدام المرعى في هذا المكان ، كما مات أهل هذا المكان ، وكانوا قلة قليلة من الناس ، من مضاعفات مرض الجدري ." - وهذه واحدة من الكوارث والمصائب العديدة التي تحدث لتلك المستوطنات النائية والمنعزلة ، في الجزيرة العربية . وعندما سألتهم عن اسم هذا المكان ، قالوا لي بعد فترة وجيزة : اسمه "ملعون Melûn طالبوه Talibuhu " ، ومبلغ علمي أن هذا الاسم يعني "ملعون كل من يسأل عن هذا المكان ."

عثرنا على بركة من ماء المطر الرائق في الصخر ، وقد سخن ماء تلك البركة بفعل حرارة الشمس ، ومع ذلك كان طعمه أحلى في أفواهنا من طعم الحليب . وروينا ظمأنا من تلك البركة ، واقتدنا دوابنا للشرب منها ، بعد أن قطعت مسافة مائة وثلاثين ميلا دون مرعى أو ماء ، وذلك بدءا من تحركنا من منطقة خرّام . ركبنا راحلاتنا ، وراح بعض من رفاق عسكر السابقين يجمعون قليلا من العشب الجاف، وهنا قال لي عسكر: "يا خليل ، الناس الذين نحن بصدد الذهاب إليهم من النوع الحسود . لا تهيئ لهم فرصة مشاهدتك وأنت تكتب أو تدون ، وتأكد أنهم لن يأخذون ذلك على محمل حسن ؛ وإذا كان لابد من الكتابة ، فحاول أن تكتب بطريقة مستترة ، وعليك أن تخفي أوراق الكتابة هذه . وبذلك تكون بصحبة البدو ، وأن البدو يعرفون حقيقتك ؛ ولكن ، هل سمعت ووعيت ما قلته لك ؟ هؤلاء البدو ليسوا طيبي السرائر أو حسني النية ، وبخاصة في القرى البعيدة !" سرنا مدة ساعة ثانية أو ساعتين وبدأت تطالعنا قمم النخيل الخضراء ، أسفل الجبل ، في قرية صغيرة ، قالوا لي إنها حوالي خمس أو ست عائلات ، وأن اسم هذه القرية هو "الجفيفة" Jefeyfa . وفي اتجاه الشمال شاهدت جبل طالي Tály ، ذلك الجبل الجرانيتي الفريد الذي يقع عند أفق تلك الصحراء . كانت جماعتي ، التي كانت تسبقني دوما بمسافة كبيرة ، قد اختفت عن بصري تماما . تركتهم وشأنهم ، لم يكن بوسعي مسايرتهم أو مجاراتهم في السير ، ولم يكن يراودني أي شك ، في أنني سوف أصل إلى المناطق المأهولة بالسكان عن طريق تلك العلامات الأرضية المعروفة . في هذه المنطقة نزلت إلى مدق مطروق ، - هذا المدق تكوّن في تربة الصحراء الصلبة ، وبالقرب من المستوطنات التي تقع على الطرق العامة ، بفعل حركة

أجيال كثيرة من البدو الرحل. في هذا المدق نزلت عن ناقتي ورحت أمشي على قدماي ، خلف ناقتي التي كانت بطيئة الخطى بسبب الإعياء الشديد الذي أصابها ، وواصلت السير إلى أن وقع بصرى على أعراف النخيل ، وعلى خطوط المزارع الخضراء في قرية مجوج Mogug . وفي النهاية أبصرت نصراً قادما من بعيد لملاقاتي . ومع بداية دخولي إلى ذلك المكان سقطت ناقتي على الأرض ، الأمر الذي عطلنا وأخرنا بعض الشيء ؛ ولكن نصر رفع الناقة ، وراح يقودها بقسوة عن طريق الضرب ، ودخلنا قرية مجوج Mogug بعد دخول وقت الظهر بساعة ونصف الساعة .

دهشت عندما وجدت أن القرية مليئة بالأنقاض ، وأن الكثير من نخيلها كان ميتا وجافا ، إلى أن عرفت أن قرية مجوج Mogug (ويصح فيها أيضا "مكوك" Mokouk) قد دمرت بفعل الطاعون منذ سنوات قليلة . بناء مساكن هذه القرية ليس من قبيل المباني المقامة من الطوب اللبن التي شاهدناها في قرية تيماء ، ولكنها هنا عبارة عن جدران مبنية على شكل طبقات من الطين ، المحشُّى بطوب مجفف في الشمس ؛ والتربة في هذه القرية من النوع الجرانيتي . وقد ذكرني الشكل المتداعي لهذه القرية ببعض الواحات التي سبق أن رأيتها في الصحراء الجزائرية . والماء الجوفي في هذه التربة من النوع الدافئ ، كما هو الحال في سائر أنحاء الجزيرة العربية ، وطعم الماء هنا غير مستساغ ؛ والموقع هنا يوحي بالمرض ، والتمور في هذه المنطقة عليها قشور ، وجافة وليست جيدة الطعم . اتجهنا صوب قهوة الشيخ ، التي كان رفاقي قد سبقوني إليها ، والتقينا ذلك الشيخ الطيب الذي هم واقفا لمقابلتي . وأخذني الرجل من يدي ، وطلب من خادمه أن يقدم علفا أخضرا لإبلنا . وبعد أن جلسنا في المقهى دخل علينا كثير من القرويين ، الذين تدل وجوههم على إنهم ربما كانوا عسكرا من قبل ، وراحوا ينظرون إليّ نظرة فيها شيء من التفضيل والتبجيل . وبعد أن أصبح كل شيء على ما يرام، عرضت على الشيخ النزاع الذي دار بيني وبين نصر ، وأيدني عسكر فيما قلت ، إذ وافق على أن ناقتي لم تكن تقوى على المضي قدما بسبب بطئها وضعفها .

الأدهى من ذلك أنهم يودون حاليا ركوب راحلاتهم ، ومواصلة المسير أثناء الليل على أمل الوصول إلى حائل قبل طلوع النهار . "قال نصر : إنه سوف يرافقهم ، وأنني إذا لم أكن قادرا على مرافقتهم فسوف يتخلى عني ويتركني في هذا المكان ." وقضى

شيخ المجوج بأنه طالما كانت الناقة عاجزة عن مسايرة بقية النياق في السير ، فإن نصر ، الذي حصل على أجره نظير مرافقته لي ، يتعين عليه البقاء معي ، أو ترك جزء من أجره يسمح باستئجار رجل آخر يقوم بمرافقتي إلى حائل ، وهنا يصبح من حق نصر الانصراف ومرافقة بقية الجماعة. هذا الجلف، بعد أن سمع الحكم الذي قضى به الشيخ ، آثر البقاء معي ، مخافة أن يدفع ولو قرش واحد من المبلغ الذي حصل عليه . وهنا نهض عسكر هو وجماعته ، بعد أن فرغوا من أكل التمر وشرب الماء ، ليركبوا إبلهم مواصلين مسيرهم إلى حائل ، هذا الطريق الطويل من خُرام ، قطعوه وهم يجرون ، ولم يحملوا معهم طعاما أو ماء ، أو قهوة : كانوا يعلقون آمالهم على أمل العثور على الأعراب في كل الأيام وعلى امتدادها ، وهم في طريقهم إلى حائل . كان أفراد الجماعة كلهم من الشباب الذي يجري في عروقه دم الشباب ، وقاموا بهذه الرحلة وهم يتفاخرون بقدرتهم على التحمل والجلد . سألت عسكر عن الأسباب التي تدفعهم إلى مثل هذه العجلة ، وعن السبب الذي يمنعهم من أخذ قسط قليل من الراحة في أي مكان من الأماكن . أجابني : "السبب هو رغبتنا في العودة إلى ديرتنا على وجه السرعة ؛ إضافة إلى بقائنا لفترات طويلة في المنازل الموجودة ، على طريقنا ، يعد أمراً معيبا (Ayb) وغير مرغوب فيه ." وبعد أن أنصرفوا وتركوني أنا ونصر وراءهم ، سارع القرويون الذين كانوا يجلسون في القهوة – وكانوا من الشُمَّرْ – إلى توجيه اللوم إلى هؤلاء الرفاق ووصفوهم بأنهم عنوز (أي من قبيلة العنزي) . ! هذه الأحقاد الضيقة كانت تلاحقني في معظم الأحيان ، نظرا لأني كنت أتجول ، بلا محاباة ، خلال الجزيرة العربية الشاسعة .

شاهدت أول ما شاهدت في هذه المنطقة السلع البغدادية ، التي جرى جلبها من السوق في مدينة حائل : أهل قرية مجوج ، ليسوا ممن يشعلون غلايينهم باستعمال الزناد ، وإنما باستعمال "الزند هولزر" Zundholzer الفينيٌ Vienna المعروف في كل أنحاء العالم ، – هذا يعني أننا أصبحنا على صلة بالعالم من جديد : صالات القهوة عند أهل مجوج ، كانت صالات معتمة ورديئة البناء ، فضلا عن إنها كانت أقل كرما وضيافة عن غيرها من المقاهي التي في المناطق الأخرى ؛ يضاف إلى ذلك ، أن أرضية المقاهي الطينية كانت مغطاة في بعض مناطقها بنوى التمر ، الناتج عن الخدمة اليومية

التي يجري خلالها تقديم التمر للضيوف كل يوم . كان القرويون في مجوج أصحاب نكتة لطيفة ؛ وكانوا يحسون بسعادة عندما يتحدثون مع الغريب ، وذلك في ضوء معرفتهم القليلة بالبلدان الأجنبية والأديان الأجنبية : كان أهل مجوج يشعرون بالحزن والألم نظرا لأن الوثنيين ما زالوا يقاومون الحقيقة ، وبخاصة النصارى منهم ، الذين كانوا يشكلون منبعا من منابع الفنون والعلم . كانوا يقدمون لي ، بين الحين والآخر ، غلايينهم رمزاً للسلام . عرفت أن النكهة المرة التي لتبغهم الأخضر ، بعد هذا التعب الشديد الذي أصابني ، كانت لها حلاوة لا مثيل لها ، يضاف إلى ذلك أنني شعرت بارتياح شديد مع تلك الأصوات المتمدنة ، وذلك من بعد الحقد والكراهية الشديدة التي يلمسها الإنسان في ألسنة بدو البشر . سألني واحد منهم . "هل أستطيع القراءة ؟"- وهل لدى أي نوع من الكتب ؟" كان ذلك الرجل من أهل مجوج ، بل إنه كان في مقام الناظر بالنسبة لهم . وهنا وضعت في يدي ذلك المجوجي كتابا جغرافيا ، ألفه باللغة العربية ، واحد من المبشرين الأمريكيين المتعلمين والموجودين في بيروت . وراح ذلك الشاب يطيل النظر إلى ذلك الكتاب في غرفة مظلمة ، على نحو يوضح مدى تعطش مثل هذا الإنسان إلى معرفة القراءة والكتابة ، كما لو كان في أرض أثمرت الكثير من مجالات العلم الكبيرة : أخيرا لم يغلق ذلك الرجل الكتاب ، إلا عندما بدأت الشمس في الغروب ، ولم يكتفي ذلك الرجل بغلق الكتاب ، وإنما وضعه على رأسه ليوضح بذلك مدى تقديرة وإجلاله للعلم ، - تلك كانت إشارة شرقية ، لم تتكرر ولم أرها مرة ثانية في الجزيرة العربية ، حيث لا يوجد سوى القليل (أو لا شيء على الإطلاق) من "الاستشراق" Orientalism . سألني الرجل ، "هل أسمح له بشراء الكتاب ؟ - (ونظرا لأني رفضت بيع الكتاب) هل يمكن له أن يستعير الكتاب ويذهب به إلى بيته ليقرأه وينهيه أثناء الليل ؟" ووافقته على ذلك .

أدخل القهوة علينا رجل طويل ، واكتشفت أنه غريب من أهل الشمال ، وله مشية توحي بالتباهي ، ويلبس ثيابا جيدة . وحيا ذلك الرجل الجماعة تحية باردة ، ثم جلس بيننا : جاء هذا الرجل إلينا من قفار Gofar التي كان قد وصل إليها في صباح ذلك اليوم . قدموا له التمر ، وعندما نظر إلى من حوله ، تذكر من بين الجالسين واحدا أو اثنين ، سبق له أن تقابل معهما في سنوات سابقة ، وحياهما ، ثم نهض من مكانه ،

وقبلهما وسألهما عن أحوالهما . كان ذلك الرجل شمريًا من أهل العراق ؛ كانت ديرة الشمُّرى تبعد عن هنا مسافة ٢٥٠ ميلاً . أطال ذلك الرجل النظر إليَّ في شيء من الحسد والغيرة ، بينما كنت أطرح غترتي إلى الخلف بسبب الحر ، ثم تساءل : "من يكون ؟ – إخ ! تقول ، نصراني ! لقد عرفت ذلك : هذا واحد منهم ، يا أيها الناس ! واحد لديه مشروع خطير ، وأنتم لا تستطيعون أن تتبينوا ذلك المشروع ؛ هذا الرجل من الأمة الافرنجية !" فرددت عليه قائلا : "كل الحاضرين هنا يعرفون أني إنجليزى ، وهل ينبغي أن أخجل أو أشعر بالخزى من جراء ذلك ؟ أى رجل أنت ، ولماذا جئت إلى هذه المنطقة ؟" – "أنا قادم إلى حائل لأمر يتعلق بالأمير ! – قال : والله ، ثم استدار إلى الجماعة ، لا يمكن لهذا الرجل إلا أن يكون جاسوسا ، واحد من أولئك الذين يحضرون إلى هنا لكشف أمور هذه البلاد والتجسس عليها ! خبروني بما جاءكم عن هذا الرجل ؛ خبروني إن كان يسأل الأعراب ، ثم يدون ما يقولون ؟" – قال أحد القرويين : "قبل عدة سنوات ، جاء واحد إلى هنا ، كان غريبا ، ولكنه كان يتسمى باسم مسلم ، ويمكن أن يظن أنه كان رجلا مثل خليل ، وأن ذلك الرجل كان يدون كل ذلك الذى كان يسأل الأعراب عنه ."

جلس القرويون دون أن يعيروا كلام نصر اهتماما كبيرا (كان اسم ذلك الرجل أيضا "نصر") ، نظرا لأنهم لم يعجبهم كلام ذلك الرجل الشمالي المتعالي ، ولا نظراته التي توحي بالكبْر ، يضاف إلى ذلك أن أولئك القرويين كانوا مقتنعين بي تمام الاقتناع . ورد الشيخ على ذلك النصر قائلا : "إذا كان هناك أى لبس فيما يتعلق بخليل ، فهو ذاهب إلى حائل ، وعندها سينظر الأمير في الأمر ." وعندما أدرك نصر أن الجماعة كلها كانت ضده ولا تؤيده ، راح يتنازل عن نظراته العدائية وبدأ يتحدث معي بطريقة ودية . وعند حلول المساء دعونا للذهاب إلى بيت من بيوت القرية ؛ ووضعوا أمامنا عشاءً كبيرا ، عبارة عن لحم ضأن مسلوق ومعه التمن (نوع من الأرز) ، وتناولنا الطعام سويا .

أبلغني نصر أن الخيول الشمالية متوفرة في ديرته ؛ كما قال : إن لديه خمسة أفراس ، بالرغم من أنه ليس واحداً من الشيوخ ، وقال إن لديه عددا كبيرا من الإبل ؛ والسبب في ذلك أن صحرائهم لا تشبه هذه الديار الجنوبية الجوانية ، وإنما هي مليئة

بنعم الله. ولما رأى لباسي باليا وممزقا – فأنا أحيا حياة الصحراء هذه منذ مدة طويلة – نصحني بارتداء ملابس أفضل من ملابسي هذه ، عندما أمثل أمام الأمير في حائل ، كما نصحني أيضا أن أكون حريصًا تماما في عدم إعطاء أي سبب ، حتى ولو كان مجرد كلمة ، تُفْهمُ بطريق الخطأ ، من قبل أولئك الناس المتشددين العنيدين ، سريعي الغضب ، ولا يألفون رؤية الغريب أو يرتاحون لها [وهذا هو مكمن الصعوبة في الترحال في الجزيرة العربية] . وهنا سمعت ولأول مرة في نجد "التنوين" في نهاية الأسماء حيث ينطقونها كما لو كانت نكرة ، وهذا يبدو كما لو كان حلاوة مستترة في اللغة العربية، ولهذا النطق مذاق خاص ولكنه أمر طبيعي عند هؤلاء الناس. أطبق علينا المساء شديد الحرارة بعاصفة من البرد والمطر؛ كانت تلك الأيام تصادف الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر . وقرية مجوج الصغيرة هذه لا يزيد عدد سكانها عن ١٥٠ نسمة .

بقينا في الصباح في تلك القهوة انتظاراً لشرب القهوة ؛ ثم سرنا مسافة نصف ميل من السهل ، المكون من صخور جرانيتية زرقاء وحمراء اللون ، لنصل بعد ذلك إلى الأجناب المنحدرة من جبل أجا Ajja ، وشاهدت أمامنا مجازا (ممرا) في شق مُوصلٌ إلى منتصف الجبل ، طوله حوالي ثمانية عشر ميلاً طوليًا ويؤدي إلى السهل الموجود في الخلف ؛ والناس يطلقون هنا على هذا الممر اسم "ريع Rīa السَلّف es-self ." هذا الممر منحدر ووعر في بدايته : وعند حوالي الساعة التاسعة مررنا بعين من عيون الماء البارد ، التي كانت تنبع من صخرة فوقها ! – ولم أرى مثيلا لتلك العين بعد ذلك في الجزيرة العربية الخالية من الماء . ملأنا قربتنا من تلك العين ، وتجرد العرب من ملابسهم وراحوا يستحمون في مياه تلك العين ؛ – هؤلاء البدو الرحل ، عندما تتهيأ لهم فرصة العثور على الماء ، تراهم يندفعون إليه مثل العصافير . وعلى مقربة من تلك العين يرى الرائي أساسا جدرانيا لسد من السدود القديمة ، كما يوجد أيضا بعض النخيل في خليج جبلي ؛ هذا النخيل مملوك للبدو لكنهم لا يهتمون به أو يقومون على أمره ؛ يبدو أن ذلك النخيل كان يحظى في الماضي ، بشيء من الرعاية . كان ارتفاع ذلك الريع Rīa في أعلى أجزائه يصل إلى حوالي ٥١٠٠ قدم .

انضم ، في السهل، إلى جماعتنا بدوي مسكين، جاءنا راكبا حمارا، وراح يرافقنا في السير ، وانشرح صدره عندما قدمت له حفنة من تمر تيماء ليجرح بها صيامه ،

أو إن شئت فقل : ليقطر بها . وبعد ذلك ، وعند منعطف في الصخر ، التقينا ثلاثة من رجال الشُمَّر ذوى الملامح غير المريحة ، جاءوا إلينا على عجل وفي أيديهم السلاح . بقي هؤلاء الناس معنا ؛ وبينما وقفنا معهم ، كما هي عادة العرب ، لسماع وتبادل الأخبار ، نظروا إليّ نظرة عداء . وعندما فهموا ، وربما كان ذلك من بعض رفاق عسكر الحاقدين، أن النصراني جاء ليمر اليوم من خلال ذلك الريع Rîa ، خطر ببالهم ، أو عنَّ لهم الاعتداء عليَّ . وعندما تأكدوا أنهم أصبحوا إلى جوارنا تماما ، قالوا لراكب الحمار ، الذي كان ينتمي إلى قبيلتهم ، "ارجع أنت ، واتركنا نحن نقتله !" وكشروا عن أنيابهم تكشيرا شديدا ، ثم تجاوزونا . "(قال عسكر) هل رأيت ما حدث يا خليل ؟ - وهذا هو ما قلته لك من قبل ، هذا هو خطر السفر منفردا خلال هذا الجزء من البلاد ! هؤلاء هم الشُمَّر الملاعين ، ولو كنا لوحدنا لهاجموك واعتدوا عليك . - الله يلعن الشُمَّر!" - "ألم نحظى بكرمهم في الأيام الأخيرة ؟" - "حسن ، أقول لك إنهم طيبون وكرماء مع الضيف في بيوتهم ، ولكنهم إذا ما التقوا رجلا منفردا ، أو "خلوي" Kh'luy (في الخلاء) على حد قولهم ، وتأكدوا من عدم وجود أحد إلى جواره ، فإنهم يبادرون إلى قتله ! وهؤلاء الذين شاهدناهم كانوا من هؤلاء القتلة ، إنهم شُذَّاب الآفاق والصخور ، يقتلون كل من يجدونه مجردا من الدفاع ."

السلام الوحيد عند الأمير ، والحب لا يسود بين البشر والشُمَّر . ومنذ سنوات قلائل ، أدى النزاع المرير على حقوق استعمال الماء في مسقى رئيسي من مساقي الصحراء ، هو مسقى بيثة Baitha النيثل Nethil ، أدى إلى حدوث الفرقة بين هذين الجارين ، هذا المسقى ، بيثة النثيل ، يوجد داخل حدود قبيلة بشر ، التي لم تطق مجيء الشمر السقيا من ذلك المكان، وكان الأمير طلال يساند البشر في موقفهم هذا . وقد كان ذلك السبب وراء تخليهم عن ديارهم والهجرة صوب الشمال ، وراحوا يتجولون في صحراء أقاربهم العنوز في سوريا ، وبقوا هناك عامين أو ثلاثة أعوام : ولكن كثيرا من الأعداء الغزاة كانوا يسطون على إبلهم ومواشيهم ، نظرا لأنهم كانوا وافدين جدد على المنطقة ؛ - وعاد البشر إلى ديرتهم وإلى الأمير .

- في منتصف ذلك الريع ينحسر الجبل الجرانيتي من الناحية الشمالية ، وهناك أقبية منخفضة من البازلت ، وهذه الأقبية تشبه قمم البراكين . في هذه المنطقة سمعنا

خلفنا أصوات ركض وجرى ، كما سمعنا وقع أقدام الإبل على الصخور ؛ كان ذلك الصوت صادرا عن قطيع من "الأجلاب" Ajlab ، أو إن شئت فقل : الإبل "المشتراة" ، أو بمعنى أخر قطيع من الإبل مملوك لواحد من تجار أو سماسرة الإبل . كان حداة ذلك القطيع متوجهين به لبيعه في "جبل شمُر" . كان أولئك الحداة من البشر ، ولذلك انتهت مخاوفنا وزالت عندما أصبحنا في صحبتهم . ناداني واحد من أولئك الحداة ، "أليس معك شيئا من الكعك (البسكويت الدمشقي) لتعطيني إياه ؟ وكنت طوال ذلك اليوم لم أتناول أي شيء من الزاد ." كان الوقت في أواخر فترة العصر عندما بدأنا التحرك من جديد ، وعندما رحت أنظر إلى سهل قفار في الأسفل ، وجدت أن اخضرار الواحة وبخاصة نخيلها أصبح أمامنا وعلى مقربة منا . كانت الشمس تغرب ، وأراني نصر الجبل البازلتي ذي القرنين ، الذي يطلقون عليه اسم سُمْرة سميراء حائل ؛ وهذا الجبل يقع إلى الخلف قليلا من عاصمة القرية، في اتجاه الشمال . وكلمة قفار Gofar ، التي يكتبونها "كفار" Kafar والتي ينطقها البدو الرُّحل "جيفَّار" Jiffar ، شأنها شأن قرية مجوج يحيط بها سور بستاني من الناحية الصحراوية . وفي السهل الذي يقع أمام تلك القرية وجدت أن الارتفاع يصل إلى حوالي ٤٣٠٠ قدم . ودخلنا من خلال طريق إلى ممر خالٍ ، بين جدران عالية ، ولم نر أي إنسان خلال ذلك الممر ، كما لم نر أيضا أية بيوت في ذلك الممر . كان الوقت يصادف غروب الشمس ، وهو الوقت الذي يعود القرويون فيه لتناول عشائهم . لم نلتقى أحداً سوى امرأة واحدة في ذلك المكان ، – كرهت أنفسنا النظر إليها ؛ نظرا لأن وجه هذه الأنثى كان مغطي بالحجاب ؛ هذا الحجاب في رأينا هو شكل من أشكال السفالة الوثنية الأسيوية ! وهكذا نجد أن أفراد السلالة العربية اللطيفة يتحولون ، في موضوع الحريم ، إلى أجلاف .– واعتبارا من قرية قفار Kafar ، تتحول وجوه النساء ، التي خلقها الله ، لتسر أنظار العالم الإنساني وتشرح صدره ، إلى ذلك الشكل المرعب الغيور ؛ يضاف إلى ذلك ، أن أحداً لا يرى أي شيء من زوجات الرجال في هذا المكان، وبخاصة أنهن يرتدين ملابس مؤسفة ، لا يرى أحد منها سوى أيديهن ! نزلنا من فوق إبلنا بجوار مسجد في منطقة يطلقون عليها اسم "المناخ" Munâkh ، أو إن شئت فقل : مكان تبريك إبل الغرباء ، ويجرى في ذلك المكان نزول الغرباء عن دوابهم واستقبالهم بعد ذلك لتناول العشاء : ومسئولية الكرم

الشعبى [التى تعد مشاعا بين الجميع] هنا تعد مسؤلية كبيرة ، نظرًا لأن الأعراف العربية تقضي برحيل عابرى السبيل فى فترة العصر ، كما أن هؤلاء الذين يفدون من حائل قاصدين الجنوب يتجاوزون تلك المرحلة القصيرة ، ليقضوا الليل فى قرية قفار .

دعينا مع حداة الإبل لتناول العشاء معهم المكون من التمر والماء ، والمعروف أن التمر مهما كانت نوعيته ، لا يقدم للغرباء فى وجبه العشاء . وقدم لنا صاحب هذا العشاء اعتذاره عن تقديم التمر نظرا لغياب رب البيت في حائل . ومعروف أن أهل قفار ، وهم بنى Beny تميم Temim ، لا يشتهرون بالكرم ، الذى سرعان ما لمسناه فى حائل ، التى يسكنها الشمَّر . بدأ رفيقي نصر ، الذى أصبح أكثر انقياداً بعد رحيل بقية الجماعة ، يوجه اللوم للمارة فى الشارع ، لأن أحداً منهم لم يدعونى إلى شرب القهوة والنوم فى منزله ، قائلا : "هل يصح أن يتركوا شخصا محترما يقيم على قارعة الطريق !" بدأ نصر يقسِّم ما لديه من علف جاف بين ناقته وناقتي ؛ ثم صنع بعد ذلك عجينة مكونة من بعض الشعير الذى اشتريته من قرية مجوج " Mogug، وخلط تلك العجينة مع شيء من التمر ، وراح يضع تلك العجينة على شكل لقيمات داخل فم ناقتى المسكينة المرهقة . ثم استلقينا بعد ذلك ، على الأرض ، بجوار ماشيتنا لتمضية تلك الليلة المظلمة التى كانت سماؤها عامرة بالنجوم ، فوق تراب شوارع قرية قفار .

ركبنا دابتينا مع طلوع النهار : وكان من رأى نصر أن نصل إلى حائل فى الوقت المناسب حتى يتسنى لنا تناول الإفطار فى صالة الضيافة ، مع كل من عسكر هو ورفاقه . وأصابتنى الدهشة ، عندما رأيت أن هذا الجانب بكامله من قرية قفار كان مُخربًا وعلى شكل أنقاض ، بأن تحولت تلك الأرض التى كانت من قبل بساتين مثمرة إلى تربة صحراوية جرداء خاوية ، – وتلك هى سيقان النخيل الطويلة ، ما زالت باقية على شكل صفوف ، من النخيل الميت الخالى من الحياة . مررنا ونحن راكبين على ظهور دوابنا بمتاهات كهوفية من طين الصلصال أسفل جدران بيت مهدَّم ، جرى نزع أخشابه منه ، كما مررنا أيضا على مسارات غائرة خاصة بإبل الحر ، فى مناطق الآبار التى هجرها أصحابها . وعندما تساءلت : "ما هذا ؟" أجابنى نصر قائلا : "بلد Beled مات Mat " بمعنى "هذا مكان ميت ." هذا يعنى أن القرويين ، أو إن شئت فقل : أهل هذه القرية ماتوا شأنهم شأن سكان قرية مجوج ، بفعل الطاعون الذى داهمهم

وانتشر بينهم قبل سبع سنوات . أبارهم في تلك الفترة لابد أن يكون عمقها ، في تلك المستوطنة ، أكثر من خمس وعشرين قامة . وبعد انتهاء وباء الطاعون ، وجد ملاك هذه الأرض أنهم غير قادرين على العمل ، مما أدى إلى انسحابهم وتراجعهم إلى الواحة الداخلية .

خلف أسوار قفار البستانية يوجد ذلك السهل الصحراوى شديد القحولة (الذى يطلقون عليه اسم "المحال" Mahal) الذى يجيء قبل مدينة حائل ؛ وفيما بين أجا Ajja وسلمى Selma هذين الجبلين القاحلين توجد تربة حادة من النوع الجرانيتى ، وهى جرداء وبلا حياة شأنها شأن التراب الموجود فى شوارعنا ؛ ومع ذلك هناك بعض الهجر وبعض القرى التى تقوم على عيون المياه الجوفية . والأرض هنا جبلية لا ينبت فيها أى شئ من تلقاء نفسه ، ولكنها إذا ما رويت يمكن أن تنتج الشعير والقمح وبعض الحبوب النجدية الأخرى . وبالرغم من أن النخيل هنا من النوع الطويل إلا أنه يحمل ثمرًا صغير الحجم وحار ، ومن ثم يكون غير صحى . ولم نجد فى هذه التربة أى نبات آخر غير نبات السِّنة ، الذى له زهور تشبه زهور البازلاء . وتلك القلة القليلة من الماعز التى فى هذه القرية يجرى اقتيادها إلى مسافات بعيدة على ساحل جبل أجا Ajja حتى يمكن العثور على المرعى . وبعد ساعتين قال لى نصر : "حائل تبعد عن هنا مسافة قصيرة ، نحن الآن فى منتصف الطريق ؛ والنساء والأطفال ينتقلون فيما بين حائل وقفار فى زمن لا يتعدى وجبة الظهيرة ." هذا يعنى أن الطريق بين حائل وقفار يصل طوله إلى ما يقرب من اثنتى عشر ميلا . ومع ذلك كان طنف الصحراء يحجب عنا رؤية حائل ، – فى كل مكان كنت أرى الأفق قريبا جداً فى الجزيرة العربية التى يسكنها البدو الرُّحل . وهناك طريق مألوف فيما بين هاتين المدينتين ؛ ولذلك التقينا أولئك القادمين من حائل إلى قرية قفار . كان هؤلاء القادمون من الحريم ومن الأطفال ، كما كان من بينهم أيضا بعض الرجال الذين كانوا يركبون الحمير : "(قال واحد ، وثان ، وثالث من هؤلاء القادمين موجها كلامه لنصر) ها ! لماذا أحضرته ؟"– من هنا عرفت أن مجيء النصراني قد ذاع وانتشر في حائل ! وعندما سمع نصر كلامهم بدأ يشعر بالذعر والفزع. "قال نصر، ماذا يحدث لو أنهم أطاحوا برأسه وأعدموه !" – "يا خليل ، أين كيس التبغ ؟ وناوِلْني ذلك الغليون ، لأنى ، قسما بالله ، بدأ رأسى يلف ويدور ."

سرنا بعد ذلك مسافة ميل آخر ، ثم شاهدت بعد ذلك اثنين من الخيالة يجريان نحونا مثيرين خلفهما كثيرا من الغبار . بدأت أتأمل الموضوع وأعمل فيه فكرى وذهنى ، ترى هل هذان الخيالان من رُسُل الأمير القساة ، وأنهما جاءا من حائل من أجلى أنا شخصيا ؟- كان اسم "نصرانى" سُبَّة فى هذا البلد ، بل إن البدو فيما بينهم يقولون : "هل تعدنى نصرانيا ! حتى أفعل ذلك الشىء المشين". وصل الخيالان إلينا وأطبقا علينا بالفعل ، واتجها على الفور نحونا بفرسيهما ، وكانت ملابسهما تتطاير من فوق جسديهما فى ذلك الهواء الساكن ، وصاح أحدهما بصوت عالٍ فى نصر (الذى لم يرد بأى شىء لأنه كان خائفا) قائلا ومتسائلا: "عفش من هذا ، يا أنت ؟" - وأخذا يقتربان مثلما فعلا من قبل ؛ وجلست أفكر مليًا وأنا فوق ناقتى ، ولم أعبأ كثيراً بمن يكونان .

شاهدنا بعد ذلك بناية عالية لها أبراج حربية . كانت تلك الأبراج من الطراز النجدى جيد البناء وهى من الطين، وهى تشبه المنارات التى فى بلادنا ؛ ثم قال نصر ، الذى لم يسافر إلى حائل منذ أيام الأمير طلال : " هذ هو المقر الصيفى للأمير ." وعندما اقتربنا من حائل وجدت أن الجدران تمتد ناحية الخلف ، الأمر الذى يجعل من حائل مسوراً كبير من النخيل . وشاهدت عن يمينى بيارة طويلة من النخيل فى الصحراء ، تحيط بها أسوار عالية ؛ وعن الشمال شاهدت بيارة أخرى تقع داخل الصحراء ، ولكنها أكبر من البيارة التى على اليمين ، وقد بناها عُبيْد لتكون ميراثا لأطفاله . كان برج القصر المطلى باللون الأبيض يبدو كما لو كان معلقا فوق مدينة حائل ، - والناس هنا يطلون تلك المبانى الطينية بالجبس الأبيض . تجاوزنا ذلك المقر الصيفى الذى يقع على جانب الطريق ؛ والناس هنا يقولون : إن هناك قطعة مدفعية صغيرة مركبة فى ذلك البرج . وتوجد أسفل ذلك المقر الصيفى قناة جديدة ، تنساب خلالها مياه الرى إلى خزان عام ، تحضر إليه نساء المدينة لجلب الماء منه . وهذا الماء ، الذى يطلقون عليه اسم "ماء Mà السماء es- Sàma" هو أفضل أنواع الماء فى المدينة كلها ؛ والماء الذى من الآبار الأخرى كلها له مذاق مالح وفيه كثير من الأملاح أو المعادن لاذعة المذاق ." والذى يسبب الحمى (فى كثير من الأحيان)" . نزلنا من فوق دابتينا ، وبناء على طلب منى ، قدمت لى امرأة إناء الماء (المعدنى) الذى كان فوق رأسها ، كى نشرب منه. وهنا تحدث معى نصر وطلب منى عدم ركوب ناقتى مرة ثانية،

وأخبرني أن أمامنا بعض البوابات المنخفضة التي يتعين علينا تجاوزها ، أو أن شئت فقل : المرور خلالها . لم يكن ذلك سوى نوع من الاحتيال من جانب ذلك البدوى ، الذى كان يبدو من خلال سوالفه الطويلة كما لو كان شخصا مُسخ ذئبا . هؤلاء البدو ينتابهم الخوف فى المدن من أن يوجه أى أحد لهم شيئا من الكلام الجارح ؛ يضاف إلى ذلك أن أهل الحضر يسيئون التعامل مع هؤلاء البدو ؛ كان الهدف من دخول حائل سيرا على الأقدام ، هو الحيلولة دون دخول النصراني إليها راكبا ناقته .

واصلت المسير على قدماى فى الشارع الخارجي القصير إلى أن وصلت إلى البوابة (التى تغلق أثناء الليل) الخاصة بالسوق الداخلية في حائل . وعند البوابة رأيت وجه شخص من معارفي كان فى انتظارى ، – هذا الشخص هو عبد العزيز ، الذى قام بتوصيل الفرس الهدية إلى ابن الرشيد ، قبل اثنى عشر شهرا ، حتى وصل بها إلى قلعة الحجر ، حييت عبد العزيز ورد علىَّ التحية ، وسألنى عن صحتى ، وطلب منى الدخول . وسبقنى فى الدخول ، من خلال مجاز آخر ، لكي يوصل الخبر إلى الأمير ، ودخلت أنا من البوابة وواصلت السير خلال السوق (الشارع) العام الذى امتلأ بالحرفيين وبالبدو أيضا فى هذه الساعة المبكرة من النهار ، كما شاهدت أناسا كثيرين فى الدكاكين العربية الصغيرة المظلمة ، وكان الجميع مشغولين فى البيع والشراء ، وعندما وصلنا إلى المكان الذى كان يغص بالرجال والإبل ، لم يلق الناس بالا للغريب أو ينتبهوا إليه ؛ وقلة قليلةٍ من هؤلاء الناس هم الذين اتجهوا نحونا ليعرفوا من نكون ، وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة ، طلع علينا تاجر كان يرتدى ثيابا جيدة ، وله لحية مصبوغة بلون الزعفران ، وأمسك بيدى ، وهو متنكر فى زى عربى ، وابتعد بى خطوات عدة ، ليسأل الغريب بحذر قائلا : "من أين جئت أنا ؟" هناك قلة قليلة من اللحى زعفرانية اللون فى حائل : والمعروف أن عبيد بن الرشيد ، حوَّل فى السنوات الأخيرة من حكمه ، لحيته من اللون الرمادى إلى لون الزعفران ، وهذا هو أسلوب الفرس وهنا يجب القول : إن طالعى الحسن ، أننى كنت رحالاً إنجليزيا فى الجزيرة العربية ، ولون لحيتى هو لون لحى الإنجليز . والأثرياء هنا فى حائل يستعملون الكحل فى تكحيل عيونهم ؛ والذكور من بين هذا الصنف من سكان الجزيرة العربية الذى يتشبه أفراده بالطيور ، هم أصحاب الريش زاهى الألوان وهم أيضا الذين يتزينون ،

وعند نهاية السوق (الشارع) توجد سوق القمح ، حيث تباع فيها أيضا أحمال الحطب ، والعلف البرى الذى يجلبونه من الصحراء ، وفى منطقة منخفضة شاهدت نساءً بائعات محجبات ، تحت مظلة وأمامهن أسبتة ، وتجلسن منذ طلوع الشمس ليبعن التمر والقرع العسلى ؛ كما أن البعض منهن تبعن بعض أشياء الزينة النسائية ، التى يجلبنها من الشمال .

وصلنا بعد ذلك إلى المكان العام مربع الشكل الذى يطلقون عليه اسم "المسهاب" el-Meshab، وهو يقع أمام القلعة ، أو أن شئت فقل : القصر el- Kasr . وتحت المظلة الثانية، المخصصة لفقراء البدو المسافرين، قام نصر بتبريك ناقتى ، على وجه السرعة ، وانزل عنها الخُرُج والركائب ، ثم انسحب بعد ذلك بعيداً عنى، كان هذا البدوى خائفا ، جاء عبد العزيز مرة ثانية قادما من القصر وسألنى عن سبب جلوسى فى ذلك المكان ؟ وجلس هو بدوره إلى جوارى وراح يسألنى عن حالتى الصحية من جديد . بدا عليه أنه كان يضمر خيرا للغريب ، ولكنه كان يخشى الملامة ويخافها ، - ألم يشجعنى هو أيضا على المجيء إلى هنا ؟ تركنى عبد العزيز ودخل من بوابة القصر ، ليتكلم من جديد مع الأمير . وعبد العزيز ، عندما يكون فى الراحة ، يصبح رجلا محترما ، كما كان حازما وغير كريم ، نظرا لان ابن الرشيد يمكن أن ينهى حياتهم جميعا إذا ما شابت نفسه شائبة قليلة ، من هنا كان عبد العزيز يعمل فى خدمة الأمير ، وهناك مكان عام مخصص لعبد العزيز ، فى المقهى الخاص بالأمير فى "المسهاب" el- Meshab ؛ وكان عبد العزيز يجلس فى ذلك المكان المخصص له مع بقية أعضاء الجماعة فى كل مجلس من المجالس . لم ينتبه أولئك الناس الذين كانوا فى الميدان العام (المسهاب) إلى وجود النصرانى بينهم ، وجلست طيلة ثلاثة أرباع الساعة ، فى وسط حائل ؛ - وطوال ذلك الوقت كانوا يتنافسون ويتجادلون حول حياتى ، من خلف أسوار القلعة المبنية من الطين . وخطر ببالى أن الفضول العربى وكذلك الجشع العربى يمكن أن يهيئا لى مهلة من الوقت : كنت ، فى أضعف الأحوال ، آمل أن يجيء واحد من هؤلاء الناس ويستدعينى إلى داخل القلعة لتناول طعام الإفطار ويرحمنى من ذلك الجوع الذى كان يعتصرنى .

كانت هناك في الطرق البعيدة من الميدان العام (المسهاب) قطعان من الإبل الباركة ، تلك كانت إبل أولئك الرفاق البدو الذين كانوا يجيئون يوميا ، من أجل معالجة وتسوية أمورهم مع الأمير ، تجمع حولي، عندئذ ، بعض من هؤلاء البدو ، الذين أصابتهم الدهشة عندما وجدوا الغريب جالسا تحت المظلة . رأيت أيضا شخصية من الشخصيات ، خرجت من بوابة القلعة الموجودة أسفل برج مبنى من الطين ، وكانت تلبس ملابس جيدة ، وتتوكأ على عصا السلطة ، وراحت تقترب منى . كانت تلك الشخصية لرجل اسمه مُفرِّج Mufarrij ، الذى كان يقال له "رجل" Rajul " المُضيف" el-Mothif بمعنى "المسئول عن ضالة الضيافة عند الأمير" ، وهو أجنبى مثل سائر أولئك الذين يقدمون على خدمة الأمير فى حائل . كان ذلك الرجل من بلدة عنيزة فى القصيم (التى هجرها على أثر مغامرة مريعة فاشلة سوف أتناولها فيما بعد) . جاء ذلك الرجل ليطلب من الغريب الدخول لتناول طعام الإفطار ؛ ولكنه اقتادنى أنا وناقتى عبر المسهاب ، وخصص لى مسكنا ، كان عبارة عن آخر غرفة من سلسلة غرف الضيافة ، التى يطلقون عليها هنا اسم "المخازن" Makhzans ، والتى تقع فى الجانب الطويل من الميدان العام (المسهاب) فى مواجهة القصر : ثم اقتادنى الرجل بعد ذلك ، من خلال البوابة ، إلى داخل القصر ، ليوصلنى فى النهاية إلى قاعة القهوة الضخمة ، المخصصة للضيوف ، ولخدمة القلعة الخاصة بالأمير ، فى مثل هذه الساعة – بعد أن تناول الجميع إفطارهم وذهبوا لحال سبيلهم – كانت تلك القاعة خالية من الناس ، ولكنهم أرسلوا فى طلب مُصلِحٌ القهوة . وقد أعجبتنى المكونات الراقية لتلك الصالة المبنية من الطين ، شأنها شأن ذلك القصر الضخم ؛ وهذه هى الجدران والأسوار العالية مدهونة بالجبس ، وهذه هى مجموعة الأعمدة المرتفعة الموجودة فى وسط القاعة ليرتكز عليها ذلك السقف البسيط المكون من أخشاب الإثل (الطرفاء) وشر - ج سيقان النخيل ، والخوص المجدول ، الذى لطخه الهباب والدخان الذى ينبعث يوميا من وجار القهوة . وأسفل تلك الجدران توجد مصاطب مبنية من الطين ومفروش فوقها سجاد بغدادى ، وعند مدخل تلك القاعة يوجد إناء ضخم من النحاس الأحمر ، أو إن شئت فقل "بحر" من الماء ، ومن فوق ذلك الإناء يوجد "كوز" مربوط إلى سلسلة (وتقوم النسوة يوميا بملئ ذلك الإناء من ماء السماء ؛ وهؤلاء النسوة من بين أولئك اللاتى

تعملن في المطبخ) ؛ ومُصلِّح القهوة يأخذ الماء الذي يحتاجه من ذلك الإناء ، كما أنه يسقي منه أيضا كل من يكون عطشانا . في الجزء العلوي من قاعة قهوة الأمير يوجد وجاران من وجارات القهوة ، وهما يشبهان قبرين ضحلين ، حيث يجرى فيهما إشعال الحطب عندما يكون الطقس بارداً ، الناس هنا يفتقرون إلى الحطب ، والنار هنا تشب تحت دلال القهوة العملاقة ، في وجارات من الطين تشبه فرن الحداد . وعلى الفور استدعاني مفرِّج للذهاب إلى قاعة الضيافة ، التي يطلقون عليها هنا اسم "المُضيف" Mothif ؛ وقاعة الضيافة تقع داخل مباني القلعة، وهي مربعة الشكل، وعلى شكل فناء ، ومن فوق ذلك الفناء يوجد رواق ، والضيوف الذين يدخلون قاعة الضيافة يمرون على مدفعية الأمير ، التي تتكون من خمسة أو ستة قطع من المدافع الصغيرة ، وحديد هذه القطع عفى عليه الزمن ، والخشب الذي فيها متآكل ومتهالك .

والبدو يأكلون في الدور السفلي ، في حين يتناول كبار الشيوخ هم ورفاقهم ، الطعام في الشرفات ؛ اقتادني مُفرِّج إلى الدور العلوي ، أو إن شئت فقل : إلى الشرفات ، إلى مكان مفروش فوقه سجادة كان عليها بعض نوى التمر ، جلست في هذا المكان وأحضروا لي تمراً ، - وهذا هو أردأ أنوع التمر في عالم الصحراء - في طبق من المعدن ، عليه كمية كبيرة من التراب المخلوط بالماء ؛ تركوني أكل لوحدي ، ولكني آثرت الانتهاء بسرعة من أكل التمر . هذه هي تحية أي حاكم من حكام الجزيرة العربية لضيوفه في الصباح - إنهم بدو - كما أن النظافة هنا تختلف عنها في معظم قرى الجزيرة العربية ، التي يتوفر فيها الماء . وإلى أن ينادوني للخروج من ذلك المكان رحت أتجول في الشرفات حيث شاهدت يمام العراق المنزلي أبيض اللون وهو يهفهف بأجنحته ، ويبلغ من الألفة حداً جعلني أمسكه بيدي . كان طول كل شرفة من تلك الشرفات التي لها أرضية من الطين يصل إلى حوالي ثمانين قدما ؛ وتلك الشرفات محمولة على خمسة أعمدة مستديرة ومسننة من الأعلى . وعندما ظهر مفرِّج ثانية عدنا إلى القهوة حيث كانت القهوة قد أصبحت جاهزة . ودخل علينا شاب يلبس ملابس لامعة مصنوعة من الحرير ، وراح ذلك الشاب يطرح عليَّ بعض الأسئلة . كان ذلك الشاب يعمل سكرتيرا للأمير ، وكانت كلماته عامرة بالاحتقار والازدراء : "أقول ، إخ !

مـن تكون أنت ؟ - من أين جئت ، ولمـاذا جئت إلى هنا ؟" وهنا أجبته بطريقة البدو ، "يا ولد ، أنا لا أستطيع أن أجيب إلا على سؤال واحد وعلى الفور ! اسمـعنى طلبك الأول : "وأشاح بوجهه متجاهلا كلام ذلك الرجل الحر ، ثم همس لى صوت ودى يقول : "عامله بمزيد من الاحترام، لأن هذا هو نصر Nasr . " وعليه قال ذلك النصر : "انهض! الأمير أرسل فى طلبك :" ثم خرجنا بعد ذلك قاصدين مجلس الأمير .

هناك شرفة طويلة أسفل القلعة المبنية من الطين ، تقع بعد السور الخارجي وتطل على المسهاب (الميدان العام) ؛ مررنا على تلك الشرفة ، وفى المنتصف شاهدنا بابًا مجلدًا بالحديد ، يقوم على حراسته من الداخل عبد شاب حبشى ؛ طرقنا ذلك الباب ، انفتح الباب على فناء داخلى صغير ، يوجد فيه عدد قليل من رجال الأمير المسلحين والمكلفين بحراسة الأمير ، وفى الناحية الجنوبية توجد الغرفة أو إن شئت فقل : المجلس الذى يجلس فيه الأمير . دخلنا فى تلك الغرفة من خلال بابها وكانت شبه معتمة ، نظرا لأن النوافذ هنا ليست سوى فتحة لدخول الهواء ، ولم أشاهد ، فى كل نجد ، أى غطاء زجاجى فوق تلك الفتحات . هذا هو الحاكم محمد - الابن الأصغر لعبد الله بن الرشيد ، الأمير الأول للشمر ، وترتيبه الرابع منذ وفاة والده - يجلس متكئا إلى حد ما على كوعه ، ومن تحته وسائد وثيرة ، ومن أمامه مدفأة ، أشعلوا فيها النار فى شىء من حطب الصحراء . حييت الأمير قائلا : "سلام" Salaam "عليك" Aleyk ؛ رفع الأمير يده اليمنى إلى رأسه ، بنفس الطريقة التى سبق له أن شاهدها فى بلاد الحدود ، ولكنه لم يرد السلام ؛ - لديهم فكرة معادية مفادها أن تحية "الإسلام" ينبغى أن لا يستعملها أحد من غير دين الإسلام ! كانت للأمير سالفتان من الشعر تتدليان على خديه ، اشتهر بجمالهما فى كل أنحاء الصحراء على إنه "شاب ملىء بالحيوية والشباب". كانت بشرته تميل إلى السُّمْرة أو بالأحرى إلى الاصفرار ، نحيف وغائر العينين مثل سائر النجديين ، وهو فى متوسط العمر : وجهه مثل وجوه النجديين ، وملامح الأمير محمد التى تشبه ملامح الطائر توحى بأن ذلك الرجل نجا من كثير من أمراض هذه الدنيا ،- ترى ما هى الاحتمالات السابقة التى جعلت من هذا الرجل أميرا ؟

قال الأمير : " اجلس ! " كان محمد ، الذى عمل مرشداً للحج "الفارسى" فى زمن الأمـراء السـابقـين ، قـد زار مـدن بلاد الرافـدين ، ووقف على أخـلاقـيـات الدولة (الإمبراطورية العثمانية) هناك -- اقتادنى رئيس الحرس إلى المكان المخصص للغرباء، وفى منتصف سجادة طويلة مفروشة بجوار الجدار الطينى ، وفى المسافة التى بينى وبين الأمير ، كانت تجلس شخصية لا أعرفها ، متكئة على بعض المخاد ، كان صاحب هذه الشخصية ، مثلما بلغنى ، من أقارب بن الرشيد ، رجل محترم وقور كبير السن ، ومحياه يدل على الاعتدال. سألنى الأمير: "من أين أتيت، وما هو الهدف من رحلتك؟" – "أنا جئت من تيماء ، ومن الحجر ، وقد جئت أصلا من سوريا لزيارة مدائن صالح ." – "(قال الشيخ الكبير متعجبا) "رجل" Rajul "صدوق" Sadûk والله ! بمعنى "رجل ثقة" . هذا الرجل ليس مثل ذلك الرجل الذى جاء إلى هنا ، ألا تذكر يا محمد العام الذى جاء فيه إلى هنا ، هذا الرجل يقول لنا كل شىء بصدق ووضوح ." الأمير : "وجئتنا الآن من تيماء ، أحسنت ! وما الذى رأيته فى تيماء – ماذا رأيت فيها ؟ هل فيها أى شىء ؟" – "تيماء مكان جميل عامر بالنخيل وهواؤه طيب ." – "ما اسمك ؟" – "اسمى : خليل ." – "ها ! وكنت بصحبة البدو ، أخ ، يا خليل ، وما رأيك فى البدو ؟" – "تقصد الفكارة ، والموءاهيب ، والسَّحَامة ، الذين يعيشون خلف الحرّة ." – "وما رأيك فى بدو الفجير هم وشيوخهم ؟ أليس الشيخ مطلق على ما يرام ؟" – "الفقارة لا يختلفون عن اسمهم ، وجيرانهم يقولون عنهم أنهم يهود خيبر ." إلتقط الأمير كلامى مندهشا ومتعجبا (كما هى عادة أهل الجزيرة العربية) وأعاد ذلك الكلام على الحاضرين : "يقول إنهم يهود خيبر ! حسن ما قلت يا خليل ، وكيف عاملك الأعراب ؟ هل قدموا لك الحليب ، وهل أكرموك ؟" – "حليبهم لا يكفيهم هم أنفسهم ." أمعن الأمير قليلا وأطرق برأسه ونظر إلى الأرض ، لأنه كان قد سمع أننى كنت أتجول مع البدو كى أشرب حليب النياق . "سألنى قائلا : ها ! وماذا عن الموءاهيب ، أهُمْ على ما يرام ؟ وهل طُلَيْجٌ Tollog طيب بحق ؟" – كان الأمير ينتظر منى إجابة بالنفى ، نظرا لأن طلّج كان عدوا قديما ، أو إن شئت فقل : "متمرداً" على أبناء الرشيد . – "كان طلّج رجلا طيبا معى ، وأحسب أنه رجل بدوى محترم . "رد الأمير على ذلك مُهَمْهِمًا : "هم Hmm هم Hmm ! – ومن هو شيخ السَّحَامة ؟" – "مهنا Mahanna وفُضِيل Fothil " . "وكم عدد أسر السُّحامة ؟ "

قال الأمير بعد ذلك متسائلا : "هل لديك شيء (تبيعه) ؟ وما هي صفتك ؟" - "لدى بعض الأدوية ، وأنا حكيم ." - "وما هي هذه الأدوية ؟ أهي الكناكينا(*) Kanakina؟" - "النوع الذي معي من الأدوية الممتازة ." - "وماذا معك غير الأدوية ؟" - معي أشياء كثيرة ، ولكن أسماءها كثيرة أيضا ، معي أيضا شيئا من الشاي Chai الممتاز ، الذي سوف أهديه لك ، يا سمو الأمير !" - "لدينا الشاي هنا ، ونحن نجلبه من بغداد ؛ لدينا الكثير منه ." [قيل لي في مكان آخر بعد ذلك ، - "إن الأمير لن يقبل منك الشاي ، بالرغم من أن ذلك يعد عملا شائنا : والسبب في ذلك أن ابن الرشيد لا يأكل أي شيء أو يشرب أي شيء إلا ذلك الذي يجهزه أو يعده عبد محدد من بين العبيد الذين يعملون في خدمته ؛ وهو يعيش في خوف مستمر من أن يموت مسموما ."] الأمير : "حسن ، وما هي الأمراض التي تعالجها ؟ ألا تستطيع علاج المجنون ؟" (بمعنى الشخص الذي أصابه مس من الجن على حد فهمهم) : - الأمير لديه بعض من أبناء أخيه عبيد مصابون بذلك المس ، وربما كانت ذكرى أخيه طلال المؤلمة توحي إليه بذلك . أجبته قائلا : "المجنون El-Mejnun هو Hu مجنون Mejnun " بمعنى "من هو أحمق بطبيعته سيظل أحمقا دوما ." ردد الأمير هذه الحكمة من بعدي ، وأومأ برأسه علامة الموافقة ، ثم قال للحاضرين : "هو Hu صادق Sadik ! " رد عليه بعض أفراد البلاط ، أو إن شئت فقل : الحاشية قائلين : "فيه Fi طريق Tarik " بمعنى "ولكن هناك مخرج من ذلك أيضا ." والأعراب يفترضون أو يزعمون أن هناك طريقا (مخرجا) ، عندما يهتدى الإنسان إلى طريق شرعي للوصول إلى الهدف الذي يريده . - "خبرني ، وما هي الحيوانات التي شاهدتها في الصحراء ؟ " - "شاهدت الأرانب البرية والغزال ، وأنا لست صياداً ." - "هل لحم الأرانب البرية غير محلل ! - وهل تأكله ؟ (سيعرف بهذه الطريقة أني مسيحي) . وهل تأكل لحم الخنزير ؟ " قلت : "هناك حيوان غريب في صحراء الشرارات ، يقولون عنه إنه الثور البرى أو الوضيحي ؟ لدينا منه واحد هنا ، وسوف نريك إياه ." وفي النهاية قال الأمير : "ألا تشرب الدخان ؟" استعمال التبغ في شوارع نجد أمر غير وارد ولكن الناس يستعملونه داخل المنازل ؛ وهم يعتقدون أن

(*) المقصود هنا هو حبوب الكينين الصفراء التي شاع استعمالها في ذلك الوقت في العلاج . (المترجم)

شرب الدخان لا يليق بأولئك الأشخاص الذين يكونون أكثر تدينا وأعلى مكانة وقدرا من عامة الناس . كان محمد بن الرشيد هو وحمود ولد أخيه من رفاق الغليون المخلصين في فترة سابقة ؛ ولكن عندما وصل الأمر إلى حد المكانة والتقدير ، فقد تخليا عن رفيقيهما الحميدى طيب الرائحة. وأردف الأمير قائلا: "إذن، أنت مسيحى؟"- تلك كانت كلمة طيبة ! معنى ذلك أن الأمير آثر ألا ينعتنى بتلك الكلمة "نصرانى" التى تنطوى على شيء من الإهانة والتوبيخ ؛ والناس هنا أيضا يقولون إن : "الأمير لديه امرأة مسيحية بين زوجاته ." - والنصارى الذين يتكلمون اللغة العربية في مناطق الحدود الكبيرة يطلقون على أنفسهم اسم "المسيحيين" Mesihiyyin .

طلب الأمير إلى نصر أن يقرأ فى كتاب كبير من كتب التاريخ ، كان موضوعا على الرف ، ومغلفا بغلاف أحمر ويحمل عنوان (أخبارُ Akhbaru الدول "D- Dual وآثار Wa Atharu الأول "l-uwwal")(*) ؛ وطلب من نصر أن يقرأ من القسم المكتوب فى هذه الكتاب عن النبى عيسى Isa بن ibn مريم Mirjam ؛ - وهنا بدأ ذلك السكرتير يقرأ بصوت عالٍ . المؤلف المسلم يحدثنا عن شخص عيسى بن مريم ، وعن لونه ، وعن قسماته وملامحه ."ابن العذراء" ؛ كما يحدثنا أيضا عن أسلوب حياته النبوية ، وكيف كان يمشى مع تلاميذه فى أرض إسرائيل ، وكيف أنه كان يتوق إلى الراحة فى ذلك المكان الذى غربت الشمس عليه فيه . كان الأمير يستمع باهتمام بالغ وشديد إلى تلك الرواية وهو قلق قلقًا شديدا . - "(قال الأمير) هذا حسن ، هذا جيد ! ولكن ما الذى دفعك للقيام بهذه الرحلة ؟" وأجبته بصورة مفاجئة قائلاً : "العلوم ! El-elûm أو إن شئت فقل : العلوم الليبرالية (الحرة) !" ولكن معنى هذه الكلمة التى فى صيغة الجمع عند أهل نجد وفى كلام البدو تعنى "الأخبار" . وهنا رد الأمير على الفور ، "إذن ، هذا هو الذى جئت من أجله إلى هنا !" كان من الصعب علىَّ أن أوضح للأمير ذلك الذى كنت أعنيه عندما نطقت كلمة "العلوم" نظرا لأن هؤلاء الناس ليست لديهم أيه فكرة عن اختلاف معانى الكلمات على ألسنة مختلف أفراد الجنس البشرى . وقال الأمير بعد

(*) أخبار الدول وآثار الأول . تأليف أبو العباس أحمد حلبى الدمشقى القرمانى (ت ١٠١٩هـ/ ١٩١٠م). (المراجع)

ذلك ، "وهذه اللغة ، هل تعلمتها ، وأنت بين البدو ، هل تعلمت اللغة العربية ؟" – وطلب إلى نصر إحضار الكتاب ، ووضعه بين يدى خليل ، ونهض الأمير محمد واقفا من مكانه ، [يقال إن الأمير محمد يجيد القراءة والكتابة والإطلاع على الكتب العربية ، ويقال أيضا إنه شاعر رقيق ، بالرغم من أنه فيما يتعلق بتصريف شئون الدولة ما يزال تلميذا فى تَعَلُّم تلك الأمور] – وانطلاقا من فضول أهل الجزيرة العربية العُجل الذى يشبه فضول الأطفال ، انتقل الأمير وجاء ليجلس إلى جوارى . – "من أين أقرأ ؟" – ابدأ من أى مكان فى أى فصل ، – فى هذا الكتاب !" ثم أشار بإصبعه . وعليه بدأت أقرأ من موقع ، "قتل الملك إخواته جميعا هم وأقاربه" . إن الشيطان هو الذى جعلنى أشير إلى مثل هذا النص الدموى ؛ كان واضحا أن الأمير تأثر تأثراً شديداً ! وبسرعة بديهة العرب فهم الأمير أننى بدأت أعتبره قاتلا وسفاحًا . "قال الأمير بسرعة ، ليس من هذا الموقع ! ولكن اقرأ من هنا ! – من هذا الفصل من بدايته" (وحدد لىُ المكان بإصبعه) ؛ وعليه بدأت أقرأ عليه مقطوعة أخرى . الأمير : "ها ! حسن ! واضح أنك لا تجيد القراءة ." ثم نهض من مكانه إلى جوارى ، ليعود إلى مكانه السابق . ثم قال لى بعد ذلك : "وإلى أين ستذهب الآن ؟" – "إلى بغداد ." – "حسن جداً ، إذن سوف نرسلك إلى بغداد ." ثم نهض الأمير بعد ذلك ، هو ومن معه ليذهب إلى منطقة النخيل الخاصة به ، حيث سيريني "البقرة البرية" .

حضر نصر بعد ذلك ومعه مظروف أحد الخطابات ، وطلب منى قراءة النقش المدون عليه . "قلت : حسن ، هذا ليس خطا عربيا !" – "ولكننا نريد منك أن تقرأه ." – "ممن تلقيتم تلك الرسالة ؟" – "من شخص نصرانى جاء إلى هنا قادما من الحوران ، وقد أخذنا منه هذا المظروف ." قرأت على الختم الموجود على المظروف أحرف إغريقية (يونانية قديمة) معناها "بطرخانة دمشق" ، وكانت البيانات المحيطة بتلك الكلمة مكتوبة باللغة اللاتينية "تجول فى كل أنحاء الدنيا وبَشِّر بهذا الإنجيل كل الخلق من البشر ." كانوا جميعهم قد أوشكوا على ارتداء حذيانهم ، ولكنهم أنتظروا برهة إلى أن يسمعوا ردى ؛ وعندما تلوت عليهم بصوت عالٍ المعنى "اخرجوا Ukhruju فى كل Fī Kulli العالم el-ālam ...." قال الشيخ الوقور للأمير : "أتسمع هذا يا محمد ؟ – أليست هذه كلمات المسيح !".

خرج كل من كانوا في الغرفة عقب خروج الأمير منها ؛ كل أولئك كانوا من أفراد حاشيته ومن خدمه ، هذا بالإضافة إلى كل من الشيخ العجوز ، ورئيس الحرس ، ونصر ؛ لم يكن من بين كل هؤلاء من يوحي وجهه بالبشر والترحاب . كان هؤلاء الأفراد الذين ينتمون إلى القصر وإلى رجال الأمير يلبسون ملابس المدينة ، ولكنهم لم يكونوا يلبسون أحزمة الطلقات النارية . وظهر الأمير محمد واضحا أمامي ، عندما تسلط عليه الضوء ، كما لو كان بدويا غير مكتمل النمو من البدو الفقراء المساكين ؛ ومع ذلك كان يمشي متفاخرا ومتعاليا ، ومع ذلك كانت نظراته زائغة وغير مستقرة ، وعند بئر الري ، بالقرب من أسوار القلعة ، توقف الأمير محمد برهة صغيرة وأشار لي بيده إلى الساقية (السانية) التي كانت تدور محدثة نوعا من الصراخ ، ثم سألني فجأة : "هل سبق لي رؤية مثل هذه الساقية ؟" - "ما العمق هنا بالقامات ؟" - "خمس عشرة" . قال كلامه الصادر عنه بوصفه أميرا ، بالرغم من أني كنت أعرف أن العمق لم يكن خمس عشرة قامة ، - والسبب في ذلك ، ما هي الجدوى أو المنفعة التي يمكن أن تعود عليهم من جلب الماء من عمق مثل هذا ؟ واصلت مسيري مع كل من الأمير محمد والشيخ العجوز ، إلى أن وصلنا إلى مزرعة الأمير التي يحيط بها سور القلعة ؛ ووجدت أن خدمة تلك المزرعه لم تكن على ما يرام . بقي الأمير إلى جوار نبات من نباتات زيت الخروع (لم يكن هناك في حائل نبات غير ذلك النبات) ليطرح عليّ السؤال التالي : "ما هذا ؟" طرح عليّ هذا السؤال بلهجة تتردد بين السلطة الفظة وفضول أهل الجزيرة العربية الساذج ، فيما يتعلق بنباتاته وأشجاره ، - النخيل ، والليمون ، والأترنج ؛ ثم أراني بعد ذلك شتلة من شتلات البامية ، كما أراني أيضا بعض الجذور الأخرى والأعشاب التي تستعمل في السَّلطات . هؤلاء الناس لا يأكلون كل هذه الأشياء الخضراء ! وبذلك نجد أن طعام نجد في الجزيرة العربية يختلف عن طعام بلدان الحدود العربية .

كان الغزال يجري في الركن البعيد من أسوار القصر ؛ ووقف الأمير وهو يشير بإصبعه ، "(قال الأمير) هاهو الوضيحي !" كان ذلك الوضيحي ذكرا عمره حوالي عام ونصف العام ، ولا يزيد حجمه على حجم عنزة بيضاء كبيرة ، كان الوضيحي يرقد

مريضا تحت شجرة من أشجار التين . الأمير :- "انظر هناك ، حيث يوجد وضيحى أخر ، وتلك هى الأنثى ." - "ارجع إلى الوراء وتحسب لقرونها ! وقال أفراد البلاط الذين كانوا يحيطون بى ، لا تقترب منها ." وتقدم واحد من الحاشية وفى يده سباطة من التمر ، نحو ذلك الحيوان الخطير ، وراح يربت على ظهره ؛ كان قرنا الحيوان مثل ساقين مسننين ، مشرعين إلى الأعلى ، ويصل طول الواحد منهما إلى ما يقرب من سبع وعشرين بوصة . شاهدت أنثى الوضيحى وأنا على بعد حوالى خمس ياردات ، وكانت أقل من حجم حمار صغير ؛ وكان جلدها رمادى اللون ويتدرج نحو الأصفر الفاقع ، كما كان لها جزء مرتفع صغير يظهر عند بداية العنق ، ولم يكن لها سنام مطلقا ، كما كان ذيلها الناعم الطويل ينتهى بحزمة من الشعر ، ويمكن القول : إن الوضيحى "يشبه بقرة صغيرة" ؛ ولكن شكل هذا الحيوان جميل جداً فى هذه الصحراء الخالية من الماء ، يضاف إلى ذلك أن هذا الحيوان له سيقان برية عالية السرعة وخفيفة الحركة . قال الأمير متعجبًا : "اكتبها Uktub-ha ، بمعنى "صورها" أو "ارسمها" ." وراح الأمير يتحدث معى حديثا مفرحا أثناء عودتنا ؛ ثم قال لى فى النهاية : "أين حذاؤك ؟" - "سيكون عجبك هذا قليل ، إذا عرفت أننى بلا حذاء ، وملابسى مهترئة ، لأنى مضى على ، إلى الآن ، حوالى عام كامل وأنا برفقه البدو فى الخلاء (الصحراء)." - " (رد الشيخ الطيب)، وبالرغم من أنه يمشى بلا حذاء، فهذا ليس عيبا ، لأن أنبياء الله ، مشوا حفاة أيضا ." - بلغنى أن ذلك الرجل العجوز الوقور ، كان شقيق أم الأمير ، أو إن شئت فقل : خال الأمير : رأيت فى ذلك الرجل الوجه الخير الذى يكشف عنه العرب لكل من يتمنون لهم رحلة أو مغامرة طيبة .

كان الأمير بمزاجه الروحى ، وسلوكه المألوف يشبه شيخا كبيراً من مشايخ الأعراب . وقد ظهرت عليه دلائل حظ عاثر تنكر له من قبل ، إضافة إلى أنه تبدو عليه أيضا دلائل الانحطاط الذهنى أو العقلى ؛ كان الأمير محمد ، فى ذلك الوقت قد بلغ "العام الأربعين" من عمره ، ولكنه كان يبدو كما لو كان أصغر من ذلك . (دخلنا مرة ثانية إلى فناء القصر ، فى المنطقة التى يجرى فيها تخزين الحطب ، وحيث توجد بوابة تطل على المسهاب (الميدان العام) ؛ وعند هذه المنطقة ينتهى طرف تلك الشرفة

الموجودة أسفل القلعة ، والتى سبق لنا الدخول منها . هذا الممر مغلق بباب مجلد بالحديد ؛ ألواح هذا الباب (من حيث افتقارها إلى الفن) تشبه تلك الأوانى الحديدية التى تشبه الترس (والتى يطلقون عليها اسم "التُّنور") وتستعملها ربات البيوت الحضريات فى تسوية الخبز - ولكن ، يا لهذه المكافأة التى يحصل عليها الطغاة ! إنهم يقعون أسرى للخوف بشكل يبث الخوف أيضا فيمن حولهم . أين هم من - أحلى الأشياء الإنسانية - راحتهم ؟ لأن ذلك الذى يأخذونه بالقوة من الكثيرين ، هم يعلمون ويعرفون بأنه سوف يطلب منهم مرة ثانية ! وهنا صرف الأمير ذلك النصرانى ، بإشارة لطيفة ، وطلب من أحد الحاضرين أن يرافقنى إلى بيتى ، أو إن شئت فقل : إلى المسكن الذى أنزل فيه .

الفصل الثانى والعشرون

حائل

أمسية مع الأمير حمود . قهوة عبيد . يهودى مارق . سيف حمود . حمود يُصلّح عشاءًا للنصرانى . صلاة العشاء . محمد وحمود على مرأى من الناس . أمسية مع الأمير محمد . أشخاص عاطلون يتعقبون النصرانى فى الشوارع . غانم . عبد الله . المسلم اليهودى . قافلة ضائعة . جار الله ، عنيبر بن الرشيد . ابيضاض البشرة الأوروبية يحسبونه برصًا أبيضا . "ماء العنب" . الموت فى فناجيل قهوة الأمراء . التجار المشهديون . النصرانى يطلعهم على كتاب من كتب الجغرافيا . البيع والشراء فى حائل . مدفعية بن الرشيد . مجلس الأمير . رشوة فى حائل . وقت فراغ الأمير . سياسة الأمير . ركوب الأمير . الأعراب فى حائل . الدلالون . السوق . سعر اللحم . مُفرْج ؛ استئذانه لعامة الضيوف . سمّ أو سُمّ – بمعنى "سَمّ" أو "باسم الله" . كلفة المُضيف . شاربو القهوة من البدو فى المقاهى العامة . الأمير محمد يركب راحلته متجها لزيارة ماشيته فى الصحراء . حصان الأمير . ثروة الأمير . خزانة الولاية . حمود يظل نائبا فى حائل . بدان أو ماعز برى فى بستان حمود . تكلفة بئر الرى فى حائل . ماجد . حائل مدينة وليست واحة . سميراء حائل . رىّ أجدة . حائل القديمة . أطلال ضاحية بعيدة من ضواحى حائل . أرض المدافن . قبر عبيد . بعض البدو الرحل المقيمين .

مع غروب شمس ذلك اليوم ، استدعانى مُفرِّج إلى شرفة المُضيف أو إن شئت فقل: قاعة أو صالة الضيافة ، حيث قدموا لى طبق العشاء المكون من لحم الضأن وأرز التِّمن . وعندما عدت ثانية إلى صالة القهوة ، حيث بدأ توزيعها على الحاضرين ، بدأ

الضيوف البدو الموجودون فى الصالة يتساءلون عن ديانتى . عدت إلى بيتى فى ساعة مبكرة ، وعلى الفور استدعانى خدم الأمير لمقابلة شخص يطلقون عليه اسم "الشيخ الكبير" . - "سألتهم ، من هو ذلك الشيخ الكبير ؟" وأجابونى ، "إنه الأمير !" وعليه أوصلونى إلى دار كانت قريبة من بيتى ، وكانوا يطلقون عليها اسم "قهوة عُبَيْد" . طرقوا الباب وفتحه عبد حبشى . دخلنا الدار من خلال مدخل قصير ، كانت تفوح منه رائحه ماء الورد ، إلى أن وصلنا إلى غرفة شبيهة بالصالة ، بدت لعيناى وكأنها جزء من الصحراء . ومعروف أن الغرف الشرقية عبارة عن مسوَّرات من الهواء ، وليس بها منقولات ، ومظاهر الزينه في تلك الغرف عبارة عن السجاد الذى يفرش فى أماكن الجلوس ؛ والسجاد فى هذه الغرفة مفرود فى ثلاثة أجناب فقط ، مع وجود بعض الأماكن التى فيها بعض المخدات ، وهى مخصصة "للأمير" وأقرب أقاربه . كل شيء فى تلك الغرفة كان مصنوعًا من الطين ، أرضيتها من الطين المدكوك ، والجدران أيضًا من الطين ومدهونة بالمغْرة ؛ كان الجالسون فى الغرفة من الشخصيات الرئيسية فى المدينة ، كانوا عبارة عن شيخ أو شيخين من شيوخ البدو ، إضافة إلى بعض الرجال الذين يعملون فى خدمة الأمير ؛ كانت ملابس هؤلاء العرب الحظيظين تبدو مشرقة . -

- كانوا قد قالوا "الأمير" ! وأنا بدورى شاهدت فى المكان الرئيسى من تلك الصالة شخصية نبيلة عظيمة شبه محنية على كوعيها إلى الأمام ! - ولكنى ساءلت نفسى ، ألم أقابل الأمير بن الرشيد بنفسه هذا الصباح ؟ ولو قدر لهؤلاء العامة من العرب أن يروا غريبًا محتارًا ومشدوها بينهم ، فإن ذلك سوف يسرهم ويسعدهم .

تلك الشخصية كانت حمود Hamud ولى عهد والده ، برغم أنه ليس أكبر أبناء عبيد ؛ والسبب فى ذلك أن فهد Fahd ، الابن الأكبر ، كان خبلاً Khibel ، أو إن شئت فقل : مضطرب الفهم والإدراك ، ومع ذلك كان سلوكه طيبًا ومستقيمًا ؛ هذا الجنتلمان المسكين كان صديقًا لى بصورة دائمة . - كان حمود، قد أقسم لابن عمه الأمير يمينًا، بأن يعيش معه ويموت معه أيضًا ؛ كان والديهما شقيقين ، ونظرًا لعدم وجود أى أحد من بيت ابن الرشيد لتولى ولاية العهد ، فإن حمود سيصبح هو الأمير من بعد الأمير محمد بن الرشيد . وحمود هو رفيق الأمير اليومى فى كل ما يتعلق بالأعمال والاستشارات اليومية . - كان ولد عبيد يرينى وجهًا مليحًا ، وكان يطلب منى الجلوس

عن يمينه ، وعندما كان يرانى مهمومًا ومرهقًا كان يطلب منى أن أفرد رجلاى دونما خجل ، وأجلس على راحتى وطبيعتى .

كان حمود يتحدث إلى النصرانى حديثًا وديًا ؛ وتأكدت أنه صاحب قامة فارعة ، ولاحظت أيضًا أن عينيه ملونتان ، ولاحظت أيضًا أن شعره متساقط [كما نشاهد فى صور المسيح] ويتدلى من المنتصف على شكل جدائل ، كما لاحظت أيضًا أن لحيته خفيفة . وحمود له وجه بشوش ، ويحدث له تشنج لطيف فى عنقه ، مما يعطى العنق منظرًا لطيفًا ، ويبدو عليه أنه ينحنى قليلاً إلى الأمام . وأثناء حديثى معه كان يسألنى عن الأشياء العظيمة عند النصارى ، مثل التلغراف ، "كما كان يسألنى عن المادة التى يصنع منها الزجاج ؟ وكانوا قد سمعوا أيضًا عن وجود قصر من البللور فى البلدان المسيحية ؛ وكانوا يحسبون أيضًا أن باريس Baris (Paris) كلها مبنية من البللور ؛ كما كان يسألنى أيضًا عن ماهية زيت الصخور ، الذى كان مستعملاً فى مصباح مشتعل وموضوع على كرسى أمام الأمير : بل إن زيت الصخر هذا أصبح يستعمل فى المنازل الكبيرة فى حائل ، ولديهم مقولة مفادها أن زيت الصخر هذا إنما يصنع من بول البشر . وتعجب حمود عندما أخبرته أن زيت الصخر هذا إنما يجرى سحبه من آبار فى العالم الجديد ؛ كان حمود قد سمع عن ذلك الذى يسمى "الدنيا" Dinya "الجديدة" el- jadida، وسألنى عن المكان الذى توجد فيه تلك الدنيا ، وخلف أية بحار . سألنى أيضًا عن أدويتى ، ثم أردف قائلاً : "مل علىّ ، وسوف أسألك عن شىء ." همس لى حمود من تحت غترة رأسه المعطرة ، "أليس لديك دواء ، يساعد الرجل ؟" وأجبته على الفور ، "لا ، وحياتك ." – "لا ، وتحلف بحياتى !" كرر هذه العبارة ، وهو يبتسم للحاضرين ثم ضحك ، "ها ! ها !" – بعض الأرواح الشريرة ربما تظن أنه كان يتكلم معى همسا عن السم . يضاف إلى ذلك أن القسم العام فى الصحراء "بحياة الإنسان" يدينه ولا يرضى عنه أشباه الوهابيين هؤلاء . ثم أردف حمود قائلا بنفس هذه الابتسامة والقلب الطيب ، "ما رأيك فى هذين الخيالين اللذين التقياك على الطريق؟ "– "أنا لا أستطيع أن أقول أى شىء لأنى كنت متعبًا ومرهقا" . – "قال، نعم ! كنت متعبًا تمامًا ؛ اسأله !" كما أرانى حمود ، وهو يشير بإصبعه شخصية ، من أصحاب اللحى الزعفرانية اللون فى حائل ، الذين كانوا يجلسون متكئين على مخاد ،

في المكان المجاور له ، باعتبار أنهم يجيئون بعده من حيث المنزلة والمقام . كان ذلك الرجل صاحب اللحية زعفرانية اللون بطيء الفهم ، واسمه سليمان Sleyman ، وهو ابن عم حمود . سألته ، "هل أنت الذى التقيتك ؟" ولكن الرجل ابتسم ، ولم يرد على سؤالى . حمود : "انظر جيداً ! هل كانوا مثلنا ؟ ألم نكن نحن الخيَّالين ؟ - لقد كانت مباراة ، يا خليل ، حاولنا من خلالها معرفة من الأطول نفسا من بين هاتين الفرسين ؛ ما رأيك أنت ؟ خيول الإنجليز أفضل ، أم خيول نجد ؟" - وقف حمود كى ينصرف طلبا لقسط من الراحة (منزله فى مكان آخر من القصر) ، ووقفنا جميعا معه . فى ذلك المنزل - الذى يوجد بالقرب من بركة عامه يجرى تغذيتها بالماء من هذا الفناء المزروع بالنخيل - يوجد أطفال حمود ، وزوجته وأمها ، إضافة إلى إخوانه الذين يصغرونه سنا ؛ ولكنه بحكم أنه صاحب سمو ملكى ، فهو له مسكن مستقل خاص به هو (ينام فيه) ويقع داخل القلعة . وأمراء حائل يلبسون ملابس مثل ملابس البدو الرحل ، ولكنها جديدة ونظيفة ومن خام ممتاز : والتونك الطويل الواسع ، الذى يرتديه الناس هنا فى المدينة ، لونه أبيض ناصع ، ويضع كل واحد منهم على كتفه عباءة الأعراب المصنوعة من أجود الأصواف البغدادية ، أو من القماش الأسود الذى يجلب من أوروبا . وهم يرتدون الهجو haggu على أجسادهم شأنهم فى ذلك شأن بقية البدو الرُّحل فى سائر أنحاء الجزيرة العربية .

كانت الغرفة التى أسكنها مثل زنزانة ضيقة ومظلمة وغير نظيفة : - أخبرونى أيضا أن يهوديا ، مع مجيئه أول مرة إلى هنا ، أسكنوه فى تلك الغرفة ! كان ذلك اليهودى واحداً من يهود بغداد ، وهو الآن مسلم ثرى متزوج ويعيش فى حائل ، وأحواله تتحسن بصورة مستمرة بفضل بركة صهره لبان Laban ؛ هذا الرجل له بيت طيب فى البلدة ، كما أن له محلا فى السوق ، يبيع فيه الأقمشة والتمور والبن للبدو الرحل : وقد أنجبت له زوجته الحائلية (نسبة إلى حائل) طفلين . كان الناس هنا يصيحون فىَّ ، "اعترف أنت "يا خليل" أيضا مثلما فعل ذلك الرجل" "قل لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله" ، وستكون لك ثروة مثل ثروة ذلك الرجل ، والأمير هو الذى سوف يوفر لك مثل هذه الثروة ." واعتبارا من طلوع نهار اليوم التالى كان هناك أمام باب النصرانى جمع كبير من المرضى ومن الحضريات العاطلات ، بقوا ساعات طويلة

أمام باب المنزل يتسامرون ويتجاذبون أطراف الحديث ، دون أن يتركوا لى ولو ساعة واحدة أحصل خلالها على قسط من الراحة. كانوا يطلبون مني أدوية ، مع وعود منهم ، "بأنهم سيدفعون الأتعاب عندما يتأكدون من صلاحية الدواء وجودته ، غير أنهم لن يدفعوا تلك الأتعاب في الوقت الراهن". وعنما طلبت منهم دفع التكلفة الأساسية للدواء، لم يلقوا لذلك بالا ؛ "أرجو أن لا يجيء أحد منكم إلى هنا مرة ثانية ليساومني ويكاسر معي ، لأني لن أوافق على ما تقولون ." ولقطع العلاقات معهم خرجت من سكني وأغلقت الباب خلفي . وبينما كنت جالسا أمام دارى أثناء نسيم العصر العليل مر عليّ حمود ومعه أصدقاؤه ؛ توقف الرجل ليحييني ، وطلب مني الحضور لتناول العشاء ، وأراني سيفه ، الذى يحمله في يده من مقبضه ، مثل البدو الرحلْ تماما ، وقال : "ما رأيك في هذا السيف ؟" - والناس هنا لديهم فكرة مؤداها أن كل أولاد النصارى يكونون دارسين لحرفة المعادن . وعندما أخرجت السيف من جرابه - لم يكن صلب ذلك السيف من النوع الدمشقي - وأردف حمود قائلا : "هذا الصلب إنجليزي" (من صناعة أحسن الدول المسيحية) : وقد حصل على ذلك السيف من ابن سعود وأنه "دفع ألف ريال ثمنا لذلك السيف ." قلت له "يبدو أنه من النوع الممتاز" ، وردد الكلام من بعدى مبتسما بطريقتهم الخاصة ، "إنه حقا ممتاز ." والعرب ، أهل الجزيرة العربية ، يقيمون السيف باعتباره أمضى الأسلحة ؛ وكل واحد منهم يود أن يكون له سيف من أجود الأنواع .

عند غروب الشمس جاء عبد من مقهى عبيد Abeyd يدعوني لتناول العشاء . وقد جرى العرف أن يتناول حمود عشاءه على مائدة عبيد عندما لا يكون مدعوا لتناول العشاء مع الأمير ؛ والمعروف أيضا أن ماجد Majid ولد حمود الأكبر ، يتناول العشاء هو ومدرسه مع والده ؛ وبعد أن يفرغوا من تناول العشاء يجرى تقديم الطبق نفسه أمام بقية أفراد العائلة من الرجال . هذا الطعام البسيط له قيمة غذائية كبيرة ، وهو يتكون من لحم الضأن فوق كومة من أرز التُّمن ، المضاف إليه الزبد ، ومتبَّل بالبصل ، ونوع من الكارى . بعد أن فرغ العبد من صب الماء على أيدينا ، من إبريق من المعدن ، على طشت صغير ، جلسنا وقد ربَّعنا أقدامنا أمام طبق كبير مطلى بالقصدير ، موضوع فوق الأرضية المفروشة بالسجاد . والعرب عندما يعزمون على أحد لتناول

الطعام يقولون : "مد mudd يدك Yédak ، ثم سمّى "بالله" Bismillah ، ويبدءون بعد ذلك تناول الطعام باستخدام أصابعهم . وهم يجلسون لتناول الطعام فترة لا تزيد على ثمانية أو عشر دقائق ، يصلون بعدها إلى مرحلة الشبع التام ؛ وهنا يقدم العبد سلطانية الماء ، ليشرب كل واحد منها قليلاً من الماء ؛ وينهضون واقفين بعد ذلك ليقول كل واحد منهم : "الحمد لله el-hamd l'illah ، ثم ينصرفون بعد ذلك لغسيل أفواههم وأيديهم :- كان العبد قد أحضر لنا صابونا مبشوراً . وبعد الغسيل يعودون إلى أماكنهم منتعشين لتقدم لهم القهوة البهيجة بعد ذلك ؛ ولكن مُصلّح القهوة ، شرب من تلك القهوة فى البداية وقبل أن يقدمها لنا - وذلك من باب طمأنة خوف الأمير - . والعرب لا يعرفون مأدب الطعام ؛ وهم لا يمكن أن يصدقوا أن مخلفات الطعام ذوات العناصر الثلاثة المأمولة (فى بعض الأراضى السعيدة) لا يمكن أن تقيم أود الحياة ؛ كما أن منظر الرجال وهم جالسين يشربون قد يبدو لهم - حسب فهمهم - نوع من الحياة الوثنية المريعة . القصر هنا ليست له مصروفات باهظة ، أو هدايا منزلية لتقديمها لنوعيات معينة من البشر . وأمراء الشُمّر هنا يفطرون بعد شروق الشمس مباشرة على شيء من الخبز المخمور وشيء من الزبد مع شيء من الحليب ؛ وعند الظهر يقدم لهم طبق من التمر ؛ ويتناولون طعام العشاء عند غروب الشمس ، كما سبق أن أوضحت : والأمير والشعب يتساوون عند تناول الطعام . والشيطان لا يتسلل إلى طبق طعامهم ؛ وكل همهم ورغائبهم البشرية تكمن فى متعة الحريم الإسلامية .- أذكر أننى سمعت ، من بعض الناس الذين يعرفون السلطان عبد العزيز ، أن سلطان الإسلام هذا ، رحمه الله ، كان نهمًا لا يشبع من تناول الطعام . ولم تكن والدته تضع أمامه سوى طبق واحد هى التى تذوقته وأكلت منه وأشرفت عليه ؛ وأن ذلك الطبق هو الطبق التركى اليومى الذى يطلقون عليه اسم "البلاو" Pilaw (وهم يقولون هنا : إن ذلك الطبق جاء فى عهد "تيمور لنك"(*) Tamerlane) ويتكون من الأرز المسلوق ولحم الضأن ؛ ويقال أيضا إن سلطان الإسلام كان يمتنع عن شرب القهوة والدخان

(*) Tamer Lane : تيمور لنك أو تيور الأعرج ، إمبراطور المغول - تولى عرش سمرقند ١٣٣٦-١٤٠٥م وأخضع إمبراطورية التتر ، وجميع البلدان الواقعة فيما بين نهر الأندلس والكنج ، ثم اتجه إلى آسيا الصغرى وأسر السلطان بايزيد كما حاول انتزاع سوريا من الدولة المملوكية . (المراجع)

(لأسباب ربما تكون سماوية). سمعت من حمود أنه ذبح الشاة على شرفي وتكريما لي؛ ومعروف للجميع هنا، أن تلك الشاة التي ذبحت للعشاء إنما جرى شراؤها من السوق .

بعد ذلك بساعة أو ساعتين ، وعندما يسمع الناس صوت المؤذن ينادي لصلاة العشاء ، ينهض حمود واقفا في الحال ، ومعه الجماعة . وهنا يتقدمهم عبد يمسك في يده جريدة من جريد النخل وقد أشعل فيها النار ؛ ويخرج الجميع لأداء الصلاة في المسجد ، الذي يقع في الطرف البعيد من المسهاب (الميدان العام)، محاذيا لغرف الضيافة، ولكنه مفصول عن تلك الغرف بواسطة شارع عام. - ولما كان هؤلاء الناس أمراء على الناس هنا ، فهم يكونون خدم مطيعين للدين !

وعندما يعود حمود من الصلاة ، يقوم العبد الذي يكون في انتظار عودته بفرد سجادة صلاة صغيرة أمامه ؛ ويسجد صاحب السمو على تلك السجادة مستقبلا مكة (المكرمة) ، وذلك من باب تمام الصلاة . سألت حمود ذات مساء ، "ألم يؤدي صلاته بالفعل في المسجد ؟" - "قال حمود ، تلك الصلوات التي نؤديها في المسجد هي الصلوات الشرعية ، وما أصليه هنا هو السنَّة ." لم يتوقف الجالسون في القاعة عن الكلام أثناء أداء حمود لصلاة السنة ، - ولم يصلي معه أحد . كانت بقية الجماعة ، من غير الأمراء ، فلماذا يكلفون أنفسهم بتلك الزيادة الدينية ! والمسلم كلما علا قدره ، لابد أن يكون أكثر ورعًا ، حتى يستحق نعم الله عليه . وحمود لا يفوِّت الصلاة في المسجد مطلقا ؛ وفي كل ما عدا ذلك ، يأخذ كل نصيبه من الدنيا من منطلق أنه رجل قوي وسعيد وبشوش ، ويبعد عنه مشكلات هذه الدنيا . وحمود ربما يكون أصغر سنا من الأمير ، وهو بقامته الفارعة ، وحسبما يقول الناس هنا ، ربما يكون شبيها لأبيه الذي كان شاعراً من شعراء المعارك الحربية : وحمود هو والأمير محمد بن الرشيد ليسا سانجين في المهارات التي ورثاها عن والديهما في إطار هذه الأسرة المالكة ؛ - والناس هنا يبجلون ويمتدحون ذلك الذي يفعلانه أكثر من تمجيدهم لما يفعله الكبار المسنين .

الأمير محمد لا يحضر صلاة العصر في المسجد الكبير سوى مرة واحدة ؛ وهو يؤدي صلاته في مسجد منفصل أو خاص في داخل القلعة ، أو قد يؤدي الصلاة داخل

غرفته الخاصة . كما أن مسألة خروجه عدة مرات من القصر لأداء الصلاة مع الناس تشكل نوعا من المتاعب له ولأولئك القائمين على خدمته ، ولأهل المدينة أيضا ، نظرًا لأن هؤلاء الناس يتملكهم الخوف ! - والسيف الذى دخل هذا البيت الملكى "ينبغى أن لا يفارقهم مطلقا - وهذا هو ما يدور بخلد الأعراب - إلا بعد أن يتم تدميرهم والقضاء عليهم ." لقد أطاح الأمير محمد برؤس أقاربه الكبار المحيطين به ، ولم يبقى منهم أحدًا سوى حمود ، أما الصغار فهم يكبرون ؛ يضاف إلى ذلك أن محمداً يتعين عليه رؤية الكثير من الأحلام المزعجة ، وهو بالرغم من حراسته المشددة ، يتطلع دوما إلى عقاب الجنس البشرى . ترى ، هل يتعين عليه الوثوق بنفسه ويمر من الميدان العام (المسهاب) عدة مرات في اليوم الواحد ، وفي مواعيد محددة ؟ - لقد فشل الكثيرون في ذلك . والمعروف أن كلا من حمود هو والأمير محمد يؤثران فى سلوكيات وتصرفات الناس : فهذا هو حمود بصراحته الواضحة ، ومحياه المشرق المبتسم يبدو وكأنه واحد من عامة الناس وقريب جداً من حديثهم وكلامهم ؛ وهذا هو الأمير محمد ، تراه لطيفا فى بعض الأحيان ، بالرغم من غلظته الملكية ، وتراه أيضا يتكلم كلاما لطيفا فيما بين هذا وذاك ؛ والأمير محمد رجل داهية وصعب التفاهم . ومحمد عندما يخرج من القصر ترى عينيه زائغتان مثل عينى الصقر ، وهو عندما يمشى يختال فى مشيته كما لو كان يمشى على المسرح ، ويكون دوما فى مقدمة حاشيته . وحرسه . وعندما يكون حمود بصحبة الأمير محمد ، فهما يسيران أمام الحاشية . وأهل المدينة (برغم استحالة ذلك) يقولون "أنهم يحبونه ويخافونه" : - وهم يثنون على الأمير الذى ينعمون بالطعام فى ظل حكمه ، ويحسون بالأمان ، ويرون كل شيئ يزدهر من حولهم ؛ ولكنهم يخشون حده ذلك الأمير وصرامته التى تولدت بالفعل من سيف ذلك الحاكم .

فى مساء اليوم التالى ، أرسل الأمير محمد يطلب منى الحضور إلى مقره : كانت جدران المقر مدهونة بالمغرة . عندما قلت للأمير إننى إنجليزى ، وجدت أنه لم يكن يفهم ذلك من قبل ! ولكنى وجدته فى هذه المرة لطيفا وكيساً . كان يجلس مع الأمير رجل داكن البشرة ضخم الجثة ، اسمه صالح ، Salih (قالوا لى إنه من البدو الرُّحل ،) راح يراقبنى بعينين متزمتتين قاسيتين ، ثم قال فى النهاية بصوت قاسٍ ينذر بالخطر ، "ألا تتطلع إلى رؤية بلدك مرة ثانية ؟" - "أجبته ، كل شيء بيد الله". - "تعجب الأمير ،

لا يا صالح لا ، لقد قال خليل كلاما طيبا جداً ، عندما ذكر أن كل شيء بيد الله ." ثم سألني الأمير محمد الأسئلة نفسها التي سألني حمود إياها . "ما هو التلغراف ؟ لقد شاهدناه (في بغداد يوم أن كان يعمل مرشداً لبعثة الحجاج "الفارسيين") : لكن ألا تستطيع أن تعرفنا الطريقة التي يعمل بها التلغراف ، الذي هو شيء مدهش ؟" – "التلغراف نوع من الارتعاش – الذي نستطيع من خلاله إرسال بعض الإشارات المعينة، التي تتولد عن تحات المعادن ، بفعل الأدوية القوية التي من قبيل الخل . الأمير: "إذن ، التلغراف نوع من أنواع تشغيل الأدوية ، هل لك أن توضح لنا ذلك ؟" – "إذا افترضنا أن رجلا يرقد ممدداً في المسافة ما بين مدينة حائل وإستمبول Istambul، وأن ذلك الرجل كان له طول فارع يصل من هنا إلى هناك بين هاتين المدينتين ؛ وإذا ما قام أحد بإحراق قدمي ذلك الرجل الموجودتين في حائل ، ألن يحس ذلك في رأسه في اللحظة نفسها ، وهذه الرأس في استمبول ؟" – "وما هو الزجاج ؟" سألني أيضا عن البترول ، وسألني أيضا عن القارة الجديدة ، وعن موقعها ، وهل هي داخل "المحيط" . كان الأمير ، ينصت بطريقة فاترة إلى روايتي عن اكتشاف الأرض الجديدة عبر تلك البحار الكبيرة ، ثم سألني : "ألم يكن هناك بشر يعيشون في ذلك البلد عندما جرى اكتشافه ؟" وأخيرا طرح عليَّ السؤال التالي : "ما رأيي في حائل ؟ وهل شارع السوق ، مناسب وجيد أم لا ؟ (ولكنه أجاب بنفسه) لكن ، آه ، إنه سوق أعراب !" إنه صغير إذا ما قارناه بالأسواق التي في المدن الرئيسية في هذه الدنيا . سألني : "هل سمعت عن جبل شمَّر في بلدي ؟" كان الحاكم مسرورا عندما فهم أن النصارى لا يلهثون أو يتطلعون إلى بلاده الصحراوية ؛ ولكنه غضب واستاء عندما علم أن أخبار تلك الأشياء الإنسانية المزعجة قد وصلت إلى مسامع الناس في أراضي بعيدة . حدث أن طرح حمود عليَّ هذا السؤال نفسه في مناسبة أخرى ، ثم أردف متسائلا أيضا ، "ماذا ! ألم تسمع مطلقا عن ابن سعود الوهابي !" بعد أن أمضيت ساعتين مع الأمير ، وعندما أوشكت الساعة على العاشرة ، قال الأمير لرئيس الحرس ، الذي يقوم على أمر حراسة غرفة نوم الأمير : "حان موعد إغلاق الأبواب !" ثم انصرفت بعد ذلك .

في بدايات وصولي إلى بلدة حائل ، كنت إذا ما تجولت خلال سوق المدينة ، أرى الأطفال ، والجهلة وكذلك البدو المساكين يتدافعون نحوي ، لأبدو في وسطهم مثل ديك

غريب ، راحت الطيور الصغيرة تعجب منه ، إلى أن يجيء من أصحاب السلطة واحد يخلصني من هؤلاء الناس وهو يقول لهم : "الله ، إن إساءة معاملة الغريب على هذا النحو ستغضب الأمير !" وفي كل يوم كان بعض أصحاب الجاه والمكانة يدعوني لشرب القهوة وتناول الإفطار ؛ وكانت غالبية هؤلاء الناس تطلب مشورة الحكيم فيما أصابهم من أمراض ، وقلة قليلة منهم هي التي كانت تتحرك بدافع الكرم ، نظرا لأن ضمائرهم تحضهم على عدم التراحم مع أعداء الدين المنقذ ، ولكن المسلم الذي يجيء إلى حائل ، بل وحتى الفرنجي الغريب الذي ينحني لهم ويتفق معهم ، يجد الشُّمَّرُ الحضر كرماء وهم كرماء بحق .

في البداية استدعوني لمقابلة شخص يدعى غانم Ghranim ، صائغ الأمير وشقيقه غنيم Ghruneym . كان هذان الأخوان ثريين تماما ، ومن طائفة الصناع ، وقد كانا قبل ذلك في منطقة الجوف ، التي يوجد فيها بعض من أفضل الصناع ، وبخاصة في مجال المعادن ، والخشب والأحجار ، في الجزيرة العربية البدوية . وعندما استولى عبيد بن الرشيد على منطقة الجوف، وجد أن هذين الرجلين هما أفضل الناس في حرفتهما، ولذلك أحضرهما بالقوة إلى مدينة حائل . وهذان الرجلان مشغولين دوما في صناعة أشياء للأمراء ، وذلك فيما يتعلق بصناعة السيوف وتجليد مقابضها بالفضة والذهب ، كما كانا مشهورين أيضا بتجليد "دباشك" البنادق بصفائح الفضة والذهب . وكان يجرى إرسال جميع السيوف والبنادق الفتيلية التي كان بن الرشيد يأخذها (من البدو) أثناء الغزو ، إليهما لإعادة تشكيلها ، ثم وضعها بعد ذلك ، ضمن سلاح القلعة . ومن بين هذه السيوف توجد بعض السيوف الفارسية والهندية الممتازة ، التي يتسلح بها بعض حراس الأمير . كان غانم ، أيام شبابه ، يتجول بمهنته هذه في كل أنحاء الحوران ، ولذلك راح يسألني عن شيوخ الدروز ، الذين سبق له التعرف عليهم ، كما سألني أيضا عما إذا كانوا على قيد الحياة . كان غانم متشدداً ، وكان قراره في يده ، وتأملاته لم تكن من قبيل تأملات الحكماء في معظم الأحيان : هذا الرجل الذي كان يلقاني يوميا ، قال لي قبل ذلك كلاما مخالفا : "أنا عدوك ، يا خليل !" وهاهو في النهاية يعرض على خدماته ونصائحه الودية – لقد بنى لنفسه ذلك المنزل الطيني وزينه بكل فنون مهنته . فقد وضع على جدران المنزل المبنية بالطين والمدهونة بالمغرة ، نماذج

على شكل طيور وزهور ، كما زين تلك الجدران أيضا بآيات من القرآن مكتوبة بالجبس الأبيض ، – الذى يعثرون عليه فى كل مكان فى رمل الصحراء : السواد الأعظم من بيوت حائل مبنية بناية جيدة بالرغم من رداءة المادة المستعملة فى البناء . لقد بنى غانم جدارا مزدوجا مع وجود شباك في كل جدار ، بحيث يسمح بدخول الضوء ، ولا يسمح بدخول أحوال الطقس . لم أرى أثراً لهباب الحداد داخل بيت هذا الرجل ، ولكن غانم كان يجلس مرتديا ملابس نظيفة ، وهو قائم بعمله ، في أفضل غرفة من غرف منزله ؛ كانت أرضية المنزل مفروشة بحصير جميل ، وكانت الأماكن المخصصة للجلوس مفروشه بالسجاد البغدادى ، قام شقيقه غنيم باستدعاء الحكيم إلى منزله لتناول طعام الإفطار : كان أخوه متوانيا في حرفته بسبب المرض ، وقد حذره الأمير ، في أحيان كثيرة ، بأنه سوف يتخلى عنه . وقد أرانى ولده مسدسا من مسدسات الجيش [من الهند] شاهدت عليه علامة البرج : "الناشنكاهات" – التى لا يعرفون كيف يستعملونها ! – نزعوها عن المسدس .

لما كان غانم يهوديا دخل فى الإسلام – فقد سموه "عبد الله" ، وأعطوه لقبا هو "المسلمانى" el-moslemanny – هذا الرجل جاء يدعونى لشرب القهوة فى بيته – سألنى زميل عبد الله : "هل أمتى تحب اليهود ؟" أجبت على سؤاله ، نحن لا نسأل الناس عن دينهم ، ولذلك فهم يكونون رعايا طيبين ." وصلنا إلى بوابة اليهودى ، ودخلنا بيته ؛ كانت الجدران من الداخل مطلية جيداً بالمغرة ، ومرسوم عليها ورود صغيرة بيضاء ومكتوب عليها أيضا آيات من القرآن باستعمال الجبس . قرأت : "لا قوة إلا بالله" وعند المدخل قرأت بدلا من كلام موسى (عليه السلام) الشهادة الإسلامية مكتوبة بحروف كبيرة "لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ." كان عبد الله شابا ناضجا من بغداد ، وجهه مشرق مثل وجوه المسلمين ، اللهم باستثناء تلك العلامة التى وضعها الله على أسارير الوجوه العبرية . وفى الوقت الذى تغيب فيه رفيق عبد الله لحظة ، سألنى بصوت هامس "هل معى –" (لم أستطع سماع بقية كلامه) . – "ماذا تقول ؟" "براندى Brandl، ألا تعرف (هذه الكلمة الخليجية الفارسية الإنجليزية) – براندى؟" وعندما دخل عليه زميله ، وربما يكون شقيق زوجته ، قال عبد الله بصوت مرتفع "لو أنى دخلت الإسلام ، سيصبح بيته بيتًا لى أيضا أنا وهو ." ثم همس بعد ذلك بكلمة فى

أذنى – "لدى شىء أود أن أقوله لك ، ولكن ليس الآن " . كان قد مضى على مجىء ذلك اليهودى من بغداد إلى حائل سبع سنوات . وبعد انقضاء أيام الضيافة ذهب إلى عبيد بن الرشيد قائلا له : إنه يود أن يدخل فى الإسلام "على يد عبيد" : – وتقبل عبيد كلام اليـهـودى بيده الرسـمـيـة الملطخـة منذ القدم بالدم والعنف . أعطت الأسـرة المالكة المسلمانى "ألف ريال " عقب دخوله فى الإسلام ، وسمح الأمير له بالإقامة فى حائل ، وأن يمـارس فيـهـا البيع والشـراء ،– وعرف عـبد الله الفن القديم ،– إذ أصبح عندئذ مهنيا مرموقا . كنت قد سمعت بعض الأشياء عن ذلك الرجل وأنا فى تيماء ، وأنه "يقرأ من كتب مثل الكتب التى شاهدوها معى" : ومع ذلك وجدت أنه رجل غير متـعلم ، – والذى لا شك فيه أن هذا الرجل كان يقرأ اللغة العبرية ، غير أنه ينكر ذلك حاليا .

أحـضـر جـار الله Jar Ullah ، أحـد تجـار البلدة ، دفـتـر من دفـاتر الحـسـابات الأجنبـيـة . كـان ذلك السـجل عـبارة عن مـجلد ضـخـم طبع فى أمسـتـردام فى القـرن الماضى ، والمجلد مطبوع باللغة العبرية ! قلت لجار الله : "عليك بهذا السجل وعبد الله ، فـهـذه هى لغه اليـهـود ." – "يقول لى عـبد الله أنه لايعـرف هذه اللغة ." – هذا الكتاب أحضـر إلى هنا قبل عدة سنوات من إنقاذ قـافلة بغداد ، التى هلكت من العطش وهى فى طريقها إلى سـوريا . كان دليل تلك القافلة "قد أصابه الله بالخبل فى عقلة" فضل طريقه ومـعه القافلة فى الصـحراء ، وعجـز المشـاركون فى القافلة عن العثور على آبار الماء ، ولم يسـتطـع أحد إنقاذ نفسـه سـوى قلة قليلة من البشـر الأقـوياء ، الذين راحـوا يغـامرون وينزلون عند البدو . وأخذ البدو الرحل كل مـا وصلت إليه أيديهم من أحمـال الإبل التـى انقلبـت على الأرض طوال "مـا يزيد على شـهـر من الزمن" . وقد عـثـر على بعض الكتب بين هـذه الأشـيـاء ، ولم ينقل النـاس إلى حـائل سـوى قلة قليلة من تلك البضاعة غير الثمينة .

قيل لى إن عبد الله ، يهودى المولد ، كان فى منتهى السعادة فى حائل : "أرسل له والداه كثيرا من الرسائل ، التى تحمل أكبر العروض إذا ما أراد العودة والردة ، ولكنه كان دومـا يرفض اسـتـلام تلك الرسـائل . تـخلى عبد الله عن القانون وعن الوعود : – ولكن الرجل الذى تحـركـه مظاهر الطبـيـعـة الإنسـانيـة ، لايمكن أن ينتـقل بمـثل هذه السـهولة من كل ذلك الذى نشأ وتربى وترعرع فيه إلى شىء آخر فى هذه الدنيا !

عزمني جار الله في بيته الكبير الواسع الذي يقع في الشارع العلوي بالقرب من بوابة قفار : كان جار الله ، واحداً من كبار تجار الحبوب ، في الطريق إلى المنزل التقينا رجلا يدعى نصر ، وهو بدوي متزمت من "رجاجيل" Rajajil قبيلة حرب ، كما التقينا مصادفة أيضا رجلا آخرا اسمه عنيبر Aneybar ، ودعاهما جار الله للذهاب معنا إلى منزله : هذا المضيف الثرى ، المتشدد بعض الشيء ، قدم لنا إفطار ممتازا . كان عنيبر حبشيا Habashey، من الأحباش الذين ولدوا في أسرة عبد الله بن الرشيد، ولذلك فهو يعد أخا عبداً من إخوان طلال ، ومتعب ومحمد : يضاف إلى ذلك أن اسمه ينسب إلى اسم الرشيد . وهذا العنيبر الخليع ، الذي كان منغمسا في الملذات ، كان شخصية كبيرة في حائل ، فيما يتعلق بشئون الإمارة وذلك منذ عهد الأمير طلال . كان عنيبر نشيطاً وواسع الأفق ، وراقي السلوك ، ولكنه في داخله كان يحمل روحا غير روح العبد : فقد نشأ على هذه الأرض وتربى عليها ، كما كان كلامه مباغتا وذهنه متشككا مثل أهل الجزيرة العربية .- عندما عدت ثانية إلى حائل كان عنيبر يود التخلص من حياتي ؛ - ولذلك كانت الفرصة مهيأة اليوم ، لتناول العيش والملح معه .

عزمني حمود مرة ثانية على العشاء ، وكنت أستحم في ذلك الوقت ، "(وقال أحدهم) يالبياض بشرته !" ورد عليه حمود همسا قائلا : "إنه البرص" - "الحمد لله ، تعجبت ليس في بلادي أناس مصابين بهذا المرض ." - "آخ ! قالها حمود (وهو بعيد قليلا" لأني كنت أسترق السمع على كلامه) هل هذا صحيح ؟ إخ ! إخ ! (لأنه لم يكن لديه ما يقوله أفضل من ذلك ، ثم أردف قائلا) الحمد لله ." قال شخص آخر : "والله ، لقد رأيت في بغداد امرأة لها مثل هذه البشرة البيضاء ، وشعر أصفر ، إلى حد أن من يراها يحسب أنها ابنة خليل ." - "(قال ولد عبيد) لكن خبرني ، ألا يشترى الأثرياء في بلدك النساء الشركسيات ؟ - وكيف تكون الأحوال عندكم عندما يكون الإنسان ولدا لامرأة مشتراة (عبدة) ، وأنا أتساءل ، هل هذا أمر مقبول عندكم ؟" - وعندما وجدت أن ذلك الرجل البربري غير المتحضر، بدأ يحسبني ، بسبب ابيضاض بشرتي الفظيع ، ابنا لامرأة شركسية عبدة ، رددت عليه رداً جامعا مانعا : "شراء اللحم البشري غير معروف ولا اسم له في بلادي : أما فيما يتعلق بأولئك الذين يتجرون في العبيد فقد أرسلنا الله للقضاء عليهم . نحن نطارد ونصطاد مراكب العبيد في كل البحار ،

مثلما تصطادون أنتم الضباع ." أحس حمود بشيء من الإرتباك ، عندما كشفت له عن بعض الخلل في آدابهم وسلوكياتهم، (.........)(*) وأن ذلك لم يكن في ديننا ، كما تباهيت بعدائنا البحرى (الذى أصاب أكياس نقودهم بالتلف فيما يتعلق بأهداف العالم الإسلامى) . - "يا خليل ، هل يأكل النصارى لحم الخنزير ؟" - "إى بالله ، ولحم الخنزير لا يختلف عن لحم الضب الذى تأكلونه ، كما أنه لايختلف أيضا عن لحم الحيوان الشيهم الذى تأكلونه أيضا . ألا يأكل البدو لحم الذئاب ، والثعالب ، والضب والفئران ؟ - ألا يأكلون لحم البوم ، والحد Kites والنسر الذى يتغذى على الجيف ؟ ولكني لا آكل أيا من ذلك ." رد على حمود ، بإنسانيته البسيطة ، "ما قصدته يا خليل ، لم يكن يتعلق بمسألة قذارة اللحم وإنما قصدت أن أقول : إن النبى (ﷺ) هو الذى حرم علينا ذلك !" واستدار حمود بعد ذلك إلى سليمان وقال له : "أتذكر أن عبد الله ، الذى جاء إلى حائل في عهد الأمير طلال ، وعالج بندر Bunder ، قال لوالدى إن لحم الخنزير طيب جداً ." "تساءل حمود بعد ذلك ، عندما وجد أن لسانه يعبر عما بداخله) وما هو الزواج عند النصارى ؟ هل هو مثلما يقول الناس [في سائر أنحاء نجد] مثلما يغشى الحصان الفرسة ، أهكذا يتكاثر النصارى (.........) (**) .

بالرغم من أن العرب لا يأكلون اللحم المحرّم ، إلا أن البعض منهم يشربون ما يسمى دم الكروم ، أو إن شئت فقل ما Mà "العنب" El-Enab ، الذى هو عبارة عن عصير العنب المتخمر . وهم يأتون بذلك العنب من بساتينهم ، وهو ينضج في منتصف فصل الصيف ، أبلغني ماجد أن ماء العنب هذا يجرى تحضيره في منزل والده ؛ وسألني هذا الصبى إن كان لدينا شيء من هذا القبيل ، وكان ذلك السؤال بناء على توجيه من والده . والمسلمون ، في ظل هذا الترف الدينى ، يتوقون إلى ذلك الشراب المحرّم ، متصورين أن ذلك يمكن أن يساعدهم في مسألة معاشرتهم لزوجاتهم .

عند تقديم القهوة في منزل حمود ، كنت أعجب دوما من أنى كنت الوحيد بين الحاضرين الذى لا تصب له القهوة ؛ وفي هذا المساء وبينما كان مقدِّم القهوة يمر من

(*) رأينا حذف عبارة تمس الدين الإسلامى . (المراجع)

(**) عبارة غير لائقة رأينا استبعادها . (المراجع)

أمامي وفي يده دلة القهوة والفناجيل ، أشرت إليه وعلى الفور ، صب لي فنجالاً من القهوة . وفي يوم آخر ، تعجب ماجد الذي كان يجلس إلي جواري قائلا : "ألا تشرب القهوة ، يا خليل ؟" وأجبته قائلا : "تأكد ، أنني أشرب القهوة ." وهنا صب مقدم القهوة لي فنجالا ، - ونظر حمود رافعا رأسه إلى الأعلى تجاهنا ، كما لو كان قد قال شيئا ما . وأنا أخمن أن ما قاله كان مجرد شيء من المجاملة ، كيما يجعلني أحس بالاطمئنان . في البلاد الإسلامية ، تكون الوفاة السرية للبشر ، عن طريق فناجيل القهوة . والأمير عندما يدخل منزل أحد من الناس لا تقدم له القهوة ، كما أن القهوة لا تقدم إلى أي أحد في سكن الأمير ، ولكن الأمير يطلب هو القهوة إذا ما أراد ذلك ؛ هذه هي المخاوف المريعة التي تتملك حياوات هؤلاء الناس اليومية .

كان من بين الجالسين في المساء الذين كانوا يزورون حمود في قهوة عبيد ، شخص كانوا ينعتونه بالرجل النبيل ، ولكنه لم يكن سوى مجرد تاجر أجنبي ثري اسمه سيد Seyyid محمود Mahmud ، كبير المشاهدة Meshâhada ، أو إن شئت فقل: تجار مشهد Meshed ؛ والمشاهدة عبارة عن خمس وثلاثين أسرة مقيمة في حائل ؛ وكل تجارة السوق (وكلها سلع وبضاعة من بلاد الرافدين) في أيدي هؤلاء المشاهدة تقريبًا ؛ ومشهد (المكان الذي أستشهد فيه) [سيدنا] علي هي من أنقاض مدينة الكوفة Kufa ، وهم مسلمين فرس يعتنقون المذهب الشيعي .

هؤلاء المنشقون يجري التغاضي عنهم ويكرههم الناس في مدينة ابن الرشيد ، وبالرغم مما سبق ذكره فإن هؤلاء المشاهدة من المواظبين على العبادة وعلى أداء الصلاة مع الناس في المسجد الكبير. والبدو المتزمتون يكرهون هؤلاء المشاهدة كراهية شديدة ، ولذلك فقد سمعت هؤلاء البدو يقولون : "لا شيء بالله ، أنجس من أولئك المشاهدة الملاعين ." والمشاهدة باعتبارهم من رجال الشمال المتحضر والمتمدن ، لديهم حساسية شديدة للأخبار السياسية ، ولذلك قام البعض منهم ، عندما رأوني أمر من أمامهم ، باستدعائي إلى دكاكينهم وراحوا يسألوني عن أخبار الحرب ، - كما لو كانت إقامتي فترة طويلة في الصحاري قد منعتني من أن يكون لدي الجديد الذي يمكن أن أقوله !- لم يكن أولئك المشاهدة يعرفون شيئا عن "انتصارات" السلطان التركي ! كان أمراء حائل (الذين يشبهون البدو) قد عرفوا شيئا من أولئك المشاهدة عن دول العالم ،

ولذلك قال لى حمود ذات مرة وهو يحس نشوة كبيرة : "ما رأيك ، هل ستدوم دولة السلطان (الإمبراطورية العثمانية) أطول من ذلك ؟" - "الله أعلم" . - "إى ! إى ! ولكن خبرنا ما هو موقف أهل بلدك ؟" - "لقد ضعف موقف السلطان تماما ." لم يشعر حمود بالأسف أو الندم (فهم لا يحبون الأتراك) ، ثم سألنى ما إذا كنت قد زرت الهند ؛ - الأمير يرسل كل عام الخيول المباعة إلى الهند ؛ وتجار هذه الخيول يسمعون هناك أن الهند تقف إلى جانب الإنجليز . كان لدى حمود رجل متعلم ، هو مدرس ولده ماجد ، كان ذلك المعلم بحكم طبيعته ، متشبع بالدراسات الليبرالية . سألنى ذلك المعلم عن أخبار كثير من الأمم (الدول) النصرانية ، التى سمع عن أسمائها ، كما سألنى بصفة خاصة عن كل من فرنسا ، وبروسيا ، وعن النمسا ، أو إن شئت فقل عن الإمبراطورية النمساوية . "قلت له ، كل ذلك يمكن أن تقرأه بطريقة ممتازة فى كتاب معى ، عن الجغرافيا ، مكتوب باللغة العربية ، ومؤلفه رجل منا أقام فى الشام فترة طويلة ، والكتاب موجود فى غرفتى ." - قال حمود "اذهب يا خليل ، وعد إلى بذلك الكتاب" . وهنا أوفد حمود واحداً من خدمه ليضىء لى الطريق ، عن طريق جريدة من جريد النخيل أشعل فيها النار .

"(سألنى حمود بعد أن عدت من غرفتى) كيف ! تعلم أهلك اللغة العربية !" فتحت الكتاب على الفصل المعنون "شبه جزيرة العرب" . راح حمود بنفسه يقلب صفحات الكتاب، وعثر على الأشعار الحلوة، "أوه! مرحبا بك ، يا نجد الحبيبة ، الدنيا كلها عندى ليست كهواء نجد ، رعى الله نجد !" وبابتسامة تنم عن السعادة والرضا ، وبتنهيدة صغيرة ، سلم هذا الوطنى ، وهو نفسه قصَّاد(*) الكتاب إلى معلم ولده وأردف قائلا : "كيف حدث ذلك ؟ - هل النصارى إذن "أهل" Ahl "أدب" Athab بمعنى "هل النصارى أمهة مؤدبة" ! وهل مثل هذا الكلام الجميل متداول بينهم ؟ هيه !- خليل ، هل هناك كثيرون ممن يقولون هذا الكلام ؟" هذا العمل لم يكن مقبولا من هؤلاء العرب ، لأن من ألفه كان من غير دينهم . أرشدت المعلم إلى الموضع الذى ورد فيه ذكر حائل فى ذلك الكتاب، وهنا راح المعلم يقرأ بصوت عالٍ ، وعندما أغلق المعلم الكتاب، قلت إننى سوف

(*) قصاد : هنا بمعنى "شاعر" والكلمة عربية فصيحة . (المترجم)

أعيره هذا الكتاب ، وقد قبل حمود ذلك قبولا (فاترا) . ووضعت بين أيديهم أيضا كتاب المزامير "والد داود من سليمان" تلك الأسماء التي يستمع إليها هؤلاء الناس باحترام وإجلال، ولكنهم لم يعرفوا ولم يشاهدوا كتابهم. وهذا أيضا قد لا يرضيهم أو يسرهم ! نظرًا لأن هذا الكتاب جاء من قبل النصارى ، أولئك الذين حرفوا الكتاب المقدس" ؛ والذي لا شك فيه أن عنوان الكتاب أوحى لهم "بعبادة الأوثان" – المزامير El-Mizamir (باعتبارها أغاني كانت تغنى على الناى) ؛ ومع كل ذلك فهم لا يقرءون .

"قال حمود، يا خليل ، هذا هو سيد محمود، ويود أن يسمع منك شيئا عن الأدوية؛ لعلك تزره في بيته ، وسوف يضع أمامك شيشة ." – هذه الشيشة كيف للأجانب ولكنها لا تستعمل في " ... . أخبرني حمود ، في مرة أخرى ، أنه لايعرف أحداً من التجار في حائل ، يزيد دخله على ألف ريال ، وسيد محمود وحده ، هو واثنين أو ثلاثة آخرين من تجار الجملة هم ، على حد قول حمود ، الذين يربو دخل الواحد منهم على ألف ريال . وفيما يتعلق بالتجار الأجانب ، كان هناك إلى جانب التجار المشاهدة ، تاجر من بغداد ، وتاجر أيضا من المدينة (المنورة) ؛ – ولم يكن هناك تجار سوريين أو مصريين . طلب مني حمود أن ألقي نظرة على مدافع الأمير أثناء مروري من أمام المُضيف (قاعة الضيافة) :– وجدت أن عدد تلك المدافع يتراوح بين خمس أو ست قطع من مدافع الميدان الصغيرة ، كما رأيت على اثنين منها نقوشًا ألمانية . المدفعية التي من هذا القبيل لا تكون لها فائدة عندما تستعملها أيدي ممتازة ؛ ومع ذلك فهذه المدافع تستطيع داناتها تكسير الجدران المبنية من الطين في البلدان النجدية . حصل أمراء الشمَّر على تلك المدافع من منطقة الخليج ، ومع ذلك فإن قلة قليلة من الأشخاص هم الذين يعرفون متى استعملت هذه القطع في العمليات الحربية التي قام بها الأمير ، اللهم باستثناء سحب ذلك المدفع الكبير لإشراكه في الحملة التي قامت بها بريدة على عنيزة ؛ ومع ذلك لم يستطع خدم الأمير استعمال ذلك المدفع . ولم يطلق هذا المدفع سوى دانتين فقط على مدينة عنيزة ؛ وقد ارتفعت الدانة الأولى إلى عنان السماء في حين سقطت الدانة الثانية أمام أرجلهم على تراب الصحراء .

– أتناول الآن يومًا من أيام حائل : مضى الآن حوالي ساعتين على شروق الشمس ، وهذا هو الموعد الذي يصل فيه الأمير إلى المسهاب (الميدان العام) ليحضر

انعقاد المجلس الصباحي ، وهذا المجلس يشبه مجلس البدو الرُّحَّل . فهذا هو كبير الشيوخ يجلس علانية أمام الجميع مع الشيوخ أمام عامة الناس ؛ ومجلس الأمير يشبه المحكمة الشعبية ، فهو يجلس ليقوم بدور القاضي ودور الرئيس بين هؤلاء الناس . وهذه مصطبة مبنية من اللبِن بطول جدار القصر المواجه للمسهاب (الميدان العام) ، وأمام المسجد ، وتمتد حتى بوابة البرج ؛ والمكان الذى يجلس عليه الأمير يقع فى المنتصف يرتفع قليلا عن بقية المصطبة وهو مبنى من الطين أيضا (وليس مفروشا عليه أى نوع من السجاد وذلك من باب التقشف والبساطة) ، ويوجد أمام مكان الأمير مصطبة صغيرة أسفل المكان الذى يجلس عليه الأمير ؛ والذى يجلس على تلك المصطبة الصغيرة هو كاتب الأمير أو إن شئت فقل : سكرتير الأمير ؛ هذا السكرتير اسمه نصر وهو يجلس عند قدمى الأمير . والمقعد الذى يجلس عليه حمود عبارة أيضا عن مصطبة صغيرة ، وهى أيضا أدنى من المصطبة التى يجلس عليها الأمير) وهى تقع بالقرب من باب القلعة . هناك أيضا مقابل جدران المسجد ، يوجد مقعد مرتفع ، يجلس فيه الشيوخ فى فترة العصر ، عند انعقاد المجلس الثانى ، بعد صلاة العصر . وعلى الجنب ، وفى مواجهة الأمير ، يجلس القاضى ، أو إن شئت فقل رجل الشريعة الإسلامية ؛ الذى يوجد الكثير من أمثاله فى حائل ، والذى يقوم فى الحالات الصعبة ، بتسجيل كلام الأمير ، وتفسير المعنى ، الخاص بالنص القرآنى . وعلى جانبى الأمير يجلس الشيوخ ورفاق الحاشية؛ وعبيد الأمير يقفون أمام هؤلاء الشيوخ على الجانبين ؛ وفوق مصطبة طويلة من اللبن يجلس رؤساء الخدمة العامة ومعهم سراياهم ؛ ويلى هؤلاء الرؤساء هم وسراياهم ، بدءاً بمن يجيئون فى المرتبة بعد الأمير ، يليهم البدو الزائرين الذين يجلسون حسب منازلهم وأهميتهم -- ترى الناس وهم جالسين هنا مثل انحناء القوس أمام المجلس ، وفوق تراب الميدان العام ، وترى "الرجاجيل" متكئين على سيوفهم ، وعلى جرابات سيوفهم ، ويقدر عددهم بما يتراوح بين مائة ومائة وخمسين رجلا ؛ الناس هنا هم جنود الأمير ، والجلادين الذين ينفذون أحكامه ، وكذلك أفراد عصابات الغزو ؛ إنهم يجلسون هنا (أمام الطاغية) فى المكان المخصص لمجلس البدو الرحل . هذا يعنى أن مجلس حائل مسألة يومية يصطف فيها السيَّافة ، الذين يعمل الكثيرون منهم فى الخدمة المدنية فى المدينة ، فى غير ساعات المجلس . يدخل

المتقاضون في هذه الدائرة المسلحة ومعهم المتهم والمسترحمين ، أو باختصار كل من له مسألة (لا تخص الإمارة) ، أو كل من يتعين عليه المثول أمام الأمير ؛ ويستمع الأمير إلى قضاياهم ، ولكل من له صلة بتحقيق العدالة : وهنا يجرى على الفور تنفيذ الأحكام التى يصدرها الأمير . وفى الشهر الذى أقمته فى حائل كان عدد من يحضرون المجلس كل يوم أمام الأمير لا يقل عن أربعمائة شخص .

هكذا يقرِّب الأمير نفسه من الشعب ومن الناس ، وبذلك يتعرف السواد الأعظم من شئونهم . وعدل الأمير محمد وحكمته الشعبية هما الأفضل ، ومن منطلق إنه هو نفسه ذاق البلاء والشقاء في بعض الأحيان . والأمير محمد قاضي عادل ، شأنه شأن الشيخ الذى يحكم بين البدو ، كما أنه قاسى فى العدل : ولم أسمع أى أحد يتقول على أعمال الأمير للعدل بين الناس إعمالا حقيقيا . وعندما سألت عن موضوع الرشوة والرشاوى فى مدينة حائل ، وبخاصة من خلال أولئك القريبين من آذان الأمير ، أجابونى قائلين : "لا ، كلا" . هذا يعنى أن الفساد البيزنطى لا يمكن أن يتسلل إلى بساطة هؤلاء الناس الأبدية والتى تتسم بالنبل في هذا البلد البدوى الفقير ؛ ولكننا (رأينا بالفعل) أن ذلك الفن ليس غريبا على أمراء الشَّمر الأذكياء ، الذين يلجأون إليه لتمشية أمورهم مع الحكومات التركية المجاورة لهم . بعض أيضا من أعراب بن الرشيد ، ومن رجال القبائل فى ديار المدينة (المنورة) يمارسون أو يعرفون هذه العادة الشريرة : حكى لى أحدهم أن واحداً منهم جاء برشوة لتمشية أمر له في مدينة حائل ، وعندما جاء الدور على البت في موضوعه ،قام بوضع عشرة ريالات في يد القاضي . ولكن القاضي نهض واقفًا في مكانه وراح يوسع الرجل ضربا على كتفيه ، إلى أن كل وتعب ، ثم حوله بعد ذلك إلى الأمير ، الذى كان يجلس فى المكان المخصص له ، والذى قام هو أيضا وأوسع ذلك الرجل ضربا على ضربه الأول ، ولم يكتف بذلك وإنما أمر عبيده بأن يضربوه هم أيضا . والمجلس يندر أن يستمر أكثر من عشرين دقيقة ، نظرا لقلة الأقوال التى يمكن الاستماع إليها ، نظرا لأن الأمير كان يشعر بوعكة على امتداد بضعة أيام (إذ كان يشتكى ويعانى من الصداع ومن آلام فى المرارة) . الأمر الذى كان يؤدى إلى توقف المجلس بين الحين والآخر ؛ - وكان يجرى بعد ذلك البت فى قضايا سبعة أيام مضت في جلسة صباحية واحدة ! والمجلس يقف أعضاؤه وينفض

عندما ينهض الأمير واقفا في مكانه وهم يقولون هنا "ثار" Thâr "الأمير" El-Emir ، عندما يقف أثناء انعقاد المجلس . - ويلي ذلك ، هفهفة مئات الغتر في الميدان العام (المسهاب) ، كنا نحسب أننا نرى جحفلا من الفراش يهفهف بأجنحته . وأهل الحضر يذهبون إلى المجلس وهم يرتدون ملابس نظيفة ومشرفة ، ولكن البدو يجيئون إلى المجلس وهم يرتدون خرقا بالية كما هو حالهم في القرى التي يتجولون فيها .

ينصرف الأمير ومعه جماعته من المجلس ، ليذهبوا إلى منزل من منازل الأمير يقع عند الجانب العلوي من المسهاب (الميدان العام) حيث يشربون القهوة ويرتاحون برهة صغيرة : ومن هذا المنزل يذهب الأمير ومعه مجموعة صغيرة من حاشيته وبعض "الرجاجيل" Rajajil لزيارة أسطبل الخيل ؛ وهناك حوالي ثلاثين فرسا مملوكة للأمير في حائل ، وهي مربوطة في أرض مجاورة للقلعة المبنية من الطين وتواجه قهوة عبيد Abeyd. وبعد زيارة الإسطبل يأمر الأمير رجاله بالانصراف قائلا لهم: "انصرفوا الآن، يا عيال Eyyal ،" ثم يدخل الأمير القصر مرة ثانية ؛ أو قد يذهب الأمير ، في بعض الأحيان ، بصحبة حمود وأصدقائه المقربين لاستنشاق الهواء ، في منزله الصيفي الموجود بالقرب من بئر ماء Mâ السماء Es-Sâma ، أو قد يذهب إلى مزرعة عبيد : أو قد يقوم الأمير بالمرور عبر السوق (الشارع) لزيارة شخص ما في المدينة ، من أمثال غانم الحدّاد ، للوقوف على سير أحوال الأشياء المطلوبة ؛ - ثم يعود بعد ذلك إلى القلعة حيث يكون في انتظاره بعض البدو أصحاب المصالح ، أو بعض الناس الذين جاءوا من القرى ، أو بعض المراسلين ، الذين يسمح لهم بمقابلة الأمير بعد عودته . منصب الأمير عملية مرهقة ومتعبة في حائل ، يضاف إلى ذلك أن رأس هذا الأمير الذكي تكون دائما مشغولة بالشئون العالمية المحيرة . سياسة هؤلاء الأمراء من النوع الآسيوي الغامض . وهذه السياسة لا تبني على المغالطة الرقيقة التي في سياسة الغرب (المسيحي) ، التي تعول كثيراً على البناء على مسألة الفضيلة الطبيعية (التي يتخيلون أنها) في صدور الرجال وقلوبهم ؛ والسبب في ذلك أن حكام الشُمّر يهتمون بالناس جميعا ، ويقيّمون دون إحساس بالألم أو الندم كل روح من الأرواح البشرية باعتبارها مزبلة مستقلة في حد ذاتها . وحرص هؤلاء الحكام الماكر ينصب على الحاضر وليس بدلا من النظر إلى بعيد ، وهم يستفيدون دائما من المفاجأة العاجزة

التى تترتب على التعجُّل العربى . والأمير يحكم كما لو كان بازا بين الصقور ، بحيث تكون عيناه ومخالبه فى أرض الفريسة ، ومع ذلك فالحكم ليس قاسيا بشكل عام ، وإلا فإن القسوة الشديدة في الحكم يمكن أن تضعف من سلطان الأمير . والعربى لا يستغرق استجوابه وقتا طويلا ، والعقد المستعصية يجرى حلها باستعمال السيف . والأمير بن الرشيد قد يركب حصانه ويذهب لاستنشاق الهواء ؛ وهو عندما يفعل ذلك يمتطى صهوة فرس بيضاء اللون ، ناقصة النمو ، لأن هذا هو حال الخيول النجدية فى حائل ، فهى لا تكون متناسقة تماما من حيث الشكل . كنت جالسا ذات يوم بعد غروب الشمس على المصطبة المبنية من الطين عند بوابة القلعة عندما وصل الأمير راكبا على فرسه وحده : ووقفت لتحية الأمير ، وجفلت فرسه عندما شاهدت غترتى البيضاء الكبيرة في ضوء الشفق . حاول الأمير محمد حث الفرس على المضى قدما باستعمال الرِّكاب ، ثم استحثها مرة ثانية ، ولكنها لم تطعه ، الأمر الذى جعله يرضخ لذلك الحيوان غير العاقل أو إن شئت فقل : العنيد ؛ وبخفة بالغة نزل الأمير من فوق الفرس ليسلمها بعد ذلك لأول خادم يلتقيه من خدم القصر .

كانت الجماعات البدوية تجىء يوميا حاملة مشكلاتها إلى الأمير ، وكل جماعة أو إن شئت فقل رُبَّة Rubba ، من تلك الجماعات كان يخصص لها مخزن من المخازن ، ويبقون ضيوفا على الأمير (طيلة ثلاثة أيام) فى المدينة . وقد رأيت إلى جانب القبليين رعايا الأمير ، كثيرا من البدو الأجانب من أمثال الظفير Thuffir والمطير Meteyr ، الذين كانوا من الأعراب الأصدقاء خارج إطار ممتلكات ابن الرشيد ، ومع ذلك كان الأمير يتلقى سنويا من هؤلاء البدو الأجانب بعض الهدايا . يضاف إلى ذلك أن حائلاً كان يصل إليها بعض رجال قبيلة العنزى الحرة فى الشمال ، كما كان يفد إليها أيضا بعض من الشُّمُّر الشماليين ، هذا بالإضافة إلى بعض القحطان المهاجرين الذين يتجولون حاليا فى سائر أنحاء القصيم .

يبدأ العمل العام فى الواحة قبل بداية مجلس الصباح بساعتين . وسكان الواحة من المزارعين ، والتجار (معظمهم غرباء) فى السوق ، و"الرجاجيل" الشيوخ ، إضافة إلى قلة قليلة من العبيد الذين ينتسبون إلى بعض العائلات . والمزارعون يذهبون إلى أعمالهم عند شروق الشمس . وفى خلال ساعة ينفتح السوق : وهاهم الدلالون ، أو إن

شنت فقل السماسرة ، الذين يعملون في كل ما هو معروض للبيع ، سواء أكان جديداً أم قديما ، أو أقمشة أم سلاحا ، يصيحون وينادون في كل أرجاء السوق ، وينشرون بضاعتهم أمام كل من يقابلونهم ، ويدخلون الدكاكين بكل هذه الجلبة ليبيعوا بضاعتهم بأعلى سعر ، وبذلك استطعت أن أبيع ناقتي الخويرة . وقست السوق الذي يمتد من المسهاب (الميدان العام) إلى البوابة الداخلية في اتجاه قفار ، ووجدته حوالي مائتي خطوة ، والدكاكين توجد على الجانبين ، وهي عبارة عن مخازن صغيرة للبضاعة مبنية في الخلف ، والضوء لا يدخل هذه الدكاكين إلا من مدخلها فقط ، - يصل عدد الدكاكين إلى ما يقرب من مائة وثلاثين دكانا ، كلها مملوكة وتستأجر من الأمير . كان سوق القصابين في منطقة تقع خارج بوابة السوق الخارجية : ولحم هؤلاء القصابين الطرى سرعان ما يبتاعه الناس خلال ساعة واحدة من شروق الشمس ، وهم يبيعون الرطل من اللحم الضأن ، بما يقل عن بنسين ، ومعروف أن الفخذة الصغيرة تشترى بحوالي ست بنسات ، في زمن كان الناس فيه يدفعون تسع شلنات ثمنا للخروف في مدينة حائل ، في حين كان يبلغ ثمن العنزة حوالي ست شلنات . من هنا كنت أرى البدو يعودون بماشيتهم الصغيرة مؤثرين عدم بيعها على تلك الأسعار المتدنية :- هذا يعني أن هؤلاء البدو سيعاودون اقتياد تلك الماشية الصغيرة عبر مسافة تقدر بحوالي ثلاثمائة ميل ، إلى سوق المدينة (المنورة) ! التي سمعوا أن أسعار الغنم فيها ارتفعت لتتساوى مع أسعارها في الجبل Jebel . وحرفة الجزارة ، بالرغم من أن البدو كلهم جزارين ، لا يمارسها في نجد أي شخص من الأشخاص الليبراليين .

يحضر مفرج مرة ثانية إلى المسهاب (الميدان العام) في المساء : ومن عادته أن يصل إلى بوابة القلعة ، أو قد يرسل خادما من خدم المطبخ ، حسب عدد الضيوف ، ليدعو ربّات Rubbas (جماعات) البدو لحضور العشاء العام الذي لا يعدو أن يكون مجرد طبق هزيل من أرز التمن المسلوق مع الشعير والمحيق بقليل من السمن . ومفرج يوجه لهم الدعوة بطريقة لائقة يراعي فيها قدر هؤلاء الناس ومنزلة الشيوخ منهم ، من باب إن وجودهم هنا أمر يحظى بترحيب الأمير ، كما يراعي مفرج أيضا العداوات التي تكون بين أفراد القبائل . وحتى أنا ، النصراني ، أيضا كانوا يدعونني كل يوم لتناول العشاء في الشرفة ! كنت أقبل تلك الدعوة لسببين ،- أولهما ، أنني كنت ضعيفا

وواهنا ، وأن العمل يمكن أن يسبب لي شيئا من الخطر إذا ما جازفت وطهيت شيئا لنفسي ، والسبب الثاني أني لم يكن لدى الحطب أو الوقود ، إضافة إلى أن الغرفة لم يكن بها مدخنة ، الأمر الذى قد يؤدى إلى اختناقى داخلها بفعل الدخان ، يضاف إلى ذلك أننى إذا ما أكلت العيش والملح فى المُضيف ، فذلك فى تقديرى ، سيجعلنى أقل تعرضا للخطر المفاجئ من جانب الأمير ! ولكنى لم أكن أحضر تناول الإفطار فى المضيف ، نظرًا لأنى كان بوسعى الحصول على أجود أنواع التمور ، عن طريق شرائها من السوق بثمن زهيد جداً ، وإذا كنت قد ضمنت حرية الحركة فذلك يعنى أنى كنت أتجول تجوالا حرًا فى مدينة حائل ؛ كان قد مضى عام على وصولى إلى الجزيرة العربية ، ولم يكن يتبقى معى سوى القليل جداً من النقود ، التى كان يتعين على الاحتفاظ بها للضرورة القصوى .

والناس فى قرى الجبل Jebel يدعون إلى تناول الطعام بكلمة "سُمّ" Summ ، أو قد يقال شيء من هذا القبيل عندما يوضع الطعام أمام الضيف . والأحرى أن تكون هذه الكلمة "سم" Smm وهى قد تكون مأخوذة من "البسملة" b'ismi, llah . ولكنى عندما سمعت كلمة "سُم" Summ لأول مرة ! عندما قام صبى من صبيان المضيف بوضع طبق أرز التمن أمامى ، خطر ببالى أنه قال لى (من باب الحقد والكراهية) "سِم" Simm ، الذى هو "السم" الذى يقتل البشر ، ولم يكن ذلك الصبى أقل منى اندهاشًا عندما فاجأته بطريقة العرب ، ورجوت الله أن يلعن والديه : - وبهذا الشك فى مسألة السم هذه ، تناولت أيضًا الطعام الذى وضعه أمامى ، لأنهم إن كانوا يريدون التعامل معى بهذه الطريقة فذلك يعنى أننى لن أستطيع الفرار منهم . ومن العشاء ، ينتقل البدو ضمن جماعاتهم إلى القهوة العامة : وبعد أن يتناول الضيوف العشاء يقدم العشاء للرجاجيل بنفس الطريقة ، وعلى أرض المضيف ؛ وفى المضيف يتناول "الرجاجيل" أيضًا وجبة الظهيرة من التمر ، شأنهم فى ذلك شأن الضيوف تمامًا . هذا التمر المؤسف هو والبر (القمح) ، والذى يقدمه المطبخ للضيوف ، يأتى للأمير على شكل سداد للضرائب المطلوبة من المولين ، فى سائر الهجرات والقرى ؛ وأفضل أنواع هذه التمور يجرى الاحتفاظ بها لأسر الشيوخ . بانتهاء العشاء العام ، قد يرى الإنسان كثيرًا من النساء الفقيرات ، وبعض الأطفال ، ينتظرون الدخول إلى المضيف ،

وفى أيديهم مواعينهم الفارغة ، عند بوابة القصر . هؤلاء هم الذين صرح لهم الأمير بالحصول على وجبة تموينية مسائية ، من البقايا المتبقية من العشاء ، لتوزع عليهم وعلى المعدمين الآخرين من أمثالهم . كان يقدم فى المضيف يوميًا للضيوف وللرجاجيل حوالى ١٨٠ وحدة من وحدات خبز الشعير ، وأرز التمن من الدرجه الثانية ، وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تزن حوالى ثلاثة أثمان الجالون ؛ كما كان يصرف أيضًا شيئًا من السمن . هذا السمن الذى كان يوزع على شكل كرم عام كان الأمير يأخذه من البدو ، بل ومن كل خيمة من خيام البدو ، ويجرى تحصيله بمعدل قديم ؛ وهذا التحصيل لا يحدث إلا فى فصل الربيع ، كما كان يجرى شراء ذلك السمن بواقع شلنين لكل ثلاثة بنتات (*) ، هذه الكمية تساوى حاليًا ريالاً واحدًا فى حائل . ويجرى ذبح جمل أو حيوان من الحيوانات الصغيرة ، كل ثمانية أو عشرة أيام ، على أن يوزع لحم هذا الحيوان على أول من يصل من الضيوف . وأثناء غياب الأمير ، لا يحضر البدو إلى حائل وبالتالى لا يكون هناك ضيوف . من هنا حسبت نفقات الأمير ، خلال عام ، على بيت الضيافة بما يقدر بحوالى ١٥٠٠ جنيه إنجليزى .

فى القهوة العامة يجرى تصليح قهوة المساء وتقديمها للحاضرين . وطوال جلوس جماعات أو إن شئت فقل رُبّات البدو المختلطة كانوا يراعون معى السلوك المتسامح الذى كانوا يولونى إياه فى خيامهم ؛ – وهل يكون كل الحاضرين فى القهوة زوار الأمير ؟ المعروف أن قهوة الأمير تفتح أبوابها بعد صلاة الفجر مباشرة لأولئك الذين يتطلعون إلى فنجال قهوة الصباح ؛ وتقفل القهوة أبوابها عندما ينصرف الجميع منها عندما يحين موعد انعقاد مجلس الصباح . وتعيد القهوة فتح أبوابها مرة ثانية بعد صلاة المغرب . والقهوة تقدم بواقع فنجالين مملوءين لكل واحد من الحاضرين ، ويقدم فنجال ثالث ، وعندما يكون الشخص بدويًا من قبائل نجد ، ولن يشرب الفنجال ، فإنه يرد بعد فترة وجيزة من تقديم الفنجال بقوله : كرمك الله Karamak Ullah . وتغلق القهوة أبوابها طوال الليل بعد أن ينصرف البدو لصلاة العشاء فى المسجد . وبعد العشاء يجرى إغلاق بوابات ذلك الجناح من قصر الأمير ، هو وشارع السوق ، –

(*) البنت pint : مكيال للسوائل يساوى ثمن جالون إنجليزى ١ و ٠،٦٨٥ من اللتر . (المترجم)

ولا يجرى فتح هذا الجناح ولا شارع السوق لا "للصلاة ، أو البيع والشراء" إلا مع طلوع نهار صباح اليوم التالى ؛ يضاف إلى ذلك أن البدو الذين يصلون بعد قفل البوابة ينامون خارج القصر ؛ - أما بقية حائل كلها فتظل مفتوحة ، وهى عبارة عن كل المنطقة الواقعة فى اتجاه قفار وجبل أجا Ajja .

ركب الأمير محمد ، قبيل عصر يوم من الأيام ، راحلته ومعه رفاقه وأفراد حاشيته وخدمه وذهب لزيارة "الدبوش" ed- dubush أو إن شئت فقل : ثروته الحيوانية فى الصحراء . هذا الأمير النجدى يملك ثروة حيوانية كبيرة ، تقدر حسب ما يقولون بحوالى أربعين ألف جمل . ومعروف أن هذا القطيع من سلالة نجدية أصيلة ، وعلى حد قول على Aly عليد Alyid (ذلك الرجل الأمين الذى كان جاراً لى ، والذى كان يعمل فى خدمة ذلك القطيع من قبل ، - أنه كان يقتاد خيولاً من الأمراء السابقين للأمير محمد ، لتوصيلها إلى باشوات مصر) ، فإن الأمير محمد لديه ثلاثمائة فرس من الإناث ، وحوالى مائة حصان من الذكور ، بالإضافة إلى كثير من الأفلاء والأمهار . وعلى حد قول أناس آخرين ، فإن ابن الرشيد لديه حوالى أربعمائة جندى من الجنود الدائمين وغير الدائمين ، كما أن لديه مائة من الأمهار الأصيلة ، وحوالى مائة حصان: وأن هذه الثروة الحيوانية مقسمة إلى قطعان منفصلة فى الصحراء ؛ كما أن لدى بن الرشيد أيضًا حوالى مائة شخص "من الخدم الدائمين" (يعيشون مع عوائلهم فى خيام من الشعر ، شأنهم فى ذلك شأن البدو الرحل) ، الذين يقومون على أمر هذه الحيوانات . قال لى شخص آخر إن ثروة الأمير الحيوانية مقسمة إلى قطعان قوام كل قطيع منها يتردد بين الخمسين والستين من الأمهار أو الأحصنة ؛ كما أن الأمهار والأفراس الصغيرة ، هم الذين يقومون على رعيها أيضًا . ويقال أن هذه القطعان تنتشر ساعة هنا وساعة هناك ، وتارة تكون بعيدة وتارة أخرى تكون قريبة ، - وذلك اعتماداً على حالة نمو الأعشاب البرية فى الصحراء على مدار العام . وخيول الأمير ترعى بالطريقة البدوية ؛ وبعد تقييد أرجل الخيل الأمامية ، يجرى إطلاقها ترعى اعتباراً من الصباح الباكر . وهذه الخيول لا تذوق طعم الشعير أو الحبوب الأخرى : ويجرى اقتياد تلك الخيول فى المساء إلى الخيام ، حيث يجرى تقييدها أثناء الليل ، ويقدم لها لبن النياق ، التى تقوم بدور الأمهات البديل . - من هنا يمكن القول : إن

أمـير غـربى نجد يملك خيـولاً وإبلاً تصل قـيمـتهـا إلى مـا يقرب من ربع مليون جنيـه استرلينى ؛ وأنه جمع هذه الثروة عن طريق الغزو والغنائم ، التى كان يأخذها من البدو المسـاكين على امـتداد جيلين من الزمـان . والأمـيـر يملك بالإضـافـة إلى ذلك ، ثروات أخرى خـاصـة على شكل مـعادن ، أمـا ضـرائبه العامة فـهى تذهب إلى خزانة الحكومة ، أو إن شئت فقل : بيت المال beyt el- mâl ، ويجرى وضـعـها فى زكائب ثم توضـع فى حفر فى الأرض . والأمـير له أمـلاك كثيرة على شكل أراضى ليس فى حـائل وحدها ، وإنما له مـزرعـة كـبيرة أيضًا فى الجوف ، وفى بعض الواحـات الأخـرى التى غزاها واستولى عليها .

– شاهدت الأمير محمد أمام القلعة راكبًا جملاً عاليًا عليه غطاء مزركش موضوع فـوق السُّرج . والأمـيـر يقـيم أثنـاء قـيـامـه بتلك الرحـلات القـصـيـرة فى الصـحـراء هو وحاشيتـه ، فى خيام مثل البدو . وقد خلف الأمـير حمـود وراءه فى حائل ليحضـر انعقاد المجلس الصـغـيـر الذى ينعـقـد كل يوم ؛ – وولد عـبـيـد لا يجلس فى المكان المخـصـص للأمير ، وإنما يجلس فى المكان الأدنى المخصص له .

أرسل حمـود فى طلبى فى العصر بعد أن فرغ من عمله : "قال : لقد رحل محمد وها نحن نبقى هنا لنكون أصدقـاء ." وهنـا بدأ حـمـود يعـرض على سـاعـاته الخليـجـيـة الرخيصة ، التى كان يلبس منها سـاعتين على صدره ؛ وهذا هو مـا يفعله ولده ماجد المولع بتلك الأشيـاء الجديدة ، – قيل إنه يعرف طريقـة مسح تلك السـاعات وأن حمـود لديه مـا لا يقل عـن مائة من تلك السـاعات ، كما أن الأمير لديه هو الآخر عددًا أكبر مما لدى حـمـود من هذه السـاعات . سـألنى حـمـود إن كـانت تلك السـاعات إنجليـزية الصنع أم لا ، أو بالأحرى ، "ما إذا كانت تلك الساعات من أفضل ما يصنعه النصارى من نوعـهـا". كان حـمـود يود من وراء ذلك مـعرفـة مـا إذا كنت احـتـفظ بشىء من تلك الحاجيات المرحة فى أعمـاق الخُرج الذى احتفظ فـيه بأشـيائى ، ومـا إذا كـانت تلك الأشياء ممتازة الصنع . وقد وعدنى وعدًا قاطعًا ، أنه سـوف يدفع ثمن هذه الأشيـاء بالفلوس ، على حد تعبيره ؛ أو إن شئت فقل : سيدفع الثمن بالفضـة أو النقود التى يُعِزُّها هؤلاء العرب البائسين مـعزتهم لدم الحياة فيـهم . وجدت حـمـود مـسـتلقيا على الأرض ، مثل البدو وبلا عمل ، ويتثـاءب فى المزرعة الملحقة بقهوة عبيد ، التى يقال إنها

تمتد إلى ما بعد المخازن (الغرف) المخصصة لعائلته في المدينة (والواقع أن هذه المزرعة ليست من بين المزارع الممتازة) . وعبيد لديه ، في مزرعة النخيل هذه ، كثير من الغزلان التي تتغذى على الجلّبان الذي يجرى نثره لها كل يوم ، غير أن تلك الغزلان تخشى من اقتراب البشر منها : شاهدت أيضًا في مزرعة النخيل تلك ذكر البدنة . هذا التيس البري الجبلي القوى يستطيع ملاحقة الإنسان بل ومطاردته ومهاجمته ، إضافة إلى أنه يدخل القهوة دون خوف أو وجل . وذكر البدنة هذا أقوى من أي تيس من تيوس الماعز المعتادة ، وأشد منه قوة ، وشعره قصير وكثيف ؛ ولونه أرجواني ، أو بالأحرى يشبه احمرار ضوء الشمس عند غروبها خلف الجبال الداكنة .

مزرعة النخيل هذه ، مملوكة لعبيد ، وقد استخدمت أفضل الأساليب في زراعتها . سيقان النخيل في هذه المزرعة ، في تربة حائل الضعيفة ، مزروعة على شكل صفوف بينها مسافات واسعة . تحدثت مع علي عليد ، ذلك الجار شبه المتشدد من جيراني ، ذلك الرجل الذي فتش حزامي فور وصولي بحثا عن الذهب ، هذا الرجل كان من مجوج ولكنه يعمل حاليا في حائل ، رئيسا للمزارعين الذين يعملون لحساب الأمير . رد عليَّ ذلك الرجل قائلا : "في مثل هذه التربة (جرانيتية التراب) الواسعة يحمل النخيل أفضل الثمار؛ ولم يفد ذلك الرجل من طريقة غرس الأشجار التي علمته إياها ." كان عمق بئر حمود الكبيرة في تلك المزرعة يصل إلى حوالي خمسة عشر قامة ، وقد جرى حفر هذه البئر في تلك التربة الصلدة ؛ والجوانب العليا لتلك البئر ، التي أحرقتها أشعة الشمس ، تقف صامدة دون بطانة داخلية أو بناية . عمل في حفر هذه البئر خمسة عشر عامل ، كان كل واحد منهم يتقاضى ثلاثة أو أربعة قروش يوميا ، طوال عشرين يوما ، أي أن التكلفة وصلت إلى ما يقرب من عشرة جنيهات إنجليزية . وتعمل في جلب الماء من البئر ثلاث من أفضل النياق التي تساوي الواحدة منها حوالي خمسة وثلاثين ريالاً . هذا وقد تضاعفت أسعار الإبل في الجزيرة العربية في السنوات الأخيرة بعد الجفاف الشديد الذي أصاب كلا من مصر والسودان في الحروب الحبشية (*) ،

(*) الحروب الحبشية : وهي الحروب التي قام بها الخديو إسماعيل ضد الحبشة في عام ١٨٧٥ بسبب منازعات الحدود بين الحبشة والممتلكات المصرية في السودان والصومال . (المراجع)

كما تضاعفت أيضا في سوريا . وقد اندهشت عندما سمعت بدويا يتحدث قائلا :- "وبالله ، السبب هو قلة قيمة النقود !" وإذا ما توالت سنوات الجفاف فسوف يحدث موْتان(*) . ففي موسم من المواسم كان الجمل يباع بكراون(**) واحد عند البدو الرحل ، كما كانت الناقة صغيرة السن ، والتي كانت تساوى ستين ناقة من النياق العليلة الحالية ، تباع بريالين أو ثلاثة ريالات (كان ذلك عند أهل قرى القصيم ،) وكان الناس يبيعون تلك الحيوانات على وجه السرعة مخافة النفوق في الصحراء .

ماجد ، هو الابن الأكبر من بين أبناء حمود ، وعمره حوالى خمسة عشر عاما ، وجسمه أصغر من سنه ، وجماله من النوع الأنثوى ، وهو ولد الأمير (بحكم أن الأمراء يتزوجون البدويات أيضا) من زوجته البدوية . كان يرافق ماجد بصورة دائمة شاب منحل ، يدعى عليا ، كان متزوجا من أربع زوجات وكان من المتعلقين بخدمة حمود . هـذا الثنائي العجيب كان يغزواني بصورة مستمرة في بيتي ، بفضولهم العربي الذى لا ينتهى ، ويحاولان وضع أيديهما على الأشياء الأجنبية الخاصة بالنصارى ، - وكان يتطلعان إلى العثور عليها بين أشيائى وأمتعتي ؛ وكنت أمانع في كل ما يأخذه مني ماجد هو ورفيقه الوغد بالقوة .

- وعندما خطر ببالى أنهما ربما يذهبان إلى حد السطو على مسدسي وأدواتي ، أبعدت كل هذه الأشياء عن متناول أيديهما ، ورحت أذكرهم بأمانة البدو الذين يزورونهم وينظرون إليهم بعين الاحتقار. ورد على ماجد بفضول الأطفال قائلا: "ولكنك ، يا خليل، تخضع لنا ولسلطتنا، والأمير يستطيع أن يطيح برأسك في أى وقت يشاء !" وذات يوم، وعندما سمعتهما عند الباب ، فردت البطانية فوق أشيائى المتناثرة ، وجلست فوقها ، ولكن كلمة "بذراك" bethr-ak بمعنى "عن إذنك" لا تجدى شيئا مع وقاحة هذين الشخصين ؛ - حدث أن وجداني جالسا على القرآن (المصحف) "قالا بتعصب شديد ، ها ! إنه جالس على المصحف !" - وسرعان ما انتقلت هذه الحكاية على لسان ماجد إلى القصر؛ وعاد إليّ ماجد العفريت ليخبرني أن الأمير استاء تماما عندما علم بذلك.

(*) موْتان : بفتح الميم وتسكين الواو ، وفتح التاء ، هو (وباء الماشية) . (المترجم)
(**) الكراون : قطعة نقدية تساوى خمسة شلنات . (المترجم)

حاول ماجد أن يثبت لي أنه صاحب طبع رقيق ، وإنه لا يختلف كثيرا عن والده فى هدوئه ورزانته ، وأنه دائما يتعلق بحياة الطفولة ، ولكنه بحكم تكوينه كان محبا لذاته ومستبدا بتصرفاته . كان من عادة ماجد ، أثناء سيره فى الشارع ، أن يضرب الأطفال المساكين بعصاه ويصيح قائلا : "الله يلعن أبوك !" ولم يكن هؤلاء الأطفال المساكين يقوون على منع ذلك الضرر أو مقاومته ، – والأفضل من بين هؤلاء الأطفال هم أولئك الذين يطلقون عليهم اسم "عيال الشيوخ" ؛ وهم يطلقون عليهم هذا الاسم لأنهم ينتمون إلى الأسرة المالكة ، أو إن شئت فقل : لأسرة الأمير . كان ماجد قاسى القلب وكثير الرغائب بالقياس إلى عمره الزمني ؛ ولكن كل أولاد الشيوخ يتربون على أيدى العبيد ! ولو قدر لهذا الماجد أن يصبح ، في يوم من الأيام ، أميرا على حائل ، فسيكون ذلك يوما مشئوما فى حياة هذه الإمارة ، اللهم إلا إذا انصلح عقلة ، وبدأ يستوعب التفاهم الإنساني أكثر فاكثر. ولما كان ماجد مليئا بسهولة العرب وسعادتهم ، فقد كان يعامل الناس بابتسامة مريحة مثل ابتسامة والده ، بل إنه كان يناديني مثل والده قائلا : "صديقه العزيز" ؛ ومع ذلك ، كان ماجد يستشعر أنني أغوص فيما وراء معناه الطموح . كان في ماجد الكثير من البراعة السامية ، Semite، مما جعله يلعب دور الوسيط ويساوم على ناقتى حتى أوصلها إلى أدنى سعر ، متصورا أنه سوف يحصل على ضعف الثمن (بعد أن تضع وليدها وتصبح من نياق الحليب) فى الربيع القادم ، وافقت على ذلك ، عن طيب خاطر ولكن "قال ذلك الأميًر ،لا ، إلا إذا أعطيتنى لجامها معها ،" (وهذا اللجام ثمنه يعادل ثلث ثمن الناقة) .– كنت فى كثير من الأحيان أروح أتأمل مدى ارتباطهم بكلمة الشرف ! فهم يظنون أنهم يحسنون التصرف بهذه الطريقة في العالم الذى يتبعهم ؛ الأعمال الإنسانية التى تقلد وتحاكي الأحلام التى تراودنا عن السماء ، هى مجرد كلمات جميلة على ألسنة شعرائهم ، ولكنها غير معروفة في تعاملات الشرقيين .

بينما كنت أسير خلال مدينتهم المبنية من الطين بناية جيدة والنظيفة أيضا خطر ببالى العيش فى تلك البلدة ، – اللهم باستثناء الخوف والرعب من الأمير ، والحياة المضطربة بسبب الغزو الذى يقوم به الأمير سنويا : ومع ذلك لم يكن يهمنا استياء أبصارنا من النظر إلى تربة الصحراء التى تحيط بهم من كل جانب ! ومدينة حائل

بحكم موقعها تعد مدينة وليست واحة ، أو بالأحرى تبدو كما لو كانت واحة ثم تحولت بالقوة إلى مدينة . دائرة المزارع من حول مدينة حائل ليست واسعة جداً ، وقد يستغرق الدوران حولها حوالي نصف الساعة ؛ والمدينة تقع على بعد مسافة كبيرة من صخور أجا Ajja (التى يطلقون عليها هنا في حائل اسم "المنيف" el-M'nif) (الصورة رقم ٦٤). هذه المدينة معزولة بسور من ناحية الشمال ، عن الهواء الصحى بفعل الجبال التى يطلقون عليها اسم سميراء Sumrâ حائل ، الأمر الذى يجعلها خانقة الهواء فى فصل الصيف . هذه الجبال السمراء من البازلت ، الذى تدفق نازلا (كما يبدو من بوابة مشهد) على جبل أجا شبه المدفون فى الأرض والمكون من صخور جرانيتيه ذات لون رمادى ضارب إلى الاحمرار ؛ وسميراء حائل عبارة عن جبل ذى لسانين يقفان إلى الوراء قليلا من المدينة ، على شكل نصف قمر ، ويمر من بينهما مجرى سيل حائل الذى يقولون إنه يأتى من قفار . والجبل الموجود ناحية الغرب منخفض عن سميراء حائل ؛ أما القسم الشرقى فيصل ارتفاعه إلى حوالى خمسمائة قدم ، وفى أعلى ذلك القسم الشرقى توجد خزانات الماء ؛ كما كانت هناك فى ذلك المكان محطة من محطات استطلاع العدو يوم أن كانت حائل ضعيفة .

الناس هنا يطلقون على جبال سميراء حائل العالية اسم أم Umm أركاب Arkab وهى منحدرة ، وذات صباح استأجرت جحشا jahash نظير ثمانية بنسات لأركبه إلى هناك . والأحجار السميكة المبعثرة على هذا الجبل هى من نفس نوع البازلت الأسود الذى يطلقون عليه هنا اسم الحرِّى hurri أو الحَرَّة hurra ، وهو ثقيل وصلب مثل الحديد وله صوت مدوى مثل الحديد أيضا أو المعادن التى تصنع منها الأجراس . "والسميراء" فى كلام بدو نجد تطلق على الصخور الصلبة السوداء فى الصحراء : ومعروف أنه اعتبارا من حائل وإلى الوصول إلى مكة نجد أن السميراء هنا مكونه من البازلت الأسود . والناس هنا أيضا يطلقون على الأدغال والشجيرات التى تنمو فى هذا البازلت الأسود اسم "الحزم" hazm ، والحزم ما هو إلا تل بركانى يوجد فى كل حَرة من الحرات . ومن فوق الرجوم وجدت أن حائل ، وأنا أنظر إليها ، تقع فى منتصف سهل طويل يطلقون عليه اسم سهيلات Sahilat الخُماشية el-Khammashieh، وأنها تقع بين مُنيف جبل أجا Ajja (الذى يرتفع من ذلك السهل إلى حوالى ٥٠٠ قدم)

وتلك الأرض المكسرة المنخفضة ، التى تحيط بتلك السهيلات Sahilat، إلى مسافة فرسخين فى اتجاه الشرق ، نحو سلمى Selma ، أو إن شئت فقل : "جبل" فدك Fittj ؛ وأرى من تحتى فى الاتجاه الشمالى الشرقى من حائل ذلك الذى يسمونه الخريمة el-khreyma ، التى هى عبارة عن ضيعة كبيرة من النخيل الصغير ، - من ممتلكات الأمير ؛ وعلى حد قولهم هنا ، توجد فى هذه الضيعة بعض الآبار ، أو إن شئت فقل : العيون التى يسقون منها ذلك النخيل !

بعض الشبان الصغار الذين كانوا يعملون فى الحقول ، كانوا قد رأوا النصرانى وهو يصعد فوق الجبل، ومن ثم ركبوا دوابهم وجاءوا خلفه يتعقبوه. قال هؤلاء الشباب ، إن فى الصحراء الموجودة فى الخلف كنوزا كثيرة مخبأه ، إذا ما كان الإنسان لديه العقل الذى يمكنه من استخراج ذلك الكنز ، وكرروا على مسامعى عبارة "جبل Jebel "طُمُّية" Tommieh ، وقالوا : إن هذا الجبل شهير فى كل أنحاء نجد "بالثروات المدفونة فيه" ؛ - والطُّمية تقع فى وادى الرماح er-Rummah ، الذى يقع جنوبى جبال أبنات Abanat التوأمية . بعد ذلك ، جلس على الأرض من بين هؤلاء الشباب شخص متعلم ، وبدأ يدون لى العلامات الأرضية المميزة ، التى كنت أراها فى الصحراء الخالية التى تحيط بى . وفوق قطعة من الأرض المرتفعة فى اتجاه الشمال أرونى ذلك الذى يطلقون عليه اسم قبر Kabr الصانع es-Sâny الذى يصل طوله إلى ثلاث قامات : "كانت قامة ذلك الرجل بمثل هذا الطول ؛ وقالوا ، إنه عاش فى زمن بنى هلال : وعندما طارده خيَّالة العدو ، راح يجرى أمامهم ومعه ولده الصغير الذى كان يحمله على كتفه ، وأنه سقط فى هذه المنطقة ." كل هذا السهل من ناحية الشمال اسمه كيزان Kisan (ويصح فيه أيضًا "جيزان" Gisan) مجلِّى M'jelly ، إلى أن يصل إلى قمم جبال طوال Tual على Aly التى تقع على حدود صحراء النفود ، وإلى جبل جلدية Jildiyyah ، الذى يبعد مسير رحْلة واحدة عن حائل ، ويشتهر بأنه المكان الذى تتجمع فيه جماعات الغزو الذى يقوم به الأمير . وهناك قرية فى اتجاه الشمال من حائل ، وتقع على بعد ميلين خلف السميراء ، وهم يطلقون على هذه القرية اسم السويفلى S'weyfly ؛ وقبل السويفلى هناك قرية مخرَّبة ومزرعة نخيل بدائية وأرض لزراعة القمح ، والناس هنا يطلقون على هذا المكان اسم قصر Kasr عربية Arbyiyyah وعَرْبيَّة والسويفلى هما حائل القديمة ؛

هذا يعنى أن مدينة حائل القديمة كانت مبنية على تربة أفضل وموقع أفضل فى الجانب الشمالى من السميراء Sumrâ . ثم أرانى ذلك الشاب بعد ذلك ، وهو يشير بيده ، أسفل منيف جبل أجا Ajja المكان الذى يطلقون عليه اسم ريع Ria أجدة Agda (ويصح فيه أيضا "آقدة" Akda) ؛ وريع أجدة هذا عبارة عن فجوة أو مضيق فى الجبل يؤدى إلى سهل عميق فى منتصف جبل أجا ، وأن هذا السهل ، على حد قولهم ، يبلغ من الكبر حداً يجعل مساحته تقترب من مساحة ربع Ruba هذه الدنيا ed-Dinya ، بمعنى "ربع عالمهم مخلخل السكان ." يوجد فى السهل نخيل تحيط به الصخور الضخمة ؛ هذا يعنى أن هذه المنطقة ما هى إلا واحد من تلك الخلجان الصحراوية التى تطل على الشرق ، وتكون شديدة الحرارة فى فصل الصيف . والمدخل الضيق المؤدى إلى هذا الخليج الصحراوى تتحكم فيه بعض البوابات ، وقام عبيد بتحصين ذلك المكان عن طريق قطعة من قطع المدفعية ، وريع أجدة هذا ، ما هو إلا ملجأ أمين لأهل حائل ، هم وكل بضائعهم ومنقولاتهم ، إذا ما قامت الدولة (الإمبراطورية العثمانية) عليهم بحملة من الحملات العسكرية ، التى يخشون حدوثها فى أى وقت من الأوقات . والجزء الشمالى ، إلى الخلف من المنيف ، أو إن شئت فقل : ساحل جبل أجا Ajja يطلق الناس عليه هنا اسم العويرض el-Aueyrith .

نزلت من فوق ذلك الجبل بصحبة أولئك الشبان ، وعزمونى على وجبة الظهيرة المكونة من التمر الذى أرسل إليهم فى الحقول . وبالقرب من المكان الذى كنا فيه رأيت شارعاً من الجدران المتداعية والمنازل الطينية المهدمة ، كما شاهدت أيضا أساس بيت قديم ضخم مبنى من اللبن لم يعد الناس يستعملونه بعد فى حائل . كان الشُمَّر قد أسسوا تلك المستوطنة منذ زمن بعيد ؛ والبعض منهم يقولون إن "المكان كان يطلق عليه فى بداية الأمر اسم الحاير Hayer ، بسبب وفرة المياه الجوفية فيه ." ومع ذلك فقد ورد ذكر اسم حائل فى قصيدة عنتر Antar القديمة . [وقد أتى بطليموس على ذكر هذا الاسم أيضا -- راجع كتاب سبرنجر Sprenger المعنون : "جغرافية الجزيرة العربية"]. وعلى حد قولهم هنا ، فإن مدينة حائل نقلت من هذا المكان بسبب انخفاض المياه الجوفية شيئا فشيئا . كانت حائل ، خلال الجيل الماضى ، أى قبل بداية حكومة ابن الرشيد ، عبارة عن واحة ، لا يزيد حجمها عن نصف حجم قفار ، التى هى موقع

ممتاز بحد ذاته ؛ ومع ذلك ، فإن حائل ، بلدة عبد الله بن الرشيد(*) ، عندما أصبح محافظا Muhafuth على غربى نجد فى ظل الحكم الوهابى ، كانت هى دوما العاصمة . والمدن المجاورة لحائل فى هذه الأيام تكاد تتساوى معها ، وقد قدر عدد سكان حائل بما يقترب من ٣٠٠٠ نسمة ؛ والناس هنا يقولون : إن سكان قفار ، الذين هم من بنى تميم ، وكلهم تقريبا من المزارعين يزيد عددهم قليلا عن سكان حائل . وبينما كنت أعود إلى بيتى من ناحية البوابة الشمالية ، مررت على ضاحية مهدمة يطلقون عليها اسم الوسيط Wasit والتى يفصلها مجرى السيل وحقولها عن مدينة حائل . قيل لى : إنه منذ سنوات قلائل كانت فى هذا المكان ، المهدّم حاليا ، "أربعين قهوة" ، بمعنى أنه كانت تعيش فى هذا المكان أربعين أسرة ، كان أصدقاوها يترددون عليها يوميا طلبا لشرب القهوة .

الوسيط فى الوقت الراهن ، ليست سوى أطلال بلا سكان ؛ هذا يعنى أن أهل الوسيط (شأنهم شأن أهل المناطق المدمرة من قفار والمناطق المدمرة من قرية مجوج) ماتوا قبل سبع سنوات بسبب الطاعون ، الذى يطلقون عليه اسم "وباء" Wāba . شاهدت حوائط منازلهم المبنية من الطين بلا سقوف ، وقد أوشكت على السقوط ، نظرا لنزع الأخشاب منها : هذا يعنى أن الناس هنا هجروا حقولهم وتخلوا عن آبارهم . يضاف إلى ذلك أن ملاّك وورثة وأصحاب هذه الأرض قد تخلوا منذ زمن بعيد عن أعمال السقاية والرى إلى حد أن النخيل جف وذوى ثم مات : وتلك قلة قليلة من أشجار النخيل ولكن أعرافها ليس فيها أى أثر من آثار الاخضرار . وقد رأيت بعينى قبل أن أغادر حائل أن الناس قطعوا تلك السيقان الميتة وتحولت التربة من جديد إلى إنتاج الحبوب . مات ثلاثمائة شخص فى منطقة الوسيط ؛ وفى حائل ، "مات من كل أسرة فرد واحد أو فردين (أى أن إجمالى الوفيات كان يتراوح بين سبعمائة وثمانمائة متوفى) ؛ ولكن الآن ، وبفضل من الله ، هؤلاء هم الأطفال نُشِّئُوا وأصبحوا يملأون غرفهم ؛ ولم يمت أحد من الأسرة المالكة التى كانت تتغذى تغذية جيدة ! كان البدو

(*) عبد الله بن الرشيد : هو مؤسس حكم آل الرشيد وضع نفسه فى خدمة السعوديين ، وعاون الأمير السعودى فيصل بن تركى فى استعادة حكمه وكافأه الأمير فيصل بأن جعله حاكمًا على جبل شمر ومنحه لقب "محافظ" ، وحكم فى الفترة من ١٨٣٥ إلى ١٨٤٧ . (المراجع)

الذين يتزورون حائل ، خلال فترة ذلك الوباء ، يموتون أسرع من أهل المدينة نفسها ؛ ومع ذلك كانت العدوى فى الصحراء أخف بكثير جداً ، ولم تعم منازل البدو على شكل وباء فتاك . كان ذلك المرض يصيب الأمعاء والرأس ؛ بعض الناس كانوا يموتون فى يوم الإصابة والبعض الآخر كان يستمر فترة أطول من ذلك . كانت أعراض الإصابة بالطاعون عبارة عن بقعة سوداء تظهر على الأنف ، وحدوث تغيير فى لون الأظافر . وكانت الآلام تشبه الآلام الناتجة عن الإصابة بالكوليرا . وبعد الطاعون ، أصابت البلد حمى دامت عامين ، إلى حد أن أولئك الذين بقوا على قيد الحياة بعد الطاعون ، كانوا يحملون جثث الموتى على الحمير (بعد أن خارت قواهم وعجزوا عن حمل جثث الموتى) . فى ذلك الوقت ، كان واحد من الحضر قد جلب بعضا من الكنين من الشمال ، وراح يبيع كل "عشرة أو اثنى عشرة ذرة بخمسة ريالات لكل من يطلب ذلك الدواء ؛ وقد أخبرنى ذلك الحضرى ، أن ذلك الكنين ، عندما يتعاطاه المريض بعد جرعة مطهرة من الملح الإنجليزى ، يشفيه من الحمى" . هذه الوفيات الكثيرة حدثت فى عهد الأمير بندر(*) Bunder ، أى قبيل بداية حكم الأمير محمد بفترة وجيزة ؛ والناس هنا ينظرون إلى عهد الأمير محمد باعتباره عهداً زاهرا وأنهم "لم يشهدوا له مثيلا من قبل ، ولم تحدث خلاله أيه كوارث عامة ." والآن تشهد السيادة الشمرية قمة نضوجها : وبعد هذا النضوج السريع الذى قد يتحول إلى تحلل سريع على أيدى بعض الناس الذين ليست لديهم القدرات أو المواهب التى تمكنهم من إدارة ذلك الذى جرى الحصول عليه عن طريق العنف القتالى ، أو عندما ينحسر عنهم من هذه الدنيا .

من حيث الدمار والخراب تجىء مقبرة حائل الواسعة ، بعد منطقة الوسيط التى تقع بين أسوار المدينة وصخور السميراء المنخفضة الوعرة . والأغنياء والفقراء الذين تنتهى حياتهم الدنيوية ، يدفنون هنا ، فى هذا المكان ، فى هذه الأرض الصحراوية التى كانت تتبناهم وتربيهم فى يوم من الأيام ، ونحن لم نرى أية فروق فى الدفن هنا

(*) الأمير بندر بن طلال ١٨٧١-١٨٧٢ : اغتصب حكم جبل شمر من الأمير متعب بن عبد الله . وفى عهده القصير عصفت الكوليرا بالبلاد ، وفقد عرشه وحياته قبل أن تنقضى سنة واحدة على حكمه حيث اغتاله الأمير محمد بن الرشيد الذى تولى الحكم من بعده ١٨٧٢-١٨٩٧ ، وفى عهده كانت زيارة «دوتى» لمدينة حائل . (المراجع)

اللهم في اختلاف المكان ليس إلا . وقد دفن طلال وعبيد بين من دفنوا في هذا المكان . والقبر هنا عبارة عن كومة صغيرة ، عليها شاهد عبارة عن كتلة من البازلت يأتون بها من تل البازلت ، والقبور كلها هنا على هذه الشاكلة ؛ ويندر أن يرى الإنسان هنا شاهدا من شهود المقابر التي تحمل نقوشًا أو كتابات ، من قبيل الاسماء التي كان المتوفون يحملونها في يوم من الأيام ، وفي بلدان الحدود السامية تروج خرافة طويلة عن القبور ؛ وكفن الموتى هنا هو الرداء البدوى البسيط بدون أية زينة . في جانب من جوانب المقبرة يوجد قبر عبيد ، ذلك الرجل الذى ذاع صيته وقوته وسلطانه وجبروته يوم أن كان في سدة الحكم : كل ذلك أصبح الآن في عداد الذكريات ؛ وهاهو يرقد في كفنه على عمق باردة واحدة أسفل هذا الحصى والزلط ، ومكتوب على شاهد قبره كلمة واحدة هي "عبيد Abeyd ابن Bin الرشيد ." وعندما سألت ماجد ، "هل سيده عبيد العجوز ، يرقد مرتاحا في الأرض حاليا ؟" بدا صدى كلامي غريبا على أذنيه ؛ والسبب في ذلك أن الناس في هذه الأرض الفقيرة لا يدفعون النقود ثمنا إلا للأشياء التي يحتاجونها في حياتهم ؛ ومن هنا يصبح رأيهم مثل رأى زوجة باث Bath التي مفادها ، "المبالغة في الدفن نوع من التبذير ،"– وهم يقلدونها أو على العكس من ذلك يتبعونها في ترفها. والناس هنا يقولون لمن يموت "خلاص" ! Khalas بمعنى "لقد انتهى أجله"، وهم يطوون تلك الذكرى الأليمة بشيء من الحكمة ودون مبالغه في الحزن .

فيما بين المقبرة وبوابة المدينة هناك مَنْزَل صغير يقيم فيه بعض البدو المستقرين . وهم يعتمدون على إحسان القصر ؛ وبالرغم من مظهرهم البائس إلا أن البعض منهم من أقارب الأسرة المالكة . وهم يقيمون سورا من الطين من حول خيامهم من الخلف ، والبعض منهم لديه غرفة (قصر) مسقوفة بقماش الخيام ، أو برج منخفض داخل المبنى الطيني نفسه . هؤلاء البدو من الشّمر ، الذين يرسلون ماشيتهم القليلة مع أبناء قبيلتهم كي ترعى في الصحراء ؛ هؤلاء البدو المستقرون ينتقلون إلى الصحراء في شهور الربيع ، لينعشوا أنفسهم بموسم الحليب الذى يستمر فترة قصيرة ، وبينما كنت أمشي بجوار تلك الخيام ، نادتني امرأة من خيمة مهلهلة ، هي الأكبر من بين كل هذه الخيام ؛ "هل لديّ دواء لالتهاب العيون وتورمها ؟" وقالت لي من خلال حديثها أن أختها كانت زوجة للأمير متعب وأنها كانت "عمة" محمد الأمير الحالى . وقالت إن أولادها

هربوا فى زمن الاضطراب وما زالوا يعيشون فى الديار الشمالية . وعندما أتت هذه المرأة على ذكر اسم الأمير راحت تتكلم همسا - وتركز بصرها على القصر ، مخافة أن يحمل الهواء كلماتها على جناحيه ويذهب بها إلى أذن الأمير . كانت تقف إلى جوار هذه المرأة ابنتها اليافعة بدون حجاب ؛ ربما كانت تلك الابنة غير متزوجة ، إضافة إلى أن المسلمين لا يغارون من النصرانى أو يحسدونه . كان خداً الصبية يتوردان ، وأنا لم أرى مثل هذه البشرة من قبل فى امرأة بدوية ، لأنهن كلهن واهنات وشاحبات ، أما هذه الصبية فهى مختلفة ويبدو أنها تربت فى الديار الشمالية الغنية بالغذاء والطعام . عددت خيام هؤلاء البدو المستقرين فوجدتها ثلاثين خيمة ؛ كانت هناك خمس عشر خيمة أخرى بالقرب من بوابة قفار ؛ وهذه الخيام أقامها بعض من بدو الشمر شبه المستقرين ، ولكنها لم يكن حولها بنايات من اللبن .

ملحق الجزء الأول(*)

[الملاحظة التالية القيمة هي بقلم مؤلف كتاب "سوريا الوسطى" ، ولم تصلني في الوقت المناسب كي أضمها لهذا الكتاب في المكان المخصص لها بعد الفصل السادس].

عمارة الأنباط المنحوته في مدائن صالح . ملاحظة : بقلم أم M ماركيز فوج (عضو المعهد) :

فنشال ، ٢٤ يناير ١٨٨٦

أنت تطلب مني يا سيدي أن أعطيك رأيي في أسلوب الآثار التي اكتشفتها ، والتي كلفتك مجهودات كبيرة ومخاطر جسيمة. سؤالك يحتضنني قليلاً: أنا في "مادير"، بعيداً ، منذ ما يقرب من عام ، عن كتبي ومذكراتي : لم أستطع أذن سوى كتابة ذكريات : التأملات التي أوحتها لي رسوماتك سوف لن يكون لها الانتشار الذي كنت أحب أن أعطيه لها : إنني أوجهها لك مع ذلك ، على أمل أنها سوف تكون نافعة لك .

الفائدة الرئيسية لمجموعة مقابر "مدائن – صالح تكمن في تاريخها : فهي تقدم إذن قاعدة غير قابلة للنقاش لتقارب الآثار . كل هذه الآثار نفذت في القرن الأول من عصرنا ، وبالنسبة لأغلبيتها ، فقد بنيت في النصف الأول من القرن نفسه . فلهم وحدة شكل بارزة . ونرى أنهم قد صنعوا في نفس الزمن من فنانين من نفس المدرسة ،

(*) ورد هذا الملحق باللغة الفرنسية وقد ترجمته السيدة أسماء درويش مديرة مدرسة ليسيه الحرية الفرنسية ، في شارع الهرم ، محافظة الجيزة – جمهورية مصر العربية .

يمتلكون عدداً قليلاً من النماذج . يمكن أن نندهش ، لأول نظرة ، أن منطقة سكنت قديمًا لا تحتوى على آثار على طول وجودها ، إذا لم يكن هذا العمل عامًا . إن سوريا وفلسطين ، وبالرغم من الحضارة القديمة جداً فى هذه البقع ، لا تحتويان تقريبًا على آثار تسبق العصر اليونانى : فيما عدا بعض الاستثناءات ، وهى المقابر العديدة ، المنحوتة فى الصخرة ، والتى تشق جميع جبال هذه المناطق ، هى لاحقة للإسكندر ، وأيضا لاحقة إجماليًا للمسيح . هذا هو على الأقل رأيى ، والآثار التى اكتشفتها تعطى تأكيداً جديداً .

إن الشكل الإجمالى لهذه المقابر ، هو شكل برج نصف مجوَّف ، فى سطح الصخرة : وفى قاعدة البرج باب يؤدى إلى الحجرة الجنائزية : سطح البرج مقسم إلى عصابات أو أفاريز التى تفقدها التشابه ؛ القمة متوّجة بنوع من التحزيزات منحوتة على شكل مدرج (سلم) وبعض واجهات هذه الأبراج مزينة بعضادات :

وهذا العدد الصغير ؛ من رسومك تشير لذلك ، خاصة أربعة منها تستحق التوقف بعض الوقت : وهى الآثار التى تأتى واحدة منها من "برج" والأخرى من "قصر البنت" واللتان ذكرتا فى ص ١٤٥ و ص ١٤٦ من كتابك ، ثم الآثار التى ذكرت تحت اسم "بيت أخرانمات" (ص ١٥٥) ومحل المجلس ص ١٥٧ .

الأول مزين بعضادتين تحملان une aichitiave وإفريز ؛ والركائز (الدعامات) كان يجب أن تتوج بأعمدة كورنثية (على الطراز اليونانى) ولكنها بقيت بلا استكمال: اكتفى النحات بترقيقهما : فقد وضع فى قاعدتهما حلقات لصنفين من ورق أبو اليهود ، - وفى زواياها العليا بروزين للحلزون والأوراق التى يحملونها ؛ وفى وسط Pábaque ، يوجد بروز لزخرفة الورود . إن الزخارف الطولية (الكرانيش) للـ architave مقتبسة من الفن اليونانى ؛ الإفريز على العكس فهو يحاكى الإفريز المصرى ؛ أما ما يخص التحزيزات أو أعلى البناء فهو مقتبس من مقابر بترا ، فهى تبدو وكأنها تذكرة للفن الآشورى . زخرفة الباب على نفس الطراز المهجن : الأعمدة التى على جانبها كورنثية ، غير مستكملة ؛ lárchitave يحاكى dorique الخاص بالعصر الأدنى ـــــ .

إن مدخل المبنى فهو يحاكى الأيونية des acrotries لا شكل لها تزين زوايا مدخل المبنى والذى يعلوها شكل مغلظ لنسر .

إن الرسم الذى أعطيتـه (...........) له نطاق واسع ، لباب مـشـابه ، يسـمح بالتقدير الكامل لخاصيته .

Les tuglyphes والورود على الطراز الذى سنطلق عليه اسم توسكان ، إذا كان التاريخ والمكان لا يستثنى أى تدخل من المعماريين الرومان . ويجب الرجوع إلى بيت المقدس ، وإلى مقابر وادى جوزافات ، حتى نجد شبيهاً لها .

المقبرة الثانية هى لقصر البنت ، وهى تقريباً شبيهة بالسابقة : eárchitiave أكثر تكاملاً ويعلوها إفريز : ولكن التفاصيل مشابهة تماماً : تيجان الأعمدة لم تستكمل .

إن الآثار التى تطلق عليها محل المجلس وبيت أخرائيمات لا تختلف عن الأولتَين سوى بالمقاسات الأكثر كبراً وثراءً . إحداها بها أربعة دعامات (ركائز) وتتابع من الدعامات ؛ والأخرى بها نظامان من الركائز (الدعامات) وباب مزين كثيراً : ولكن الطراز مشابه تماماً ؛ وهم متساوون من حيث أنهم غير مستكملين .

إن التكوين الداخلى لهذه المقبرة مشابه لوضع الآثار فى سوريا وفلسطين : غرفة جنائزية منحوتة فى الصخرة ، وبها فتحات لاستقبال الجثث : الفتحة منحوتة فى أرض الغرفة أو فى الجدران الجانبية ، موازية لهذه الجدران : كل هذه الأشكال توجد فى سوريا وفلسطين : ولكن مقابر هذه المناطق تحتوى بالإضافة لذلك على شكلين لا نراهم هنا ، على الأقل فى الآثار التى رسمتها : وهذا هو الشكل المسمى أوكوزوليوم والمنتشر جداً فى شمال سوريا ، والأفران عمودية على جدران الصخرة وهى كثيرة جداً حول بيت المقدس . ومع ذلك جميع هذه الآثار هى من نفس العائلة . والفتحات تحمل نقوشا لمدائن صالح ، اسم جوخ والقريب جداً من كلمة كوك والتى كان اليهود يطلقونه عليها.

إن الأثر الوحيد غير الجنائزى من بين هذه المجموعة هو الذى يسمى بـ "الليوان".

وهو كهف صناعى ، مفتوح من الخارج برواق قد تهدم اليوم وكان يستخدم كمكان للصلاة ؛ إن النصب التذكارية العديدة والمنحوتة فى الصخرة لا تترك أى شك

لهذا الموضوع : واحدة منها بها نقش تقرأ عليه اسم مسجدة . وهي من خصائصه ، وأنه أصبح كلمة مسجد . بنى الكهف بعناية : يحيط به إفريز من الداخل ، ودعامات تزين الزوايا والكل مكون من عناصر يونانية . إن التفاصيل التى رسمت على الصور ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ من نشرة الأكاديمية وهى أيضاً مقتبسة من الفن اليونانى ؛ ولكن يمكن أن نقول أنها تحاكي آثار العهد القديم : أعمدة متزاوجة ، الأقواس سواء فارغة ، أو ركيزة على les aichivages أو عضادات وهى أشكال تعودنا أن نعتبرها كعمل مهندسين معماريين رومان : آثار بترا كانت قد هزت هذا الرأى ؛ ولكن بما أنها لم يؤرخ لها ، فالنقاش كان مسموحًا ؛ بينما فى مدائن صالح وجود تواريخ تتحدى كل هذا الخلاف .

وباختصار ، الآثار التى اكتشفتها تؤكد ما عرفته دراسة آثار بترا وسياه ، فى الحوران ، وأيضًا علم السك ، وهو وجهة نظر الفن الملكى النبطى كان قد أدخل من اليونان : الفنون السابقة لآسيا كانت ممثلة في بعض الأذكار . كان الفنانون نبطيين : إن من سياه وبترا . كانوا ذوى مهارة حقيقية ؛ أما فى مدائن صالح فكانوا قاطعى حجارة يحفرون الصخر بقوة واتساع (وفسحة) ولكن لم يكن يعرفون نحت التفاصيل : ولكى ينتهوا من أعمالهم فقد انتظروا بدون شك من بترا حفارين لم يأتوا بعد .

إن النماذج اليونانية المحاكاة من هؤلاء الفنانين الشرقيين تحتوى على أشكال عرفت بالانحطاط : ويجب أن نرد مصادر هذه الأشكال إلى ما قبل العصر النبطى وفى النهاية ، وعند محاكاة الآثار اليونانية كان الفنانون الشرقيون يخلطون الترتيب ، ويجمعون les triglyphes dosiques مع تيجان الأعمدة الكورنثية والأفاريز الأيونية وأيضاً مع الإفريز المصرى .

هذا الجمع المهجن الذى كان قد لوحظ في المقابر التى تحيط ببيت المقدس ، توقف عن كونه استثناء : هو عمل عام يميز منطقة وعصر (نهاية العصر القديم وبداية الحديث) ؛ إن النقاش الذى أثارته آثار بيت المقدس قد أغلق نهائيًا ، ولم تكن واحدة من أقل الخدمات التى قدمتها باستكشافك الشجاع وهو أنك قد خلصت علم النظريات النزوية التى أربكت بعض العقول .

تفضل سيدى بقبول التعبير عن أخلص الحب والمشاعر .

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســن كامـــل